يسوع في حياته

أديب مُصلِح

يسوعُ في حياتِهِ

الجزءُ الأوّل

منشورات المكتبة البولسية

طبعة أولى

٢٠٠٦

❊

جميع الحقوق محفوظة

❊

مَنشُورَاتُ المَكْتَبَة البُولسِيَّة

جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب. ١٢٥

هاتف: ٩١١٥٦١ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦

بيروت – شارع لبنان – هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس: ٠١/٤٤٤٩٧٣

زحْلة – شارع سيّدة النجاة – مقابل مطرانيّة الروم الكاثوليك – تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧

إهداء

إلى بسيمة ،

رَفيقةِ عُمْري ،

أُهْدي كِتاب عُمْري .

بِفَضل صَبْرِكِ الجَميل ، الطَّويل ، المُتَفَهِّم ،

أَتَحْتِ لي إنجازَ هٰذا الكِتَاب ، وَكُلِّ ما كَتَبْتُ ،

فَلَكِ عَميقُ شكْري مَقْرونًا بأَخلَصِ مَحبَّتي .

أديب مصلح

يا يسوع (*)

وُلدتَ في ديارنا، منذ نحو ألفي عامٍ. وبعد ثلاثين سنةً من الخفية، انطلقتَ تنشر بُشرى خلاصك، فكانت بشراك تفجُّر حياةٍ وحرّيّةٍ.

بيد أنّ أعداء الحياة والحرّيّة لم يمهلوك أكثر من ثلاث سنوات، ناصبوك فيها العداء، وصبّوا عليك فيض حقدهم، إلى أن صلبوك، ودفنوك.

ولكنّك، بصليبك، قهرتَ حقدهم، وأجهضت مراميهم. ومن القبر الذي سجّوك فيه، ودحرجتَ حجره، انبثقتَ انبثاق الشمس، ونشرتَ أشعّة الرجاء والتحرّر في العالم أجمع.

ومثل الحبّة الطيّبة المودعة في تربةٍ جيّدة الحرث، أخصبها غيث روحك وشمسه، آتت تعاليمك حصادًا وفيرًا، حمله رجالٌ بسطاء ملأتهم قوّتك عزيمةً وقداسةً، فغذّوا به العالم.

* *

نكاد لا نصدّق، يا يسوع، أنّ ألفيّتين انصرمتا مذ غادَرتَ كوكبنا. فأنت ما زلتَ بين ظهرانينا، تفيض حياةً، نسمع خفقات قلبك، ويغمر نفوسَنا حضورُك الآسر؛ تنير عقولنا، وتوسّع آفاق أذهاننا، وتضرم نار حبّك في قلوبنا. إنّك أقرب إلى ذواتنا من جميع من نحبّ، إنّك مبرّر وجودنا، ودافع مسيرتنا، وهادي تطلّعاتنا.

* *

عبورك، في الزمن، على الأرض، كان خاطفًا، كان لحظةً في مشوارك من الآب إلى الآب. ولكنّه فجّر هزّاتٍ ما برحت ترتجّ بها أرضنا.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «يسوع»، صفحة ٢٨.

أنت لم تخلّف مؤلّفاتٍ، ولا نظامًا فلسفيًّا أو اجتماعيًّا، لأنّك أبديٌّ، وتواكب كلّ العصور. بل تركت لنا روحك الذي يُلهم كلّ حقبةٍ مُثُلَها وواجباتها، وقدوةَ حياتك، موقد نورٍ كفيلاً بالهداية إلى محاجّ القداسة والكمال، في كلّ وقتٍ ومكانٍ، وحفنةً من الأقوال تكفي فقراتٌ منها كي تنير عصرًا كاملاً، وتوجّهه.

لم تضع برنامجًا اجتماعيًّا، أو سياسيًّا، أو دينيًّا. ولكنّك تلفّظتَ بأقوالٍ، وكانت لك مواقف زعزعت الأنظمة الاجتماعيّة، والسياسيّة، والدينيّة القائمة. وغرستَ سيفك في صميم الإنسان، مسيلاً نُسغك في أوصال البشريّة التي ابتغيت تغييرها والارتقاء بها نحوك.

فأنت وحدك كفيلٌ بخضّ الكون، ومثل عاصفةٍ روحيّةٍ، تقوى على الإطاحة بآفاقنا الضيّقة الفرديّة والجماعيّة. ولا شيء في المجتمعات، والأخلاقيّات، والسياسات، والحياة الروحيّة، يظلّ جامدًا حيال براءة نظرتك. فمنذ ولادتك، وحتّى أنتَ طفلٌ غافٍ، قطنت البشريّةَ رغبةٌ في تغيير العالم وتجديده.

لقد أَوْريتَ في العالم ناركَ المنعشة التي تلتهم كلّ صغارةٍ ودناءةٍ، وكلّ أشواك الشرّ، نارًا تنير وتدفئ، وتضرم في القلوب نيران المحبّة، والتضحية، والصبوّ إلى القداسة.

* *

وقد جمع نفرٌ من تلاميذك وشهودك باقةً من أقوالك الخالدات، وأفعالك السنيّات، وألّفوا منها إنجيلك، بشراك الخلاصيّة. ومع أنّها غيضٌ من فيض ما قلتَ وفعلتَ، إلاّ أنّها كنزٌ ثرٌّ، ونبعٌ سيظلّ، أبدًا، يتفجّر حياةً نديّةً، جديدةً، مجدّدةً، ونورًا يهدي الجميع إليك، يا الله!(*)

ليس إنجيلك مجرّد كتابٍ، وإلاّ لكان امتياز فئةٍ عالمةٍ، وأنت تريده غذاءً روحيًّا لكلّ نفسٍ. ولا هو مجرّد تعليمٍ، ممّا يستدعي أبحاثًا وثقافةً، وأنت خاطبتَ، من خلاله، قلوب الصغار والبسطاء الّذين استجلوا حقيقتك خيرًا من الحكماء والعلماء، وأردته «قوّة الخلاص لكلّ مؤمن» (روما ١: ١٦). الأناجيل، يا يسوع، هي أنت حيًّا إلى الأبد.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: الإنجيل معين حياة، صفحة ١٨.

بفضل أُلوهتك، وأبديّتك، وتجسّدك، وقدوة حياتك، غدا إنجيلك يخاطب كلّ فردٍ، في كلّ جيلٍ، ويدعو جميع الناس، في كلّ القرون، وبات بمتناول كلّ قلبٍ صافٍ أن يستجيب لندائه، وأن يؤخذ بسحره.

إنّ لإنجيلك تردّداتٍ في جميع مناحي الحياة، لا تهدأ. وحريٌّ به أن يظلّ الخميرة والنور في حياة مجتمعاتنا، وإلاّ لمات واندثر. ولكنّ موته مستحيلٌ، لأنّك، أنت يا يسوع، قهرتَ الموت، وبقيامتك تخفق قلوب من ينصتون إليك، فيبذلون ذواتهم لتغيير العالم.

بعد عشرين قرنًا، ما زال الملايين يتحدّثون عنك، وكأنّك معاصرٌ لهم. وما انفكّوا يطالعون، يومًا إثر يومٍ، صُفَيْحات إنجيلك المعدودات، التي تحيي ذكرى ما قلتَ وفعلتَ، في غضون الفترة الوجيزة التي اعتلنتَ فيها للعالم، فأحدثت تمزّقًا وتألّقًا غيّرا، جوهريًّا، رؤية البشر للّه، وللإنسان، وللعالم، بحيث لم يعُد بمقدور أحدٍ أن يمحو الدمغة التي مهرتَ بها التاريخ.

«حياتك» هي التي ما زلتَ تحياها، يومًا فيومًا، في قلوب البشر الذين اتّخذتَ على عاتقك شقاءهم وآمالهم، مرّةً وإلى الأبد.

لقد كلّمتَ جميع البشر بلغةٍ يفهمونها، وتنفذ إلى أعماقهم، فغدا بمكنة كلّ إنسانٍ أن يكون لك تلميذًا، وهو محافظٌ على لغته، وثقافته، ووطنيّته، بلا تعصّبٍ، ولا تزمّتٍ، وأن يقابل بالحبّ السمح كلّ إنسانٍ في العالم.

* *

شكرًا لك، يا يسوع، لأنّك جعلت من ذاتك الطريق التي ننهجها على غير خشيةٍ من التيه، والتي يتعيّن علينا التقدّم عليها بلا توقّفٍ حتّى بلوغ غاية مطافنا في بيتك السماويّ.

وشكرًا لك، لأنّك جعلتَ من ذاتك الحقيقة الكفيلة بوقايتنا من الضلال، الحقيقة التي لا تُمتلَك، مرّةً ولكلّ مرّةٍ، بل لا بدّ من استلهامها، والتبحّر فيها، لدى كلّ خطوةٍ، وفي كلّ لحظةٍ، والتي، بفضل السير معك، تتجلّى، كلّ يومٍ، أشدّ نصاعةً.

وشكرًا لك لأنّك جعلت من ذاتك نبع حياةٍ، حياةٍ هي مسيرةٌ دائبةٌ، واكتشافٌ مستمرٌّ، وبذلٌ بلا حدودٍ.

* *

لقد أمسى كلّ سعيٍ إلى إصلاح المجتمع، وإرساء أُسس السلام عقيمًا وفاشلاً، ما لم يقم على مبادئ إنجيلك.

وكم نأى حكّام العالم، حتّى الذين يدّعون، زورًا وبهتانًا، الانتماء إليك، والعمل بهديك، عن تعاليمك ومشيئتك، فتردّوا إلى أبشع سياسات القمع والاستغلال والاستبداد، وانتهاك الحرّيّات والحرمات، بحيث قيل إنّ القرن العشرين قد تخطّى، في جرائمه، كمًّا وكيفًا، كلّ الحقب السابقة، وإنّ الإنسان أصبح آلة قتل! لقد كان القرن المنصرم قرن القلق والريبة، إذ حاول العنف والشرّ تكذيب بشراك التي أُعلنت للودعاء ومتواضعي القلوب. غير أنّ البشريّة لم تعِ، يومًا، مثلما وعت في عهدنا، بشاعة الحروب، والتعذيب، والمظالم، التي تُرتكَب في أيّ مكانٍ، وأيًّا كان مرتكبها.

كم من الأموال الطائلة التي تُنفق على تطوير أسلحة القتل والتدمير، في حين أنّ جزءًا زهيدًا منها كافٍ لإشباع ملايين إخوانكَ، يا يسوع، الذين ينفقون جوعًا ومتربةً، ويقارعون البؤس، يائسين!

قنبلة هيروشيما، وحدها، حصدت مئات ألوف الضحايا، واليوم قد تراكمت ألوف الرؤوس النوويّة الكفيلة بتدمير ملايين المدن، ومليارات البشر. فما من خيارٍ أمام البشريّة سوى المحبّة أو الفناء، التآخي أو التذابح، ولم تعد المحبّة التي طالبتَ بها العالم، يا يسوع، نافلةً أو اختياريّةً!

وكم من يشيعون القتل والدمار، بُغيةَ فرض معتقداتهم وقِيَمهم، ورؤاهم! وكم من المجازر المروّعة التي يرتكبها أبناء الوطن الواحد، لعجزهم عن قبول الآخر المختلف قبليًّا، أو إثنيًّا، أو دينيًّا!

والذين صلبوك، يا يسوع، لأنّك هدّدت تجارتهم ومراكزهم، وكَلَفهم بالسيطرة، واستئثارهم بكلّ ما يقع بمتناول أيديهم، ما برحوا يصلبون إخوتك، في كلّ مكانٍ، ولا سيّما في مسقط رأسك، وفي الديار التي درجتْ على أديمها سنواتُ طفولتك وشبابك، وفيها بلّغتَ رسالتك. إنّهم، بأموال سُحتهم، أي بالمال الحرام، يشترون

ضمائر حكّام العالم، وعبر وسائل إعلامهم الخبيثة، يدسّون السمّ في عقول قطاعاتٍ واسعةٍ من البشر، بُغية إحكام سطوتهم على كلّ شيءٍ.

وكم بين من يُفرَض فيهم تمثيلك، يخونونك، وبين من يدّعون التكلّم باسمك يشوّهون وجهك!

الذين نأوا عنك، وعبدوا أصنامًا من صنع أيديهم، عزفوا عن معرفتك، ومعرفة من أين أتوا، وإلى أين يمضون، ومعرفة سبب وجودهم. خيّل إليهم أنّهم تحرّروا من الأوهام، فهووا إلى حيرةٍ قاتلةٍ. ظنّوا أنفسهم صُدفةً تلتمس السعادة، فإذ بالسواد الأعظم منهم يغرقون في تعاسةٍ سحيقةٍ. اعتقدوا أنّهم ينتهون بالموت، فانتهوا إلى القنوط والعدم.

وما الأزمة الناشبة بالعالم، اليوم، والنابعة من الثورة المباغتة التي غيّرت، جوهريًّا، ظروف الحياة، إلاّ نتيجة استبدالها قِيَم إنجيلك بقِيَمٍ خاليةٍ من الحبّ، والإخاء، واحترام الإنسان، والعمل بمشيئة أبيك. لقد محت فكرةَ الموت من الأذهان، وانتابتها حمّى التمتّع الفوريّ بكلّ ما هو بمتناولها: المال، والطعام، والرفاه، والجنس، وشتّى المُتع. لقد صدفتْ عن ملكوتك وركّزتْ أبصارها على ملكوت الأرض، وعليه وقفت هواها، مأخوذةً بنشوة إنجازاتها، وإحكام سطوتها على بعض قوى الطبيعة، كما لم تحكمها، قطّ، من قبل.

غير أنّ كلّ تلك الإنجازات التي تمّت بوسائل مادّيّةٍ، في سبيل غاياتٍ مادّيّةٍ، أخفقت في ملء الفراغ الذي يسود النفوس. فأيّ إنجازٍ تقنيٍّ، مهما بلغ من إدهاشٍ، استطاع الترقّي بالأرواح، وتطييب القلوب، كما فعلت إنجازات من كان حبُّك ومثالك، يا يسوع، رائدهم ودافعهم، أمثال القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ، وغانديّ، والأمّ تيريزا الكلكتّاويّة، وقوافل أترابهم في كلّ عصرٍ ومكانٍ؟

لقد أجابت خادمتك الأمينة، الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة، عندما سُئلتْ عن سبب عكوفها على خدمة «نفايات» المجتمع، بقولها: «إنّ يسوع حاضرٌ في أجساد أولئك البائسين المحطّمة. وبخدمتي لهم، أخدم يسوع. إنّ أخطر أمراض عالمنا، اليوم، ليس البرص، ولا الإيدز، بل شعور المرء بعدم جدوى وجوده، وبنبذ المجتمع له. أخطر شرٍّ هو انعدام الحبّ، واللامبالاة الرهيبة حيال القريب. إنّ الفقراء يحتاجون إلى

الاهتمام بهم، أكثر من حاجتهم إلى الطعام، والفيتامينات، والمأوى، وكثيرون من غير الفقراء يعانون الحاجة عينها».

كم من المآسي، يا يسوع، تضرّج بالدماء دروب البشريّة، باستمرار! فمتى ستنتهي إهانة البشر، وينتهي انتهاك قدسيّة وجه أبيك؟!

إنّ الأنباء الواردة، كلّ يومٍ، من أرجاء العالم كافّة، لا تني تقرّ بالواقع المقلق: فبؤَر الحروب تشتعل هنا وهناك، والتعذيب والإرهاب متفشّيان في العديد من البلدان، وبعض الدول الكبرى تمارس الاستعباد والاستغلال بصَلَفٍ وقحةٍ يثيران الاشمئزاز، وقارّاتٌ بأكملها تتضوّر جوعًا، وتئنّ سقمًا... فمتى سنتعلّم الحياة؟

ثمّة قدّيسون معروفون ومجهولون يُشرعون، هنا وهناك، دروب نورٍ، والناس يُعجَبون بهم، أو يتجاهلونهم، أو يضطهدونهم، ولكن متى ستتفجّر ثورة الحبّ في قلب الجماعات؟

يبدو، أحيانًا، أنّ خميرة مستقبل الله تتململ في قلوب البشر، وتتراءى بعض مبادراتٍ يوميّةٍ، مثل نباتاتٍ هشّةٍ، تنبئ بانتفاضة ربيع حياةٍ، حتّى ولو بدا الشتاء ما برح رابضًا، مقيمًا.

وفوق صخب الأحقاد، وسيول الدماء، وشراسة الأنانيّات، يتعالى همسك الرقيق المزلزل، مردّدًا عظتك على هضبة الجليل، ودعوتك إلى دفن البغض والحقد، وإلى الصفح بلا حدودٍ، وحبّ القريب كالذات، بل حتّى حبّ العدوّ المُعلَن أو المموّه. هذه الدعوة هي اختصاصك وامتيازك. وهي أسمى ما يطمح إليه البشر، والأمل الوحيد في سلام شعوبٍ تحفزها الأنانيّات على التصارع والتقاتل. ولن يتمّ لهم الخلاص، إلاّ بالاستجابة لندائك، وإلاّ بإخضاع كلّ مبادراتهم إلى دافع الحبّ الذي علّمته.

ولن يفرغ تلاميذك، يومًا، من الإصغاء لدعوتك إلى التيقّظ والعطف، وإلى إسباغ سنى حبّك على كلّ علاقةٍ، تمثّلاً بأبيك الذي يجود بشمسه وبغيثه على الصالحين والأشرار بلا تمييزٍ.

إنجيلك صيحة إنذارٍ، وتيّار هواءٍ منعشٍ ومبعث قلقٍ خَصْبٍ يحدونا، باستمرارٍ، إلى تغيير ذواتنا، وتغيير العالم. وهذا التغيير يقتضي منّا صراعًا يوميًّا، مع كلّ موكبه

من الفشل والنجاح. ففي كلّ يومٍ تبدأ الحياة من جديدٍ، وتنطلق يحدوها اليقين بأنّ تغيير العالم يبدأ بتغيير الذات.

أنتَ، يا يسوع، لم تسعَ إلى تنظيمٍ، وتشريعٍ، وتحديدٍ، بل أشرعت دربًا، وأوْريت نارًا، وبثثتَ خميرًا، وملحًا، وغرست بذارًا. وبقي علينا أن نتقدّم على طريقك، منتقلين من أفقٍ إلى أُفقٍ. وباقتفائنا خطاك، حاملين جراحًا تفيض حياةً، نعثر دائمًا على اكتشافاتٍ جديدةٍ.

* *

قبرك فارغٌ، يا يسوع، وروحك يملأ كلّ مكانٍ. أقوالك تُشِعُّ، بلا انقطاعٍ، نورًا غير متوقّعٍ. وقدوةُ حياتك تحدٍّ مزعجٌ، ودعوةٌ ملحاحٌ إلى المضيّ قُدمًا في اختراع الحبّ، فالحبّ هو نبع الحرّيّة الثرّ، الذي لا ينضب.

إنّك لا تني تدعونا إلى إعادة اكتشاف الحبّ في عالمٍ حيث المالُ يدمّر، والأنانيّةُ تقود إلى القتل والاستعباد والاستغلال، ونشدانُ المال يشيع الفقر والجوع، وإلى حيث يفتقر البشر إلى الإنسانيّة. ويظلّ إنجيلك، يا يسوع، هو الموقد الذي يقتبس منه الإخاء البشريّ ضرامه. إنّه يتخطّى كلّ الحدود، ويذكّرنا، في كلّ موسمٍ جديدٍ من حياتنا ومن التاريخ، بأنّ خلاص البشر هو في أن يكونوا إخوةً لك، يا يسوع، وأبناء أبيك الواحد. وإنجيلك لا يكفّ يخضّ البشر كي يجعلهم أوفر إنسانيّةً، وينتزعهم من دَعَتهم، وشَلَلِهم، ويطلقهم على دروب الحبّ.

ونحن، إنّما بمعاشرة إنجيلك، يا يسوع، وبتأمّل طيفك الفاتن، نحقّق إنسانيّتنا، وهدف مصيرنا، ونشرع نصبح مسيحيّين، يومًا فيومًا، إلى أن نلقاك، وجهًا لوجه، ونتّحد بك بلا فكاكٍ.

طوفانٌ من المعلومات يغمر عصرنا، ولكنّنا، أكثر من أيّ وقتٍ آخر، نحتاج، أكثر من حاجاتنا إلى المعرفة، إلى مُثُلٍ وقدواتٍ، وإلى رؤًى نيّرةٍ وبسيطةٍ تضيء لنا سبيل المصير. وهل من مثالٍ، وقدوةٍ، ونورٍ، وطريقٍ، سواك، يا يسوع ؟

منذ صلبك وقيامتك، يا يسوع، ما برحتَ تحاصر الذاكرة المسيحيّة، وتقيم في ضمائرنا البشريّة. إنّك تستعصي على كلّ تحديدٍ، وتلهم كلّ إنجازٍ، وتنهض شاهدًا على البشريّة المقبلة. إنّك خلجة الله في قلوب البشر. والجميع من أُثخنت قلوبهم

بشتّى صنوف العنف، كنتَ، أبدًا، في كلّ لحظةٍ، فجرًا يتأهّب للانبثاق، و«**نورًا يضيء كلّ إنسانٍ آتٍ إلى العالم**».

ولكنّك، اليوم، مثلما، كنت في أثناء عبورك بكوكبنا، لا تني تُقلِق، وتسائل، ولا ترضى لأتباعك بأقلّ من الكمال. وكثيرون هم الذين يستجيبون لندائك، ويشهدون لتعاليمك بحياتهم. إنّك حيٌّ فيهم، تضفي على وجودهم طعمًا، وهم يجدون في اتّباعك مغامرةً تجدّد حياتهم، وتغمرها فرحًا. فيك يكتشفون عمق كلّ واقعٍ، والديناميّة الفاعلة في كلّ تاريخ البشر. فيك يرون الله، ويعرفون أنفسهم، على حدّ قول پاسكال: «لسنا، فقط، لا نعرف الله إلاّ بيسوع، بل إنّنا لا نعرف أنفسنا إلاّ به».

وأنت، يا يسوع، لم تأتِ العالَم بقناعاتٍ فحسب، بل جئته بفيض الحياة، وقد أعلنتَ: «**أنا جئتُ لكي تكون للبشر الحياة، وتكون لهم بوفرةٍ**». وقد أبديتَ حبًّا جمًّا لحياة البشر، واهتمامًا بصحّتهم، وفرحهم، وازدهارهم، وما زلت تضجّ رغبةً في تفجير المزيد من الحياة. إنّك حيٌّ ومولّد حياةٍ، ولا تدع أحدًا ساكنًا، بل تُنهضه وتدفعه إلى السير. إنّك قوّةٌ دافعةٌ، وداعيةٌ إلى التزامٍ جوهريٍّ بإنماء البشر ورقيّهم.

وفي مجتمعاتنا التي تقضي بالموت، يوميًّا، على ألوف البشر، وتحكم بالتخلّف والإخفاق والقنوط على ألوفٍ آخرين، تتجلّى أنت المخلّص، بدفعك تلاميذك الأوفياء إلى شقّ دروب الحياة الكريمة أمام كلّ منبوذٍ، ومحرومٍ، ومهمّشٍ. وبذلك تجعل من تلاميذك هؤلاء مولّدي رجاءٍ، جديرين بالإعجاب، وخليقين بأن نتمثّل بهم. ولكنّنا غالبًا ما لا نلحظهم، فالشرور المحيقة بنا من الوفرة والقسوة بحيث تصرف أبصارنا عن مبادرات العطف والمحبّة. وقد قيل: «نحن نسمع ضجيج شجرةٍ تهوي، ولكنّنا لا نسمع نموّ الغابة». إنّ الغابة التي تنمو بصمتٍ هي الخير الذي يفيض كلّ يومٍ من حولنا، من خلال العاملين بوصايا تطويباتك، وعظتك على هضبة الجليل.

* *

في حياتك، يا يسوع، مارستَ حرّيّةً مدهشةً حيال القِيَم الرائجة، بعقدك علاقات عطفٍ مع من نبذهم المجتمع، وحيال المال والأمجاد والنفوذ، وحيال الطقوس الدينيّة الزائفة. لقد حرَّرت الأذهان والنفوس، وحملتَ نير كلّ مقهورٍ،

ودفعت الجميع إلى الحقيقة التي تحرّر. ولكي ترفع الحيف عن المظلومين، جعلتَ من الخدمة السبيل الأمثل إلى العظمة.

وفي مواجهة الشعارات الغوغائيّة، والإيديولوجيّات المدمّرة، والرأسماليّة التي لا قلب لها، والتي تستعبد شعوبًا بكاملها باسم الربح والجدوى الاقتصاديّة، أنت، يا يسوع، ترشد إلى الخلاص، بإذكاء الرغبة في تحطيم الحواجز، وقهر الخوف، والانطلاق نحو الآفاق الرحبة، والمراهنة على بشرٍ أحرارٍ، زاهدين بكلّ ما ليس جوهريًّا. وهذا ما أوحى لپاسترناك قوله: «كان لا بدّ من يسوع كي تتمكّن القرون والأجيال من التنفّس بحرّيّة».

وقد أدهشتَ دائمًا، يا يسوع، بإيمانك الذي يتصدّى لكلّ التحدّيات، ولا يسلّم بفشلٍ دائمٍ، ولا يحصر إنسانًا في وضعٍ جامدٍ، بل يزخر دائمًا بالمبادرات الخلاصيّة.

كان لا بدّ من أن تغوص، أيّها الإله، في هوّة البشريّة، في لحظةٍ معيّنةٍ من التاريخ، وفي بقعةٍ محدّدةٍ من الأرض، ومن أن تُدلي بأقوالٍ فذّةٍ، إلهيّة النبرة، ومن أن تؤدّي أفعالاً خارقةً، كي نجثو عابدين إلهًا لابسًا جسدًا بشريًّا. فلو لم تعلّمنا أن نخاطب الله بدعاء «**أبانا**»، لما اكتشف أحدٌ منّا، من تلقاء ذاته، تلك البنوّة الصاعقة، ولما تفجّر هذا النداء من قلوبنا إلى شفاهنا.

إنّنا ننزع إلى الإيمان بما ينفذ إلى أعماق كياننا، ويمتزج بجوهرنا. ولذلك نؤمن بك، يا يسوع، لأنّ ألوهتك تغمرنا من كلّ صوبٍ، ولأنّ إنسانيّتك تهزّ نفوسنا.

حرس السنهدرين المكلّفون بالقبض عليك، لم يتمالكوا عن الاعتراف بأنّ ما من إنسانٍ تكلّم مثلك، يا معلّم. ففي كلامك عمقٌ في القول، وسكونٌ في الأعماق. وما زال صوتك المميّز عن كلّ صوتٍ آخر، يدوّي في كلّ كلمةٍ حُفِظت عنك، مستفزًّا الحبّ، و«فضائل تثمر في الحبّ».

وما زلنا نردّد، قانعين، مع القدّيس أوغسطينُس: «خُلقنا من أجلك، يا الله، ولن يعهد قلبنا الراحة حتّى يرتاح فيك».

ومع پاسكال نقول: «إن كان البشر، قديمًا، يسيرون نحوك، قبل مجيئك إلى أرضنا، وعيونهم محدّقةٌ إلى الأمام، فنحن، اليوم، بالتفاتنا نحوك، فيما نناى عنك في الزمن، نظفر بالحقيقة، واتّزان القلب».

لقد بيّنتَ لنا، يا يسوع، أَين تكمن الحرّيّة الحقّة، والأصالة، في ما يتخطّى الرغبات الأنانيّة التي تحكمنا، وفي ما يتحدّى المخاطر والهواجس. وقد تميّزتَ، يا يسوع، بأن كنتَ، دائمًا، ذاتك، لم تخضع لا للآراء الموروثة، ولا للأعراف السائدة، ولم تأسرك الوشائج القبليّة والأسرويّة، بل كنت، دائمًا، المعلن عن مشيئة الله، والمنفّذ لها. وقد ورّثتنا طعم الحرّيّة التي تهزأ بالموت، وعلّمتنا أنّ السير في إثرك هو اكتشافٌ، ومسيرةٌ، ومغامرةٌ لا نهاية لها. وستظهر دائمًا، يا يسوع، مزعجًا، قادمًا من المستقبل، مجتذبًا العالم أجمع نحو مزيدٍ من العدل، والسلام، والإنسانيّة. لن تفرض خياراتٍ وقراراتٍ، بل تدع لنا مسؤوليّة جعل حياة الجميع أفضل.

غير أنّ الذين يزعجهم حضورك، وتخيفهم مقتضياتك الصارمة، يزعمون أنّك متَّ، وأنّ المسيحيّة تلفظ أنفاسها الأخيرة. ولكنّ قاهر الموت لن يموت، والمسيحيّة ما برحت تُنتج أبطالاً وقدّيسيّن، وتطبع بميسمها نفوسًا لا يُحصى عديدها.

خصومك، ومنكروك، وخائنوك، يا يسوع، يتمنّون لو لم تولد، وإذن لاستطاعوا الإخلاد إلى النوم، والتحديق إلى العَدَم. وكثيرون يجهدون في قتلك، ولكنّك خالدٌ بعنادٍ، موجّهًا مصائر ملايين البشر.

في تغرّبها عنك، وفي سعيها المحموم إلى محو صورتك من آفاق البشريّة، حاولت الحركات المادّيّة إنشاء «دياناتٍ بديلةٍ»، فولّدتْ أنظمة قتلٍ، وإذلالٍ، واستعبادٍ، كالنازيّة، والماركسيّة، والتوتاليتاريّة، والرأسماليّة الجامحة. ولم تثمر، جميعها، سوى تعميم البغض، وقهر الإنسان، وامتهان حقوقه. ولا عجب في ذلك، فإنكار الله يفضي، حتمًا، إلى سحق الإنسان، والأنظمة التي تجهد في اقتلاع الحاجة إلى الله، من قلوب البشر، لا تُفلح إلاّ في تمزيق هذه القلوب.

ولكنّك، يا يسوع، لا تقنط من البشر، وتظلّ، أنتَ، رجاءهم. إنّك تبلسم القلوب الممزّقة، وتنعشها بإحياء تعاليمك الإنجيليّة فيها، وباستنبات قدّيسيك الذين يُبرزون بهاء وجهك، ويؤكّدون لمن هيمن عليهم اليأس أنّ الخير والحبّ ما زالا، بفضل حبّك ونعمتك، منيعيْن، منتصريْن.

* *

أنت وحدك، يا يسوع، أبرزت وجه الله الحقّ. فكم من شوّهه، وكم من زوّره

واستغلّه لتبرير جرائمه ومآربه الدنيئة! فجيوش هتلر كانت تهتف: «اللّه معنا». والإسرائيليّون المتعصّبون، اليوم، يحاولون إقناع العالم بأنّ اللّه هو الذي يمنعهم من إعادة الأراضي التي اغتصبوها ممّن سكنها أجدادهم، منذ آلاف السنين، ولكأنّ وعدًا إلهيًّا مزعومًا يبرّر تقتيل شعبٍ، وتهجيره، وتدمير بيوته وحقوله! والأميركيّون يوهمون العالم بأنّ اللّه هو الضامن لمتانة دولارهم، الذي به يفسدون العالم، ويسلبون خيراته، به يشترون ضمائر الحكّام والمرتزقة، وبه يهدّدون من يعارضون أهواءهم، ويُرهبونهم.

وباسم اللّه يذبح متزمّتون إخوةً لهم آمنين، ويخوضون معارك غاشمةً دنيئةً، ويبتغون أن يجعلوا من اللّه صورةً لذواتهم، فإذا به إلهٌ مشوّهٌ، ضالٌّ، شرّيرٌ!

لقد سئمنا صور اللّه التي يتناقلونها جيلاً عن جيل، والتي تعيث فسادًا، وتولّد كوارث. وحان لنا أن نتأمّل سنى اللّه، أبيك، المختلف عن كلّ ما صوّروه، إله الحبّ، والرحمة، والغفران، والتسامح، والتحرير، والسلام، والقداسة، الوجه الذي رسمتَ، أنت يا يسوع، قسماته.

إنّنا نؤمن، يا يسوع، بما قاله تلميذك الأثير: «**اللّه لم يَره أحدٌ قطّ. فالإله، الابن الوحيد، الذي هو في حضن الآب، هو الذي كشف عنه**». فشكرًا، يا يسوع، لأنّك، بإبرازك وجه أبيك الحقّ، أدهشتنا، وسكبتَ على نفوسنا فرحك، وحرّرتنا من الأصنام والشياطين.

* *

في حومة المآسي والمهازل، ودركات الانحطاط، لم تنطفئ شعلة تطويباتك الرقيقة، يا يسوع، ومنذ عشرين قرنًا، شهد كلّ يومٍ رجالاً ونساءً التهبت بحبّك قلوبهم، فغيّروا حياتهم، وغيّروا العالم. وما زلت تطالب الطاقات البشريّة كلّها بتحقيق ذاتها، تحقيقًا يتخطّى أماني البشر، ويوفّر لهم ولادةً جديدةً في اللّه.

ومهما جهدت ظلمات الموت والدمار في إفساد الكون والنفوس، وتشويه وجهك الإلهيّ، غير أنّ النور أصدق إنباءً من الظلمة. وأنت، وحدك، يا يسوع، كفيلٌ بأن تؤتينا تفجير هذا النور من عيوننا، وأقوالنا، وأيدينا، وبأن تؤهّلنا لاجتياز الشتاء بقوّة الربيع.

من التقاك مرّةً، أدرك أنّك حيٌّ، تقود ملايين البشر، ولم يعُد بوسعه الانعتاق من أسر حضورك وتأثيرك. ولكنّ ضعفنا يُصوّر لنا، في ساعات الانهيار، أنّ مقتضياتك تثقل كاهلنا، وتنتزعنا من أحضان التواني الذي استكنّا إليه، ومن العادات التي سكنّا إلى رتابتها، ونظّمنا على وقعها حياتنا.

في تلك الساعات الخطيرة، شدّد، يا يسوع، إيماننا(*)، وليكن حضورك فينا حاسمًا، طاغيًا. ولا بأس إن زعزع الإيمان بك كياننا، فهو، وحده، يسبغ على وجودنا معنًى وطعمًا. ولكنّه، غالبًا، شاقٌّ. ونحن، نظير تلميذَيْ عمّاوس، نتوسّل إليك ألاّ تتركنا. فالليل يزحف بقوافل الهواجس والخوف والوهن، وأنت وحدك قادرٌ على نشر السكينة في نفوسنا.

لقد علّمتنا أنّ الإيمان انتصارٌ يتحقّق بالكفاح. وهو انتصارٌ على عالم الشكّ، والجبن، والوهن، والخطيئة، الكامن داخل كلٍّ منّا. ولن نقوى على مقارعة كلّ هؤلاء الأعداء إلاّ بدعمك، وأزرك.

ولن يسعنا أن نكون شهودًا على حياتك، يا يسوع، وعلى صلبك الفادي وقيامتك المجيدة، ما لم نخُض صراعًا بلا هوادةٍ. فساعدنا على خوضه بمنأًى عن التوتّر، والاضطراب، والكآبة، والتزمّت. فمن مفارقاتك، يا ربّ، أنّ ما هو قاسي الاحتمال، عسير التحقيق، هو، غالبًا، هبةٌ منك، ونعمةٌ من لدنك. فآزرنا على الترحيب بنعمتك، وعزّز إيماننا بأنّك قد بحثتَ عنّا قبل أن ننشدك، وأنّك أحببتنا أوّلاً، وكنت المبادر إلى مدّ يدك لنا، وبهذا الإيمان، وبهذا الأزر، يصبح انتصار إيماننا، ساجيًا، مغمورًا بسلامك، وفرحك.

إنّ نزاعك، يا يسوع، على أرض البشر، مستمرٌّ. فهبنا القدرة على السهر معك ومواساتك. وإنّ مهزلة محاكمتك لم تنتهِ، فساعدنا على ألاّ نكون شهود زورٍ، وعلى أن نُثبت، بوفائنا لك، أنّك البريء الوحيد.

إنّك، يا يسوع، أشدّ وجوه التاريخ ارتعاشًا بالحياة، وأكثرها فتنةً وسحرًا، ومن أقلّ شخصيّات التاريخ منطقًا ورتابةً، لأنّك أكثرها حيويّةً. ولذا علينا الجهد في

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «الإيمان هو تقبّل يسوع، والترحيب به»، صفحة ٥٥٢.

اكتشاف تميّزك وفرادتك. وخير من يساعدوننا على معرفتك هم الذين يسيرون في تيّارك، ويحيون بتأثيرك، وبإلهام روحك. ومن قُيِّض له التقاء أمثال هؤلاء، يدرك من أنت. فإنّك، يا قاهر الموت، تواصل، فيهم، حضورك، ورسالتك. إنّك تحيا في قدّيسيك.

جوهر المسيحيّة يكمن في شخصك أكثر ممّا يكمن في تعليمك؛ ولذلك لا يمكن عزل نصوص الإنجيل عنك، وإلاّ فقدَتْ حيويّتها، ونارها الحارقة.

إنّ معرفتك مهمّةٌ ضروريّةٌ لإنماء الحياة، ولكنّها عسيرة المنال. ولا بدّ من عيش الإنجيل بروحك، في سبيل فهمه وفهمك.

معرفتك هي الاتّحاد بك، وكلّ معرفةٍ ليست حياتك، هي كذبٌ وضلالٌ.

معرفتك هي حياةٌ، وحبٌّ، وممارسة تطويباتك. فأبقِنا، يا ربّ، متّحدين بك بعقلنا، لكي لا نفكّر إلاّ فيك، وبإرادتنا، لكي نظلّ ملتصقين بك برباط الحبّ.

وجهك هو وجه الله الإنسانيّ. الأناجيل لا تذكر شيئًا عن قامتك، ولون عينيك، وشعرك، وأذواقك، ولكنّها تقول إنّ قوام حياتك كان حبًّا، وبذلاً، وجرأةً، وموتًا خلاصيًّا، وقيامةً مجيدةً.

قد يكون ما نعرفه عنك موغلاً في الضآلة، غير أنّه، مع ضآلته، يرقى بنا إلى عالَمٍ آخر. فعلّمنا، يا يسوع، أن نبحث عنك، بحثَ من يتوجّب عليهم العثور على ضالّتهم، ومن لا يستطيعون الكفّ عن البحث مهما اكتشفوا، قانعين بأنّ من بلغ هدَفًا إنّما قد شرع يبحث، فحسب.

ذات يومٍ سألتَ تلاميذك: «**وأنتم من تقولون إنّي هو؟**» وهذا السؤال ما برح يدوّي في أعماقنا، ويحملنا على التحديق إليك، للتملّي من صورتك، ولاستجلاء حقيقتك الفائقة. وما أحرانا بأن نسائل أنفسنا: أين أنت في حياتنا، وسلوكنا، وعقولنا؟ وكثيرًا ما يخجلنا ردّنا على هذا التساؤل. فكن، يا يسوع، أنت حياتنا، وكلّ كياننا، كي نحقّق المصير الذي ابتغيتَه لنا.

* *

كم من زعموا إلغاءك، فأكبّوا على تجزيء الإنجيل إلى عباراتٍ، أو أنصاف

عباراتٍ، عزلوها عن سياقها، وأعملوا فيها مبضع تشريحهم، وكأنّهم يشرّحون جثّةً فارقتها الروح، وغايتهم إخفاء ألوهتك، وحجب وجهك الساطع، الذي يتعذّر التحديق إليه، وتجريد تعليمك من كلّ ما يفوق عقولهم الكليلة!

وكم قد سُوّدت عنك كتبٌ أملتها كبرياء العقل، وادّعاء اكتشاف ما استعصى على فهم سواد البشر ممّا زعموه مواطن وهنٍ في إنجيلك، ولكأنّ أقزام البشر تطول قامتهم إن هم تطاولوا على إلهٍ!

وما أكثر الذين دبّجوا فيك المؤلّفات، في العقود الأخيرة، بغيةَ إبراز علمهم، فأسهبوا في إنكار صحّة لفظةٍ هنا، وبيان خطأ لفظةٍ هناك! عارض بعضهم بعضًا، وأيّد بعضهم بعضًا، ونأوا جميعهم عن روح إنجيلك الذي تعجز كلّ لغات العالم عن احتوائه! وكم من الكتب الجافّة التي، عوضًا عن التعريف بك، لم تزد قلوب قرّائها إلاّ ذبولاً، لأنّها أغفلت الجوهريّ، أي أغفلت روحك!

وكثيرون ممّن كتبوا سيرتك، يا يسوع، حاولوا إظهارك بمظهر إنسانٍ فاتنٍ، بعد أن جرّدوك من ألوهتك، فحوّلوك إلى صفرٍ يضيف حلقةً إلى سلسلة الأصفار التي تملأ عالمنا ومكتباتنا، مع أنّك مالئ الكلّ!

إنّ من يأبون الرؤية إلاّ بضوء عقلهم الشاحب، الحسير البصر، بهرهم نورك الساطع، فتاهوا يجوسون بين مظانّ الظلمة. والذين أهاض سُموّك أجنحتهم، تردّوا إلى المستنقعات الآسنة، وحصروا بحثهم في رواسبها المنتنة. فاجتذبْ، وحدك، يا يسوع، أبصارنا، يا من جاء للأنام نورًا، وطريقًا، ودليلاً إلى الحقّ.

أمّا الذين يطالعون إنجيلك ببساطةٍ، غير ملتمسين سوى الاستنارة وغذاء الروح، فعليهم تشرق شمسك. ونعمتك وحبّك يغمرانهم.

فأنت، يا يسوع، ما زلتَ، حاضرًا بإنجيلك الأبديّ الجدّة، و«بالإنجيل الخامس»، الذي يدوّنه كلٌّ من قدّيسيك، بإيمانه، وحبّه، ونصاعة سيرته، بحيث يصبح إنجيلاً حيًّا، مدوّنًا بدمٍ وحبٍّ.

إنّك أوكلت إلى تلاميذك مهمّة نشر رسالتك. وكلٌّ ينشرها بأسلوبه. وثمّة من لا يتمتّعون بملكة الكلام، ولكن لديهم ما يقولونه، وهم يعبّرون عنه بقدوتهم، وبطولة

حياتهم. لقد سئمنا الثرثرة، ولكنّنا لن نملّ أبدًا العمل الصموت، المجّانيّ، ولا الصلاة الخاشعة الصادقة، ولا شهادة الحياة المتواضعة المبذولة بمنأًى عن التظاهر.

* *

يا يسوع،

منذ طفولتي كَلِفتُ بك، ولدى سماعي، للمرَّة الأولى، قصّة آلامك، انتحبتُ، وطيلة ساعاتٍ لم أقوَ على حبس دموعي وتنهّداتي. ولكنّني، مع كرّ الأيّام، كم قادني ضعفي إلى صلبك وإهانتك! غير أنّني كلّما عصيتُ وصاياك، كنتُ أدرك أنّني إنّما أهوي بنفسي، وأمتهنها، وأصلبها، فيلتهمني الندم، ويضطرم توسُّلي إليك، لأنّي أرى فيك خلاصي الوحيد.

إنّ حبّك راسخٌ في أعماق كياني، ولكنّني غالبًا، غير جديرٍ به. ولطالما عجزتُ عن الوفاء له. ومع ذلك، كيف لي أن أحيا، لو لم أكن أُحبّك!

بطرس أنكرك، في ليلةٍ واحدةٍ، ثلاث مرّاتٍ، وأنا أُنكرك، كلّ يومٍ، بسلوكي وأفكاري، وبجبني دون تلبية مقتضياتك، ثلاثين مرَّةً. ولكن، على غرار بطرس، لا يهتزّ إيماني بك، ولا يفتر حبّي لك. فاصفح عنّي كما صفحتَ عنه، وعاملني كما عاملتَ اللصّ التائب. وأعطِني أن أقدّم ما تبقّى لي من حياةٍ شهادةً لك.

كثيرون، يا معلّمي، حاولوا تكذيب أناجيلك، لأنّ عقولهم القاصرة التهت بحصباء الطريق، فأعرضت عن الشمس التي تنير الكون كلّه. وأنا، يا معلّمي، عجزت عن فهم أشياء كثيرةٍ، ولكنّ شمسك الساطعة كانت أقوى من كلّ عتمةٍ، فلذتُ بك، وأنت ملأت نفسي وأبصاري بنورك المنتصر، فسعيتُ بكلّ طاقاتي، وبكلّ حبّي، صوبك، يا مصدر كلّ نورٍ.

لقد آمنتُ بك لأنّك حيٌّ، وآمنت بك لأنّي أحياك، مردّدًا مع پول كلوديل: «أنت، فيّ، أكثر من ذاتي فيّ» وقد أيقنتُ أنّك الجوهرة الفريدة التي يخلق بي التخلّي عن كلّ شيءٍ في سبيل اقتنائها.

أسمعك، أحيانًا، تسألني: «أتحبّني؟»، ولا أجسر على الإجابة. الجواب يربكني، فأتلعثم. من المؤكّد أنّي أحبّك، وليس حبّي لك وليد اليوم. ولكن غالبًا ما ينهض

سلوكي تكذيبًا لعواطفي. وكلّ يومٍ، أبحث عن أسلوبٍ أمثل للتعبير لك عن حبّي. فدعني أتأثّر خطاك، صامتًا، واجعلني أومن أنّي، أنا أيضًا، التلميذ الذي تحبّه.

حبّي لك، يا يسوع، هو عزائي، وهو، أيضًا، مصدر عذابي، لأنّه يُشعرني بأنني لا أُحبّك، في الواقع، كما يتوجّب عليّ أن أُحبّك، وكما أتمنّى صادقًا، أن أحبّك.

لطالما حلمتُ، يا يسوع، بالكتابة عنك. ولكن كان يقعدني عن تلك المهمّة شعوري المرهِق بعدم جدارتي، وهذا الشعور هو، اليوم، أعمق رسوخًا، وأثقل وطأةً من أيّ يومٍ. فأنا لا أملك من العلم ما يمكّنني من معرفتك بعقلي، ولا من الصوفيّة ما يؤهّلني للإحاطة بك بحدْسي، ولا من القداسة ما يُتيح لي أن أتحدّث عنك من غير أن أُدنّس اسمك.

ولكنّني بعد أن تبيّنتُ، من حولي، كم أنت، يا يسوع، «مشهورٌ مجهولٌ»، ولمستُ، لدى من يتكنّون باسمك، جهلاً مطبقًا بك، وبحياتك وبرسالتك، أقدمتُ على خوض هذه المغامرة، علّني أُسهم، ولو بقسطٍ ضئيلٍ، في التعريف بك، وفي نشر رسالتك وحبّك.

ولكن بأيّة ألفاظٍ يسعني أن أتحدّث عنك، يا يسوع، من غير أن أُسيء إلى سموّ ألوهتك، وأظلّ عاجزًا عن إيفاء كمال إنسانيّتك حقّها، فأنت وحدك، يا يسوع، تجمع بين جوهر الألوهة، وكمال الإنسانيّة.

وإنّه ليتعذّر تلخيصك، مثلما يتعذّر تلخيص محيّا محبوبٍ، ولا سيّما إن كان مدوّنًا في صميم القلب.

بيد أنّ كلمة القدّيس أوغسطينُس لا تني تدوّي في أعماقي: «ما عساه أن يقول فيك ذاك الذي يتكلّم عنك؟ ومع ذلك، الويل لمن يمسكون عن الكلام عنك، فهم، حتّى في كلامهم، بُكْمٌ!».

فاغفر لي، يا يسوع، جسارتي في الإقدام على هذه المغامرة، واقبل منّي هذه المحاولة، بمثابة اعتراف حبٍّ، وإعلان إيمانٍ. وهيّئ لهذا الكتاب أن يصيب غايته في حمل بعض من يجهلونك على مطالعة إنجيلك بفكرٍ مستنيرٍ يمكّن من معرفتك، وبقلبٍ منفتحٍ يتقبّل عطيّة حبّك، وبإيمانٍ تحرّره نصاعةُ سيرتك من كلّ ريبةٍ. وليسرِ روحك من خلال سطوره، شاحذًا الرغبة في معرفتك وحبّك، ومساعدًا على رؤية اللامرئيّ، وتذوّق اللاملموس.

وأنت، أيّها القارئ العزيز،

إذ أضع بين يديك هذا الكتاب الذي جهدتُ في تضمينه زبدة مطالعاتي، خلال سنواتٍ طوالٍ، عن يسوع وإنجيله، لست أُغفل عجزي الذريع عن إيفاء هذا العمل الجسيم حقّه. بيد أنّ ما خبرته من جهل عامّة المسيحيّين، اليوم، ليسوع، ولا سيّما بعد أن تراخى تلقين الأحداث المبادئ المسيحيّة، تراخيًا مقلقًا، وتفاقم هذا الجهل بين البالغين، وما تبيّنتُه من ضآلة ما كُتِبَ بالعربيّة، في هذا الشأن، كلّ ذلك دفعني دفعًا إلى وضع هذا الكتاب، وأنا طامعٌ بصفح القرّاء، عن كلّ تقصيرٍ قد يلحظونه فيه.

وبما أنّ الكثير من أقوال يسوع، ومواقفه، من كثافة المغزى والعِبَر، بحيث تقتضي إسهابًا في الشرح والتعليق، وخشيةً من أن يأتي حجم هذا الكتاب منفّرًا لمن تخيفهم الكتب العديدة الصفحات، فقد وضعتُ كتابًا موازيًا، يتضمّن إضاءاتٍ، وتعليقاتٍ على بعض فصول الإنجيل. وقد أطلقت عليه عنوان «**يسوع في إنجيله**»، وأشرت في مطلع بعض فصول هذا الكتاب إلى ما يقابلها في ذلك من تأمّلاتٍ وتعليقٍ.

وسأكون قد بلغت مرامي إن أسهم هذان الكتابان المتكاملان في حثّ ولو حفنةٍ من القرّاء، على مطالعة الإنجيل بتبصّرٍ وخشوعٍ، وعلى معرفة يسوع معرفةً وُثقى، وعلى الاغتناء بروحه الإلهيّ المحيي.

أديب مصلح

٢٠٠٦/١/٦

القسم الأول

يسوع في التاريخ - مصادر معرفته - الأناجيل

يَسُوع في التّاريخ، وَمَصَادِر مَعْرِفَته

اسم يسوع من أكثر الأسماء شيوعًا في التاريخ، وإيغالاً وحيويّةً في ضمائر المؤمنين به، في كلّ أصقاع المسكونة، ومن أرسخهم سُكنى في نفوس من جعلوا صدورهم هياكل له.

شخصه فريدٌ، ولا يمكن مقارنته بأيٍّ سواه، فهو إلهٌ زرع الألوهة في جسدٍ بشريٍّ، وإنسانٌ، ابن إله، تجسّد، تجسُّدًا خارقًا وفريدًا، في أحشاء عذراء، مقحمًا أزليّته في لُحمة الزمن.

عَبَر أرض البشر عبورًا خاطفًا، ولكنّه حوّل البشريّة، جوهريًّا، وطبع فيها، إلى الأبد، دمغته.

جاء العالَم مخلّصًا، ولكنّ العالم سمّره على صليب العار والمذلّة. إلاّ أنّه جعل من الصليب رمزًا للحبّ، والعطاء، والخلاص.

وقام من القبر في اليوم الثالث، فكانت قيامته مصداقًا لألوهته، ودليلاً على هزيمة الموت، ومعين رجاءٍ، ومنبع حياةٍ للبشر.

بفرادته المذهلة يبدو أُسطوريًّا، ونسيج خيالٍ، غير أنّ آثاره محفورةٌ بعمقٍ في تربة التاريخ.

والمصادر المتعلّقة به، التي تيسّر معرفته معرفةً كافيةً، متوفّرةٌ أكثر ممّا هي متوفّرةٌ المصادر عن شخصيّاتٍ سياسيّةٍ، أو أدبيّةٍ ذائعة الصيت، ما زال البشر يذكرونها، ويجلّونها.

وما انفكّت هذه المصادر تغتني باكتشافاتٍ جديدةٍ، وتخضع للتمحيص والتدقيق، وتحليل المجاهر، وقد تعرّضت لأشدّ الانتقادات مكرًا وعدائيّةً، ولكنّها خرجت من تلك البوتقة، أنصع نقاءً، وأمنع مصداقيّةً.

* *

وُلد يسوع في عهد الإمبراطور أوغسطس، وصُلب في عهد تيبيريُس، وكان معاصرًا لفيلون اليهوديّ، ولتيتُس ليڤوس، الأديب الرومانيّ، وللفيلسوف سينيكا. ولو لم تقصف المنيّة حياة الشاعر المبدع ڤرجيليوس، قبل بلوغه الخمسين من العمر، لشاهد، بأمّ عينه، المخلّص الذي استشفّ ولادته، بحدْسه الثاقب، ورؤاه النبويّة. وكان نيرون، وفلاڤيُس يوسيفُس، وپلوتارك، وتاشيتس، من أَعلام الجيل الذي تلا جيل يسوع. وكثيرون ممّن تبوّأوا، في زمانه، مراكز دينيّةً، أو اجتماعيّةً بارزةً، معروفون تاريخيًّا، منهم رؤساء الكهنة قيافا، وحنّان، ورابّي غمالئيل، وهيرودس الكبير وأبناؤه، وبنطيُس بيلاطس،....

شخص يسوع، إذن، وأعماله، تندرج في لُحمةٍ تاريخيّةٍ محقَّقةٍ، على نقيض العديد من الوجوه الشهيرة المبهمة، المغلّفة بالأسطورة والخرافة. وقد أسهب الإنجيليّ لوقا، في سرد المعالم التاريخيّة التي كانت إطارًا لزمن رسالته (لوقا ٣: ١–٢) مثلما تفيض رسائل الرسول بولس بتفاصيل قيّمة عن بيئة يسوع، وشخصه.

* *

أهمّ المصادر هي، بدَهيًّا، مسيحيّة. بيد أنّ ثمّة، أيضًا، مصادر يهوديّةً، ومصادر وثنيّةً. ولا بِدْعَ إن اتّسمت المصادر غير المسيحيّة بالضآلة. فنشوء تيّارٍ دينيٍّ جديدٍ لا يشعر به محيطه إلاّ بعد أن يشتدّ عوده، ويكثر مشايعوه، وتذيع دعوته، وتصطدم بالتقاليد والمفاهيم الراسخة، والمصالح الرائجة. وحينئذٍ، فقط، يشرع المؤرّخون يُلمحون إليه، مقتصرين، غالبًا، على نقل شائعاتٍ وأقاويل، قد تفتقر إلى الدقّة، وغالبًا ما تتردّى إلى منزلق الأحكام المسبّقة. غير أنّ لهذه الإشارات العابرة فضل التأكيد على وجود فردٍ أو جماعةٍ استأثرا باهتمام الناس، وفضل تأريخ عهدهما، والإيماء إلى إطار نشاطهما، ونفاذ تأثيرهما وأبعاده.

مصادر يهوديّة:

تعمّد اليهود، عمومًا، طمس ذكر يسوع، فالتزموا، حياله، الصمت. بيد أنّ التلمود انطوى على إشاراتٍ متعدّدةٍ إلى شخصه، نفث كاتبوها، من خلالها، سمّ حقدهم على ابن جلدتهم، الذي جاء ليرقى بهم إلى مستوًى روحيٍّ كانوا يفتقرون

إليه. ومع أنّ هذه الإشارات تزخر بأقذع الأوصاف، وأوقح التخرّصات، وبالدناءة، والافتراء، وبالمغالطات التاريخيّة الشنيعة، إلاّ أنّها تبرز الخضّة التي أحدثها تعليم يسوع في المحيط الفلسطينيّ واليهوديّ. وقد اعترف كاتبٌ يهوديٌّ حديثٌ، هو «إزيدور لويب»، في محاولة تبريرٍ واهيةٍ:

«في تلك الأزمنة الغابرة، راجت، بين اليهود، عن يسوع، أساطير فظّةٌ اختلطت فيها شخصيّاتٌ عديدةٌ من حقبٍ مختلفةٍ. كان اليهود يجهلون الأناجيل التي يرون، في مطالعتها، جريمةً، وما كانوا يملكون عن سيرة يسوع أيّة معلومةٍ واضحةٍ، حتّى إنّهم أرجعوا عهده إلى قرنٍ سابقٍ... إنّ تاريخ يسوع، في التلمود، من التشوّش واللَّبْس بحيث جَهِدَ رابّيو القرون الوسطى، بنيّةٍ سليمةٍ، في إثبات أنّ يسوع التلمود لم يكن يسوع المسيحيّ».

وتبقى أبرز الشهادات اليهوديّة عن يسوع والمسيحيّة تلك التي وردت بقلم المؤرّخ اليهوديّ الشهير، فلاڤيُس يوسيفُس(٣٧– ٩٥ ب. م)، الذي امتدح يوحنّا المعمدان، وذكر استشهاد يعقوب، أسقف أورشليم بهذه الأسطر:

«عقد (رئيس الكهنة) حنّان اجتماعًا لمجلس القضاة، ودعا للمثول أمامه المدعوّ يعقوب أخا يسوع الذي يقال لـه المسيح، وبضعةً آخرين، فاتّهمهم بمخالفة الشريعة، وأسلمهم للرجم».

وليوسيفُس شهادةٌ أُخرى هي الأخطر شأنًا، وقد أُريق في تأكيد أصالتها، أو في نفيها، حبرٌ كثيرٌ. ويُرجّح أنّ يدًا مسيحيّةً قد أعملت، في نصّها الأصليّ، تحريفًا وإضافاتٍ، وقد أحطنا بقوسين المقاطع التي يُعتقَد أنّها أُقحمت في النصّ التالية ترجمته:

«في تلك الحقبة ظهر يسوع، وهو إنسانٌ حكيمٌ، (إن جازت تسميته إنسانًا). وكان صانع أعمالٍ مدهشةٍ، وكان معلّمًا لمن يتلقّون الحقيقة بفرح. وقد اجتذب إليه يهودًا كُثُرًا، فضلاً عن العديدين من الإغريقيّين. (لقد كان هو المسيح). وأمر بيلاطس بصلبه، بناءً على وشاية رؤساء أُمّتنا، بيد أنّ الذين أحبّوه، قبل ذلك، لم يكفّوا عن حبّه. (وقد ظهر لهم، من جديد، حيًّا، في اليوم الثالث، وفقًا لما كان قد أعلنه الأنبياء الإلهيّون، فضلاً عن عشرات ألوف المعجزات الأُخرى التي تنبّأوا بها). وحتّى الآن، ما زالت جماعةٌ من يُدعون مسيحيّين، نسبةً إليه، موجودةً».

النبوءات:

عقودًا طويلةً، قبل مولد يسوعٍ، كان الأنبياء، قد رأوا، بالروح، شتّى مراحل حياته، ورسموا لها لوحاتٍ أخّاذةً. ومن يطالع النبوءات المتعلّقة بيسوع، يُخيّل إليه أنّه يطالع الإنجيل ذاته، فهي قد صوّرت، بدقّةٍ مذهلةٍ، ولادته من عذراء، في مدينة بيت لحم الصغيرة، ومنشأه الإلهيّ في صميم الله، وبنوّته الإلهيّة، واسمه عمّانوئيل، ومعجزاته، وعطفه اللامحدود، وعذوبته، وفشل رسالته وسط شعبه، وما انصبّ عليه من حقدٍ واضطهادٍ، وتفاصيل موته المهين، وبيع أحد تلاميذه له بثلاثين من الفضّة، ودفنه، وقيامته، وانتصاره المتألّق على الورى، وانهيار الوثنيّة، وعقاب مضطهديه الرهيب، وغزو تعاليمه العالمَ، وانتشار ملكوته مثبتًا قدرته التي لا تُقهر، وخلوده الأبديّ.

كوكبةٌ نيّرةٌ، منذ آدم حتّى المعمدان، ما انفكّت تعلن أنّ المسيح المخلّص قادمٌ، فتأهّبوا لاستقباله. صرحٌ شاهقٌ، فخمٌ، بناه الروح القدس، بواسطة الأنبياء.

قال پاسكال: «لو أنّ رجلاً واحدًا كتب سفر النبوءات، وجاء يسوع المسيح وفقًا لنبوءاته، لكان ذلك دليل قدرةٍ لا نهائيّةٍ. ولكنّ هنا ما هو أعظم. فقد تعاقب رجالٌ كُثُرٌ، على مدى أربعة آلاف سنةٍ، باطّراد، وتنبّأوا، الواحد تلو الآخر، بهذا المجيء. لقد أكملوا بعضهم بعضًا، ومن المحقّق أنّه يستحيل أن يتمّ ذلك عَرَضًا، بالصدفة».

كان الغرض من النبوءات إعداد البشر لحدَثٍ جَلَلٍ، بالغ الخطورة. ولا عجب إن هي توالت، بتؤدةٍ وعنادٍ، على مدى قرونٍ عديدةٍ.

وإذا ما جمعنا شتّى النبوءات المتعلّقة بالمسيح، لاكتملت لدينا صورةٌ واضحةٌ عنه، بحيث، إذا ما رأيناه هتفنا، في الحال: هذا هو!

وحقّق يسوع هذه النبوءات كلّها، واحدةً فواحدةً. ولكنّ زعماء شعبه أبوا الاعتراف بهذا الواقع، لأنّهم رفضوا مسيح حبٍّ، وتواضعٍ، وسلامٍ، وتشبّثوا بعنجهيّة «الشعب المختار»، الذي طالما أنحى عليه الأنبياء بأقسى ثلبٍ وتأنيبٍ.

قلّةٌ من البسطاء، والمنقادين لوحي الروح، توسّموا فيه المسيح الموعود، أمّا سواد اليهود الذين رفضوا الإيمان به، فقد باتت كتبهم مستغلقةً على أذهانهم، لأنّها، بمعزلٍ عن شخص يسوع، وسيرته، وتعليمه، وأعماله، تفقد كلّ معناها.

وخليقٌ بنا أن نذكّر بمقتطفات من تلك النبوءات:

– من نبوءات أشعيا:

وسط مجرّة الأنبياء المتألّقة، اكتسب أشعيا شهرةً فريدةً في ما يتعلّق بالمسيح، فلم ينشد أحدٌ، في مثل سموّه، مدائح المسيح، ولم يصف أحدٌ، في مثل دقّته، شخص المسيح وصنائعه، وتفاصيل حياته المجيدة أو الأليمة، ولذلك عدّه الآباء إنجيليّ العهد القديم. ومن أقواله:

– «**ها إنّ العذراء تحمل فتلد ابنًا، وتدعو اسمه عمّانوئيل**» (٧: ١٤).

– «**الشعب السائر في الظلمة أبصر نورًا عظيمًا، والمقيمون في بقعة الظلام أشرق عليهم النور... لأنّه قد وُلد لنا ولدٌ، وأُعطي لنا ابنٌ، فصارت الرئاسة على كتفه، ودُعي اسمه عجيبًا، مشيرًا، إلهًا جبّارًا، أبا الأبد، رئيس السلام**» (٩: ١ و٥).

– «**هوذا إلهكم يأتي فيخلّصكم. حينئذٍ تتفتّح عيون العميان، وآذان الصمّ تتفتّح؛ وحينئذٍ يقفز الأعرج كالأيّل، ويهتف لسان الأبكم...**» (٣٥: ٤ – ٥).

– «**لقد خفض الساكنين في علاء، وحطّ المدينة المنيعة؛ حطّها إلى الأرض، وألصقها بالتراب**» (٢٦: ٥).

– «**أسلمتُ ظهري للضاربين، وخدّي للناتفين، ولم أستر وجهي من الإهانات والبصاق. السيّد الربّ ينصرني، لذلك لم أخجل من الإهانة، ولذلك جعلت وجهي كالصوّان، وأنا عالمٌ بأنّي لا أُخزى**» (٥٠: ٦ – ٧).

– «**لا صورة له ولا بهاء، فننظر إليه، ولا منظر فنشتهيه. مزدرىً ومتروكٌ من الناس. رجل أوجاعٍ، وعارفٌ بالألم، ومثل من يُستَر الوجه عنه. مزدرًى، فلم نعبأ به. لقد حملَ هو آلامنا، واحتمل أوجاعنا، فحسبناه مصابًا مضروبًا من اللّه ومذلّلاً. طُعِن بسبب معاصينا، وسُحق بسبب آثامنا. نزل به العقاب من أجل سلامنا، وبجرحه شُفينا. كلُّنا ضللنا كالغنم، كلّ واحدٍ مال إلى طريقه، فألقى الربُّ عليه إثم كلّنا. عومل بقسوةٍ فتواضع، ولم يفتح فاه. كحملٍ سيق**

إلى الذبح، كنعجةٍ أمام الذين يجزّونها. ولم يفتح فاه. بالإكراه وبالقضاء أُخذ، فمن يفكّر في مصيره؟ قد انقطع من أرض الأحياء، وبسبب معصية شعبي، ضُرِبَ حتّى الموت، فجُعل قبره مع الأشرار، وضريحه مع الأغنياء، مع أنّه لم يصنع عنفًا، ولم يوجد في فمه مكرٌ. والربّ رضي أن يسحق ذاك الذي أمرضه... يبرّر عبدي البارُّ الكثيرين، وهو يحتمل آثامهم، فلذلك أجعل له نصيبًا بين العظماء، وغنيمةً مع الأعزّاء، لأنّه أسلم نفسه للموت، وأُحصي مع العصاة، وهو حمل معاصي الكثيرين، وشفع في معاصيهم» (٥٣: ٢– ١٢).

* *

– من نبوءات دانيال

– «وكنت أنظر في رؤاي ليلاً، فإذا بمثل ابن إنسانٍ، آتٍ على غمام السماء؛ فبلغ إلى قديم الأيّام، وقُرِّب إلى أمامه، وأوتي سلطانًا ومجدًا، وملكًا. فجميع الشعوب والأمم والألسنة يعبدونه، وسلطانه سلطانٌ أبديٌّ لا يزول، وملكه لا ينقرض» (٧: ١٣ – ١٤).

مصادر وثنيّة

وثمّة نصوصٌ لمؤرّخين رومانيّين تشير إلى «المسيح»، مغفلةً اسم «يسوع»، وهي، غالبًا، تُسبغ على الجماعة المسيحيّة أوصافًا ذميمةً، وتعزو إليها التهم الرسميّة التي تذرّعت بها السلطات الحاكمة كي تسومها اضطهاداتٍ وحشيّةً، وتنكّل بها.

فالكاتب اللاتينيّ سُويتونيُس (٦٩ – ١٢٥) يلمح إلى المسيحيّة وإلى مؤسّسها، وإلى الاضطرابات التي خضّت روما، عامي ٥١ و٥٢، تحت حكم كلوديُس، وإلى الاضطهادات التي أنزلها نيرون، عام ٦٤، بالمسيحيّين الذين يصفهم بأتباع بدعةٍ جديدةٍ ووبيلةٍ.

والمؤرّخ اللاتينيّ تاشيتُس (٥٥ – ١٢٠) تحدّث عن المسيحيّين، فبيّن أنّ هذا الاسم أتاهم من «المسيح»، الذي، إبّان حكم تيبيريُس، أسلمه الوالي بُنطيُس بيلاطس إلى الصلب. غير أنّ بدعته البغيضة التي قُمعت في الحال برزت ثانيةً، لا في اليهوديّة

فحسبُ، حيث وُلد ذلك الشرّ، بل، أيضًا، في روما، حيث يتدفّق كلّ بشعٍ ومخزٍ في العالم، ويجد زبانيةً واسعةً. (على حدّ ادّعائه)

ويذكر تاشيتُس، أيضًا، أنّ الرومان شرعوا يعتقلون من يعترفون بإيمانهم المسيحيّ، وبناءً على إقراراتهم كانوا يلقون القبض على كثيرين آخرين. وهؤلاء، بعد أن فشلوا في إثبات تهمة حرق روما عليهم، أدانوهم بتهمة بغض الجنس البشريّ. ولم يقتصروا على إهلاكهم، بل كانوا يتّخذون منهم مادّةً للعبث، فيلبسونهم جلود حيوانات، لكي تمزّقهم أنياب الكلاب، أو إنّهم كانوا يعلّقونهم على صلبانٍ، ويطلونهم بموادّ مشتعلةٍ، وعند انصرام النهار، كانوا يحوّلونهم إلى مشاعلَ حيّةٍ تُضيء الظلام.

ويذكر «پلينُس الأصغر» (٦١ – ١١٣)، في إحدى رسائله إلى صديقه الإمبراطور أدريانُس، أنّه، إذ كان قاضيًا، في ولاية البنطس، مَثُل أمامه، بضعةٌ ممّن اتُّهموا بالمسيحيّة. وقد كانوا قلّةً، بادئ الأمر، وأنكرت حفنةٌ منهم دينها تحت التهديد والوعيد، أمّا الذين أبوا الإنكار، فقد أُعدموا. ثمّ تفاقم عددهم، وقد أجرى پلينُس نفسه تحقيقًا، فلم يعثر، في سلوكهم، على ما يوجب إدانتهم. بل إنّ كلّ ما وقف عليه هو اجتماعاتٌ صباحيّةٌ، في أيّامٍ محدّدةٍ، وأناشيد للمسيح الذي يعدّونه إلهًا، وقسَمٌ لا على ارتكاب جرائم، بل على انتباذ معاصٍ مثل السرقة واللصوصيّة، والزنى، والحنث بالوعد، وإنكار الأمانة: واجتماعاتٌ ليليّةٌ يقتسمون، في خلالها، وجبات طعامٍ مشتركةً، وبريئةً... بالإيجاز، لا شيء سيّئ، سوى إيمانٍ مفرطٍ بالخرافات جديرٍ باللوم، ولا سيّما أنّ تكاثر أعداد المسيحيّين قد أدّى إلى إقفار الهياكل الوثنيّة من روّادها، وتضاؤل عدد مشتري الضحايا المقدّمة للأصنام...

ولمّا تفاقمت الوشايات بحقّ المسيحيّين، وتبيّن أنّ كثيرًا منها كان افتراءً وكيديًّا، استشار پلينُس بهذا الشأن صديقه الإمبراطور المذكور، الذي أمر بأن يمثل الواشي شخصيًّا أمام القاضي، الذي يتعيّن عليه التحقّق من وشايته، فإن ثبتت صحّتها، أُنزلت العقوبة بحقّ المسيحيّ المتّهم، وإلاّ أنزلت بحقّ الواشي.

* *

لا مراء أنّ المصادر الوثنيّة ضئيلةٌ ومقتضبةٌ. فالمؤرّخون الذين أشاروا إلى ظاهرة يسوع وحركته، فعلوا ذلك بشكلٍ عابرٍ، لأنّهم لم يتوقّعوا لتلك الظاهرة غدًا. غير

أنّ منشأها، ودقّة المعلومات التي تشير إلى نشأة الجماعة المسيحيّة، وأثرها البليغ في المجتمع، ممّا نبّه السلطات إلى خطرها، تضفيان عليها قيمةً تاريخيّةً جديرةً بالاهتمام.

أمّا عن يسوع، وتعليمه، فالمصادر ثرَّةٌ وموثوقةٌ، وهي، في معظمها، مسيحيّةٌ؛ وتؤلّف مجموعتها أسفار «العهد الجديد»، وهي الوحيدة التي اعتمدتها الكنيسة، منذ البدء، وتضمّ الأناجيل الأربعة، وأعمال الرسل، ورسائل القدّيس بولس، ورسائل بطرس، ويوحنّا، ويعقوب، ويهوذا؛ وأخيرًا «رؤيا القدّيس يوحنّا».

وقبل أن نأتي على تفصيل هذه الأسفار، لا مفرّ من التنويه بأنّ الفترة الممتدّة بين القرن الثاني والقرن الخامس، قد شهدت ظهور أسفارٍ، وُصفت بأنّها «منحولة»، لأنّها افتقرت إلى المصداقيّة والجدّ، ولم تظفر باعترافٍ الكنيسة، فشحّت نُسَخُها، وضؤُل الاهتمام بها، واندثر معظمها، ما عدا نُتَفًا عُثِر عليها، هنا وهناك، وإشارات آباء الكنيسة إليها، واستشهادهم ببعضها، ودحضهم لمعظمها.

أَسْفَـارٌ مَنْـحُولَة*

تبلغ نحو ستّين عملاً، حاول واضعوها، بدوافع مختلفةٍ، تقليد الأسفار القانونيّة المعتمدة، فاتّخذ زهاء خمسة عشر، منها، تسمية «إنجيل»، ونُسبت إلى رُسُلٍ، أو إلى أسماءٍ مسيحيّةٍ كبيرةٍ، بُغيةَ إكسابها قيمةً ومصداقيّةً. فكان «إنجيل بطرس»، و«إنجيل توما» و«إنجيل برتلماوس»، و«إنجيل يعقوب»، و«إنجيل فيليبّس»، و«إنجيل الاثني عشر رسولاً».

ونُسب البعض الآخر إلى جماعات، فكان «إنجيل المصريّين»، و«إنجيل الناصريّين»، و«إنجيل العبرانيّين»، و«إنجيل العرب»، و«إنجيل الإيبيونيّين».

ومنها ما دُعي «أعمالاً»، تمثّلاً بـ «أعمال الرسل»، وقد عُرف منها خمسةٌ منسوبةٌ إلى كلٍّ من يوحنّا، وبطرس، وبولس، وأندراوس، وتوما. وهي تحاول إضاءة سِيَر الرسل؛ هذا، فضلاً عن «أعمال بيلاطس».

وسُمّي بعضها «رسائل»، تشبّهًا بمثيلاتها من وضع الرسل، ومنها «رسالة الرسل»، و«رسالة برنابا».

ووُضعت، أخيرًا، «رؤيا بطرس»، و«رؤيا بولس»، لكيلا تبقى «رؤيا القدّيس يوحنّا» بلا صنوٍ أو منافسٍ.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

بعض هذه الأسفار وُضع بنيّةٍ سليمةٍ، بغيةَ ردم الفراغ الذي خلّفته الأناجيل القانونيّة، باقتضابها الذي اقتصر على رسم الخطوط العريضة لسيرة يسوع، تاركةً تقوى المؤمنين في جوعٍ وفضولٍ إلى معرفة المزيد عن طفولة يسوع، وعن مريم أُمّه. هذا الفراغ حاول ملأه «إنجيل يعقوب»، الذي سرد سيرة العذراء، فبيّن اسمَيْ والديها، وظروف ولادتها العجيبة، وطفولتها في الهيكل. ومنه استمدّت الكنيسة بعض طقوسها، مثل تقدمة العذراء للهيكل.

هذا السفر، في جوهره، لم يبتعد كثيرًا عن الأناجيل القانونيّة، ولكنّه أورد أحداثًا نافلةً، أو غير لائقةٍ. وقد تعرّض، من بعد، إلى تحويراتٍ خطيرةٍ، فاشتُقّ منه «إنجيل متّى» المزيّف، في القرن السادس، و«ولادة مريم»، في القرن التاسع.

أمّا «إنجيل انتقال مريم»، فيصف موتها، والتفاف جميع الرسل الأحياء حول جثمانها، وانتقال هذا الجثمان إلى السماء. ويفصّل «إنجيل يوسف النجّار» سيرة مربّي يسوع.

ويسهب «الإنجيل العربيّ» في رواية خوارق واكبت مولد يسوع، وهربه إلى مصر، وإقامته فيها، وعودته إلى فلسطين، وكلّها من ابتداع خيال صاحبها. وقد أمعن هذا الإنجيل المزعوم في تشويه صورة يسوع العذبة، كما هي تتجلّى من خلال الأناجيل القانونيّة، فأظهره صَلِفًا، متعاليًا، عابثًا، يلهو بصُنع المعجزات، بُغية التظاهر، واقتناص إعجاب الرفاق، ويستخدم قدراته الخارقة للانتقام من خصومه، ويعامل بجفاءٍ، وقحةٍ، أُمّه ومربّيه، ومعلّميه، وأترابه، فهو، على سبيل المثال، يحوّل من يزعجونه إلى تيوس، ويقتل، بكلمةٍ، ولدًا صدَمه، ويشلّ يد معلّمٍ ابتغى تأديبه... أين هذه التخرّصات السمجة الممجوجة من وداعة يسوع، وبساطة إنجيله!

وهناك أناجيل استهدفت الإسهاب في وصف آلام يسوع، منها «إنجيل بطرس»، و«إنجيل نيقودمس» الذي يتخيّل هبوط يسوع إلى الجحيم.

من الأناجيل المنحولة ما ابتغى تصحيح بعض أقوال يسوع الواردة في الأناجيل القانونيّة، مثل «إنجيل الناصريّين» الذي وضعته جماعةٌ مسيحيّةٌ يهوديّةٌ في حلب، ويكاد لا ينأى عن إنجيل متّى، ولكنّه يُدخل عليه تعديلات، فيضع، مثلاً، على لسان يسوع، قوله: «أعطنا، اليوم، خبز الغد».

وكذلك هو «إنجيل العبرانيّين»، فهو، في جوهره، إنجيل متّى، وقد أُخضع لإضافاتٍ وحذفٍ. و«إنجيل بطرس»، الذي وُضع في سوريّة حوالي عام ١٣٠، ولم يجانب عقائد الأناجيل القانونيّة، ولكن تسلّلت إليه أخطاء تاريخيّةٌ، وتفاصيل من نسج الخيال.

بعض الأناجيل المنحولة أوردت أقوالاً تُرجّح نسبتها إلى يسوع، وقد أغفلها الإنجيليّون القانونيّون. بيد أنّ بعضها حرّف تعليم يسوع، واتُّخذ ذريعةً لدسّ بِدَعٍ.

فإنجيل الإيبيونيّين، وهم فئةٌ من النباتيّين، ادّعى أنّ يسوع حرّم تناول اللحوم. و«إنجيل المصريّين» أدان الزواج والعلاقات الجنسيّة.

ومن الأناجيل المنحولة ما اتُّخذ منبرًا لنشر التيّار «الغنوصيّ» الذي يزعم حصر الخلاص بنخبةٍ من المثقّفين، المهتدين بالعقل وحده. وشتّان بين هذه النظرة والملكوت الذي فتح يسوع أبوابه على مصاريعها للبسطاء والصغار، والفقراء، والمنبوذين!

يتّضح، إذن، أنّ من الأعمال المنحولة ما جاء ثمرة اندفاعٍ بريءٍ، وأضاف إلى الأناجيل القانونيّة معلوماتٍ كانت تقوى المسيحيّين الأوائل متعطّشةً إلى الاطّلاع عليها؛ ولكنّ هذه الأعمال افتقرت، في بعض أجزائها، إلى الدقّة والرصانة. وبعضها أورد أقوالاً ثمينةً نطق بها يسوع، واستشهد بها بعض آباء الكنيسة الأوّلين، بيد أنّ هذه الأقوال لم تكن أكثر من كوب ماءٍ في بحرٍ، واختلطت فيها شذرات ذهبٍ بأكوامٍ من العصافة. وبالإجمال لم تأتِ هذه الأعمال بأيّة إضافاتٍ جوهريّةٍ إلى الأناجيل القانونيّة، ولكنّها ألقت أشعّة ضوءٍ على عقليّة الجماعات المسيحيّة الأولى، والتيّارات التي كانت تتجاذبها.

بيد أنّ، من تلك الأناجيل، ما كان تحريفًا وقحًا لتعليم يسوع، أو تزويرًا سافرًا له. وقد حاول كاتبوها، من خلالها، دسّ سمّ بِدَعهم الهدّامة، تحت قناع أسفارٍ نسبوها، افتئاتًا، إلى أسماء أعلامٍ جليلةٍ، كي يضمنوا لها المصداقيّة والرواج. ولكنّ آباء الكنيسة كانوا لها بالمرصاد، فعارضوها بحزمٍ، وكافحوها بعنفٍ، فما عتّمت أن تلاشت آثارها، خلا قلّةً دُفنت في جرارٍ، تحت الأرض، إلى أن تهيّأ لها من ينبشها، بعد قرونٍ، ويبرزها إلى النور، كي تصبح من شواهد الماضي.

ولم يتوقّف الانتحال والتزوير على القرون الأولى، إذ ما انفكّ أصحاب غاياتٍ وضيعةٍ يدّعون نبش أناجيل أُخفيت عمدًا، مثل ما دُعي «إنجيل برنابا»، المصنوع في القرن السادس عشر، والحافل بالمغالطات الفظّة، والذي لا يساوي قيمة الحبر الذي كتب به، رغم جهود بعض حسيري البصر، لإسباغ شأنٍ عظيمٍ عليه.

ومنذ البدء، تجلّى البون شاسعًا بين الأسفار القانونيّة، الملهمة، المتألّقة ببساطتها، وسموّها، وصدقها، وحقيقة نسبتها إلى الرسل، والأسفار المنحولة التي أوجز رينان تقييمها بقوله:

«إنّ الأناجيل المنحولة ليست إلاّ تحريفًا مضحّمًا وسخيفًا، وصبيانيًّا، للإنجيل الرسميّ. وإنّه لمنتهى التطاول على الأدب المسيحيّ أن توضع هذه المؤلّفات التافهة على قدم المساواة مع الروائع لكلٍّ من مرقس، ولوقا، ومتّى، كما أنّه يستحيل تصوّر ما هو أكثر سخفًا وهزالاً منها...»(*).

(*) الأب الياس زحلاوي: **حول الإنجيل** و«**إنجيل برنابا**» – المطبعة البولسيّة ١٩٧١.

العَهْـــدُ الجَـــديد

المصادر الحقيقيّة، الصافية، الوحيدة، لمعرفة يسوع، هي مجموعة الأسفار القانونيّة التي تؤلّف «العهد الجديد»، أي الوجه الجديد للمعاهدة بين الله والبشر، التي دمغها يسوع بدمه.

ومن المعروف أنّ يسوع لم يكتب شيئًا، بل إنّه، مرَّةً واحدةً، رسم بإصبعه على التراب خطوطًا مبهمةً ذرتها النسائم، ومحتها الأقدام، بعد أن أدّت مهمّتها في فضح نفاق المرائين.

وقد أفضى موت يسوع المهين على الصليب إلى زعزعة إيمان تلاميذه، فترةً وجيزةً. بيد أنّ قيامته المنتصرة، في اليوم الثالث، أزاحت عن نفوسهم كلّ ريبةٍ. وجاءت العنصرة فاستضاءت عقولهم بأنوار الروح، وتشدّدت قلوبهم بمنعة قوّته، فانطلقوا يبثّون الرسالة التي انتدبهم لها، رسالة نشر معرفته وحبّه، في كلّ أصقاع المسكونة.

كانت ذكرى حضوره وأفعاله ما فتئت حارّةً في قلوبهم، وكان صدى أقواله ما انفكّ يدوّي في حنايا صدورهم، فأدّوا للمعلّم شهادةً حيّةً، مضطرمةً، حارقةً، واثقةً، عبّر عنها القدّيس يوحنّا الإنجيليّ، بألفاظٍ لاهثةٍ، ملتهبةٍ، في مطلع رسالته الأولى، التي استهلّها بقوله: «**إنّ ما كان من البدء، ما سمعناه، وما رأيناه، وما تأمّلناه، وما لمسته أيدينا، في شأن «كلمة الحياة» - لأنّ «الحياة» قد ظهرت، ولقد رأيناها، ونشهد لها، ونبشّركم بهذه «الحياة» الأبديّة، التي كانت لدى الآب، وظهرت لنا. إنّ ما رأيناه، وسمعناه، به نبشّركم**» (١ يوحنّا ١: ١-٣).

وقد تلقَّف ألوف المؤمنين هذه البشرى، وهذه الرسالة، كنزًا ثمينًا، وشاركوا بها أفواج المؤمنين الجُدد، وتناقلوها شفويًّا، وبأمانةٍ. ولكن، بعد أن تكاثرت بُؤَر الإيمان المسيحيّ في العالم، وخوفًا على إرث الرسل من أن يطاله انتقاصٌ أو ضياعٌ،

دُوِّنت، بادئ الأمر، مجموعات أقوال يسوع، وأعماله الخارقة، كي تكون مرجعًا لكلّ مؤمنٍ.

وكان يحدو الذين دوّنوها اليقين بأنّهم يدوّنون تدخّل اللّه في العالم، وبأنّ ما حدث «مرّةً»، قد بات، في يقين الإيمان، حَدَثًا إلهيًّا، أبديًّا.

رسائل بولس

من المرجّح أنّ بولس قد استعان بتلك المجموعات على نشر رسالة يسوع في أوساط العالم الوثنيّ، بدليل أنّه، عندما اضطرَّته مقتضيات الرسالة إلى إنفاذ رسائل إلى الجماعات المسيحيّة الوليدة، عشرين سنةً عقب صلب يسوع وقيامته، وقبل تدوين الأناجيل القانونيّة، لم يحتج إلى الإسهاب في سرد أقوال المخلّص وأفعاله، لأنّه كان يخاطب مبشَّرين اطّلعوا على هذه الأفعال، وحفظوا تلك الأقوال، وتبنّوا عادات المسيحيّين، ولا سيّما الالتئام حول الموائد الإفخارستيّة.

لذلك اقتصر الرسول بولس، في رسائله، على استخلاص العِبَر العمليّة والخلاصيّة من تعليم المخلّص، وعلى إبراز سموّ روحانيّته، وجدّته، وتميّزه عن كلّ ما سبقه من تعاليم، ونأيه عن اليهوديّة، بحيث عجز حتّى تلاميذ الربّ، حتّئذٍ، عن استقصاء كلّ أبعاده.

وقد اضطلع بهذه المهمّة بإيمانٍ ملتهبٍ، وعبقريّةٍ فذّةٍ، حتّى قيل فيه: «لم يكتب أحدٌ مثل هذا الرجل. يمكن ذكر كتّاب أبلغ فصاحةً، وأصفى لغةً، وأكثر توازنًا، ولكن، لم يوجد، قطّ، أكثر منه هوًى، وأصالةً، وإلهامًا. الإنسان فيه يطغى على الكاتب. عندما يخاطب فلاسفة اليونان، يرقى إلى بلاغةٍ كفيلةٍ بتسنّمه مرتبة أفصح كتّابهم. ولكنّه عندما يتوجّه إلى جماعات المسيحيّين البسطاء، فهو يستخدم مفرداتهم، والأسلوب الذي يسهل عليهم فهمه. ولكنّه يسكب فيه نار هواه الذي ينفذ، ويُقنع، ويحرّك الأحشاء، ويهزّ الوجدان».

رسائل بولس هي أولى أسفار العهد الجديد القانونيّة، وتمثّل نحو ربعها، وركنًا أساسيًّا من أركانها.

ومع أنّ الرسول لم يتطرّق إلاّ اتّفاقًا لتفاصيل سيرة يسوع، ما خلا وصفه لتأسيس الإفخارستيّا (١ كورنثس ١١: ٢٣– ٢٦)، ولم يستشهد إلاّ بالزهيد من أقواله، إلاّ

أنّه، باقتطاف مقاطع من رسائله إلى الرومانيّين، والكورنثيّين، والغلاطيّين والعبرانيّين، يمكن جمع باقةٍ صغيرةٍ كفيلةٍ بتأليف سيرةٍ موجزةٍ ليسوع. وتكتمل هذه الباقة بمقاطع من «أعمال الرسل» التي دوّنها أمين سرّه، ورفيق رسالته، الإنجيليّ لوقا.

بين هذه السيرة الموجزة والأناجيل، ما من خلافٍ في الفحوى، وإنّما الفرق كلّه في المساحة والتفاصيل، والغَرَض.

مَا معنى الإنجيل؟ (*)

لفظة «إنجيل» تعريبٌ لكلمة «إڤنجيليون» اليونانيّة، التي كانت تعني، أصلاً، مكافأة من يزفّ بشرى سارّةً. ثمّ استُخدمت لتعني البشرى ذاتها.

وقد غدت عند المسيحيّين مرادفًا لرسالة يسوع، وتعليمه، ولبشرى الملكوت التي زفّها إلى العالم، بحياته، وصلبه، وقيامته؛ بأفعاله وأقواله.

بهذا المعنى كتب الإنجيليّ مرقس (١: ١٤ – ١٥): «أتى يسوع إلى الجليل ينادي بإنجيل الله، قائلاً: «**لقد تمّ ملء الزمان، واقترب ملكوت الله، فتوبوا، وآمنوا بالإنجيل**».

ثمّ أُطلقت لفظة «إنجيل» على الأسفار التي دوّنت مغامرة يسوع، على كوكبنا، بوحي الروح، وبأقلام حفنةٍ من الشهود الأوفياء، الذين اعترفت الكنيسة بشهادتهم، دون سواها. ومنذئذٍ بات «الإنجيل» يعني، في الآن عينه، البشرى، والكتاب الذي يحتوي فحوى هذه البشرى، بل يسوع نفسه، عطيّة الله للبشر، ووابل العطايا التي جاءهم بها يسوع نفسه.

الإنجيل، إذن، كائنٌ يحيا، ويعمل، ويتكلّم، ويتألّم، ويموت، ويقهر الموت ويقوم، تحت سمعنا وبصرنا، من خلال شهادات شهودٍ أوفياء.

الأناجيل هي رسالة يسوع كلّها. هي يسوع ذاته، حيًّا فيما بيننا.

وهي تعبيرٌ مادّيٌّ مكتوبٌ عن تجربةٍ حيّةٍ خاضها رُسل يسوعٍ، فقلبت مصيرهم وكيانهم، وعن حَدَثٍ بدْعٍ أسفر عن عالَمٍ جديدٍ، وعن كائنٍ فذٍّ، لم يوجد، قطّ، له نظيرٌ، مذ وُجد الكون.

فكلام الله ليس ألفاظًا مدوّنةً في كتابٍ، بل هو كلمة الله التي لبست جسدًا، ابنه الذي أرسله للعالم مخلّصًا. وما الأناجيل المكتوبة سوى السبيل إلى هذه الكلمة، إلى ابن الله وأبيه وروحه القدّوس.

(*) راجع مقدّمة «**يسوع في إنجيله**» صفحة ٩، و«**الإنجيل معين حياة**» صفحة ١٨.

نُشُـــوءُ الأَنَاجِيــل

في غضون سنواتٍ معدوداتٍ، عقب قيامة يسوع وصعوده إلى السماء، انتشرت المسيحيّة في شتّى أرجاء المسكونة، انتشارَ النار في الهشيم، مع أنّها لم تَعِدْ، على هذه الأرض، إلاّ بالدرب الوعر، والفقر، وحمل الصليب، والتضحية بالذات، ولم تَعِدْ، في الآخرة، إلاّ بسعادة مشاهدة الله. وسرعان ما تخطّت تخوم فلسطين والعالم اليهوديّ، وغزت سوريّة، وآسية الصغرى، واليونان، وإيطاليا، واقتحمت الأكاديميّات، ونوادي العالم الرومانيّ واليونانيّ.

لم يستخدم دُعاتها سيفًا ولا مدفعًا، ولم يكن لهم جيوشٌ ولا أساطيل، وما كانوا يحملون من سلاحٍ سوى بشرى يسوع يعلنونها، وقدوة حياته يرفعونها مثلاً، وحبٍّ متأهّبٍ لكلّ تضحيةٍ واضطهادٍ، وخدمةٍ سمحاء متواضعةٍ، تستعذب بذل الذات بفرحٍ.

المسيحيّون الأوّلون كانوا يحيون حضور يسوع الذي كان ما برح حارًّا في صدورهم، نابضًا في أذهانهم.

وكان الربّ قد انتدب رسله وشهوده لنشر رسالته، مع أنّه، هو، لم يكتب شيئًا، إلاّ في ألواح النفوس، وعلى صفحات القلوب. فكان لا بدّ من استلهام التجربة الحيّة التي خَبَروها من الحياة معه.

شهودُ يسوع قومٌ بسطاء، لم يكونوا، في ذواتهم، شيئًا، ولا كانوا يملكون شيئًا. علمهم كلّه يُختزَل في كائنٍ واحدٍ: يسوع. وحكمتهم كلّها تنبع منه. كنزهم كلّه ثاوٍ فيه، وكلّ مصيرهم منحصرٌ في رسالته، وحاديهم الإيمان والحبّ. إيمانهم بلا حدودٍ، وحبّهم بلا نهايةٍ. حياتهم وقفوها على خدمة معلّمهم، ولم يستَبْقوا منها شيئًا. لقد آمنوا أنّهم أعضاؤه، وأغصان كرمته، فما من قوّةٍ على الأرض، أو في السماء، قادرةٌ على فصلهم عن حبّه.

فلا أحدٌ، مثل يسوع، استطاع أن يصوغ كيان أتباعه، ويبثّهم روحه، قوّةً جديدةً، منيعةً، حيّةً، شخصيّةً.

ربّما لم يدركوا بعض أقواله العسيرة الفهم، ولكنّهم نقلوها بأمانةٍ، ودقّةٍ، مختومةً، أصيلةً، حيّةً، دافئةً، مثلما خرجت من شفتيه. لقد وضعوا صخر أقواله، ولم يجرؤوا على مسّه، أو نحته، أو صقله، ولا استحلّوا تشويه أيّة لفظةٍ من ألفاظه. لقد أحبّوا يسوع حبًّا جمًّا، وحَسْبُ هذا الحبّ مصداقًا للأناجيل التي دوّنوها.

وقد حرّرتهم قيامة يسوع من كلّ ريبةٍ وخوفٍ. وبات الناهض من الموت أقرب إلى أذهانهم وقلوبهم من أيّ وقتٍ مضى. وإن أكرههم الاضطهاد على الهجرة، فقد حملوا تلك البشرى معهم، أينما شدّوا الرحال.

* *

ولا ريب أنّ تعليم يسوع لاقى أجمل ترحيبٍ لدى نفوسٍ كثيرةٍ تركتها عبادة الأصنام، أو عبادةٌ مشوّهةٌ لله الواحد، في جَدْبٍ، وجوعٍ، وفراغٍ. فقد لبّى هذا التعليم أعمق تطلّعات الإنسان، القابعة في أفضل قطاعٍ من ذاته، فتلقّفتْه الأذهان والقلوب في شَغَفٍ وفرحٍ.

هذا الانتشار السريع والواسع أبرز ضرورة وجود مرجعٍ مشتركٍ واحدٍ موثوقٍ، ينعم بإجماع الرسل، واعتراف الكنيسة، ويضمن مصداقيّة الشهادة، وسلامة التعليم، ويحفظ، بأمانةٍ، بشرى يسوع، وفحوى رسالته، ومثال حياته، ويدوّن، بدقّةٍ، أفعاله، وأقواله، ولا سيّما أنّ الاضطهادات أخذت تحصد الرسل واحدًا فواحدًا؛ والانتشار السريع نفسه كان فرصةً لمن لم يُلمّوا إلمامًا سليمًا كاملاً بتعليم الربّ، أو لمن لم يَرُقْ لهم هذا التعليم، من يهودٍ وسواهم، كي يحرّفوه، ويدسّوا فيه نزعاتهم الوبيلة، أو ينقلوه مشوّهًا.

وانبرى لهذه المهمّة أربعةٌ ممّن انحفرت أقوال الربّ وأفعاله في صميم قلوبهم، ودمغت ذاكرتهم ببصمةٍ لا تمّحي، بحيث، حتّى لو هم شاؤوا، لما استطاعوا تدوينها إلاّ كما شهدوها، وسمعوها، ولمسوها. والذين، من الرسُل، لم يدوّنوا شهاداتهم بيدهم، أوكلوا هذه المهمّة إلى أمين سرٍّ وفيٍّ. وهكذا وُضعت أربعة أناجيل، دُعيت بالقانونيّة، أي إنّها تمتّعت باعتراف الرسل، والكنيسة الأولى، خلافًا لأناجيلَ مزعومةٍ أُخرى.

واحترامًا لحرّيّة المؤمنين لم تقتصر الكنيسة على إنجيلٍ واحدٍ، بل اختارت أربعةً تتّفق في الجوهر، وتختلف في بعض التفاصيل. كلٌّ منها طريقٌ إلى يسوع، ونورٌ يضيء الوجود. ليس لأحدها أفضليّةٌ على الآخر، وللقارئ حرّيّة اختيار هذا أو ذاك، والانتقال من هذا إلى ذاك، إغناءً لصورة يسوع في نفسه، وتلبيةً لاحتياجاته.

هذه الأناجيل الأربعة هي التي اخترقت عشرين قرنًا، وانتهت إلينا متألّقةً بكلّ أصالتها، وسموّها، ونقائها، وصدقها، وعلى نحو ما ألهمها الروح لمدَوّنيها، وهم يوحنّا ومتّى، وكلاهما من الرسل الاثني عشر، ومرقس الذي دوّن شهادة بطرس، والذي، كان، منذ طراوة عوده، على صلةٍ وثيقةٍ بأحداث المسيحيّة الأولى؛ وأخيرًا لوقا، الذي اعتنق المسيحيّة في أنطاكية، ودبّج ملحمة انتشارها، في سفر «أعمال الرسل»، وتطوّع لمرافقة بولس ومساعدته في العديد من رحلاته الرسوليّة، فنقل شهادته واغتنم كلّ فرصةٍ متاحةٍ كي يستقي شهاداتٍ فريدةً ممّن كانوا على صلةٍ وثيقةٍ بيسوع، ولا سيّما أمّه العذراء.

وقد أبرز كلٌّ من هؤلاء الإنجيليّين وجهًا من وجوه شخصيّة يسوع اللامحدودة.

عن هذه الأناجيل يقول الأب «جيرار بيسّيير»:

«أربعة كتيّباتٍ اخترقت عشرين قرنًا، على البواخر المبحرة من فلسطين إلى مصر، ومن أنطاكية إلى روما، ومن أثينا إلى الإسكندريّة؛ كان المسافرون يحملونها داخل أمتعتهم الهزيلة. وعلى الطرقات الرومانيّة نحو سوريّة، وجرمانيا، وبلاد الغال، كان هذا أو ذاك من تلك الكتيّبات طيّ صرّة الثياب الخفيفة.

«لو تيسّر اقتفاء مسيرتها، من خلال نقاطٍ مضيئةٍ، على خريطة العالم، لشوهدت وهي تتقدّم من قرنٍ إلى قرنٍ، عبر البحار والمحيطات، والجزر والقارّات، بحيث غدت، اليوم، منتشرةً في كلّ مكانٍ. وقد تُرجمت إلى ألفٍ وتسع مئة لغةٍ مختلفةٍ، وبات بمكنة تسعة أعشار البشر مطالعتها بلهجاتهم الخاصّة.

«الأناجيل جزءٌ من كنز البشريّة المشترك. وهي، خاصّةً، فريدةٌ ولا غنى عنها للمسيحيّين الذين يكتشفون فيها البشرى الجديدة، البشرى المطلقة، التي تحوّل كلّ حياةٍ بشريّةٍ، وتضيئها، بل تحوّل وتضيء حياة البشريّة جمعاء».

ميزات الأناجيل

تتميّز الأناجيل بقصر المسافة الزمنيّة الممتدّة بين الحدَث وتدوينه، وأيضًا بين تدوين النصّ الأصليّ والنُسَخ التي ذاعت عنه. فالسفر الأوّل الذي دوّن أعمال يسوع وأقواله، كان بمتناول المؤمنين قبل انقضاء عشرين عامًا على مغادرته أرضنا.

ففي إحدى مكتبات منشستر، في بريطانيا، أجزاء صغيرة من البرديّ تحمل مقاطع من رواية الآلام كما رواها الإنجيليّ يوحنّا، يعود تاريخها إلى العام ١٣٥، أي إلى ما لا ينيف عن أربعين أو خمسين سنة على زمن تدوين نصّ ذلك الإنجيل الأصليّ. في حين أنّ نسخ أعمال أشهر المؤلّفين اللاتين والإغريقيّين، لم تظهر إلاّ بعد انقضاء قرونٍ على تدوين نصوصها الأصليّة. فهي أربعة قرونٍ لأعمال ڤرجيليوس، وثلاثة عشر قرنًا لمآثر أفلاطون، وستّة عشر قرنًا لأعمال أوريپيدُس.

مئات الكتّاب، منذ القرن الثاني، استشهدوا بآلاف المقاطع من الأناجيل، وهي مطابقةٌ للنصوص التي بحوزتنا. ومنذ ذلك القرن انتشرت ترجماتٌ إلى اللغات اللاتينيّة، والسريانيّة، والقبطيّة. وإن كان، ثمّة، أيّ تباينٍ بينها وبين نصوصنا، فهو لا يمسّ الجوهر في شيءٍ، بل هو تباينٌ في التعبير ناجمٌ عن تباين الترجمات، وأحيانًا عن خطإٍ في النسخ.

هذه المسافة القصيرة بين الحدَث وتدوينه، انتصبت حاجزًا دون تسلّل الأضاليل، وأيّ ضربٍ من ضروب التزوير. فشهود العيان كانوا ما زالوا أحياءً، وفئةٌ كبيرةٌ منهم كانت تضمر ليسوع ولأتباعه الضغينة، وهم كانوا كفيلين بتكذيب كلّ مختلَقٍ، أو كلّ مغالاةٍ. وقد سارعت الكنيسة نفسها إلى إدانة كلّ ما صدر من هذا القبيل. ولم تستبقِ إلاّ ما دمغه الروح بخاتم الصدق المحقّق.

وتتميّز الأناجيل بأنّها شهادةٌ أمينةٌ ثبّتت، كتابةً، واقعًا حيًّا، وأَحداثًا كانت ما برحت نابضةً في أذهان الشهود وقلوبهم. وقد التزموا، في نقلها، الدقّة والصدق،

لأنّهم أحبّوا بطلها، وعبدوا فيه إلهًا. فإن كان الجند، الذين يتّصفون، عمومًا، بالجهل والسماجة، عندما أُمروا بالقبض على يسوع، لم يتمكّنوا من الاضطلاع بمهمّتهم، لأنّهم سمعوه فوجدوا أنّ ما من إنسانٍ يتكلّم مثله، فكم بالأحرى حرص تلاميذه وشهوده على الدقّة والأمانة في تبليغ هذه الأقوال ذات الطابع الفائق الطبيعة، التي تتخطّى كلّ المعايير البشريّة ! وما أحرانا بتصديقهم!

لقد اعترف رينان نفسه: «إنّ ضربًا من الألق الذي يقرن العذوبة بالروعة، بل أقول إنّ قوّةً إلهيّةً تميّز هذه الأقوال، وتسهّل على الناقد تمييزها وتعرّفها». تكفي مقارنتها بأيّة أقوالٍ أُخرى، حتّى بأقوال تلاميذ يسوع أنفسهم، أو بكتابات رسوله بولس، لتبيّن فرادة هذه الأقوال التي تجمع سموًّا إلهيًّا إلى بساطةٍ طفوليّةٍ.

* *

وتمتاز شهادة الأناجيل بموضوعيّتها وحيادها، وواقعيّتها. فهي مجرّد شهاداتٍ، لا تجادل، ولا تعرض آراءً أو نظريّاتٍ، ولا تفسّر، بل تبسُط وقائع، وتبلّغ أقوالاً، وتؤكّدها. الكاتب، فيها، واقعيٌّ، راسخ الأَقدام على الأرض، ولكنّه متوارٍ، إلاّ في ظهورٍ عابرٍ، كما في مقدّمة الإنجيل الثالث، أو عَرَضًا في الإنجيل الرابع، للتأكيد على أنّه مجرّد شاهدٍ.

بيد أنّ الإنجيليّين، وهم يروون أَحداثًا واقعيّةً، مقتنعون بأنّ هذه الوقائع مُثقَلةٌ بمعانٍ تتخطّى الحَدَث الصرف، شأوًا بعيدًا.

ومن أنصع البراهين على أمانة الإنجيليّين ومصداقيّتهم إحجامهم عن أيّة محاولةٍ لستر أخطاء تلاميذ الربّ، ومواطن وَهَنهم. فقد أوردوا، بمنتهى البراءة والصدق، مآخذ يسوع عليهم من جرّاء بلادة أذهانهم، وقصورها عن الإدراك، ودناءة تطلّعاتهم، أحيانًا.

ولم يتحرَّجوا من وصف تقلّب زعيمهم بطرس، وتذبذبه، وإنكاره للربّ في محنته. ولم يغفلوا مطالبة التلميذ الحبيب يوحنّا وأخيه يعقوب بالمناصب الأولى في المملكة التي ظنّوها أرضيّةً ووشيكةً، ولا سورات غضبهما، ونزعتهما إلى الانتقام. وفضحوا عناد توما في رفضه الإيمان بقيامة الربّ إلى أن دعاه الربّ إلى جسّه، وكذلك بطء فهم فيليبّس. بل لم يتحرّجوا من ذكر أنّ نفرًا من أقرباء يسوع اتّهموه بالجنون، وحاولوا الحجر عليه.

وقد دُوّنت الأناجيل، بضع سنواتٍ عقب الأحداث التي كانت ما برحت حارّةً مختلجةً، ولم يكن بوسع الإنجيليّين تلفيق شهاداتهم بوجود من عاشوا تلك الأحداث عن كثبٍ. وحده يوحنّا دوّن إنجيله في غروب القرن الأوّل، ولكنّ الأحداث التي رواها كانت محفورةً بعمقٍ، وبأدقّ تفاصيلها، في قلبه العاشق، وذهنه النيّر، كما يتّضح من دقّة جزئيّات روايته.

الإنجيليّون، إذن، كانوا يتمتّعون بالاطّلاع الدقيق، الوثيق، وبالأمانة والمصداقيّة، وإن كانت عناصر الأناجيل الرئيسة أحداثًا وأقوالاً، فالأحداث لم يكن بوسعهم نسيانها، والأقوال بعضها ما كان ملتصقًا بالأحداث، وبعضها خطاباتٌ يتجلّى فيها أسلوب يسوع الفريد، الذي لا يمكن مقارنته بأيّ خطابٍ آخر.

لا ريب أنّ الأناجيل كتبٌ تاريخيّةٌ، ولكنّها، فوق ذلك، تاريخ خلاصٍ، وشهادة إيمانٍ، ودعوةٌ إلى الإيمان. فالإنجيليّون لم يستهدفوا مجرّد رواية سيرة بطلٍ، بل ابتغوا إضرام نار الإيمان بإلهٍ متجسّدٍ. وقد استندت روايتهم على وقائع تاريخيّة، ولكن كان ينيرها إيمانٌ يودّ نشر عدواه.

ومع أنّ الأناجيل شهادات حبٍّ، لا نقف فيها على أيّ انفعالٍ، أو شعورٍ حميمٍ، أو صيحة إعجابٍ، أو أيّة خاطرةٍ شخصيّةٍ. بل حيادٌ تامٌّ، وواقعيّةٌ مطلقةٌ، وذكرياتٌ وشهاداتٌ منقولةٌ بتجرّدٍ وأمانةٍ. ربّما كان لبعض الأحداث وقعٌ خاصٌّ على إنجيليٍّ أكثر من سواه، فجاءت روايته أشدّ نبضًا بالحياة، وأوفر تفصيلاً. وكان للظروف التي كتب فيها كلٌّ منهم، وللجمهور الذي توجّه إليه، يدٌ طولى في استقائه من مستودع أقوال يسوع وأفعاله الثرّ، ما يخدم هدفه. غير أنّ كلّ شيءٍ يأتي من يسوع، فهو وحده الذي يحيا في الأناجيل، ويُسمع صوته.

أولئك الجليليّون البسطاء ما كان بوسعهم وضع تلك الكتب الرائعة، فاقتصروا على سرد ذكرياتهم، وساعدهم الربّ على التحرّر من أوهام شعبهم، واعتناق أقوال المعلّم بإيمانٍ سحيقٍ. وكانت شهادتهم وفاءً للمعلّم، وامتثالاً لأوامره: «**إنّي قد أُعطيت كلّ سلطانٍ في السماء وعلى الأرض: فاذهبوا، إذن، وتلمذوا جميع الأمم، وعمّدوهم باسم الآب، والابن، والروح القدس. وعلّموهم أن يحفظوا كلّ ما أوصيتكم به. وهاءَنذا معكم كلّ الأيّام، إلى انقضاء الدهر**» (متّى ٢٨ : ١٩ – ٢٠)، وكانت تنير تلك الشهادة وتقودها إلهامات الروح القدس.

هنا يكمن سرّ جمال الأناجيل، وبساطتها، وقدسيّتها، وتأثيرها. فليست نفس كتّابها، وروحهم، وعبقريّتهم هي التي تسري في سطورها، بل نفس بطلها، وروحه، وعبقريّته. إنّه يحيا من خلالهم، ويعمل، ويتكلّم، ويؤثّر، وينير، ويقدّس. عذوبته تشعّ وتغمر، وسحره يفتن ويجذب، مَثَله يحدو ويدفع، وطيبته تتألّق وتنعش. من خلال الأناجيل نسير في إثره، مع الفقراء الذين كانوا يواكبونه، ومع الخطأة والمرضى الذين كان يبرئ جراحهم الخفيّة والمرئيّة؛ ومن خلالها يمكن الجلوس مع الجماهير لسماع دروسه، على هضاب الجليل المخضلّة، أو على حصباء ضفّة البحيرة، ويتسنّى توسّم صورة الله في محيّاه. وهكذا نتبيّن بأنفسنا أنّ ما من أحدٍ تكلّم في مثل سلطته، أو أغدق مثل إحساناته.

ولكن لا مندوحة من الإشارة إلى أنّ الإنجيليّين توخّوا، في المقام الأوّل، رسم صورة يسوع، وتبليغ رسالته، فكانوا رُسُلاً لا مؤرّخين، بالمعنى الدقيق للكلمة، فلم يعيروا كبير اهتمام لتسلسل التواريخ ولتحديد الأمكنة، وأغفلوا الكثير من التفاصيل التي يدفعنا الفضول إلى معرفتها، مثل قامة يسوع، ولون شعره وعينيه، وقسمات وجهه، كما أغفلوا الكثير من أقواله وأفعاله، مقتصرين على نماذج منها. وهذا ما أكّدته خاتمة إنجيل يوحنّا: «**وأشياء أُخرى كثيرةٌ صنعها يسوع، لو كتبت واحدًا فواحدًا، لما ظننتُ العالم كلّه يسع الصحف المكتوبة**» (٢١: ٢٥).

ومن ثمّ، ليس في الأناجيل من العناصر ما يفي بكتابة سيرة يسوع، في مفهوم السيَر الحديث. إنّها تروي أحداثًا واقعيّةً تتعلّق بشخصيّةٍ فذّةٍ تركت في التاريخ بصماتٍ أبديّةً. بيد أنّ أُسلوبها ليس أسلوب المؤرّخين الواقعيّين كما نفهمه اليوم.

فثمّة فتراتٌ عريضةٌ من حياته يكتنفها الغموض، ولا سيّما حياته الخفيّة التي استغرقت نحو ثلاثين عامًا من عمره الذي لم يتجاوز الثلاثة والثلاثين. فمن الإنجيليّين من لم يذكر هذه الفترة بكلمةٍ واحدةٍ، ومنهم من اختزلها بأسطرٍ معدوداتٍ.

فقد كان جلّ همّ الإنجيليّين إبراز ملامح حياة يسوع العلنيّة ورسالته. ولكن من المحقّق أنّ في ما كتبوه، وما حفظوه للبشريّة من أقواله وأفعاله، ما يكفي لرسم صورةٍ أمينةٍ ومُحكَمةٍ ليسوع، ولبسط جوهر تعليمه. ولو هم أوردوا مزيدًا من التفاصيل، لما اختلفت صورته عن تلك التي رسخت في مخيّلتنا، ولما تباينت تعاليمه عن تلك التي انحفرت في نفوسنا.

فالصورة التي رسمها الإنجيليّون هي من الصدق والأصالة، بحيث يعجز أحذق مؤرّخٍ مزوّدٍ بأغنى وسائل العلم، ومتقنٍ لأسمى أساليب الفنّ، عن رسم صورةٍ أصفى منها لأكثر وجوه البشريّة جمالاً وفتنةً.

وليس ما يضاهي الأناجيل مرآةً تعكس، بأمانةٍ وروعةٍ، سيرة يسوع وتعليمه، بحيث تتلاشى كلّ محاولةٍ لكتابة سيرة يسوع، حيال هذه الكتب الأربعة الملهمة، التي لا يُسبَر لها غورٌ. هذا ما استخلصه الأب لاغرانج من سنوات دراسةٍ وتمحيصٍ متماديةٍ، فقال: «الأناجيل هي سيرة يسوع الوحيدة التي يمكن كتابتها، وما علينا سوى الاستغراق في فهمها على أمثل وجهٍ مستطاعٍ».

وتبقى الأناجيل نموذجًا فذًّا للبساطة المقرونة بالعظمة، وللإيجاز الموشّى بالتفاصيل المعبّرة المؤثّرة. واضعوها لم يبتغوا سوى الشهادة لمعلّمهم بإخلاص، وبلغةٍ تكاد تكون سليمةً، ولكنّهم، بفضل صدقهم، خلّفوا أثرًا يتحدّى الزمن، ولا يني يُخصب البشريّة.

وستظلّ رسالة الإنجيل تخترق التاريخ، خالدةً ما دامت قائمةً البشريّةُ التي تعبّر هذه الرسالة عن رجائها. فالإنجيل ليس خطابًا، بقدر ما هو حضورٌ حسّيٌّ، حضور يسوع، «النفس الكبيرة» التي تواكب نفوسنا، والقلب الذي يسع الكون، والحبّ الذي يخفق بين ضلوعنا.

الأناجيل كتب حياةٍ، وصالحةٌ مدى الحياة، في كلّ جيلٍ.

ولا تعارض بين «يسوع التاريخ» و«يسوع الإيمان». فيسوع الناصريّ نفسه هو الذي يحيا في قلوب المؤمنين به، ويحيون هم فيه.

أربعُ لوحاتٍ لوجهٍ واحدٍ

منذ نشأتها اعتمدت الكنيسة أناجيل أربعةً، مصدرًا وحيدًا لأعمال يسوع وأقواله. موضوع الأسفار الأربعة واحدٌ، والبشارة واحدةٌ ولكنّ المبشّرين متعدّدون. غاياتهم واحدةٌ وهي تبليغ رسالة ابن الله إلى البشر. ولكن بما أنّ كلاًّ منهم خاطب جمهورًا مختلفًا، فقد غرف كلٌّ منهم من نبع الإنجيل الحيّ الذي بشّر به الرسل والذي اختزنه شهود العيان، ما يخدم هدفه. وكلٌّ منهم أبرز جانبًا من شخصيّة يسوع الفذّة، التي يتعذّر الإحاطة بها إحاطةً شاملةً. وهكذا تضافرت الأناجيل الأربعة على رسم صورةٍ متكاملةٍ للمخلّص.

وقد اتّضح، منذ البدء، أنّ ثلاثةً من هذه الأناجيل، متشابهةٌ إلى حدٍّ بعيدٍ، تلتقي على مواضيع كثيرةٍ، وغالبًا ما تستخدم العبارات عينها. وهي أناجيل متّى، ومرقس، ولوقا. أمّا الإنجيل الرابع، المنسوب إلى يوحنّا، والذي كان آخرها عهدًا بالتدوين، فهو يمتاز عنها أسلوبًا وهدفًا، ولكنّه يكمّلها بإيراده أحداثًا خطيرةً، وأقوالاً جليلةً، أغفلها أترابه السابقون، وقد توّجها بتأمّلاتٍ معمّقةٍ في روحانيّة ذاك الذي اتّكأ، يومًا، على صدره، وأنصت إلى خلجات قلبه، وقد اختمرت في نفسه، بعد عقودٍ من التمثّل، وإعمال الفكر، واستلهام الروح القدس.

وقد دُعيت الأناجيل الثلاثة الأولى «إزائيّة» أو «مؤتلفة» إذ إنّ عددًا من الشرّاح دأبوا على وضع نصوصها في ثلاثة أعمدةٍ متوازيةٍ كي يبرزوا تقاربها، معنًى ومبنًى.

ويُعتقد أنّ تلك الأناجيل الثلاثة قد استقت مادّتها الأساسيّة من نصٍّ وُضع في مطلع العقد الخامس من القرن الأوّل، في بلد يسوع، فلسطين، باللغة الآراميّة الرائجة آنذاك، كي يكون لمعتنقي المسيحيّة الحديثين الذين لم تتسنّ لهم مشاهدة يسوع وسماعه، وسيلةً لحفظ أقواله، والإحاطة بأعماله وتعاليمه. ويرجّح أنّ واضع هذا النصّ الأوّل البدائيّ، هو الرسول متّى نفسه، فقد كان، من بين الاثني عشر،

الأكثر خبرةً باستخدام القلم. وقد فُقدت هذه النسخة الأولى، إثر دمار أورشليم، وقد يكون متّى نفسه عندما ترجم إنجيله إلى اليونانيّة والإنجيليّ لوقا، قد اعتمدا، أيضًا، إنجيل مرقس، وهو الأوّل الصادر باللغة اليونانيّة، موجزًا تبشير هامة الرسل بطرس، وأضافا إليه ما استقياه من مصادرهما الخاصّة، ممّا يفسّر التشابه في كثيرٍ من التعابير.

وجوه التشابه بين هذه الأناجيل الثلاثة كثيرةٌ، وثمّة نصوصٌ كثيرةٌ تتكرّر في الروايات الثلاث، حرفيًّا. بيد أنّ، ثمّة، تباينات ٍطفيفةً، أحيانًا، ولاسيّما بين لوقا من جانب، ومتّى ومرقس من الجانب الآخر. فلوقا يحاول التزام تسلسلٍ منطقيّ للأحداث، في حين غاب همّ هذا التسلسل عن زميليه اللّذين انصبّ اهتمامهما على الحدث ذاته، وعلى مغزاه أو على الأقوال وسُموّها. وقد حرص لوقا، الذي كان يبشّر وثنيّين، على طيّ كلّ قولٍ أو فعلٍ كفيلٍ بجرح شعور الوثنيّين، في حين جهد متّى، الذي توجّه إلى يهود، في كتم ما قد يثير غضبهم من أقوال يسوع.

وآثر متّى جمع خطابات يسوع التي ألقاها في أوقاتٍ مختلفةٍ، حول موضوعٍ ما، في نصٍّ واحدٍ مسهبٍ، كما فعل بعظة الجبل والتطويبات، وأمثال الملكوت، ممّا أضفى على هذه الأقوال وقعًا أعمق، في حين جزّأها لوقا وأدرجها في سياقٍ يبدو أكثر منطقيّةً.

بالإجمال، لا مراء أنّ بين الأناجيل الإزائيّة تبايناتٍ في التفاصيل تذرّع بها أعداء الإنجيل كي ينكروه؛ وكان الأحرى بهم الاعتراف بالتوافق التامّ والمدهش على الجوهر الذي يضفي على هذه الأناجيل الثلاثة وحدتها ومصداقيّتها.

فمن البدهيّ أن تلاحَظ وجوه تشابهٍ ووجوه تباينٍ بين أربعة مؤرّخين يتناولون موضوعًا واحدًا، ولا ريب أنّ إجماعًا على عناصر الرسالة المسيحيّة كان قد تكوّن في مطلع المسيحيّة، وائتلف على تعليمه الرسل، وأنّ أقوال يسوع كانت تُردَّد بحرفيّتها على ألسنة المبشّرين، والشهود، والمؤمنين. غير أنّ الإنجيليّين، لم يتحرَّجوا من انتقاء بعض الأحداث، ومن صبّها في قوالب وعباراتٍ مختلفةٍ تبعًا للجمهور الذي توجّه إليه كلٌّ منهم، إذ خاطب أحدهم يهودًا، وآخر وثنيّين، وآخر رومانيّين أو يونانيّين، وباللغة التي يُحسن المخاطَبون فهمها، والأكثر قدرةً على إقناعهم،

ولكن، دائمًا، على التزامٍ مطلَقٍ ووفيٍّ بالجوهر. وقد أضاف كلٌّ منهم، إلى المعطيات المشتركة، ما شهد عليه بنفسه، أو ما أكّده شهود عيانٍ موثوقون.

ولا ريب أنّه كان بوسع الكنيسة الأولى توحيد النصوص، وإزالة كلّ تباينٍ يفرّقها، ولكنّها لم تُقدِم على ذلك، احترامًا لحرّيّة كلّ إنجيليٍّ، وللروح الذي ألهمهم جميعًا. كلٌّ منهم حدّق إلى وجه يسوع، ورسم القسمات التي سيطرت على ذاته، فإذ بنا أمام أربعِ لوحاتٍ يُكمّل بعضها بعضًا، وتتكاتف على إبراز صورةٍ مكتملة الرواء، لوجهٍ فذٍّ، يتعذّر استجلاء كلّ أسراره.

فلا ريب أنّ عدّة شهاداتٍ خيرٌ من شهادةٍ واحدةٍ، ولا سيّما إذا اتّفقت تلك الشهادات على الجوهر، مع تباينٍ في الأساليب، وتسلّل بعض الخلافات الطفيفة في التفاصيل.

ولو كانت الشهادات كلّها اعتمدت نصًّا واحدًا، وعباراتٍ واحدةً متكرّرةً، لاكتُفي بنصٍّ واحدٍ منها، وباتت النصوص الأُخرى نافلةً، وإذن لاعترانا شعورٌ بالجمود حيال وصفٍ واحدٍ لحدَثٍ زلزل الكون.

والملاحظ، في الأناجيل الإزائيّة، أنّ أحدها يغفل تفصيلاً، فيورده آخر، وفقًا للظروف التي يكتب فيها كلٌّ منهم، وللجمهور الذي يخاطبه. ومن ثمّ، ليس ثمّة تعارضٌ بل تكاملٌ.

ومن المحقّق أنّ التطلّع إلى وضع ثَبْتٍ كاملٍ لكلّ أفعال يسوع وأقواله، وتحديد تواريخ دقيقةٍ لها، لم يراود خاطر أيٍّ من الإنجيليّين، إنّما استهدف كلٌّ منهم إبلاغ جوهر رسالة يسوع إلى بيئةٍ معيّنةٍ، في حيّزٍ محدّدٍ من العالم. ووفقًا لهذا الهدف اختار وأغفل بعض الموادّ المتوفّرة لديه، مكتفيًا بالخطوط العريضة الأساسيّة. وقد تمّ كلّ ذلك بإلهامٍ من الروح القدس، الذي وقاهم جميعًا من الخطأ.

الروح استخدم تلك الأدوات البشريّة، ولكنّ كلاًّ منهم احتفظ بأسلوبه ولونه، وبنغمته، وعبقريّته الخاصّة.

وعلى أيّة حالٍ، ينبغي اعتبار جميع روايات الأناجيل كعمل كاتبٍ واحدٍ، لأنّ روحًا واحدًا تكلّم في جميعهم.

الإنجيلُ بِحَسَبِ مَتَّى

متّى هو الاسم الآخر للاوي، الذي كان عشّارًا، أي جابي ضرائب لحساب المحتلّ الرومانيّ، وبالتالي، كان، في نظر شعبه، خاطئًا لا رجاء منه، وخائنًا مقيتًا. ولكنّ الربّ يسوع استشفّ جمال نفسه، فدعاه، واستجاب متّى للدعوة بلا تردّدٍ، وغدا من الرسل الاثني عشر، وشاهد عيانٍ مميّزًا، إذ إنّه رافق مسيرة يسوع عن كَثَبٍ، منصتًا، بكلّ جوارحه، إلى أقوال الربّ وتعاليمه، ومراقبًا بشغفٍ كلّ أعماله.

وبما أنّه كان، أكثر من زملائه براعةً في استخدام القلم والبرديّ، آلت إليه مهمّة وضع المجموعات الأولى من أقوال يسوع وأفعاله التي أجمع عليها سائر شهود العيان من الرسل، وكانت المرجع الأوّل للتبشير بيسوع. وقد دُوِّنت باللغة الآراميّة، وهي اللغة الرائجة في فلسطين وسوريّة آنذاك، في مطلع العقد الخامس من القرن الأوّل.

إنجيل متّى الأصليّ هذا شهادةٌ صادرةٌ عن شاهد عيانٍ. ثمّ كان نصّه اليونانيّ أكثر نصٍّ استُشهد به، وعُلّق عليه، منذ فجر الكنيسة، وأكثر الأناجيل شيوعًا، فلا بدعَ إن كان الأوّل في سلسلة أسفار العهد الجديد. وهو أكبر الأناجيل حجمًا، وأوسعها تفاصيل، وأكثرها إسهابًا في نقل أقوال يسوع.

تمّت ترجمته إلى اليونانيّة، نحو العام ٨٠، بعد أن انتشرت المسيحيّة في شتّى أرجاء الإمبراطوريّة الرومانيّة. وفي تلك الأثناء كان مرقس قد دوّن إنجيله الذي انطوى على شهادة هامة الرسل بطرس، وتبشيره في روما، وكان لوقا، أيضًا، قد وضع إنجيله الذي نقل تبشير بولس وشهادته.

* *

توجّه متّى بإنجيله إلى العالَم اليهوديّ خدمةً لمن آمن من اليهود بيسوع، ودحضًا لمن رفضوا الإيمان به، وتأكيدًا لأنّ كلّ ما كُتب قديمًا عن المسيح في النبوءات، والمزامير، والكتب المقدّسة، قد تحقّق في يسوع، ومُظهرًا أنّ يسوع هو المسيح الموعود، الماسيّا، ابن داود، الذي جاء ليبشّر شعبه بمجيء «ملكوت السماوات» (وهو

تعبيرٌ خاصٌّ بمتّى)، ولكي يتمّم الشريعة، ويرتقي بها إلى ذرى الروح، وينتقل بها من القوقعة اليهوديّة إلى آفاق العالم الفسيح.

لقد صوّر متّى مأساة يسوع الذي جاء مخلّصًا لشعبه، فنبذه شعبه وصلبه؛ جاءه بملكوتٍ روحيٍّ، ولكنّ شعبه لم يتخلّ عن تطلّعاته المادّيّة والعنصريّة، فكانت الأمم أَوْلى بالملكوت منه. كان مدعوًّا فتخلّف عن تلبية الدعوة، وجلس على مائدة الملكوت غرباء جاؤوا من مشارق الأرض ومغاربها.

غلب الطابع اليهوديّ على إنجيل متّى الذي كان واسع الاطّلاع على العقليّة والعادات اليهوديّة، وعلى لغة الرابّيّين ونزعاتهم. ومن ثمّ، لا بدّ من أخذ هذا التوجّه اليهوديّ بالحسبان، من أجل فهم تلميحاته، ومفرداته، وأسلوبه الأدبيّ، وطريقة حجّته، وآفاقه، واستشهاده المطّرد بالعهد القديم.

ولئن جاءت ترجمته إلى اللغة اليونانيّة سليمةً، إلاّ أنّها لم تخفِ الأصل الآراميّ، والأسلوب الساميّ القائم على إيقاع مقاطع متقابلة تتعارض لتأكيد المعنى، أو تتوازى وتترادف، لتسهيل الحفظ.

استهدف إنجيل متّى غايةً محدّدةً، ممّا أضفي عليه وحدةً موضوعيّةً، وجعل منه أكمل الأناجيل، وأمتنها توازنًا. وقد برع متّى في إظهار سلطان يسوع وقدراته الإلهيّة، وحكمته، وعطفه، والمحبّة التي باتت هي دستور دينه، وبها تجلّى مَلِك الملكوت الجديد.

* *

لو يتوفّق أحدٌ من الإنجيليّين، مثل متّى، في إسماعنا صوت يسوع الحيّ، ولم يردّد أحدٌ نظيره، على مسامعنا، أروع ما تلفّظ به الربّ، وأقواه، وأغناه إنسانيّةً.

لقد جمع متّى الأقوال التي أدلى بها يسوع في مناسباتٍ مختلفةٍ في خطاباتٍ متكاملةٍ، مرصوصةٍ، بليغة الوقع، أهمّها «عظة الجبل»، وأمثال الملكوت، وإنذار الفرّيسيّين بالويلات. وعندما نطالعها يُخيّل إلينا أنّنا نسمعها مباشرةً من فم الربّ، بنبرة صوته عينها، إذ لا قِبَل لأيّ بشرٍ أن يقول، بلغةٍ بشريّةٍ، مثل ما قاله، روعةً، وقوّةً، وسموًّا.

وفي إنجيل متّى من الشفافيّة ما يظهر الأحداث التي جرت لألفي عام، وكأنّها حدثت بالأمس.

الإنجيـلُ بِحَسَـبِ مَـرْقُس

هو الثاني في تسلسل الأناجيل القانونيّة. بيد أنّ كثيرين يعدّونه، اليوم، الأوّل بين الأناجيل الأربعة، في صيغتها النهائيّة، فقد دُوِّن بين العام ٦٤ والعام ٧٠، أي إنّه سبق بأكثر من عشرة أعوامٍ وضع إنجيل متّى في صيغته اليونانيّة النهائيّة.

لم يكن مرقس، أو «يوحنّا الملقّب بمرقس»، من رسل يسوع، ولكنّه لم يكن بعيدًا عن بعض أحداث سيرة يسوع، وعن نشأة الكنيسة. فهو ابن أخت برنابا، أحد التلاميذ الاثنين والسبعين، ومن ألمع الناشطين في انتشار المسيحيّة. ومعروفٌ عن برنابا هذا أنّه باع ممتلكاته القيّمة، ووضعها بتصرُّف الرسل، وكان له الفضل في اكتشاف بولس، وفي تكليفه، من قِبَل كنيسة أنطاكية، بتبشير العالم الوثنيّ. وقد رافقه في جولته الرسوليّة الأولى، وكان الفتى مرقس ثالثهما، ولكنّه سرعان ما انفصل عنهما، حالما أخذت ظروف الرحلة تشتدّ قسوةً، مؤثرًا العودة إلى أورشليم. ولم يرَ بولس هذا التخاذل بعين الرضى، وأبى استصحاب مرقس في رحلته الرسوليّة الثانيّة، ممّا أفضى إلى توتّر العلاقات بين الصديقين العملاقين بولس وبرنابا، وإلى انفصالهما، وإلى مضيّ كلٍّ منهما في سبيلٍ. إلاّ أنّ الرسول بولس، بعد انقضاء بضع سنواتٍ، ولّما كان سجينًا في روما، ندم على قسوته حيال الفتى مرقس، الذي كان، في تلك الأثناء، قد أثبت نضوجًا، وإقدامًا، وجدوى، إلى جانب الرسول بطرس الذي اتّخذه ترجمانًا ورفيقًا، فتاق إلى رؤيته، وألَحّ في دعوته واستقدامه.

ويُرجّح أنّ ذوي مرقس كانوا أصحاب المنزل الأورشليميّ الذي تناول يسوع، في عليّته، عشاءه الأخير مع تلاميذه. وقد أضحت تلك العليّة، من بعد، ملتقى التلاميذ والعذراء؛ فيها حلّ عليهم الروح القدس، يوم العنصرة، وإليها كان يلجأ بطرس والرسل، عندما كانوا يُطارَدون، أو يخرجون من السجن.

ومن المرجّح أنّ ذوي مرقس كانوا يملكون، أيضًا، الجتسماني، أي معصرة الزيتون، حيث تجرّع يسوع كؤوس النزاع المريرة، وحيث أُلقي القبض عليه، وأنّ

مرقس، كان، في تلك الليلة، راقدًا هناك، وأيقظته الجلبة، فجرى يستطلع الأمر متلفّعًا بالملاءة التي كان يتغطّى بها، وارتاب الجند في أمره، وحاولوا القبض عليه، فترك الملاءة بين أيديهم، وفرّ عاريًا. ينفرد مرقس برواية هذه الواقعة، التي يمكن حذفها من غير تأثيرٍ على رواية الآلام، ممّا يشير إلى أنّه بطلها. ولو كان الأمر يتعلّق بآخر لذكر اسمه.

كان مرقس، إذن، شاهد عيانٍ على أحداثٍ كثيرةٍ، غير أنّ مصداقيّة إنجيله تأتيه، خاصّةً، من كونه أمين سرّ هامة الرسل بطرس، الذي كان يدعوه «ابنه»، وكان، أيضًا، ترجمانه ورفيق تبشيره في روما. وقد طالبه الرومانيّون الذين اعتنقوا الدين المسيحيّ، على يد بطرس، بأن يضع لهم أثرًا مكتوبًا يحفظ التبشير الذي تلقّوه، ويكون لهم مرجعًا، وما زالوا عليه حتّى انبرى لتلبية رغبتهم، فكان إنجيله مرآةً أمينةً لتعليم بطرس، بكلّ اضطرام غيرته، واندفاعه، وطلاوة عفويّته، ونار هواه، وصدق إيمانه. فلا عجب، إذن، إن وُصف إنجيل مرقس بأنّه «مذكّرات بطرس»، فقد حرص مرقس على تبليغ تبشير بطرس الرسول بصدقٍ وأمانةٍ تامَّيْن، فلا يُنقص منه شيئًا، ولا يضيف إليه شيئًا.

ومن الملاحظ أنّ مرقس، عندما يتحدّث عن بطرس، يردّد، مثل لازمةٍ، عبارة «في الحال»، هذه العبارة اللاهثة تومئ إلى من يجري في إثر يسوع في اندفاعٍ يقطع الأنفاس، اندفاع بطرس المنطلق من سهم الربّ إلى الربّ. من خلال هذا الاندفاع فهم المعلّم والرسول أحدهما الآخر، وتحابّا إلى الأبد. وفي هذه العبارة المضطرمة: «في الحال»، نرى أكثر الرسل فتنةً، وإنسانيّةً، ووهنًا، وعفويّةً، وقداسةً: بطرس حجر أساس الكنيسة.

وقد وشّى مرقس إنجيله بطائفةٍ من التفاصيل الصغيرة، التي تنمّ عن شاهدٍ دقيق الملاحظة، منيع الذاكرة. فهو، وحده، يصف تأثُّر يسوع إثر شفائه أبرص. وهو، وحده، وصف نظرات الاستنكار التي أجالها على الفرّيسيّين، وحزنه بسبب قسوة قلوبهم، واحتضانه طفلاً بين ذراعيه، وهو الذي صوّر قذف الأعمى لمعطفه بعيدًا، كي، يمضي، خفيفًا، نحو شافيه، ومتعثّرًا، إذ كان ما برح فاقد البصر. وهو الذي أوضح أنّ الجحش الذي امتطاه يسوع، يوم أحد الشعانين، كان مربوطًا عند باب، على ملتقى طريقَيْن.

إنّ الحيويّة، والعفويّة العذبة، والنضارة المشرقة، التي ينبض بها إنجيل مرقس تدين لقلبَيْن محبَّين: قلب بطرس، وقلب مرقس، وهي التي تسبغ على هذا الإنجيل نكهته المميّزة. والأحداث التي لم يشهدها مرقس بنفسه، وصفها من خلال عيني بطرس، وخفقات قلبه.

لم يكن تبشير بطرس خاضعًا لمخطَّطٍ مسبَّق، بل كان تابعًا لمقتضيات الرسالة، وضرورتها. فهو قد يقفز من حدَثٍ إلى آخر وفقًا لما تمليه الحال. وإذ كان يخاطب قومًا قادمين من الوثنيّة، وغير ملمّين بالعقائد والتقاليد اليهوديّة، لم يجد حاجةً إلى الاستشهاد بالعهد القديم، ولا إلى إثبات أنّ يسوع هو المسيح الموعود، كما فعل متّى، بل أبرز فيه ابن الله، الكلّيّ القدرة، المتحكّم بالطبيعة والأرواح الشرّيرة، صانع المعجزات، محبّ البشر، ومؤسّس ملكوتٍ روحيٍّ مشرعٍ لجميع الأمم.

كانت ذكرى معايشته ليسوع ما برحت حارّةً، متّقدةً في ذهنه وقلبه، وما زال كلّ كيانه يخفق حبًّا بالمعلّم، فزخرت روايته بالزخم والطلاوة، وباللمسات الرقيقة، وبالتفاصيل الحيّة، النابضة، التلقائيّة، المستمدّة من صلب الواقع. وقد أولى اهتمامًا بالأحداث التي كان يحياها ثانيةً وهو يرويها، ويُدرجها في إطارها الحيّ، مشركًا مستمعيه في عيش كلّ جزئيّاتها، راسمًا، بدقّةٍ وشغَفٍ، مواقف يسوع: حركات يديه، مهابته، غضبه، نفاد صبره، رقّته، عطفه، نظراته الثاقبة، الصارمة حينًا، والتي تقطر حنانًا وحبًّا، أحيانًا أُخرى. وغالبًا ما تتوارد على لسانه العبارات عينها التي تلفّظ بها المعلّم، بحرفها الآراميّ، مثل قوله لابنة يئير الميتة: «**طليتا قومي**»، أو قوله للأصمّ الأبكم: «**افّتح**». وقد أوردها مرقس كما سمعها من بطرس، ولكنّه سارع إلى ترجمتها كي يفهمها الناطقون باليونانيّة.

وعلى غرار تبشير بطرس العفويّ، جاء إنجيل مرقس مفتقرًا إلى التنسيق والتسلسل، مؤكّدًا على الأحداث التي تظهر قدرات ابن الله، مقتّرًا في إيراد أقواله وأمثاله؛ إلاّ أنّه استفاض في رواية الآلام، فالرسل ما كانوا يخجلون من آلام إلههم، وما واكبها من مهانةٍ، ولا من دمه المسفوك، بعد أن أيقنوا أنّ العالم، بهذا الدم، يُخلَق جديدًا.

وجديرٌ بالتنويه أنّ إنجيل مرقس يكاد يقتصر على رسالة يسوع في الجليل، ولا يذكر سوى صعودٍ واحدٍ له إلى أورشليم حيث سيم العذاب، ورُفع على الصليب. وقد ماشاه، في هذا النهج، كلٌّ من متّى ولوقا. وهكذا جاء إنجيله سلسلة أعمالٍ

وأقوالٍ على الدرب المؤدّي من الجليل إلى أورشليم، عبر روايةٍ ديناميّةٍ تندرج على وقع تحرّكات الجماهير ودهشتها، والسجالات مع الخصوم، والتساؤل الدائم: «من هو هذا الرجل؟».

وكان من البدَهيّ أنّ يحفل إنجيل مرقس، أكثر من سواه، بالموادّ المتعلّقة بالرسول بطرس: ولكنّه، في الواقع، يكرّس تواضع الرسول الجمّ. فهو يسهب في سرد كلّ أخطائه، وكبواته، ونقائصه، ومواطن ضعفه، ووهن إيمانه، وإنكاره الثلاثيّ، وبكائه المرّ لدى سماعه صياح الديك، وتشابك عينيه بعيني المعلّم الحزينتين؛ وتأنيب يسوع لـه بعباراتٍ قاسيةٍ، مثل قولـه: «**إليك عنّي، يا شيطان، فإنّ أفكارك ليست أفكار الله، بل أفكار البشر**». إلاّ أنّ مرقس أغفل قول الربّ الذي سبق هذا التأنيب، والذي يتّسم بخطورةٍ فريدةٍ، في أعقاب اعتراف بطرس، للمرَّة الأولى، أنّ يسوع هو المسيح، ابن الله الحيّ، كما جاء في إنجيل متّى (١٦: ١٧- ١٩): «**طوبى لك يا سمعان بريونا! لأنّه ليس اللحم والدم كشفا لك هذا، بل أبي الذي في السماوات. وأنا أقول لك: «أنت صخرٌ، وعلى هذا الصخر سأبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها. وسأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، فكلّ ما ربطته على الأرض يكون مربوطًا في السماوات، وكلّ ما حللته على الأرض، يكون محلولاً في السماوات**».

ولم يغفل مرقس العتاب الذي خصّ به الربّ بطرس، في الجتسماني، دون رفيقيه، يوحنّا ويعقوب: «**أنائم، يا سمعان؟ أوَ لم تقدر أن تسهر معي ساعةً واحدة؟**». هذا العتاب لم يكن تأنيبًا بقدر ما كان تنهّدًا حزينًا. وقد أورده مرقس بحرفيّته، ليقينه بأنّ ذلك سيريح قلب بطرس.

ويمكننا تخيّل بطرس، وهو يروي كلّ ذلك على الملأ، وعيناه مغرورقتان بالدموع، وكأنّه يتلو فعل ندامةٍ!

لقد دفع بطرسَ تواضعُه العذبُ إلى كتمان كلّ ما ميّزه الربّ به، مثل وصفه بحجر أساس الكنيسة، وإيلائه سلطاتٍ جسيمةً، وتكليفه برعاية قطيعه، وإشراكه في أداء ضريبة الدرهمين، والصلاة الخاصّة التي سأل بها يسوع أباه أن يحفظ إيمانه. ولكنّ الإنجيليّين الآخرين حرصوا على إبراز تلك الامتيازات، إكبارًا لتواضع زعيمهم. وقد حرص لوقا على إغفال مواطن ضعف بطرس، وجهد متّى في تلطيفها.

بالإجمال، إنجيل مرقس لوحةٌ حيّةٌ ليسوع، أكثر منه كتاب سيرةٍ محكم الحبك؛ وهو أقصر الأناجيل، وأشدّها إيجازًا. عُشر مضمونه، تقريبًا، خاصٌّ به، والباقي مشتركٌ مع متّى ولوقا. وقد بقي هذا الإنجيل في الظلّ ردَحًا طويلاً، من جرّاء ضآلة الموادّ التي ينفرد بها. ولكنّه غدا المفضّل لدى الكثيرين من المفسِّرين المعاصرين.

لغته اليونانيّة يعتريها بعض الوهن، وأسلوبه الأدبيّ يتّصف بالبساطة والبدائيّة، أمّا وصفه للأحداث فينبض حيويّةً، وعفويّةً، وطلاوةً.

إنّه إنجيل الدهشة، ولا يني يفجّر الدهشة حيال جدّة يسوع وإبداعه، اللّذين لا ينضبان.

الإنجيل بحسب لوقا

لوقا طبيبٌ سوريٌّ، من أنطاكية، لا تسري في دمه أيّة قطرة دمٍ يهوديّةٍ، هلّينيّ الثقافة، أسلست لـه اللغة اليونانيّة قيادها، فكتب بها، خيرًا من أبرع الكتّاب اليونانيّين، وهو يُعدّ «الأديب» الوحيد، في العهد الجديد.

اعتنق المسيحيَّة على يد بولس، وواكبه في معظم رحلاته الرسوليّة، كي يوفّر لـه العناية الطبّيّة، في أعقاب العلّة التي أَلّمت به. وقد أَلِف بولس أن يدعوه «الطبيب الحبيب». ومذّاك ظلّ يلازمه كظلّه، في كلّ أسفاره. وقد شهد بولس السجين في روما، بتأثّرٍ: «**لوقا وحده معي**» (٢ تيموثاوس، ٤: ١١). وفي رسالته الثانية إلى الكورنثيّين (٨: ١٨) وصفه بأنّه «**الأخ الذي تثني عليه جميع الكنائس في أمر الإنجيل**». وعلى غرار الرسول العظيم، تولّه لوقا بيسوع، فتسلّل إلى ذهنه وقلبه، وتوغّل في رحاب سرّه، فعرف عنه ما غاب عن بعض تلاميذه المقرّبين، وعن شهود عيانٍ موثوقين. ودأب على جمع جمٍّ من الحقائق الثمينة عنه من مكامنها، فسمع ما لم يطرق أذنيه، ورأى ما لم تشاهده عيناه، واستحقّ تهنئة يسوع «**طوبى لمن آمنوا ولم يروا**».

اطّلع بشغفٍ على كلّ ما دُوّن عن المخلّص، واستمع إلى شهادات الشهود الأوفياء. غير أنّه، في سبيل وضع سفرٍ شاملٍ يبرز سيرة يسوع على أكمل وجهٍ، حاور كثيرين ممّن عرفوه عن كَثَبٍ، وكانت لهم به صلةٌ وثيقةٌ، ولكنّهم احتفظوا بذكرياتهم عنه في خزائن صدورهم. وجمع حصادًا وفيرًا من الأحداث والأقوال والتعاليم التي انفرد بإطلاع العالم عليها.

يُعتقد أنّه حاور إليصابات ومنها تعلّم الكثير عن ابنها المعمدان وعن نسيبتها العذراء التي تعلّم نشيد تسبيحها. وثمّة ما يشير إلى أنّه قابل العذراء نفسها، وسمع منها تحيّة الملاك لها: «**ابتهجي، أيّتها الممتلئة نعمةً**»، وأدرك كيف يمكن أن تكون امرأةٌ من

البشر «أمّ الله». من بوحها استقى أسرار حَمْلها الإلهيّ، وولادتها العجيبة، في ظروفٍ مغرقةٍ في التواضع. منها تعلّم أنّ الله يحطّ الأعزّاء عن عروشهم، ويرفع المتواضعين؛ يفيض على الجياع الشبع، ويصرف الأغنياء مصفري اليدين.

ومن العذراء استقى معلوماتٍ عن طفولة يسوع، لم يأتِ على ذكرها أحدٌ سواه. منها علم أنّها «**كانت تحفظ تلك الأقوال كلّها، وتتأمّل فيها في قلبها**»، وبذلك ألمح، في خَفَرٍ، إلى أنّه نهل معلوماته من نبعها الأصيل، ومن مكمنها الحصين.

ويُنسب إلى لوقا أنّه هو الذي رسم صورةً للعذراء شاعت لها نُسخٌ في العالم كلّه. ومن المحقّق أنّه، إن لم يكن قد رسمها، حقًّا، بريشته، فقد رسمها بقلمه عندما روى طفولة يسوع كما روتها أُمُّه، والتي ألهمت لوحاتٍ خالداتٍ للرسّامين المسيحيّين .

وإن كانت الأناجيل الثلاثة تحدَّثت عن الآب والابن، فوحده لوقا تحدَّث عن الأمّ والابن. ومن ثمّ وجد سبيله إلى قلوبنا.

ولا ريب أنّه استمع، ساعاتٍ، إلى بوح الرسول الحبيب يوحنّا الذي اتّكأ على صدر يسوع، ومنه تلقّى أسرارًا ثمينةً عن مشاعر الربّ، وعن أمّه التي أوكلها إلى عنايته، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة على الصليب. واستمتع بشهادة برنابا، أحد الاثنين والسبعين، الذي كان قد سبقه في مرافقة الرسول بولس في أسفاره الرسوليّة، ودوّن شهادة يعقوب الصغير، «أخي الرب»، وفيليبّس، وطائفةٍ من الشهود والتي أغنى بها إنجيله والعالم. وإذا بنصف ما انطوى عليه هذا الإنجيل خاصٌّ به، لا يشترك معه، فيه، أيٌّ من الإنجيليّين الآخرين. وقد أحصى باحثون سبع عجائب وعشرين مثلاً انفرد لوقا بروايتها.

انفرد لوقا، أيضًا، بإيراد بعض أخبارٍ عن طفولة يسوع، وعن غيابه في الهيكل وهو في الثانية عشرة، وفي وصف الأشهر الستّة الأخيرة من حياة الربّ التي انصرف، فيها، إلى تثقيف التلاميذ. وهو، وحده من الإنجيليّين، روى ظهور القائم من الموت للتلميذَيْن الميَمّمَينْ شطر عمّاوس.

وقد أسهب لوقا، أكثر من سائر الإنجيليّين، في إيراد أقوال يسوع على الصليب. فهو وحده أورد قول المصلوب: «**يا أبتاه، اغفر لهم لأنّهم لا يعرفون ما يفعلون**». وهو وحده ذكر توبة اللصّ المصلوب الذي دافع عن براءة يسوع، وقال له: «**يا يسوع**

اذكرني متى جئت في ملكوتك» فأجابه الربّ: «**الحقّ أقول لك إنّك، اليوم، تكون معي في الفردوس**».

ولولا إيراده هذا الحوار الزاخر بالعزاء، لكانت خسارة البشريّة جسيمةً، ولكان عالمنا الخاطئ المريع أشدّ هوانًا وهولاً.

وقد تميّز لوقا، عن زميليه الإزائيَّين، في إبراز تعاليم يسوع، وقد ركّز على المحاور التالية:

– **الرحمة الإلهيّة:** ذلك العطف اللامحدود، المتدفّق من علُ، مزريًا بحساباتنا البشريّة السخيفة الضيّقة.

لوقا وحده أدرك لمَ نعجةٌ واحدةٌ تائهةٌ تستأثر باهتمام الراعي أكثر من القطيع كلّه؛ فإذا ما عثر عليها أقلّها على منكبيه، وعاد يطفر فرحًا؛ ولمَ توبة خاطئٍ واحدٍ تشيعُ من الفرح في السماء، وفي أوساط الملائكة، أكثر ممّا يشيعه تسعةٌ وتسعون بارًّا؛ ولمَ ذبح الأب العجلَ المسمّن، وأقام الأفراح، احتفالاً بعودة ابنه الذي عقّه، وضلّ، وبذّر، وعانى، ثم آب نادمًا؛ ولمَ أعدّت امرأةٌ خاطئةٌ جسد الربّ للدفن، وكانت أوّل شاهدٍ على قيامته، والمبشّرة الأولى بها؛ ولمَ كان لصٌّ مجرمٌ نادمٌ أوّل مواكبي يسوع إلى الفردوس؛ ولمَ يتحتّم خرق شريعة السبت من أجل عمل الخير؛ ولمَ دعا يسوعٍ ذاته إلى منزل زكّي العشّار، متحدّيًا الرأي العام الذي يدين العشّارين إدانةً مبرمةً.

وبأيّة جرأةٍ، وعذوبةٍ، روى لوقا أمثال «الابن الشاطر»، والفرّيسيّ والعشّار، والصفح عن الزانية؛ وبأيّة حرارةٍ امتدح السامريّ الرحيم، ورفعه على الكاهن واللاويّ! وبأيّة رقّةٍ روى كيف أعاد يسوع إلى الحياة، ابن أرملة «نعيم» الوحيد!

في كلّ صفحةٍ من إنجيل لوقا نلتقي ذاك الذي يخلّص ويصفح، «ابن الإنسان» الذي لم يأتِ ليُهلك، بل لكي يخلّص، لا لكي يدين، بل لكي يصفح.

لقد وصف «دانتي» لوقا بأنّه «كاتب رحمة المسيح». فقد رأى أنّ العالم مبنيٌّ على النعمة، على حدّ قول القدّيس أفرام السريانيّ.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

– **شمول الخلاص**، ونسفُ الحواجز بين أجناس البشر وطبقاتهم، وتقويض الأنانيّة، وضيق القلب، والأحكام المسبّقة.

على غرار الرسول بولس، فتح لوقا باب المسيحيّة، على مصراعيه، لجميع الأمم، وتوجّه إلى العالم بأسره. لقد أقحم الإنجيل في تاريخ البشريّة، وأقحم «اليوم» في الأبد، حيث يتعانق الأمس والغد، ودفع بحدود الزمن إلى اللانهاية.

مع بولس ولوقا أبحرت المسيحيّة على مركبٍ ميمّمٍ شطر روما، والعالم الرحب، بُغيةَ التبشير بالإنجيل في كلّ مكانٍ. ولم يعد أحدٌ من البشر مستثنًى من نعمة الخلاص، ولم يعد لأحدٍ تميّزٌ على سواه، إلاّ بما آمن به قلبه، وبما جنت يداه .

لقد شهد لوقا انبثاق الكنيسة الجديدة، وتدفّق أمواج المؤمنين في إثر رسول الأمم بولس، في حين كان اليهود ينكرون، ويقاومون، ويضطهدون. وقد شهد انتقال الملكوت ممّن كانوا يدّعون احتكاره بصفتهم «الشعب المختار»، إلى مختلف الأمم، وانعتاق المسيحيّين الجُدد من نير الشريعة، بفضل فهم بولس لروح العهد الجديد، الذي زفّه يسوع للبشريّة.

ولئن كان مرقس قد رسم صورةً إنسانيّةً ليسوع على نحو ما رآه التلاميذ قبل القيامة، فالصورة التي رسمها لوقا تسبح في أنوار القيامة.

* *

– **إيثار يسوع للفقراء:** وفي عدادهم البسطاء، وأنقياء القلوب، والمتجرّدون، والذين لا تخنق فيهم الثروةُ كلمةَ اللّه. لقد صوّر لوقا الطبيبُ يسوعَ طبيبًا للنفوس العليلة.

وفي حين جاء على قلم متىّ، قول يسوع: «**طوبى للفقراء بالروح**»، اكتفى لوقا بالقول: «**طوبى للفقراء**»، كي يؤكّد عظمة عطف الربّ على المحرومين. وقد أورد أقوالاً شديدة القسوة بحقّ عابدي المال وناشدي الثروة. ومن الأمثال التي انفرد بها: مثل «الغنيّ ولعازر».

– **التأكيد على دور النساء:** كان اليهود يزدرون المرأة، والرومانيّون يذلّونها. ومع ذلك لم يتحرَّج لوقا من القول: «**كان مع يسوع الاثنا عشر، ونسوةٌ كنّ قد أُبرئن من أرواحٍ شرّيرةٍ وأمراضٍ: مريم التي تدعى المجدليّة التي أخرج منها**

سبعة شياطين، وحنّة امرأة خوزي قيّم هيردوس، وسوسنّة، وأُخَر كثيراتٌ كنّ يخدمنه بأموالهنّ» (٨: ١–٣). ولكأنّه يوحي بأنّه حاورهنّ واستقى منهنّ تفاصيل عن سيرة يسوع.

وبأيّة رقّةٍ حدّثنا عن الشقيقتين مرتا ومريم، وعن حنّة النبيّة، وعن النسوة اللائي واكبنَ المصلوب إلى الجلجلة متفجّعاتٍ، في حين فرّ الرجال، حتّى الرسل، وتواروا ما خلا واحدًا، فاستحقّ أن تُعهَد إلى عنايته أمّ الله، وأمّ الكون! لم يتسلّل الجبن ولا القنوط إلى قلوب أولئك النسوة، فصمدنَ، في أحلك اللحظات، وتجلّينَ صورةً حيّةً للرجاء والحبّ. عندما تخرس الألسنة، وتعجز السواعد، يكون للحضور شأنٌ كبيرٌ. وقد حضرت أولئك النسوة أمام الصليب، وأمام القبر، فأستأهلنَ أن يكنّ طليعة الشهود على انبثاق العهد الجديد من لحد يسوع الخالي.

وقد كتب لوقا في روما التي كانت تمتهن المرأة، وتزدهي بالثروة، وترفع شعار «الرفاه والفسق»، فأعاد للمرأة كرامتها، وامتدح الفقر، وأنشد فرح الحياة المتواضعة البسيطة، رافعًا شعار «الطهر والزهد». فقرٌ وطهارةٌ يسبحان في لجّة الفرح.

* *

– **الإشادة بالسعادة التي ستنبع من تعليم يسوع الجديد.** فأناشيد **الفرح** مبثوثة في ثنايا إنجيله: مريم مجّدت، وإليصابات باركت، وزكريّا شكر، والملائكة أنشدت.

رسالة الإنجيل، رسالة فاتحٍ وديعٍ مسالمٍ، ونفسٍ متفائلةٍ. القيامة تفجّر فرح التلاميذ؛ وفي كلّ تعليم يسوع خميرة إصلاحاتٍ تدعو إلى حبّ البشر بعضهم بعضًا كإخوةٍ، لأنّهم أبناء أبٍ واحدٍ. لقد عكس لوقا كلّ الفرح الذي بشّر به بولس، وأكّد، قبل الأوان، قول پاسكال(*): «ما من إنسانٍ أسعد من مسيحيٍّ حقٍّ».

غير أنّ إنجيل لوقا، مع إنشاده الفرح، شديد الاقتضاء، في ما يتعلّق بالإيمان، وبالخلاص، وبمستلزمات التوبة والتحوّل الروحيّ والزهد بالثروة، وهو يولي الصلاة شأنًا كبيرًا.

* *

(*) بليز پاسكال (Blaise PASCAL)، عالمٌ رياضيٌّ وفيزيائيٌّ ومفكّر، وصوفيّ، فرنسيّ (١٦٢٣– ١٦٦٢). من أشهر مؤلّفاته «**الخواطر**».

ولقد توجّه لوقا، من خلال ثيوفيلُس، إلى مسيحيّين قادمين من الوثنيّة. لذلك دأب على تفسير بعض المصطلحات اليهوديّة والآراميّة التي يتعذّر فهمها على الغرباء، وحرص على إيضاح ما قد يستغلق عليهم من جغرافيّة فلسطين، ومن عادات اليهود. وقد تعمّد إغفال بعض العبارات القاسية بحقّ الوثنيّين التي وردت في إنجيل متّى، كما تعمّد الإشادة بإيمان بعض الوثنيّين؛ وأهمل التفاصيل التي لا تثير اهتمامهم. فلم يحجم عن إظهار عداء زعماء اليهود، ليسوع، وتنديد يسوع القاسي بهم. وقد جهد لوقا في تليين كلّ قاسٍ، وصقل كلّ خشنٍ في الأناجيل الإزائيّة الأخرى، ساكبًا الزيت الهلّينيّ، وزيت الكنيسة الجديد، على المادّة اليهوديّة.

وقد جهد في أن يسبغ على إنجيله طابع كتابٍ تاريخيٍّ يضاهي كتب المؤرّخين المعروفين آنذاك، فحاول ضبط التواريخ، ورواية الأحداث وفق تسلسلها الزمنيّ، وتوافقها مع أحداثٍ عالميّةٍ، مدرجًا الحدث المسيحيّ في إطار تاريخ البشريّة العامّ، مثبتًا أنّه مؤرّخٌ واسع النظرة، مبيّنًا أنّ المسيحيّة هي فجر عهدٍ جديدٍ في تاريخ البشريّة.

وقد كتب بلغةٍ يونانيّةٍ، ليست الكلاسيكيّة الأتّيكيّة القديمة، ولكنّها تتّسم برهافةٍ غير مألوفةٍ لدى الهلّينيّين، غنيّةٍ بالمفردات، أنيقة الصياغة، عمومًا.

وقد جاءت روايته سلسةً، صافيةً، حيّةً، تعكس انطباعات شهود عيانٍ محبّين، محتفظةً بنكهتها، وأصالتها، ونضارتها، وبأسلوبٍ بسيطٍ، ممتنعٍ، وممتعٍ، تتجلّى فيه يد فنّانٍ، ممّا جعل «رينان» يصف إنجيل لوقا بأنّه «أجمل كتابٍ وُجد، قطُّ».

وقد كتبه في روما نحو العام ٦٢، بعد أن أعدّ له طويلاً، وأتبعه بسفر «أعمال الرسل» حيث دوّن انتشار المسيحيّة، ومسيرتها المنتصرة، بسلاح الحبّ، في أرجاء الأمبراطوريّة الرومانيّة كافّة، ولا سيّما على يد هامتَي الرسل: بطرس وبولس.

من أجل كلّ ذلك حظي إنجيل لوقا بأوصافٍ كثيرةٍ: فهو إنجيل الروح القدس، وإنجيل الفرح، «ثمرة الروح»، وإنجيل المرأة، وإنجيل انتشار الكنيسة.

وإذا ما قارنّا الأناجيل الإزائيّة، لاتّضح لنا أنّ مرقس نقل عن بطرس ما فعل يسوع؛ ومتّى حفظ للأجيال، وبلّغ ما قال يسوع؛ أمّا لوقا، إنجيليّ الرأفة الإلهيّة، فقد وصف مشاعر يسوع.

وسنرى أنّ يوحنّا قد حاول الكشف عمّا كان يخطر في ذهن يسوع وقلبه.

الإنجيل بحسب يوحنّا

يوحنّا هو ابن الصيّاد زبدى، وأمّه، سالومة، كانت واحدةً من النسوة اللائي واكبنَ يسوع في مسيرته الرسوليّة، وساعدنَه بمالهنّ وخدمتهنّ؛ وأخوه هو يعقوب الكبير، أحد الاثني عشر، الذي تشرّف بتسنّم قمّة قائمة شهداء المسيحيّة.

وهو أوّل من اندفع في إثر يسوع، والتزم به، ولم يبارحه لحظةً، منذ ذلك الأصيل المشرق، الذي اقتفى فيه أثره، مستطلعًا مكان إقامته، ومكنونات صدره، وقضى منصتًا إليه، ساعاتٍ خالداتٍ انحفرت ذكراها في نفسه إلى الأبد، ووصفها بأدقّ تفاصيلها، كما لا يقوى سوى عاشقٍ على وصف ما ولّده التقاء عيونهما وقلوبهما من حبٍّ يتحدّى الدهور، إلى اليوم الذي وقف فيه، وحده، دون سائر الرسل، عند قدمي صليبه، وتلقّى من شفتَيْه المحتضرتَيْن وصيّته الأخيرة، التي وهبه، بها، ووهب البشريّة جمعاء، من خلاله، أمّه أمًّا.

هو أوّل الرسل وأصغرهم سنًّا، وهو، مع أخيه يعقوب، وبطرس، الثلاثة الأثيرون الذين اختارهم يسوع ليكونوا شهود ألوهته ومجده، على جبل التجلّي، وفي بيت يئير الذي أقام من الموت ابنته، وبذلك هيّأهم لمتابعة تعليمه، ونشره تحت كلّ سماء.

وهو الذي اتّكأ على صدر يسوع، في أثناء عشائه الوداعيّ مع تلاميذه، وأنصت بذهولٍ إلى خلجات قلبه الإلهيّ، واستأهل لقبَيْ «يوحنا الحبيب» و«التلميذ الذي كان يسوع يحبّه».

عقب العنصرة أمسى من أركان الكنيسة، ورفيقًا لهامتها بطرس. وقد اطّلع على الأناجيل التي دُوّنت وأيّدها. ولكنّه بعد خراب هيكل أورشليم عام ٧٠، والاضطهاد الذي عصف بالمسيحيّين وشرّدهم، فرّ مع العذراء إلى آسيا الصغرى، عبر السامرة، واستقرّا في بيت صغيرٍ مؤلّفٍ من غرفتَيْن، قُدّتا، في قلب الصخر، على سفحٍ مطلٍّ على مدينة أفسس.

كانت أفسس عاصمةً دينيّةً، بامتيازٍ، تتجاور فيها مختلف المعتقدات، والأديان. وكان بولس قد بشّرها، ومكث فيها سنتين، وأسّس جماعةً مسيحيّةً هامّةً خصّها بإحدى كبريات رسائله. وفيها تملّك يوحنّا ناصية اللغة اليونانيّة السائدة، وبها دوّن إنجيله. ولا ريب أنّ الذين استطاعوا استيعاب الرسالة إلى الأفسسيّين، بنظرتها العالميّة والسماويّة، كانوا مؤهّلين لتقبّل الأنوار الساطعة التي جاءهم بها التلميذ الحبيب.

وقد بات يوحنّا، في أفسس، مرجِعًا مسيحيًّا رفيعًا، وما برحت أطلال الكنيسة الفخمة الجاثمة على إحدى تلال أفسس، والتي تحمل اسمه، شاهدةً على ما كان يحظى به، هناك، من احترامٍ وتبجيلٍ.

* *

شرع يوحنّا يبشّر في فلسطين، مع صديقه بطرس، ناشرَيْن تعليم الرسل الواحد، في ما يتعلّق بسيرة يسوع وأقواله. وكان يسوع وتعليمه يحتلاّن، يومًا فيومًا، مركز عقله وقلبه، فأمعن في المسيح تعلّقًا وحبًّا، وفي تعاليمه تعمّقًا، واستنباطًا لكنوزها الروحيّة الثرّة. وكلّما امتدّ به العمر، ترسّخ حبّه، ونضج فهمه للإنجيل، ولما خصّه به الربّ من بوحٍ ووحيٍ.

في تلك الأثناء، وفي غروب القرن الأوّل، ربّما كان يوحنّا قد أمسى شاهد العيان الوحيد، من شُهود يسوع، على قيد الحياة.

أكثر من نصف قرنٍ كان قد انصرم على التحاقه بيسوع، وهو، بعدُ، في عمر الاندفاع والدهشة، والبراءة، وقد انحفرت في ذاكرته الصامدة ذكرياتٌ متوهّجةٌ. كان، حينذاك، الشاهد الحيّ الوحيد على مغامرة المسيحيّة الكبرى، التي ضرّجت جوانبَها دماءُ الشهداء. وكان واعيًا لما يرتّبه عليه ذلك من مسؤوليّاتٍ جسامٍ.

كانت الكنيسة قد امتدّت إلى معظم أطراف الإمبراطوريّة الرومانيّة وعلى كلّ شواطئ المتوسّط. وانضمّ إليها نفرٌ من المثقّفين الذين أتوها بفلسفاتهم الموروثة، فطعّموا التعليم المسيحيّ بحذلقاتهم، ورؤاهم الحسيرة. فأنكر بعضهم ألوهة يسوع، وأنكر آخرون بشريّته، ومضى آخرون في متاهاتٍ أُخرى. فألحّ المبشّرون، وخلفاء الرسل في رعاية الجماعات المسيحيّة الوليدة، على الرسول الحبيب يوحنّا، الذي كان أكثر الرسل توغّلاً في فهم يسوع ورسالته، أن يجلو الحقيقة، قطعًا لدابر كلّ ضلالٍ؛

وأَهابوا به أن يضيف إلى الأناجيل المتداولة بعضًا من أعمال يسوع التي كان يختزنها في صدره، ويرويها لمستمعيه، ويفسّرها، مبرزًا غنى مغزاها، والتي كان الإنجيليّون الإزائيّون قد أغفلوا ذكرها.

واستجاب يوحنّا لهذه الرغبة التي تبيّن خطورتها. ولكنّه لم يدحض التعاليم البشريّة الزائفة، بحججٍ من عنده، ولا هو قارع الفلسفات الجوفاء، بفلسفته، بل اقتصر على الشهادة بما رأى المعلّم يعمل، وبما سمعه يقول، وبما تغلغل إلى أعماق كيانه. لم يسعَ إلى الجدَل والمحاجّة، كما فعل بولس، من أجل إقناع قومٍ لا يستهدون إلاّ بنور عقولهم، إذ إنّه لم يستهدف، من كلّ ما قاله وكتبه، سوى ترسيخ الإيمان بيسوع، ابن الله الوحيد، منبع الحياة الأبديّة.

لقد أوضح من هو ابن الله، وما هي علاقته بالكائن الإلهيّ الذي يدعوه أباه، وما كانت مهمّته في العالم، وما هو الخلاص الذي جاء كي يحقّقه. على هذه التساؤلات لم يُجب يوحنّا بحججٍ من عنده، بل ترك المعلّم يتكلّم. فهو «الكلمة»، وهو، وحده، كفيلٌ بإطلاعنا على طبيعته الإلهيّة الحقّة، وليس ثمّة من يتكلّم عن الله خيرًا من الله.

الإنجيليّون الآخرون أظهروا ألوهة يسوع، من خلال تعاليمه التي كان يطلقها بسلطةٍ ذاتيّةٍ، غير مستندٍ على تعليمٍ سابقٍ، وعبر غفرانه للخطايا، وهو حكرٌ على الله وحده، وبواسطة معجزاته الخارقة التي أثبتت قدراته الإلهيّة، وخضوع الخليقة له.

أمّا في الإنجيل الرابع فيسوع ذاته يؤكّد هذا الواقع، ويفسّره بكونه كائنًا أبديًّا، أزليًّا، موجودًا أبدًا في كيان الله، قبل تجسّده، مشاركًا لأبيه في جوهره، ومالكًا قدرة الإنارة، والخلق، والخلاص، ومنح الحياة، والحكم، كالآب، وباسمه.

يقول القدّيس أوغسطينُس إنّ الإنجيليّ يوحنّا «تحدّث كما لم يتحدَّث أحدٌ سواه عن ألوهة الربّ... لم يذكر، عبثًا، في إنجيله، أنّه في أثناء العشاء السرّيّ كان متّكئًا على صدر الربّ. فقد كان يرتشف، سرًّا، من ذلك النبع. وما استقاه سرًّا أعلنه على الملأ، لكي تحيط الأمم جمعاء علمًا، ليس فقط بتجسّد ابن الله، وبآلامه وقيامته، بل بكونه، قبل تجسّده، ابن الله الوحيد، وكلمة الآب، وأنّه أزليٌّ مثل أبيه، ومساوٍ لمن أرسله».

ولكيلا تبدو هذه التصريحات أقوالاً مجرّدةً، أدرجها القدّيس يوحنّا في إطار وقائع واضحة المعالم، محدّدة التواريخ والأماكن، وفي وعاء أمثالٍ شيّقةٍ، وصُوَرٍ أخّاذةٍ.

* *

يشترك يوحنّا مع زملائه الإزائيّين في الجوهر، وهو التعريف بابن الله، وبرسالته، ويقاسمهم الكثير من الموادّ المشتركة. ولكنّه يختلف عنهم في كونه دوّن إنجيله بضعة عقودٍ بعدهم، في ظروفٍ مختلفةٍ، وتوجّه به إلى جمهورٍ مختلفٍ.

وقد استهدف إيضاح الروحانيّة المسيحيّة كما بلورها، من خلال علاقةٍ حميمةٍ ووثيقةٍ بيسوع، ومن استقرائه المتقصّي والخاشع لأقواله وأفعاله، على مدى سنواتٍ طوالٍ من التأمّل والتمثّل.

كلّ ما ورد في الأناجيل الإزائيّة كان معروفًا ومتداوَلاً، فلم تكن، ثمّةَ، حاجةٌ إلى تكراره. إلاّ أنّ يوحنّا، حرص على إيراد أحداثٍ وأقوالٍ، لم يرَها الإزائيّون أساسيّةً، في حين هو رآها غنيّةً بالرموز، وكفيلةً بإسباغ أنوارٍ ساطعةٍ على روحانيّة يسوع، تسهّل فهمه، وتؤكّد ألوهته وقدراته. ومنها معجزته الأولى، حين حوّل الماء خمرًا في عرس قانا، وبها تجلّت سلطته على العناصر التي تحاكي قدرة الخلق؛ ومنها سيره فوق الماء، وتسكينه للعاصفة اللّذان أثبتا سلطته المطلقة على الطبيعة؛ ومنها شفاؤه مقعدًا في بيت حسدا، مبيّنًا أنّ ما من مرضٍ يستعصي على قدراته؛ وإعادته النور إلى عيني الأعمى التي أكّدت أنّه مصدر كلّ نورٍ؛ وإقامته لعازر التي برهنت على أنّه سيّد الحياة والموت.

وقد حرص يوحنّا على إظهار أنّ يسوع يبثّ روحه وروح أبيه في جميع من يؤمنون به. وهذا ما عبّر عنه بالماء الحيّ الذي حدّث عنه المرأة السامريّة؛ وبالولادة الجديدة بالروح التي كلّم عنها نيقودمس؛ وبالنور الذي يضيء العالم، وبالراعي الذي يقود القطيع إلى المراعي الزاخرة بالكلأ. وقد استفاض في إيراد الألفاظ المثقلة بالرموز مثل النور، والظلمة، والماء، وخبز الحياة، والعالم والجسد، والحياة، والموت، والحقّ، والبرّ والخطيئة؛ وقد استغرق في استنباط مغزى الأسرار، ولا سيّما الإفخارستيّا. كلّ هذه الرموز تشير إلى روح يسوع السرّيّ، الإلهيّ، وإلى القوّة التي يحقّق بها عمله في النفوس.

وجديرٌ بالتنويه أنّ الإزائيّين يكادون يقتصرون على تعليم يسوع في الجليل، في حين أنّ يوحنّا انفرد ببسط رسالته في اليهوديّة وأورشليم، وبرواية ما واكبها من أعمالٍ وأقوالٍ.

ومن التباينات الهامّة بين يوحنّا والإزائيّين أنّ هؤلاء ركّزوا الضوء، في سياق روايتهم المتعلّقة بعشاء يسوع الوداعيّ مع تلاميذه، على تأسيس سرّ الإفخارستيّا، في حين أغفله يوحنّا، وتوفّر على إعلان سرٍّ آخر، هو «سرّ الخدمة»، إذا جازت هذه التسمية، والمتمثّل في غسل المعلّم لأرجل تلاميذه. وما يفسّر هذا الموقف هو أنّ الإفخارستيّا كانت، يوم دوّن يوحنّا إنجيله، من أكثر الطقوس ممارسةً، في أوساط الجماعات المسيحيّة، فلم يجد حاجةً إلى التذكير بها، ولا سيّما أنّه كان قد خصّص لهذا السرّ الجليل صفحاتٍ كاملةً ورائعةً من إنجيله، استفاض، من خلالها، في استجلاء معانيه السامية، ورموزه الفذّة، بحيث يمكن القول إنّه أكثر الإنجيليّين «إفخارستيّةً»، إذ يكاد لا يخلو سطرٌ في إنجيله، من إشعاع أنوار هذا السرّ، حيث يتجسّد اللامحدود في المحدود المفرط في الضآلة. وبالمقابل أغفل الإزائيّون حدَث غسل الأرجل، فتوفّر يوحنّا على سرده، واستخلاص عِبَره.

لم يزعم يوحنّا ردم كلّ فراغٍ في سيرة الربّ، وهو الذي اعترف بأنّ العالم كلّه عاجزٌ عن احتواء الأسفار التي يقتضيها سرد كلّ أعمال يسوع وأقواله، واحدًا فواحدًا. ولكنّه أبى أن تظلّ بعض الأحداث الكثيفة الدلالة دفينة الكتمان.

* *

لم يقتصر يوحنّا على إدخال إضافاتٍ جليلةٍ على الأناجيل المؤتلفة، تنطوي على أحداثٍ وأقوالٍ غنيّةٍ بالرموز، بل أمعن في استجلاء الأبعاد الروحيّة التي تنطوي عليها.

ولئن تحدَّثت الأناجيل الإزائيّة عمّا هو مرئيٌّ في يسوع، فإنجيل يوحنّا يكشف النقاب عمّا هو غير مرئيٍّ فيه. الإزائيّون أظهروا الله حيًّا بين البشر، شبيهًا بهم، ويوحنّا أرانا ما هو يسوع في ذاته، وفي حضن الآب. هم أبرزوا الإنسان في يسوع، وهو أبرز فيه الله. ولذلك وُصف إنجيله بالإنجيل الروحيّ، وبالتاريخ اللاهوتيّ، المتميّز بأسلوبٍ فريدٍ، قويّ التعبير، بعيد الإيحاء.

إنجيلٌ روحيٌّ ينثر نورًا ساجيًا على جميع جنبات الأفق معًا، مثل انتشار الفجر الجمّ على الكون. لقد أنار بضياء الروح الأناجيل الثلاثة التي كتبت قبله، وأسبغ معنًى إلهيًّا على أحداثها التاريخيّة. أوضح تواريخها، وأماكنها، وسمّى الأشخاص والأمكنة، وأوضح المسارات، في دقّة كاتبٍ بالعدل، كما لا يستطيع سوى ابنٍ لفلسطين عاش الأحداث بكلّ أبعادها، أن يوضح. وقد أثبتت الاكتشافات الأثريّة صحّة هذه التفاصيل، ودقّتها المدهشة.

لقد كان يوحنّا شاهدًا أمينًا على ما رآه بعينَيْه، وسمعه بأذنَيْه، وخبره بشغاف قلبه. وعلى غرار مرقس سجّل «لقطاتٍ فوتوغرافيّةً» حيّةً، نابضةً، ونقل صورًا زاهيةً التقطتها العين وخزّنها القلب بشغَفٍ، ولكأنّه كان يستقي من سجلّ يوميّاتٍ، مدوَّنٍ في ذاكرته وفي فؤاده.

متّى ولوقا أوردا ثبتًا بسلالة يسوع البشريّة، ويوحّنا استهلّ إنجيله ببيان محتد يسوع الإلهيّ. منذ اللحظة الأولى خرق سقف الزمن، وحلّق فوق القرون، والأجيال المتعاقبة، واستقرّ في الأبديّة، داخل اللّه نفسه، كي يروي ولادة كلمة اللّه الأبديّة، في حضن اللّه، الكلمة الذي ارتدى جسدًا كي يقيم بين ظهرانينا مثل واحدٍ منّا.(*)

منذ مطلع إنجيله يحلّق يوحّنا بنا خارجٍ الزمن، وينطلق من الأزليّ كي يصل إلى التاريخ. تاريخه هو تاريخ صنع التاريخ، أي التاريخ في نظرةٍ أبديّةٍ.

«**في البدء**»: إنّه بدءٌ يسبق الزمن، إنّه الأبديّة، المناخ الخاصّ باللّه الذي لا يتغيّر، بل هو كيانٌ كاملٌ، خصبٌ، وموقد حبٍّ مضطرمٍ، كفيلٌ بإنقاذ بشريّتنا المفكّكة، وبشفائها من الخطيئة.

إنّ مقدّمة إنجيل يوحنّا توجز، في لغةٍ بسيطةٍ، ونَفَسٍ سامٍ، كلّ اللاهوت المبثوث، على نحوٍ خفيٍّ، في تضاعيف إنجيله: كيان الابن الأزليّ مع الآب وفيه، مجيئه إلينا من قبَل الآب، سكنه ما بيننا، صراعه ضدّ الظلمات، والهبات التي جاءنا بها: النور، والحقّ، والنعمة، والحياة الإلهيّة، ممّا يجعلنا أبناء اللّه.

لقد استهلّ يوحنّا إنجيله بإعلان أنّ «الكلمة» – ويقصد به يسوع – هو اللّه. لفظة

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «في البدء كان الكلمة»، صفحة ٣٠.

«الكلمة» مقدّسةٌ، وتوحي بأفكارٍ ساميةٍ ونبيلةٍ؛ وتعني أنّ «الكلمة» هو مرسل الوحي، والوسيط، ومصدر النظام، والتناغم، والعقل. هذه اللفظة كانت شائعةً في ذلك الزمان، وقد جعل منها يوحنّا جسرًا بين فكر عصره، والحقيقة المسيحيّة.

يقول القدّيس باسيليُس: «لماذا «الكلمة»؟ للدلالة على أنّه ناجمٌ عن العقل. لماذا «الكلمة»؟ لأنّه وُلد بمنأًى عن الأهواء. لماذا «الكلمة»؟ لأنّه صورة الذي ولده، ويحمل، في ذاته، كلّ خصائص الآب».

بوحيٍ من الروح أطلق نشيد «الكلمة» الذي تفجّر من تأمّلٍ إيمانيٍّ طويلٍ، وعميق الغور، معيدًا ولادة يسوع إلى مبدئها الحقّ الضارب في الأزل، وفي حضن الله؛ به عبّر الله عن ذاته، وأعلن أنّ يسوع هو كلمته الأولى والأخيرة.

مثلما أسبغ يسوع على عبارتَي «ملكوت الله» و«ابن البشر» مفهومًا قشيبًا تخطّى مفهومهما السابق، كذلك فعل الإنجيليّ يوحّنا بلفظة «لوغوس»، «الكلمة». ولكيلا تُستخدَم هذه اللفظة في غير مقصدها، عمد، من بعد، منعًا لأيّ لَبْسٍ، إلى تعريف يسوع بأنّه «النور»، و«الحقيقة»، و«الحياة».

«النور»، فرح النفس وشمسها، يفيض طهرًا، وتجرّدًا، وسنًى. إنّه ابن السماء، ومنها يشعّ، ويتعارض مع كلّ ما هو دنيويٌّ خسيسٌ، وأنانيٌّ، وبشعٌ، ومشوّهٌ، أي بالإجمال، يتعارض مع الظلمات، ولا سيّما أسوئها، أي الظلمات الإراديّة، والعمى الروحيّ. ولذلك يرحّب به الصالحون الذين لا يخشون التحديق إليه، لأنّه يُبرز جمالهم، ويخشاه الأشرار، ويمقتونه لأنّه يفضح شرّهم، وشرّهم يدينهم.

ويوحنّا هو أكثر الإنجيليّين تصويرًا للصراع الذي خاضه يسوع بين النور الذي جاء يشيعه، والظلمة العنيدة التي قاومته، بين الحبّ الذي جاء ينشره، والبغض المتأصّل في قلوب أهل الشريعة.

و«الحقّ» هو نقيض الإبهام والظلّ، والكذب. إنّه الواقع المنيع الصريح. إنّه الخبز الذي يشبع النفس، والماء الحيّ المتفجّر، الزلال، الصافي، الذي لا ينضب، ولا يأسن.

و«الحياة» هي الصفة الجوهريّة التي تجعل كلّ الصفات ممكنةً، ولا يحلّ شيءٌ محلّها. إنّها مبدأ كلّ عملٍ فكريٍّ أو جسديٍّ. ولكنّها، إن تردّت، اكتفت بمستوًى

حيوانيٍّ، وإن سمتْ، ارتدت سمةً إلهيّةً، واصطبغت بالأبديّة. اليهود كانوا يلتمسون الحياة في تضاعيف الشريعة وتفسيراتها، ويسوع يفيضها من ملء كيانه. «**أجل من ملئه كلّنا أخذنا، ونعمةً على نعمةٍ. ذلك بأنّ الشريعة أعطيت على يد موسى، وأمّا النعمة والحقّ فقد جاءا على يد يسوع المسيح**».

* *

إنجيل يوحنّا هو، إذن، بامتيازٍ، إنجيلٌ روحيٌّ، ولكن حذارِ من أن يؤدّي ذلك الاستنتاج إلى الظنّ بأنّ يوحنّا ذهل عن يسوع الإنسان، وأنّ الأناجيل الإزائيّة لم ترَ في يسوع سوى الإنسان، الجسديّ. فلا يسوع يوحنّا بلا جسدٍ، ولا يسوع الإزائيّين بلا روحٍ، بل، في الأناجيل الأربعة، يتجلّى أنّ الجسد والروح، في يسوع، متماسكان، متكاملان، لا ينفصلان.

في إنجيل يوحنّا تشابكٌ دائمٌ بين السامي والمألوف. فيسوع يأخذ الأشياء كما هي، ويُضفي عليها روحه ونوره، ويأخذ الناس على علاّتهم كي يحوّلهم إلى مثاله.

ولا ريب أنّ يوحنّا الذي اتّكأ على صدر المعلّم، وسمع دقّات قلبه، ولمس رهافة إنسانيّته، هو أكثر من تبحّر في تأمّل ألوهته، فكان إنجيليّ «الكلمة الذي صار جسدًا»، وإنجيليّ الحبّ، فلفظة الحبّ تتردّد في نصوصه كاللازمة، بلا انقطاعٍ.

* *

في الأناجيل الأربعة، الجوهر واحدٌ، والمشهود له واحدٌ، ولكنّ نهج الشهادة متباينٌ بين الإزائيّين ويوحنّا، ممّا برّر القول بأنّ الأناجيل ليست أربعةً، بل هي ثلاثةٌ وواحدٌ.

* *

الجمهور الذي توجّه إليه يوحنّا بحجم الكون، يضمّ يهودًا، وهلّينيّين، ورومانيّين، ومسيحيّين، معرفتهم بتعليم يسوع غير كاملةٍ، أو إنّهم يتعرَّضون للتضليل، فلا بدّ من تثبيتهم في صفاء الإيمان المسيحيّ. وبالإجمال يتوجّه الإنجيل الرابع إلى جميع الباحثين عن اللّه، وإلى الذين ما انفكّوا يبحثون عنه بعد أن وجدوه، لأنّهم لم يكتنهوا ملء رسالة يسوع، وإلى جميع من لم يعرفوه بعد، ولكنّهم يصرخون له بتوقهم.

* *

الإنجيل الرابع ثمرة تأمّلٍ مرتكزٍ على الحدث الفريد: الكلمة صار جسدًا، الله أحبّ العالم بحيث أعطاه ابنه، والابن تكلّم باسم الآب، ونفح البشر حياته الأبديّة كي يحيوا بها.

وله أسلوبٌ مميّزٌ في الشعور والتفكير والتعبير، يتّصف بصوفيّةٍ ساميةٍ. فذاك «الذي كان يسوع يحبّه» تعلّم أن يقرأ، في قلب المعلّم، المشاعر التي تعتمل فيه، والدوافع التي تحرّكه.

وعندما دوّن يوحنّا خلاصة تأمّلاته وذكرياته، كان على اندماجٍ بالمعلّم، اندماج عاشقٍ ينفذ إلى أعماق محبوبه، بحيث يتعذّر أحيانًا التمييز بين ما تلفّظ به يسوع أمام الجميع، وما همسه في قلب تلميذه. في إنجيل يوحنّا يتكلّم يسوع عن ذاته، ويعتلن ابن الله.

خاض يوحنّا تجربةً فذّةً مع يسوع، في أثناء حياته على الأرض، وبعد صعوده إلى السماء، تجربةً صاغت كلّ كيانه. وهذه الخبرة هي التي ابتغى أن يشركنا بها، من خلال إنجيله.

كان شديد القرب من يسوع، وعلى تواصلٍ حميمٍ به، بحيث قيل: «لو طالع يسوع، في أثناء حياته الأرضيّة، إنجيل يوحنّا لقال: «هذا هو أنا، حقًّا».

يوم دوّن إنجيله كان جسمه قد هرم، غير أنّ فكره ما برح نضرًا، يختزن بأمانةٍ كلّ ذكرياته عن يسوع مذ التقاه، وهو فتًى. وكان إنجيله صرخة حبٍّ لذاك الذي شُغِف به منذ لقائهما الأوّل، وزاده كلُّ يومٍ من أيّام حياته الطويلة عشقًا له.

* *

كتب يوحنّا باليونانيّة، ولكنّ أسلوبه الذي قرن الروحانيّة بالواقعيّة ينمّ عن أصوله الآراميّة. لغته واهيةٌ ولكنّها سليمةٌ، غير أنّه ضمّنها من رهافة الحسّ، وسموّ الروح، وعمق التأمّل، ونار الإيمان، ما أضفى على نصّه حيويّةً، ودفئًا، ورفعةً، ارتقت به إلى مرتبة الروائع.

مفرداته محدودةٌ لأنّ فكره مركّز على الجوهريّ: الحياة، الحبّ، النور، الحقّ، المجد.

لقد أدلى بما سمع ورأى، وباح بتجربته الشخصيّة، تجربة نورٍ وحبٍّ، نابعةٍ من علاقةٍ وثيقةٍ وحميمةٍ، تخرس في وصفها الشفاه، وتتخطّى الكلمات كلّها.

ولذلك يتميّز نصّ الإنجيل الرابع بقوّة التعبير، وبُعد الإيحاء، وبمهابةٍ تسيطر على القارئ منذ العبارة الأولى.

لا بدْعَ، إذن، إن قيل في هذا الإنجيل: «لوحةٌ لكائنٍ فريدٍ، رسمها فنّانٌ فريدٌ؛ تفاصيل دقيقةٌ تنمّ عن شاهد عيانٍ أمينٍ؛ توقيعٌ بيد القدّيس يوحنّا الذي يزيده تواضعه إدهاشًا؛ روح يوحنّا، وقلبه، وعبقريّته، تفوح من خلال كلّ صفحةٍ، بشذا حقيقةٍ تبدّد كلّ ريبةٍ؛ وفي الجانب الآخر صورة يسوع المسيح، المغرقة في الرفعة، والسموّ، والطهر، والحيويّة، والطيبة، التي لا يمكن أن يلحظها سوى شاهدٍ يمتلك فكر القدّيس يوحنّا، وقلبه، وصدقه، ورقّته...».

البِـيْـئَـةُ الطَّبيعيَّـة

يُعزى إلى شيشيرون هذا القول المفعم ازدراءً: «لا ريب أنّ إله اليهود إلهٌ صغيرٌ، إذ إنّه منح شعبه بلادًا مفرطةً في ضيق الرقعة!».

فمساحة فلسطين آنذاك كانت **٢٥١٢٤** كيلو مترًا مربّعًا، ويعيش على أديمها زهاء مليون نسمة. بيد أنّ هذه الرقعة الضيّقة تزخر بكلّ أصناف التضاريس والمناخات، فمن الحرمون الشامخ إلى البحر الميت الراقد عند أربع مئة مترٍ تحت مستوى البحار، وإلى الأغوار، والوديان، والسهول والفيافي. ومن ثمّ تصف الأناجيل تحرّكات يسوع بأنّها «صعودٌ» و«هبوطٌ».

وثمّة تباينٌ واضحٌ بين طبيعة اليهوديّة، وطبيعة الجليل. فاليهوديّة تفتقر إلى مسارح جمالٍ تفتن الأبصار، ولا تقع فيها العين إلاّ على مناظر رتيبةٍ، وصخورٍ رماديّةٍ جرداء، وتلالٍ شحيحة الخضار، ومجاري سيولٍ جافّةٍ حجرةٍ، في معظم أيّام السنة، وقممٍ مستديرةٍ صلعاء متشابهةٍ.

غير أنّ مرور يسوع بتلك المطارح يلوّنها بأزهى رُواءٍ، وانطلاقة الإنجيل منها تسبغ عليها قدسيّةً وجلالاً.

أمّا الجليل فهو أكثر تلوّنًا: سهوله مخضلّةٌ، ومناظره نزهةٌ للأبصار، وبحيرته تشيع طراوةً وإنعاشًا يلطّفان من قسوة الصحراء المنبسطة على حواشيها.

أمّا الأحوال المناخيّة فتحاكي تلك التي ما برحت سائدةً في بلداننا المتوسّطيّة.

* *

في أيّام يسوع كانت فلسطين مقسّمةً إلى أربع ولاياتٍ، تحتلّ اليهوديّة جنوبها، والسامرة وسطها، والجليل شمالها، وپيرية شرقها. وقد اندرجت رسالة المخلّص، خاصّةً، بين الجليل واليهوديّة، ولم يكن عبوره بالسامرة وپيرية إلاّ عَرَضًا.

واحتلّت اليهوديّة المكانة الأخطر شأنًا، فقد كانت لليهود المركز الدينيّ، والسياسيّ، وإلى حدٍّ بعيدٍ، المركز الفكريّ. فيها العاصمة اليهوديّة، أورشليم، وهيكلها الشهير، الذي يؤمّه جميع اليهود حاجّين من شتّى مواطن شتاتهم، وفي مناسباتٍ تتكرّر كلّ عامٍ. وفيها المدارس الدينيّة، والسنهدرين، مجلس اليهود الأعلى، ورؤساء الكهنة، ومقرّات الأحزاب الكبرى. أورشليم درّة فلسطين، وقبلة العالم اليهوديّ كلّه، وموطن الهيكل الوحيد الذي يقبل فيه يهوه الأضاحي. أورشليم المدينة العظيمة، والمدينة المتألّقة، ولا سيّما إذا ما شوهدت من الشرق، من جبل الزيتون.

وكان سكّان اليهوديّة يزدهون بتفوّقهم الدينيّ والعمليّ، ويحدجون سائر المناطق بنظرة تعالٍ وازدراءٍ.

غير أنّ الجليل يتميّز بكونه مسرح تعليم يسوع الرئيس، ولا سيّما الجليل الأدنى الساحليّ.

وكان الجليليّون يتّصفون بالنشاط، والإقدام، والاندفاع، وسرعة التأثّر والغضب، والنزوع إلى الشغب. وكانوا الأكثر حماسًا وطنيًّا، وتمرّدًا على النير الرومانيّ، وتأهّبًا للثورة، من سائر اليهود. وكان للشرف، عندهم، الأفضليّة على المال.

ومع أنّ أغلبيّة سكّان الجليل كانوا يهودًا، إلاّ أنّهم كانوا منفتحين على جيرانهم، وثنيّي فينيقية وسوريّة، وكان عددٌ ضئيلٌ من هؤلاء قد اختاروا الإقامة بين ظهرانيهم. ومن هذا الواقع نشأت تسمية «جليل الأمم». هذا الانفتاح جعل الجليليّين أقل تقيّدًا بأصوليّة الفرّيسيّين، ممّا ضاعف ازدراء هؤلاء لهم، فضلاً عن لهجتهم التي كانت تشوّه الأحرف، وتستثير السخريّة.

وما زال الجليل يتضوّع بشذا ابنه الفذّ، يسوع، وفي أجوائه تتردّد أصداء أقواله الإلهيّة.

* *

فلسطين، إذن، البلد الصغير، حجمًا، الشحيح الموارد، كان موئل اليهود القابع عند التخوم الشرقيّة للإمبراطوريّة الرومانيّة. ومع خضوعه للحكم الرومانيّ، كان العالَم اليهوديّ منكفئًا على ذاته، منعزلاً عن الخارج. ولم يكن الآخرون يستسيغون

غرابة اليهود، وتميّزهم، فيمقتونهم، ويضطهدونهم، أحيانًا، حتّى قبل ولادة المسيح.

وكانت ميزة الدين اليهوديّ الإيمان بالله الواحد، الذي يتعيّن عليهم حبّه بكلّ قلبهم، وكلّ نفسهم، وكلّ قوّتهم. وهذا الإيمان الصُلب بالله الواحد، كان يضفي على اليهوديّة وحدتها، وترابطها الوثيق، وتفرّدها، وتعصّبها، وتقوقعها على ذاتها، وثيوقراطيّتها، النظريّة على الأقلّ، إذ إنّ أسيادًا من كلّ لونٍ تقلّبوا على حكم اليهود عبر التاريخ، من مصريّين، وبابليّين، وفارسيّين، ويونانيّين، ورومانيّين.

الـجَوُّ السِّيَاسِيّ

في عهد يسوع كانت فلسطين خاضعةً لحكم روما، شأنها شأن معظم بلدان العالم آنذاك؛ وفي الداخل كانت تخضع لحكم هيرودس وأسرته.

الإمبراطور أوغسطس:

كانت روما قد أحكمت قبضتها على أرجاءٍ شاسعةٍ من العالم المعروف آنذاك، وبسط النسر الرومانيّ أجنحته من الأطلسيّ إلى الشرق الأوسط، ومن الجزر البريطانيّة حتّى الشواطئ الأفريقيّة.

وكان حكم الإمبراطور أوغسطُس، يُعدّ عصر روما الذهبيّ، فقد أنهى حقبةً متماديةً مريعةً من الدماء والدموع، ومن أهوال الحروب، والفوضى، والاستبداد؛ ورسّخ الاستقرار و«السلم الرومانيّ»، الذي أقعده على مضاء السيف، وسلطان القانون.

الجيش المنيع، والإدارة المنظّمة، والاقتصاد الحرّ، والتبادلات التجاريّة، ولغةُ تخاطبٍ مشتركةٌ، هي اليونانيّة المبسّطة، كانت عناصر توحيد أطراف الإمبراطوريّة المتباعدة، وتماسكها. وكانت طرقاتٌ معبّدةٌ آمنةٌ، وخطوطٌ بحريّةٌ محروسةٌ، تربط المدن والمقاطعات النائية بعضها ببعض، وتُشيع الازدهار.

وقد شجّعت المساواة الحقوقيّة بين جميع المواطنين الرومانيّين، أينما كانوا، على تقارب الشرق والغرب؛ وكادت تتحقّق أحلام الفلاسفة الرواقيّين، في دولةٍ عالميّةٍ واحدةٍ، حيث كلّ إنسانٍ هو مواطن العالم.

وقد حاول أوغسطُس ضبط كلّ ذلك بضوابط دينيّةٍ تحافظ على سلامة الأخلاق، وتحول دون انحطاط الشعب. غير أنّ الآلهة الوثنيّة كانت قد فقدت هيبتها، وفقد الناس إيمانهم بها. فحاول الإمبراطور أن يفرض نفسه بديلاً لها، وتوسّم كثيرون فيه بديلاً جيّدًا. فالآلهة غير مرئيّةٍ، ومتخفّيةٌ في أماكن قصيّةٍ، ولا تجدي عبادتها فتيلاً.

في حين أنّ الولاء للإمبراطور مُجدٍ، والشعب، على الأقلّ، يراه، ويلمسه، ويسمعه، كما تقول الصلاة التي أَلِفوا رفعها لـه: «سلامٌ لك! الآلهة الأخرى بعيدةٌ عنّا، ولا آذان لها. إنّها غير موجودةٍ، أو هي غير مكترثةٍ بنا. أمّا أنت، فنراك ماثلاً، بلحمك، ودمك، وعظمك، لا من خشبٍ، ولا من حجرٍ، بل حاضرًا حضورًا فعليًّا. لذلك نرفع إليك أدعيتنا.»

اسمه «أوغسطُس»، أي الأسمى، كان يُطلق، أصلاً، على الآلهة، ولكأنّي به ابتغى أن يكون إمبراطورًا إلهيًّا، أو إلهًا إمبراطوريًّا.

وحدهم اليهود المؤمنون بيهوه، الإله الواحد، أُعفوا من عبادة الإمبراطور، ومُنحوا حرّيّة تقديم الأضاحي لإلههم في هيكلهم، غير أنّهم كانوا يقدّمون، كلّ يومٍ، ضحيّةً عن نيّة الإمبراطور.

وكانت السيطرة الرومانيّة على اليهود تشتدّ قسوةً، أحيانًا، وتتّسم باللين، أحيانًا أُخرى، ولكنّها عجزت عن ترويضهم، والنفاذ إلى قلوبهم. فازدهاؤهم بماضيهم المجيد، وتطلّعاتهم المجنونة بطموحاتها، كانت لا تني تنفخ كبرياءهم. وكان الرومانيّون يقابلون بغض اليهود لهم بازدرائهم لليهود، ويسارعون إلى قمع كلّ محاولة تمرّدٍ بيدٍ من فولاذٍ، وفي سيلٍ من الدماء.

الإمبراطور تيبيريُس:

خلف أوغسطُس عام ١٤. وتحت حكمه اندرج قسطٌ كبيرٌ من حياة المخلّص. وقد اتّصف تيبيريُس بخصالٍ حميدةٍ نادرةٍ. فكان قائدًا باسلاً، وخطيبًا مفوّهًا، وإداريًّا محنّكًا.

وهو المقصود بكلمة «قيصر» في الإنجيل.

ولكن منذ غروب عهد أوغسطُس شرعت تلوح نُذُر الانحطاط، فتفاقمت الاضطرابات في أقاليم عديدةٍ محتلّةٍ، وعُدّت روما عاصمة الطغيان.

ودفعت روما ثمن فتوحاتها، إذ كانت تأتي، من كلّ معركةٍ، بأعدادٍ غفيرةٍ من العبيد الذين غالبًا ما يثورون مطالبين بالعودة إلى بلدانهم، فيُقمَعون بوحشيّةٍ. وقد صُلِب نحو ستّة آلافٍ منهم، دفعةً واحدةً، في أعقاب إحدى ثوراتهم.

الناصرة

بيت لحم

الــجَوُّ الدِّيــنيّ

كانت تعصف بالأذهان والنفوس فوضى عارمةٌ. وغالبًا ما تجاورت، تحت سقفٍ واحدٍ، النزعات الصوفيّة واللاأدريّة، مقتضيات الطهر ونوازع الانحلال الأخلاقيّ. وفي بيتٍ واحدٍ، قد يزدري الأب أباطيل العالم، في حين تمارس الأمّ طقوسًا ليليّةً سرّيّانيّةً، وينشد الابن مُتعًا جديدةً.

الإنسان عند منعطفٍ، وأصواتٌ متعارضةٌ تناديه من كلّ صوبٍ. الرواقيّون يهيبون به: لا تكترث بأفراح الحياة وآلامها، بل انغمس في تأمّلٍ لا يهزّه شيءٌ. الكلبيّون والإيبيقوريّون ينصحونه: عشْ حسب الطبيعة، وغبَّ ما استطعت من المُتع. ويعترض الفلاسفة التجريبيّون بأنّ السعادة تكمن في المعرفة والتأمّل. ويعلن اليهود: أخلصوا لله الواحد، والتزموا بالشريعة. والنسر الرومانيّ يحلّق باحثًا عن طريدةٍ، فوق هذا الطوفان، حيث اختلطت مبادئ متناقضةٌ، كما كان في زمن الخواء الأوّل. والجميع ينتظرون من يُخرج الكون من هذا السرداب المظلم. واليهود ينتظرون عودة إيليّا كي يكرّس المسيح المحارب.

في غمرة هذه الفوضى أشرق على الأفق القاتم فجر يسوع. ففي السنة العشرين لحكم أوغسطس تلقّت عذراء من الناصرة هذه البشرى: «**ستحملين، وستضعين ابنًا تسمّينه يسوع. سيكون عظيمًا وسيدعى ابن العليّ... ولن يكون لحكمه نهاية**»!

هــيرُودُس وَأُسْــرَتُهُ

في عهد يسوع كانت اليهوديّة قد فقدت عزّها، وعنت للاستعمار الرومانيّ الذي انتهك قوّادُه قدسَ أقداس هيكلها، واستغربوا خلوّه من أيّ نصبٍ لإلهٍ.

وفي عام ٣٧ ق.م نصّب الرومانيّون هيرودس بن أنتيپاتر ملكًا على اليهوديّة.

لم يكن هيرودس ملكًا بالمحتد، ولا يهوديًّا بالدم والمعتقد. أبوه إِيدوميٌّ، وأمّه عربيّةٌ، وكان اليهود الأصليّون يزدرون الإيدوميّين، ويعدّونهم أنغالاً، «شعبًا مشاغبًا لا يلجمه رادعٌ، متأهّبًا دائمًا للثورة، ونهمًا إلى الانقلابات» (يوسيفُس). حتّى اسمه المستوحى من الميثولوجيا اليونانيّة، والذي يعني البطل، لم يكن يهوديًّا. وهو إنّما كان بطلاً بنشاطه ودأبه، بفخفخته وبذخه، وبشراسته وبطشه. كلّ هذه البطولات تضرب جذورها في طموحٍ بلا حدودٍ، وفي نهمٍ إلى السيطرة، كانا دافع كلّ أعماله.

بتخطّيه عوائقَ جسيمةً، أفلح في تسلّق عرش أورشليم الذي أشاده على أنقاض عرشٍ آخر، هو عرش المكّابيّين، أبطال اليهوديّة، بدعمٍ من روما، التي كان هيرودس، أحد أزلامها؛ لقد حرص على أن يوالي، من زعماء روما، أقواهم. فسياسته الواقعيّة لم تكن تستند على نظريّاتٍ ومبادئَ، بل كانت تعتمد على نشدان الفائدة العمليّة المتمثّلة في الدولة الأقوى، وفي الرجال الأوفر سطوةً في تلك الدولة. بدأ بموالاة يوليُس قيصر، ولكنّه لم يكن قيصريًّا؛ وما كاد ذلك الدكتاتور يلقى حتفه حتّى انضوى تحت لواء قاتله كاسيُس، ولكنّه لم يتبنَّ النظرة الجمهوريّة؛ ثمّ مال إلى عدوّ كاسيُس، أنطونيُس، وفي أعقاب هزيمة أنطونيُس التحق بمنافسه أُكتاڤيُس، ولم يتخلَّ عنه، إذ إنَّ أُكتاڤيُس ما عتّم أن غدا أوغسطس الكلّيّ القدرة، أي ممثّل روما العظمى بلا منازعٍ. إذن، كان ولاؤه لروما هو دعامة عرشه على أورشليم، ولكنّ روما نفسها لم تكن تعني له شيئًا.

تنصيبه تمّ في روما، في العام ٤٠ ق. م، وكانت مبادرته الأولى، في أعقاب

تنصيبه، الصعود إلى الكاپيتول، مع أنطونيُس وأوكتاڤيُس لتقديم الضحيّة الطقسيّة، وآيات الشكر، لجوپيتير؛ هذه المبادرة تنير حقيقة مشاعر «ملك اليهود»، وسياسته الدينيّة المستقبليّة. لقد كان له هيكل جوپيتير في روما، وهيكل يهوه في أورشليم متساوِيَيْن. كان الدين، لـه، مظهرًا اجتماعيًّا لا بدّ من مراعاته سياسيًّا. من باب الحنكة السياسيّة حرص على عدم صدم شعور اليهود الدينيّ، لا بل إنّه قام بإعادة تشييد هيكلهم، جاعلاً منه واحدًا من أشهر الصروح في الإمبراطوريّة الرومانيّة. من عمله هذا توخّى تهدئة حنق اليهود عليه، واكتساب شهرة بنّاءٍ عظيمٍ، ولكن بمعزلٍ عن أيّ شعورٍ دينيٍّ حقٍّ. وفيما كان يواصل بناء هيكل أورشليم، كان يضطلع ببناء هياكل وثنيّةٍ لآلهة روما، ولأوغسطس الإلهيّ في السامرة، وقيصريّة، وفي أماكن أُخرى شتّى.

ولم يكن يتحرّج من الإطاحة بكلّ من يمثّل خطرًا على سطوته، سواءٌ كان وجيهًا، أو فرّيسيًّا، أو عالم شريعةٍ، أو عضو سنهدرين.

لم يكن يهتمّ بالقضايا اليهوديّة الدينيّة، ولكنّه كان يراقبها عن بعدٍ، تحرّزًا من أصدائها وعواقبها. وحرص على التقيّد ببعض الوصايا الدينيّة، مصانعةً وتطيُّرًا، فامتنع عن الولوج إلى أجزاء الهيكل الذي كان يبنيه والتي لا يجوز أن يدخلها سوى الكهنة. مثلما حرص على أن تكون جميع النقود التي سكّها خاليةً من أيّ رسمٍ يمثّل أحياءً. ولكنّ تلك التنازلات لم تكن سوى احتياطاتٍ سياسيّةٍ بعيدةٍ عن أيّ اعتقادٍ دينيٍّ حميمٍ.

لقد تظاهر بمضاهاة سليمان، فأنفق أموالاً طائلةً على إعادة بناء الهيكل وتجميله. ولكنّه قلّد سليمان، أيضًا، في تعدّد زوجاته، فكان له عشر زوجاتٍ، تسعٌ منهنّ في وقتٍ واحدٍ.

وكان بلاطه بلاطًا وثنيًّا، يفوق شتّى بلاطات الشرق فُصوقًا ومجونًا، وبذخًا. ومن الموارد التي استخدمها لتغذية هذا البذخ، سَلبُه، ليلاً، كنوز قبر داود الذي اضطلع به بنفسه.

ملكٌ من هذا النمط لم يكن يستطيع سوى تغذية حقد اليهود المتديّنين عليه، فضلاً عن ثقل يده في جباية الضرائب الباهظة لتمويل إنشاءاته الضخمة، وبذخ بلاطه الفاسد، وفي إعماله السيف في رقاب مناوئيه. لقد وضع بطشه المريع في

خدمة تعطّشه إلى السلطة، وقد وصفه فلاڤيس يوسيفُس «رجلاً قاسيًا حيال الجميع، بلا تمييز، يسيطر عليه غضبه». وقد كان من أكثر الرجال الذين عرفهم التاريخ دمويّةً وإجرامًا، تلاحقه فكرة المؤامرات التي تهدّد عرشه، فتدفعه إلى وحشيّةٍ مرعبةٍ.

كان قَلِق الطبع، نزوعًا إلى الارتياب في المحيقين به. ولم يكن ليهدأ له بالٌ طالما بقي من المكّابيّين أثرٌ، فقتل حماه هيركان المثقل بعبء السنين والهزيمة، وتوالت سلسلة جرائمه حتّى مماته.

كان متين البنية، شديد المراس، ولكنّه سخّر كلّ طاقاته من أجل انتزاع السلطة والتشبّث بها. ووضع كلّ كفاءاته في خدمة مكره المقترن بقسوةٍ لا عهد لها برحمةٍ، ولم تقوَ على نقع غليلها جداول الدماء التي أراقها منذ مستهلّ عهده بالحكم، حتّى يومه الأخير. فما من اعتبارٍ أخلاقيٍّ أو أسرويٍّ كان يردعه، عندما كانت مطامعه المغرقة في الغيرة تُظهر له، حقيقةً أو بهتانًا، طيف منافسٍ كفيلٍ بزعزعة عرشه.

المرأة الوحيدة التي افتتن بهواها كانت الأميرة المكّابيّة مريمن، التي تزوّجها، ولكنّها كانت تحتقره. وكانت أُمّها ألكسندرا تثير شبهاته. وكانت ألكسندرا هذه، بمساعدة كليوپاترا، ملكة مصر، قد انتزعت منه وظيفة رئيس الكهنة لابنها، شقيق مريمن، البالغ من العمر سبع عشرة سنةً، والذي دانت له أورشليم بالولاء. فالتهمت الغيرة والشكوك صدر هيرودس، فدبّر له مكيدةً، وأماته غرقًا، في أثناء احتفالٍ، تحت بصر أمّه وأخته.

وما لبث أن قتل يوسف الذي كان، في آنٍ واحدٍ، عمّه وزوج أخته؛ ثمّ أمر بقتل صهره الآخر كوستوبار الذي اقترن بأخته صالومي، في أعقاب إعدامه زوجها السابق.

وفي عام ٢٩ ق. م خامرته شكوكٌ باشتراك زوجته في التآمر عليه، فأمر بإعدامها، وصدّق قضاةٌ جبناء حكمَه، ومضت مريمن إلى مصيرها، ثابتة الجأش، وقورًا، ولم تلتمس الرحمة. وما كاد ينفّذ فيها حكم الإعدام حتّى عصف الجنون بعقله، وأمر خدم القصر بمناداتها بصوتٍ عالٍ، علّها تعود إلى الحياة. وقد خلّفت تلك المأساة في نفسه لجّةً من المرارة، إذ ظلّت صورة حبيبته المقتولة تطارده، فيناديها، ويزأر، ويأمر بأن يؤتى بها إليه. ولكي يحاول طرد طيفها المزعج، هوى إلى السكر، وإنفاق الليالي في القصوف، وانصرف إلى تنظيم سباقات الخيل. ولكنّ كلّ محاولاته فشلت في إقصاء شبح مريمن القتيلة.

ثمّ ما عتّم أن ألحق بها أمّها، أَلكسندرا، والعديدين من أقربائه ونداماه. وكان قد أوفد ابنيْه من مريمن، ألكسندر وأريستوبول، إلى روما، للدراسة، ولّما قفلا عائدَيْن أحسن استقبالهما، ولكنّه سرعان ما خشي أن يثأرا، يومًا، لوالدتهما، فلفّق لهما تُهَمًا، وأمر بشنقهما في السامرة، رغم محاولات الإمبراطور أوغسطس لإنقاذ حياتهما، ممّا حمل الإمبراطور على القول، ساخرًا، إنّه خيرٌ للمرء أن يكون خنزير هيرودس، من أن يكون ابنه: فهو، بصفته يهوديًّا – ظاهريًّا على الأقلّ – لا يتناول لحم الخنازير، ومن ثمّ لا يقتلها؛ ولكنّه لا يتحرّج من قتل أبنائه.

وبعدئذٍ، أسلم إلى وحشيّة الجماهير ثلاث مئةٍ من الضبّاط المتعاطفين مع ابنيه القتيليْن هذين.

* *

ولكي يصرف الأنظار عن الجرائم التي لطّخت بالدماء البريئة بلاطه، دأب هيردوس على إشادة الصروح الباذخة، من مسارحٍ لا هدف لها سوى ألعابٍ ذميمةٍ، وحمّاماتٍ، وقناطر، أدخل إليها عاداتٍ جديدةً قبيحةً؛ وأتاح للنسر الرومانيّ نشر راياته فوق الهيكل، وتدنيس قدسيّته. وظلّ، سحابة أربعٍ وثلاثين سنةً، يبذل جهودًا مستميتةً كي يُنسي اليهود أصلَه غير اليهوديّ. ولكنّ كلّ شيءٍ كان يذكّر ذلك الشعب الضاجّ تحت النير، أنّ الصولجان انتقل من يد يعقوب إلى يد عيسو.

تحدّيه المعلن لمشاعر اليهود أقصاه عن قلوبهم، فمحضوا له الكره، ونسوا حتّى مبادرات كرمه النادرة، مثل تضحيته بذهب قصره وفضّته من أجل شراء حنطةٍ، وإطعام الشعب في أيّام المجاعة، كما نسوا كلّ الامتيازات التي انتزعها لهم من الرومان.

وقد ختم حياته بمزيدٍ من الجرائم. فخمسة أيّامٍ قبل وفاته، أمر بقتل ابنه البكر أَنتيپاتر، الذي كان قد عيّنه وليًّا للعهد، ووريثًا له. وقد أكسبته هذه الجريمة من الرضى والسرور، تحسّنًا مؤقّتًا في وضعه الصحّيّ، الذي كان يبدو ميؤوسًا منه. وأخيرًا توّج حياته ولخّصها بمشروع جريمةٍ مروّعةٍ. فعندما شعر بدنوّ أجله، وخمّن أن موته سيفجّر أمواجًا من الفرح الشعبيّ، في حين أنّه كان يتمنّى أن يوارى الثرى وسط الدموع الغزيرة، أمر بجلب وجهاء اليهود من شتّى أنحاء مملكته إلى أريحا حيث كان المرض يقعده، وأمر باعتقالهم في ميدانٍ لسباق الخيل، وبقتلهم، فور وفاته،

وبذلك ضمن أن تواكب جنازته دموع أُسر اليهود المقتولين، على الأقلّ. ولكن إثر وفاته، لم يجرؤ أحدٌ على تنفيذ هذا الأمر المريع.

وكان قد لطّخ أيّامه الأخيرة بمجزرةٍ وحشيّةٍ أُخرى، في أعقاب مجيء المجوس بحثًا عن ملكٍ وليدٍ في بيت لحم، فأمر بقتل كلّ صبيٍّ فيها، له من العمر سنتان فما دون. ويقال إنّ بين القتلى الأبرياء كان أصغر أطفاله المودع لدى مرضعةٍ في بيت لحم.

أمّا في علاقته بروما، أو بالحريّ بأوغسطس الذي كان يمثّلها، فقد كان هيرودس يُعدّ ملكًا «صديقًا وحليفًا»، ولكنّه، في الواقع لم يكن أكثر من موظّفٍ، وعميلٍ حقيرٍ. فقد كان أوغسطُس يعتمد على حلفاء متفانين في خدمته، وقد كافأ عميله هيرودس بسماحه له بتوسيع رقعة مملكته؛ فضلاً عن إعفائه من أداء المكوس لروما، ومنحه الحرّيّة في إدارة الأمور الماليّة والأمنيّة. فكان له جيشه الخاصّ المؤلّف، في معظمه، من مرتزقةٍ غير يهودٍ. إلاّ أنّ الإمبراطور كان يملك حقّ استخدام هذا الجيش حينما يشاء. أمّا في علاقته مع دولٍ أُخرى، فكان على هيرودس أن يعمل بتوجيه الإمبراطور، ولم يكن يستطيع شنّ حرب على أيّةٍ منها بلا موافقته. وكانت ملكيّته منحةً شخصيّةً لا يحقّ له توريثها إلاّ بموافقةٍ صريحةٍ من الإمبراطور.

ولكي يضمن عطف الإمبراطور، غالى في مداهنته، فأطلق اسمه واسم أفراد أسرته على الصروح التي كان كلِفًا بإشادتها؛ وكان يطلعه على كلّ أخبار أسرته الخاصّة، وقد التمس إذنه من أجل قتل أبنائه. لم يُفتن أوغسطس بمداهنات صنيعته، ولكنّه عامله بالحسنى، وظلّ حريصًا على إبقاء هذا التعامل في إطار معاملة رئيسٍ لمرؤوسٍ؛ ففي ميدان التبعيّة السياسيّة لم يكن أوغسطس يرضى بأيّ تنازلٍ. ومن المعروف غضبه على هيرودس عندما شنّ حربًا فاشلةً على النبطيّين من غير استئذانه، ممّا اضطرّ هيرودس إلى إنفاذ الوفود، إثر الوفود، لالتماس الصفح.

في السنة الرابعة ق. م قضى هيرودس نحبه، في أعقاب نزاعٍ مريرٍ، وآلامٍ ممضّةٍ، ووُوري جثمانه على تلّةٍ «الهيروديون»، التي دعيت، من بعد، جبل الفراديس، حيث كان قد أعدّ لنفسه لحدًا فخمًا. من تلك التلّة كانت تُشاهَد،على بُعد ستّة كيلومتراتٍ، قريةُ بيت لحم، حيث كان قد وُلد، لسنتين خلتا، يسوع.

وكان شبح ذلك الطاغي البغيض الذي وُصف بالكبير، ولكنّه أثبت حقارته، يُلقي ضوءًا كئيبًا على الزمن الذي وُلد فيه يسوع الوديع، المسالم، الملك الحقّ.

خُلَفَاءُ هِيرُودُس

إثر وفاة هيرودس، كان لا بدّ من تنفيذ وصيّته الثالثة والأخيرة، والتي كانت تنصّ على أن يتولّى ابنه أركيلاوس من زوجته السامريّة، ملثاكي، ولاية العهد، وممارسته سلطةً مباشرةً على اليهوديّة، والسامرة، وإيدوميا؛ على أن يكون أَنتيپاس ابنه الآخر من السامريّة عينها، واليًا على الجليل وپيرية، في حين يتولّى ابنه فيليپس من الأورشليميّة كليوپاترا، حكم المناطق الشماليّة.

تنفيذ هذه الوصيّة كان يستلزم موافقة أوغسطس، ويصطدم بمعارضة الكثيرين، منهم أنتيپاس الذي كان قد عُيِّن، في وصيّةٍ سابقةٍ، وليًّا للعهد، ومنهم العديدون من وجهاء اليهود الذين ما كانوا يتوقّعون من أبناء الملك المتوفّى إلاّ أسوأ من فعال أبيهم، ولذلك كانوا يؤثرون الخضوع لحكم روما المباشر.

وهرع اثنان من الإخوة المتنازعين، أركيلاوس وأنتيپاس، إلى روما، للدفاع عن قضيّتهما، وكلٌّ منهما يطمح في الظفر بحظوة الإمبراطور، والعودة بالمُلْك. ولم يقف اليهود، الناقمون على الأسرة الهيرودسيّة، مكتوفي الأيدي، فأنفذوا، بدورهم، وفدًا من خمسين عضوًا، مطالبين بإقصاء الأسرة الهيرودسيّة المقيتة، وانضمام مملكتهم إلى القطر السوريّ، لعلّهم يستطيعون ممارسة تقاليدهم اليهوديّة، بلا عائقٍ، تحت حماية روما.

حيال هذا الصراع، اتّخذ أوغسطس قرارًا بدا مناقضًا لمصالح روما، إذ إنّه رفض مطالب الوفد اليهوديّ الكفيل بتوسيع رقعة سلطة روما، ووافق على تولّي أركيلاوس حكم المناطق التي ولاّه إيّاها والده، ولكنّه أمسك عنه لقب الملك، على أن يهبه إيّاه لاحقًا، بعد أن يثبت جدارته به؛ وعيّن الوريثَيْن الآخرَيْن والِيَيْن على المناطق المحدّدة لكلٍّ منهما في وصيّة والدهما المتوفّى.

في الواقع كان أوغسطس يودّ اختبار ورثة هيرودس، فإن هم أثبتوا مثل ما أثبت

والدهم من وفاءٍ لروما، ظلّ يحكم فلسطين، من خلالهم، وإلاّ أقصاهم واستجاب لالتماس اليهود. ودلّت الأحداث على أنّ قراره كان حكيمًا. فأركيلاوس لم يصمد طويلاً، وكلّفه حكمه الاستبداديّ الشرس، الخلع. وضُمّت المناطق التي كان يحكمها إلى الأمبراطوريّة وفقًا لرغبة اليهود.

أمّا هيرودس أنتيپاس، الذي تثقّف في روما، فكان أكثر إخوته تمثّلاً بأبيه، في هوس السلطة، والكلف بالبذخ، وممالأة أسياده الرومانيّين، وإطلاق أسمائهم وأسماء أفراد أسرهم على الصروح والمدن التي كان يشيّدها. وكان أسعد حظًّا مع تيبيريُس منه مع سلفه أوغسطس، وقد أطلق اسم طبريّا على المدينة التي أشادها على ضفاف بحيرة جنّيصارت، تيمّنًا به. وإذ كان تيبيريُس ظِنّينًا، تطوّع ليكون له جاسوسًا على كبار الموظّفين الرومانيّين في المشرق. غير أنّ نهاية تيبيريُس جرّت معها نهاية أنتيپاس.

بيد أنّ السبب المباشر لنكسة أَنتيپاس كان امرأةً، اسمها هيروديّا. فقبيل العام ٢٨ شخص إلى روما حيث كانت تستدعيه مهمّته الجاسوسيّة، وحلّ ضيفًا على شقيقٍ لـه كان يعيش في روما، ولا يتمتّع بأيّة صفةٍ رسميّةٍ، وكانت زوجته هيروديّا هي ابنة أخيه أريستوبول الذي قتله أبوه هيرودس الكبير. كان الطموح يعتمل في نفسها، وقد ضاقت ذرعًا بحياةٍ ساكنةٍ لا ألَق فيها، وتوسّمت حياةً أوفر إثارةً مع أنتيپاس، الذي كان يوليه تيبيريُس ثقته. ومن جهته، دأب أنتيپاس على إغواء زوجة أخيه الفتيّة، مع أنّه كان قد بلغ الخمسين من العمر، وكان متزوّجًا من ابنة الحارث ملك النبطيّين. غير أنّ ما ألهبته فيه هيردويّا من هوىً، وما كان يعتمل فيها من طموحٍ، أطاحا بكلّ العقبات، فوعدها، هو، بتطليق زوجته، وهي وعدته باللحاق به حالما يتمّ ذلك الطلاق. ونمى الأمر إلى زوجته ابنة الحارث، فآثرت النأي بنفسها عن مهانة الطلاق، وتذرّعت بحجّةٍ واهيةٍ كي تشخص إلى قلعة «ماخيرونت» الواقعة على الحدود بين ولاية زوجها وديار أبيها، ومن هناك فرّت إلى أهلها. وانزاح العائق الأكبر من طريق قران الزانيين. فهرعت هيروديّا للقاء أنتيپاس، ومعها ابنتها الصبيّة من زوجها الذي هجرته، المدعوّة صالومي، والتي كانت قد أتقنت فنون الرقص في مرابع روما.

الملك الحارث لم يعد لـه همٌّ سوى الاثّئار لابنته، واليهود استنكروا قحة الزانيين وخرقهما الأعراف الدينيّة والوطنيّة، ولكنّهم كانوا يهمسون باستنكارهم ولا يجرؤون على البوح به لأنّهم كانوا يخشون بطش الحاكم، وغضب الخليلة الفاسقة. ولم يجرؤ

القدس

الهيكل

على مواجهتها بالاستنكار سوى يوحنّا المعمدان، الذي كان يحظى باحترام الشعب، ويوحي لأنتيپاس نفسه خشيةً متطيّرةً. ولكنّ أنتيپاس، نزولاً عند لجاجة خليلته، اعتقل النبيّ في قلعة ماخيرونت، حيث حبسه زهاء عشرة أشهر، ما انفكّت هيروديّا خلالها، تطالب بالقضاء عليه، والانعتاق من ظلّه الثقيل. ولكنّ أنتيپاس كان يخشى التلوّث بدمه، مخافة أن يجلب عليه الويل، وخشيةَ ثورةٍ شعبيّةٍ يُسعّر نيرانَها قتلُ ذلك البارّ، افتئاتًا وجبنًا. وتربّصت هيروديّا الفرصة المؤاتية، التي تحقّقت في أعقاب أداء ابنتها رقصةً ماجنةً استحقّت عنها رأس النبيّ الشهيد.

ولكن، في الواقع، كانت تلك بداية نهاية الخليلة الخليعة. ففي تلك الأثناء، كان الملك الحارث يخطّط للاثّئار لابنته، وانتهز فرصة مناوشاتٍ حدوديّةٍ، فشنّ حربًا هزم فيها أنتيپاس هزيمةً نكراء. واستعان أنتيپاس بتيبيريُس لمناصرته على الانتقام. وإذ كان الإمبراطور حريصًا على جاسوسه، أمر واليه في سوريا، ڤيتلّس بشنّ حملةٍ على الحارث، وبإرساله الملك العربيّ إلى روما حيًّا ومقيّدًا، أو إرسال هامته بعد نزعها عن جثّته. ولكن ڤيتلّس كان يمقت أنتيپاس بسبب وشايته، ولم ترُق له المهمّة، وظلّ يماطل. وعندما وصل بجيشه إلى أورشليم كان تيبيريُس قد لقي حتفه، وانتهت الحملة، ولم يُنتقم لهزيمة أنتيپاس.

وجاء انهيار أنتيپاس النهائيّ، من جرّاء غيرة هيروديّا الجامحة؛ فقد كان لها أخٌ مغامرٌ، يدعى أغريپا، تبهظه الديون، وله بالسجون الرومانيّة عَهدٌ، وله فيها إقاماتٌ متواترةٌ. وهبطت عليه الثروة والحظّ، بغتةً، عندما تسنّم صديقه القديم كاليغولا عرش الإمبراطوريّة، فأغرقه بالهبات من كلّ نوعٍ، وعيّنه ملكًا على جزءٍ من فلسطين متاخمٍ لتترركيّة(*) أنتيپاس؛ وعندما شخص أغريپا لاستلام مملكته ألهبت الغيرة قلب أخته، ولا سيّما أنّ زوجها، بعد سنواتٍ طويلةٍ من خدمته لروما خدمة العبيد، كان ما زال واليًا، ولم تكترث الإمبراطوريّة بمساندته عندما هزمه أعداؤه الأغراب، فلجّت، وألحفت، حتّى حملت أنتيپاس على الشخوص إلى روما للمطالبة بلقب الملك، وكانت هي رفيقته إلى العاصمة. وتوجّس أغريپا ريبةً من هذا السفر، فأتبع بالمسافرَيْن رسلاً يترصّدونهما، وزوّدهم برسائل إلى كاليغولا، حافلةٍ بالوشايات والتحريض،

(*) التترك هو الوالي على مناطق محدّدة، وهو دون الملك مرتبةً.

وتُهم الخيانة. وهكذا عوضًا عن الظفر بلقب الملك، تلقّى أنتيپاس أمرًا بخلعه، ونفيه إلى بلاد الغاليّين، وأُطلقت يد أغريپّا في المناطق التي كانت خاضعةً لولايته، وتُركت لهيروديّا حرّيّة المكوث حيثما تشاء، والتمتّع بأموالها وممتلكاتها، إكرامًا لأخيها أغريپّا. ولكنّها، وقد سبّبت لأنتيپاس النكبة، آثرت مواكبته إلى منفاه، وقد تمّ ذلك في نحو العام ٤٠.

أمّا ثالث ورثة هيرودس الكبير، التترك فيليپس، فلا ظلّ له في تاريخ يسوع. ويبدو أنّه حكم بعدلٍ وسلامٍ، حتّى وفاته عام **٣٤**. إلاّ أنّه، ظاهريًّا، أُصيب بلوثةٍ في عقله، إذ إنّه، في شيخوخته، اتّخذ لنفسه، زوجةً، صالومي ابنة هيروديّا، التي كانت تصغره ثلاثين سنة، مع كونها حفيدة أحد إخوته.

بنطيُسُ بيلاطُس

إثر خلع أركيلاوس ضُمَّت تتركيّته، أي اليهوديّة والسامرة وإيدوميا، إداريًّا، إلى الإقليم السوريّ، الخاضع مباشرةً لسلطة الإمبراطور الذي كان يمثّله مفوّضٌ سامٍ لكلّ سوريّة، ووالٍ في كلّ قطاعٍ. فقد كان أوغسطس يعي صعوبة حكم اليهود، ولذلك توخّى أن يتعاون عليه المفوّض السامي، ووالٍ محلّيٌّ، وكان الأقليم السوريّ من أعظم الأقاليم شأنًا، ولا سيّما من جرّاء موقعه الجغرافيّ.

والي اليهوديّة كان يقيم، عادةً، في قيصريّة، المدينة التي أنشأها، ببذخٍ، هيرودس الكبير، على ضفاف مرفأٍ هامٍّ، وجعل منها عاصمة اليهوديّة السياسيّة. ولكن، بمناسبة الأعياد اليهوديّة الكبرى، كان ينتقل إلى العاصمة الدينيّة أورشليم، فيحلّ في قلعة أَنطونيا، الملاصقة للهيكل، والمحتضنة الحامية العسكريّة. كان اليهود يُعفون من الخدمة العسكريّة، ومن ثمّ كانت الحامية تتألّف من سامريّين وسوريّين ويونانيّين، ولا يزيد عدد أفرادها عن ثلاثة آلافٍ. ومن مهامّ الوالي جباية الضرائب والمكوس لصالح الإمبراطور، بواسطة جباةٍ، غالبًا ما يلجأون إلى الشدّة والعنف كي يؤمّنوا المبالغ المفروضة، والتي يضيفون إليها بعض المغانم لهم. ولا عجب إن كانوا ممقوتين من الشعب الرازح تحت أعباءٍ لا يطيق احتمالها.

كان للوالي محكمته، وحقّ إصدار حتّى أحكام الإعدام، إلاّ في الرومانيّين الذين كانوا يملكون حقّ رفع قضاياهم إلى روما. وكان لليهود محاكمهم الخاصّة، وأعلاها شأنًا السنهدرين. غير أنّ أحكام الإعدام نُزعت منهم. وكان رئيس الكهنة هو الرئيس الفعليّ للشعب اليهوديّ، وكان تعيينه من شأن الوالي، والمفوّض السامي على سوريّا.

وقد دأبت السلطات الرومانيّة على مراعاة التقاليد الدينيّة اليهوديّة، حتّى تلك التي كانت تبدو لهم موغلةً في الغرابة، وإذا ما أدّى خطأ ممثّلٍ رومانيٍّ إلى خرق بعض هذه التقاليد، كانت روما تسارع إلى إصلاحه. لا بل مضى بعض الأباطرة

إلى ممالأة اليهود وإلى إظهار التعاطف معهم، فقد أمر أوغسطس، مثلاً، بتضحية ثورٍ وخروفين كلّ يومٍ، في هيكل أورشليم، عن نيّة القيصر والشعب الرومانيّ، وذلك على نفقته الخاصّة.

ومراعاةً لحرمة السبت، أُعفي اليهود من الخدمة العسكريّة، ونزعت عن الرايات التي كان يُدخلها الجيش إلى أورشليم كلّ صورةٍ لأَحياءٍ، حتّى صورة القيصر، وخلت النقود التي كان يسكّها الوالي من أيّ رسمٍ لكائنٍ حيٍّ، علمًا بأنّه ما كان يملك سوى حقّ سكّ نقودٍ برونزيّةٍ. ولم تَدخل إلى اليهوديّة عبادة الإمبراطور التي كانت مفروضةً في كلّ الأقاليم الأخرى.

وبالإجمال كان اليهود، تحت حكم الولاة الرومانيّين، أفضل حالاً ممّا كانوا تحت حكم هيرودس الكبير، وبعض أسلافه الأشمونيّين.

والي اليهوديّة، منذ عام ٢٦، كان بُنطيس بيلاطس، الذي وصفه مؤرّخون، لا يكنّون له كثيرًا من العطف، بالعنف، والسلب، والعناد، والتعسّف. ومن المحقّق أنّه كان يفتقر إلى الحنكة والدراية اللازمتَيْن للاضطلاع بمهمّته بنجاحٍ. فقد كان يمقت اليهود، ويجهل أو يتجاهل مشاعرهم الدينيّة، ولا يعبأ بمداراتها. فابتغى إخضاعهم لرغباته، في كلّ شيءٍ، ورغم كلّ شيءٍ، ولكنّه، بضعفه وتردّده أحيانًا، وبعنفوانه الأرعن، مرّاتٍ أخرى، انتهى إلى ضعضعة سلطته. فهُزم نوبةً إثر نوبةٍ، من قِبَل من زعم ترويضهم. وغالبًا ما أفضى عناده المقرون بانعدام خبرته، إلى إضرام الفِتَن، التي كان يُضطرّ إلى إطفائها بلججٍ من الدماء.

ولا ريب أنّه لولا واجب مصانعة اليهود الذي كان يفرضه عليه الإمبراطور، ويراقب تنفيذه مندوبه السامي في سوريّة، لكان أخضعهم جميعًا للأعمال الشاقّة.

منذ تولّيه الولاية شرع يتحدّى مشاعر اليهود، إذ أمر الجند القادمين من قيصريّة إلى أورشليم ليكوّنوا حاميتها، أن يُدخلوا معهم صور القيصر وشعاراته، وتمّ ذلك ليلاً، تحاميًا للشغب والثورة والمقاومة، وأملاً في استسلام الأورشليميّين للأمر الواقع. ولمّا أحيط هؤلاء، في الغد، علمًا بما جرى، ثارت ثائرتهم، واستهولوا انتهاك المقدّسات، فهرعوا إلى قيصريّة، حيث ظلّوا خمسة أيّامٍ وخمس ليالٍ يلحّون في المطالبة بسحب الشعارات والصور الإمبراطوريّة؛ وفي اليوم السادس، ضاق بيلاطس بإلحاحهم ذرعًا، فجمعهم، وحوّطهم بجنده، مهدّدًا بقتلهم إن لم يرفضّ جمعهم

في الحال. ولكنّهم حطّموا غطرسته، عندما اطّرحوا أرضًا، وكشفوا عن أعناقهم، مؤكّدين إيثارهم الموت على خيانة مبادئهم. إزاء هذا التصميم الذي لم يتوقّعه، أمر بيلاطس بسحب الشعارات والصور الإمبراطوريّة.

تحدٍّ آخر مثّله استخدام بيلاطس لأموال الهيكل في سبيل شقّ قناةٍ تجرّ المياه من جنوب شرقيّ بيت لحم إلى قصره في أورشليم كي تمكّنه من متعة الاستحمام التي كان كَلِفًا بها. وقد استثار هذا الاستخدام غير الشرعيّ لأموال الهيكل مظاهراتٍ صاخبةً، فبثّ بيلاطس جنده وعسَسَه مموّهين في أزياءٍ يهوديّةٍ بين المتظاهرين؛ وفي الوقت المتّفق عليه، استلّوا الهراوات التي كانوا يخفونها طيّ معاطفهم، وانهالوا بها على اليهود الصاخبين، منزلين في صفوفهم أفواجًا من الأموات والجرحى.

لم يعتبر بيلاطس من الدروس القاسية، فأعاد الكرَّة. ودخل أورشليم مع جندٍ يرفعون مجنّاتٍ تحمل الشارات الإمبراطوريّة. فتوجّه إليه وفدٌ رفيعٌ يضمّ، بين أعضائه، أربعةً من أبناء هيرودُس الكبير، مطالبين بنزع الشارات، ولكنّه ردّهم خائبين، فاضطرّوا إلى مناشدة الإمبراطور تيبيريُس الذي أمر بنقل الشارات إلى هيكل أوغسطس في قيصريّة. ويلمح الإنجيليّ لوقا إلى قتل بيلاطس لعشرات الجليليّين كانوا يقدّمون الضحايا في هيكل أورشليم.

وفي عام **٣٥**، وعد نبيٌّ مزيّفٌ أتباعه بتمكينهم من مشاهدة الأواني المقدّسة العائدة لعهد موسى، والتي كان يُعتقد أنّها مخبّأةٌ في جبل جرزّيم، على مقربةٍ من السامرة. وفي الموعد المحدّد، نشر بيلاطس جيشه على قمّة ذلك الجبل، لأنّه كان يخشى كلّ ما قد ينشأ عن التجمّعات الحاشدة، ولا سيّما أنّه كان على علمٍ بأنّ السامريّين قد ضاقوا ذرعًا ببطشه، وكان يشتمّ نزعتهم إلى الثورة. ومع ذلك تجمّع جمهورٌ حاشدٌ منهم، فانقضّ عليهم جيش بيلاطس، وقتل الكثيرين، واعتقل الكثيرين، ثمّ أعدم أرفعهم شأنًا.

ورفع السامريّون شكواهم عن مجزرةٍ لا مبرّر لها إلى ڤيتلُّس، المفوّض السامي في سوريّا، الذي تعاطف معهم، ولا سيّما وقد خَبَر ولاءهم لروما. فخلع بيلاطس في الحال وأوفده إلى روما كي يدافع عن نفسه أمام تيبيريُس الذي لقي نحبه قبل وصول بيلاطس إلى روما. وقد نُسجت أساطير كثيرةٌ حول نهاية بيلاطُس، الذي ارتبط اسمه بقضيّة محاكمة يسوع وبصلبه.

اليَـهُودُ في القَـرْنِ الأَوَّلـ

وُلد يسوع في أسرةٍ يهوديّةٍ. وكان معظم اليهود، آنذاك، متجمّعين في فلسطين. غير أنّ غريزة حبّ المال المتأصّلة فيهم، حدت بالعديد منهم إلى الهجرة حيثما اشتمّوا فُرَصًا للإثراء. فألّفوا ما دعي بالشتات، وكان لهم، في بلدانٍ عديدةٍ جالياتٌ مؤثّرةٌ، أهمّها جالية الإسكندريّة التي ناهز تعدادها نصف مليون نسمةٍ، أي نحو خُمسَيْ سكّان المدينة. ووُجدت جالياتٌ كثيفةٌ أُخرى في سوريّة، وآسيا الصغرى، وروما. وقد أسدت بعض تلك الجاليات خدماتٍ للإمبراطوريّة الرومانيّة، استأهلت عليها امتيازاتٍ، وإعفاءاتٍ ضريبيّةً، وحرّياتٍ واسعةً في ممارسة الطقوس الخاصّة بها. ولكنّ كثيرًا من الشعوب التي أقام اليهود بين ظهرانيها، لم تستسغ انعزاليّتهم، وتقوقعهم، وجشعهم، وشعورهم بالتفوّق، وإعلانهم أنّهم شعب الله الخاصّ المختار، فمقتتهم، ولكنّها اضطرّت، غالبًا، إلى مصانعتهم، واعتصمت حيالهم بالمداراة، اتّقاءً لغدرهم.

انتشر اليهود في كلّ أرجاء المسكونة، بحيث قال سترابون، العالم الجيوغرافيّ اليونانيّ (٦٠ق. م – ١٩ ب. م): «من العسير وجود مكانٍ على البسيطة كلّها، لم يهبطه اليهود، ويستقرّوا فيه بقوّةٍ. ولكنّهم، حيثما حلّوا، كانوا يكتسبون بغض المحيط وازدراءه». وقال فيهم شيشرون: «إنّهم شعبٌ وُجد كي يُستعبَد». في حين رأى فيهم سينيكا «أمّةً شرّيرةً مجرمةً».

وجديرٌ بالتنويه أنّ تلك الجاليات قد قاومت، بمكرٍ وتصميمٍ، انتشار الكنيسة الوليدة، وأنّ الرسول بولس قاسى من كيدها ألوانًا.

وكان هيكل أورشليم هو الصلة الوثيقة بين الشتات وإخوانهم في اليهوديّة، إذ ترسّخ الاعتقاد بأنّه المكان الوحيد الذي ارتضاه يهوه مقامًا لـه، وفيه وحده كان يقبل الأضاحي والتقادم. فترتّب على يهود الشتات أن يحجّوا إليه باطّرادٍ، بمناسبة الأعياد الكبرى، ولاسيّما في عيد الفصح، ويقدّموا فيه أضاحيهم، وقد فُرضت على كلٍّ منهم ضريبةٌ للهيكل يؤدّيها بنفسه، أو يرسلها مع آخرين.

وإلى جانب الهيكل كان، في كلّ منقطةٍ من المدن الكبرى، وفي كلّ قريةٍ تؤوي جماعةً يهوديّةً، مجمعٌ، وهو مكان عبادةٍ وتعليمٍ، يلتقي فيه اليهود، في أيّام السبت، فيُنشدون التسابيح، ويتلون الصلوات، ويستمعون إلى مقاطع من التوراة، وإلى تفسير رابّيٍّ، أو ضيفٍ.

وفي أروشليم، وحدها، كان أكثر من مئة مجمعٍ، اتّخذ أحدها مكانه داخل الهيكل. وكانت المجامع هي مجال اختصاص الكتبة والفرّيسيّين. وبالتالي، في أعقاب دمار الهيكل، تعاظم شأن المجمع، وحلّ الرابّيّون محلّ الكهنة.

الكتُب كانت تتلى، في المجمع، باللغة العبريّة، وبما أنّ الشعب، في أيّام يسوع، كان يتكلّم الآراميّة، فكانت النصوص تترجم، عبارةً فعبارةً، إلى هذه اللغة. وكان أيٌّ من الحضور يعلّق عليها، ويستخلص منها عِبَرًا عمليّةً.

* *

ركنا اليهوديّة الأساسيّان هما: **الشريعة والهيكل**.

الشريعة هي أساس الحياة كلّها منذ الولادة حتّى الموت، ومنذ الفجر حتّى أطراف الليل. اليهوديّ الورع يفخر بها، ولا يرى فيها عبئًا، بل هديّةً من الله، يتمتّع بالتأمّل فيها ليل نهار. وبالتالي، لم يكن لدى تقاة اليهود سوى كتابٍ واحدٍ، هو التوراة، وسوى عِلْمٍ واحدٍ، هو تفسير التوراة.

وكانت الشريعة تحكم، بدقّةٍ، كلّ أحداث الحياة وجوانبها: أوقات العمل والراحة، الصلاة والصوم، الصدَقة، العبادة، العُشر، الطعام والشراب، الطهو والذبح، الصحّة والمرض، الزواج والطلاق، الحبل، والولادة، والجنازة. لكلّ شيءٍ إطاره الدينيّ، والدين في كلّ مكانٍ. وكلّ ما أتت الشريعة على ذكره متساوي الشأن، لأنّ الشريعة أوصت به، ويهوه قرّره. ومن ثمّ كان الإيمان، في المقام الأوّل، طاعةً وخشيةً. وقد بلغت وصايا الشريعة ٦١٣ وصيّةً، منها **٢٤٨** أمرًا و**٣٦٥** نهيًا. وتغلُّبُ النواهي على الأوامر هذا، يدلّ على توجّه الشريعة نحو تجنّب الشرّ، أكثر من توجّهها نحو فعل الخير.

وفي سبيل تنفيذ الشريعة تنفيذًا دقيقًا وكاملاً، أكبّ العلماء على تفسيرها،

وسرعان ما وُلدت حول الشريعة الأصليّة، شريعة التفسير، التي غدت تقليدًا متوارثًا لـه ما للشريعة من إلزامٍ وقدسيّةٍ، بل ما عتّم أن أنذر بخنق الشريعة نفسها.

هذا التقليد توالد، وتكاثر، وتراكم، وجُمّع في «الميشنا» التي أُضيفت إليها رواياتٌ، وطرائف، وتعليقاتٌ، وحِكَمٌ، فكوّنت «التلمود».

ركنا الممارسات الخارجيّة كانا الختان، والراحة السبتيّة. وقد ادّعى بعض الرابّيّين أنّ الملائكة أنفسهم، في السماء، حريصون على ممارسة هاتين الوصيّتين بدقّةٍ وأمانةٍ. وكان تقليدٌ يهوديٌّ يقول إنّ إبراهيم سيجلس، في الآخرة، عند باب جهنّم، كي يحول دون انحدار أيِّ يهوديٍّ مختونٍ إليها. وإن وُجد يهوديٌّ اشتهر بالشرّ، ولا معدى عن إقامته في جهنّم، تعيّن على إبراهيم إزالة آثار الختان عنه، لكي لا يمثل إلى جهنّم مختونًا. فالختان هو دليل الانتماء إلى ذريّة إبراهيم، والانتفاع من مزايا العهد المعقود بين أبي الآباء، ويهوه.

وكم من الفتاوى حول الراحة السبتيّة! فمن البنود التسعة والثلاثين التي تخرق وصيّة السبت، نورد، على سبيل الأمثلة: عقد أو حلّ حبلٍ، إطفاء مصباحٍ، أو إشعال نارٍ، شكّ قطبتَيْ خياطٍ؛ خطّ حرفين، أو تناول دواء....

وعلى قدرٍ مماثلٍ من الشدّة كانت الوصايا المتعلّقة بالطهر والنجاسة، بدليل هذا القول: «من يأكل خبزًا بيدين غير مغسولتين، يحاكي من يعاشر مومسًا»!

تلك المجموعة من المحظورات التي تملأ اثني عشر مجلّدًا، تُظهر أيّ غلٍّ كانت اجتهادات علماء الشريعة تطوّق به عنق كلّ يهوديٍّ. فمن لا يلتزم بها عُدّ من «شعب الأرض» المزدرى، الذي لا يخشى الخطيئة، أمّا الأتقياء الذين يجهدون كي يتقيّدوا بها، فينتابهم الشعور بأنّهم يرقدون على سريرٍ من الأشواك، يجرّح، في كلّ لحظةٍ، ضميرهم القلق، ولا يوفّر لهم أيّ عزاءٍ دينيٍّ حميمٍ.

* *

هذا الخليط الهجين والفوضويّ من الأوامر والنواهي، ومن الوصايا الثقافيّة والأخلاقيّة والاقتصاديّة، وسواها، الذي أضيف إلى الشريعة بحجّة توليفها مع مقتضيات الحياة، أسبغ على اليهوديّة طابع الحَرْفيّة الضيّقة، التي بكثرة مقتضياتها، قضت على الهدف الأصيل، هدف خدمة الله بسخاءٍ وأمانةٍ. وغالبًا ما اتّسمت هذه

التفسيرات والوصايا بالسخافة، وخنقت حرّيّة الأفراد وتلقائيّتهم، وجفّفت نفوسهم عوضًا عن الارتقاء بها إلى العلاء. ففي كلّ لحظةٍ كان على الفرد أن يتساءل: ماذا يتعيّن عليّ، الآن، أن أفعل لكي لا أُخالف الوصايا؟

هذا الركام من الوصايا وصفه يسوع بالعبء الباهظ الذي لا يُطاق، والذي يخنق «حرّيّة أبناء الله»، الذين يعملون بدافع الحبّ، لا بدافع الخوف، وبصفتهم أبناء الآب، لا بصفتهم عبيدًا. ولذلك قال الرسول بولس في الكتبة: «إنّي أشهد أنّ فيهم غيرةً لله، إلاّ أنّها عن غير معرفةٍ بليغةٍ. فإنّهم، إذ جهلوا برّ الله، وطلبوا أن يقيموا برّهم الخاصّ، لم يخضعوا لبرّ الله، لأنّ غاية الناموس هي المسيح الذي يبرّر كلّ من يؤمن».

الخطر الكامن في تلك المجموعات من الفتاوى والوصايا، هو عدم التمييز بين العَرَضيّ والجوهريّ، بين ما ينمّي الروح وما يخنقه. وهو، أيضًا، إيهام من يلتزمون بوصايا الكتبة أنّ الله مدينٌ لهم بالبركة والمكافأة. وبما أنّ التزامهم كان خارجيًّا، التزامًا بالحرف، فهم كانوا قليلي الحرص على سلامة الطويّة والسلوك، بل كانوا يكتفون بالتماس التظاهر، وتقريظ الناس، ويتردّون إلى الرياء. ولطالما قرّع يسوع الفرّيسيّين على ذلك، وأنحى، بعباراتٍ عنيفةٍ، على عمى بصائرهم، ونفاقهم، وصَلَفهم، وبرّهم السطحيّ الزائف الذي كانوا يموّهون به أبشع الرذائل.

وبما أنّ الكثير من الوصايا كان متعذّر التنفيذ، فقد دأب الكتبة على الإفتاء، للتحايل على هذه الوصايا، ولاختراق روحها. وقد فضح يسوع، بقسوةٍ، هذا التحايل، وما يواكبه، غالبًا، من دوافع رخيصةٍ أو لاأخلاقيّةٍ.

* *

في عهد يسوع، لم يعُدْ الشعب اليهوديّ هو إسرائيل العهد القديم، ولم يصبح، بعدُ، شعب التلمود. ولم يكن هناك وحيٌ جديدٌ، فقد غاب الأنبياء، عقب مقتل زكريّا، لخمسة قرونٍ خلت. وكان التقليد هو الذي يحكم الحياة الدينيّة. والدين أصبح دين جدوى، وأمسى الله تاجرًا يزن كلّ عملٍ، ويدوّنه في لوحةٍ، فيجزي الخير، ويعاقب الشرّ، بمقياس وصايا الشريعة؛ وفي يوم الحساب يقدّم لكلّ امرئٍ «فاتورته».

هذا التقليد قضى على آمال الشريحة الكبرى من الشعب، التي أُطلق عليها اسم

«عَمْ هَآرِيْتْس»، أي «شعب الأرض»، وهم سواد الشعب الفقير، الذي لا تتيح له رقّة حاله، وكدحه الدائم، التفرّغ لدراسة الشريعة، والإحاطة بتعقيداتها، ومن ثمّ، الالتزام بها.

كانوا لا يرجون خيرًا من أفراد ذلك الشعب البسيط، ولا يرون لهم خلاصًا، ويعدّونهم حيواناتٍ قذرةً حقيرةً. وكان يُحظر على الفرّيسيّين بيعهم الثمار، أو استضافتهم، أوالتزواج معهم.

أفراد الشعب، إذن، كانوا منبوذين، محتقرين. وحتّى الرابّيّ هلّيل، الذي عُهدت عنه الوداعة والانفتاح، قال فيهم: «لا ضمير فيهم، وهم دون البشر». وكان شائعًا الاعتقاد بأنّ الكاتب الذي يقترن بامرأةٍ من «عم هآريتس» يحاكي من يرتكب الفاحشة مع البهائم.

كانت الشريعة موضع تكريمٍ حتّى الوسواس، بل حتّى العبادة والتأليه، بحيث صوّروا اللّه نفسه خاضعًا للشريعة، يتلو، كلّ يومٍ، بانتظامٍ، الصلوات الطقسيّة، ويقوم بفرائض التطهّر إثر دفنه موسى، أو جالسًا يدرس التوراة.

وتمادوا فقالوا: دراسة التوراة خيرٌ من إنقاذ حياة إنسانٍ، ومن بناء الهيكل، ومن تكريم الوالدَيْن. وإنّ قضاء يومٍ في دراسة التوراة خيرٌ من ألف ضحيّةٍ.

وقد أفتى رابّي يوناثان: «من لا يملك ثقافةً شرعيّةً يجب شطره إلى شطرين كالسمكة» وزايد رابّي إليعازر قائلاً: «إنّ العم ها آريتس، أي ابن الأرض الذي يجهل الشريعة، يجوز طعنه من طرفٍ إلى طرف، حتّى في «يوم كيبور»(*) واقعٍ في يوم سبتٍ».

وفي مثل كلّ دينٍ قائمٍ على المكافأة والعقاب، كان اليهوديّ يتساءل باستمرارٍ، وبقلقٍ، هل التزم بالشريعة ما يكفي كي يستحقّ رضى اللّه. فقد انتفى الأنبياء، وتلاشت الأحلام، وخبت التطلّعات إلى الآفاق البعيدة.

وفي المجامع كان يُتلى تاريخ اليهود بدءًا بالتكوين حتّى موسى، وتُعاد الكرّة، وكأنّ هذا التاريخ توقّف عند موت موسى.

(*) أو يوم الغفران، وهو من أهمّ الأعياد اليهوديّة، ويُفرض فيه امتناعٌ تامٌّ عن أيّ عملٍ.

وكان صمت الله يرين على شعبٍ خُيّل إليه أنّ عهد كبار الأنبياء قد ولّى، وأنّ الوحي قد نضب، وأنّ أبواب السماء قد أُوصدت، فتولّى الفرّيسيّون والكتبة إسماع أصواتهم، وإخضاع الشعب لمشيئاتهم.

وحينئذٍ جاء يسوع كي يستهلّ عهدًا جديدًا لا نهاية له. ولكنّ اليهود الكَلِفين بالصور، والرموز، والترقّب، أنكروا الواقع، عندما تحقّق، مع أنّ تحقيقه تمّ وفقًا للنبوءات.

الكَتَبَةُ وَالفرّيسيّون

في البدء كان تفسير الشريعة منوطًا بالكهنة. ولكن سرعان ما انهمك الكهنة بإقامة الطقوس، وبإدارة ثرواتهم، وبالمناورات السياسيّة، في حين تشعّبت علوم الدين، وجمعت بين التاريخ واللاهوت، والأخلاق، والطقوس، والقانون، وأُضيفت إلى كلّ ذلك ألوف الاجتهادات الشفهيّة، وفتاوى الرابّيين، وأكوامٌ هائلةٌ من الأوامر والنواهي المتشابكة، المتعارضة، الغامضة، التي أشاعت في النفوس بلبلةً وحيرةً، وفرضت على كلّ من رام الوفاء للشريعة أن يتساءل، في كلّ لحظةٍ، عمّا هو مسموحٌ أو ممنوعٌ، وعن سبُبُل التحايل، شرعيًّا، على الممنوعات، إذا ما اقتضت ظروفٌ قاهرةٌ، أو رغباتٌ جامحةٌ، تخطّيها. وقد تنطّحت لتلك المهمّة طائفةٌ من الفقهاء، المجتهدين، الذين وقفوا حياتهم وجهودهم على التمحيص، وإصدار الفتاوى، وعلى استنباط أدقّ محتويات كلّ وصيّةٍ من وصايا الشريعة. هؤلاء كانوا يؤلّفون فئة «الكتبة». وكان الظفر بهذا اللقب يقتضي إنفاق سنواتٍ طويلةٍ من الدراسة المضنية، عند أقدام رابّيين شهيرين مشهودٍ لهم برسوخ الأقدام في العلم، تبدأ منذ الصبا، ولا تنتهي قبل بلوغهم سنّ الأربعين، كي يتمكّنوا من تخزين كلّ العلوم والفتاوى المكتوبة والمتداولة شفهيًّا في ذاكرتهم.

علومهم، واحتكارهم الإفتاء، كانت تؤهّلهم لكلّ المراكز والمهمّات. فهم، على التوالي، أو في آنٍ واحدٍ، قضاةٌ ومحامون، معلّمون ومبشّرون، رجال دولةٍ ورجال دين، مرشدون روحيّون، ومستشارو العظماء، وأطبّاء الأجساد والنفوس. ولهم تُخصَّص مقاعد في مجلس السنهدرين الأعلى، إلى جانب الأعيان ورؤساء الكهنة. وكان تفرّدهم بتفسير الشريعة في المدارس والمجامع يضفي على القرارات التي يُجمعون عليها قوّة القانون. وقد أولاهم احتكار الإفتاء في المسموح والمحظور سلطانًا جسيمًا، وجعل منهم آباء الشعب الروحيّين، ومرشديهم الأخلاقيّين.

وبما أنّ الشريعة كانت قلب الدين اليهوديّ، وأساس التقوى؛ وبما أنّ سعادة

الإنسان أو بؤسه كانا يعتمدان على تنفيذ وصاياها، فقد أمسوا، وهم اختصاصيّو الدين، وفنّيّو التقوى، قادة الشعب الحقيقيّين، أمنع سلطةً من الكهنة، وأبلغ نفوذًا شعبيًّا من السياسيّين. وبما أنّ الشعب، منذ أيّام الأسر، لم يعُدْ يفقه العبريّة، فقد تلقّى تفسيرات الكتبة وتأويلاتهم، ولكأنّها هي الشريعة، وكلام الله عينه.

الكاتب هو رجل الشريعة بتميّز. وقد يكون كاهنًا أو علمانيًّا، صدّوقيًّا أو فرّيسيًّا. ولكن، في أيّام يسوع، نادرًا ما كان الكتبة ينتمون إلى طبقة الكهنة، أو يتبنّون المبادئ الصدّوقيّة. بل كانت أغلبيّتهم العظمى من العلمانيّين، ومن مذهب الفرّيسيّين. ولذلك جمعت الأناجيل بينهم وبين الفرّيسيّين، ولكأنّهم فئةٌ واحدةٌ. ولكن ليس محتّمًا أن يكون كلّ كاتبٍ فرّيسيًّا، ولا كلّ فرّيسيٍّ كاتبًا.

كثيرون من الكتبة كانوا فقراء، زاهدين، مجتهدين، ويزاولون عملاً يدويًّا يضمن لهم الاستقلال. وكانوا يرتدون زيًّا مميّزًا، ويحملون لقب «رابّي» الذي يعدّونه كنزًا يجعلهم أغنى ممّن يملكون أوفر الخيرات الأرضيّة، ويضمن لهم مجدًا يربو على مجد الملوك، ورؤساء الكهنة.

غير أنّ الكتبة، عمومًا، أساءوا استخدام السلطة الأدبيّة الهائلة التي كانوا ينعمون بها. وعوضًا عن تسخيرها للإصلاح والبناء، كرّسوها لإفساد الضمائر، وإرهاق النفوس. لقد جرّدوا الشريعة من روحها، وتوقّفوا عند حرفها. وبحجّة الإيضاح والتأويل، ابتدعوا شريعةً من صنع أيديهم، وتردّوا، في تفسيراتهم، إلى دركاتٍ سحيقةٍ من الإسفاف والسخافة، والجدَل الأجوف، والسماجة، والتبذُّل في أحيانٍ كثيرةٍ.

وقد توغّل الكتبة والفرّيسيّون في هذا الاتّجاه، إذ أضفوا على تفسيرهم للشريعة، وعلى تقليدهم، من القدسيّة، أكثر ممّا أولوا الشريعة نفسها. ونُسِب إلى بعضهم القول: «إنّ أقوال الكتبة أحبّ من أقوال الشريعة. فمن أقوال الشريعة ما هو هامٌّ وما هو ضئيل الشأن. أمّا أقوال الكتبة، فهي، دائمًا، هامّةٌ».

ومن ذلك استخلصوا مبادئَ عمليّةً لصالحهم، فأشاعوا أنّ خير ما يفعله رجلٌ ميسورٌ هو تزويج ابنته من عالم شريعةٍ. وأفتوا أنّه إن رأى إنسانٌ أباه وعالم شريعة يتعرَّضان معًا لخطرٍ، فعليه أن يهبّ لنجدة عالم الشريعة أوّلاً، ثم يهتمّ بأبيه، إن

أمكنه ذلك. وهكذا اغتصب بشرٌ معرَّضون للخطأ، تحدوهم المطامع والنظريّات الزائفة، حقّ إكمال الوحي، بل الاستعاضة عنه بآرائهم الشوهاء.

تفسيراتهم كانت خاليةً من أيّ سموٍّ إلهيٍّ، ومن أيّ إشارةٍ إلى النفس، وغاية الوجود، والأبديّة، واقتصرت على جدَلٍ محتدمٍ حول ممارساتٍ صبيانيّةٍ. هوَسٌ بالشرعيّة هيمن على منطقهم، والفرائض الخارجيّة كانت ديدنهم، مثل دفع العشر، والاغتسال المتكرّر، والنجاسات التي يتعرَّض لها كلّ امرئٍ في كلّ حينٍ، من جرّاء مأكلٍ أو مشربٍ، أو ملمسٍ، أو مشاهدةٍ. وقد غالوا في تفصيل فرائض السبت، إذ كان على اليهوديّ أن يلتزم بألفٍ ومئتين وتسعٍ وسبعين فريضةً، وأن يمتنع عن تسعة وثلاثين عملاً، كي لا يخرق وصيّة السبت.

وكم تصادمت وتعارضت الفتاوى بشأن فريضة السبت! فعلى سبيل المثال كان من المسلّم به حظر ذبح حيوانٍ، يوم السبت. ولكنّ الجدل احتدم حول جواز قتل قملةٍ، يوم السبت، فالمتشدّدون حظروه قطعيًّا، في حين كان الليبراليّون أرحب صدرًا، فحلّلوا بتر أرجل القملة، شرط الإحجام عن قتلها! وأمّا من رأى ثوره يكاد ينفق، في يوم السبت، فحلّلوا له ذبحه شرط أن يأكل منه مقدار حبّة زيتونٍ، كي يثبت (لمن؟) أنّه إنّما ذبحهُ بُغيةَ التغذّي به، وبذلك يتجنّب مخالفة الشريعة!

هذا الرياء جعل منه التلمود علمًا يوضح وسائل التحايل على الوصايا. فإذا كان محظورًا، يوم السبت، السير بأيّ حملٍ أكثر من ألفي ذراعٍ، نُصح من رغب في مضاعفة هذه المسافة، أن يودع، قبل حلول السبت، شيئًا من الطعام في نهاية المسافة المسموح بها، فيصبح مكان الطعام مسكنًا له، يحقّ له الانطلاق منه مسافة ألفي ذراعٍ أخرى، في جميع الاتّجاهات. ومن شاء شراء أيّ شيءٍ، يوم السبت، وهو أمرٌ محظورٌ، أيضًا، ما عليه إلاّ إرجاء موعد أداء ثمن مشتراه إلى اليوم التالي، كي يصبح المشترى شرعيًّا...

أَين الروح في كلّ ذلك؟ فالسبت الذي جُعل ليكون يوم فرحٍ، وفسحةً للنفس، كي تتّصل بخالقها، بات عبئًا مثقلاً بالمحظورات، ونيرًا مرهقًا! وكيف لا يثور على هذا التشويه السافر، وعلى هذا الرياء الوقح، ربّ القلوب والنوايا، ونور الحقّ والحرّيّة، يسوع؟

ويشترك مع الكتبة، في تأليه الشريعة، **الفرّيسيّون**

كلمة «فرّيسيّ»، تعني «المنفصل»، فعمّن كانوا يعدّون أنفسهم منفصلين؟

في الأصل هم جماعة الأوفياء لدينهم، الذين قاوموا كلّ خيانةٍ لمعتقداتهم، متحدّين، في هذا السبيل، كلّ ضغطٍ وتهديدٍ، متحلّين بالتقشّف، والجرأة، وازدراء الموت، والإيمان الحيّ بالله. ولكن لمّا حلّ السلام، انقلب أولئك الأبطال إلى متشدّدين، مبغضين لكلّ غريبٍ، معتبرين كلّ اتّصالٍ بأجنبيٍّ نجاسةً. ولهذ أطلق عليهم معارضوهم، لقب «المنفصلين».

هم، إذن، منفصلون أوّلاً عن الصدّوقيّين، ممثّلي التيّار الرئيسيّ الآخر، المناهض لتيّارهم، في الأوساط اليهوديّة. هذان التيّاران وُلدا من المواقف المتباينة التي وقفها اليهود من الهلّينيّة، عندما اصطدمت هذه باليهوديّة، منذ عهد المكّابيّين عام ١٦٧ ق.م. فقد لاقت الثورة المكّابيّة دعمًا من عامّة الشعب المعادي للنظم الأجنبيّة، في حين رحَّبت بالهلّينيّة فئةٌ ممّن افتُتنوا بحضارتها، وقد تألّفت هذه الفئة، على نحوٍ خاصٍّ، من الطبقات الكهنوتيّة والميسورة. ومن ثمّ اعتُبر التيّار الفرّيسيّ هو التيّار المحافظ، والتيّار الصدّوقيّ هو الليبراليّ المجدّد. وقد يكون ذلك صحيحًا، سياسيًّا. أمّا دينيًّا وحقوقيًّا، فالنقيض هو الصحيح، فالصدّوقيّون هم المحافظون على أصالة الوحي، لا يدينون إلاّ بالشريعة المكتوبة، كما خلّفها موسى، ويرفضون كلّ ما أُضيف إليها من تفسيراتٍ وتأويلاتٍ رأوا فيها بِدَعًا، وتشويهًا للروح اليهوديّ الأَصيل، المتّسم بالبساطة والوضوح، الذي يعدّون أنفسهم حرّاسًا أمينين عليه.

أمّا الفرّيسيّون، فقد ارتأوا أنّ «الشريعة المكتوبة» إنْ هي سوى جزءٍ غير أساسيٍّ من النظام الدينيّ والوطنيّ. فثمّة، إلى جانبها، وأرحب منها، «الشريعة الشفويّة» التي تتألّف من وصايا التقليد التي لا تُحصى، وتضمّ، فضلاً عن العناصر القصصيّة، نظامًا معقّدًا من الوصايا العمليّة التي تشمل مختلف نواحي الحياة المدنيّة، والدينيّة، وتمتدّ من القواعد المعقّدة التي تنظّم الأضاحي الطقسيّة، إلى تلك التي تنظّم غسل الآنية قبل الطعام، والمحاكم العامّة، وصولاً إلى الفتاوى المتعلّقة بجواز تناول فاكهةٍ سقطت من الشجرة، في أثناء الراحة السبتيّة. كلّ هذا الركام من الفرائض والتقاليد، لم يكن يرتكز، في الواقع، على التوراة؛ ولكنّ الفرّيسيّين كانوا يستشفّون فيه علاقةً وثيقةً بالتوراة، ويُخضعون التوراة لتأويلهم الاعتباطيّ. وكانوا

يدّعون أنّ الله الذي أعطى الشريعة المكتوبة لموسى، في سيناء، الشريعة الموجزة التي لا تحتوي سوى **٦١٣** وصيّةً، قد أعطى، أيضًا، شريعةً شفويّةً، أوسع بلا قياسٍ، ولا تقلّ عنها إلزامًا.

لقد ابتدعوا التقليد، كي يكون سياجًا للشريعة، ولكنّهم انتهوا إلى تفضيله على الشريعة.

ولا عجب إن قال فيهم يسوع: «**إنّهم بالباطل يعبدونني، لأنّ التعاليم التي يعلّمونها ليست سوى وصايا بشرٍ**» (متّى **١٥: ٩**)، ولا بدع إن هو قاوم هذه التعاليم معلنًا: «**كلّ غرسةٍ لم يغرسها أبي السماويّ تُقلَع**» (متّى **١٥: ١٣**).

كان الفريّسيّون والكتبة، في مواجهة أرستقراطيّة المحتد، والثروة والكهنوت، يمثّلون أرستقراطيّة العلم الدينيّ. وكانوا يتحدّرون من طبقاتٍ اجتماعيّةٍ مختلفةٍ، غير أنّ قلّةً منهم كانت تنتمي إلى طبقة الكهنوت الدنيا. وكانوا يرتبطون، في ما بينهم، بوشائج وثيقةٍ، ويجمعهم الحرص على الطهر الشرعيّ، و«الانفصال» عن كلّ نَجِسٍ، ولذلك كانوا يسمّون أنفسهم «الرفاق».

على نقيض الأسّينيّين الحالمين، والصدّوقيّين الأرستقراطيّين والسياسيّين بالفطرة، كانوا حزبًا يتميّز بالوطنيّة والتديّن معًا. كانوا حريصين على مراقبة نقاء العقيدة، واستقامة الممارسة، وعلى الوفاء للشريعة. فهم، أوّلاً، أهل الشريعة، ومفسّروها، والمنتقمون لها، وشهداؤها. وقد يدفعهم كلَفهم بها إلى اعتبارها مستقلّةً عن الله نفسه، ويكنّون لها من الإجلال مثل ما يكنّونه لله تعالى، بل أكثر منه.

وقد تمتّع الفرّيسيّون والكتبة بتأييد قطاعاتٍ عريضةٍ من الشعب، فدمغوا الحياة اليهودية بطابعهم. والسبب الآخر لتسميتهم «فرّيسيّين»، أي «منفصلين» هو تميّزهم بالتعنّت، وبشدّة غيرتهم على الشريعة، وبتقوًى فائقةٍ تجعل منهم جماعة الله المقدّسة، التي تنبو عن كلّ رجسٍ ووثنيّةٍ. ومع كونهم علمانيّين كانوا يلتزمون، في سلوكهم اليوميّ، بوصايا الطهارة التي يقتضيها العهد القديم من الكهنة، فيصومون يومين في الأسبوع، ويوزّعون الصدقات، ويؤدّون العشر عن كلّ شيءٍ، بدقّةٍ تلامس الوسواس. وكانوا يغالون في التزام فريضة السبت، لذلك كان يُطلق عليهم، أيضًا، لقب «التقاة».

كانوا المنافسين لرجال الهيكل، وقد أولاهم احتكارهم لتفسير الشريعة سلطةً أساسيّةً على النفوس عزّزوا بها سطوتهم. وسرعان ما فاقوا الطبقة الكهنوتيّة نفوذًا، وباتوا أسياد الرأي العامّ.

خلافهم مع الصدّوقيّين، الذي غالبًا ما كان ينقلب صراعًا، دفعهم إلى المغالاة في التعنّت والانغلاق، فاختاروا التعامي، ورفضوا الوحي الحيّ، وعجزوا عن اكتناه سرّ الأحداث، إلى أن أمسوا القوّة الأشدّ مقاومةً لتأسيس ملكوت الله، فاستحقّوا لعنة أرقّ المعلّمين وأحكمهم. حتّى التوراة لم يفقهوا منها سوى حرفها القاتل، وفاتهم روحها. أعرضوا عن عنصرها الأخلاقيّ، وتشبّثوا بالمظاهر والطقوس. أغفلوا مشيئة الله، وعبدوا الشريعة، وعوضًا عن التقدّم في معارج الفضيلة، غالوا في ممارسة الطقوس. فالأسمى قداسةً فيهم ليس من يسيطر على ذاته، ويصدق في حبّ الله والقريب، بل هو من يكثر الأصوام والنذور، والوضوء والتقادم، ويلبس أعرض العصائب، وأطول الأهداب، ويبالغ في حني ظهره في أثناء سيره، والإطراق بأنظاره إلى الأرض، ويتظاهر، في أيّام صومه، بالحزن، فيحجم عن غسل وجهه، ودهن شعره، ومصافحة أصدقائه، ويمعن في إطالة الصلوات. تقواهم مجرّد قناعٍ، والصفة الغالبة على أولئك الأتقياء الزائفين هي الرياء، أي فنّ التظاهر والنفاق، وتمويه خواء النفس ورذائلها، بمظاهر الوَرَع، التي تسهم في تلميع صورتهم في نظر الجماهير.

في تلك الأيّام كان عهد كبار المعلّمين، أمثال هلّيل وشمّاي، قد انصرم، ولم يبقَ سوى الرديئين الذين تمادوا في ابتداع الفتاوى السخيفة، وجعلوا منها قوام تعليمهم. فرجحت كفّة التشدّد، والتشبّث بالحرف على سماحة الروح، وكفّةُ الطهارة الجسديّة على طهر القلب الذي يحبّه الله، ويدعو إليه الأنبياء.

وكان الوضع، عمومًا، يذكّر بسأم الله من عبادة اليهود الزائفة، ومن عنجهيّتهم وضلالهم، التي غالبًا ما ندّد بها الأنبياء. فقد جاء على لسان أشعيا، قول الله:

«لست أكترث بأضاحيكم الكثيرة. لقد سئمت من الكباش التي تلتهمها النار، ومن دهن العجول. لست أجد أيّة متعةٍ أمام دم الثيران، والخراف والتيوس. إنّكم تمثّلون أمامي، ولكن هل طلبتُ أنا منكم أن تطأوا فناء هيكلي؟ كفّوا عن إيتائي بتقادمكم، فهي باطلة... ولست أرضى بعبادةٍ ممزوجةٍ بالجريمة... ومهما أضفتم

صلاةً إلى صلاةٍ، فإنّي أرفض الإصغاء إليكم، لأنّ أيديكم ملطّخةٌ بالدم. نظّفوا أنفسكم، تطهّروا، أبعدوا عن أبصاري أعمالكم الشرّيرة، وكفّوا عن عمل الشرّ. تعلّموا فعل الخير. واهتمّوا بحقوق البشر. قيّدوا الطاغي، وأعيدوا لليتيم حقّه، وذودوا عن حياض الأرملة...».

وجاء على لسان عاموس (٢: ٤ – ٨):

«... نبذوا شريعة الربّ، ولم يحفظوا فرائضه، وأضلّتهم أكاذيبهم، التي سار وراءَها آباؤهم. فأُرسل نارًا على يهوذا، فتلتهم قصور أورشليم... باعوا البارّ بالفضّة، والمسكين بنعلَيْن... يدوسون رؤوس الضعفاء على تراب الأرض، ويُجرِّفون طريق الوضعاء...».

ولذلك لا يميّز الربّ الإسرائيليّين على أيّة أُمّة أُخرى:

«يا بني إسرائيل، أتظنّون أنّكم، عندي، أغلى من بني الحبشة؟ ألم أخرجكم من مصر؟ ولكنّني ألم أُخرج، أيضًا، الفلسطينيّين من كفتور، والسوريّين من قير؟...» (عاموس ٩: ٧).

كانوا يمثّلون نخبة اليهود، بل نخبة النخبة، بيد أنّ اتّضاعهم أمام اللّه، كان ينقلب صَلَفًا حيال البشر. ولم يكونوا يتحرَّجون من استهلال صلواتهم بمثل هذا القول: «أشكرك، أيّها الربّ، إلهي، لأنّك عددتني بين من يقيمون في بيوت الدراسة، لا بين من يتسكّعون في زوايا الطرقات، وفي ساحات السوق...».

كانوا شديدي العُجْب بأنفسهم، ومفرطي الازدراء «لشعب الأرض».

وقد عدّد التلمود من الفرّيسيّين سبع فئات: فمنهم «الفرّيسيّ شيكيم»، الذي ينتحل الدين بُغيةَ مصالح مادّيّةٍ؛ و«الفرّيسيّ نيكبي»، الذي يسير وئيد الخطى فلا يُسمَع وقع قدميه على الأرض، متصنّعًا، بذلك، التواضع، أو يقصّر الخطى تصنّعًا للمهابة، فتتصادم قدماه باستمرار. و«الفرّيسيّ الرعّاف» الذي بحجّة تجنّب رؤية النساء، يسير مطرقًا، فيصدم وجهه بالجدران، ويظلّ نازف الأنف والجبين. ومنهم من يُلبسون رؤوسهم أكياسًا صفيقةً، ويسيرون متعثّرين كالعميان؛ و«الفرّيسيّ المدقّة» الذي يسير منحنيًا انحناءةً سحيقةً بحيث تكاد جبهته تلامس الحضيض، محاكيًا

المدقّة في الجرن؛ و«الفرّيسيّ: ما هو واجبي كي اضطلع به؟» أي ذاك الذي لا يدّعي القيام بجميع الواجبات، بل، بسبب كثرة مشاغله، لا يضطلع إلاّ بواجبٍ واحدٍ. و«الفرّيسيّ حبًّا» الذي يعمل طمعًا في مكافأة، لا بدافع عبادة اللّه؛ و«الفرّيسيّ خوفًا»، الذي يعمل بدافع خشية اللّه، وبشعورٍ دينيٍّ صادقٍ؛...

أولئك كانوا قادة اليهود الدينيّين، في عهد يسوع. كانوا أصحاب صولةٍ ونفوذٍ، بل كانوا بمثابة أنبياء. فما عساها تكون الحياة الروحيّة التي تشرّبت، حتّى النخاع، الروح الفرّيسيّ، فغدت على صورتهم ومثالهم؟ وكانوا هم الذين قادوا حركة مقاومة يسوع وتعليمه، وإيغار صدور الشعب عليه. فبين روحه وروحهم، بين تعليمه وتعليمهم، بين القداسة التي كان يدعو إليها، وتلك التي يزعمون ممارستها، بين الفضائل المسيحيّة الجوهريّة، وبرّهم السطحيّ الزائف، كانت الهوّه ماضيةً في الاتّساع، بحيث تعذّر ردمها. وسرعان ما أدرك الفرّيسيّون مدى الخطر الذي يمثّله شخص يسوع وتعليمه على نفوذهم، فشنّوا عليه حربًا لا هوادة فيها. وبافتراءاتهم الدنيئة استطاعوا صرف كثيرين ممّن آمنوا به، عنه. لذلك أدانهم يسوع بعباراتٍ ناريّةٍ، وأدان الأذى البليغ الذي ألحقوه بنفوس الشعب.

ولكنّ يسوع لم يشمل جميع الفرّيسيّين بتنديده، بل هو قصر نقده اللاذع على الرياء، والنفاق، والعُجْب بالذات، لدى الكثيرين منهم، ولم ينكر أنّ منهم من صفت نفسهم، وصدقت عبادتهم، وكانت سريرتهم ناصعةً حميدةً. وكان له منهم أصدقاء، مثل نيقودمس، ويوسف الأريماثيّ، وسمعان الذي تناول الطعام على مائدته.

غير أنّ تلك النخبة الضئيلة لم تكن مسموعة الصوت، في مجالس الشيوخ والرؤساء، ولم تفلح في درء تيّار الضلال، فضلاً عن أنّ معظم هؤلاء كانوا يشاركون الكتبة ازدراءهم للمدعوّين «شعب الأرض»، غير المتبحّرين في علم الشريعة.

ومع ذلك لم يتردّد الربّ في اختيار واحدٍ من أشدّ الفرّيسيّين تعنّتًا، وهو شاول الطرسوسيّ، كي يجعل منه إناءه المصطفى، ورسوله المقدام الذي سينشر فكر المخلّص وحبّه، في شتّى أرجاء المسكونة.

* *

ومن التيّار الفرّيسيّ انبثق تيّارا **الغيورين والخنجريّين**

الغيورون يتّفقون في كلّ شيءٍ مع الفرّيسيّين، ولكنّهم يتميزّون بتعصّبهم الوطنيّ، إذ إنّهم لا يرتضون سوى الله حاكمًا لهم، ويؤثرون الموت على الخضوع لسيّدٍ آخر. كان يحدوهم بغضٌ شديدٌ للغرباء، وكانت الثورة تجيش في عروقهم. وفي ذلك كانوا يتباينون عن سواد الفرّيسيّين، الذين كانوا أقلّ عدوانيّةً تجاه الرومانيّين.

وعندما اتّضح للغيورين فشل ثوراتهم الجماعيّة، وعجزها عن طرد المحتلّ، لجأوا إلى الاغتيالات الفرديّة، فدأب أفرادٌ منهم على التسلّل في زحمة الجموع، مزوّدين بخناجر قصيرةٍ، حادّة النصل، مخبأةٍ في ثنايا ثيابهم. كانوا يطعنون بها خلسةً، بخفّةٍ وسرعةٍ، كلّ من اشتمّوا فيه عداءً لأمّتهم، ثمّ يتوهون وسط الازدحام. وقد أُطلقت على هؤلاء تسمية (sicaires) **الخنجريّين**. كانوا ينطلقون من عصبيّةٍ وطنيّةٍ متشدّدةٍ، وحرصٍ على العدالة الاجتماعيّة. شعارهم: «الخبز والحرّيّة». ينادون بالجهاد المقدّس معلنين: «الرجل الذي يسفك دم كافرٍ يشبه من يقدّم لله ضحيّةً». كانوا يعتصمون بخفاءٍ محكمٍ، يخطّطون للاغتيالات، ويستفزّون الثورات، ويُشيعون الفوضى في البلاد. وكانوا يلاحقون بحقدهم، خاصّةً، المستعمر الرومانيّ والمتعاونين معه. وقد استفزّت اغتيالاتهم وثوراتهم، انتقام روما الشرس، الذي أدّى إلى تدمير الهيكل عام ٧٠، وإلى تشتيت اليهود.

الصَّـدّوقِيُّون

إن كان الفرّيسيّون أهل الشريعة، فالصدّوقيّون هم سادة الهيكل.

اسمهم يأتيهم من صادق، رئيس الكهنة في عهد داود وسليمان، وذرّيّته هي الأسرة الكهنوتيّة بامتيازٍ. وربّما دُعوا كذلك بسبب ادّعائهم الوفاء للشريعة الأصيلة، فاستأهلوا لقب الأبرار الصدّيقين.

ولكن، في الواقع، لم يكونوا يستحقّون هذا الوصف، إذ كانوا، عمومًا، من طبقة الأرستقراطيّة الثريّة. وقد استهوتهم السلطة والثروة، فرضوا عن الحياة الدنيا التي غمرتهم بخيراتها وامتيازاتها، ولم يكن يساورهم أيّ قلقٍ ماورائيٍّ. فقد حصروا اهتمامهم في الشؤون العامّة، وفي تدعيم نفوذهم السياسيّ.

تواطأوا مع هيرودس، ومع الرومانيّين، وتذرّعوا بالمؤامرات، والمعاهدات الماكرة، تدعيمًا لسلطتهم المترجرجة، وأقاموا، مع الأمم الوثنيّة، علاقاتٍ تتلاءم مع مصالحهم. ومن جرّاء تعاطيهم مع تلك الأمم، وَهنَ إيمانُهم، وتسرّبت إلى سلوكهم النزعات الإيبيقوريّة. لم ينكروا الله، ولكنّهم أنكروا عليه إدارة العالم، قائلين: «بعد أن أعطى الله شعبه الشريعة، أخلد إلى الراحة، وترك للبشر أن يتصرّفوا كما يرون». وشيئًا فشيئًا انتهوا إلى إنكار خلود النفس، والقيامة، ووجود الملائكة. وكانوا يسخرون من الفرّيسيّين قائلين: «إنّهم يعنّون أنفسهم في هذا العالم، سدًى، إذ إنّهم لن يجدوا شيئًا في العالم الآخر».

دينيًّا كانوا يعلنون لامبالاةً وقحةً، ولا يثير ملكوت الله لديهم أيّ اهتمامٍ. ولم يكن لهم من همٍّ سوى نشدان المتعة، والتنعّم بالطيّبات، ولا هاجس لديهم سوى صوْن الأمن، والظفر بحظوة الرومانيّين، والثبات في مراكزهم. وما كان الدين لهم سوى مطيّةٍ.

وفي أيّام يسوع كانت رئاسة الكهنوت قد غدت إقطاعًا تتنافس الأُسر الكهنوتيّة

على انتزاعه من السلطات الرومانيّة، ومن أُسرة هيرودس، بالمال والدسائس. وكانت تلك الطبقة الثريّة، الصلِفة، المبغوضة، تعتصر الشعب بما تفرضه عليه من ضرائب باسم الهيكل، وتهين فقره بمظاهر بذخها الفاحش.

وقد عُرف عن أُسرة حنّان، مثلاً، أنّها احتكرت حقّ تربية الحمام وبيعه في الهيكل، وفرضت التضحية به، في كلّ مناسبةٍ، وحدّدت له أسعارًا باهظةً. وفي تلك الأثناء كان صغار الكهنة ينفُقون متربةً وجوعًا. ولم يكن الشعب يغفر لها تواطؤها مع السلطة البغيضة، التي دأبت على تنصيب رؤساء كهنة وخلعهم اعتباطًا، بحيث فقد ذلك المنصب كرامته وهيبته.

شرعيًّا، كانوا يدّعون أنّهم محافظون متشدّدون، ولكنّهم لا يعترفون إلاّ بما ورد، حرفيًّا، في كتب التوراة الخمسة، ويرفضون كلّ التقاليد والتفاسير التي وضعها الفرّيسيّون والكتبة.

كانوا أمراء الكهنوت، ولكن لم يكن الكهنوت همّهم، إذ غالبًا ما تولّى فرّيسيّون وظائف كهنوتيّة. إلاّ أنّهم كانوا حريصين على التميّز عن الفرّيسيّين بتمثيل الأرستقراطيّة، والزعامة الحاكمة.

كانوا يزدرون الصغار، ويتملّقون الكبار، ولا يطيقون تعاظم نفوذ الفرّيسيّين والكتبة الذي اكتسبوه بغيرتهم، وعلمهم، وتشدّدهم. كانوا يضيقون بمنافستهم ذرعًا، ويندّدون بهم، ويصفونهم بالمحرتقين الذين يفلقون الشعرة إلى أربعة أجزاء.

كانوا تجّار تقوًى وهم منها خالون. كانوا مزيجًا بغيضًا من كبرياء، وحقارةٍ، من قسوةٍ وحيلةٍ، من طغيانٍ وعبوديّةٍ، يهصرون الشعب، ويسحقونه بصَلَفهم وترفهم، وعند أقدام روما ينبطحون ويتسحّبون.

عدَديًّا كانوا أقلّيّةً ضئيلةً، ومع أنّهم كانوا يؤلّفون الطبقة الكهنوتيّة العليا، إلاّ أنّهم ما كانوا يلقون من طبقة الكهنوت الدنيا، ومن عامّة الشعب، سوى المقت والكره، إذ كان الجميع يأخذون عليهم جشعهم، وصَلَفهم، وعنفهم.

وقد أنحى عليهم التلمود بالهجاء فقال: «هم رؤساء كهنة، وأبناؤهم قيّمون على الخزائن، وأصهارهم مفتّشو الهيكل، وخدمهم ينهالون على الشعب بهراواتهم».

لا يروي الإنجيل أيّ صدامٍ عقائديٍّ بين يسوع والصدّوقيّين. ولكنّ يسوع، منذ

مطلع حياته العلنيّة، أثار نقمتهم، بتعرّضه لتجارة الهيكل التي كانت تعود عليهم بغنائم طائلةٍ. هذه النقمة لم ينقع غليلها سوى تصميمهم على قتله، وفي ذلك، فقط، تحالفوا مع خصومهم الفرّيسيّين.

كان المعمدان قد تبيّن شرّ الصدّوقيّين، فوصفهم، هم والفرّيسيّين، بالأفاعي، ويسوع نفسه حذّر تلاميذه من خميرهم، أي من تعليمهم الوبيل. ولقد أثبتوا أنّهم من أشرس مضطهدي كنيسة يسوع الناشئة.

وإلى جماعة الصدّوقيّين يمكن ضمّ **حزب الهيرودسيّين** الصغير، المؤلّف من أزلام هيرودس، الذين استكانوا لسطلة هيرودس وأبنائه، فباتوا يكوّنون بلاطهم. وقد ساعدوهم على توطيد سلطانهم، وتضخيم ثرواتهم، مثلما صانعوا الرومان، وحنوا لهم الظهور. ولكن لم يكن لهم كبير شأنٍ في أوساط الشعب.

الأسّينيّون كانوا لاطين في الظلّ، ويؤلّفون تجمّعًا دينيًّا تكوّن في القرن الثاني قبل الميلاد. عدد أفرادهم نحو أربعة آلافٍ، اتّخذوا مركزًا لهم واحةً على الضفّة الغربيّة من البحر الميّت، حيث عاشوا «شعبًا خالدًا لا يولد فيه أحدٌ»، إذ لا مكان في جماعتهم لامرأةٍ ولا لولدٍ.

جماعتهم شبه رهبانيّة تمارس العزوبة، وشراكة المقتنيات، والعمل اليدويّ، ولا سيّما الزراعة، والصمت، والصلاة الجماعيّة، والتشدّد في ممارسة وصيّة السبت، بحيث كانوا يمتنعون، أيّام السبت، حتّى عن قضاء حاجاتهم الجسديّة الأساسيّة.

كلّ ما لديهم مشتركٌ، يتناولون الطعام معًا، في طقوسٍ مهيبةٍ، يولون النظافة والطهر الخارجيّ اهتمامًا كبيرًا، لا بل كانوا يغالون في مقتضيات الطهارة أكثر من الكهنة، وينتظرون مجيء ملكوت الله في توتّرٍ أشدّ ممّا تعبّر عنه النصوص الأُخرويّة. يحكمون أنفسهم بأنفسهم، ولا يستخدمون عبيدًا، ولا يتعاطون التجارة.

كانوا يلتزمون ببعض وصايا موسى، ويرسلون تقادم إلى الهيكل، ولكنّهم يمتنعون عن أضاحي الحيوانات، وسفك الدماء؛ ويتنكّبون عن كلّ قَسَمٍ، ويلبسون الكتّان الأبيض.

المنتسبون إلى الجماعة يُقبَلون في أعقاب امتحاناتٍ طويلةٍ وشاقّةٍ. وفي هذه الأثناء يعطى طالب الانتساب ثوبًا أبيض يرتديه لدى الاشتراك في وجبات الطعام الجماعيّة،

ومئزرًا يضعه في أثناء الاغتسالات المتعدّدة، ومجرفةً يحفر بها، كلّ يومٍ، الحفرة التي يودعها نجاسات جسمه، ويطمرها بعناية لكيلا تنجّس أشعّة الشمس.

بعد سنة اختبارٍ قاسيةٍ تُختم بطقس عمادٍ، كان يخضع طالب الانتساب إلى سنتَيْ تدرّجٍ وتأهّلٍ، تختمان بنذورٍ علنيّةٍ. وكان يُفرَض على الجميع نظامٌ صارمٌ، وطاعةٌ مطلقةٌ، وعفّةٌ دائمةٌ، وحظرُ أيِّ امتلاكٍ خاصٍّ. أمّا من خالف الأنظمة، فعقابه الطرد الذي يلجئه إلى التهام الأعشاب، والموت الوئيد، جوعًا.

كتمانٌ تامٌّ فُرِض على ممارساتهم، فلم تبُحْ شفتان بكلمةٍ عنها، حتّى وسط أعتى الاضطهادات. كلّ ما يُعرف عنهم أنّهم كانوا يعبدون الشمس، ويؤمنون بنفسٍ أثيريّةٍ محبوسةٍ، لفترةٍ قصيرةٍ، في الجسد.

ما الذي كان يدفع الأسّينيّين على احتمال هذه الحياة الشاقّة؟ لا أحد يعرف. وقد انقرضت تلك الفئة قبل أن يُنتَهك سرّها. ولكنّها كانت ضئيلة الأثر على تاريخ اليهود، لأنّها لم تكن شعبيّةً، بل موقوفةً على جماعةٍ ضئيلةً.

من جرّاء ممارساتهم الخاصّة، كان الأسّينيّون منفصلين عن سائر اليهود. ولم يكن لهم أيّ موقفٍ سياسيٍّ متميّزٍ. ولكنّهم، عمومًا، كانوا يحترمون السلطة القائمة. وليس لهم، في الإنجيل، أيّ أثرٍ.

الهَيْكَلُ وَالكَهْنُوت

الركن الثاني في اليهوديّة، بعد الشريعة، هو الهيكل. فهو المقام الوحيد المكرّس ليهوه، إله الأمّة، وهو محجّ هذه الأمّة، ومحطّ أَنظار أبنائها وقلوبهم. وهو، فضلاً عن ذلك، يقوم مقام سوقٍ، ومصرفٍ، ومركزٍ إداريٍّ.

وفي أيّام يسوع كانت الاحتفالات فيه قد بلغت ذروة فخامتها، ولكنّ العبادة فترت، والدين شُوِّه، وانحطّ. وكان هيردوس الذي بذخ في زخرفته، قد أمعن في امتهان كرامة الكهنوت.

ظلّ الهيكل الأوّل خيمةً مرتحلةً، ردحًا من الزمن، إلى أن بنى اليهود هيكلاً ثابتًا على تلّة موريّا في أورشليم. وتعهّد سليمان بناءه وزخرفته. ولكن جند نبوخذنصّر دمّروه بلا رحمةٍ، عام ٥٨٦ ق. م، ثمّ جرت محاولاتٌ عديدةٌ لإعادة بنائه، في أعقاب عودة اليهود من منفاهم في بابل عام ٥١٥ ق. م. ولكنّ البناء الجديد كان من الوضاعة بحيث كان يستدرّ دموع من عرفوا الهيكل القديم؛ إلى أن هدّه هيرودس الكبير وأعاد بناءه، على أروع ممّا كان. أعمال الإعمار الأساسيّة استغرقت نحو عشر سنواتٍ، أمّا أعمال الزخرفة، فاستمرّت أكثر من أربعين سنةً، واستهلكت مبالغ طائلةً، حتّى جاء تحفةً معماريّةً فريدةً، وقيل فيه: «من لم يشهد هيكل هيرودس، لم يشهد صرحًا فخمًا». كان يُطلّ على وادي قدرون، ويواجه جبل الزيتون، ومن ورائه المدينة منفسحةٌ كالمدرّج. شرفاته فسيحةٌ متراكبةٌ، قائمةٌ على آلاف الأعمدة، ومحاطةٌ بأروقةٍ عديدة. أشكاله الهندسيّة متنوّعة، وزخارفه من مرمرٍ وذهبٍ. كلّ ذلك كان يؤلّف مجموعةً متناسقةً، لا تملّ العين من تأمّلها. ولكن ما كاد يُفرغ من زخرفته عام ٦٤ حتّى دُمّر على يد تيطس عام ٧٠.

* *

للهيكل مكانةٌ في حياة يسوع. فقد قُدِّم إليه، وهو في الأربعين من أيّامه، فرحّب

كلٌّ من سمعان الشيخ، وحنّة بنت فنوئيل النبيّة بمجيء المخلّص. ثمّ في سنّ الثانية عشرة، عندما شرع يبلغ، أفلت من رقابة والديه، وتلبّث فيه يحاجّ العلماء، إذ كان عليه الاهتمام بشؤون أبيه. ولطالما علّم فيه، بمناسبة الأعياد الكبرى، ولا سيّما في أسبوعه الأخير، مفحمًا الفرّيسيّين والكتبة وسواهم، ممّن حاولوا تسفيهه أو إيقاعه في زلَلٍ. وطرد منه، مرّتين، الباعة الذين كانوا، بتجارتهم، ينتهكون حرمته. ودَخَله دخول الفاتحين في يوم الشعانين، وصُلِبَ لأنّه تنبّأ بخرابه.

في الهيكل كانت تمارس السلطاتُ الكهنوتيّة التراتبيّة التي كانت تتسنّم قمّة النظام الثيوقراطيّ. وكانت الديانة اليهوديّة مرتبطةً ارتباطًا جوهريًّا بهيكل أورشليم، والهيكل يقتضي الكهنوت. وبالتالي كان كلّ يهوديٍّ في فلسطين، أو في الشتات، يرى في الهيكل المقام الأسمى، وفي رئيس الكهنة الإنسان الأقرب من الله. فهو يمثّل السلطة الدينيّة العليا. وهو، وحده، يدخل قدس الأقداس، مرّةً واحدةً في السنة، بمناسبة عيد الغفران (كيپّور)، في حلّةٍ بيضاء فاخرةٍ، كي يقدّم دم ضحيّة التكفير.

وظيفة رئاسة الكهنة كانت وراثيّةً. ولكنّ الرومانيّين استغلّوا التنافس الناشب بين الأُسر الكهنوتيّة على انتزاعها، فصاروا يعيّنون لهذا المنصب، أو يخلعون عنه، من يخدم مصالحهم. وقد فرض التقليد أن تتولّى أسرة هارون رئاسة الكهنة، وأن تضطلع بخدمة الهيكل أسرة لاوي، ومن ثمّ دعي خدّام الهيكل «لاويّين».

مبدئيًّا كان رئيس الكهنة هو رأس الأمّة اليهوديّة كلّها، القابض على مقاليد السلطة العليا دينيًّا ومدنيًّا، وكان يتولّى، أيضًا، العلاقات مع السلطات المحتلّة، ويعقد معها التسويات. ولكن، في أيّام يسوع، كانت سلطاته قد تضاءلت.

قديمًا، كان يُنتخب كي يمارس سلطاته مدى الحياة، إلاّ في حالاتٍ استثنائيّةٍ. ولكن، منذ حكم هيردوس الكبير، غدا الاستثناء هو القاعدة. فخلال خمسٍ وستّين سنةً تعاقب على رئاسة الكهنوت نحو خمسة عشر رئيسًا، وبعضهم لم يمارس سلطته أكثر من سنة، وبعضهم أقلّ. وقد لعبت المغانم المادّيّة الجسيمة التي كانت توفّرها رئاسة الكهنوت دورًا أساسيًّا في تقصير أمد ولايتها، إذ تفاقم عدد الطامعين فيها، والذين باتوا يبيعونها ويشترونها.

وفضلاً عن احتكاره الاحتفال بالطقوس في الأعياد الكبرى، كان رئيس الكهنة

هو، أيضًا، رئيس السنهدرين، أي المجلس القضائيّ الأعلى. غير أنّ الرومانيّين، ولا سيّما في أيّام بنطيُس بيلاطس، عارضوا الكثير من قرارات السنهدرين، وأفهموا رئيس الكهنة أنّه، وإن كان لا يزال يلبس التاج الكهنوتيّ، إلاّ أنّ التاج الملكيّ قد أُزيح عن رأسه. حتّى زيّه الكهنوتيّ الفخم كان يودع في قلعة أنطونيا، لا يُخرج منها إلاّ بمناسبة الاحتفالات الكبرى، على أن يُعاد إليها فور الفراغ منها.

وفي أيّام يسوع، تضاءلت إلى حدٍّ سحيقٍ، سلطاتُ رئيس الكهنة، ونفوذه، إذ احتكر الصدّوقيّون هذه الوظيفة، ولكنّهم لم يكونوا ينعمون بمحبّة الشعب الذي يرى الفرّيسيّين أكثر تمثيلاً لاستقامة التعاليم اليهوديّة.

ونلقى، في أيّام يسوع، رئيسَيْ كهنةٍ هما حنّان وقيافا. لقد سعد حنّان بممارسة وظيفته سنين طويلة، ثمّ خلفه على ممارستها أبناؤه الخمسة، وصهره قيافا، وما دام حيًّا كان هو الذي يدير شؤون رئاسة الكهنوت من وراء الستار.

السَّنْهِدْرِيْن

بعد رئاسة الكهنوت، كانت المؤسّسة اليهوديّة الكبرى، في عهد يسوع، هي السنهدرين، الذي استعاض به اليهود عن المُلك، والذي كان، في آنٍ واحد، برلمانًا، ومجلسًا أعلى للقضاء، ومدرسةً عليا، إذ آلت إليه مهمّات تفسير الشريعة، ومعالجة القضايا الكبرى، ومراقبة إدارة الشؤون العامّة، والقضاء. كان، إذن، يرتدي صفةً وطنيّةً ودينيّةً معًا. ولكنّ صلاحيّاته كانت تتعاظم أو تتضاءل، وفقًا للسلطات الملكيّة الحاكمة. فقد ظلّ مهيمنًا زهاء أربع مئة سنةٍ، إلى أن عمل الطاغي هيرودس على تقزيم شأنه، فلم يعد، في عهده، يتمتّع إلاّ بظلّ سلطةٍ. غير أنّ الرومانيّين أعادوا لـه الكثير من صلاحيّاته، عملاً بسياستهم القائمة على إيلاء الشعوب الخاضعة لسلطانهم ملء الحرّيّة في المضمار الدينيّ، وحرّيّةً مقيّدةً في الأمور المدنيّة الداخليّة. وبما أنّ السنهدرين كان يتألّف، في معظمه، من أرستقراطيّين يرتاح الرومان إليهم أكثر من ارتياحهم إلى الأحزاب الشعبيّة، فقد أولوا السنهدرين حرّيّةً كبرى في مجالَي الدين، والإدارة المدنيّة.

كان السنهدرين يتألّف من رئيسٍ، هو رئيس الكهنة، ومن سبعين عضوًا ينتمون إلى ثلاث فئاتٍ، هي:

– رؤساء الكهنة السابقون، ووجهاء الأُسر الكهنوتيّة الثماني والعشرين. كانوا، إذن، جماعة الأرستقراطيّة الكهنوتيّة، الذين يعتنقون مبدأ الصدّوقيّين، الأقوى نفوذًا، في أيّام يسوع.

– الشيوخ، ممثّلو الأرستقراطيّة العلمانيّة، الذين اكتسبوا، بذرائع مختلفةٍ، مركزًا رفيعًا في المجتمع، وباتوا مؤهّلين للإسهام في إدارة الشؤون العامّة. هم أيضًا كانوا ينتحلون مبدأ الصدّوقيّين.

– فئة الكتبة وعلماء الشريعة، وتتألّف، في معظمها، من العلمانيّين والفرّيسيّين،

ومن فئة الكهنة العليا. تلك كانت الفئة الشعبيّة الديناميّة بامتيازٍ، على نقيض الفئتين الأُخريَيْن المترهّلتَيْن.

مبدئيًّا كانت سلطة السنهدرين تشمل جميع يهود العالم. ولكن، في أيّام يسوع، كانت فعّالةً في فلسطين، وضعيفةً في الأماكن الأخرى، ولا سيّما تلك البعيدة عن أورشليم.

كان السنهدرين يبتّ في جميع القضايا الدينيّة والمدنيّة التي تمتّ بصلةٍ إلى الشريعة اليهوديّة. وكانت لأحكامه قوّةٌ تنفيذيّةٌ، مع إمكانيّة الاستعانة بقوى الشرطة اليهوديّة أو الرومانيّة. غير أنّ روما حرمته صلاحيّة تنفيذ أحكام الإعدام، ما خلا تلك التي يوافق عليها مندوب روما. وفي الواقع، كانت أحكام الإعدام التي يصدرها السنهدرين نادرةً، بحيث أفتى بعض الرابّيين أنّ السنهدرين يكون جائرًا إن هو أصدر حكمًا بالموت، مرَّةً واحدةً، كلّ سبعين سنةً. ومع ذلك أصدر حكمًا بالموت على يسوع البريء، ولم يوفّر وسيلةً لاأخلاقيّة في سبيل تنفيذه.

البيئة الاجتماعيّة

ظاهرة التفاوت بين الأثرياء والمعدمين، أو بين النافذين وعديمي الحيلة، كانت جليّةً، بل حادّةً. فعلى القمّة كان يجثم من وفّر لهم المحتدُ، أو الثروةُ، أو معرفةُ الشريعة، فيضًا من رخاءٍ ونفوذٍ وسطوةٍ، وفي الحضيض الفقراء، والضعفاء، الذين يرذلهم أصحاب المال، بسبب فقرهم، ويزدريهم علماء الشريعة، من جرّاء جهلهم، ويعدّونهم غير مؤهّلين للخلاص. ولكنّ يسوع انتصر لهؤلاء، وفتح لهم باب الملكوت على مصراعيه، لا بل انحدر إلى أسفل الدركات، فذاد عن حياض المنبوذين، والمرضى، والخطأة، والعشّارين، وحاور، بمودّةٍ، الجهلة، وقساة الرقاب، و«الرعاع الذين لا يعرفون الشريعة» (يوحنّا ٧: ٤٩).

* *

للأسرة مكانةٌ رفيعةٌ ومحترمةٌ، وهي مبنيّةٌ على الزواج الذي يُعدّ حَدَثًا خطيرًا وفرحًا. تعدّد الزوجات كان مباحًا، ولكن غير مألوفٍ. أمّا الطلاق فكان شائعًا؛ وكانت بعض المدارس الرابّينيّة تحلّله لأتفه الأسباب. وكان الأبناء، ولا سيّما الذكور، مرغوبين جدًّا. كثرتهم تُعَدّ بركةً من الله. أمّا العقم فيُعَدّ عارًا ولعنةً.

كلّ ولدٍ يتلقّى تربيةً دينيّةً مبدئيّةً، حالما يعي. أمّا الذين يتسنّى لهم الحصول على ثقافةٍ دينيّةٍ مستفيضةٍ، على يد رابّيٍّ مشهورٍ، فكانوا ينتفخون زهوًا، وازدراءً للجهلة بأمور الشريعة، الذين يُسمَّون «شعب الأرض». وكانوا يدّعون أنّ «حِبْر العالِم خيرٌ من دم الشهيد». وقد أُثر عن أحد علماء الشريعة أنّه كان كلّما فرغ من درسٍ، يصلّي هكذا: «أشكرك، اللّهمّ، لأنّك جعلت نصيبي بين الذين يزورون بيت العلم، لا بين الذين يكدحون في زوايا الشوارع. إنّني أنهض باكرًا، وهم، أيضًا، ينهضون باكرًا. منذ الفجر أعكف على أقوال الشريعة، وهم يدأبون على أعمالٍ باطلةٍ. أنا أعمل، وهم يعملون. أنا أظفر بمكافأة، وهم، لا مكافأة لهم. أنا أجري وهم

يجرون. ولكنّني أجري إلى الحياة الأبديّة، وهم يجرون إلى الهاوية». ولكأنّنا نسمع صلاة فرّيسيّ الإنجيل!

ومع ذلك، كان العمل اليدويّ يحظى بالتقدير. وأقوال التلمود، في هذا الشأن، كثيرةٌ: «من لا يلقّن ابنه مهنةً، يُعِدّه ليكون لصًّا على الطرقات»؛ «فليرتضِ المرء بأيّ عملٍ ولو لم يستسغْه، لكيلا يحتاج إلى الآخرين». وكان كثيرون من الرابّيّين يزاولون مهنًا وضيعةً. غير أنّ شغف اليهود بالتجارة كان واضحًا. وكان حكماؤهم يفتون: «ما من مهنةٍ أسوأ من الزراعة. أمّا التجارة فخيرٌ من كلّ حصادٍ». وكانت التجارة تدين بازدهارها لشبكة الطرقات الجيّدة، والواسعة، التي شقّها ومهّدها الرومان.

* *

كلّ أصناف الأمراض كانت شائعةً. ولكن بما أنّ لمس الجثث وتشريحها كان مبعث نجاسةٍ، فقد كان الطبّ واهيًا، وغالبًا ما يتولاّه رابّيّون، وَصْفاتهم أقرب إلى الشعوذة.

* *

في نظر المتزمّتين، كلّ غريبٍ وثنيٌّ، وكلّ وثنيٍّ نجسٌ، وكلّ اتّصالٍ به، أو ولوجٍ لبيته، أو لمس غرضٍ لَمَسَه، هو، كان يسبّب نجاسةً شرعيّةً تستوجب فرائض التطهّر. ومن ثمّ كان يتعذّر عليهم التعايش مع غير اليهود.

هذا الانغلاق، وهذا الجفاء، وزعمهم التفوّق على الآخرين، الذي كان ينفخهم تيهًا، كلّ ذلك كان يُنهض لهم الأعداء، ويجعلهم مبغوضين، وموضع سخريّة. بينهم وبين الوثنيّين، انحفرت هوّةٌ يتعذّر اجتيازها، بحيث لم يستطيعوا، خلال قرونٍ، اجتذاب سوى قلّةٍ ضئيلةٍ منهم. فالإله الذي كانوا يبشّرون به يُرعب أكثر ممّا يفتن؛ وشريعتهم، بفرائضها المعقّدة، تبدو نيرًا باهظًا، أكثر منها سندًا، تقيّد الضمير وترهقه، وتفشل في إسعافه.

ذلك الشعب كان أقدر على الدفاع منه على الفتح، وأشدّ طاقةً على التماسك منه على الانتشار، وعلى التصلّب منه على اللين. كان يملك القوّة ولا يملك الجاذب، ولا يستدرّ المحبّة أو العطف؛ يمتلك صلابة الصوّان، ولكنّه يفتقر إلى الطاقة الراقية التي تتفاهم مع المحيط وتحوّله.

أمّا اللغة الرائجة في ذلك العهد، فكانت الآراميّة التي تشرّفت باستخدام يسوع

لها، في مخاطبة أبويه، وفي شفائه المرضى، وفي صلواته، وفي إعلان إنجيله، وإلقاء خطاباته السامية.

* *

في الإجمال، كانت تسود البلاد حالة انحطاطٍ سياسيٍّ، وأخلاقيٍّ، ودينيٍّ. وبتأثير الفرّيسيّين والصدّوقيّين، ورؤساء الكهنة التجّار، كانت تقوى اليهود قد أمست سطحيّةً، تظاهريّةً، خاليةً من الروح، وعبادة شفاهٍ فحسب. وافتقر الشعب إلى الراعي الحقّ المخلِص.

توقُّع مجيء المسيح المخلّص كان يخفق في كلّ قلبٍ، كما يتّضح من أقوال سمعان الشيخ وحنّة النبيّة، لدى تقدمة يسوع إلى الهيكل. وقد استشفّ يهودٌ كُثُرٌ، في يسوع، «ابن داود» المنتظر، بعد أن شاهدوا معجزاته. ولكنّهم، في الواقع، كانوا ينتظرون مسيحًا سياسيًّا محرِّرًا، ويرفضون النبوءات المتعلّقة بالخادم المتألّم. ولذلك، رفضوا يسوع عندما ظهر على نقيض ما تخيّلوا!

في جملته، خان الشعب اليهوديّ غاية وجوده. فقد قرن فكرة الله السامية باحتكاره لها احتكارًا شرسًا. وخنق الأخلاقيّة الموسويّة بفرائض وممارساتٍ مادّيَّةٍ خوت من الروح. وانحدر بالرجاء المشيحانيّ إلى مستوى أوهام أمّته، ووطنيّته المغلقة، فتخيّل أنّ يهوه، الله الحقّ الأوحد، هو إلهه وحده، دون سائر الورى؛ وحصر شرط الخلاص في طقوسه واحتفالاته؛ ورأى في المسيح المنتظر، الفاتح الأكبر الذي سينتقم لما تعرّض له اليهود من قهرٍ متمادٍ

في تخيّلاتهم، اختلق اليهود مسيحًا يحاكي أهواءهم، يقيم لهم ملكًا شاملاً مهيمنًا على المسكونة، ويبسط فوق العالم المغلوب صولجانه، صولجانًا أرفع مجدًا من صولجان سليمان.

هذه الأوهام أعمت الضمير الشعبيّ، وجمّدته، بحيث غدت اليهوديّة التي وُجدت لإعداد سبُل المسيح، هي الحاجز الأصلب في وجه عمله. ولكن مثلما كانت للوثنيّة نخبتها التي نجت من العدوى الشائعة، كانت لليهوديّة نخبتها الوفيّة، قطيعٌ صغيرٌ مجهولٌ، متحرّرٌ من أضاليل علماء الشريعة، محافظٌ، بصمتٍ، على رجاء الله.

من هذه الفئة الضئيلة اختار الله أدوات عمله. فقد كان في استقبال يسوع، الكاهن زكريّا، ورعاة بيت ساحور، وسمعان الشيخ، والنبيّة حنّة، هؤلاء أثبَتوا أنّ

في ذلك الجوّ الكهنوتيّ، لم تُضلّل جميع الضمائر، ولا حجّرتها فتاوى الكتبة؛ وبين المثقّفين والفرّيسيّين ما زال من ينشد الحقيقة، مثل نيقودمس، وفي أوساط الشعب، ولا سيّما بين النسوة، أتقياءُ حقيقيّون، تتصاعد من قلوبهم صلواتٌ متّقدةٌ، متوسّلةً، بصيحاتٍ حادّةٍ، رأفة الله بشعبه، ومجيء المخلّص الحقّ.

هكذا كانت البشريّة، في القرن الثامن لحكم روما، حيث كان العالم يعاني عبوديّة ذلك الحكم، وقد أودت به الديانات القديمة إلى الانحطاط والقنوط، وعجزت الفلسفات عن إطلاعه على سرّ الحياة والفضيلة، وجارت اليهوديّة عن سراط الدور المناط بها.

كانت تلك الحقبة من أكثر حقب التاريخ حَرَجًا؛ ولكنّ الله ما انفكّ ساهرًا، وما برح المتواضعون يصلّون، ويرجون. وكان الشعراء والمؤرّخون، والمفكّرون ينشدون توقّعًا مبهمًا، يختلج به قلب العالم، ويبقيه لاهثًا.

فقد حلّ «ملء الزمان»، وآن ليسوع أن يخلّص خليقته.

عشرون قرنًا، منذ إبراهيم حتّى دمار أورشليم، انتظرت مجيئه، ولعشرين قرنًا خلت، استهلّ عهدًا لا نهاية له إلاّ مع نهاية العالم. فهو الشخصيّة الأوفر فيضًا بالحياة، والأكثر تلبيةً لتطلّعات النفس البشريّة واحتياجاتها، والأشدّ تعرّضًا للمخالفة، والأمنع قوّةً وصمودًا.

جاء في أوج عظمة الإمبراطوريّة الرومانيّة، وسِلْمها الشامل، الراسخ الأركان، وإدارتها المحكمة. ولكنّ شريعة روما ستنحني أمام شريعة الإنجيل، والسلم الذي لم يكن سوى السأم من القهر، سيحلّ محلّه سلامٌ نفسيٌّ نابعٌ من حرّيّة أبناء الله، وطاعتهم المحبّة له.

جاء يسوع كي يعلن معنى الدين الحقّ ويجسّده: إعلان حقيقة الله، وتوثيق العلاقة بين البشر والله، وإعتاق الإنسان من ربقة الأهواء والقوى الأرضيّة التي تستعبده وتحوّله إلى مادّةٍ، ومساندته في مصارعة الشرّ، ومؤاساته في الآلام والأرزاء، وإروائه بالرجاء والإيمان في العدل الأبديّ؛ وبما أنّه خاطئٌ، تعليمه التوبة والتكفير، وبما أنّه معرَّضٌ للموت، شحذ تطلّعه إلى الخلود، بتعليمه الظهور على الموت، والموت في الله.

بياض

القسم الثاني

حياة يسوع الخفية

بياض

نَسَبُ يَسُوع (*)

يستهلّ القدّيس متّى إنجيله الذي توجّه به إلى اليهود، بما نسمّيه شجرة عائلة يسوع البشريّة، لكي يثبت أنّ نسب المسيح يتحدّر من الجدّين الأعظمين في العهد القديم: إبراهيم وداود، وأنّ يسوع هو الحلقة الأخيرة من سلسلة الخلاص، وغاية ما أومأ إليه الأنبياء.

غير أَنّ الإنجيليّ متّى، خلافًا للتقاليد الساميّة، التي لا تورد، من الأجداد، سوى أسماء الذكور، أتى على ذكر خمس نساءٍ، أربعٌ منهنّ اشتُهرنَ بسلوكهنّ المشين، أو بمحتدهنّ الوثنيّ؛ وهنّ: تامار، وراحاب، وراعوت، وزوجة أُوريّا التي خطّط داود لقتل زوجها كي يضمّها إلى حَرَمه.

معنى ذلك أنّ يسوع لا ينتمي إلى عرقٍ إسرائيليٍّ صافٍ، ولا إلى شعب قدّيسين، وأنّه إنّما جاء ليخلّص الشعوب كلّها، وليحرّر البشر من الخطيئة.

ودرج الإنجيليّ على القول إنّ فلانًا ولد فلانًا، حتّى انتهى إلى يوسف، فلم يقل إنّه ولد يسوع، بل قال عنه إنّه رجل مريم التي ولدت يسوع. مريم، أيضًا، هي من نسل داود، وهي الزهرة الوحيدة النقيّة التي نبتت في تربةٍ تفوح بروائح الفساد، وهي التي اختار يسوع أن يتجسّد في أحشائها، ويصوغ جسده من دمها.

أمّا الإنجيليّ لوقا، الذي توجّه بإنجيله إلى الأُمم الوثنيّة، فقد ارتقى بنسب يسوع إلى آدم، للدلالة على أنّه أخٌ لكلّ إنسانٍ، ومخلّص العالم أجمع. وبذلك يكون يسوع حلقةً جديدةً، لا في سلسلة إسرائيل، بل في إنسانيّةٍ شاملةٍ، جديدةٍ، ولذلك سيبشّر به الملائكةُ الناس أجمعين، وسيحيّي فيه سمعانُ الشيخُ «نورَ العالم». وقد أوضح الإنجيليّ لوقا: «إنّه، على ما كان يُظنّ، ابن يوسف بن عالي ...» وهو،

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «في البدء كان الكلمة»، صفحة ٣٠.

بذلك، يوحي بأنّ يوسف لم يكن أبًا ليسوع إلاّ وفقًا للشريعة، والرأي العامّ، في حين أنّ نَسَبه الحقيقيّ يكتنفه السرّ. فالأحداث السماويّة الجسيمة تتمّ في ظلال السرّ، بلا طبولٍ ولا أبواقٍ، وبمقدار ما تكون إلهيّةً، توغل في السرّيّة.

وقد ساوى لوقا بين جميع حلقات سلسلة نسب يسوع، وذكر، بتجرّدٍ، وعلى قدم المساواة، الرعاة والملوك، بلا تمييزٍ.

ولكنّ يسوع نفسه قد أعلن، في سياق سجالٍ مع الفرّيسيّين: «**قبل أن يولد إبراهيم، أنا كائنٌ**» (يوحنّا ٨: ٥٨). وبلفظة «الكائن» عينها، كان الله قد عرَّف ذاته، أي الأزليّ الذي لا بدء لوجوده، ولا نهاية.

ولذلك آثر الإنجيليّ يوحنّا، الذي توغّل بعيدًا في تأمّل سرّ ذاك الذي اتّكأ، يومًا، على صدره، وبعد أن بيّن زميلاه متّى ولوقا نَسَب يسوع البشريّ، إبراز الوجه الآخر من هويّته الإلهيّة، فأنشد في مطلع إنجيله (يوحنّا ١: ١– ١٨):

«**في البدء كان الكلمةُ. والكلمةُ كان مع الله. وكان الكلمة الله. إنّه في البدء كان مع الله. وإنّه به كان كلُّ شيءٍ. وبغيْره لم يكُن شيءٌ ممّا كان. فيه كانت الحياةُ. والحياة كانت نور الناس. والنور يضيءُ في الظُلمة. والظُلمة لم تفهَمْهُ. وكان إنسانٌ، رسولٌ من عند الله، اسمُه يوحنّا. إنّه جاء شاهدًا ليشهد للنور لكي يؤمن الجميع على يده. لم يكن هو النور بل كان شاهدًا للنور. أمّا النور الذي هو الحقيقيّ، الذي بمجيئه إلى العالم يُنيرُ كلّ إنسان. فإنّه كان في العالم، والعالمُ به كان، والعالم لم يعرفه. جاء إلى بيته الخاصّ وأهل بيته الخاصّ لم يقبلوهُ. أمّا الذين قبلوهُ، أولئك الذين يؤمنون باسمه، فقد آتاهم أن يصيروا أبناء الله، أبناءً لم يُولدوا من دمٍ، ولا من رغبة جسدٍ، ولا من إرادة رَجُلٍ، بل من الله. والكلمة صار بشرًا، وسكن بيننا مَملوءًا نعمةً وحقًّا. وقد رأينا مجدَهُ، مجدَ ابنٍ وحيدٍ آتٍ من الآب. وشهد له يوحنّا إذ أعلن قائلاً: «إنّه هو الذي قلتُ فيه: إنّ الذي يأتي ورائي قد تقدَّمني لأنّه كائنٌ قبلي». أجل، من ملئه كلّنا أخذنا، ونعمةً على نعمةٍ، ذلك بأنّ الشريعة أُعطيت على يد مُوسى، وأمّا النعمةُ والحقُّ فقد جاءَا على يد يسوعَ المسيح. الله لم يَرَه أحدٌ قطّ. فالإله، الابن الوحيدُ، الذي هو في حضن الآب، هو الذي كشفَ عنه**»(*).

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «يسوع»، صفحة ٢٨.

يسوع هو كلمة الله الأزليّة التي لا بدء لها ولا انتهاء، وهو متجذّرٌ في سرّ الحياة الإلهيّة. كلمة الله هي التعبير عن ملء كيانه الإلهيّ. الكلمة والمتكلّم واحدٌ، والحبّ الذي يوحّدهما هو روحهما القدّوس. وقد سُمّي «الكلمة» ابنًا، لأنّ المتكلّم هو الآب. من قلب الآب، وبقوّة الروح، تأنّس الابن، وهبط الأرض مخلّصًا.

لم يحلّ بروحه على إنسانٍ من بني الأرض كي يعمل من خلاله، ويعلّمه ما يقول ويفعل، بل هو، الله نفسه، لبس جسدًا بشريًّا، وثوى في أحشاء فتاةٍ عذراء، ووُلد منها ولادةً عجيبةً، وخاض حياةً بشريّةً، فترةً من الزمن، في موقعٍ محدّدٍ من البسيطة.

وحقّق مهمّته الفدائيّة بصفته إلهًا وإنسانًا معًا، وكان له، في البشريّة، تاريخٌ ومصيرٌ، فجدّد التاريخ، وسما بمصير الإنسانيّة. كلّ ما قبله كان إعدادًا لولادته، وكلّ ما تلاه يستمدّ معناه وقيمته من الولاء له أو من رفضه.

بقوله: «**صار الكلمة جسدًا**» عنى الإنجيليّ يوحنّا أنّ الأبديّ انخرط في الزمن. وباستخدامه لفظة «لوغوس»، أي الكلمة، شمل الخليقة كلّها بعمل الفداء. فهذه اللفظة تضيء لا المسيحيّين، فحسب، بل جميع البشر، أيًّا كانوا، ومنذ بدء الخليقة.

فليس يسوع مرحلةً من التاريخ، بل هو المركز الذي، حوله، يدور التاريخ كلّه. وفي هذا السياق كتب الكردينال رتسنغر (البابا بيندكتس السادس عشر، الحاليّ)

«الكلمة هو، دائمًا، أكبر من الكلمات التي لا تحيط به أبدًا، ولكنّ الكلمات تشترك في غنى الكلمة الذي لا ينضب، ومنه تستمدّ معناها ... في يسوع أعطانا الله ابنه، ذاته، وكلّ كلمته. ولم يكن بوسعه أن يعطينا أكثر من ذلك. وهكذا خُتِم الوحي. وبما أنّ الكلمة هو الله نفسه، وكلّ الكلمات تشير إلى الكلمة، فهو ليس فقط من الماضي، بل، دائمًا، في الحاضر والمستقبل، وهو، دائمًا، يرسّخ حياتنا في الأبديّة ... وهو ضمانة حياتنا الحقّة، الأقوى من الموت.

ومن ثمّ، فيسوع المسيح هو من أتى، ومن سيأتي. نؤمن أنّه أتى، ومع ذلك ننتظره: «ماراناتا» (تعالَ يا ربّنا)».

* *

يسوع، إذن، إلهٌ وإنسانٌ، لا أب له على الأرض، ولا أمّ له في السماء.

ولئن هو كان، بالجسد، ابن شعبٍ معيَّنٍ، وابن العالم، إلاّ أنّه سما فوق العالم، وافتدى الشعوب كلّها. وقد جاء إلى العالم لكي يجدّد خلقه، في ذاته، ولكي يحقّق بدءًا جديدًا، بدء خليقةٍ مشتراةٍ بدمه.

ولا ريب أنّه، طيلة سنوات عزلته في الناصرة، قد استبحر في تأمّل معنى التاريخ البشريّ، وكلّ ما تنطوي عليه هاتان اللفظتان من عظمةٍ ونبلٍ، وأيضًا، من تعقيدٍ، ونذالةٍ، وقتامٍ، وخبثٍ. كلّ هذا التاريخ تدفّق عليه، فأخذه بين يديه، وتحمّل مسؤوليّته أمام الآب.

لقد تبنّى البشريّة كلّها، وما العطف الذي أظهره، من خلال كلّ صفحات الإنجيل، على جرحى الأجساد والنفوس، سوى حَدَبٍ على من اتّخذهم إخوةً له، وأُسرةً.

لقد جمع واختزل كلّ شيءٍ في ذاته. قبله، كان العالم يحاكي مرآةً رائعةً، ولكنّها محطّمةٌ، وعاجزةٌ عن عكس صورة الخالق السنيّة المتكاملة. فلمّ شتات ما كان مبعثرًا، وصاغ، من جديدٍ، ما كان محطّمًا، محقّقًا كلّ كمالٍ، لكي نستمدّ، من ملئه، كلّ شيءٍ.

ليس لتاريخ يسوع بدايةٌ، ولن تكون له نهايةٌ: «**في البدء كان الكلمة ... ولن يكون لحكمه انقضاء**».

بشارة مريم (بريشة كارل بلوخ)

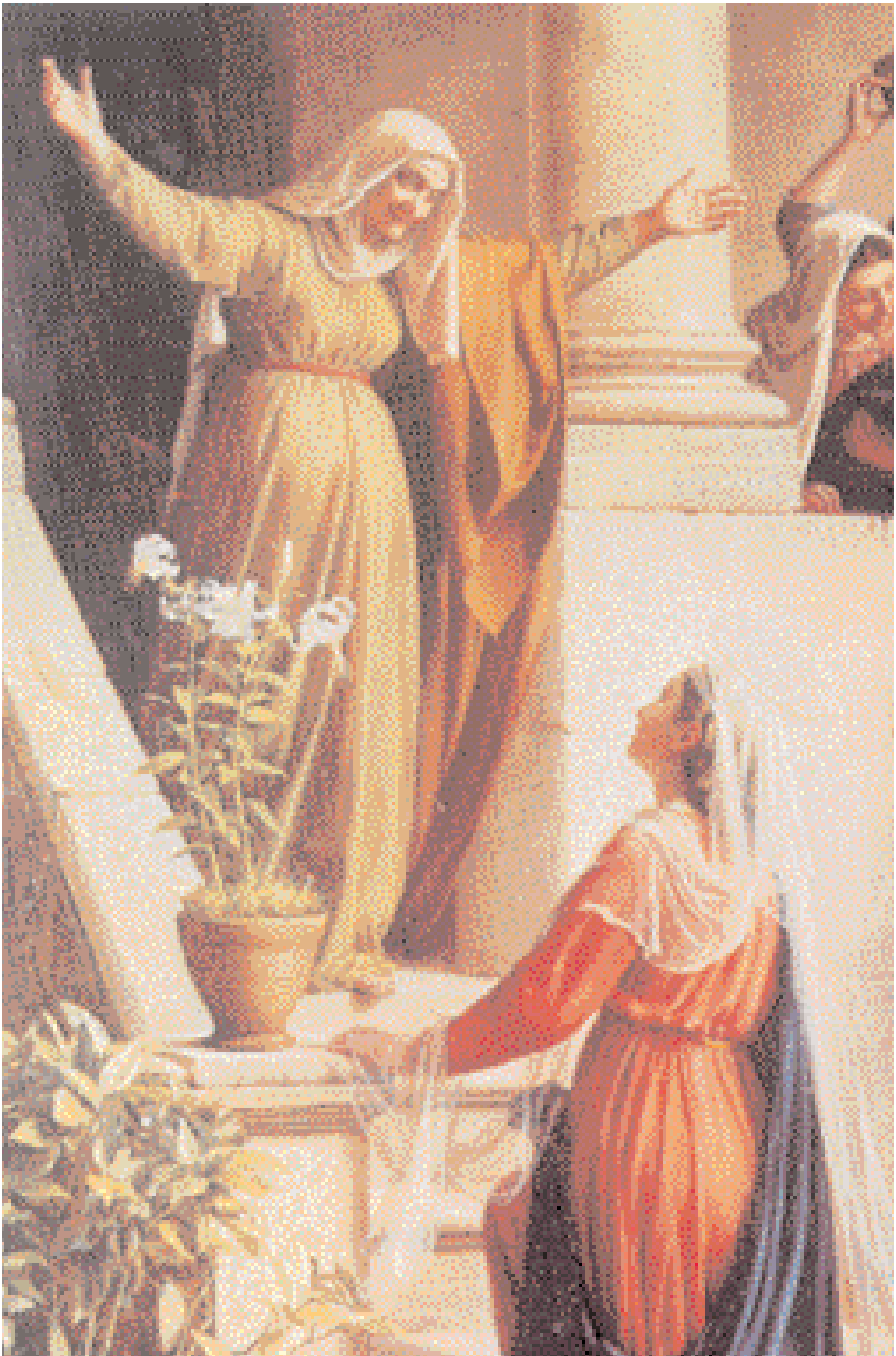

زيارة مريم لإليصابات (بريشة كارل بلوخ)

التَّـــجَسُّـــد (*)

يسوع، إذن، ابن الله وكلمته، خالق كلّ شيءٍ، نور البشر، ومصدر حياتهم. وحده يستطيع أن يتكلّم عن الله، وإلى الله، وأن يقدّم لـه كلّ المجد الذي يليق به. إنّه منشد السنى الإلهيّ، وواصف ما لا يوصف. لقد وضع نفسه في خدمة الأُسرة البشريّة المسكينة، التي كان الله يبدو بعيدًا عنها، لأنّها، هي نأت، بخطيئتها، عنه.

وولج ابن الله في تاريخ البشر، من غير أن يغادر الأبديّة، ومن غير انفصالٍ عن حياة الثالوث الحميمة. جاء لكي يؤكّد بنوّتنا لله الآب، ويضرب لنا المثل في طاعته، ويبثّ فينا روحه.

ومع أنّه لم يتخلَّ عن ألوهته، أصبح إنسانًا مثلنا، وارتضى تحمّل كلّ محننا، ما عدا الخطيئة، لكي يساعدنا على التوغّل في معرفة الله. وعلى حدّ قول البابا ليون الكبير(**): «لقد اتّحدت الجلالة بالحقارة، والقدرة بالوهن، وطبيعةٌ منزّهةٌ معصومةٌ من كلّ سوءٍ، بطبيعةٍ معرَّضةٍ للألم». وذاك الذي لا سلطة للموت عليه، ارتضى الموت حبًّا بالبشر، جاء كي يدعونا إلى كمال الله، بحيث بذل ذاته، في سبيل خلاصنا.

التجسّد هو سريان الأبديّة في أوصال الزمن، وتورّط الله في تاريخ العالم. فبتجسّده، انصهر يسوع في تاريخ البشر، بكلّ عوراته، ومواطن هوانه، وخبَر ما هو بشريّ، على حدّ قول الرسول بولس (عبرانيّين ٤: ١٥): «**ليس الحَبْر الذي لنا عاجزًا عن الرثاء لأسقامنا، بل هو مجرَّبٌ في كلّ شيءٍ على مثالنا، ما خلا الخطيئة**». إنّه لم يرتكب خطيئةً، قطّ، ولكنّه أخذ على عاتقه عبء خطايا العالم الباهظ، كي يكفّر عنه.

* *

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «وصار الله طفلاً»، صفحة ٥٠.

(**) اعتلى السدّة البابويّة بين ٤٤٠– ٤٦١.

في الوقت الذي توقّعه الأنبياء، تمّ أعظم حَدَثٍ عهدته الأرض والسماء، فعلى الأرض إصلاحٌ للخليقة الأولى، يفضي إلى خليقةٍ جديدةٍ أسمى كمالاً، إذ إنّ تلك الخليقة التي كانت قد هوت، ثمّ أعيدت إلى موقعها الأوّل، ستُشرَّف بالإسهام في الألوهة؛ أمّا في السماء، فيمكن التحدّث عن تطوير ما لا يتبدّل، وتوسيع اللامحدود. سرّ التجسّد والفداء هذا سيُعلن للملائكة وللبشر، وسيمسي إيمان الجنس البشريّ وخلاصه، موضع إعجاب الملائكة، وكمال مجد الله. بفضله ستصبح الأرض التي سيهبط عليها الله امتدادًا للسماء، بل سماءً جديدةً، والسماء التي سترتقي إليها الطبيعة البشريّة، ستغتني بعبادةٍ كانت، حتّئذٍ، مجهولةً. فقد كان للسماء إلهٌ معبودٌ، وسيكون لها، أيضًا، إلهٌ عابدٌ، يرتدي البشريّة، وكأنّها إحدى أسمى صفاته الإلهيّة، وستشهد السماء، حول هذا الإله، موكب النفوس القدّيسة، ذلك الحصاد الأرضيّ، الذي جاء به ابن البشر، لكي يكون، إلى الأبد، غنيمة غلبته، وعرس انتصار حبّه.

في الإنجيل كائنان: الله والإنسان. وليست المكانة التي يتبوّأها الإنسان، فيه، دون مكانة الله شأنًا، فمن أجل الإنسان يهبط الله من السماء، ومن أجله يرتدي الروح غير المخلوق وِقْر الجسد، ويرتضي الكلّيُّ القدرة الوهن، ومن أجله تجرّع الأزليّ كأس الموت، الموت على الصليب.

الإنسان المحدود الهزيل هو صنيعة اللامحدود، وبالتالي يحمل أثرًا من صانعه، من اللامحدود. ثقل جسده واعتلاله لا يسجنان فكره الذي يتخطّى تخوم المدى والزمان. إنّه سجين وهنه، ولكنّه يمتلك أجنحةً حرّةً. إنّه أعمى، ولكنّه يرى، من جهة النور، إلى أبعد من الشمس، ومن جهة الليل، إلى أبعد من الظلمات؛ ونظره يتعدّى الآفاق. إنّه عمل الله، وأعمال الله لم تُخلَق لتزول.

لم يخلق الله الإنسان إلاّ بدافع الحبّ، ولم يطالبه إلاّ بالحبّ.

الله مطلقٌ، وليس من مطلقٍ لا يكون حبًّا، وليس من إلهٍ عظيمٍ لا يكون إلهًا عطوفًا، إلهًا متّجهًا نحونا، إلهًا من أجلنا. المطلق هو حبٌّ، والحبّ عطاءٌ وتواصلٌ. والمطلق هو جودٌ سخيٌّ.

لم يجد الله سبيلاً إلى إعلان حبّه لنا إلاّ من خلال حجاب الجسد الذي تدثّر به يسوع، كلمته الأزليّة، الذي تجسّد كي يطلعنا على سرّ الآب، وسرّ حبّه.

يسوع هو صورة الآب غير المرئيّ، وتألّق مجده، وتمثال جوهره، وبرهان حبّه. تعليمه هو تعليم الآب، الذي لم يرَه أحدٌ سواه. قبله كان اللّه قد اتّصل بالبشر من بعيدٍ، عبر الأنبياء، ولكن لم يرَه ولم يسمعه أحدٌ مباشرةً. ومن خلال يسوع ابتغى الآب أن يقدّم ذاته. وما العهد الجديد، الأبديّ، سوى هذا العبور من مجرّد هباتٍ ينفحها اللّه للبشر إلى منحهم ذاته. يسوع يعلن الآب، ويرشد إلى سبيل بلوغه، إذ إنّه الطريق والحقّ، والحياة، حياةٌ جديدةٌ يقودها الروح. ويسوع لا يرشد إلى الآب بأقواله فقط، بل بكلّ أفعاله. وإن كان الجسد المادّيّ يُخفي أكثر ممّا يعلن، إلاّ أنّ تجسّد يسوع قد أرانا وجه اللّه الحقّ: «**من رآني، رأى الآب**». ومعرفة اللّه التي جاءنا بها، ليست مجرّد علمٍ، بل هي، أيضًا، قداسةٌ.

إنّ انحدار اللّه إلينا لا ينفصل عن صعودنا نحوه. ويسوع لا يعلن لنا الآب إلاّ لكي يجتذبنا إليه. ومن ثمّ، مذ حدث التجسّد، تحقّق الفداء، ومذ اتّخذ الكلمة جسدًا، نشأت الكنيسة. ولم يكن لولادتنا السماويّة بالروح أن تتحقّق، إلاّ بفضل ولادة يسوع بالجسد.

بالتجسّد، صار «الكلمة» واحدًا منّا، من قافلتنا، وعشيرتنا. لقد ارتقى بالوضع البشريّ، وسما به، فلم يعد حقيرًا بعد أن اعتنقه اللّه. وغدا كلّ إنسانٍ، بمجرّد بشريّته، رفيق اللّه.

* *

لقد جاء في سفر الحكمة: «بينما كان صمتٌ هادئٌ يخيّم على كلّ شيءٍ، وكان الليل في منتصف مسيره السريع، هجمت كلمتك القديرة من السماء، من العروش الملكيّة» (حكمة ١٨: ١٤– ١٥).

في محراب الصمت الذي يحضن الأحداث العظيمة تمّ التجسّد، بعيدًا عن الضجيج والتظاهر، حيث يفيض القلب حبًّا، وتعلن الإرادة الحرَّة عن جاهزيّتها، ويودع المستقبل بذور خصبه في الأثلام المحروثة.

التجسّد أكثر الأحداث خفيةً، وصمتًا، واستغلاقًا على أنظار البشر وأذهانهم، وتدفُّقًا من ينابيع اللّه السرّيّة.

نور الروح اخترق جسد العذراء، وكوّن فيها جسد يسوع. وحملت مريم ابنًا هو خالقها، منه استمدّت كيانها، ولم يكن لها وجودٌ بمعزلٍ عنه.

بِشَــارَةُ العَــذرَاء

كان مُلْكُ هيرودس يشارف نهايته، والملك العجوز يدلف إلى قبره معزولاً في القصر الذي أشاعت فيه يداه المضرّجتان بالدماء فراغًا مريعًا. وكانت الهواجس تعتمل في النفوس، وإذا بصوتٍ سماويٍّ، يعلن، في قرية الناصرة، قربَ الخلاص.

حَدَثٌ معجزٌ، عليه يقوم صرح الإيمان المسيحيّ، وقد رواه لوقا بأسلوبٍ عذبٍ، وببساطةٍ إلهيّةٍ، تدع الحدَث يعبّر عن عظمته بنفسه.

الناصرة قريةٌ وضيعةٌ، في شماليّ فلسطين، تبعد نحو مئةٍ وأربعين كيلومترًا عن أورشليم، تائهةٌ بين هضاب الجليل، في منتصف الطريق بين بحيرة جنّيصارت وشاطئ المتوسّط. بيوتها واطئةٌ، صغيرةٌ، تتألّق ببياض الكلس الذي طليت به جدرانها، وهي غافيةٌ في أحضان كرومٍ وبساتينَ تضفي عليها لونًا أخضر مخضلاًّ، استمدّت منه اسمها. فلفظة «الناصرة» تعني الزهرة. ولذلك سمّيت، أيضًا، «زهرة الجليل». وللناصرة شكل مدرَّجٍ تحضنه حنيّة هضبةٍ ترقى إلى ارتفاع ٤٨٨ مترًا، وتطلّ على وادي إزدرلون.

لولا نبعها الذي كان يجتذب القوافل، لكانت شبه معزولةٍ. وهي، على أيّة حالٍ قريةٌ مغمورةٌ، لا ذكر لها في التاريخ، ولا في أسفار العهد القديم، وإذا ما ذُكرت، فبازدراء: «أمن الناصرة يخرج شيءٌ صالح؟». غير أنّ الناصرة، بفضل تجسّد ابن الله، أمست رمزًا لانتماء ملايين البشر، عبر العصور.

ففي تلك القرية الوضيعة كانت تقيم فتاةٌ تدعى مريم، وهو اسمٌ شائعٌ يعني «الملكة»، في نحو الخامسة عشرة من عمرها، زيّن الله نفسها، وكوّنها تحفةً خالصةً كي يجعل منها أمّ ابنه المتجسّد.

كانت نفسها قد نضجت نضجًا مبكّرًا، واتّضحت رؤيتها للوجود والمصير، ونذرت لله بتوليّتها وكلّ ذاتها.

مثل ذلك النذر لم يكن رائجًا، وقلّما كان لـه، في شعبها، سوابق. فواجب كلّ فتاةٍ يهوديّةٍ أن تتزوّج وتُنجب، كي تسهم في مهمّة تكثير شعب اللّه. وإن هي كانت من نسل داود، كما هو شأن مريم، فواجبها، في هذا المجال، مزدوجٌ، إذ إنّها قد تنجب المسيح المنتظر. أمّا مريم، فبارتباطها بنذر البتوليّة، لم تضحِّ بالأمومة فحسب، بل نأت بنفسها عن إمكانيّة الحظوة بإنجاب الماسيّا، وهو أغلى حلمٍ كان يراود خيال فتاةٍ من مثيلاتها. وإنّما هي أقدمت على تلك التضحية ليقينها بأنّ البتوليّة توفّر لها قسطًا أوفر من القدرة والحرّيّة في مضمار خدمة اللّه والمحتاجين.

كان نذرها عهدًا بينها وبين ربّها، لم يعلم به أحدٌ من ذويها، وكان منسكها في داخلها حيث كانت تعيش في ألفةٍ حميمةٍ مع اللّه.

نظير كلّ بنات جيلها ومواطناتها، لم تغشَ مريم مدرسةً، وكانت أمّيّةً؛ ولكنّها استودعت ذاكرتها المتّقدة كلّ تقاليد شعبها الدينيّة. لم تكن تستطيع قراءة الكتب، ولكنّها كانت تصغي بشغفٍ إلى تلاوتها، وتغذّي بها صلواتها. لم تكن تفقه كلّ شيءٍ فيها، ولكنّها كانت تدرك الجوهريّ. وكان ذلك يُشيع، في نفسها، أفراحًا عارمةً، شفّافةً، وضّاءةً. كانت من أولئك الذين تنسج الصلاة كلّ حياتهم، وكان اللّه لها كلّ شيءٍ، في ليل الإيمان الحافل بالنجوم. كانت قد عقدت قرانها مع الخالق، متمنّيةً قضاء عمرها كلّه، في خدمته الخفيّة المتواضعة.

ولم يكن ليخفى عليها ما سيعرّضها لـه نذر البتوليّة من أزمات. فقد كانت الأُسرة تفرض على الفتاة الزواج، حالما تبلغ، من أحد رجال عشيرتها، صيانةً لشرفها، وحرصًا على ميراث ذويها. ولا ريب أنّ أسرة مريم كانت رقيقة الحال؛ ولكن من المرجّح أنّها كانت تمتلك بيتًا صغيرًا، وقطعة أرضٍ توفّر لها قسطًا من حاجاتها الغذائيّة. وكانت الأُسرة هي التي تتولّى أمر تدبير الزواج، وليس للفتاة يدٌ فيه ولا رأيٌ. فهي قد أُفهمت، منذ نعومة أظفارها، أنّ لا موكب لها في الحياة سوى موكب عرسها، وموكب جنازتها.

وكانت مريم قد خُطبت إلى رجلٍ من عشيرتها يمتهن النجارة، توسّمت فيه الاستقامة والشهامة، وسكنت إليه نفسها؛ وحداها الرجاء بأن يتفهّم نذرَها، ويرتضي أخذها إلى بيته، ولا يُكرهها على النكوص عن ذلك النذر الذي ارتبطت به استجابةً

لإلهام الربّ. وكانت موقنةً بأنّ الربّ كفيلٌ بحلّ تلك المفارقة المستعصية: التوفيق بين الزواج والبتوليّة.

الخطوبة كانت بمثابة عقد قرانٍ، تولي الخطيب كلّ حقوق الزوج. غير أنّ الخطيبة العذراء كانت تمكث زهاء سنةٍ، في منزل والديها، قبل الاحتفال بالعرس، والانتقال إلى بيت زوجها. أمّا الأرملة فكانت تنتقل إلى بيت زوجها الجديد، شهرًا واحدًا بعد الخطبة. والولد الذي كان يُحبَل به أو يولد في هذه الفترة كان يُعدّ ابنًا شرعيًّا. وإذا ما ارتكبت الخطيبة، في هذه الأثناء، خيانةً، تعرَّضت لعقوبة المرأة الزانية، أي الرجم.

* *

لا مراء أنّ نذر مريم كان دليل تواضعها السحيق. فباختيارها البتوليّة، برهنت على أنّها لم تعدَّ نفسها جديرةً بحظوة حمل المسيح، ودلّت على إيثارها الضعة والامّحاء، والتزام المكانة الدنيا.

وربّما لأنّها زهدت في تلك الحظوة، واستثنت نفسها منها، خصّها الله بها.

* *

في تلك الفترة، إذن، لنحو ألفي سنةٍ خلت، رأى الربّ أنّ ملء الزمن قد أزف، كي يرسل ابنه، وحيده، ليسوّي حساب البشر، ويوفي دينهم، ويقوّم اعوجاجهم، ويحرّرهم من عبوديّة الخطيئة.

أرسله كي يصلح الضلال البدائيّ، ويعيد الإنسان إلى إطار وضعه الأصليّ، ويذكّره بالكرامة التي أسبغها عليه الخالق، وبالمواهب التي حباه بها، عندما براه على صورته.

وذاك الذي تجسّد كي يستهلّ جنسًا جديدًا من أبناء الله، كان منزّهًا من عكر سيل الأجيال الأرضيّة، فآثر أن ينغرس وينمو في أحشاء تلك العذراء الطاهرة، التي، قبل أن تعرفه، كرّست له ذاتها.

كانت مستغرقةً في الصمت والتأمّل، عندما أشرقت في داخلها أنوارٌ سماويّةٌ، وعلا صوت ملاكٍ هاتفًا: «**اغتبطي أيّتها المغمورة بالنعمة. الربّ معك**»، «**فاضطربت لهذا الكلام، وتساءلت ما عسى أن يكون هذا السلام!**».

وكيف لا تضطرب فتاةٌ مغرقةٌ في التواضع، عندما تشهد الأدوار تنقلب، ورسول الله يحيّيها ويمتدحها، ويطلق عليها أوصافًا لم يخطر لها، قطّ، في تواضعها، أنّها جديرةٌ بها.

لم يدعُها الملاك باسمها «مريم» بل دعاها «المغمورة بالنِّعم»، ولكأنّ هذا الوصف يقوم لها مقام الاسم، ويعرّف بها أكمل تعريف.

الربّ يغمر بحضوره كلّ نفسٍ، ولكنّ النفوس الموصدة دونه، والمأهولة بغيره، غير مؤهَّلةٍ لاستقباله، إلى أن تُفرِغ ذاتها من كلّ ما يعيق حلوله فيها، من أهواء وبيلةٍ، ورغباتٍ باطلةٍ، وهمومٍ تافهةٍ. ولئن استحقّت مريم أن يدعوها الملاك «المغمورة بالنعمة»، فإنّما في ذلك الدليلَ على أنّها كانت، بكلّيّتها، متّجهةً نحو الله، منفتحةً على إلهامه وإشعاعه، متحرّرةً من كلّ ما هو سواه.

إنّ الذي اختارها أمًّا لابنه المتجسّد كان قد وقاها، حتّى قبل ولادتها، من كلّ لوثةٍ، وشائبةٍ، بحيث واكبتها النعمة والطهارة، والبراءة، في كلّ لحظةٍ من وجودها، فكانت، دائمًا، مغمورةً بالنِّعم، وعلى كلّ كيانها يطوف ذلك السلام السنيّ، وذلك الطهر الناصع الصافي، الذي لا يخالطه أيّ عَكَرٍ.

إنّها «**مغمورةٌ بالنعمة**»، لأنّها بتولٌ، والبتوليّة متعذّرةٌ بمعزلٍ عن عون الله. ولكنّها، مع الله، تصبح امتلاءً، وطاقةً على الحبّ لا حدود لها. المغمورة بالنعمة كانت، إذن، ممتلئةً بالله، مطلقة البتوليّة، مُشرعةً على حبّ البشر أجمعين، منزّهةً من الأنانيّة، عطاءً دائمًا، وبكلّيّتها حبًّا.

وهي طهرٌ كاملٌ، وصدقٌ مطلقٌ، لأنّ نار الحبّ الصافي التي اضطرمت فيها منذ حُبِل بها، لم تسمح لأيّ كَدَرٍ أن يعلق بها، ولأنّها كانت، أبدًا، تعيش في نور الروح القدس، في شفافيّةٍ مطلقةٍ.

وهي طاهرةٌ لأنّها بسيطةٌ، بلا تعقيدٍ، لا تضمر غير ما تقول، ولا تسعى أبدًا إلى الظهور على غير حقيقتها.

* *

وقال لها الملاك، أيضًا: «**الربّ معك**». وما أثمنه تأكيدًا من فم مرسل الله! كان ذلك بَدَهيًّا بالنسبة للعذراء، فهي، أبدًا، مع الله، وله وحده تحيا، فكيف لا يكون معها؟

لم تتمّ بشارة الله لمريم، كما كان يحدث في السابق، وسط رعودٍ، وبروقٍ، وعواصف. بل جاءت في رقّةٍ، وعذوبةٍ، وكتمانٍ. ومع ذلك اضطربت مريم حيال مبادرةٍ من الله مباغتةٍ، لم تكن تعدّ نفسها أهلاً لها. فسكّن الملاك روعها، مبيّنًا فحوى الرسالة التي وافاها بها، بقوله: «**لا تخافي، يا مريم، فلقد نلت حظوةً عند الله، وها أنت تحبلين وتلدين ابنًا وتسمّينه يسوع. إنّه سيكون عظيمًا، وابن العلّي يُدعى، ولن يكون لملكه انقضاءٌ**».

من خلال تلك العبارات المشبعة بأقوال الكتاب المقدّس، لم يكن من العسير على مريم اكتناه مرمى رسالة الملاك، الذي جاء يبشّرها بأنّها ستكون أمًّا للماسيّا المنتظر.

لقد أدركت أنّها تحيا واقعًا فريدًا، ومبادرةً من الله خارقةً، ولكنّها ما فتئت تواجه تساؤلاتٍ محيّرةً. فعلامَ اختارها الربّ، وهي على ما هي عليه من ضعة الشأن؟ لقد ملأتها حظوة الله خشيةً ورعدةً، أمام جسامة المسؤوليّة، أكثر ممّا أوحت لها من فخرٍ واعتزازٍ.

وما برحت، هناك، عقدةٌ كأداء، لا بدّ من حلّها: فكيف التوفيق بين نذر البتوليّة، والحمل، والأمومة؟ وانطلق السؤال، بل الاعتراض، على لسانها يقرن البراءة بالحزم، والسموّ بالبساطة: «**كيف سيكون ذلك، وأنا لا أعرف – (ولن أعرف) – رجلاً؟**» كيف أحمل وألد، وأنا بتولٌ، ولن أتخلّى عن بتوليّتي أبدًا؟

وسارع الملاك إلى إشاعة الطمأنينة في نفسها، وإلى حسر أسرار الله عن بصيرتها، موضّحًا: «**الروح القدس يأتي عليك، وقدرة العليّ تظلّلك، ومن أجل ذلك، فالقدّوس الذي سيولد منك يُدعى ابن الله**»، أي إنّه سيتمّ فيك ما تمّ في أيّام الخليقة الأولى، عندما أوجد ظلّ الله كلّ شيءٍ من العدم، وأنت الآن سيظلّلك الله بقدرته، وبمعزلٍ عن أيّ تدخّلٍ بشريٍّ، سيزرع في أحشائك ابنه الوحيد كي يستمدّ منك جسدًا بشريًّا يحقّق به مشروع التجسّد والفداء. إذ لا يليق بولادة ابن الله أن تخضع لشروط الطبيعة الخاطئة وسُنَنها، ولذلك ستحمله عذراء في أحشائها بفعل الروح القدس، وستظلّ عذراء حتّى بعد ولادته.

لم يخامر خَلَد العذراء أيّة ريبةٍ في كلامِ مرسل الله، لأنّ نفسها المنزّهة من كلّ لوثةٍ وكَدَرٍ، والتي كانت بأكملها طهرًا وصدقًا، كانت ترى، تلقائيًّا، ومن غير قناعٍ،

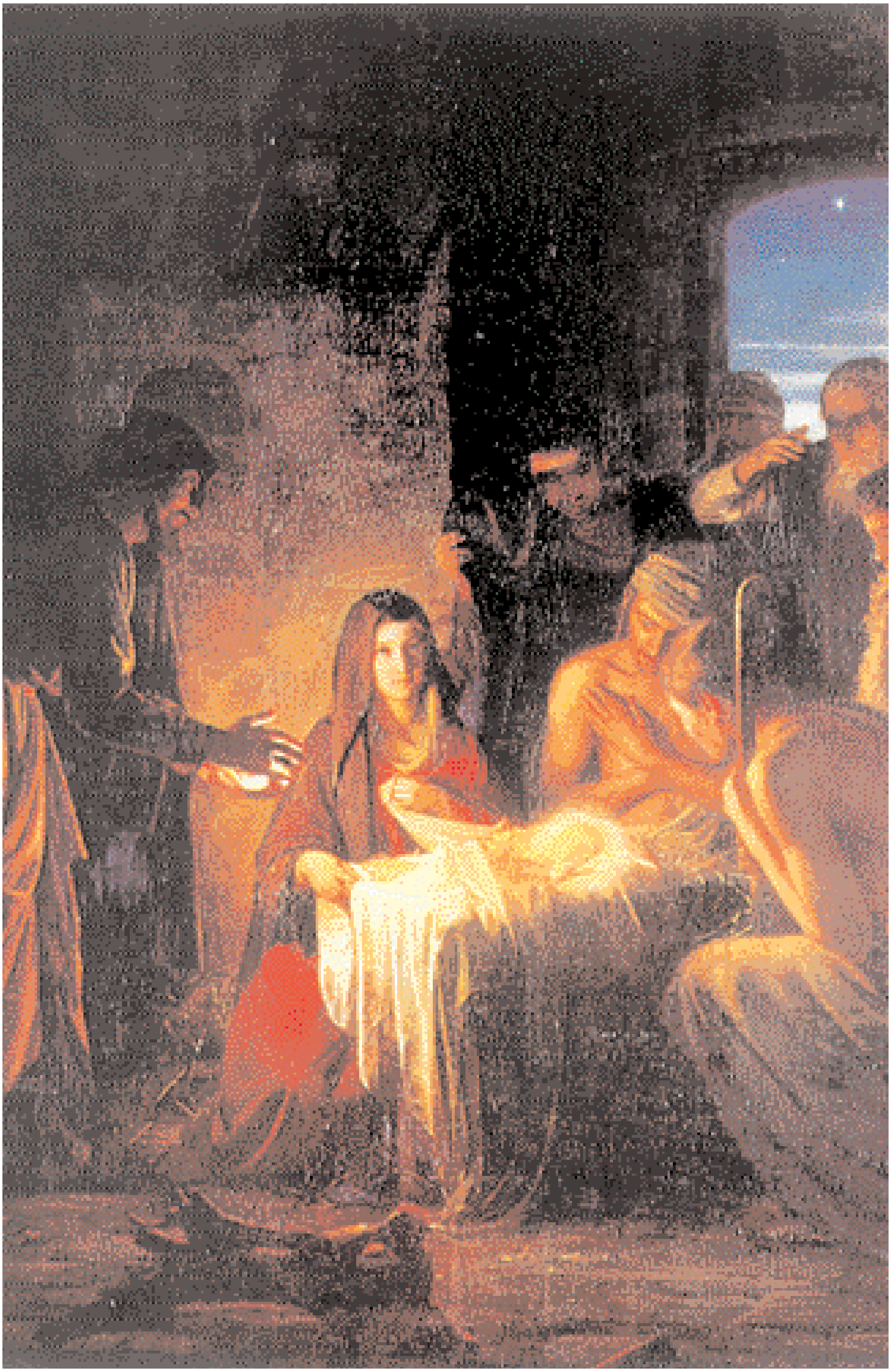

الميلاد (بريشة كارل بلوخ)

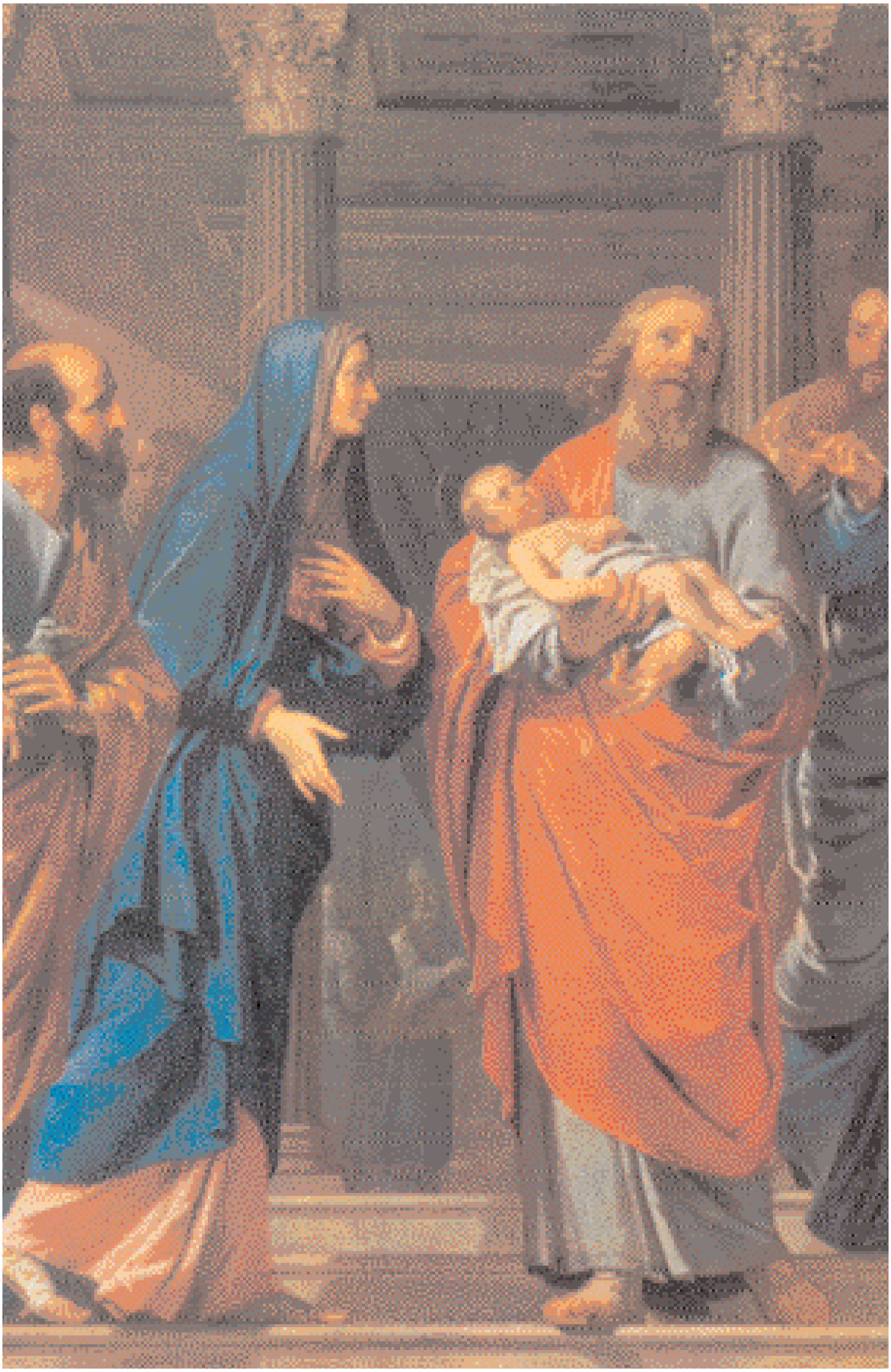

سمعان الشيخ يحمل يسوع (بريشة فيليب دي شاميني)

نور اللّه. ولم تطالب بأيّ دليلٍ على صحّة ما بُشِّرت به، غير أنّ ملاك اللّه تبرّع لها بهذا الدليل، وأفضى إليها بسرٍّ كانت أُولى المطّلعات عليه، عندما أنبأها: «**ها إنّ إليصابات نسيبتك قد حبلت، هي أيضًا، بابنٍ في شيخوختها، وهذا الشهر هو السادس لتلك التي تدعى عاقرًا، إذ ليس علَى اللّه أمرٌ عسيرٌ**».

وممّا زادها طمأنينةً أنّ الذي كان يخاطبها هو الملاك جبرائيل، ومعنى اسمه: «قدرة اللّه».

عرْض اللّه السنيّ هذا لم يكن أمرًا مفروضًا، محتومًا، فاللّه لا يُكره خليقته في أمر. ولذلك بلّغ الملاك رسالته، ووقف منتظرًا قرار العذراء. لحظةٌ جليلةٌ لم يعرف الكون لها مثيلاً منذ الخليقة؛ فعلى كلمةٍ من تلك الفتاة البريئة كان يتوقّف خلاص العالم.

وكانت فترة صمتٍ وخشوعٍ، حدّدت مصير البشريّة. لم تكن فترة تردّدٍ وارتيابٍ، بل فترةً استجمعت فيها العذراء كلّ طاقات نفسها، قبل الإعراب عن امتثالها لمشيئة الربّ، متيحةً له تحقيق مشاريعه، فاللّه لا يفعل للبشر أمرًا يرفضونه، ويحترم إرادتهم لخلاصهم أو لهلاكهم.

وفي تلك اللحظة الفريدة من لحظات تاريخ الكون، كان على العذراء، باسم البشريّة كلّها، أن تتّخذ موقفًا حيال مشيئة اللّه، الثالوث الأقدس: الآب المقدم على خلقٍ جديدٍ، والابن الذي اختار أن يولد ولادةً بشريّةً ليخلّص البشر ويرقى بهم إلى مستوى الأُلوهة، والروح القدس الذي سيُخصب، ويغمر بحبّه، متمّمًا عمل الآب الخالق، وحضور الابن المتجسّد.

كانت العذراء تدرك أنّها، خلافًا لكلّ الأُمّهات، ستحمل خالقها، وتعي كلّ ما تنطوي عليه استجابتها، في آنٍ معًا، من فرحٍ ومجدٍ وتعظيمٍ، ومن ألمٍ وفداءٍ وتبعاتٍ. كانت تدرك كم من الشكوك ستُثار حول حَبَلها، بدءًا من أقرب ذويها، وخطيبها، الذي لن يكون من اليسير عليهم تصديق روايتها عن حملٍ إلهيٍّ، يتحدّى سُنَن الكون، والتُّهم الشنيعة التي ستُلصق بها. ولكنّها كانت تدرك، أيضًا، مسؤوليّتها الجسيمة حيال سرٍّ عظيمٍ يحدث للمرّة الأولى والوحيدة في التاريخ.

لم يسحقها ثقل المهمّة، ولم يأخذها من سموّها الفريد الغرورُ، بل واجهت الأمر

ببراءة نفسٍ منغمسةٍ بكلّيّتها في الله، وفي رزانةٍ تتخطّى طاقات سنّها. ووطّنت عزمها بعد أن تيقّنت من أنّ حبلها لن يخدش بتوليّتها، بل سيزيدها طهرًا ونصاعةً. ولكنّ خَفَرها لم يسمح لها بأن تقول لفظة «نعم»، ففيها ما قد يوحي بجواب الندّ للندّ؛ ومن ثمّ عبّرت عن امتثالها بالقول: «**أنا أَمَة الربّ، فليكن لي بحسب قولك**»، أي إنّ إرادتي تذوب في مشيئة الربّ.

الملاك أعلنها أُمًّا لله، وهي أعلنت نفسها لله أَمَةً. فما أروع اقتران تلك الرفعة بذلك التواضع!

«**أنا أَمَة الربّ**» أي أنا عبدته. والأَمَة لا حقوق لها، إذ إنّ حقوقها كلّها هي بين يدي سيّدها؛ ولا مبادرة لها، إذ عليها فقط تنفيذ مشيئة سيّدها؛ ولكنّها، بتحرّرها من أسر إرادتها الخاصّة، وبإيداعها تلك الإرادة بين يدي ربّها وخالقها، تنعم بأعظم حرّيّةٍ نَعِم بها إنسانٌ، قطّ.

وفي تلك اللحظة تمّ التجسُّد، أعظم حَدَثٍ في تاريخ الكون. تمّ في صمتٍ، بحيث لم يشعر ولم يعلم به، من البشر، سوى العذراء، وحدها.

لقد حدث، حينئذٍ، أعظم ممّا حدث حين قال الخالق: «فليكن نور»، فتألّقت الشمس والكواكب. فمنذ تلك اللحظة «**صار الكلمة بشَرًا، وسكن بيننا**». لقد صاغ الآب من دم العذراء الطاهر جسد ابنه الذي لا يكفّ ينجبه في ذاته، أزليًّا. ومنذ تلك اللحظة السعيدة امتلأ جسد العذراء ودمها بالله، وصار الكلمة جسدًا، كي يصير الجسد إلهًا. اتّحادٌ ابتغاه الربّ كي يسكن في ما بيننا، ويرينا الله الذي لم يرَه أحدٌ سواه، ويُشرع على النور العيون المغلقة.

لقد رفع الله العذراءَ إلى أسمى مقامٍ، وجعلها أمًّا لـه، غير أنّها ما برحت تشعر بحقارتها. وقد أوجز دانتي هذا الوضع الفريد بقوله:

«عذراءُ أمٌّ، ابنة ابنها،

أكثر سموًّا وتواضعًا من أيّة خليقةٍ».

لقد غمرها الله بحضوره، وأيقظ فيها حبًّا بقياس ابن الله الذي زرعه في أحشائها، وأيقظ في جسدها الخِصْبَ الذي كانت قد زهدت فيه.

وهكذا أصبحت مريم مجمّعًا للثالوث الأقدس: فبمشيئة الآب ظلّلها الروح، وتكوّن الابن في أحشائها. لقد أمست أُمَّ العهد الجديد، ومنزلَ اللّه وهيكله، وغدا يسوع، ابنها، حضور اللّه الحسّيّ في دنيا البشر.

لقد انفردت مريم، دون العالمين، «بستانًا موصدًا، ونبعًا مغلقًا، ومعينًا مختومًا، لكي تهب طبيعةً مخلوقةً لمن كان خالقها، ولكي يأخذ اللّه جسدًا بشريًّا، وتصبح لـه العذراء أُمًّا، وهي ما برحت عذراء».

لقد اختار اللّه لنفسه هيكلاً من صنع يديه، من الخليقة التي ابتدعها، وزيّنه بالطهر، ومثلما استُلّت المرأة الأولى من صدر الرجل بيد الكلّيّ القدرة، كذلك، في سرٍّ مماثلٍ، ولكن على نحوٍ مختلفٍ، استُخرج آدم الجديد من امرأةٍ.

كان اللّه، في العهد القديم، قد كتب وصاياه على حجرٍ بواسطة موسى، ولكن لمّا حلّ ملء الزمان، كتب ذاته في أحشاء عذراء، ألقى فيها كلمته، ابنه، وحيده، بحيث صار جسد تلك الفتاة هو بيت الربّ، وتابوت العهد الجديد، وحلّ جسد المسيح، إلى الأبد، محلّ الهيكل.

يقول الكردينال بيرول (BÉRULLE) ١٥٧٥–١٦٢٩، في هذا الصدد: «حَدَثُ التجسّد تمّ في حقبةٍ من الزمن، لأمدٍ يتخطّى الزمن، ويضرب في أغوار الأبديّة، وتمّ في الناصرة، لا للناصرة، بل للعالم أجمع، تمّ على الأرض، لا للأرض فحسب، بل للأرض والسماء معًا، تمّ بين البشر، ولكنّه لصالح البشر والملائكة واللّه، فقد وُهب اللّه أُمًّا، والملائكة ملكةً، والبشر مخلّصًا».

إنّ المرأة الأولى باستجابتها لإغراء ملاك الظلمات، جرّت ذرّيّتها إلى الشرّ والألم، وأنجبت العصيان والموت. أمّا العذراء مريم فباستجابتها لملاك النور، رسول العليّ، وباستسلامها لمشيئة اللّه، دفعت الخليقة الجديدة الموسومة بطابع ابنها، إلى الخير، والسموّ، والتألّه، على دروب حياةٍ أبديّةٍ.

بِشَـــارَةُ زَكَرِيَّا

دعمًا لصدق بشارته، أنبأ جبرائيل العذراء أنّ نسيبتها إِليصابات الطاعنة في السنّ، حملت حملاً عجيبًا، وهي في شهر حملها السادس.

كانت إِليصابات قد جمعت المجد من طرفَيْه، فهي ابنة كاهنٍ وزوجة كاهنٍ، غير أنّ ما كان يميّزهما، هي وزوجها، أكثر من نبل المحتد، هو البرّ والاستقامة، فقد «**كانا، كلاهما، بارَّيْن أمام الله، سالكَيْن في جميع وصايا الربّ وأحكامه، منزَّهَيْن عن كلّ لوم**» (لوقا ١ : ٦).

كلّ أسباب السعادة كانت متوفّرةً لهما، غير أنّ ما كان ينغّص عليهما حياتهما هو عقم إِليصابات، وحرمانهما من الذرّيّة، فالعقم، عند اليهود، يُعدّ لعنةً. وقد أنفق الزوجان حياتهما، وهما يواجهان، كلّ يومٍ، هذا الواقع المرير، وتخنقهما غصّة الغمّ. وكانا يدلفان إلى اللحد وهما يتجرّعان هذه المرارة المقيمة. وفي كلّ صباحٍ، كانت إِليصابات تدعو، بحرقةٍ، أن يرفع الله عنها عار العقر. أمّا زكريّا، فبعد أن طالت أيّامه، ولم يُلَبَّ ملتمسه، بات يتضرّع مستعجلاً مجيء المخلّص، إلى أن رأى الله أنَّ امتحانه لإيمانهما قد استوفى غرضه، فكافأه بمعجزةٍ تخطّت كلّ توقّعاتهما.

عدد كهنة اليهود كان يربو على عشرين ألفًا، ينقسمون إلى أربعٍ وعشرين فرقةً تتناوب على خدمة الهيكل، ومنها فرقة أبيّا التي ينتمي إليها زكريّا، والتي وقع دور خدمتها في تلك السنة. وفي ذلك الأسبوع كانت القرعة قد أولت زكريّا امتياز تقديم البخور على هيكل العطور، وكانت تلك هي النوبة الأولى والأخيرة التي ينعم فيها بهذا الشرف.

كان البخور يُقدَّم مرَّتين، يوميًّا، مرّةً إثر ضحيّة الصباح، وأُخرى في أعقاب ضحيّة المساء. وكان هذا التقديم ذروة الطقوس اليوميّة. وبتأثُّرٍ بالغٍ، ولج زكريّا المقْدس، بعد أن سبقه إليه، على التوالي، اثنان من زملائه، أوّلهما أزال الرماد

المتبقّي من اليوم السابق، وثانيهما بسط الجمر المعدّ لذلك اليوم. كان يحمل وعاءً ذهبيًّا مملوءًا بخورًا عَطِرًا رشّه فوق الجمر، فعبق الهيكل بدخانٍ زكيّ الرائحة.

وبغتةً رفع عينيه فإذا بملاكٍ واقفٍ إلى يمين المذبح، بجانب الشمعدان الذهبيّ. ظهورٌ سرّب الرهبة إلى نفسه، فتجمّد رعدةً وتجلّةً. فبادر الملاك إلى تهدئة روعه، قائلاً: «**لا تخف، يا زكريّا، فإنّ دُعاءَك قد استجيب. إنّ امرأتك إليصابات ستلِدُ لك ابنًا فتُسمّيه يوحنّا. فيه يكونُ لك فرحٌ عظيمٌ، وبمولده يفرحُ كثيرون. لأنّه سيكون عظيمًا أمام الربّ، لا يشرب خمرًا ولا مُسْكرًا، ويمتلئ من الروح القدس وهو، بَعدُ، في بطن أُمّه. وسيرُدُّ كثيرًا من بني إسرائيل إلى الربّ إلههم، ويسير قُدّامَه بروح إيليّا وقدرته ليُعيد قلوبَ الآباء إلى الأبناء، والعُصاة إلى حكمة الأبرار، فيهيّئ للربّ شعبًا مستعدًّا**».

بشرى الملاك كانت تعني أنّ دعوات زكريّا السابقة الملتمسة ابنًا يُعتقه من لعنة العقم، ودعواته اللاحقة المستعجلة مجيء المخلّص، قد استجيبت كلّها دفعةً واحدةً. استهلّ الملاك كلامه بقوله: «**لا تخف**». وكم سيكرّر يسوع هذا القول، فرسالته ليست تهديدًا وإرهابًا، بل هي «بشرى سعيدةٌ»!

ومع ذلك بدا وعد الملاك لزكريّا أعظم من أن يُصدّق، فهو يتحدّى سُنَن الطبيعة، إذ إنّه وزوجته قد بلغا من العمر عتيًّا، وخشي الكاهن الشيخ أن يكون ضحيّة خيالٍ جامحٍ، فطالب بعلامةٍ تبدّد شكوكه، وتزيح حيرته.

من المحقّق أنّه لم يكن بوسع بشرٍ، سوى الكاهن، ولوج المقدس. وحيالَ كائنٍ سامٍ لا يملك من البشر سوى هيئتهم، ويحدّثه عن تحقيق رغباته الحميمة وتوسّلاته الحارقة، لم يكن عسيرًا على زكريّا أن يتبيّن أنّه في حضرة مرسلٍ من الله. ولطالما بلّغ ملائكةٌ، على امتداد العهد القديم، رسائل سماويّة. ولو استحضر الكاهن تاريخ شعبه لذكر أنّ إبراهيم أنجب إسحق وهو في المئة من العمر، وزوجته سارة في التسعين، وذلك بعملٍ إلهيٍّ. غير أنّ زكريّا ذُهل واضطرب أمام المشهد الفائق، وأمام الرسول الذي أتاه برسالةٍ شخصيّةٍ سيكون لها انعكاسٌ خطيرٌ على البشريّة جمعاء. وربّما حال تواضعه دون مقارنة نفسه بأبي المؤمنين، واستعظم البشرى التي زُفّت إليه، فطالب بما يثبت صحّتها. وبما أنّ الله يقتضي إيمانًا بلا تحفّظٍ، على غرار إيمان إبراهيم ومريم، فقد أعطاه علامةً هي، في آنٍ واحدٍ، عقابٌ على شكّه، ودليلٌ

على عظمة الرسالة السماويّة التي سيُنتدَب لها ابنه، ابن المعجزة. وقد أجابه الملاك: «**أنا جبرائيل الواقف في حضرة الله، وقد أُرسلتُ إليك لأُكلّمك، وأُبلّغك هذه البشرى. وها إنّك ستكون أخرس، لا تستطيع الكلام، إلى اليوم الذي يكون فيه ذلك، لأنّك لم تصدّق كلامي الذي سيتمّ في حينه**» (لوقا١: ١٩– ٢٠).

* *

وكان الشعب، عادةً، يتابع طقس تقريب البخور، برعدةٍ وقلقٍ، من جرّاء اعتقادهم أنّ الله يعبّر عن عدم رضاه بمعاقبة الكاهن. ولذلك كانوا يستعجلون خروجه من المقدس، لكي تطمئنّ قلوبهم إلى مرضاة الله عنهم، وحينئذٍ يصعّدون أناشيد الفرح والشكر.

وفي ذلك اليوم استولى القلق على الحضور، وأخذت بهم الرعدة كلّ مأخذٍ، من جرّاء تلكّؤ زكريّا. ولمّا خرج، أخيرًا، شاحبًا، مرتعدًا، ساهمًا، أدركوا أنّ حدَثًا جَللاً جرى تحت ناظريه. ولمّا حاول إعطاء البركة، جريًا على المألوف، عجزت حنجرته عن إصدار أيّة نأمةٍ. وكان انعقاد لسانه يفصح عن عظمة الرؤيا التي عرضت له. وحتّى لو لم يكن معاقبًا بالبكم، ولو لم يكن لسانه معقودًا، لتعذّر عليه التعبير عمّا لا يحيط به فهمٌ، ولا تفسّره الكلمات.

* *

انزوى زكريّا في منزله، منفّذًا عقاب شكّه، ريثما تتحقّق رسالة الملاك. أمّا إِليصابات، فسرعان ما حملت، ومجّدت الله الذي استجاب، أخيرًا، لدعوتها الحارقة، وحوّل عار عقرها شرفًا سنيًّا. ولكنّها كتمت أمرها تقديرًا لعمل الربّ، وخجلاً من حملها في شيخوختها. غير أنّ الملاك سيفضي بسرّها لنسيبةٍ فتيّةٍ لها، سيكون يوحنّا، ابن إِليصابات، سابقَ ابنها يسوع، وممّهد الطريق له.

وسيكون ظهور الملاك لزكريّا، في الهيكل، الظهور الأخير قبل دمار الهيكل.

بشارة زكريّا وبشارة العذراء مترابطتان، متكاملتان، ومع ذلك متباينتان: فالأولى توحي بالمهابة، إذ إنّ زكريّا كاهنٌ موقّرٌ، وإِليصابات سليلة أُسرةٍ كهنوتيّةٍ عريقةٍ، والولادة التي بُشِّرا بها ستكون موضع احتفال الأهل والجيران، والبلد. والمولود، يوحنّا، ابن المعجزة، سيكون من العظمة بحيث سيمتلئ بالروح القدس، وهو في

بطن أُمّه، وقبل أن ينضمّ، بالختان، إلى الشعب اليهوديّ، وسيتجلّى تكريسه لله، من خلال زهده في كلّ خمرةٍ ومسكرٍ، وكلّ علاقةٍ بشريّةٍ، وسيتّخذ منه الروح القدس أداةً لتمهيد طريق المخلّص.

أمّا البشارة الثانية فهي موجّهةٌ إلى فتاةٍ مغمورةٍ، غارقةٍ في عالم الفقر والتواضع، الذي اختاره الربّ عالَمًا له؛ وهي تبشّر بولادةٍ معجزةٍ ستتمّ في مغارة سائمةٍ، في الفقر والعزلة، لولا ملائكةٌ ينشدون في الجوّ، وبعض رعاةٍ ساهرين في الجوار.

زيـارَةُ مَـرْيَم لإليصـابَات(*)

لم يكن الدافع إلى تلك الزيارة التثبّت من أقوال ملاك الربّ، ولا إشباع فضولٍ أجوف، ولا التباهي بالحظوة الفريدة التي خصّ الله مريم بها. بل كان مجرّدُ إطلاع الملاك لها على حَبَل إليصابات، وهي في شيخوختها، دعوةً إلى الخدمة لم تقوَ على مقاومتها ولا على إرجائها، فخفّت مسرعةً إلى قرية «عين كارم» الجبليّة، القائمة على مسافة بضعة كيلومتراتٍ من أورشليم. ولم يردعها بُعدُ الشوط، ولا وعثاء الطريق.

وقد يكون ثمّة، أيضًا، دافعٌ آخر. فالملاك المبشّر كان قد ألمح إلى علاقاتٍ خاصّةٍ ستنعقد بين الولدَيْن الموعودَيْن، مثلما هي معقودةٌ بين الأُمَّيْن.

دخلت مريم بيت زكريّا، حيث لم تكن مُنتَظَرةً، وحيّت إليصابات؛ وفي الحال أشرقت على المرأتَيْن أنوارٌ إلهيّةٌ خاصّةٌ. كانت إليصابات قد توارت عن عيون الناس، مثلما اختلى زوجها المعاقب بالبكم، ظانّةً أنّ حَبَلها خافٍ عن الجميع. غير أنّ مجيء مريم أضاء كلّ شيءٍ. كانت المرأتان قد أُطلعتا على أسرارٍ علويّةٍ، بيد أنّ أسرارًا أُخرى كانت ما زالت محفوفةً بالظلّ، فكان لقاؤهما فجرًا مباغتًا بسط نوره الساطع على المشهد بأكمله، وعلى مقاصد الله. لقد اتّضح لإليصابات أنّ سرّها قد كُشِف، وفي الآن عينه اكتشفت، هي، سرّ مريم، واعترفت بها أمًّا لإلهها.

كانت تجمعهما أواصر قربى، ولكن، أكثر من القربى، كان يجمعهما اختيار الربّ، وخبرةٌ مشتركةٌ بعمل الروح القدس؛ فإليصابات، هي أيضًا، قد نالت حظوةً، وحملت في شيخوختها، وبلغت شهرها السادس. أمّا مريم فكانت تحمل في أحشائها ربيع البشريّة، وعهد الربّ الجديد، الذي سيغدو كلُّ ما قبله عتيقًا. وكان لقاءٌ بينها وبين آخر ممثّلي العهد القديم.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «أمّان تلتقيان»، صفحة ٣٤ و«مريم وإليصابات»، صفحة ٣٧.

مشهدٌ رائعٌ هو مشهد المرأة المسنّة المغضَّنة، وهي تنحني أمام الشباب المشعّ جلالاً، وطهرًا مطلقًا، وسرًّا إلهيًّا.

ويروي الإنجيليّ لوقا: «**في تلك الأيّام قامت مريم، وانطلقت مسرعةً إلى الجبل، إلى مدينةٍ في يهوذا، ودخلت بيت زخريّا، وسلّمت على إليصابات، فلمّا سمعت إليصابات سلام مريم، ارتكض الجنين في بطنها، وامتلأت من الروح القدس، فصاحت بصوتٍ جهيرٍ وقالت: «مباركةٌ أنت في النساء، ومباركةٌ ثمرة بطنك. من أين لي هذا: أنْ تأتي أُمّ ربّي إليّ؟ فإنّه عندما بلغ سلامك إلى أُذنيّ، ارتكض الجنين من الابتهاج في بطني، فطوبى للّتي آمنت بأنّه سيتمّ ما قيل لها من قِبَل الربّ**».

تحيّة مريم كانت كافيةً لتفجير معجزَتيْن. فما إن طرق صوتُها سمعَ إليصابات حتّى توثّب جنين هذه جذلاً في أحشائها، وحتّى غمر الروح القدس نفسها، وكشف لها عن الحظوة الفريدة التي خُصّت بها عذراء الناصرة. واستولى عليها تأثيرٌ لاهبٌ ما برحنا نتحسّس نبضاته في النشيد اللاهث الذي تدفّق منها.

كلمات أُمٍّ لأمٍّ، أمّ السابق لأمّ المسيح. فبفضل نورٍ إلهيٍّ علمت إليصابات بما جرى بين الملاك ومريم، فاتّضعت، وتخشّعت أمام من جعل الله من جسدها هيكلاً له، مثلما سيتواضع ابنها المعمدان لاحقًا، وسيخشع أمام يسوع ابن الله الحبيب. ولذلك، أيضًا، هنّأت نسيبتها الفتيّة، لأنّها بوركت واختيرت بين النساء كي تصبح أمًّا للربّ. وقد وعت أنّ توثّب جنينها لم يكن من تلك الاختلاجات والتحرّكات الطبيعيّة التي تحدث في أشهر الحمل المتقدّمة، بل كان انتفاضةً علويّةً واعيةً، وتعبيرًا عن ابتهاج من سيكون سابق المسيح، في حضور الكلمة المتجسّد. ولكأنّه هبّ يحيّي معلّمه، توّاقًا إلى مباشرة المهمّة التي وُجد من أجلها، بل لكأنّه كان يتلقّى عماد يسوع له، وهو جنينٌ. أوَ لم يعلن الملاك أنّ ابن إليصابات سيمتلئ بالروح القدس، وهو في أحشاء أمّه؟ وهو جنينٌ حرّك يسوع المعمدان وقدّسه، وكذلك هو، دائمًا، في خفيته، يحرّك الكون ويقدّسه.

إليصابات وحدها كانت كفيلةً بفهم العذراء الأمّ، بعد أَن خَبَرت، في ذاتها، قدرات الله التي تفوق كلّ إدراكٍ.

وبوحي الروح كانت مريم وإليصابات عالمتَيْن بمصير الجنينَيْن اللّذين كانتا تحملانهما،

تحقيقًا لنبوءاتٍ ومواعيد دهريّةٍ. ووحدهما كانتا تؤنسان أنّ ملكوت الله قد شرع يرسّخ أركانه، فيهما وبواسطتهما. لذلك كان جذلهما بمستوى الحدث، يتخطّى، بما لا يُقاس، حتّى حماس أمّهات الأباطرة. وقد عبّرتا عن جذلهما بتحيّة إِليصابات لمريم الخفّاقة بالنبوّة، وبتمجيد مريم لصانع المعجزات، ومحقّق الوعد والعدالة.

ومنذ اللحظات الأولى، كانت الأواصر معقودةً بين يوحنّا الذي سيدعى السابق والمعمدان، ويسوع الذي سيكون المسيح والمخلّص.

مرَّةً أُخرى تنقلب الأدوار، وتعُدّ إِليصاباتُ زوجة كاهنٍ رفيع الشان، متقدّمةٌ في السنّ، شرفًا عظيمًا لها أن تزورها فتاةٌ مغمورةٌ لم تتجاوز الخامسة عشرة. ولا ريب أنّها لمست حضور الله في زائرتها بدليل انتفاض جنينها في بطنها انتفاضًا غريبًا، لدى سماع صوت أُمّ سيّده وسيّدها، ولكأنّ عنصرةً مصغّرةً قد حلّت آنذاك، منبئةً بالعنصرة الكبرى التي ستكون مريم مركزها وأُمّها.

وحلّ الروح القدس آنئذٍ على إِليصابات، فاعترفت، وهي التي نالت حظوةً فائقةً أزالت لعنة العقم التي واكبت حياتها، بأنّ تلك الفتاة الماثلة أمامها قد حباها الربّ بالحُظْوة العظمى، ورفعها، بذلك، فوق نساء الأرض كلّهنّ، في كلّ عهدٍ ومكانٍ، بحيث دعتها «أُمّ ربّي». وكلُّ تكريمٍ، مهما عظُم، لا يفي حقّ من هي «أُمّ الربّ».

وكانت إِليصابات ترى وتلمس عمل الربّ فيها، ذلك العمل العجيب الذي بشّر الملاكُ زوجَها زكريّا به، فلم يصدّقه، وعوقب بالبكم، ريثما يتحقّق وعد الربّ. ولذلك أكبرت في قريبتها الفتيّة البسيطة إيمانها بأنّ ما قيل لها من قِبَل الربّ سيتحقّق، فكانت، بإيمانها، قدوةً لمعلّمي الدين ورؤسائه.

وبالمقابل، امتلأت مريم، أيضًا، بالروح القدس، وأمست قيثارةً حيّةً، فردّت بتسبيحٍ للربّ، في شكل نشيدٍ اتّسم بالسموّ الفائق والبساطة المتناهية، سكبت، من خلاله، فيض قلبها. فالشِّعر هو لغة المشاعر المضطرمة، والآراء السامية، يتفجّر بوحيٍ تلقائيٍّ. وكلّ نفسٍ شاعرةٍ يجعلها الفرح أو الألم تنشد. وكيف لا تنشد العذراء، وقد اختيرت لأعظم امتيازٍ في تاريخ البشر. ولكنّها، في عظمة هذا الاختيار، أمعنت في التواضع والامّحاء، والافتخار بوضاعتها. كانت تستشفّ ما ستحاط به من تكريمٍ وتعظيمٍ، ولكنّها لا ترى، في كلّ ذلك، إلاّ انتصار من حقّق فيها كلّ هذه العظائم.

هذا النشيد الملهم يتخطّى كلّ آفاق الأرض، ويغلق دورة الأزمنة القديمة. وإن كانت بعض عباراته مستوحاةً من العهد القديم، إلاّ أنّه، في جملته، يشدو بموسيقى عهدٍ جديدٍ، وينبض بروح يسوع. إنّه نشيد الأزمنة الجديدة، وأروع صيحة فرحٍ تفجّرت من صدر بشرٍ. نشيدٌ يشعّ جمالاً وقورًا، يحملنا إلى مناخ السلام والنور، والفرح الساجي، والورَع السماويّ الذي كانت تحلّق فيه مريم مذ أصبحت أمًّا للكلمة. وهو تأمّلٌ خاشعٌ تطلق فيه العذراء العنان للمشاعر والانطباعات التي تراكمت في نفسها، وينمّ عن طبيعةٍ ساميةٍ، وذكاءٍ فائقٍ، وشعورٍ دينيٍّ عميق الغور، وتقييمٍ سديدٍ لأحداث التاريخ.

العذراء الصامتة، التي التزمت الصمت حول حملها الإلهيّ، مخاطرةً بارتياب يوسف فيها، والتي ستصمت أمام الصليب، تكلّمت في بيت إليصابات، وكأنّها في انخطافٍ، وقالت، بكلماتٍ شديدة الإيجاز، ما لا يحيط به تعليقٌ. وستظلّ الأجيال تغبطها وتقدّسها:

«تعظّم نفسي الربّ، ويبتهج روحي بالله مخلّصي،
لأنّه نظر إلى حقارة أمَته، فها منذ الآن تُطوّبني جميع الأجيال.
لأنّ القدير صنع بي عظائم، فإنّ اسمه القدّوس،
ورحمته إلى جيلٍ فجيلٍ للذين يتّقونه.
بسط قدرة ساعده، فشتّت ذوي القلوب المتغطرسة بأفكارها.
حطّ الأعزّاء عن عروشهم، ورفع المتواضعين.
غمر الجياع بالخيرات، وأرسل الأغنياء فارغي الأيدي».

تكاد الأناجيل لا تذكر من أقوال العذراء سوى هذا النشيد، الذي، على اقتضابه، يصلُح برنامج حياةٍ، ويوجز، في بساطةٍ متناهيةٍ، تاريخ البشريّة الشامل، بل تاريخ الله في البشريّة، وقصّتها هي مع الله. إنّها تمجّد الربّ وأعماله الناطقة بقدرته، ووفاءَه لخليقته، وتكشف عن سرّ تعامله مع البشر. فهو ما انفكّ ينصر الضعفاء، ويحطّم المتجبّرين، يشبع الجياع، ويبرز فراغ الذين يتباهون بأموالهم وغناهم، جيلاً إثر جيلٍ، رغم أنّ الوجه الظاهر للتاريخ يوحي بأنّ العظماء والأقوياء يتسلّطون، ويتعاقبون، ويصرع أحدهم الآخر كي يتسلّط، مكانه.

إنّها، بعباراتٍ مقتضبةٍ، تلقي الضوء على ذلك السرّ الإلهيّ، لا بل على تلك

السياسة الإلهيّة التي سيُبرز ابنُها معانيها، ويقيمها أساسًا لبشارته وتعليمه، والتي ستبلغ ذروتها في التطويبات التي ستسنّ، للدين والأخلاق، شريعةً جديدةً، تزري بكلّ المفاهيم الرائجة التي تمجّد القوّة والسلطان والثروة، وتنصِّب مكانها الحبّ والرأفة، والزهد، والفقر الطوعيّ.

العذراء، في نشيدها هذا، نبيّةٌ تفوق كلّ الأنبياء، تقرأ الماضي والمستقبل في سطرٍ واحدٍ، وكأنّ نهر التاريخ ينساب، بلحظةٍ، أمام ناظريها، منذ إبراهيم إلى محيط الأبديّة اللانهائيّ.

نشيد العذراء قصيدةٌ سماويّةٌ مجنّحةٌ أوحاها يسوع لأُمّه، وإلاّ أنّى كان لتلك الفتاة الخجول أن تتفوّه بتلك الكلمات التي تشحب إزاءها أقوال الشعراء والحكماء لو لم يكن الربّ يتكلّم من خلالها؟

من نفس مريم الساجية كسماءٍ مشرقةٍ، والعميقة كالبحر، والمختلجة بروح ابنها الثاوي في أحشائها، تصاعد نشيدها تمجيدًا لإله المفارقات المذهلة، الذي يقلب موازين البشر الجائرة، ويعيد الحقّ إلى نصابه، إله الحقارة المعظّمة، والتواضع الممجّد، والكبرياء المعاقبة، والجوع المرتوي، والبحبوحة الجائعة.

وصف مريم لابنها يمكن إيجازه بقول پاسكال: «كلّ العهد القديم سار بخطًى حثيثةٍ نحو المسيح، وكلّ العهد الجديد، والأزمنة الحديثة لن تقوى على مواصلة تصعيدها إلاّ وهي محدّقةٌ إليه».

أمّا عن ذاتها فلا ترى سوى ضعة أمَة الربّ، ولكنّها تتبيّن، أيضًا، أنّ ساعد الله القويّة قد سمت بصغرها الذي وصفته بالحقارة، وأجلسته على عرشٍ، وحقّقت فيه عظائم بحيث باتت تغبطها الأجيال، ولكأنّها تودّ أن تلقّن الجميع أن اتّضعوا، وتلاشوا أمام الله، تَفِضْ عليكم نِعَمه، بلا حسابٍ.

العذراء وحدها، بفضل بساطتها المطلقة، وطهرها، وشفافيّتها التي لا عَكَر فيها، تستطيع أن تتكلّم عن تواضعها بصدقٍ، ومن غير أن يداخل كلامَها أيُّ غرورٍ وعُجْبٍ، كما هي حال البشر عندما يتحدّثون عن تواضعهم. وهي، في عفويّةٍ وبساطةٍ، تقرن تواضعها وتكريم الله لها، فإذ بهما متعانقان متكاملان.

من كان يمكن أن يصدّق هذه النبوءة: في العام الخامس قبل الميلاد، فتاةٌ لم تتخطَّ

الخامسة عشرة، لا مالَ لها ولا مكانة اجتماعيّةً، تعلن بثقةٍ تامّةٍ، أنّ الأجيال ستغبطها؟

أجل، كانت العذراء ترى، مسبّقًا، أيّ تكريمٍ سيحيطها به أبناؤها، وأتباع ابنها، وإخوته، على مدى الأزمان، وفي كلّ أرجاء السماء والأرض، بفضل تواضعها.

فلقد أصبح سلام الملاك وتحيّة إليصابات للعذراء، تنفّس الأرض نحو السماء، الذي لا يهمد ولا ينقطع.

أجل أبناؤك يكرّمونك، يا أُمّنا.

فعلى اسمك تشاد، في كلّ بقعةٍ من الدنيا، الكنائس.

ومشيدةً بك تتصاعد، بكلّ لغةٍ من لغات البشر، أناشيد التسبيح.

وبالسلام عليك يُضبط وقع الزمان، وتصدح، كلّ ساعةٍ، نواقيس العالم، مذكّرةً أنّك الممتلئة نعمةً، والمباركة بين النساء.

وبحلاوة ذكر اسمك، ولتكرار تحيّتك بلا هوادةٍ، تنساب بين ملايين الأنامل، مسابح هي حبلٌ يربط الأرض بالسماء، عليه ترقص الملائكة جذلى بتكريم مليكتهم،

وتتمتم شفاهٌ لا تُحصى سلامًا ينسكب في القلوب، وفرحةً تشعّ في الصدور.

وقلوب أبنائك تطفر طربًا كلّما سمعت وشاهدت آيات تكريمك.

* *

«**مكثت مريم عند إليصابات نحو ثلاثة أشهر، ثمّ عادت إلى بيتها**». تلك كانت أشهرُ حمل إليصابات الأخيرة، وكانت شاقّةً عليها من جرّاء شيخوختها، فنهضت عنها مريم بأعباء منزلها. ومع أنّ مريم كانت، حينذاك، قد حملت لتوّها خالقها، وباتت، باعتراف إليصابات، عظمى نساء الدنيا، إلاّ أنّها لم تأنف من خدمة قريبتها، والاضطلاع، عنها، بأوضع المهامّ.

ويمكننا تخيّل الأحاديث العابقة بالله، المقيم في كلٍّ منهما، التي نسجت تلك الأشهر الثلاثة.

وِلادَةُ يُوحَنّـَا

أَزفت ساعة ولادة إِليصابات، فوضعت ابنًا، وقد أثارت ولادته دهشةً وضجَّةً في «عين كارم» والقرى المجاورة، وبين كلّ معارف الزوجين الشيخين المسنّين؛ فقد كانت إصبع اللّه متجلّيةً بوضوحٍ في ذلك الحدَث المعجز.

وفي اليوم الثامن، أقيم حفلٌ بهيجٌ بمناسبة ختان الصبيّ، وتسميته. وإذ لم يكن للأقرباء والجيران علمٌ بتفاصيل ما حدَث في الهيكل بين زكريّا وملاك الربّ، اقترح جميعهم أن يُطلَق على الوليد اسم جدّه، أو، أقلّه واستثناءً، اسم أَبيه الذي يكاد يكون لـه جدًّا. ولكنّ أمّه التي أصمّت أذنيها عن التقاليد، ولم تصغِ إلاّ إلى همس قلبها، وإيمانها، ووحي ربّها، اعترضت، مصرَّةً على أن يسمّى «يوحنّا» أي عطيّة اللّه. واستهجن الجميع إصرارها، إذ لم يكن في أسرتها وأسرة زوجها من يحمل هذا الاسم. واحتكموا إلى أبيه فطلب لوحًا وكتب عليه: «اسمه يوحنّا». فبلغت الدهشة ذروتها. وحينئذٍ، فقط، انحلّت عقدة لسان زكريّا، الذي أماط اللثام عن سرّ ظهور الملاك له في الهيكل.

«فوقع الخوف على جميع أهل الجوار، وتحدّث الناس بكلّ هذه الأمور في جميع مرتفعات اليهوديّة، وكان كلّ من سمع بذلك، يحفظه في قلبه، ويقول: «ما عسى أن يكون هذا الصبيّ؟»».

وتكلّم الروح بلسان زكريّا ممجّدًا اللّه ومذكّرًا بأمره الأصيل أي عبادته بلا خوفٍ، والسير أمامه في التقوى والبرّ جميع أيّام الحياة. لم يكن اللّه الذي مجّده زكريّا، يهوه الذي كان يزرع، أينما ذهب، الرعب والموت، بل إله الرحمة الذي يُشرق على العالم نورًا مباركًا.

وقد ألمح إلى أنّ الخلاص بالمسيح لن يكون تحريرًا سياسيًّا من ربقة روما وسطوتها، بل انتصارًا على أعداء الإنسان الداخليّ، في غفران الخطايا، والمصالحة مع اللّه.

زكريّا بن أبيّا، وإليصابات سليلة هارون، كانا زهرة سلالة الملكوت اليهوديّ، وابنهما سيُعلن كهنوتًا جديدًا.

نَفَسٌ جديدٌ شرع يختلج في صدر البشريّة، ممثّلةً في زكريّا الذي أَشرق على نفسه نور يسوع، حتّى قبل ولادته. واستشفّ مصير ابنه وابن مريم، فالتفت إلى وليده وقال (لوقا ١: ٧٦ – ٧٩) «**وأنت، أيُّها الصبيّ، فإنّك نبيَّ العليّ تُدعى لأنّك تَسبقُ قدّامَ وجهِ الربّ لتُعدّ طُرقَه، ولتُؤتيَ شعبه عِلْمَ الخلاص بمغفرة الخطايا، برحمة أحشاء إلهنا التي اجْتلَبتْ لنا من فوقُ افتقاد الكوكب الشارق، ليُضيءَ لنا، نحنُ الجالسين في الظُلمة وظلّ الموت، ويهْدي أقدامنا في طريق السلام**».

لم يطُلْ الألَق الذي أحاق بمهد يوحنّا، فقد تولّى الروح تثقيفه في صمت الصحراء. لقد كان ذلك الطفل مدعوًّا إلى مصيرٍ خطيرٍ. وقد حطّت يد الله على كتفه، ونأت به عن كلّ ما ينسج حياةً بشريّةً عاديّةً، وجعلت الصحراء مسكنه. فأقام فيها، معزولاً عن الجميع، متقشّفًا، وكلّ نفسه مشدودةٌ صوب الإرادة الإلهيّة. إنّه من فئة أولئك الذين يمتلكهم الروح، ويسمو بهم إلى ذرًى تبعث على الدوار، وينيرهم علمٌ يصعب فهمه؛ يتمتّعون بنشاطٍ منيعٍ، ولكنّهم قد يهبطون إلى لجّة الظلمة والعجز. إنّهم أعظم من عامّة البشر بلا قياسٍ، ولكنّهم قد يتعرّضون لإهاناتٍ بلا قياسٍ. لا يمتلكون لأنفسهم شيئًا، وهم عبيدٌ لمن يقودهم. ولا مبرّر لوجودهم سوى مشاركة الله قيادة العالم.

يوحنّا من نمط هؤلاء، ولكنّه أقربهم إلى الحدث الذي طال انتظاره، وبات على وشك التفجّر. وكانت مهمّته أن يشير إلى يسوع قائلاً: «هذا هو حَمَل الله»، هذا هو المسيح الذي انتظرته الأجيال.

لقد ظهر السابق، وبات مجيء المخلّص وشيكًا.

وَأخَذَ يُوسُفُ مَريَمَ إلى بَيتِهِ (*)

خفق قلب العذراء، عندما انتهت إلى مشارف الناصرة. فقد ودّعت الأيّام الهنيئة، الساكنة، العابقة بحضور الله، في بيت زكريّا، وآن لها أن تواجه أزماتٍ عصيبةً، وأقاويل الناس، وخاصّةً ريبة خطيبها، الذي سرعان ما خنقت فرحتَه بعودتها رؤيتُه لأعراض حملها المستهجن. وقد ضاعف حيرتَه الخانقة اعتصامُ مريم بصمتٍ كتيمٍ، خَفَرًا، وإكبارًا لعمل الربّ، وإدراكًا منها لتعذّر تصديق حملها الإلهيّ، على أيّ إنسانٍ عاقلٍ.

السرّ المعجز الذي تحقّق في أحشاء مريم كان من السموّ والعظمة، بحيث يتعذّر على الكلام البشريّ أن يحيط به، من غير أن يوهنه. ولذلك آثرت مريم عدم البوح به، حرصًا على قدسيّته، مع إدراكها لما قد يعرّضها له صمتها من شكوكٍ موجعةٍ في نصاعة سلوكها. بيد أنّها مذ أعلنت: «**أنا أمَة الربّ**»، استسلمت للربّ بكلّيّتها، وأوكلت إليه مقاليد حياتها.

لا ريب أنّها كانت تتألّم لحيرة يوسف، ولكنّ نفسها كانت ساجيةً، تسكنها الثقة بأنّ الربّ الذي أجرى فيها معجزته، كفيلٌ بإنارة قلبه، وتهدئة روعه، وإطلاعه على السرّ الذي لا بدّ من إشراكه به.

وانقلبت نفس يوسف حلبة صدامٍ محتدمٍ: فهو يحبّ مريم حبًّا جمًّا، وهو، في قرارة نفسه، موقنٌ بطهرها وببراءتها. ولكنّ الواقع الماثل يفقأ العين، ويلقي القلب في بحرانٍ من الحيرة. وصَمْتُ مريم يغلّف كلّ ذلك بظلالٍ كثيفةٍ.

لقد اختلطت أمامه المسالك، وتضاربت الحلول. ونشب صراعٌ ممضٌّ بين وجدانه وقلبه. فقلبه يأبى أن تُمسّ العذراء بأذًى، ولكنّ الشرع يفرض عليه ألاّ يُدخل إلى

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «سرّ مريم وسرّ يوسف»، صفحة ٣٨.

بيت داود ابنًا غير معروف الوالد يطلق عليه اسمه؛ وإن هو طلّق مريم لأثبت عليها جرم الزنى، وعرّضها للعار ولعقوبة الرجم، ولتحمّل وزرها لأنّه لم يكن واثقًا من جرمها؛ وإن هو ضمّها إلى أسرته، قبل التثبّت من مصدر حملها، لكان بمثابة المتواطئ المتستّر على جرمٍ.

وانتهى به الصراع إلى قرار هجرها سرًّا. ولكنّ ذلك كان سيجعل من العذراء أمًّا بلا رجلٍ، ومن يسوع ابنًا بلا أبٍ. وازدادت استغاثته بالربّ لجاجةً.

وبادر الربّ إلى حلّ تلك العقدة المستعصية بما يضمن ليوسف الطمأنينة، ويصون شرف العذراء، ويُكسب ابن الله مربّيًا، وأبًا شرعيًّا في المجتمع.

وإذا بالملاك الذي بشّر العذراء يتراءى ليوسف في الحلم قائلاً: «**يا يوسف، ابن داود، لا تخفْ أن تأخذ إليك مريم، زوجتك: فإنّ المولود فيها إنّما هو من الروح القدس. وستلد ابنًا فتسمّيه يسوع لأنّه هو الذي يخلّص شعبه من خطاياهم**» (متّى ١: ٢٠-٢١).

تبدّدت سُحُب الحيرة من نفس يوسف، وشاع محلّها نورٌ عذبٌ. وحينئذٍ تذكّر قول النبيّ: «**ها إنّ العذراء تلد ابنًا، يدعى اسمه عمّانوئيل**»، وأدرك أنّ حبل العذراء لم يكن إخصابًا بشريًّا، بل خلقًا إلهيًّا، خلق جسدٍ سيرتديه ابن الله. وعظّم يوسف الشرف الفذّ الذي أوليه بأن يكون للعذراء الحارس والرفيق، ولابن الله المربّي العطوف. وقد كُلّف بتسميته، والتسمية كانت تعدّ ولادةً ثانيةً. والله نفسه لقّنه الاسم الذي سيطلقه على ابنه الخاصّ، الذي سيكون يوسف أباه الشرعيّ أمام الناس.

وفي الحال احتفلت الناصرة بعرس يوسف ومريم، الذي أسبغ عليه النجّار من البهجة والكرم ما أتاحت له موارده الوضيعة. وجاءت مريم إلى بيته، زوجةً رقيقةً كان فخورًا بها، ولكنّه كان يعلم أنّها تخصّ الله وحده. عاشا كالإخوة، ولم «يعرفها»، وكان سعيدًا بدوره حارسًا لسرّيْن مقدّسَيْن: عفّة مريم ونذر بتوليّتها، وطفولة الله الذي سيولد منها.

وهكذا تهيّأ ليسوع أن يولد في أحضان أُسرةٍ متحابّةٍ، لا من أمٍّ عزباء يُنظر إليها شزرًا، ولا من أبٍ غائبٍ لا مبالٍ. وكان ليوسف في تلك الأُسرة دورٌ جوهريٌّ، شرعيًّا ونفسيًّا، وأدبيًّا، وتربويًّا. فدور الأب بالتبنّي دورٌ أساسيٌّ خطيرٌ، إن هو

اضطلع، اختياريًّا، بواجبات غالبًا ما يحجم عنها الآباء البيولوجيّون. وقد أحاط مريم بعنايةٍ يقظةٍ، وحنانٍ عذبٍ، وكان لها رفيقًا رائعًا، يجلّ اللّه القاطنَ فيها.

إنّ ذاك الذي رأى فيه أهل الناصرة أبًا ليسوع، سيظلّ نموذجًا للتجرّد والتضحية، والإخلاص، وسيقترن، أبدًا، اسمه بالاسميْن اللّذيْن يحظيان بأعظم حبٍّ على الأرض.

كلُّ شيءٍ، إذن، انتهى نهايةً سويّةً متناغمةً. ولكنّ مشاكل أُخرى كثيرةً كانت تترصّد الأُسرة، يومًا فيومًا، وليس أقلّها خبث تعليقات الجارات، اللواتي كنّ يتهامسنَ، على مسمع مريم، أنّ تقدُّم حملها لا يتناسب وتاريخ عرسها. وكانت مريم أكبر من أن تردّ على تلك الترّهات.

وحينئذٍ صدر أمرُ قيصر بإحصاء المسكونة كلّها، فنأت الأسرة الفتيّة عن جوّ النميمة والتهامس.

في الطَّريقِ إلى بَيتَ لحْم (*)

دروب الربّ مدهشةٌ في تعقيدها وبساطتها. فقد استخدم أمرَ إمبراطورٍ وثنيٍّ كي يستقدم مريم ويوسف إلى بيت لحم، ويقحم ولادة يسوع في إطار تاريخ العالم الشامل. فقد كان أمر قيصر يقضي بأن يُكتتب كلّ مواطنٍ في مدينة أجداده، وتعيّن على يوسف أن يشخص إلى بيت لحمٍ، مدينة داود. لم تكن مريم ملزمةً بمرافقته، ولكنّ يوسف لم يطق أن يتركها وحيدةً وهي في عشيّة وضعها. وربّما دفعهما كليهما إلهامٌ إلهيٌّ كي تتحقّق النبوءات المتعلّقة بولادة المسيح.

الشُقّة بين الناصرة وبيت لحم تبلغ نحو مئةٍ وأربعين كيلومترًا، ويستلزم اجتيازها بين ثلاثة وأربعة أيّامٍ. والطريق وعرةٌ، إذ لم يكن قد تسنّى، بعدُ، للسلطات الرومانيّة تعبيدها، ولم يكن بوسع الزوجَيْن الفقيرين استئجار عربة نقلٍ تسهّل عليهما المشوار، فاستعانا بحمارٍ حمّلاه الضروريّ من المتاع، وصُرَّةً غاليةً جمعا فيها أقمطة الطفل الذي لن يلبث أن يرى النور، والثياب التي حاكتها له أمّه بحبٍّ يحاكي العبادة.

أقلّ من ستّة أشهرٍ كانت قد انقضت مذ جاء يوسف بمريم إلى بيته المتواضع، الذي نسّقته بشغَفٍ، وأشاعت فيه حبّها ولمسة ذوقها المرهف. وها هي ذي تبارحه، بغتةً، كي تضرب على دروب المجهول.

كانت العذراء تسير الهوينا، فإذا ما أعياها التعب، اعتلت متن الحمار، ولكنّها، من جرّاء حملها، كانت تصيب من الضيق أكثر ممّا تصيب من الراحة. غير أنّ الخواطر السامية التي كانت تواكب مريم ويوسف خفّفت من وطأة وعثاء السفر.

فقد كان الحدَث الجمّ الذي يجمعهما، ويوحّدهما بوثاق الثقة بالله القاطن بينهما، وبإرادة خدمته التي كرّسا لها حياتهما، يهيمن على كيانهما. فالعذراء قد بُشِّرت بأنّ الجنين الذي تحمله في أحشائها هو «ابن العليّ» و«ابن الله» و«الربّ». ويوسف أُوحي

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «بيت لحم»، صفحة ٤٠.

إليه أنّ الوليد الذي انتُدب لتبنّيه ورعايته سيكون «المخلّص»، و«عمّانوئيل». هذه الخواطر المنيرة كانت لهما عونًا على احتمال المشاقّ الصغيرة التي يواجهانها في كلّ لحظةٍ.

السماء كانت ترنو إليهما بعطفٍ، فقد كانا يحملان أقدس وأنبل ما في الوجود. وكان سرٌّ إلهيٌّ يسير معهما من الناصرة إلى بيت لحم. وكان الجنين الإلهيّ يشعر بالصدمات التي توجع أمّه، وقد شرع، قبل أن يطأ أرض البشر، يخوض خبرة الوهن والألم. الخالق الذي به كان كلّ شيءٍ، استسلم لجسد أمّه كي تكمل صنع جسده البشريّ، فغدا القدير ضعفًا، وصار الكلمة صمتًا. كان ابن اللّه يحيا كلّ تلك الاختبارات تضامنًا مع البشر الذين جاءهم مخلّصًا، وكانت أمّه تعاني، في جسدها، مضايقاتٍ متواترةً، على طريقٍ لا تبدو لها نهايةٌ.

وكان المسافران الفقيران، الغنيّان باللّه، يشعران أنّ كلّ خطوةٍ يخطوانها تدنيهما من المستقبل الذي وُعدا به. كانا يتوغّلان في المجهول، وينهجان ارتجالاً. ولكنّ سلامًا عميقًا كان يسود نفسيهما، إذ كانا يُعِدّان مصير ابن اللّه المتجسّد.

وأخيرًا لاحت مدينة داود، بيت لحم، أي «بيت الخبز»، للدلالة على خصبها. وفيها سيولد خبز السماء لحياة الأرض.

وِلاَدَةُ يسـُـوع (*)

الجدَل لا يزال قائمًا حول تحديد موعد مولد يسوع بدقّةٍ. فتاريخ الخامس والعشرين من كانون الأوّل قد اعتُمد في مطلع القرن الرابع رغبةً في «تعميد» عيد الشمس التي لا تُغلب (sol invictus) الوثنيّ، وفي إضفاء صبغةٍ مسيحيّةٍ عليه. فالشمس ترمز إلى ولادةٍ جديدةٍ، والولادة قد تمّت في حوالي منتصف الليل، حين يكون الفجر وعدًا يتأرجح بين ما كان في الأمس، وما سيكون في الغد. ولكن من المرجّح، كما يُستَدلّ من وجود الرعاة ساهرين في العراء، أنّ الولادة تمّت في الربيع، وفي شهر نيسان، كما يُرجَّح أنّ تاريخ الولادة هو العام الخامس، قبل بدء التقويم الميلاديّ.

وربّما توافق أمر الاكتتاب مع موعد عيد الفصح الذي يجتذب إلى أورشليم وضواحيها ألوف الحجّاج. وهذا يفسّر ازدحام البيوت، والخانات، حيث الحُجَر الخاصّة تكرى للموسرين بأجورٍ فاحشةٍ، في حين يطّرح عامّة الشعب على حضيض الفناء، كيفما اتّفق، في اختلاطٍ لزيزٍ، وفوضى عارمةٍ، إلى جانب الرواحل والبهائم.

وليست مثل هذه الأماكن هي التي تليق بامرأةٍ على وشك وضعٍ. وقول الإنجيليّ إنّه لم يكن لهما موضعٌ في النزل، يعني أنّه لم يكن، ثمّة، موضعٌ يوفّر الخلوة اللائقة بامرأةٍ في مثل وضع مريم.

أبوابٌ كثيرةٌ طرقها يوسف، ووراء كلّ بابٍ يُفتح كان من يقول: «ليس لكما هنا موضعٌ». لازمةٌ تردّدت على مسامعهما في بيوت المعارف، وفي النزل، وفي الخان. ومن بابٍ إلى بابٍ انتهى يوسف ومريم إلى ضاحية المدينة حيث حُفرت في سفوح الهضاب كهوفٌ يفزع إليها الرعاة اتّقاءً للبرد والعواصف، ويزربون فيها مواشيهم.

(*) راجع **كتاب يسوع في إنجيله**: الميلاد – أقوال في الميلاد – المغارة – الولادة في الله – وصار الله طفلاً، صفحة ٤٢حتّى صفحة ٥٠.

وفي أحد تلك الكهوف، بعيدًا عن البشر، وُلد مخلّصهم، في العتمة والبرد. وقد حقّ لـه، أكثر من أيّ وليدٍ آخر، أن يبكي وهو يهبط أرضهم.

يمكن تصوّر قلق يوسف واضطرابه، فهو لم يتوقّع صدودًا بمثل هذه القسوة. أمّا مريم فلم يكن أيّ قلقٍ قادرًا على النفاذ إلى نفسها، وهي تحمل منظّم الكون. كانت تحمل كنز الوجود، ولا تعبأ بأيّ شيءٍ آخر. ولم يخطر، قطّ، ببالها أن تغبط أو أن تحسد الأمّهات الثريّات اللاّئي يضعن أبناءهنّ في جوٍّ من الترف والبذخ. عذابها كان يضجّ بفرحٍ مزدوجٍ: دخولها في مهمّة الخلاص قبل أن يباشرها ابنها، وسبقها إلى حمل الصليب، بحملها من سيُسمّر عليه.

لقد جابت شوارع بيت لحم وضواحيها، بلا قلقٍ ولا خشيةٍ، مستسلمةً لمشيئة الله الذي يسكب، في نفسها سكينته، قطرةً قطرةً. هي وهبت يسوع دمها وخفقات قلبها، وهو أغدق عليها النور، والقوّة، والحبّ، والصبر، وذلك السلام العميق الغور، الذي يمتلكه من يمتلك الله.

لم يكن يليق بمن يتعدّى الكون رحابةً أن ينحصر في مسكنٍ بشريٍّ، وأن يولد في إطار غنانا الباطل. إنّه يسمو فوق ثرواتنا وممتلكاتنا بازدرائها، ويعبّر عن عظمته باختياره ما ندعوه بؤسًا. من هو زهرة الدنيا أبى أن يتفتّح في حديقةٍ مصطنعةٍ من صنع البشر، وآثر الطبيعة التي أبدعها أبوه السماويّ. وهكذا كان في متناول الجميع، ولا سيّما البسطاء الوضيعين الذين اختار التمثّل بهم.

حتّى قبل مولده، رفض العالم فسح مكانٍ «لائقٍ» ليسوع، في ما بين البشر، فتنازلت له البهائم عن مذودها.

لم تحتج مريم إلى مساعدةٍ، لأنّها لم تعانِ آلام المخاض والوضع، بل انبثق منها يسوع مثل ومضة نورٍ، مثل شعاع شمسٍ يخترق الزجاج، وقد دهشت لرؤيته، بغتةً، بين يديها. مثلما كان حَبَلها به معجزًا، كانت ولادته معجزةً. حملته وهي عذراء، وظلّت عذراء بعد وضعه. وهكذا وُلد «**النور الحقّ الذي، بمجيئه إلى العالم، ينير كلّ إنسانٍ**». تلك المغارة التي لم يلجها النور يومًا، وُلدت فيها الشمس دفعةً واحدةً. «**وصار الكلمة جسدًا، وأقام بيننا**».

وقمّطت العذراء وليدها الإلهيّ، وأرضعته، برقّةٍ وحبٍّ، وأضجعته فوق طبقةٍ من القشّ الجافّ في معلفٍ للبهائم، كان هو الأثاث الوحيد الذي توفّر لابن الله.

من يستطيع وصف لحظة مولد يسوع عندما حطّ الطفل الإلهيّ، للمرَّة الأولى، نظره على وجه أمّه؟ ومن يستطيع وصف فرحه واحترامه عندما استقرّت أنظاره على يوسف، الرجل الذي اختير لكي يدعى أباه، والذي سيستحقّ هذا المجد، وحظوة العيش في حميميّته؟ يسوع، ومريم، ويوسف: ثلاث خلائق، الخالق إحداها. ثلاثةٌ، ولكنّ الحبّ يجمعهم في وحدةٍ رائعةٍ، وعبادةٍ واحدةٍ، ويصوغ منهم ثالوثًا أرضيًّا فذًّا.

يقول الإنجيليّ لوقا إنّ العذراء «**ولدت ابنها البكر**»، أي الذي لم تلد قبله أحدًا، سواءٌ ولدت من بعده أو لم تلد. والتأكيد على لفظة «البكر» ناجمٌ عن الواجبات الشرعيّة المترتّبة على كلّ مولودٍ ذكرٍ بكرٍ. لا تعارض، إذن، بين الابن البكر والابن الوحيد. وإنّما ذكر لوقا «البكر» تمهيدًا لتقدمته إلى الهيكل.

كان الملاك قد بشّر العذراء بأنّ يسوع سيرث عرش أبيه داود، ولكنّ ولادته أنبأت بأنّه ملكٌ من نمطٍ فريدٍ. فقاعته الملكيّة زريبةٌ، وعرشه مذودٌ، وزخارف قبّة عرشه خيوط عنكبوتٍ متدلّيةٌ من سقف المغارة، وغمام بخوره نفثات الروث، ولهاث حمارٍ وثورٍ، وبلاطه زوجان بلا مأوًى. ولكنّ وارثي عرش داود كانوا يتميّزون بصفاتٍ فريدةٍ تجهلها الممالك. فأحدهم يمثّل الطهارة المطلقة، والآخر يمثّل الفقر المدقع، وجميعهم يمثّلون التواضع والبراءة. وعلى بُعد تسعة كيلومترات، كان يتألّق قصر هيرودُس الكبير، حيث الطهر كلمةٌ خاويةٌ من المعنى، والفقر أمرٌ بغيضٌ، أمّا التواضع والبراءة فيتجلّيان في قتل الأبناء والأقرباء، وفي الزنى، وسِفاح القربى، واللواط.

الزريبة، إذن، كانت قصر «ابن الله الوحيد»، والمعلف كان عرش «بكر الله»، وأمامه سجدت أُمّه العذراء خاشعةً متعبّدةً، وعلى غرارها تسجد أجيال المسيحيّين، خاشعةً، شاكرةً، جذلى، متأمّلةً تواضع الله الذي يفوق الإدراك.

ولادة ابن الله في زريبةٍ صدمت كثيرين، في حين رأى فيها آخرون بصمة ابن الله، الذي داس بقدميه عظمة البشر الجوفاء الزائلة، التي لا تليق به وبأتباعه.

ذلك الحدث المعجز تحقّق في عتمة الليل، والناس مستسلمون للسبات، ولم يكن

عليه شاهدًا سوى مريم ويوسف، والسماء وملائكتها. ولم تلحظه بيت لحم التي ستستمدّ منه مجدًا يتخطّى، بلا قياسٍ، المجد الذي أولاها إيّاه داود نفسه.

وتولّى الملائكة إعلان البشرى، وكان أوّل من حظي بتلقّيها أبسط الناس، وأفقرهم: الرعاة الساهرون على قطعان أسيادهم، الذين أضاء ليلَهم نورٌ باهرٌ مباغتٌ. «**وإذ بملاك الربّ قد وقف بهم، ومجد الربّ أشرق عليهم، فاستولى عليهم خوفٌ شديدٌ**». ارتعدوا فَرَقًا وتجلّةً، ولكنّ الملاك دعاهم إلى انتباذ الخوف: «**لا تخافوا، فها أنا أُبشّركم بفرحٍ عظيمٍ يكون للشعب كلّه. فاليوم، في مدينة داود، وُلد لكم مخلّصٌ، وهو المسيح الربّ. والعلامة لكم أنّكم تجدون طفلاً في قُمطٍ، مضجعًا في مذودٍ**».

لطالما أنفذ الله لشعبه منقذين، ولكن كانت تلك هي المرّة الوحيدة التي يرسل لخلاصهم «المسيح الربّ»، والعلامة التي تمكّنهم من تعرّفه هي أنّهم سيجدون «المسيح الربّ» مضجعًا في مذودٍ! يا للمفارقة السامية، المذهلة!

اليهود توقّعوا مسيحًا يولد من بشرٍ، ويتبنّاه الله، فإذا بيسوع يولد من الله ويتبنّاه بشرٌ.

وما إن فرغ الملاك من بشارته حتّى انضمّت إليه طغماتٌ من الملائكة راحت تنشد فرح السماء، ورجاء البشر: «**المجد لله في العلى، وعلى الأرض السلام للناس الذين بهم المسرّة**». هذا النشيد اختزل مغزى التجسّد: تمجيد الله، وإشاعة السلام في صدورٍ عمرت بمسرّته، وفي قلوبٍ صفَت سرائرها. لا «السلام الرومانيّ» المدعّم بالقمع وبقوّة السلاح، بل سلام من ينعمون بلطف الله، لأنّهم استأهلوه بأفعالهم، وسعادة من صنعوا السلام، فحقّت لهم «الطوبى».

* *

في تلك الليلة غدت بيت لحم مركز العالم، الذي عليه يدور الكون كلّه. وكان الرعاة أوائل المدعوّين، وأوائل القادمين، قبل الملوك، وقبل الجموع. داود الراعي أصبح ملكًا، وأضحى الملك راعيًا، مرشدًا. ورعاة بيت لحم جاؤوا يقدّمون التكريم لمن سيكون «الراعي الصالح»، الذي سيرعى قطيع الربّ، في الإيمان، والعدل، وسيبذل ذاته عن خرافه.

كان اليهود المترمّتون يزدرون الرعاة، لأنّهم يعيشون رُحّلاً، متوحّشين، بعيدين عن الهيكل والمجمع، غير ملتزمين بالممارسات والفرائض الشرعيّة، ولأنّهم، من جرّاء ضربهم في الفيافي، وافتقارهم إلى مصادر المياه، قلّما ينفّذون فرائض التطهّر. ومن ثمّ كان المتديّنون يقاطعونهم، ولا يقبلون لهم شهادةً، ويرون فيهم أسوأ نماذج «شعب الأرض» المحتقَر. ولكن في تلك الأجساد القاسية، كانت تثوي نفوسٌ مستقيمةٌ، وتخفق قلوبٌ طاهرةٌ.

وما إن سكن رَوْع الرعاة حتّى خفّوا إلى مغارة بيت لحم، حيث طالعهم مشهدٌ عَجَبٌ: طفلٌ كالملاك ثاوٍ في معلفٍ، ولكنّ والديه يغمرانه بعطفٍ لا يوصف. أليست تلك هي العلامة التي تنهض مصداقًا على بشارة الملائكة؟

لقد أدركوا، في بساطتهم، أنّ المسيح الموعود، الذي طالما ذكروه في سمَر لياليهم الطويلة، قد وُلد، وأثلج صدرهم أنّه وُلد في محيطهم الوضيع، في مغارةٍ من المغاور التي غالبًا ما يفيئون إلى مثلها. لقد خفّوا لرؤيته، بلا وَجَلٍ، كما يخفّون للتهنئة بولادة طفل أحد زملائهم. وأطلعوا مريم ويوسف على بشرى الملائكة. لقد رأوا، ومجّدوا عظمة الله وعطفه، اللّذيْن تجلّيا في هذه الولادة، وعادوا يخبرون بما رأوا، فكانوا طليعة المبشّرين بمجيء المخلّص.

آمن الرعاة، فوجدها قلوبٌ طيّبةٌ صادقةٌ كفيلةٌ بتصديق ولادة المسيح المنتظر، في أقسى مظاهر البؤس، والفقر، والتواضع. انفتحت قلوبهم لبشارة الملائكة، وآذانهم لنشيدهم، وعيونهم لأنوار السماء. فالنفوس البسيطة، التي ينيرها الله، تتمتّع بنظرٍ ثاقبٍ، وتستشفّ، عفويًّا، ما يعجز العلماء، بكلّ فلسفاتهم، عن إدراكه. فالإيمان، وحده، يرى الله، ويتبيّن مراميه؛ أمّا العقل المُعجَب بذاته فيناقشها من علٍ، فتفلت من قبضته، وتعميه، لأنّه يبتغي ليّها لرغباته، وحشرها في صِيَغه الضنكة، فيشوّهها أو ينكرها.

وكانت مريم تحتفظ، في قلبها، بكلّ ما ترى وتسمع، جاعلةً منه كنزًا غاليًا تحرص عليه، وكتابًا داخليًّا لا تملّ من مطالعته بشغَف. وكم تأمّلت، بدهشةٍ ووَلَهٍ، عيني وليدها وقسمات محيّاه التي كانت مرآةً لعينيها ومحيّاها. وكم أصغت، بذهولٍ، إلى نَفَسه الرقيق الذي كان يذكّرها بالروح الإلهيّ الذي زرعه في أحشائها.

مع ما واكب وضعها من فقرٍ وحرمانٍ، كانت نفس مريم تسبح في جوٍّ من الفرح الساجي العميق. لقد كانت سعيدةً في فقرها، تلك التي أنشدت:

«**تعظّم نفسي الربّ، وتبتهج روحي بالله مخلّصي، لأنّه نَظَر إلى حقارة أَمَته... بسط قدرة ساعده، فشتّت المتغطرسين بأفكار قلوبهم، حطّ الأعزّاء عن عروشهم، ورفع المتواضعين. أفاض على الجياع الشبع، وصرف الأغنياء فارغين...**».

كانت مريم تتوغّل في فهم سرّ الغبطة في الفقر، كلّما ضمّت وليدها إلى صدرها، وغذّته بلبنها، وأمعنت اتّحادًا به، اتّحادًا عذبًا، وثيقًا.

وقد روى لوقا حَدَث أعظم ولادةٍ في تاريخ الكون، ببساطة من يروي ولادة أفقر أبناء الشعب، بساطةٍ تليق بالله. ورسم لوحةً أخّاذةً لنفس العذراء، توحي بما كان يعتمل في فكرها. فقد كانت تودع ذاكرتها كلّ ما تشهده وتسمعه عن ابنها الإلهيّ، ثمّ تقارن كلّ تلك العناصر، كي تستبين، من خلالها، مخطّط الآب. لم تكن تغفل شيئًا ممّا يخصّ يسوع، بل كانت تؤلّف، من ذكريات أُمومتها، كنزًا ثمينًا، ستبوح بسرّه للوقا، كي تغني به البشريّة. ولكنّها، أمام المذود، كانت ما برحت صامتةً، دهشةً، حيال معجزاتٍ تفوق كلّ تخيّلٍ. وكان فمها في مثل طهر قلبها. وعندما كانت تضمّ وليدها بين ذراعيها، كانت تمسك السماء بأسرها، وتشهد كلّ سناها(*).

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

مولد البشر انتقالٌ من لا وجودٍ إلى وجودٍ. ولكنّ يسوع، قبل أن يولد، كان له وجودٌ أزليٌّ. وقد انتقل من أبديّةٍ إلى أبديّةٍ. لم يغرق في لجّة الزمن، بل أقحم الزمن في أزليّته. ولادته هي تجلّي عذوبة بسمة الله في عالمنا المدلهمّ البائس.

أمّه انتظرت ولادته تسعة أشهرٍ، ولكنّ مئات الأجيال، انتظرته آلاف السنين، ولن يكون لتاريخه نهايةٌ.

وُلد بشرًا، ولكنّه لم يولد كسائر البشر، فقد وُلِد من امرأةٍ، ومن روح الله. ولكنّه تبنّى، بصدقٍ، الوضع البشريّ، بكلّ ضعفه وحدوده. وخَبَر، هو الكلّيّ القدرة، وهن الأعضاء، والاعتماد على أمّه في طعامه، ولبسه، ونموّه، مثل أيّ طفلٍ من

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «مريم تتأمّل»، صفحة ٥٤.

بني البشر. ولئن كان الصليب هو شعار المسيحيّ، إلاّ أنّ مشهد الرضيع المضطجع في مذودٍ هو أكثف حضورًا في قلبه. والميلاد هو الذي يسكن الضمير الشعبيّ، وهو لـه العيد الأكبر. أوَ ليس من الأيسر علينا أن نستشفّ الله في وجه طفلٍ، قبل أن تلوّثه أهواء الجسد، وفورات الدم، ومعتركات الحياة، من أن نستشفّه في وجه رجلٍ كهلٍ؟ هذا ما أدركه «شاتوبريّان»، الذي قال إنّ إله الإنجيل، وحده، لم يخجل من جعلِ الأطفال قدوةً للبشر، ومثالاً لما ينبغي أن يكون الإنسان. وكان ذلك ابتكارًا جسيمًا، رائعًا، مطلق الجدّة.

«**صار الكلمة جسدًا**» وتسرّبت إلى الطبيعة البشريّة الطبيعةُ الإلهيّةُ النقيّةُ، كي تجدّدها وتطهّرها. وبولادته من عذراء، غدا يسوع صانعًا للتاريخ، من غير أن يتلوّث بما يغشى التاريخ من شرورٍ وفسادٍ. «**وأقام في ما بيننا، ورأينا مجده**» (يوحنّا ١ : ١٤).

وغدت بيت لحم صلةً بين السماء والأرض. فيها تمّ اللقاء بين الله والبشر، وشاهد أحدهما الآخر وجهًا لوجه. والذي كان، منذ الأزل، في جوهر الآب، لبس جسدًا، وانخرط في الزمن. وُلد في بيت لحم كي يولد في قلوب البشر، وكي يُؤتي كلّ من يؤمنون به أن يصيروا أبناء الله. ومنذئذٍ تسنّت للبشر مشاهدة الله، بلا وَجَلٍ، من خلال طبيعة يسوع البشريّة.

بتجسّده لم يكتسب أيّ كمالٍ جديدٍ، ولم يفقد أيّةً من امتيازاته الإلهيّة. فيداه ما برحتا تملكان قدرات الله الكلّيّة، وقلبه البشريّ ما انفكّ يخفق بحبّ أبيه اللانهائيّ. وفي عينيه ما زالت تنعكس رحمة الله اللامحدودة.

بتجسّده لم يتخلَّ ابن الله عن أيّةٍ من صفات الله من قدرةٍ، وعطفٍ، وعدلٍ، وحبٍّ، وجمالٍ. وعندما كان يعمل ويتكلّم كان الله يتجلّى لمن يرونه ويسمعونه.

بتنازله إلى ارتداء الطبيعة البشريّة، وبارتقائه بها إلى شرف الاتّحاد به، كان الله يكرّم هذه الطبيعة، ويعيد لها كرامتها.

عندما غشى يسوع الأرض، لم يغادر السماء، وعندما صعد ثانيةً إلى السماء، لم يغادر الأرض التي غمرها بحضوره، بأشكالٍ عديدةٍ.

خِتَانُ يَسُوعَ وَتَقدِمَتُهُ إلى الهَيْكَل (*)

يقول القدّيس لوقا: «**بعد ثمانية أيّامٍ، حان وقت ختانته، فسُمِّي يسوع، كما سمّاه الملاك قبل أن يُحبل به**» (٢: ٢١).

كان الختان شائعًا لدى شعوبٍ كثيرةٍ، بدوافع صحّيّةٍ، إلاّ أنّه كان، لدى اليهود، واجبًا أساسيًّا دينيًّا، إذ كان يُعدّ مدخل الانتماء إلى الدين اليهوديّ. وقد أُخضع له يسوع، في يومه الثامن، ومنذئذٍ شرع يبذل دمه عن البشر. بتلك المناسبة، كان يُقام احتفالٌ عائليٌّ، يُطلق فيه على الوليد اسمه، واسم يسوع كانت السماء قد سبقت فأطلقته عليه، وبلّغته الملائكة إلى مريم ويوسف.

وفي تلك الأثناء كانت بيت لحم قد فرغت من معظم من تقاطروا إليها للاكتتاب أو للاحتفال بالفصح، واستطاعت العيلة المقدّسة أن تجد لها مسكنًا مؤقّتًا في بيت لحم، ريثما يحين موعد تقديم يسوع للهيكل وتطهُّر أُمّه. ويُرجَّح أنَّ يوسف قد وجد عملاً يمكّنه من القيام بأَوَد أسرته.

كانت الشريعة تعدّ كلّ ذكرٍ بكر والديه مكرَّسًا لله، وكان من المفروض أن يصبح كاهنًا. ولكن عندما كُلّفت أسرة لاوي بالخدمة الكهنوتيّة، أمسى يُدفع للهيكل، عن كلّ ذكرٍ بكرٍ، بدلٌ عن كهنوته حُدِّدت مبالغه بدقّةٍ.

وفرضت الشريعة، أيضًا، على كلّ امرأةٍ وضعت أن تتطهّر، بعد أربعين يومًا، إن هي وضعت ذكرًا، أو بعد ثمانين يومًا، إن هي أنجبت أنثى، وأن تقدّم للهيكل، بهذه المناسبة ضحيّةً حُدِّدت، أيضًا، قيمتها بدقّةٍ. وغالبًا ما كان يتمّ الطقسان معًا.

من المحقّق أنّ لا يسوع ولا أمّه كانا ملزمَيْن بهذه الشريعة. فيسوع هو الله، صاحب الهيكل، وهو الكاهن الأعظم. وأمّه لم تطلها نجاسةٌ لا في حملها ولا في وضعها،

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «تقدمة يسوع إلى الهيكل»، صفحة ٥٦.

وبالتالي لم تكن في حاجةٍ إلى تطهّر. ولكنّ الخضوع والتواضع قد وسما، دائمًا، سلوك العذراء وابنها، فامتثلا لفرائض الشريعة، تفاديًا لتشكيك محيطهما الذي لم يكن ملمًّا بسرّهما، سرٍّ سيظلّ مكتومًا إلى ما بعد قيامة المخلّص.

سيُبطل يسوع، بتضحيته بذاته على الصليب، التقادم المادّيّة، والضحايا الدمويّة التي مجّها الله، وسمن منها سَدَنَةُ الهيكل. وريثما يتمّ ذلك، أدّى يوسف عن يسوع خمسة شواقل كانت تمثّل مبلغًا جسيمًا مرهقًا لميزانيّة أسرةٍ فقيرةٍ، إذ كان يعادل دخل أكثر من عشرين يومًا من العمل الشاقّ. وسيأتي يومٌ يقدّم فيه يسوع ذاته ذبيحةً لفداء العالم. وأدّت العذراء عن نفسها، فريضة الفقراء، المحدّدة بزوج يمامٍ أو زوج حمامٍ، كانت تحتكر تجارتها، وتحدّد أسعارها أسرة رئيس الكهنة. ولكنّها قدّمت، أيضًا، أكثر ممّا قدّم جميع البشر مجتمعين: قدّمت ابنها، وحيدها، حَمَلاً، فداءً لخطايا العالم.

وكم بدا يوسف ومريم فقيرَيْن وسط فخامة الهيكل، إزاء ثراء التجّار والصيارفة، وبذخ الكهنة!

كان الربّ يلج شخصيًّا معبده للمرّة الأولى، وكان يليق به أن يحيّيه فيه أحد رجال الروح. يوم مولده في زريبةٍ، نزلت السماء بملائكتها كي تنشد تمجيده، ويوم قُدّم للهيكل كأيّ خاطئٍ، ألهم الله سمعان وحنّة، فأنشدا آيات تكريمه.

سمعان شيخٌ ورعٌ «**كان الروح القدس قد أوحى إليه أنّه لا يرى الموت ما لم يعاين مسيح الربّ**».

كان طاعنًا في السنّ، يناهز عمره المئة عامًا، اشتهر بزهده، وتقاه، وانقطاعه للعبادة، يرتدي أسمالاً زريّةً، وغالبًا ما يقطن الفيافي حيث يناجي الربّ. وقلّما كان يطأ أرض الهيكل، لأنّه كان يستنكر ضلال القيّمين عليه. وقد دهش القوم لرؤيته، في ذلك اليوم، داخل الهيكل، حيث دفعه إلهام الروح، في ثوبٍ أبيض نظيفٍ، منتصبًا أمام حجاب المقدِس القرمزيّ. وقد وافت إليه مريم، مباشرةً، متألّقةً طهرًا، ووضعت كنزها بين ذراعيه، فارتعد، وترنّح، وبلغ به التأثّر حدّ الاضطراب، ولكأنّه تلقّى بين يديه جذوة نارٍ، بل المُطلَقَ نفسه، وظفر بتحقيق كلّ رغباته. لقد استشفّ، في الطفل الفريد، المخلِّصَ المنتظر، فأخذه، بورَعٍ ورقّةٍ، بين ذراعيه، وضمّه إلى قلبه، وحدّق بدهشةٍ ووله، إلى ذلك الطفل الإلهيّ الذي هجر سماءه وأبديّته، كي يصير وليدًا، وفي نشوةٍ نبويّةٍ، أطلق العنان لبهجته واغتباطه، منشدًا:

«الآن، أيّها السيّد، تطلق عبدك بسلامٍ، على حسب قولك.

فإنّ عينيّ قد شاهدتا خلاصك، الذي أعددته على وجه الشعوب كلّها، نورًا لهداية الأمم...».

لقاء سمعان الشيخ ويسوع الطفل كان لقاءً بين العهد العتيق الذي بلغ غاية شوطه، والعهد الجديد المنبلج، بين الوعد الذي طال انتظاره، وتحقيقه الذي أمسى واقعًا حيًّا. وللمرَّة الأولى بُشِّر بالخلاص جميع الأمم، بلا استثناءٍ.

لم يكن سمعان كاهنًا، بل مجرّد شيخٍ ورعٍ، من تلك «البقيّة الضئيلة» من إسرائيل، من الشعب الفقير الذي ينتظر بكلّ قلبه، مجيء المخلّص. ولم يقم بأيّة طقوسٍ، بل اكتفى بضمّ الطفل الإلهيّ.

وكانت نبوءته اعترافًا بليغًا بتفوّق يسوع وسمّوه. لم يدعُه «المخلّص»، بل «الخلاص». وصفات النور والمجد التي أطلقها عليه هي صفات يهوه. مع دنوّه من الملكوت، كان نظر سمعان قد تخطّى حدود إسرائيل، وامتزجت رؤياه برؤيا أشعيا.

كيف اخترق سمعان مظاهر الطفولة الواهية، واستشفّ الألوهة من خلالها، مع أنّه لم ينل أيّ وحيٍ خارجيٍّ مثل الرعاة؟ لقد تدفّق النور من أعماق نفسه، وغمر تواضعُ اللّه قلبَه فرحًا وسعادةً. وبات بوسعه أن يودّع الحياة قرير العين، بعد أن تحقّق ما وُعد به.

وكم نحن نمرّ باللّه، ونجتاز، ولا نتبيّن علاماته!

من حسن طالع سمعان أنْ لم يسمعه أيٌّ من الفرّيسيّين أو الكتبة المتزمّتين، وإلاّ لاستنكروا، بعنفٍ، قوله عن الطفل الإلهيّ إِنّه جاء بالخلاص لكلّ الشعوب، وإِنّه نورٌ للأمم؛ فوضعُ إسرائيل على قدم المساواة مع سائر الشعوب هرطقةٌ لاتُغتَفر!

لا ريب أنّه كان، ثمّة، كثيرون من أمثال سمعان وحنّة يتوقّعون، بصدقٍ، خلاص اللّه. ولكن، في المقابل، ما كان أكثر المتحذلقين المتحرّقين شوقًا لمعرفة الإجابة على المعضلة الشائكة: هل يجوز تناول بيضةٍ بيضت يوم السبت!

اندرجت نبوءة سمعان في الكتمان والبساطة، بعيدًا عن الأنوار والتألّق. فقد خبت الأنوار الساطعة التي أشعّت على المغارة وعلى الكون، يوم الميلاد، وحان عهد التواضع والكتمان، والإيمان الصامت النابع من الأعماق.

ولا ريب أنّ يسوع لم يتكرّس في الهيكل، ولم يتطهّر، بل إنّ حضوره كرّس الهيكل وطهّره!

هتاف فرح سمعان صيحةٌ ساميةٌ تغلغلت إلى أعماق الضمير المسيحيّ، ولكأنّها التعبير الخالد عن فرح أهل الرجاء، وقد شاهدت عيونهم الخير الأسمى الذي توسّموه، بإيمانهم الثابت الصامد.

لقد تبيّن سمعان، بإلهامٍ نبويٍّ، أنّ يسوع ليس بكر أمّه ووحيدها، فحسب، بل أنّه، أيضًا، بكر الله ووحيده، وبكر خليقةٍ متجدّدةٍ. ذلك الشيخ، في غروب عمره، تكلّم عن شروق شمسٍ جديدةٍ. ومع دنوّه من يومه الأخير، تحدَّث عن يومٍ جديدٍ، وبعد أن رأى المسيح، لم يعد يطمح إلى أيّة رؤيةٍ، فلا شيء أجمل ممّا رآه.

ومثل كلّ من يرى يسوع ويعرفه، تحرّر من خشية الموت.

لقد بارك أبوي الصبيّ، ولكنّه لم يجسر على مباركة «ابن العليّ»، بل سجد له شاكرًا.

وتدفّق سيلٌ من الفرح على قلب مريم، وهي تسمع هذه الأقوال في وليدها.

ولكنّ سمعان، بعد أن بارك الأسرة المقدّسة، التفت إلى مريم وقد تجهّمت قسماته، وكشف لها عن وجهٍ آخر من مستقبل ابنها. لقد كرّت أمام ناظريه النبويّيْن صُوَر الخادم المتألّم الذي وصفه أشعيا. وكان يشهد، مسبّقًا، عقوق بني إسرائيل لمن جاء كي يوفّر لهم فيضًا من السعادة السماويّة. نغمة آلام المسيح رنّت هنا، للمرّة الأولى في الإنجيل، ولن تنفكّ تردّد نغماتها حتّى الصليب. لقد رأى سمعان أبناء شعبه وشعوب العالم ينقسمون إلى فئتين متعارضتين: فئةٍ تعترف بيسوع مسيحًا، وتسير تحت رايته، وفئةٍ أُخرى ترفضه وتضطهده، وبرفضها هذا لمن جاء كي يخلّصها ستحكم على ذاتها بالهلاك. وبذلك سيصبح يسوع آيةً للمعارضة والمقاومة، كما كان أشعيا، أيضًا، قد تنبّأ من قبل (٨: ١٤ – ١٥).

فيسوع هو حجر زاوية العهد الجديد، ولكنّه حجر عثرةٍ لمن يرفضون الاعتراف به، ويرومون تحطيمه، فيتحطّمون على صخرته. سيثير صراعًا شرسًا بين الخير والشرّ، وسينتزع أقنعة الرياء عن وجوهٍ كثيرةٍ، وسيكون محكّ نوايا القلوب السرّيّة. وستنصبّ عليه أمواج العنف.

من عرف يسوع لا يسعه أن يقيم في اللامبالاة، بل عليه أن يتغيّر، عليه أن يقبله أو يرفضه. فمهمّة يسوع ليست إدانة البشر، بل افتداؤهم. ومع ذلك، لعن كثيرون مجيئه، بسبب تشبّثهم بخطاياهم.

بقدر ما يدنو يسوع من قلبٍ بشريّ، بنفس القدر يعي هذا القلب مدى استغراقه في الخطيئة. ردّ فعل المرء على الحضور الإلهيّ هو الذي يشهد لـه أو عليه. القلوب الأنانيّة تقاومه، والقلوب المحبّة تندفع، بوحيه، على دروب التوبة والتجدّد والقيامة.

في الواقع، لقد وصف سمعان يسوع بأنّه «المقلق الإلهيّ» الذي يدعو القلوب إلى خيارٍ بين الخير والشرّ، بين النور والظلام. وسيتعرّض للمقاومة لأنّ تعليمه يتعارض مع حِكَم اليُسر التي يعمل بها معظم البشر، وينظّمون حياتهم وفقًا لها، ولأنّه كالشمس التي تثلج قلوب من يحبّون العيش في النور، وتفضح خفايا من يؤثرون العيش في العتمة، مثلما هي تذيب الشمع وتقسّي الوحل. وقد أكّد يسوع نفسه، من بعد، أنّه سيكون عامل تفرقةٍ، لأنّه يتعذّر على البشر أن يكونوا، حياله، حياديّين.

وقد تحقّقت هذه النبوءة المأساويّة تحقّقًا أليمًا، في حياة يسوع على الأرض، وفي حياته المستمرّة من خلال كنيسته، فجلجلته متواصلةٌ، وما برح شخصه يجتذب حبّ البعض حتّى البطولة، والتضحية بالذات، ويستثير حَنَق آخرين، وهجومهم الشرس عليه. فمهمّة المخلّص هي تعرية القلوب وكشف أسرارها، والتمييز بين الصالح من نوايا البشر والشرّير، وبذلك يصبح حجر عثرةٍ يسقط عليها من يأبون الإيمان به، ونبع مجدٍ لمن سيتقبّلونه، وينضوون تحت لوائه. لقد جاء كي يخلّصهم، ولكنّه يأبى خلاصهم رغمًا عنهم، وبمعزلٍ عن تعاونهم.

والمقاومة التي سيتعرّض لها يسوع ستنعكس على أمّه، التي أنبأها سمعان: «**وأنت، أيضًا، سيجوز سيفٌ في نفسكِ...**» فآلام يسوع هي آلام العذراء، وبما أنّ يسوع يخلّص العالم بآلامه، فالسيف الذي سيخترق قلب مريم سيجعلها شريكةً في عمله الفدائيّ.

ستصاب العذراء بطعنةٍ مزدوجةٍ: خيبتها في شعبها الذي يرفض خلاص ابنها، وتألّمها لآلام يسوع. لقد خيّم شبح الآلام على فرح التقدمة، ومذّاك امتزج فرح مريم بالآلام، وأخذت تتأهّب للمأساة التي ستخوضها بعد ثلاثةٍ وثلاثين عامًا.

وستظلّ العذراء في الإنجيل، كما نراها في الهيكل، يلفّها الخَفَر والتواضع، تارةً يغمر قلبها فرحٌ لا يحيط به وصفٌ، وتارةً أُخرى يمزّقه الألم، فتتقبّله بصمتٍ وتسليمٍ.

فمذ سمعت العذراء نبوءة سمعان، وأدركت أنّ ابنها محكومٌ عليه بالآلام، تيقّنت أنّ الآلام هي، أيضًا، مصيرها.

إنّ الله لا يقصي الآلام عمّن يحبّهم، فهو لم يُقصِها عن ابنه الخاصّ، والابن لم يدرأها عن أمّه، لأنّ خلاص العالم كان في حاجةٍ إلى آلام يسوع وتضحية مريم.

* *

وفيما كان سمعان يضمّ الصبيّ ويتنبّأ، جاءت نبيّةٌ أُخرى، تدعى حنّة. «**كانت قد طعنت كثيرًا في أيّامها، وبعدما عاشت في الزواج سبع سنين مع رجلها، ظلّت أرملةً، وبلغت من العمر أربعًا وثمانين سنة. وكانت لا تفارق الهيكل متعبّدةً ليل نهار بالأصوام والصلوات.**

وفي تلك الساعة حضرت وأخذت تسبّح بحمد الله، وتحدّث بأمر الولد كلّ من كان ينتظر الفداء...».

وكانت مريم ويوسف يعجبان من انكشاف سرّ يسوع لتلك النفوس الصافية، وامتزاج أمجاده الفائقة بأوجع الآلام، كما يليق بفادٍ.

* *

وهكذا، بعد أن وُلد يسوع في مغارةٍ، جاء إلى بيت أبيه، واستعاد الهيكلُ إلهَه.

اندرجت تقدمته في الصمت والتواضع، ولكنّ نفوسًا بسيطةً، نيّرةً، تعرّفته، واستشفّت هويّته الإلهيّة، وسبّحته. وانضمّ سمعان وحنّة إلى موكب زكريّا وإليصابات والملائكة الذين رحّبوا بمجيء ابن الله إلى أرض البشر. هذان الشيخان الملهمان المنحنيان على صبيٍّ هشٍّ، كانا يريان فيه هيكل الله العتيد، حيث يطيب لله أن يقيم.

المَـــجُوسُ (*)

التطلّع إلى مخلّصٍ لم يكن حكرًا على اليهود، بل كان يحوم، أيضًا، في أحلام الأمم الوثنيّة، ويراود خواطر الشعراء والمؤرّخين، والفلاسفة، والفلكيّين، في شتّى أرجاء المسكونة. نفوسٌ كثيرة كانت تتلمّس، على صفحات السماء، إشاراتٍ تومئ إلى ولادة مخلّصٍ، مصلحٍ للفساد. فالكاتب والخطيب المفوّه الرومانيّ «شيشرون» (١٠٦– ٤٣ ق. م) كان يترقّب «مجيء زعيمٍ أعلى، معلّمٍ، ملك الشعوب كلّها، يلقّن شريعةً لا تتغيّر. ولا بدّ من الترحيب به للحصول على الخلاص». والشاعر ڤرجيليُس (٧٠– ١٩ ق. م) كتب: «ها إنّ العذراء تأتي، وها إنّ شعبًا جديدًا يهبط من السماء، والطفل الوليد، الذي سيزيح جيل الحديد، سيستنفر، للعالم أجمع، جيل الذهب...».

«بين نجمةٍ هي صورةٌ للمسيح، ونجمةٍ ماديّةٍ تبشّر به، خطوةٌ واحدة» اجتازها المجوس. ففي بلدٍ مشرقيٍّ، لم يحدّده الإنجيليّ متّى، كان حكماء يمتهنون استطلاع أخبار الكون في كتاب الفلك، قد شاهدوا، في السماء، ظهور نجمٍ جديدٍ، وتوسّموا فيه ولادة منقذ البشريّة. لقد قرأوا في النجم إشارة السماء. وفي الحال شدّ ثلاثةٌ منهم الرحال، ويمّموا شطر الوليد المجهول، مستهدين بالنجم الذي كان يقودهم. ولمّا انتهوا إلى أورشليم طافوا يسألون عن مكان مولد ملك اليهود. وكان موكبهم المهيب يستلفت الأنظار، فنما أمرهم إلى هيرودس الذي كان قد قتل أبناءه، خشية منافستهم له على العرش، واندلعت نيران الريبة في نفسه. فاستدعى المجوس سرًّا، لكيلا يطلعهم أحدٌ من بلاطه على حقيقة وحشيّته، واستطلع منهم موعد ظهور النجم ومساره. ثمّ طلب من علماء الشريعة، ومن كبار الكهنة، بيانًا عن مكان ولادة المسيح، ولمّا علم أنّه بيت لحم، أوصى المجوس بالمضيّ إلى هناك والبحث عن الوليد،

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «المجوس»، صفحة ٥٩.

وتقديم واجبات التكريم لـه، والعودة إليه وإطلاعه، كي يقوم، بدوره، بواجبات التكريم. كان يكلّمهم بنعومة الرقطاء، وبراكين نوايا الشرّ تضجّ في أعماقه. ولم يدَعْ أحدًا من رجال أمنه يرافقونهم إلى بيت لحم، لئلاّ يطلعوهم على ماضيه المترع بالمخازي والجرائم، ولكيلا يثير شبهاتهم. وجهد في الحؤول دون اتّصال المجوس باليهود لكيلا يستثير هؤلاء نبأُ ولادة المسيح.

المجوس استفسروا هيرودس: أين ملك اليهود؟ وأجاب بيلاطس، بعد ثلاثين سنة، بلافتةٍ معلّقة على الصليب: هوذا ملك اليهود!

وبوحيٍ إلهيٍّ استشفّ المجوس، تحت ستار كلامه المعسول، خبث نواياه. ولكن ما إن استأنفوا السير صوب بيت لحم حتّى عاد النجم يتقدّمهم، ويرشدهم، إلى أن توقّف فوق البيت الذي كان فيه الإله الوليد راقدًا. فتيقّنوا أنّ حدْسهم لم يخدعهم.

أولئك العلماء لم يعتدّوا بعلمهم، ولم يتحرّجوا من الإيمان بوحي قلوبهم، ومن الاهتداء بنجمٍ، وأخضعوا ملكوت هذا العالم لملكوت الآخرة، ولكأنّهم يعملون بتعليم الوليد الإلهيّ قبل إعلانه. لقد آثروا نور الوحي الإلهيّ على المعرفة العقليّة، وقادهم ذلك النور إلى الله.

لم يكن النجم وحده هو الذي ينيرهم، بل نورٌ سماويٌّ آخر كان يضيء قلوبهم، ويقود خطواتهم. وما النجم سوى رمزٍ لنور الله الذي يتألّق في الضمائر، ويهدي النفوس إلى الحقيقة الأبديّة. من ثمّ لم يرَ المجوس، في الوليد، فاتح المستقبل الذي كان يتخيّله اليهود، بل بإلهام الروح، رأوا فيه مخلّص القلوب والنفوس، فآمنوا به وعبدوه. نجمٌ غريبٌ أرشدهم إلى حدَثٍ جلَلٍ. فسجدوا لطفلٍ استشفّوا فيه كائنًا يفوق الطبيعة. جاؤوا بحثًا عن الجديد، فعثروا على اللامتوقّع.

وكان المجوس قد أتوا بهدايا من خيرات بلادهم ألقوها عند أقدام الملك الرضيع. قدّموا ذهبًا للملك، وبخورًا للإله، ومرًّا لمن لاح طيف صليبه فوق مهده، وللضحيّة التي، بدمها، ستؤسّس، بين البشر، ملكوت المحبّة. جثوُّهم أمام الطفل الإلهيّ كان رمزًا لجثوّ الوثنيّة أمام إنجيل ابن الله، وبجثوّهم هذا اقتران الفقر بالمجد في مهد يسوع.

ولا ريب أنّ تلك الهدايا كانت عونًا ليوسف على مواجهة الأيّام العصيبة، التي ستواجهها الأُسرة الفتيّة.

أدّى المجوس واجبات التكريم، وقفلوا عائدين إلى بلادهم، عن طريقٍ آخر غير الذي جاؤوا منه. فالذي يلتقي يسوع، غالبًا ما يضطرّ إلى تغيير نهجه ودربه.

الوثنيّون قدموا من أقاصي الأرض لتقديم التكريم للوليد الإلهيّ. ولم يأتِ إليه من اليهود سوى الرعاة، في حين اعتزم هيردوس قتله. أمّا علماء اليهود وكهنتهم فقد أرشدوا إلى مكانه، وتلبّثوا في أماكنهم، ولكأنّهم صوًى حجريّةٌ تدلّ إلى الطريق ولا تتحرّك. انتظروا مسيحهم آلاف السنين، ولّما جاء لم يهتمّوا لمجيئه: فهم كانوا يريدون مسيحًا غنيًّا، وجيهًا، متألّقًا، لا فقيرًا، معدمًا، يولد في زريبةٍ، ويرقد في معلفٍ.

هــَـــرَبٌ إلىَ مصـــْـــر (*)

«لمّا انصرف المجوس إذا ملاك الربّ قد تراءى ليوسف في الحلم وقال له: «قمْ فخذْ معك الصبيّ وأُمّه، واهرب إلى مصر. وأقمْ هناك، حتّى أقول لك. فإنّ هيرودس مزمعٌ أن يطلب الصبيّ ليهكله». فقام وأخذ معه الصبيّ وأُمّه ليلاً، وانصرف إلى مصر. وأقام هناك حتّى توفّي هيرودس» (متّى ٢: ١٣–١٥).

كان الآب ساهرًا على ابنه، ويوسف متيقّظًا لأوامر الله، يطيعها بلا تلكّؤٍ ولا تحفّظٍ، مهما اقتضت من تضحياتٍ.

وهكذا ارتمى في أحضان المجهول، حيث لا يعرف أحدًا، ولا يعلم أين يقيم، وكيف سيتدبّر معيشة أسرته، وكم ستتمادى غربته. وكم شقّ على مريم وعليه تعريض الوليد الإلهيّ للضرب في الصحراء، ولتقلّبات الطقس التي لا ترحم عودًا طريًّا مثله! وأيّة عنايةٍ كان عليهما بذلها لوقايته!

كان لا بدّ ليسوع من أن يُنفى كي يكون، عبر التاريخ، عزاءً لملايين الذين سيُقسَرون على تجرّع مرارة النفي وهجر البيت، وفقدان الوطن، ومساكنة الرعب.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

مجيء المجوس، في موكبٍ حافلٍ، كان له وقعٌ عميقٌ في قلب الأُسرة المقدّسة، ولدى الجوار الذي تحدَّث عن الأمر بدهشةٍ، فتوجّس يوسف خشيةً من بطش هيرودس. هذه الهواجس أيّدتها رسالة السماء، فهبّ لتنفيذها في الحال. فالخطر داهمٌ، والأمانة غاليةٌ، والأمر لا يحتمل تلكّؤًا ولا تقاعسًا. لم تحتج العيلة إلى وقتٍ طويلٍ كي تلملم الأمتعة القليلة التي تمتلكها، وبعض المؤن للطريق، وتنطلق مع الفجر. وبعد أيّامٍ معدوداتٍ انتهت إلى الحدود المصريّة حيث باتت في أمانٍ، ثمّ انضمّت إلى إحدى القوافل كي تواصل مسيرتها.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «الأُسرة المقدّسة المشرّدة»، صفحة ٦١.

كان وادي النيل، أبدًا، أرضًا مضيافًا. وكانت العيلة المقدّسة واثقة من العثور على ملجإٍ أمينٍ، وقد وفّرت لها هدايا المجوس ما يقيها غائلة الحاجة. إلاّ أنّ الضرب في الصحراء، ليس، دائمًا، أمرًا يسيرًا، ولا سيّما على طفلٍ رضيعٍ، ووالدةٍ نفساء.

ومع أنّ الإنجيل لم يذكر أيّ تفصيلٍ عن تلك الرحلة إلى مصر، إلاّ أنّ الأناجيل المنحولة أفاضت في تخيُّلاتٍ تقرن الطرافة بالسخافة أحيانًا، وزخرت بحكايا عجيبةٍ عن حيواناتٍ مفترسةٍ كانت تطأطئ رؤوسها، كالحملان، للطفل الإلهيّ، وعن أشجار النخيل التي كانت تنحني حتّى مستواه كي تقدّم له ثمارها الشهيّة، وعن الزهور التي كانت تنبت حيث يضع يسوع وأمّه أقدامهما، وعن الينابيع التي كانت تنبجس في الصحراء كي تروي عطش الأسرة بماءٍ زلالٍ، وعن الطرق التي كانت تنكمش وتتقلّص كيلا يطول السفر، وكيلا يأخذ من يسوع وأمّه التعب؛ وعن الأصنام التي كانت تتحطّم لدى مروره، وعن الأرواح الشرّيرة التي كانت تفرّ مرتعدةً، مهزومةً، حيثما عبر... وعن علامات ألوهته التي كان ينثرها على مدى طريقه.

ولكن من المحقّق أنّ يسوع كان مثل أيّ طفلٍ من بني البشر، يتعرّض لما يتعرّضون له، وكذلك كانت مريم ويوسف يعانيان من وعثاء السفر. ولكنّ الفرح كان مهيمنًا على الأسرة التي كان محورَها «عمّانوئيل».

مَقتَلُ أطفَالِ بَيْتَ لَحْم (*)

استخفاف المجوس بهيرودس أشعل نيران الغيظ في صدره. وغيظه لم يكن ينقعه سوى دفق الدماء، فقد كان القتل أداة حكمه. كان قد جهد، طيلة ثلاثين عامًا، في اجتثاث كلّ أثرٍ لملوك اليهود والمكّابيّين. وإذ بوريثٍ لداود يبرز بغتةً، ويقضّ مضجعه. ولمّا أدرك أنّ أورشليم قد شرعت تتحدّث عن مولد مخلّصٍ، في أعقاب مجيء المجوس، وطّن العزم على قتله. وبثّ عيونه في بيت لحم بحثًا عن الوليد. ولمّا عجزوا عن العثور عمّن تتوفّر فيهم شروط الملك، انتابته واحدةٌ من نوبات الجنون التي طالما استفزّت غريزة القتل فيه، فأنفذ جندًا أمرهم بقتل جميع صبيان بيت لحم وجوارها من عمر سنتين فما دون، وهكذا زوّد أمره بهامشٍ واسعٍ في الزمان والمكان لكيلا يذَر لإخطاء مقصده متّسعًا، وحينئذٍ نام قرير العين، بعد أن استقرّ في خَلَده أنّه أغرق بالدماء كلّ آمال الشعب بمجيء منقذٍ.

لم تكن تلك الجريمة الوحشيّة بغريبةٍ عمّن قتل زوجته مريمن التي كان ولِهًا بها، لمجرّد شكٍّ، ثمّ قتل أباها، وأمّها، وأخاها، وأبناءه الثلاثة منها.

* *

وفق حساباتٍ واقعيّةٍ لم يتجاوز عدد الأطفال الشهداء الثلاثين. ويقال إنّ بينهم كان أحد أطفال هيرودس المودع لدى مرضعةٍ في بيت لحم.

ومع ذلك تظلّ تلك الجريمة المفرطة في الهول والبشاعة، التي دمّرت براعم بشريّةً غاليةً، وكائناتٍ هشّةً غضّةً بدأت لتوّها تبتسم وتثغثغ، وتخطو خطواتها الأولى متعثّرةً، وتمدّ يديها ملتمسةً عون أبٍ أو أُمٍّ، تثير القلب، والعقل، والنفس، وما برح نحيب الأمّهات الثكالى يخترق القرون، ويهزّ أعماقنا.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «ملكان»، صفحة ٥٢.

ولا يستطيع تقدير هول تلك الكارثة حقّ قدرها سوى من شهد ما يستدرّه مقتل أطفالٍ، في الشرق، من نحيبٍ مدوٍّ، وحزنٍ لا يلوي على شيءٍ.

أولئك الأطفال كانوا طليعة كتائب الشهداء الذين ما انفكّوا، منذئذٍ، يبذلون دماءهم شهادةً ليسوع.

لتلك الجريمة الشنعاء أمثالٌ كثيرةٌ في التاريخ. فالإسرائيليّون أنفسهم جعلوا من دماء مئات الأطفال المصريّين علامةً لخلاصهم من قبضة فرعون.

وما زال، اليوم، يُقتل مئات الأطفال، في فلسطين، برصاص الحقد والعنجهيّة!

واليوم، أيضًا، يموت أكثر من خمسة عشر مليون طفلٍ جوعًا، كلّ سنةٍ، في العالم. فهل سيذكر التاريخ أنّهم القدّيسون الأبرياء، الذين اغتالهم القرن العشرون؟

* *

بهذه الجريمة، توّج هيرودس سلسلة جرائمه المتمادية. إذ فيما كان يتأهّب لقتل ابنه، ووليّ عهده أنتيپاتر، الذي كان يتحرَّق نفاد صبرٍ لخلافة أبيه، داهمته علّةٌ غريبةٌ، رأى فيها القوم عقابًا سماويًّا. فقد كانت نارٌ داخليّةٌ تلتهم أحشاءه، والآلام تشعّ في كلّ أعضائه، والورم ينفخ ساقيه وبطنه، وأعضاؤه التناسليّة تعجّ بالديدان، والروائح الكريهة تنفّر الجميع منه، وتصيبه هو نفسه بالغثيان. وبالإجمال كان قد أصبح بأكمله جثّةً متفسّخةً.

يسوع، ابن الثانية عشرة، في الهيكل (بريشة كارل بلوخ)

يوحنا المعمدان (بريشة فرنشيسكو تريڤيزياني)

عَـوْدَةٌ إلى النَّاصِرَة

عاد المجوس، وتوارى النجم، ونأى الصبيّ، وخرست النبوءات، واحتجبت السماء، واندمجت الأُسرة المقدّسة في ثنايا مجتمعها الجديد، وبقيت مريم ويوسف وحدهما يحتفظان، في صدرهما، بكنز أسرار يسوع الثمين.

من المرجّح أنّ منفى الأسرة المقدّسة في مصر لم يتمادَ أكثر من سنةٍ. وكان يوسف قد شرع يستقرّ، عندما أوعز إليه الملاك الذي طالما قاد خطواته، أن يعود بالصبيّ وأُمّه إلى فلسطين.

ومرَّةً أُخرى تحرّكت القافلة الصغيرة. وكان يوسف قد وطّن العزم على الاستقرار في بيت لحم. ولكنّ مسؤوليّة حماية الطفل الإلهيّ وأُمّه جعلته شديد الحذر والحيطة. ومن ثمّ لمّا انتهت الأسرة إلى غزّة، استعلم عن الأوضاع السياسيّة في اليهوديّة، فأُعلم أنّ أركيلاوس كان قد خلف أباه على حكمها، وأنّه يضاهيه قسوةً ووحشيّةً، ومكرًا وغَدْرًا، وكَلَفًا بالمتعة، فتوجّس منه خشيةً على الصبيّ. وآثر الاستقرار في الناصرة، مسقط رأس مريم، التابعة لمنطقة الجليل التي كانت خاضعةً لحكم ابنٍ آخر لهيرودس، هو هيرودس أَنتيپاس، الذي كان منحلاًّ، ضلّيلاً، ولكنّه كان آمَنَ جانبًا من أبيه وأخيه.

كانت الناصرة مغمورةً، مزدراةً، ولكنّها وادعةٌ، ساكنةٌ، يصفو فيها العيش، وقد استمدّت، من يسوع وأمّه، شهرةً غمرت البسيطة جمعاء.

لقد اختار يسوع الناصرة لنشأته، ولشبابه الخفيّ، واختار العاصمة أورشليم المتكبّرة لموته المهين. نثنائيل قال: «**أمن الناصرة يخرج شيءٌ صالح؟**» وقال آخرون: «أيّ فداءٍ يمكن توقّعه ممّن يموت على الصليب؟» ولكنّ يسوع أظهر أنّ الصِّغَر والمهانة كفيلان بخزي العظمة والتجبّر.

في الناصرة، نما يسوع وشبّ في الخفية، والكتمان. وكان أجمل ما أَنبتته لا

الناصرة وحدها، بل المسكونة كلّها. وقد لاحقه لقب الناصريّ طيلة حياته، وعُلّق على صليبه، وما برح يوصف به.

في تلك البقعة العذبة من الجليل، الغافية بين الحقول، المضيئة، الخشعة، الساكنة، قضى يسوع الشطر الأكبر والأسعد من حياته الأرضيّة القصيرة. الأناجيل لا تذكر سوى اليسير عن طفولته، ومراهقته، ونضجه. وحده الإنجيليّ لوقا وقف على تلك الحقبة جملتين لا توفّران لكاتب السيرة سوى الزهيد، ولكنّهما تُثيران تساؤلات اللاهوتيّين. فقد قال: «**وكان الولد ينمو ويتقوّى، ممتلئًا حكمةً، وكانت نعمة اللّه عليه**» (لوقا ٢: ٤٠).

بطبيعته البشريّة كان ينمو جسديًّا، وزمنيًّا، ويكتسب حكمةً، وكانت النعمة تنمّي حبّ اللّه في قلبه. أمّا إلهيًّا، فلا شيء فيه كان يتغيّر.

لم يتميّز بأيّ شيءٍ فائقٍ، ولا بأيّ ظاهرٍ متألّقٍ. جسديًّا كان ينمو مثل كلّ طفلٍ، مُظهرًا، سنةً فسنةً، الذكاء، والخصال، والقوّة، والفتنة المناسبة لسنّه. ولكن ما من أهواء صاخبةٍ عكّرت اتّزانه النفسيّ، ففيه «**حلّ كلّ ملء اللاهوت، جسديًّا**»، على حدّ قول الرسول بولس (كولوسّي ٢: ٩).

* *

مثل كلّ أُمٍّ مفتونةٍ بوليدها، سعدت مريم بمواكبة أولى خطواته، وبسماع ثغثغاته، وكلماته الأولى، ثمّ، بعد ذلك، فرحت بخدماته الصغيرة لها، وبرؤيته يعبث بأدوات نجارة يوسف. في حضنها تعلّم ما كُتِبَ عنه. وهي كانت تقرن واجب تعليمه مع واجب عبادته. كانت تهدهده على وقع المنشار والمسحاج، اللّذين ما لبث أن تعلّم استخدامهما.

على ركبتيها نشأ، ولمّا اشتدّ عوده، بات يرافقها إلى النبع، ويعزف بالناي، ويلعب مع أترابه.

الحياة في الناصرة كانت شاقّةً، شظفةً، رتيبةً، فعمل النجارة، بوسائل بدائيّةٍ، كان يستلزم جهدًا عضليًّا مرهقًا، وبراعةً يدويّةً فائقةً. وما لبث أن غدت يدا يسوع في مثل خشونة يديْ يوسف وقسوتهما.

وكان على مريم أن تقوم بمعظم متطلّبات العيش بيديها. فلا طعامَ جاهزًا، حينئذٍ،

بل كان عليها أن تطحن القمح، وتعجن الدقيق، وتخبز الأرغفة، وتعدّ الطعام بما يتوفّر في حديقة البيت من خضرواتٍ وأعشابٍ، وبالحليب الذي تروّبه، وبالجبن، والزيتون والبيض، وبين حينٍ وحينٍ، بشيءٍ من السمك. ولا ألبسة جاهزة آنذاك، فعليها أن تخيط، بما يتيسّر لها من قماشٍ رخيصٍ، ملبسها وملبس يوسف ويسوع. وما إن تفرغ من مهامّ البيت حتّى تفزع إلى مغزلها. وفيما يداها مشغولتان بالغزل والحياكة، كان فكرها يهيم في أسرار الله التي تحيق بها من كلّ صوبٍ. وما كانت يدا العذراء تصنعانه، بحنانٍ، من أجل ابنها في الناصرة، سيمكّنها يسوع من فعله في السماء، من أجل كلّ عضوٍ من أعضاء جسده المنتشرين في العالم، وبالحنان عينه.

باكرًا تدرّب يسوع على الاضطلاع بالأعمال الصغيرة التي يساعد بها أُمّه: من جمع الأحطاب، وامتياح الماء، وتعبئة الجرار. كان يعمل ببساطةٍ وحبٍّ، وكانت السعادة تغمر العيلة الصغيرة المتحابّة، المؤلّفة من ثلاثة عناصر مختارة، أحدها ابن الله.

أثاث البيت كان مقتصرًا على حصيرةٍ، وطراريح، ومساند محشوّةٍ قشًّا، وخزانةٍ خشبيّةٍ مدهونةٍ، وجرّةٍ وإبريقٍ فخّاريٍّ.

والبيت يسوده جوّ صلاةٍ خاشعٌ. فمريم، على غرار النسوة الورعات، كانت تحفظ غيبًا معظم المزامير. ووجود ابن الله كان يشيع مُناخ صلاةٍ دائمةٍ، تضيء حياة الأسرة، وعلاقاتها مع الغير. صلاة يسوع كانت، بشريًّا، مغرقةً في البساطة، وأمّا إلهيًّا فلا يُسبَر لها غورٌ.

تعلّم القراءة مثل أترابه، كي يعرف «الكلمة». وكان يتعلّم بسرعة، وأصبح واحدًا من أفضل قرّاء المجمع. ولكنّه لم يتثقّف على يد أيّ رابّيٍّ. فالربّ كان يسكنه، وعلم الله يملأه.

يتّضح من الأناجيل أنّه تعلّم القراءة والكتابة، وحفظ النبوءات والمزامير، ولكنّه لم يستفِضْ في العلم، وإلاّ لما دهش مواطنوه من الحكمة التي كان ينطق بها.

نما نموَّ أيّ ولدٍ طبيعيٍّ، ولم تطغَ ألوهته على بشريّته بل احترمتها. لم يتميّز بمواهب فكريّةٍ خارقةٍ، وكانت نفسيّته البشريّة طبيعيّةً، لم تُحدثْ فيها ألوهته تعقيدًا أو شرخًا.

نشأ مثل أترابه في الناصرة وشاركهم ألعابهم البريئة. وفي شبابه اختلط بأبناء جيله، وعاش مثل عيشتهم البسيطة الدؤوب، ولكنّه كان يدهشهم بحكمته، ويفتنهم بإشعاع طيبته، وبسحر رقّته وتواضعه.

على غرار جميع أترابه تلقّن مهنةً، وكان من البديهيّ أن يزاول مهنة يوسف. وكسب خبزه وخبز أمّه بجهد ساعديه وعرق جبينه. وإلى أن أذنت ساعة رسالته ظلّ مثالاً للبشر المتواضعين، الذين يجهل التاريخ اسمهم، الذين يعيشون في الخفاء والإغفال، تحت أنظار الله، تتوالى سنو عمرهم متشابهةً، رتيبةً، صامتةً، ممزوجةً بالكدّ والجهد والفرح، والحزن، والعمل والتقوى.

وحدهما مريم ويوسف كانا يرقبان بدهشةٍ، كيف يؤدّي ابن العليّ، على أكمل وجهٍ، وأكثره إدهاشًا، دور ولدٍ طبيعيٍّ، في عبثه وعمله، في أفراحه وآلامه، ولكنّهما لا يتفوّهان بكلمةٍ.

كانت تخفق في جسده البشريّ نفس إلهٍ تسمو به، وتُبقيه بمنأًى عن كلّ نزعةٍ شرّيرةٍ، وكلّ خطيئةٍ. ومع أنّه كان يعي وجوده الأزليّ، ورسالته السماويّة، كان عليه أن يفكّر ويقرّر مثل أيّ إنسانٍ، وأن يستخدم الوسائل المتوفّرة لديه.

ما من علمٍ يستطيع فهم إشعاع الله في نفس يسوع، وكلّ جمال ذلك الجسد الذي ينبض وينمو تحت أشعّة نفسٍ يغمرها اللانهائيّ بروحه وكماله.

إنّه الطفل، واليافع، والشابّ المثاليّ، كما سيكون الرجل المثاليّ. جميعنا نصبو، عمرنا كلّه، إلى الكمال، ولا نبلغه، وهو يحياه تلقائيًّا في كلّ مراحل عمره.

الاتّحاد التامّ بين طبيعته البشريّة، وطبيعته الإلهيّة كان يوليه معرفة الحقيقة اللانهائيّة، وامتلاك الحبّ اللانهائيّ، والتمتّع الدائم بالجمال اللامحدود. ولكنّه لم يحُلْ دون نموّ المعرفة التجريبيّة في عقله، والتدرّج في ممارسة الفضائل، وجهد الإرادة، وتعب الجسد، والعمل والألم.

كان معرَّضًا، مثل كلّ إنسانٍ، للجوع والعطش، والتعب، والوجع الذي تحدثه تقلّبات الطقس، وعنف البشر. ولكنّه كان منزّهًا من الأوهان الناجمة عن طغيان الأهواء، والطيش، والوراثة الوبيلة. ولم يكن كماله ناجمًا عن قوّة أعضائه الخارقة، ولا عن طاقاتٍ جسديّةٍ فريدةٍ، بل عن توازنٍ متناغمٍ لكلّ طاقاته. لم يعهد أيّ ميلٍ

نحو الشرّ، ولا تغلّب الحواسّ على العقل، إلاّ أنّه خَبَر كلّ ما لا يتعارض مع كرامته الأخلاقيّة، وسلامة نفسه. وكان جسده المرهف أكثر تأثّرًا بالفرح وبالألم.

لقد اختار الخضوع لكلّ مقتضيات الطبيعة البشريّة، بأوهانها، وتعرّضها للموت؛ ولم يحرّره اتّحاده بالله، إلاّ من الخطيئة والنقص. وتحقّق فيه توافقٌ كاملٌ بين الحدْس والمعرفة التجريبيّة، بين الأفراح الإلهيّة، وغمومٍ مبهمةٍ، بين صراعاتٍ عنيفةٍ، وسجوِّ نفسٍ صافٍ.

وإن كان كلّ ولدٍ سرًّا في عيني والديه اللّذين يتعذّر عليهما النفاذ إلى أعماق ذهنه، فقد كان انتماء يسوع إلى عالَمٍ آخر أسمى، يضيف أبعادًا أُخرى إلى سرّ ذلك الكائن الفريد. وكان على أمّه ويوسف أن يكتشفا ذلك، عندما بلغ الثانية عشرة.

اختِفاءُ يَسُوعَ في الهَيْكَل (*)

عن حياة يسوع الخفيّة في الناصرة، التي امتدّت ثلاثين عامًا، لا يورد الإنجيل سوى حدَثٍ واحدٍ تمّ وهو في الثانية عشرة من عمره، يوم استصحبه والداه إلى أورشليم، في حجٍّ بمناسبة الفصح.

حتّئذٍ، كان يسوع طفلاً مطيعًا، خاضعًا لوالديه، حريصًا على رضاهما، وإذا به، ومن غير إنذارٍ، يقوم بسلوكٍ استقلاليٍّ، محيِّرٍ، يتناقض مع كلّ ما أَلِفته الأسرة من تناغمٍ وسكونٍ.

كان يسوع، يومها، في مرحلة تخطّي الطفولة، صبيًّا مرِحًا ودودًا، منسجمًا مع أترابه وذوي قرباه البالغين مثل سنّه، والذين يدعوهم الإنجيل «إخوته».

صباح الانطلاق تحرّكت القافلة تحت أنظارٍ حزينةٍ رمقها بها من لم يتمكّنوا من الانضمام إلى الحجيج، وبمواكبة نصائح الشيوخ المستلهَمَة من خبرات حجٍّ سابقٍ طاب لهم استذكارها. الأقدام والعيون مشدودةٌ إلى المدينة المقدّسة، والقلوب تطفح جذلاً وتوقًا.

الطريق وعرٌ، ولكنّ التعاون سائدٌ، ومريم ويوسف ساهران على كلّ من يحتاج إلى عونٍ. على الدروب تولد الصداقات، وتتألّف جماعات المعارف والأقرباء، ضمانًا للأمان، وطردًا للسأم. في أثناء النهار كانت تنشطر القافلة الواحدة إلى فئاتٍ متآلفةٍ. فالرجال يسيرون معًا، والنساء كذلك، والفتيان يكوّنون فريقًا مستقلاًّ كي ينصرفوا إلى عبثٍ قد لا يحتمله، طويلاً، الكبار، ولا تلتئم الأُسَر، بجميع أفرادها، إلاّ في مرحلة المساء.

* *

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «هروب»، صفحة ٦٣.

أخذ التأثّر بيسوع كلّ مأخذٍ في الهيكل، فطاف في أرجائه، مراقبًا، خاشعًا حينًا، ومستنكرًا حينًا آخر، لدى مشاهدته تجاوزات الباعة والصيارفة، وطغيان التجارة على العبادة. ولطالما توقّف عند حلقات علماء الشريعة الذين يتناقشون في شؤون الدين، واسترق السمع إلى سجالاتهم.

مرّ الأسبوع سريعًا، وللملم الحجّاج أمتعتهم وحزموها تأهّبًا للعودة. وانطلقوا منذ الصباح الباكر، مثلما جاؤوا، كلّ جيلٍ في فريقٍ؛ وإذ كانت مريم واثقةً بابنها، غير متملّكةٍ لـه، ولا تحاول الالتصاق الدائم به، وخنق حرّيّة حركته، سارت مع أرباب الأسر وربّاتها، وهي مطمئنّةٌ إلى وجوده مع أترابه.

وحان موعد العشاء، في مساء المرحلة الأولى. وهي لم تألف، يومًا، استساغة طعامٍ في غياب ابنها. وطافت تبحث عنه، فسألت أترابه. ولكن لم يكن أحدٌ قد شاهده منذ الصباح. وتملّك مريم ويوسف القلق والحيرة، وهما اللّذان عهدا في يسوع الانضباط، والتعقّل. ولاح طيف السيف الذي تنبّأ به سمعان الشيخ.

حلول الليل منعهما من العودة أدراجهما، فقضياه ساهرَيْن، يصلّيان، وتتجاذبهما شتّى ضروب الهواجس.

وما إن انبلج الفجر حتّى شدّا الرحال مستعيدين، في الاتّجاه المعاكس، رحلة البارحة. وكلّما لاح لهما طيف فتًى في مثل قامته كانا يهرعان إليه، ويحدّقان إليه، ويسألان كلّ قادمٍ من أورشيلم هل رأى فتًى في مثل أوصاف يسوع.

قضيا ليلةً بيضاء أخرى في أورشليم حيث وصلا ليلاً. ومذ أخذت تنقشع الظلمة راحا، من جديدٍ، يذرعان الطرقات والمفارق، ويختلفان إلى الأماكن التي توقّعا العثور عليه فيها، ويقرعان أبواب بيوت الأصدقاء والمعارف. وغرب عن بالهما أنّ يسوع يوجد حيث لا يُتوقّع وجوده. ولمّا خابت أبحاثهما، يمّما شطر الهيكل، التماسًا لعون الربّ. وبعد طوافٍ في أرجائه، استوقفهما، وسط حلقةٍ من العلماء الملتحين، طيف صبيٍّ فارع القامة، صافي الأنظار، يحدّق إليه الرابّيّون في دهشةٍ واهتمامٍ بالغيْن، ولكأنّه معلّمهم. كان يطرح عليهم أسئلةً تنمّ عن فهمٍ عميقٍ لقضايا يجدون هم أنفسهم مشقّةً في تفسيرها، ويردّ على أسئلتهم بما يدهشهم. أسئلته كانت سديدةً، وأجوبته بعيدةً عن التسرّع والاضطراب، وحلوله للقضايا منطقيّةً، متناغمةً. مناقشته

لمواضيع الدين والأخلاق كانت من الدقّة والصواب، بحيث تساءل جهابذة أورشليم من أين لفتًى في مثل هذه السنّ كلّ تلك المعارف السماويّة، وتلك الحكمة الخارقة!

توقّف يوسف ومريم، وقد أخذت بهما دهشةٌ عارمةٌ. فللمرّة الأولى كانا يشهدان، في فتاهما، مثل هذه الحكمة السامية التي تثير إعجاب شيوخٍ مثقلين بالمعرفة. ولطالما شاهدا، فيه، فتًى جادًّا، خاشعًا، يجهد في إخفاء الألوهة الساكنة فيه. ولبثا يتأمّلانه حتّى ارفضّ المجلس، وحينئذٍ دنت منه أمّه برفقٍ، وبادرته بالسؤال الذي كان يحرق شفتَيْها منذ ثلاثة أيّامٍ: «**لمَ صنعتَ بنا هكذا، يا بنيّ؟ فها أنا وأبوك نبحث عنك متألّمَين؟**» صرخةٌ عفويّةٌ من قلب أمٍّ، أخذ بلبّها الرعب، وانكوى قلبها من جرّاء اختفائه. شكوى محبّةٍ، وملامة عطفٍ، أوحتهما رغبة العذراء في معرفة ما دفع ابنها إلى سلوكٍ لم يألفه من قبل، فقد عهدته، حتّئذٍ، خاضعًا باحترامٍ، حريصًا على ألاّ يسبّب لها وليوسف أيّ كَدَرٍ أو تنغيصٍ. ولكنّ ابنها فاجأها بقوله: «**تبحثان عنّي؟ أما تعلمان أنّه عند أبي يجب عليّ أن أكون؟**» ولكأنّهما هما الأحقّ بالملامة، لأنّهما تجاهلا أباه الحقيقيّ، الذي عليه الاهتمام بشؤونه، فكان عليهما ألاّ يقلقا، بل أن يتوقّعا مكوثه في الهيكل، فالهيكل يأسر قلبه، لأنّه بيت أبيه.

عتاب العذراء كان عتابًا توجّه مثله كلُّ أمٍّ أمضّها القلق لابنها الحدَث. ولكنّ جواب يسوع هو جواب من لا تنطبق عليه سنن العمر، ومن هو فوق قوانين الأرض وروابطها، لأنّه مكلّفٌ برسالةٍ أوكلها إليه أبٌ سماويٌّ. وللمرَّة الأولى قال إنسانٌ عن الله «أبي» بثقةٍ تامّةٍ.

جوابه كان دليل التزامه المطلق بالرسالة التي جاء بها للعالم من لدن الله أبيه، وبرهانًا على أنّه، وهو ابن الثانية عشرة، كان يعي منشأه الإلهيّ، ومقتضيات مهمّته الخلاصيّة، وأنّ هوى الرسالة كان أشدّ أسرًا لقلبه من حنان أمٍّ. منذ الصغر تتجلّى، لدى البعض، الميول التي ستكوّن شخصيّتهم. وقد أظهر يسوع، وهو في تلك السنّ المبكّرة، أنّ هواه هو تحقيق مشيئة أبيه السماويّ. هذا الجواب هو القول الوحيد الذي بلغنا عنه طيلة حياته الخفيّة. ولكنّ الإنجيليّ لوقا يقول إنّ والديه «**لم يفهما ما قال لهما**»، إذ إنّ مخطّطات الله لم تكن قد أُعلنت لهما كاملةً. فمع علمهما بهويّته، ما كانا يدركان كلّ أبعاد قوله الذي أوجز فيه جوهر رسالته، وأكّد، من خلاله، تفوّق واجباته تجاه أبيه السماويّ، على واجباته تجاه أقرب كائنَيْن بشريَّيْن إلى قلبه.

عماد يسوع (بريشة كارل بلوخ)

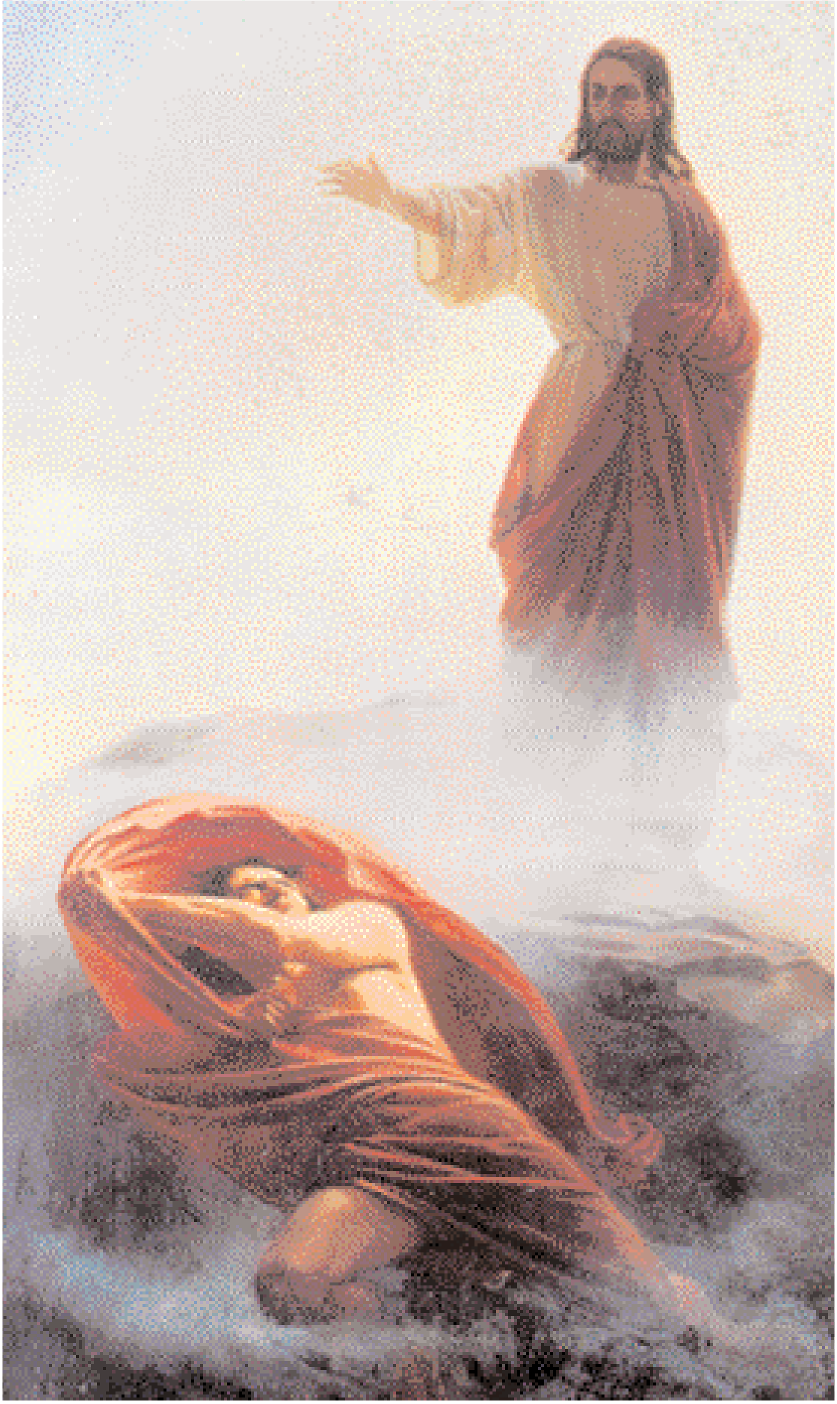

تجربة يسوع (بريشة كارل بلوخ)

وربّما كان أَوْلى بالإنجيليّ أن يقول إنّ أمّه فهمت كلّ ذلك في فكرها، ولكنّ قلبها كان يأبى الفهم، ويحاول أن يرجئ، إلى أبعد موعدٍ ممكنٍ، ساعة بعاده عنها، وانصرافه انصرافًا كاملاً لشؤون أبيه. ففي غضون تلك الأيّام الثلاثة، كان السيف الذي تنبّأ به سمعان يتقلّب في قلبها، وكانت مرارة ذلك الفقدان رمزًا للفقدان الأكبر الذي سيمتدّ بين جمعة صلبه وأحد قيامته.

ومن خلال الضباب الكثيف الذي لفّ حياتها سحابةَ تلك الأيّام الثلاثة العصيبة، استشفّت ما ستكون عليه آلام يسوع وموته في مثل ذلك التاريخ من فصح العام ٣٠، حيث سيكون ابنها هو الضحيّة الفصحيّة بامتيازٍ، وهي ستصبح أمّ «السبعين مرّةً سبعين ألمًا»، على حدّ قول الشاعر الفرنسيّ شارل بيغي (Charles PÉGUY).

ونلاحظ أنّ يسوع، في أثناء حياته الأرضيّة، لم يُظهر لأمّه الكثير من الحنان، لعلمه بأنّه سيقضي الأبديّة كلّها في تكريمها. ولكنّ مريم، من لمسة يده، ومن نظرة عينيه، كانت تسبر عمق حبّه اللامحدود.

بمُقاساتها لواعج فقدان ابنها خَبَرت العذراء معاناة كلّ إنسانٍ يفقد الله، وما يكابد من مشاعر التخلّي، والأسى، والفراغ، والعزلة، ومن ليل النفس الداجي .

جواب يسوع كان حازمًا، قاطعًا، ولكنّه لم ينتقص بشيءٍ من احترامه لأمّه ومربّيه، إذ، مع وعيه لهويّته الإلهيّة، ورسالته السماويّة: «**نزل معهما إلى الناصرة، وكان خاضعًا لهما**» (لوقا ٢ : ٥١). واقتصرت قافلة العودة على ثلاثة أشخاصٍ فرحين. الضائع وُجد، فليتبارك اسم الله !

و«**كانت مريم تحفظ تلك الأقوال كلّها، وتتأمّل فيها في قلبها**»، وتقارنها بأقوال الأنبياء التي كانت تملأ ذاكرتها. وكانت معالم مصير ابنها تتّضح، شيئًا فشيئًا، في نفسها.

ذلك الحدَث البارز في حياة يسوع الخفيّة كان شعاعًا قادمًا من عالمٍ آخر. كان ومضةً عابرةً، ظهورَ شمسٍ من خلال ثغرةٍ في الغيوم، ما عتّمت الغيوم أن حجبته. وعاد يسوع إلى الناصرة مثل أيّ فتًى مغمورٍ.

ومنذئذٍ شرع يوسف ومريم يألفان فكرة أنّ ذلك الولد غير العاديّ ليس ابنهما فحسب، وأنّ ابن الله سيكون لهما سبب همومٍ وقلقٍ.

«**عند أبي، يجب عليّ أن أكون**». تلقّت مريم هذا الجواب مثل سرٍّ باهرٍ، لم تقوَ عيناها الضعيفتان على احتماله. جوابٌ راح يتغلغل وينضج في أعماقها. وستتجلّى أنواره الحزينة، في تلك المدينة عينها، أورشليم، بعد نحو عشرين سنة، بمناسبة فصح العام ٣٠، عندما سيغيب ثلاثة أيّام، غيابًا أشدّ عنفًا، كي يلتقي أباه، من خلال باب الموت.

خُضُوعُ يَسُوع

يقول الإنجيليّ لوقا إنّ يسوع كان خاضعًا لأمّه ولأبيه بالتبنّي.

في بيت الناصرة انقلابٌ كاملٌ في الأدوار. فالذي تخضع له الأكوان كلّها يخضع ولا يأمر. ومريم، أسمى المخلوقات قاطعةً، تأمر تارَةً، وتخضع تارَةً أُخرى. تأمر خالقها، وتخضع لرجلٍ تفوقه كرامةً.

وبتنفيذه وصيّة الطاعة لوالديْه الأرضيّيْن، شرع يسوع ينفّذ، في نفسه البشريّة، مزاولة الطاعة البنويّة لأبيه السماويّ، ويرسّخ المشاعر والمواقف التي أدّت إلى خلاصنا، عبر الآلام. وفي هذا الصدد يقول الشاعر الفرنسيّ شارل بيغي: «إنّ خضوع يسوع، وطاعته لأبويه الأرضيَّين، مع ما اتّسما به من كمالٍ، وما انطويا عليه من مثالٍ جديرٍ بالاقتداء، لم يكونا سوى صورةٍ مؤقّتةٍ، وتمثيلٍ مادّيٍّ للطاعة البنويّة الأبديّة التي أدّاها لأبيه السماويّ. طاعة يسوع، وخضوعه اليوميّ ليوسف ومريم هما إعلانٌ، وتمثيلٌ، واستباقٌ للطاعة الرهيبة، وللخضوع اللّذيْن سيتجلّيان في يوم الخميس المقدّس».

وفيما كان حبّ يسوع وخضوعه لأبيه السماويّ، يتغذّيان بالطاعة لأمّه وليوسف، كانت رؤيته لأبيه، والفحوى التي يضمّنها اسم الآب الذي طالما عنى به الله، تستنير برؤية وجه أبيه السماويّ، الذي كان عليه أن يقدّس اسمه، ويعرّف مشيئته، بكلّ اندفاع نفسه.

وقد أعلن يسوعُ اللّه، أباه، أبًا كاملاً. من قبل، كانت صورة الأب تمثّل السلطة، ولو كانت سلطةً راعيةً، وعنايةً حانيةً. وبفضل يسوع بتنا نعلم أنّ اللّه حبٌّ ورأفةٌ، مع أنّه مصدر كلّ شيءٍ، والسلطة المطلقة.

علاقته الحميمة بالآب كانت تستند على المشاركة في الطبيعة الواحدة. وخضوعه

لمشيئة الآب لم يكن خضوع الأجير لسيّده، بل طاعة الابن الذي يتذوّق، مسبّقًا، ملء حبّ الآب.

لقد خضع يسوع لكلّ من يملك ذرّةً من السلطة الإلهيّة، وخضع خضوعًا مطلقًا لمشيئة الآب، وتعلّم الطاعة في مدرسة الألم.

سِرُّ الصَّمْتِ وَالعُمْق (*)

بعد أن ذكّر أمّه ويوسف بمنشئه الإلهيّ، وألمح إلى رسالته السماويّة، عاد يسوع فانغمس في خفيةٍ امتدّت ثمانية عشر عامًا، خاضعًا لخلائقه. ثمانية عشر عامًا خلت من أيّ حدَثٍ بارزٍ، في بيتٍ وضيعٍ، ومهنةٍ وضيعةٍ. آفاقه البشريّة ضيّقةٌ، وشاغله خدمة أبناء قريته.

لقد آثر العيش في الخفاء، والامّحاء، والتواضع، حتّى مباشرة رسالته في العلن، دفعةً واحدةً. في تلك الفترة توارى اللّه وراء الظاهر البشريّ. ولم يتميّز يسوع عن أترابه وأبناء جيله وقريته، إلاّ في نأيه عن الخطيئة، وتنزّهه عن الشرّ.

الذين يجهلون أحداث بيت لحم والناصرة يظنّون أنّ كلّ أعمال اللّه مجلجلةٌ مدوّيةٌ. ولكنّ يسوع تبنّى الطبيعة البشريّة بصدقٍ، وبساطةٍ، وتجرّدٍ، وبتواضعٍ لا حدود له. جنينًا نما في أحشاء فتاةٍ مكرّسةٍ للّه، وترعرع على وتيرة أيّامٍ رتيبةٍ، وعلى وقع وسوسة السواقي، وأقدام الغادين والقادمين. إنّه إلهيّ الجوهر، غير أنّ نضجه إنسانيٌّ بالكامل، إنّه سرّ عظامٍ وخلايا، ولحمٍ ودمٍ يتكوّنان ويكبران. إنّ ذاك الذي حمل رسالة إنقاذ العالم وخلاصه من خطاياه، لم يكن ملاكًا ولا نيزكًا، بل إنّه، مع كونه إله المطلق، تأنّس بتؤدةٍ، حتّى يكاد يحاكي جميع البشر، في حياة الناصرة الهادئة، حيث الأيّام تتعاقب بلا أحداثٍ، في استقرار قريةٍ وبيتٍ.

وُلد في الطهر والفقر ولم يزِحْ عنهما. المغارة والمذود تحوّلا إلى بيتٍ وضيعٍ يشبه المغارة إلى حدٍّ بعيدٍ، وإلى حانوت نجّارٍ يكدح ويعرق للظفر بلقمة العيش. لقد ارتدى الفقر لباس العمل الشاقّ، والتزم التواضع بخضوعه الطوعيّ لأمّه ومربّيه. أمّا طهره فكان يتجلّى مع كرّ الأيّام، أنقى صفاءً.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «صمت يسوع»، صفحة ٦٧.

وفي حين كانت أحداثٌ كبرى تخضّ العالَم، حيث عظماء ينبهون، وآخرون يهوون ويندثرون، وحيث تيجانٌ تتدحرج وأُخرى تتألّق، لم يتميّز يسوع بأيّ ظهورٍ خارقٍ، بل ظهر مثل أيّ ولدٍ قرويٍّ مُغفَلٍ. كان يُلمّ بأحداث بلاده السياسيّة، وبالتيّارات الدينيّة المتعدّدة، ولكنّه كان يراقبها من بعدٍ، صامتًا، متأهّبًا لخوض رسالته في تلك الأوساط.

إنّ ميزة العظماء هي تمادي فترة تعلّمهم وتأهّبهم، وقصر وقت عملهم الفعليّ. ويسوع أنفق ثلاثين سنةً يتأهّب في الخفاء، وأقلّ من ثلاث سنواتٍ في العمل العامّ العلنيّ. ولو هو كان مجرّد إنسانٍ عبقريٍّ لما كان في ذلك بدْعٌ. ولكنّه أكثر من إنسانٍ، إنّه إلهٌ، هو كذلك منذ الأزل، قبل أن يولد بشرًا، وبعد ولادته. ومن ثمّ، فحياته الخفيّة كانت اختياريّةً، وبملء مشيئته. فقد ارتضى أن يخضع لمتطلّبات الجسد من نسيانٍ وتذكّرٍ، ومهانةٍ، وارتضى التخلّي عن الكرامة الإلهيّة، والعيش، ثلاثين سنةً، إنسانًا ينمو عمرًا وحكمةً، وفق قانون النموّ البشريّ، وأن يمارس مهنةً عاديّةً شاقّةً، وإنّ في ذلك لسرًّا. فهو كان كلّ شيءٍ، ومع ذلك شاء أن يكون كلا شيءٍ، وأن يمتزج بخليقته. لم يرتضِ، فقط، أن يكون إنسانًا، بل ابتغى أن يكونه في الخفاء، مدى ثلاثين عامًا من كامل سني عمره التي لم تكتمل ثلاثًا وثلاثين. حياةٌ بسيطةٌ، في مكانٍ مجهولٍ، تزدريه الأقوال الشائعة، وتضرب اللامبالاة حوله سياجًا.

على غرار يوسف، مربّيه، عمل يسوع بيديه، واثقًا،مثله، من أنّه بصنع الأبواب والنوافذ، والمحاريث، كان يُسبّح الله .

كان يَدهَش للحياة التي أفاضها الله بسخاءٍ، ويجد، في تسبيحه، فرحه، وشعورًا بالامتلاء، يحلم باقتسامه مع الجميع. ولم يكن «الله» هو الاسم الوحيد الذي يدعوه به، بل كان يدعوه «أبي»، «أبّا»، «بابا». وفي بستان أبيه الكبير، في العالم الرحب، كان يشعر أنّه في بيته.

في الناصرة شارك أترابه حياتهم وعبثهم، وساعد القرويّين في أعمالهم الموسميّة، حريصًا على ألاّ يُدهش الناس، وألاّ يؤثّر على نفوسهم بقدراته الإلهيّة الفائقة. جعل نفسه صغيرًا في نظر الناس، لكيلا ينال من حرّيّتهم، فيسوع لا يريد عبيدًا، بل أبناءً لله، وإخوةً لـه مستعدّين لحبّه بمعزلٍ عن دوافع المصلحة، متأهّبين لتأثّر خطاه رغم احتقار الناس، ونبذ العالم. ولو أنّه تجلّى في مجده، واستحال على أيّ إنسانٍ

إنكاره، لكان في الأمر إكراهٌ، في حين كان يبتغي شيئًا آخر: «**ستعرفون الحقّ، والحقّ يحرّركم**».

كَلَفًا بحرّيّة البشر، سجن ذاته في جسدٍ بشريٍّ، وأصبح «**أقلّ من الآب**»، وكابد الجوع، والعطش، والتعب، والقيظ، والقرّ، وعانى، في ذاته، كلّ آلام العالم. أصبح نجّار قريةٍ مغمورةٍ، وعاش وسط قوم جهّالٍ، يحملون، غالبًا، دمغة الخطيئة، وقضى وقته مع البؤساء والهامشيّين، ولم تكن له حاشيةٌ ولا مستشارون.

العقود الثلاثة الأولى من عمره، وهي الأشدّ خطورةً في حياة إنسانٍ، اندرجت في خفيةٍ تامّةٍ.

وحقّ للكثيرين من أبناء شعبه أن يتساءلوا: أحقًّا هذا هو المسيح الذي حلمت به الأجيال؟

تلك الحياة الخفيّة في الناصرة أضفت مجدًا على جميع عناصر الحياة البشريّة.

فقبل الناصرة كان السير، والشرب، والتنفّس، والتأوّه، وتأمّل عصفورٍ يجتاز الجوّ، كان كلّ ذلك يبدو تافهًا. ولكنّ الناصرة أسبغت على كلّ ذلك معنًى شاعريًّا.

عندما نفكّر أنّ ابن الله شرب من ماء نبع، وأكل خبزًا، وغمس قدميه في تراب الطريق، وحدّق إلى القمر، لا يعود بمكنتنا أن نتأمّل القمر كما كنّا نفعل من قبل، ولا أن نطأ الأرض، ونشرب ماءً، ونأكل خبزًا، تمامًا كما كنّا نفعل. فكلّ هذه الأشياء قد تجلّت، و«تألّهت»، بفضل استخدام الله لها. فإنّ أيّة مادّةٍ معدّةٍ لاستخدامٍ يوميٍّ، عندما يستخدمها إنسانٌ شهيرٌ، تتشرّب من عظمته وحضوره، وتصبح ذات شأنٍ عامٍّ. وبفضل يسوع، تحوّلت هذه العناصر: الأرض لأنّه وطئها، والهواء لأنّه تنشّقه، والماء لأنّه شربه واغتسل به، والنار لأنّه كان يشعلها، والشمس لأنّه كان يتأمّل بزوغها وغروبها.

لقد اختار يسوع مكان مولده، والمكان الذي نما، وتعلّم، وتأهّب فيه لرسالته، مثلما اختار العذراء التي ستكون لـه أمًّا، والرجل الذي سيكون لها «زوجًا». وقد اختار الناصرة مكانًا لتلقيح كيانه الخالد.

والناصرة دسكرةٌ مدرّجةٌ، ليست مبنيّةً على تلّةٍ فتُشاهَد من بعيد، ولكن يكفي

التصعيد فيها ثلاث مئة مترٍ كي تنفسح مشاهد رائعةٌ. إنّه مكانٌ حيث بوسع فكرٍ فضوليٍّ، مركّزٍ، وحالمٍ، أنْ ينعم بالسلام، وبوسع ولدٍ عبقريٍّ، ولو عاديّ المظهر، أن يكتسب اتّساعًا وعمُقًا.

* *

ومن حياة الناصرة اليوميّة استقى يسوع الكثير من الأمثال التي وشّى بها تعليمه: فهنا امرأةٌ تخمّر ثلاثة مكاييل من الدقيق بالقليل من الخميرة. وهنا أُخرى فقدت قطعة نقودٍ، فبحثت عنها، قلقةً، وهي ممسكةٌ بيدٍ مكنسةً، وبالأُخرى سراجًا؛ وهنا ملحٌ فقد نكهته فرُمي وديس بالأرجل. وثمّة حمارٌ أو ثورٌ أو نعجةٌ تُستَخرج من بئرٍ سقطت فيه، أو تُقتاد إلى الساقية لتستقي، في يوم سبتٍ. وهناك الجار الذي يقرع باب جاره في منتصف الليل لاقتراض بضعة أرغفةٍ يُقري بها ضيفًا حلّ بغتةً، من غير إنذارٍ. وهناك الكثير من تفاصيل الحياة اليوميّة التي خزّنها يسوع في ذاكرته، ونكّه بها تعاليمه.

لقد أنفق ثلاثين عامًا وسط فلاّحين ومزارعين، وقد خلّف ذلك أثرًا واضحًا على تعليمه. فصُوَره وأمثاله مستمدّةٌ كلّها من حياة القرية، ومضمّخةٌ بروائحها.

لقد كان عاملاً قبل أن يكون معلّمًا ومكرِّسًا. كان كادحًا، وانتظم في تلك الجماعة الفقيرة من البشر الذين يجهدون، مكبّين على الأرض، أو الخشب، أو الحجر، أو الصُّلب.

لقد عاش يسوع عيشةً يلفّها الظلّ، عيشة كفافٍ وكدحٍ. فلا يخجلنّ فقيرٌ من فقره، ولا كادحٌ من كدحه، فالربّ نفسه كان كادحًا وفقيرًا.

حيَـاةُ عَـمَلٍ وَصَـلَاةٍ، وَتَأمُّلٍ (*)

مذ اشتدّ عوده كان على يسوع أن يمتهن حرفةً، فهذا ما أوصى به جميع الحكماء، بحيث لم يتحرّج أعظم الرابّيين من مزاولة حرفةٍ يدويّةٍ. وكان من البدَهيّ أن يزاول يسوع مهنة مربّيه، يوسف، أي النجارة. ولا ريب أنّه قد وجد في معالجة الخشب، وتنشّق روائحه، وإحكام صنعه، ما يُرضيه أكثر من تعلّم الشريعة، والإكباب على تشريح مقتضياتها، وهدر الوقت والجهد في مناقشة جزئيّاتها المملّة.

وفي القرى الصغيرة قد يتولّى الحرفيّ أعمالاً عديدة، فهو، في آنٍ واحدٍ، نجّارٌ، ومعمارٌ، وحدّادٌ؛ وبما أنّ القرويّين كانوا قلّما يبتاعون خبزهم وخضارهم، فمعظمهم يستثمرون رقعة أرضٍ صغيرةً توفّر لهم المؤونة السنويّة، والطعام اليوميّ، فلا عَجَب إن عكست تعاليم يسوع، وأمثال إنجيله، صورة رجلٍ طالما عاش بكدّ ساعديه، ومارس أعمالاً متعدّدةً، وانغمس في دوّامة الحياة القرويّة اليوميّة. فربّما كان، هو، ذلك الزارع الذي قصد حقله باكرًا كي يلقي في أثلامه بذاره، وأتقن فنون البذرِ والحصاد، وقبض على المحراث فعرف أنّ العمل المتقن يقتضي التقدّم في خطٍّ مستقيمٍ، وعدم الالتفات إلى الوراء؛ وخَبَر أنّ الحبّة، إن لم تمت في التربة، ظلّت وحيدةً عقيمةً، ولكنّها إن ماتت أثمرت وتكاثرت. وربّما عمل في كرمٍ، إذ طالما تحدّث عن غرس الكرم، وتسييجه، وحفر المعصرة فيه، وعن خيمة الناطور الذي يقوم على الحراسة. وتكلّم عن الأغصان التي ينبغي تشذيبها كي تؤتي أُكُلاً وفيرًا. وهو يتحدّث، أيضًا، حديث العارف المطّلع عن البناء، وضرورة الحفر عميقًا من أجل إرساء الأسس على الصخر، كي يصمد البناء في وجه العواصف والطوفان، ولا ينهار انهيار البناء المشاد على الرمل، مثلما يتحدّث عن ضرورة تقدير النفقات قبل الشروع بالبناء، لتفادي عدم إكمال البناء، واستثارة سخريّة الجيران وشماتتهم...

* *

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «نجّار الناصرة»، صفحة ٦٥، و«يدا يسوع»، صفحة ٧٠.

المهمّة الكبرى التي سيبلغ بها غايتها على خشبة الصليب، كان قد استهلّها في الناصرة وهو يعالج الخشب، فلقد انخرط في تضامن العاملين الواسع، حيث كلّ فردٍ يخدم الجميع، وأعدّ، بكدحه، قيامة أبناء البشر، في حبٍّ انتصر، أخيرًا، على الأنانيّة والكبرياء. ومنذ الناصرة، انغمس الكلمة المتجسّد، بعمله نجّارًا، في صميم البشريّة الواقعيّة الاجتماعيّة، متّحدًا بجميع البشر، لا من فوق، ولكأنّه ملكٌ أو حَبْرٌ، بل من الدركات السفلى، ولكأنّه خادمٌ.

من الناصرة تولّى مهمّة إصلاح العالَم الكبرى، بعيشه الظروف التي يكابدها كلّ إنسانٍ، عاملاً، منيعًا، هادئًا، نجّارًا، حدّادًا، فلاّحًا، اخشوشنت يداه بمعالجة الخشب، والحديد، والحجر، والنار، متين الساعدَيْن، عريض المنكبَيْن، على غرار من يمارسون هذه المهن. لقد أَلِفَ الوقائع المحسوسة، وعلاقات الشعب الاجتماعيّة، وكان واحدًا من الشعب. فالكلمة لم يتأنّس تأنّسًا مجرّدًا، عامًّا، بل تأنّس في واقع نظامٍ اجتماعيٍّ ومهنةٍ، أصبح فردًا من شعب البشر، وقبل أن يفتح فاه كي يعلن التطويبات، عاشها، عمليًّا، وسط شعب الفقراء، بفقر الإنسان الذي لا يملك سوى جهده، ويتلقّى من الله القدرة على العمل، وبوداعة العامل الذي يتعيّن عليه مواجهة مقاومة الموادّ، من خشبٍ وحديدٍ، ومواجهة مقتضيات العملاء. وقد خَبَرَ جوعَ من يأكل، كلّ يومٍ، الخبز الذي اكتسبه بعرق جبينه، وعطشَ من يقدّر قيمة كأس ماءٍ، وتلظّى بالعطش إلى العدل الذي يعانيه من يبيع عمله وجهده، ويقع، أبدًا، فريسة ظلم عالَمٍ يعيش فيه العظماء والأغنياء على حساب كدّ الفقير والصغير.

وبصنعه المحاريث، كان يسوع يُسهم في إعادة خلق الكون، والبشريّة جمعاء، وكان الروح الذي مسحه، وجاء، هو، كي يشيعه في البشريّة، يملك قدرة تغيير وجه الأرض، والنهوض بكلّ الفقراء، نحو كلّ أنماط التحرّر.

* *

وعقب عناء النهار، غالبًا ما كان يقضي الليل على تلال القرية. وعندما يدفع الباب، في الصباح ويدخل، ويتدفّق معه نور الشمس، كانت أمّه تستخلص من شفافيّة محيّاه، ومن الندى الذي يبلّل شعره، أنّه أنفق آناء الليل يناجي أباه، ويُعدّ مصير العالم الجديد. كلّ كيانه كان يسبح في نبع الحبّ، ويزدهر بحجم الكون،

ويداه كانتا تعانقان البشريّة جمعاء، التي دمغها على صفحة قلبه، وعلى ذراعيه، وحمل، في صلاته، كلّ معاناتها اليوميّة.

* *

كان يتلو النبوءات في المجمع، ولكنّه لم يوحِ لمواطنيه بأنّه مُعَدٌّ لمستقبلٍ متألّقٍ، ولم يتوقّع أحدٌ منهم أنّه يصبو إلى مستقبلٍ غير مستقبل نجّار القرية.

ومنذ طراوة عوده انخرط يسوع في حياة مجتمعه الذي شاركه هواجسه وهمومه. وما كان لمريم ويوسف، في طريق عودة الأسرة من الحجّ إلى أورشليم، أن يظنّا أنّه مع رفاقه، لولا معرفتهما كَلَفه بعشرة الناس، ومقاسمتهم أفراحهم وأحزانهم وآمالهم. ولا ريب أنّه من تعابيرهم البسيطة المعبّرة عن حياتهم اليوميّة، استمدّ لغة مخاطبته لهم.

وكان من أولئك الذين يتجلّى، من خلال كلّ شخصهم وكيانهم، حضور الله، حتّى وهم مكبّون على مهامّ وضيعةٍ. وهو الذي سيأتي يومٌ يأمر فيه العواصف فتهدأ، والرياح فتسكن، كان يبعث السكينة في قلوب من يدنون منه، ويحرّرهم من كلّ شعورٍ قد يثير الأهواء، ويشيع القلق.

وكانت أُمّه قد لقّنته، منذ نعومة أظفاره، الاتّصال بالآخرين بدماثةٍ ورقّةٍ، والحوارَ بالنظرة والبسمة. وعلّمته، أيضًا، قراءة الأحداث على ضوء كلام الله، والنهج وفقًا لهذا الكلام.

ويسوع، «ابن مريم» (مرقس ٦: ٣) تلقّن منها الصفات الحميدة، والدماثة، والكتمان، والتواضع، والرقّة، واحترام كلّ إنسانٍ، والتعاطف مع الجميع. وهو، جوهر الحبّ، تعلّم منها اكتشافات الحبّ الحسّيّة، في الحياة اليوميّة، التي تمتلك النساء سرّها. وهذا ما جعل من إقامته في الناصرة، حقبةً سعيدةً من حياته البشريّة، يغمرها الله والفرح المخيّم على عائلة النجّار الصغيرة.

ولكنّ يسوع لم يأتِ لتذوّق هذه العذوبة الحلوة. فقد كانت فترة شبابه، فترة تأهّبٍ لمواجهة عالم الخطيئة، بكثافة الحبّ.

وكان محيطه يقدّر سموّه الخلقيّ، ويجهل منشأه الإلهيّ، ولا سيّما أنّ العذراء ظلّت حريصةً على إخفاء سرّه في صدرها.

من أُمّه استمدّ الرقّة المرهفة، والعذوبة، والتسامح، والصبر، والصمت، ومن يوسف تعلّم، فضلاً عن مهارة النجارة والبناء، الوداعةَ، والوفاءَ، والتواضعَ، والإصغاءَ إلى إلهام الله، والكَلَفَ بالصمت والصلاة. وهذه كلّها رسّخته فيها، أيضًا، أُمّه العذراء.

* *

وتأهُّبًا لرسالته المقبلة، كان يسوع يقظًا إلى كلّ ما يدور من حوله.

كان يتأمّل الطبيعة في شَغَفٍ، ويقرأ كتابها بيقظةٍ، ولا يكتفي بإلقاء نظرةٍ خاطفةٍ عليها، فربيع الجليل نزهةٌ للعين والقلب. وكان يدعو إلى مراقبة الطبيعة، والإصغاء إلى ما توحي به: «**راقبوا زنابق الحقل ...**» لقد طالع فيها لمسة أبيه وعمله، واستمدّ منها نموذجًا لبعضٍ من مبادئه السامية، مثل الزهد في الامتلاك، والاعتماد الكلّيّ على عناية الله الذي يغدق عطاءه بلا حسابٍ. وستزخر مُثله بهذه الملاحظات الطليّة العذبة، وستزدهي بألوانها النضرة. ولقد شكر للآب طيبته، إذ إنّه يُطلع شمسه ويرسل غيثه على الصالحين والأشرار. وعن الريح قال لنيقودمُس: «**الريح تهبّ حيث تشاء، وتسمع صوتها، ولكنّك لا تدري من أين تأتي، ولا إلى أين تذهب. كذلك هو المولود من الروح**». ويسوع، نظير مواطنيه، كان يقرأ في ألوان المغيب ما سيكون عليه الغد من صحوٍ أو مطرٍ.

ومن خلال صُوَر الطبيعة كان يقرّب إلى أذهان مستمعيه صورة ملكوت السماوات، بأسلوبه الممتع.

كان يدهش من كلّ شيءٍ، مع أنّه يعرف كلّ شيءٍ في أعماق كيانه. كان مراقبًا ثاقب الرؤية، ميّالاً إلى الدعابة التي هي، غالبًا، من نتائج الحبّ. لا كآبة فيه، بل وقارٌ جمٌّ، وسلامٌ يحاكي سلام طبيعة الأشياء. سلامه شِعرٌ يتفجّر من نبعه، ذلك الشعر الذي سيتدفّق، يومًا، من نفس فرنسيس الأسّيزيّ.

وراقب يسوع، أيضًا، المجتمع، فاستوقفته، خاصّةً، مظاهر الظلم. شاهد عمّالاً يجلسون طيلة النهار على قارعات الطرق بانتظار من يستخدمهم؛ وشاهد فلاّحين لا أرض لهم، وصاحب أرزاقٍ يبتاع خمسة أزواج بقرٍ، دفعةً واحدةً كي تحرث له أرضه. رأى من ضاقت أهراؤه عن استيعاب غلّته الوفيرة، فارتأى هدمها وابتناء أكبر

منها، في حين انتشرت في جواره، جموع الفقراء، والمقعدين، وأصحاب العاهات. ورأى وجيهًا يقيم لأمثاله مأدبةً حفلت بلحوم العجول والخراف المسمّنة، وبشتّى الأطايب، وتقاعس المدعوّين الموسرين عن تلبية الدعوة من جرّاء انشغالاتهم المتعدّدة، في حين تفاقم من عضّ مِعَدهم الجوع من حوله. سمع عن عبيدٍ يُضرَبون ضربًا كثيرًا (لوقا ١٢: ٤٧)، وعن أسيادٍ قساةٍ (متّى ٢٥: ٢٤) وعن وكلاء يقرنون الفساد بالحنكة، وعن مرابين، وسجونٍ.

رأى وكلاء يعنّفون الخدم، وجندًا لا يكتفون برواتبهم، فيفرضون على المواطنين أتاواتٍ، ومدينين تفوق ديونُهم طاقتهم على وفائها؛ وقضاةً فاسدين لا يخشون الله، ولا يحترمون البشر.

يبدو أنّ العالم الذي عاش فيه يسوع لم يكن أرحم من عالمنا!

ولمس يسوع، أيضًا، جَيَشان الثورة على الاحتلال الرومانيّ في صدور الجليليّين، الغيورين المتطرّفين منهم، والوطنيّين المتزمّتين، أو مجرّد القرويّين الذين رزحوا تحت وقر الضرائب التي فرضتها عليهم السلطات المحتلّة، وسلطات الهيكل. وتنامى إلى سمعه أمر الحجّاج الجليليّين الذين مزج بيلاطس دماءهم بدماء تقادمهم في الهيكل؛ وسمع عن الأمراء الهيرودسيّين الذين كانوا يتسابقون إلى روما للظفر بتاج الملك، في حين كان شعبهم يمقتهم.

وهكذا، مع سوقه حياةً خفيّةً صامتةً، كان يسوع يراقب، بعنايةٍ، العالم الذي سيكون مسرح رسالته.

نـمُـوّ يسَـــوع

لقد أوجز الإنجيليّ لوقا فترة حياة يسوع الخفيّة، وهي الطولى، بكلماتٍ معدوداتٍ: «**كان يتقدّم في الحكمة والبنية، وفي الحظوة عند اللّه والناس**».

الحكمة هي موهبة الفهم والحذر، والنعمة هي البسمة والفضيلة الإلهيّتان اللّتان يمنحهما اللّه لأبنائه.

إنّ في نموّ يسوع سرًّا مستعصيًا، نابعًا من سرّ اقتران طبيعةٍ إلهيّةٍ بطبيعةٍ بشريّةٍ، في كائنٍ واحدٍ، ممّا يفسح المجال لتساؤلاتٍ عديدةٍ. فهل اشترك الكلمة الأزليّ بالذاكرة البشريّة النابعة من المكتوب؟ وهل هو أنار هذه الذاكرة، وعمّقها، وجعلها تشعّ بأنواره؟ وهل هو أضفى على المكتوب ما يحاول الشاعر إضفاءه من عمقٍ واتّساعٍ، وتحويل الكلمة إلى مجموعة كلّ المعاني الممكنة؟

إنّ الوحدة الكلّيّة بين الطبيعة البشريّة والطبيعة الإلهيّة زوّدت يسوع بحدْس الحقيقة اللامحدودة، وبامتلاك الحبّ اللانهائيّ، والتمتّع المتواصل بالجمال اللامحدود. ولكنّها لم تمنع نموّ المعرفة التجريبيّة في عقله، وممارسة الفضائل بالتدرّج، وجهد الإرادة، وتعب الجسد، والعمل، والألم.

كان ينمو، أي إنّه لم يشأ أن يُظهر، منذ صغره، كلّ ألوهته، كي يبرهن على أنّ الطبيعة البشريّة التي ارتداها لم تكن مجرّد تظاهرٍ، بل إنّه خضع طوعًا لمواطن وهنها، ولنموّها التدريجيّ. وقد اندرج نموّه البشريّ في بساطةٍ عفويّةٍ، بحيث لم يساور أيًّا ممّن عرفوه شكٌّ في مصيره الفريد.

وإلى جانب نموّه الجسديّ، كان ينمو في الحكمة والنعمة، فعلى حدّ قول كيرلّس الإسكندريّ: «لقد أذن الكلمة المتجسّد، طوعًا، للسنن البشريّة أن تمارس عليه شرائعها، لكي يشبهنا إلى أبعد حدٍّ. ولو هو نما نموًّا مفاجئًا لكان نموّه مريعًا».

مداركه البشريّة كانت تتّسع، شيئًا فشيئًا. ولا ريب أنّ حادث تريّثه في الهيكل

ومناقشته لعلماء الشريعة كان دليل رغبةٍ عارمةٍ لديه في الاطّلاع على ما قيل فيه وفي أبيه. وعلى هذا الاطّلاع كان يقف ساعات فراغه، وراحته السبتيّة.

على يَديْ مريم ويوسف تلقّن لغة بلادنا الآراميّة الجميلة. وباختلافه إلى المجمع ألمّ بالعبريّة، ولا ريب أنّه تلقّن أيضًا اللغة اليونانيّة، لغة التواصل العالميّ، الرائجة. ومن المرجّح أنّه، في الخامسة من عمره، اختلف إلى المدرسة الابتدائيّة الملحقة بالمجمع، حيث تلقّن قراءة مقاطع من الكتاب المقدّس، ونسخها بقلمه.

كان الجميع يلتئمون في المجمع يوم السبت. ويمكثون فيه معظم النهار. وكان المجمع بمثابة مدرسةٍ، ومقام عبادةٍ. وكان خادم المجمع ينهض بوظيفة معلّمٍ يدرّس الصغار والكبار القراءة والكتابة والحساب، مع الإيمان وتاريخ الأجداد. ولم يكن القوم يتعلّمون القراءة، أوّلاً، كي يطالعوا التوراة في ما بعد، بل كانوا يتعلّمون القراءة، بقراءة التوراة. القراءة وقراءة التوراة لا تنفصلان. ولم يكن اليهود يعرفون سوى كتابٍ واحدٍ يتضمّن القول الإلهيّ. ولم تكن القراءة، كما هي اليوم، سريعةً، نظريّةً، بل كانت تتألّف من مقاطع متميّزةٍ، منفصلةٍ بعضها عن بعض، وتتمّ بصوتٍ مرتفعٍ. وبهذه القراءة كان التاريخ يتجسّد، من جديدٍ، في وجدان كلّ فردٍ.

لم يغشَ يسوع مدارس علماء الشريعة، ولم يتثقّف على يد أحدٍ من الرابّيّين المشهورين. ومع ذلك يتّضح من أقواله، إذا ما قورنت بالثقافة الرائجة، آنذاك، أنّه بعيدٌ عن أن يكون أمّيًّا. فهو يتحرّك بيُسرٍ في أرجاء الكتاب المقدّس، وفي التقليد الشفهيّ، ويستدلّ بهما استدلال معلّمٍ متملّكٍ. وغالبًا ما كان يخاطب الكتبة وعلماء الشريعة بقوله: «ألم تقرأوا؟» مبرهنًا على سعة اطّلاعه على ما جاء في الكتب. ولا بدْع إن أُطلق عليه لقب «رابّيّ»، وإن أدهش الجميع بمعرفةٍ للكتب لم يتلقّنها على يد أحدٍ من البشر. وأيُّ رابّيٍّ كان جديرًا بتعليم ذلك «المعلّم»؟ وهل هو كان في حاجةٍ إلى تفسيراتهم القاصرة، التافهة، المعقّدة، أو لعلمهم الضحل، الذي لا يستأهل اسم العلم؟ وهل هم كانوا مؤهّلين لمساعدته على النموّ في الحكمة والنعمة؟ من المحقّق أنّه لم يستحقّ أحدٌ منهم لقب «رابّيٍّ» مثله.

ولم يفسّر أحدٌ، قطّ، النبوءات والمزامير، نظيره، تفسيرًا واثقًا، واضحًا، عميقًا. فقد كان يسمع، من خلالها، صوت أبيه، ويقرأ مشيئته ومخطّطاته. وبذلك كان يُدهش خصومه. أوَ ليس، هو، مركز الوحي الإلهيّ؟ أوَ ليست سيرته هي التي

روتها، مسبّقًا، الكتب المقدّسة، بكلّ ما أحاط بها من مجدٍ وهوانٍ؟ أوَ ليس هو من تكلّم عنه الأنبياء؟

معرفته هذه للكتب انصهرت في لُحْمة حياته وتعليمه، وقد استعان بها على درء تجارب إبليس لـه في الصحراء، وعلى إفحام خصومه، وعلى تفسير كلّ ما يتعلّق بآلامه وقيامته لتلاميذه، وسيوشّي تعاليمه باستشهاداتٍ منها.

وفيما كانت نفسه تستنير بالمعرفة المباشرة الإلهيّة لمخطّط الخلاص، ولوسائل تحقيقه، كان هو يرسّخ هذه المعرفة بتأمّل ما قاله عنه الأنبياء. وكانت معرفته تترسّخ بقدر إمعانه في التأمّل، وبقدر توالي تحقّق النبوءات.

كان الأنبياء قد أدلوا بأقوالٍ تتخطّى فحواها توقّعاتهم ومداركهم. ولكنّ يسوع كان يعرف أبعاد أقواله، وأفعاله، وقيمتها اللامحدودة، بفضل معرفةٍ أتته مباشرةً من الله، وأكملت معرفته البشريّة.

معرفته البشريّة وفّرت لرسالته الصُّوَر والصِيَغ التعليميّة، وقاعدةً صلبةً، في حين أنّ معرفته الموحى بها، ورؤيته المباشرة لسرّ الله ولمخطّطه، أضاءا هذه المعرفة بنورٍ يوليها اليقين والقدرة. هذان التكامل والتناغم بين المعرفتَيْن، كانا يلبّيان مقتضيات إعلان الملكوت، وإعلان تجسّد يسوع، الإله الحقّ، والإنسان الحقّ.

أُسرته، والمجتمع، والمحيط، والطبيعة نفسها، تضافرت على تثقيف عقله البشريّ، وإرادته. أمّا بصفته إلهًا فكان يتخطّى كلّ علمٍ.

شَخصِيَّةٌ تَتَكوَّن، وَتَأَهُّبٌ لِلرِّسالَة

تكوُّنُ شخصيّة يسوع يظلّ لغزًا يتعذّر النفاذ إلى سرّه. بمَ كان يُعمل فكره، وهو يعمل، في منجرته الوضيعة؟ وبأيّة صلاةٍ كان يخاطب أباه السماويّ؟ من المحقّق أنّه لم يتعرَّض لتصارع الأهواء، والميول التي تمزّق نفس كلّ إنسانٍ منذ صغره، إذ لم يكن لقوى الشرّ أيّة سطوةٍ عليه. وإن هو خَبَر المأساة الداخليّة، فهي كانت مأساة العزلة، ومشاركة الآخرين معاناتهم، ورؤيته للشرّ وقدراته المخيفة، من حوله. ولكنّه لم يعرف وجع الضمير، ومصارعة الغرائز.

سكونه الداخليّ، وتناغم عواطفه لم يتحقّقا نتيجة صراعٍ، بل كانا نتيجةً طبيعيّةً لتنامي القوى التي سكنت نفسه منذ الصبا.

لم يراوده، قطّ، شعورٌ بالخطأ أو بالذنب، مثلما راود القدّيسين في كلّ زمنٍ. وحتّى عندما لا يفهمه الآخرون، ويؤنس شعورًا بالوحدة، لا تنال هذه الوحدة شيئًا من نورانيّة فكره: فيسوع مقيمٌ، دائمًا، مع ذاك الذي يدعوه أباه، الذي كثيرًا ما كان يعتزل على ربى التلال كي يحاوره، وعلى تلك الربى، كان يُعِدّ مصير العالم.

هل تصوّر، يومها، الرومانيّون، أسياد العالم آنذاك، أنّ أحفادهم سيجثون، يومًا، أمام نجّارٍ وضيعٍ، قَدِمِ من إقليم شرقيٍّ قصيٍّ؟

إنّ يسوع الذي جاء كي يُظهر اللّه للبشر، ما انفكّ يُعمل الفكر في رسالته، بتأمّله الأشياء، وتلقّن أسمائها وخصائصها. وهو، بالتجوّل بين البشر، ما انفكّ يستجلي معاني ما كان عليه أن يعلّمه. لقد انحنى، بشوقٍ، على كلّ زهرةٍ كي يستخلص منها العنصر المعبّر عن فكرة اللّه المبثوثة في الأشياء، والتي يتعيّن عليه تبليغها. وإن تميّز الشاعر بإماطة اللثام عن «حضورٍ» في وقائع العالم، وعن رسالة هذه الوقائع إلى البشر، فقد كان يسوع شاعر العالم الأكبر، وقد أعلن عن اللّه، انطلاقًا من قاعدةٍ شعريّةٍ عميقةٍ.

* *

تلقّى يسوع ثقافة يهوديٍّ عاديٍّ، في منطقةٍ مغمورةٍ، وخاض حياة العمّال والفلاّحين، بين ظهراني عمّالٍ وفلاّحين، وقد خلّفت تلك البيئة أثرها فيه. كان يترعرع جسديًّا، وتنمو طاقاته الفكريّة والشعوريّة، ويجتاز، تدريجيًّا، مراحل المراهقة والشباب، والرجولة، جسديًّا وفكريًّا، خاضعًا لسنّة البشريّة التي تبنّاها.

وفي الآن عينه كان يخوض حياةً كهنوتيّةً مرتكزةً على العبادة الإلهيّة، لا عبادة أورشليم الدامية الرسميّة، بل عبادةٍ قرويّةٍ، تكتفي بالعناصر الأساسيّة، وبجوهر الصلاة، وهو التضحية الداخليّة، ومطالعة الكتاب المقدّس.

لقد أصغى يسوع إلى تاريخ شعبه السابق، بكلماتٍ بشريّةٍ، وأحاط علمًا بما جرى، منذ أيّام الآباء، حتّى أواخر الأنبياء، وسمع أسماء الأماكن الأكثر تألّقًا في العهد الأوّل. وحفظ، عن ظهر قلبٍ، المزامير التي سيستخدمها لمحادثة أبيه. عرف أشعيا، ومنه اطّلع على دعوته الخاصّة. وسمع قصّة إرميا، وهي ظلٌّ لقصّته الخاصّة، وعرف هوشع، وملاخيا، ودانيال الذين نجد آثارهم في مواعظه، وهناك أدرك أنّه وُلد من أجل رسالةٍ.

من خلال تاريخ شعبه تبيّن تاريخه الخاصّ، وكانت تتردّد، في ضمير كيانه الإلهيّ والبشريّ معًا، دعوةٌ إلى عمل ما هو أعظم ممّا فعله عظماء قومه. في ضمير يسوع الناصريّ، كان ما سمعه عن هوشع، وملاخيا، ودانيال، وداود، وخاصّةً عن أشعيا الذي كرّسه الربّ، تترجّع له أصداءٌ بعيدةٌ، ويتداخل تداخلاً حميمًا، ويمتزج امتزاجًا مقدّسًا، مسفرًا عن حدْسٍ موغلٍ في الصفاء.

منذ صغره، كان يسوع هو المسيح المتألّم الذي بشّر الصغار والفقراء. كان أكثر مَن آتى البشر خيرًا، وأقلّ من تلقّى منهم عرفانًا. وقف حياته على جعل شعبه أكثر طهرًا. ولكنّه لم يتلقّ من شعبه سوى المهانة والآلام. جاء ليخلّص شعبه، فأمسى ضحيّته. ولكي ينتهج هذا الدرب كان عليه أن يمتلك القسط الأقصى من السخاء. وقد قال أرسطو إنّ ميزة الفضيلة القصوى هي أن يكون المرء مستحقًّا لأرفع تكريمٍ، ولكن لا ينال سوى الضئيل منه، أو أن يتلقّى نقيض التكريم: الصمت والازدراء.

وتجاورت في نفس يسوع دعوتان: دعوة البشارة، وتبليغ البشرى، على غرار الأنبياء؛ ودعوةٌ أكثر حميميّةً، دعوة من يبذل حياته عن نعاجه، ومن يرتضي أن يموت عن ذويه، موتًا مهينًا.

لم تبُحْ الأناجيل بشيءٍ من خبراته في الناصرة، ولكن من خلال تعاليمه اللاحقة يمكن استنتاج تلك الخبرات، وتملّيه من الطبيعة، ومن حياة الشعب البسيط. فقد راقب البشريّة، كما هي، ساهمةً عن الأسرار، مهتمّةً بالزواج، والزرع، والبيع، والولادة، والموت، وهي ذاهلةٌ عن أسباب الحياة والموت. وشاهد، أيضًا، نتائج خطيئة الجسد، التي لم يعرفها بالخبرة الشخصيّة.

كان مشرعًا على كلّ الاتّجاهات، عاكسًا الأشخاص والأشياء، منفتحًا إلى أقصى الحدود. بيُسرٍ ولج عالَم السامريّة، وعالَم نيقودمس. وأيّ كونٍ وُجد فيه كان بيته. تلك هي غاية المسيحيّ القصوى، تلك كانت غاية بولس، وإن لم يقوَ أحدٌ من المسيحيّين، حتّى القدّيسين منهم، على مجاراة يسوع في هذا المضمار.

منذ صباه كان يسوع ما سيكون عليه أبدًا، وديعًا ومتواضعًا، أي منفتحًا على الجميع. وإن نحن حاولنا أن نتخيّل الكائن السرّيّ المدعوّ الله، لوصفناه بالوديع والمتواضع، ولكن إلى ما لانهاية.

أقواله تختلف اختلافًا كلّيًّا عن أقوال الفرّيسيّين، والصدّوقيّين والأسّينيّين. إنّها تحاكي بحيرةً تعكس السماء كلّها. إنّها تذكيرٌ بتاريخٍ كاملٍ، وبذورٌ يُستشفّ منها المستقبل؛ وهي تقرن الصلابة بالشفافيّة. عندما قال: «**السماء والأرض تزولان، وكلامي لا يزول**»، كان محقًّا، وها نحن، بعد ألفي سنة، نملك على ذلك الدليل.

وفكر يسوع يخلق الشفافيّةَ، أي إنّه يقضي على كلّ كتيمٍ، جامدٍ، غامضٍ، ومغبرٍّ في الجوّ الروحيّ. وأقواله، في بساطتها، وإيجازها، وعمقها، تنحفر في ذاكرة البشر، ولو سمعوها مرّةً واحدةً. ومن المحقّق أنّ أقوالاً كثيرةً من أقواله، قد أوردها الإنجيل، أصيلةً كما نطق، هو، بها.

* *

عوامل متعدّدةٌ، إذن، تضافرت على تكوين شخصيّة يسوع الإنسان. غير أنّ العامل الجوهريّ هو قوّةٌ داخليّةٌ، تتخطّى كلّ تحليلٍ وتقديرٍ، قوّةٌ تلقائيّةٌ إلهيّةٌ، كانت أساس تميُّز يسوع وفرادته. فميزة يسوع أنّه جاء العالم بوعيٍ كاملٍ لله، ولم يتخلَّ عنه، لحظةً. ولئن هو التقى الله في الكتب، وفي الطبيعة، فلأنّه كان يمتلكه في داخله، ويحيا معه حياةً حميمةً، في حوارٍ دائمٍ، بل لأنّه كان هو الله.

ونتج بعض نموّ يسوع من المحن والتجارب، ولكنّها تختلف عن تجاربنا التي تثيرها أهواؤنا الشرّيرة، وأوهان الجسد. فقد كان يسوع، بمولده، منزّهًا من الخطيئة والشرّ، بل كان القداسة مجسّدةً. وكان يسود كلَّ كيانه تناغمٌ كاملٌ، بحيث لم يواجه، يومًا، عواصف الأهواء الصاخبة. ومع ذلك، كانت آلامه النفسيّة، وانتصاراته المتكرّرة على التجارب، عاملاً في نموّه، حكمةً ونعمةً.

منذ صباه وعى دوره كمسيحٍ، وصِفَته ابنًا للّه، وكان لهذا الوعي الدور الأكبر في نموّه. ونموّه كان قائمًا على طبيعته الإلهيّة. وكان مربّيه هو اللّه، أي ذاته.

لم يكن أيّ انفصالٍ بين الإنسان واللّه، في صميم هذه الشخصيّة الإلهيّة. فقد كان يسوع يفتح، تدريجيًّا، ووفقًا لشتّى المناسبات، عين نفسه على نور الكلمة الذي كان يحمله، جوهريًّا، في ذاته، وعلى ضوء هذا النور كان يقرأ ما يضطلع به من عملٍ، وما يتلفّظ به من قولٍ. وهكذا كان يضيف إلى العلم الطبيعيّ والبشريّ، العلم الإلهيّ، الذي يفيء إليه في حدود ما تقتضيه الأحداث، ووفقًا لسنن الحكمة التي كانت ترسمها العناية الإلهيّة نفسها. وهذه الأحداث كانت، أبدًا، متطابقةً مع مراحل الحياة البشريّة المتعاقبة، ولذلك، يلحظ الإنجيليّ أنّ يسوع الطفل كان ينمو في الحكمة أمام اللّه والناس، أي إنّه، مع كون علم اللّه اللامحدود بتصرّفه، كان الإنسان، في يسوع، لا يستخدمه إلاّ بمقدار احتياجاته، وفقًا لسنن نموّ طبيعته البشريّة، ورسالته الإلهيّة. وبالتالي لا ظواهر غير طبيعيّةٍ، أو فائقةً، فيه. فحينما كان طفلاً، لم يتكلّم بأقوال رجلٍ، ولا هو فَعَل فِعْل رجالٍ. فقد كان من شأن مثل هذا السلوك المبكّر، السابق لأوانه، والمخالف للطبيعة، أن يخيف الجميع. وبالتالي اكتفى بأن يكون طفلاً مثاليًّا. ومع كرّ السنين، سيسهم مشهد الطبيعة، والعلاقات مع البشر، وعادة التأمّل، في إنماء فكره البشريّ تدريجيًّا، وفي تطابقٍ تامٍّ مع مشيئة أبيه، وسيرقى يسوع بهذا العلم، إلى مرتبة الكمال، على ضوء النور الأبديّ الذي يحمله في ذاته.

* *

صمتُ يسوع حتّى الثلاثين من عمره، هو أطول صمتٍ وأكثره إدهاشًا. فخلافًا للبشر أجمعين، لم يكن يسوع في حاجةٍ إلى تأهّبٍ للرسالة، ومع ذلك قضى، متأهّبًا لها، أكثر من أيّ إنسانٍ.

أُسْـــرَةُ يسُـــوع

أُسرةٌ فريدةٌ: أمٌّ عذراءُ، وأبٌ عفيفٌ، وابنٌ هو خالق كليهما. يوسف يتولّى إعالة الأُسرة وإدارتها. ومريم تتولّى تقديسها، وغمرها بالعذوبة. والطفل يسوع يضيئها بنور السماء. بيت تقوًى مضطرمةٍ، وطهرٍ ملائكيٍّ، وسلامٍ كاملٍ.

ومع أنّ يسوع لم يكن في حاجةٍ إلى تربيةٍ، فقد وفّر له الوالدان تربيةً تقرن الحزم بالرّقة، والدينيّ بالعمليّ، بفضل قلب مريم العميق، والرقيق، وروح يوسف المستقيم، النبيل، السامي. كلاهما كانا مكرَّسَيْن للواجب، وليسوع، ولله، ولا يمكن تخيّل مربّيَيْن أجدر بالمسيح، وأكثر استنارةً بالنعمة، وأشدّ قربًا من أفكار الله. تربيتهما للطفل الإلهيّ الذي أوكلت إليهما تنشئته، كانت عبادةً له.

ويسوع، بخضوعه لهما، كان يتمرّس من الخضوع لمشيئة أبيه السماويّ.

* *

– **مريم العذراء**

إنّها صلة الله بالبشريّة. فابن الله الذي جاء كي يستهلّ جنسًا جديدًا من أبناء الله، كان متحرّرًا من سيل الأجيال الأرضيّة العكر، واختار أن يتجسّد في أحشاء عذراء طاهرةٍ.

إنّها تنتمي إلى الفئة الفقيرة من بيت داود. ولكنّها احتفظت بالنبل والمهابة اللّذيْن تجلّيا من خلال جوابها على بشارة الملاك. طُلب منها أن تقفز في ليل الإيمان، فلبّت في منتهى العظمة والبساطة. ومنذئذٍ باتت حياتها كلّها رهينة حياة ابنها. وقد تحمّلت في صمتٍ، وصبرٍ، وبطولةٍ، كلّ ما فرضته عليها أُمومتها: ارتياب خطيبها في شرفها؛ سفرها الشاقّ إلى بيت لحم، في أيّام حملها الأخيرة؛ وضعها ابنها في مغارةٍ مشرعةٍ للريح؛ الهرب إلى مصر، وتجشّم الغربة واللااستقرار، وخوض شتّى ضروب

المخاطر... وإدراكها، عندما بلغ الطفل الثانية عشرة، أنّ من تَمَحْور عليه كلُّ مصيرها إن هو إلاّ غريبٌ إلهيٌّ.

ومنذئذٍ، شرع السيف الذي تنبّأ به سمعان الشيخ، يتلوّى في قلبها. وفي جرح قلبها هذا وقعت بذرة الخلاص، ونمت. تلت ثماني عشرة سنةً من السكون، والصمت، وفرح الاهتمام اليوميّ بالابن المحبوب المعبود، والتساؤل المضني عن مصيره. وفي تلك الأثناء ما برح السيف مسلّطًا.

وأزف موعد هجره البيت، ولكنّها لم تنأَ عنه. في عرس قانا، هي التي سبَّقت ساعته. ولّما تنامى إليها أنّ استغراقه في التعليم، وشفاء المرضى والعاهات، قد أذهله عن الطعام والشراب والنوم، هرعت للاطمئنان عليه، وانتظمت حياتها على وقع ترحاله، إلى أن انتصبت، مفجوعةً، أمام صليبه وقبره. ومع كلّ ذلك لا نكاد نسمع لها نأمةً.

في غمرة نزاعه أعطاها يوحنّا ابنًا، ووهبها ليوحنّا، أمًّا. لفتةُ حنانٍ وبرٍّ منه. ولكن أيّ ابنٍ، أيًّا كان، كفيلٌ بأن يحلّ في قلب أُمٍّ محلّ ابنها؟ وأيّ ابنٍ، مهما سما شأنه، يحلّ محلّ يسوع؟

«ساعته» التي قرّبت، هي، أجَلها، في عرس قانا، جاءت لتأخذ منه ومنها كلّ شيءٍ، ولتدعه وحيدًا مع كلّ خطايا البشر التي سحقت كاهله، وفجّرت دماءه.

حياته كانت حياتها. القدّوس وافاها، فمنحته كلّ شيءٍ: قلبها، ودمها، وكلّ طاقات حبّها. لقد التصقت به، ولكنّه تخطّى قامتها، والهوّة التي كانت تقصيه عنها كانت تمضي اتّساعًا، يومًا فيومًا. ربّما هي لم تدرك كنه هوّة الألوهة التي كانت تبعده عنها، ولكنّها استعاضت عن الفهم بالإيمان. أوَ لم تقل لها إليصابات، بإلهام الروح: «**طوبى للّتي آمنت بأنّه سيتمّ ما قيل لها من لدن الربّ**»؟ هذا الإيمان كان عليها أن تُجدّده، وتنمّيه، وترسّخه باستمرارٍ، متجاوزةً بواعث الشكّ التي كانت تراودها أحيانًا.

كان عليها ألاّ تخامرها ريبةٌ في ذلك «القدّوس» الذي حملته، ووضعته، وغذّته بلبنها، ولمست هشاشته وهو طفلٌ، ثمّ رأته ينأى عنها إلى عالَمٍ آخر. وكان عليها ألاّ ترتاب في حبّه، وبرّه، عندما تخلّى عن عطفها وحنانها. كانَ عليها أن تتوسّم،

في كلّ ذلك، مشيئة الآب، فلا تثبط لها عزيمةٌ، ولا يهن لها مراسٌ، بل أن تمعن فيه إيمانًا، وأن تقتفي كلّ خطوةٍ من خطواته، حتّى وإن استغلقت عليها أبعادها. تلك هي عظمة مريم. كلّ خطوةٍ خطاها ابنها صوب مصيره الإلهيّ، خطتها هي، ولكن في الإيمان. وأنوار العنصرة هي التي أضاءت لها كلّ ما كانت تودعه في سرّ قلبها.

وبسبب إيمانها هذا، طوّبها يسوع، وبه كانت الأقرب إليه، في صميم عمليّة الفداء.

لقد امتلكت مريم كلّ الفضائل، وجمعتها في تآلفٍ كاملٍ، وما كان جمال محيّاها سوى تعبيرٍ عن قداستها التي تألّقت على الملأ.

من خلال دور الأمومة الذي أدّته في عفّةٍ مطلقةٍ، تميّزت بصورةٍ فائقة الجمال، ومنقطعة النظير. إذ ما من خليقةٍ نعمت بمثل حظوة الله لها، وبمثل فيض نِعَمه عليها. وحسْبُ ألقاب أمّ الربّ، أمّ الكلمة، أُمّ الخالق، أمّ الله، التي نطلقها عليها، تعبيرًا عن سموّ كمالها ورفعتها. وقد تمثّل فضلها في استئهالها لهذه الامتيازات، وهذه البركات، وفي نهوضها، برفعةٍ ونبلٍ، ومن غير تخاذلٍ ولا انهيارٍ، بعبء كرامةٍ فريدةٍ.

وتنتابنا الحيرة في تحديد الفضيلة الكبرى التي تميّزت بها تلك النفس الفريدة المثال! أهي الإيمان الذي غبطتها عليه إليصابات؟ فقد آمنت بلا تردّدٍ ولا تحفّظٍ، وبكلّ روحها وبكلّ قلبها، بإمكانيّة معجزةٍ تتخطّى، بلا قياسٍ، قوى الطبيعة، في حين تردّد الكاهن زكريّا وسواه، في الإيمان بوعدٍ إلهيٍّ، ظنّوه متعذّر التحقيق.

أم هو طهرها البتوليّ، الذي أبت أن يُخدَش، حتّى من أجل أمومةٍ إلهيّة؟ إنّها، بحملها كلمة الله في أحشائها، وبحملها ليسوع في أعماق كيانها، خلال حياتها كلّها، أمست أقدس هيكلٍ، وأطهر محرابٍ، في الكون، وقد نقلت عدوى طهرها إلى زوجها يوسف، الذي، في جوارها، التزم العفّة، وازداد طهرًا.

أم هو تواضعها اللامحدود الذي حملها على إعلان نفسها أمَة الربّ، في الوقت الذي كانت تحظى فيه بأعظم تقديرٍ وتمجيدٍ، والذي حداها إلى الصمت والتواري وراء ابنها طيلة حياته وحياتها؟ أين من هذا التواضع والامّحاء أُمّهات عظماء البشر!

أم هو طاعتها المفعمة استسلامًا لأمرٍ قذف بمصيرها إلى هوّة المجهول، وسبّب لها ظنون أقرب الناس إليها، وآلامًا جمّة؟

أم هو السكون الزاخر بالنبل الذي تلقّت به عرض الربّ، بواسطة الملاك جبرائيل؟ فإثر لحظات دهشةٍ، أدركت فيها عظمة الدور الذي انتُدبت له، لم تُبدِ رعدةً، ولا اندفاعًا، بل فرحًا ساجيًا عبّرت عنه بتعظيمها الربّ. هذا السكون حافظت عليه في أشدّ الظروف قسوةً، وحتّى عند أقدام الصليب.

أم الصمت الذي يبدو، أحيانًا، محيّرًا، ولا سيّما صمتها حول حملها الإلهيّ الذي عرّض سمعتها وحياتها؟ لقد التزمت الصمت، إجلالاً للكلمة الذي غُرس في أحشائها. وكم طوت صدرها على أسرارٍ، عكفت على تأمّلها في الصمت والخشوع، وكم استعصى على مداركها الكثير من أقوال يسوع وأفعاله، فأودعته طوايا ضلوعها، وأمعنت فيه تأمّلاً، إلى أن جلا الروح القدس سرّه! وسحابة حياة ابنها الخفيّة، حيث مضى الله في التأنّس حتّى نهاية الشوط، ظلّت تعبده، في صمتٍ، بحيث لم يخامر أيًّا من سكّان الناصرة شكٌّ بأنّ تلك الأمّ الكادحة البسيطة هي أمّ الله، والمباركة بين نساء الأرض طرًّا.

وقد انتقلت عدوى صمتها إلى الذين عرفوها، واحترموا كتمانها، مثل الإنجيليّ لوقا الذي حاورها عن كَثَبٍ، ويوحنّا الذي أخذها إلى بيته، واتّخذها أُمًّا، وبولس الذي، لا ريب، التقاها في أورشليم وفي أفسس، ومع ذلك لم يأتوا على ذكرها بكلمةٍ، احترامًا لصمتها.

وقد امتدح فيها الآباء بساطةً مطلقةً، ورقّةً عذبةً، ومعرفتها العميقة للكتب المقدّسة، ودأبها على الصلاة والتأمّل، اللّذين كانا نسيج حياتها.

أمّا حبّها لأكمل الأبناء وأجملهم، فلا يحيط به وصفٌ، ويتخطّى كلّ تفكيرٍ.

وبالإجمال هي أطهر النساء، وأوفرهنّ وفاءً، ورقّةً، وتواضعًا، وكمالاً، وروعةً. فتلك التي حملت الكلمة في أحشائها، وغذّته بلبنها، وربّته، وأَنفَقت ثلاثين سنة في عيشٍ حميمٍ إلى جانبه، ناعمةً بحضوره، وببرّه البنويّ، مفتونةً بجلاله، متغذّيةً بكلامه، لا يسعها إلاّ أن تكون أنبل نساء الخليقة جمعاء.

– يوسف

في ١٩ آذار ١٩٧٥ دعا البابا بولس السادس إلى التأمّل في «تاريخ يوسف الشخصيّ ومأساته العاطفيّة... كان رجلاً طيّبًا مستقيمًا، وبالتالي، قادرًا على التضحية بحبّه للفتاة الفريدة التي لا مثيل لها».

نفسٌ رائعة الجمال، هي، أيضًا، صنيعة نعمة يسوع، وبتوليّة العذراء، وإحدى أدوات الخلاص المختارة.

نَسَب يسوع، وفقًا لإنجيل متّى ينتهي بيوسف، ويجعل منه الحلقة الضروريّة لربط تاريخ المخلّص بتاريخ البشريّة الجامع. وهكذا يندرج يوسف في سياق التاريخ الشامل، ويرتبط بمسيرة الخلاص.

انتُدب لمهمّةٍ فريدةٍ، فإذا بها شاقّةٌ، مأسويّةٌ.

كان وَلِهًا بمريم، واثقًا بطهرها ثقةً لا تهزّها ريبةٌ، فإذا بها، على غير علمٍ منه، حبلى، وكأنّ ثقته المطلقة قد خُدعت.

لم تتزعزع ثقته، ولكن استعصى عليه اختراق سرّها، وضاعف صمتُ العذراء المطلق حيرَته، مع أنّ جوهر الزواج هو الثقة المتبادلة.

لقد واجه يوسف امتحان كلّ علاقةٍ حميمةٍ، إذ إنّ كلّ إنسانٍ سرٌّ لنفسه، ولا يستطيع النفاذ إلى سرّ الآخر، بحيث تظلّ بين الصديقَيْن مناطق ظليلةٌ، تستلزم ذلك الخَفَر الذي يُدعى احترامًا.

ثمّة أُسلوبان للتواصل: الصمت والكلام. والعذراء كانت كلفةً بالصمت. فتلك التي كانت أمّ الكلمة، كرّمت الكلمة بصمتها. وصمتها ران على نفس يوسف.

ما من حبٍّ بلا أَلمٍ، وقلق يوسف يساعدنا على النفاذ إلى أحد أكثر الأسرار شيوعًا، وهو العلاقة بين كائنين شديدَيْ التقارب، حميمَيْ الوحدة، ومع ذلك عاجزَيْن عن فهم أحدهما جوهر الآخر.

قبل أن يطلعه الملاك على سرّ مريم، اتّسم موقفه بالكرامة، والاستقامة، والشهامة، والرقّة المرهفة. وربّما هو فكّر في تسريح مريم، في السرّ والكتمان، ولكنّه، في الآن عينه، كان يتوسّل اللّه، بحرقةٍ، أن يبادر إلى كشف الحقيقة، والتعبير عن مشيئته، وجلاء سرّ صمت مريم، التي أوكلت إلى اللّه حلّ مشكلةٍ كان هو صانعها.

وبعد أن أطلعه الملاك على سرّ مريم، أظهر جرأةً بطوليّةً في قبول المهمّة، ولم يكفّ عن إبداء أروع شهادات الحبّ لزوجته العذراء، ولابنها الإلهيّ، وعن إغداق أسخى التضحيات.

آدم وحوّاء فرّقتهما الخطيئة تفريقًا ذريعًا، ومريم ويوسف وحّدتهما التقدمة للّه.

آدم وحوّاء، بعد السقطة، قرّبهما الذهول، ورهبة الكائن المحدود حيال المقدّس. أمّا مريم ويوسف، فقد وحّدهما ذهولٌ عذبٌ، ذهول الحبّ الإنسانيّ والإلهيّ. وكيف التعبير عن هذه الوحدة إلاّ بالصمت العميق المطبق، صمت العبادة. الصمت كلامٌ يتخطّى الكلام، ولكنّه ينطوي على كلّ سرّ الكلام.

إثر تبشير الملاك ليوسف، الذي أكّد تبشير مريم، يمكننا فهم تعاظم الحبّ بينهما حتّى بلوغ ملئه. فمريم مدينةٌ ليوسف ليس فقط بحمايتها، ورعايتها، وتوفير أَوَد عيشها، وباحترام بتوليّتها، بل بحياتها، أيضًا، إذ إنّه جنّبها الرجم والعار.

وسيتعمّق سرّ هذه الوحدة بقدر ما سيريان الولد يولد، وينمو، وبقدر اقتحام القدْسيّ لحياتهما، وحضوره الدائم بينهما، حضورًا ملأ كلّ لحظةٍ من وجودهما.

* *

نعتُ «الصدّيق» الذي يوجز به الإنجيل وصف يوسف، يعني العدل والاستقامة. والصدّيق هو من يتمّم دعوته التاريخيّة بكاملها، وقد تمّمها يوسف مثلما كان، في مهنته، يتقن جمع الأخشاب، وصقلها، والبلوغ بها إلى كمال الصنع.

وقد تجلّى برّه من خلال طريقة اضطلاعه بالمهمّة الجسيمة التي أُسندت إليه. فقد وهبه اللّه، حيال مريم ويسوع، المودّة، والسهر، وسلطة الزوج والأب. وعلى غرار يوسف بن يعقوب الذي ركم، في مصر، احتياطيًّا من الحنطة، من أجل أهله وشعبه، تلقّى يوسف، زوج مريم، خبز الحياة، وحافظ عليه، من أجل الجنس البشريّ بكامله.

مثل العذراء كان عفيفًا، متبتّلاً، مطيعًا، مفعمًا حكمةً، وحذرًا، وجرأةً، منقادًا لإلهام اللّه.

وكان رائد الرسل الذين يحملون يسوع إلى العالم أجمع. فوق مهد يسوع الطفل،

وفي سنوات نشأته، كان يمثّل أباه السماويّ، ولا عجب إن قابله يسوع الإنسان، لا بأرقّ حبٍّ فحسب، بل، أيضًا، باحترامٍ عميقٍ، وخضوعٍ لا يوصف.

حيال ذلك المتواضع الوديع يتولاّنا احترامٌ لمن كان ظلّ الآب. ولا يسعنا وصف قداسته، إذ لا شبيه لها. فقد كان ظهورًا للآب. كان وديعًا، حليمًا، فقيرًا، ممحيًّا، منقادًا للروح.

كان القلعة الحصينة التي تحمي شرف مريم، وحياة يسوع. كان كتومًا، مفعمًا سكونًا إلهيًّا، عادلاً عدلاً مشوبًا برحمة الله، يخاطب الله في نومه، ولكأنّ نومه لم يكن سوى استراحة تأمّله الصوفيّ.

بعد مريم، كان أوّل عابدي يسوع، وقد قدّسه يسوع، وارتقى به إلى قمّةٍ فريدةٍ تؤهّله ليكون ممثّل أبيه العليّ.

* *

اختلف الشرّاح حول تحديد مهنة يوسف، هل هو مجرّد نجّارٍ، أم هو، أيضًا، بنّاءٌ، والمرجّح أنّه كان يجمع بين المهنتين.

يسوع ومريم ويوسف «ثالوثٌ أرضيٌّ» رائعٌ، يحيا في التواضع والامّحاء. لم يُقاسوا العازة والإملاق، ولكنّهم كانوا قنوعين، مكتفين بالزهيد، فرِحين به؛ وكانوا دؤوبين على العمل المتقن.

بيت الأسرة كان عابقًا بالصلاة، مرتبطًا مع الله بعلاقةٍ وثيقةٍ. الحياة فيه عذبةٌ، حياة اتّحادٍ حميمٍ، وتفانٍ متبادَلٍ. وحيال الجيران مودّةٌ، ومحبّةٌ فاعلةٌ، لا تتوانى عن التضحية.

لقد قضى يسوع، بين أقدس إنسانَيْن، سنواتٍ زاخرةً بالحبّ والفرح. ولا ريب أنّ العذراء كانت، بانتظام، تعود بذاكرتها إلى أيّام الناصرة الحلوة، المباركة، كي تستمدّ، من تلك الذكريات، السعادة، والشجاعة، والعزاء. وكان حسب يوسف سعادةً وفخرًا أن يكون الحارس الأمين لابن الله، ولأُمّه العذراء، إلى أن افتقده الله، وفُجع بفقده يسوعُ ومريمُ اللّذان عزّى أحدهما الآخر، وازداد كلٌّ منهما تعلّقًا بالآخر.

يُعتقد أنّ يوسف تُوفّي باكرًا، بعد أن أدّى واجبه، مخلّيًا المكان لأبي يسوع الحقّ. وبوفاته افتقد البيت حضورًا كان يشيع الطمأنينة، ونظرةً سديدةً إلى كلّ شيءٍ، وصوتًا أَليفًا، ومبادراتٍ مفعمةً ودًّا ورقّةً، ومشاركةً في الصلاة حميمةً دافئةً.

«إخوة يسوع»

كلّ التقليد المسيحيّ درَج على الإيمان بديمومة بتوليّة العذراء، إلى أن قام، بعد قرونٍ، من أوجع الطُهرُ عيونَهم، وصدمت العفّة أذهانهم، فزعموا أنّ العذراء أنجبت، بعد يسوع، أبناءً وبناتٍ. واستندوا، في ذلك، على ما ورد في إنجيل متّى (١٣ : ٥٥) على لسان أهل الناصرة، الذين التهبوا حسدًا وحفيظةً، حيال ما تميّز به ابن قريتهم المتواضع، من حكمةٍ، ومعرفةٍ، وسلطةٍ، وقدراتٍ: «**أليس هذا ابن النجّار؟ أليست أُمّه تدعى مريم، وإخوته يعقوب ويوسف وسمعان ويهوذا، وأخواته ألسنَ كلّهنّ عندنا؟ فمن أين له هذا كلّه؟**».

ولو هم تابعوا مطالعة إنجيل متّى نفسه، لقرأوا (٢٧ : ٥٦) أنّ بين النسوة اللآئي كنّ ينظرنَ إلى الصليب، عن بعد، مريم المجدليّة، و«مريم أمّ يعقوب ويوسف». إذن، الذين ذُكروا بصفتهم «إخوة» يسوع، ليسوا أبناء العذراء، بل أبناء نسيبةٍ أو أكثر من نسيبةٍ لها.

والإنجيليّ يوحنّا يذكر (١٩ : ٢٥) أنّ عند أقدام الصليب كانت أُمّ يسوع، **وأُخت أُمّه مريم زوجة كليوبّا**. أتكون أُختها، وتحمل اسمها عينه؟ ألا يعني ذلك أنّ استخدام لفظة «أُخت» تندرج في سياق من سُمّوا «إخوة» يسوع، وهم، في الواقع، أبناء أَخي يوسف أو أبناء أُختٍ أو ابنة عمٍّ لمريم؟ فمن جرّاء خلوّ اللغة الآراميّة من مفردةٍ واحدةٍ تعني ابن العمّ أو العمّة، أو ابن الخال أو الخالة، شاع استخدام مفردة «أخ» للتعبير عن هذه القرابة. وكُتُب العهد القديم تزخر بأمثلةٍ على ذلك.

وقد جاء في يوحنّا (١٩ : ٢٦ – ٢٧) أنّ يسوع، قُبَيْل لفظه أنفاسه الأخيرة، أوكل أُمّه لتلميذه يوحنّا: «**لمّا رأى يسوع أُمّه، وبقربها التلميذ الذي كان يحبّه، قال لأمّه:** «**أيّتها المرأة، هوذا ابنك**». ثمّ قال للتلميذ: «**ها هي ذي أُمّك**». ويضيف: «**ومن تلك الساعة أخذها إلى بيته**». فلو كان للعذراء أبناءٌ وبناتٌ، هل كانت ستمضي لتقيم في بيت أحد تلاميذ يسوع؟

ونلحظ، في الإنجيل، أنّ من يُدعون «إخوة يسوع»، كانوا يضمرون له الحسد والحقد، ولا يؤمنون به. ولو هم كانوا أشقّاءه من مريم، وكانت مريم هي التي ربّتهم، لما قابلوه بهذه المشاعر.

المعتقد أنّه كان ليوسف شقيقٌ متزوّج من قريبةٍ للعذراء، وأنّ المدعوّين «إخوة» يسوع هم أبناؤه، أو بعضهم أبناؤه والآخرون أبناء شقيقةٍ لمريم. وقد نشأوا معًا، في بيوتٍ متلاصقةٍ، وكأنّهم أُسرةٌ واحدةٌ، فعُدّوا «إخوةً» ولا سيّما أنّ إطلاق هذه التسمية على أبناء العشيرة الواحدة كان أمرًا رائجًا.

وفوق كلّ ذلك، هل يُعقل أنّ تلك المرأة التي حلّ عليها الروح القدس، وحملت ابن الله، ولم ترتضِ ذلك إلاّ بعد أن اطمأنّت إلى صون بتوليّتها، تلك المباركة بين كلّ النساء، أن تتنازل عن تلك الحظوة الفريدة، وتوصم بالخطيئة الأصليّة؟!

ومن مطالعة الإنجيل كلّه يتّضح أنّ يسوع هو ابن العذراء الوحيد، وهو كلّ حياتها.

يَعقوبُ «أخو الرَّبّ»

في أعقاب قيامة يسوع وصعوده، تحوّل موقف بعض «إخوة» يسوع، فآمنوا به وانضمّوا إلى الكنيسة الناشئة. أبرزهم يعقوب الملقّب بالصغير، لتمييزه عن يعقوب ابن زبدى، شقيق يوحنّا. الإنجيل يدعوه «أخا الربّ»، وقد اشتُهر بالورع والزهد، فلم يكن يشرب خمرًا ولا مسكرًا، ولا يأكل من أيّ حيٍّ... كان يواظب في الهيكل، مستغفرًا عن الشعب. شغل منصب أُسقف أورشليم الذي أسنده إليه الرسل حتّى استشهاده.

كان متشبّثًا بفرائض الشريعة، ويحظى باحترام الشعب اليهوديّ، ولكنّ زعماءهم مقتوه من جرّاء اجتذابه أتباعًا للكنيسة. وقد انتهزوا سانحة غياب الوالي الرومانيّ، فألقوا به من ذروة الهيكل إلى وادي قدرون، حيث أجهزوا عليه بالعصيّ.

ولسموّ برّه ذاع الاعتقاد بأنّ ما أصاب أورشليم وسكّانها من كوارث ودمار، كان عقاب السماء على مصرع ذلك البارّ.

قسَماتُ وَجْهِ يسُوع

ما من وصفٍ موثوقٍ لقسمات وجه المخلّص، ولا ما يشير إليها.

ليس لدينا سوى كفن تورينو الذي ما برحت صحّة نسبه موضع تجاذب. وهو يُظهر رجلاً مديد القامة، بطول ١٧٨ سنتمترًا، متناسق التكوين، ذا ملامح ساميّةٍ بارزةٍ، طويل الأنف، مكتنز الشفتين، كثّ الشعر واللحية. وقد دهش فرانسوا مورياك لتطابق تلك الأوصاف مع الملامح التي أبرزها كبار الفنّانين الذين رسموا صورةً ليسوع مستوحاةً من خيالهم وإيمانهم.

بعض المسيحيّين الأوّلين زعموا أنّ يسوع كان دميمًا استنادًا على نبوءات أشعيا عن الخادم المتألّم، أو للتأكيد على أنّ سنى نفسه كان يطغى على دمامة قسماته، ويحوّلها إلى جمالٍ أخّاذٍ. وفي المقابل، أكّد آخرون أنّه كان «أبهى بني البشر». وقد رجَحت كفّة هذه الفئة، إذ من غير المقبول أن يكون اللّه قبيحًا، وهو الجمال الأسمى، الذي يُضفي رواءً على أيّ وجهٍ بشريٍّ. وكان حريًّا بمن سكن اللّه في داخله أن ينعكس سناه على محيّاه وعلى كلّ كيانه.

والإنجيل حافلٌ بأماراتٍ عن جاذب يسوع الذي لا يُقاوَم. فالمرأة التي صاحت: «**طوبى للبطن الذي حملك، وللثديَيْن اللّذْين رضعتهما**»، ربّما لم تدرك كنه أقواله، ولكنّها فُتِنت بشخصه. والأطفال كانوا يتسابقون للظفر بمداعبته وبركته، ممّا يوحي بأنّه كان يملك سحرًا لا يقوى حتّى الأطفال على مقاومته. ولا ريب أنّه كان لنظراته فتنةٌ آسرةٌ، فهي قد شلّت أيدي من حاولوا رجمه، وجعلت أفراد عصابة رئيس الكهنة المكلّفين بالقبض عليه، يتراجعون أمامه ويرتمون أرضًا؛ وزلزلت كيان نثنائيل؛ وخرقت قلب الشابّ الغنيّ الساعي إلى الكمال؛ وغمرت بالفرح قلب زكّا، وقلبت كلّ مصيره؛ واستمطرت دموع بطرس...

الانطِـــلاقْ

أحداثٌ كبيرةٌ وأحداثٌ صغيرةٌ تتوالى، ينتصر فيها قومٌ، وينهزم فيها آخرون. أوغسطُس الذي أُدرج في قائمة الآلهة لقي حتفه. وبنطيُس بيلاطُس عُيِّن واليًا خامسًا على اليهوديّة. وفي تلك الأثناء، في الناصرة، كانت الحياة تسير الهوينا، رتيبةً، بلا تغييرٍ.

وفي منجرته، كان يسوع يُنصت إلى ساعته تقترب. كان قد بلغ الثلاثين، أي أوج قوّته الجسديّة والروحيّة، تلك السنّ المتأرجحة بين النموّ والانحطاط، بين التعلّم والاختبار؛ سنّ التوازن بين الاندفاع والسكون، بين التثقّف وحكمة الشيوخ. لا شيء يميّزه سوى قامته الفارعة، وبساطته، وانفتاحه، وتعاطفه مع كلّ فردٍ.

كان واحدًا من الكادحين المغمورين الذي يستهلّون العمل مع شروق الشمس، ولا يتوقّفون عنه إلا بعد غيابها. وعندما يرقد، ليلاً، على الحضيض تتّحد الأرض بالسماء.

ثلاثون سنةً اقترن، خلالها، اللّه بالطبيعة البشريّة، بصدقٍ وتناغمٍ، بحيث لا شيء كان يميّز يسوع، ظاهريًّا، عن أبناء جيله، إلاّ التعاطف، والجاهزيّة للخدمة. ولم يتوقّع أحدٌ المغامرة التي أقدم عليها، بغتةً، فأدهشتهم جميعًا، إذ رأوا فيها ضربًا من الجنون.

ولكنّ أقرباءه وجيرانه كانوا يجهلون الليالي التي كان يُنفقها في حوارٍ كثيفٍ مع أبيه السماويّ. وفي محراب هذا التواصل الحميم، الصامت، المستمرّ، مع اللّه، نضجت رسالته، وشخصيّته البشريّة، التي امتلأت بنعمةٍ إلهيّةٍ سيفيضها على البشر.

أيّام النجّار المغمورة انتهت، وبدت على محترفه معالم الهجران. من قبل، كانت صلاته متواترةً. ولكن، آنذاك، غدت أُمّه تفاجئه مستغرقًا، ليلَ نهار، في مخاطبة أبيه السماويّ. كانت تقطنه رغبةٌ حارقةٌ في إنجاز مهمّته. وستواكبه هذه الرغبة مدى السنوات الثلاث التي ستنتهي على الصليب، وفي القبر الفارغ. وكم كان توّاقًا إلى سماع زفير النار التي جاء كي يوريها!

حتّى تلك الساعة كان اللّٰه قد تلاشى في الإنسان بحيث كانت أمّه ذاتها، مع إحاطتها بسرّه، تذهل عنه، أحيانًا، وترى فيه ابنها مثل جميع الأبناء، تقبّل جبينه، وتراقب نوْمه، وتشتمّ رائحة ثيابه. كان يكدح ليكسب خبزها وخبزه، ويقتسم معها الطعام الزهيد، ويتجاذب مع جيرانه أطراف الحديث.

كانت قد نعمت، معه، بثلاثين سنةً من السكون، وها إنّ السيف قد شرع يتململ في قلبها. فترة تأهّب يسوع شارفت نهاية شوطها، وأمسى يتوقّع إشارةً كي يشرع ينثر، في تربة العالم، بذار البشرى السعيدة. ولاحت هذه الإشارة بظهور المعمدان.

في تلك الأيّام كانت تتنامى إلى سمعه أحاديث الناس عن المعمدان، فتشرد أبصاره إلى آفاقٍ قصيّةٍ. فالمعمدان لم يكتفِ بالدعوة إلى التوبة، وعماد الماء، بل كان يعلن مجيئًا وشيكًا، مجيء من هو أقوى منه، ومن لا يستأهل، هو، أن يحلّ سيور نعلَيْه.

وأخذت تتبدّى في يسوع سلطةٌ كانت أمّه الشاهد الوحيد عليها، إذ أخذ يتجلّى فيه «ابن الإنسان».

لقد نأى بفكره عن محيطه الصغير، وبات كلّ كيانه وقفًا على من يحبّ، على تلك البشريّة التي جاء لانتزاعها من براثن عدوّها وعدوّه، المعروف بأسماء عديدةٍ، في جميع اللغات، ذاك الذي بدا وكأنّه سيّد الكون، يبتكر للملوك والرؤساء والشعوب التسليات القذرة، ويستخدم الآلهة لإفساد البشر، ويحلّ محلّ الآلهة، ويؤلّه الجريمة والخطيئة، وينصّب نفسه ملكًا على عالَم الظلام.

يسوع هو النور الذي أشرق على عالمٍ غارقٍ في الديجور، والمحرّر الذي سيوفّر للبشر وسائل الانعتاق من قبضة إبليس.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

بتصميمٍ ورقّةٍ، ودّع أُمّه، وقفز إلى المجهول. ووقفت أُمّه ترقب طيفه المتباعد، وتشيّع الصورة الأخيرة من حياةٍ خفيّةٍ، حان موعد انقشاع سرّها.

وأمسى فراغ البيت مرهقًا يعتصر قلبها، بعد أن نأى عنه من كان امتدادَ جسمها، وعالَمها، وحياتَها. كان لا بدّ لذلك أن يحدث، وامتثلت العذراء لذلك الليل الذي

خيّم، بغتةً، على نفسها وحياتها، بعد أن غرب عنهما من كان لها كلّ شيءٍ، ومن لـه كرّست كلّ كيانها، من أحبّته ابنًا، وعبدته إلهًا.

* *

بعد ثلاثين سنةً من الصمت الوقور، والحياة الخفيّة، ظهر يسوع للعالم، فزعزع أركانه.

ثلاثون سنةً من السكون، تلتها ثلاث سنواتٍ في العراء، تحت الشمس، وفي ثنايا العواصف: ألف يومٍ وألف ليلة من الحركة الدؤوب، والإنجاز المعجز.

القِسْمُ الثَّالِث

حَيَاةُ يَسُوعَ العَلَنِيَّة

السَّــــابِق (*)

يوحنّا، المولود من إليصابات الطاعنة في السنّ، ويسوع، المولود من صبيّةٍ عذراء، كانا «أخوين» بالمعنى الشائع آنذاك، وبالروح الذي كان يملأ كلاًّ منهما.

تلاقيا وهما جنينان، فتوثّب يوحنّا في أحشاء أمّه العجوز وقد حلّ عليه الروح الثاوي في أحشاء العذراء. ومنذئذٍ تباينت سبُلهما.

كلّ من سمع بولادة يوحنّا العجيبة، كان يقول في قلبه: «**ما عسى أن يكون هذا الصبيّ؟، وفي الحقيقة، كانت يد الربّ معه**» (لوقا ١: ٦٦). ويد الربّ حوَّلته عن المصير الطبيعيّ الذي كان محتده يُعدّه لـه. فأبوه وأمّه سليلا أسرةٍ كهنوتيّةٍ مرموقةٍ، وأبوه الذي رأى فيه الخلاص من لعنة العقم التي واكبته وواكبت امرأته طيلة حياتهما، كان يُعدّه، بشغَفٍ وفرحٍ، كي يخلفه في وظيفة الكهنوت، ويواصل مسيرة الأسرة، ويتولّى إرثها.

ولكنّ الله كان يريد لـه حياةً أُخرى عظيمةً وشاقّةً، فأبعده عن كلّ ما ينسج وجودًا إنسانيًّا عاديًّا، وجعله يستعيض عن الكهنوت بالنسك.

أبواه كانا طاعنَيْن في السنّ، ومن المرجّح أنهّما ما لبثا أن لقيا وجه ربّهما، وتركاه يافعًا. وكان متوقَّعًا أن يشخص إلى الهيكل كي يتهيّأ، فيه، لوراثة وظيفة أبيه، ولكنّ نداء الصحراء كان أقوى أَسرًا، وكانت الدعوة التي تنبّأ لـه بها أبوه نفسه هي الغالبة. أوَ لم يكن زكريّا قد قال بوحي الروح:

«**وأنت، أيّها الصبيّ، فإنّك نبيّ العليّ تدعى، لأنّك تسبق قدّام وجه الربّ لتُعدّ طرقه، ولتؤتي شعبه علم الخلاص بمغفرة الخطايا، برحمة أحشاء إلهنا، التي اجتلبت لنا، من فوق، افتقاد الكوكب الشارق، ليضيء لنا، نحن الجالسين في الظلمة وظلّ الموت، ويهدي أقدامنا في طريق السلام**».

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «أعدّوا طريق الربّ»، صفحة ٧٣. و«البذرة التي تلقى في الأثلام»، صفحة ٧٥.

دعوته هي أن يكون السابق، والسابق هو الرسول الذي يجري أمام موكب الملك الذي ينتظر القوم قدومه، ويهتف: «ها هوذا آتٍ».

تأهُّبًا لهذه المهمّة «**كان الصبيّ ينمو ويتقوّى بالروح. وكان في القفار إلى يوم اعتلانه لإسرائيل**». عاش منعزلاً عن الجميع، مشدودًا إلى المشيئة المقدّسة المحدّقة إليه.

وفي الصحراء ساق حياة النسك الشظفة، فثوبه من وبر الإبل الخشن، تشدّ وسطه منطقةٌ من جلدٍ. وطعامه ممّا توفّره الصحراء مجّانًا: جرادٌ مجفّف فوق الصخر الحارّ، وعسلٌ برّيٌّ، يشتاره من تجاويف الصخر، على غرار قدامى الأنبياء.

لبث، أمدًا، وحيدًا مع الله، إلى أن اكتشفه، في عزلته، قومٌ تقاةٌ، فرحّب بهم، وغيّر مجرى حياتهم. وتألّف منهم تيّارٌ تكثّف، يومًا فيومًا، ودفع الناسك إلى الخروج من عزلته، ولعب دور النبوّة الذي وُجد من أجله. فهجر الصحراء، ومضى إلى موقعٍ أكثر ازدحامًا بالمارّة، عند ضفّة الأُردنّ.

* *

لقد وهب اللّهَ ذاته كاملةً، فعمل الله من خلاله. إنّه يحاكي آلةً موسيقيّةً محكمة الإيقاع يستخدمها موسيقيٌّ عبقريٌّ، بحيث لا يلحظ المستمعون لا الآلة ولا المؤلّف ولا المؤدّي، بل يكتفون بالاستسلام إلى عذوبة النغم وسحره.

وأيّ تواضعٍ لدى ذاك الذي اعترف: «**يأتي بعدي من هو أقوى منّي ولستُ أنا أهلاً لأن أَحلّ سيور نعليه ...**»! وأيّة قوّةٍ خارقةٍ لا تُقهَر ولا تُروَّض لدى ذاك الذي يعدّ نفسه مجرّد صوتٍ صارخٍ في البرّيّة!

نحو خمسة قرونٍ كانت قد كرّت لم يهدر فيها صوت نبيٍّ، ولكأنّ الله هجر شعبه. فلا بدعَ إن دوّى صوت المعمدان، ذلك النبيّ الجديد الذي قرن البساطة بالشدّة، وراح يصيح: «**توبوا، فإنّ ملكوت السماوات قد اقترب**».

كان لليهود نبيٌّ استثنائيٌّ هو إيليّا. وكانوا يؤمنون أنّ الموت لم يمسّه، بل إنّه اختُطف إلى حينٍ، وسيعود لينبئ بمجيء المسيح. ولمّا سمعوا صوت المعمدان خُيّل إلى كثيرين منهم أنّ إيليّا قد عاد.

لم يكن للأرض أيّ تأثيرٍ على تلك النفس المعدّة لأسمى رسالةٍ، المصغية إلى

صوت الروح وحده. قوّة وحيه ارتقت به فوق زمانه ومحيطه، اللّذين لم يؤثّرا فيه. فيه بُعث إيليّا وأشعيا: الجرأة عينها التي لا تلين، والعنفوان نفسه. الشرّ يحزنه ويستفزّه، لأنّه يدرك عمقه وهولـه. لا يصانع، بل يُعنّف، ولا يُعزّي، بل يهدّد. لا يخشى الشعب، ولا الرؤساء، ولا الحكّام. صراحته لا تهادن ولا ترحم، وكلامه ينفذ إلى الضمائر ويهزّها. ولم يدعُ أحدٌ، في مثل لجاجته، إلى التوبة.

كان يرى الملكوت قادمًا، فبشّر بمجيئه، داعيًا إلى تقبّله، لا بالأهازيج، بل بالتوبة والتكفير، مذكّرًا أنّ الانتماء إلى إبراهيم لا يُجدي نفعًا إلاّ من استأهله بالخضوع لمشيئة اللّه.

حادّ الخيال، مؤثّر القول، منيع النبرة، يلهبه هوى القداسة الذي يجعل فصاحته لا تقاوَم. حياته المتجرّدة، وقداسته، خير موعظةٍ، وهو لا يدين بشيءٍ للعالم الفاسد الذي يعظه.

* *

في تلك الأثناء كانت روما قد فرضت سيطرتها وسلمها على العالم، وكانت أثينا قد نشرت فلسفتها وشعرها وفنّها، وخُيّل للعالم أنّه انتهى إلى قمّةٍ شامخةٍ فذّةٍ. وفي هذا الجوّ المفعم إعجابًا بالذات، دوّى صوت المعمدان، معلنًا أنّ كلّ علمٍ، بمعزلٍ عن اللّه الحقّ، باطلٌ، وأنّ كلّ حضارةٍ لا تسعى إلى حياةٍ أخرى أبديّةٍ، زائفةٌ وشوهاء.

أمّا اليهود فكانوا أكثر تقيُّدًا بالطقوس والفرائض، ولكنّهم فقدوا روح المحبّة ونَفَس الأنبياء. كانوا يقولون، أحيانًا: «كن مَلِكنا، يا ربّ، أنت وحدك». ولكن، في سرائر نفوسهم، كانوا يطمعون في أن يكونوا لـه وزراء، كي يتحكّموا بالشعوب الأخرى، باسمه، لذلك نرى المعمدان يخاطب ممثّليهم بعنفٍ صارمٍ. فهو «إذ أبصر كثيرين من الفرّيسيّين، والصدّوقيّين يُقبلون على معموديّته، قال لهم: «**يا نسل الأفاعي من أراكم سبيل الهرب من الغضب الآتي؟ ألا أثمروا ثمرًا يليق بالتوبة. ولا يخطرنّ لكم أن تقولوا في أنفسكم «إنّ أبانا إبراهيم»، فإنّي أقول لكم إنّ اللّه قادرٌ أن يقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم. ها إنّ الفأس على أصل الشجر، فكلّ شجرةٍ لا تثمر ثمرًا جيّدًا تُقطَع وتُلقى في النار**» (متّى ٣: ٧ – ١٠).

حَنَق يوحنّا على الأفاعي، هو انتصارٌ لضحاياها. فالشعب البسيط الذي يصدّق أنّ أولئك الزعماء الدينيّين هم وسطاؤه لدى اللّه، لا يسلم من سمّهم، ولا سيّما أنّهم يضمرون لـه ازدراءً بالغًا. هؤلاء لا خلاص لهم إلاّ بالتخلّي عن كبريائهم، وشعورهم بالتفوّق، وادّعائهم بأنّهم أدواتٌ لا غنى للّه عنها.

وكان الكهنوت قد شحُب لونه، وتفه ملحه، وشُلّت حركته، بعد أن وقع في شرك المال والسياسة. وتفاقم القلق في النفوس التائقة إلى الخلاص.

حينئذٍ لاح طيف ابن زكريّا، ربيب الصحراء، في زيّ إيليّا وجرأته، ولعلع صوته يجتثّ ويدمّر، كي يزرع ويعمّر، عاكسًا نور اللّه على الأحداث، ومحوّلاً القلوب.

تمثّلت مهمّته في أن يترجم مرامي اللّه لشعبٍ يتلاعب به زعماؤه، يرزح تحت نيرٍ وثنيٍّ ضلّلته أهواؤه وأحكامه المسبّقة. وسرعان ما أمسى ضميرَ شعبه، المرشدَ إلى الخير والحقيقة، والمجيبَ على أكثر التساؤلات حرقةً.

كان طاهرًا، متجرّدًا، مستغرقًا في اللّه، لا هيكل لـه، ولا منزل، ولا مؤسّسة؛ اتّصاله الشفّاف باللّه، مقترنًا بتوبةٍ صارمةٍ، فجّرا تيّار ماءٍ حيٍّ، حمل القوم على الانصراف عن الظاهر، والانغماس في الأعماق.

كان شاعرًا مبدعًا لأنّه كان خلاّقًا، ولأنّ كلامه كان مقتضبًا بليغ الأثر، فكرازته تشبه البرق أكثر ممّا تحاكي انتشار الفجر.

روح اللّه الخفّاق فيه، أكثر من النسك، جعل منه نبيًّا منقطع النظير، إلاّ أنّ كلّ ذلك زاده تواضعًا.

تكلّم بلهجة أشعيا، ولكنّه لم يدّعِ النبوّة، بل اقتصر على الإعلان، والإعداد، والتمهيد، مؤكّدًا أنّه مجرّد صوتٍ صارخٍ في الصحراء.

كان نبيًّا نسيج وحده: فلا صَلَف عرقيًّا، ولا اهتمام بالسياسة، ولا تهديد للأعداء، ولا دعوة إلى السلاح، ولا وعد بظفرٍ عسكريٍّ، أو وطنيٍّ، ولا معجزاتٌ أو ادّعاء معجزاتٍ، بل تجرّدٌ وامّحاءٌ، وتحريضٌ على التوبة الداخليّة، والتحوّل الروحيّ، لأنّ الملكوت بات على الأبواب.

كان يُزري بالتقوى الظاهريّة التي أشاعها الفرّيسيّون والكتبة، فهو لا يصبّ اللعنات

على الأُمم الوثنيّة، بل على من شوّهوا العبادة، داعيًا إلى التوبة الصادقة، والعبادة الحقّة.

كان صوتًا يقطر فصاحةً، ويدوّي بسلطةٍ لا تقاوَم، يجتذب المستمعين والتائبين، من كلّ أرجاء فلسطين. كان صوتًا نبويًّا يؤدّي ليسوع، في كلّ مناسبةٍ، أخلص شهادةٍ؛ صوت حقٍّ صارمٍ يشجب، بلا وَجَلٍ ولا مواربةٍ، كبرياء اليهود ونفاقهم، ويطيح بأوهامهم العنصريّة.

قداسته كانت تشعّ من كلّ كيانه، حيث يتجلّى الإنسان المكرّس لله. شظف عيشه كان يجعل منه إنسانًا خارقًا للطبيعة. درب الضمائر كان مشرَعًا له، فحضّها على التوبة، والتحوّل عن الأَحكام المسبّقة، والمطامع الأرضيّة، والرذائل، والأهواء الشرّيرة، وكلّ ضروب الخطيئة. التوبة والتحوُّل كانا الشرطَيْن الأساسيّين لتحقيق التطوّر الأكبر الذي سيجريه يسوع في البشريّة. وكان فضل المعمدان أن دعا إليهما بقوّةٍ لا تعادلها قوّةٌ، وفي حقبةٍ فريدةٍ من التاريخ.

من خلاله كان العهد الجديد يبحث عن ذاته في صفحات العهد القديم الذي كان يتأهّب لتحوّلٍ يغيّر فحواه. كان الماضي يضجّ توقّعًا، وتهزّ أعماقه رعشاتٌ جبّارةٌ.

صوتٌ في الصحراء يصيح، مستدعيًا النبع المنعش، صوت البعيد المتطلّع إلى من سيأتي. صوت العدل المُحكَم، وصوت الحقّ الداعي إلى توسيع آفاق النفس، وإزاحة أقذارها من أجل استيعاب الحبّ.

وقد اتّخذ يوحنّا من العماد تعبيرًا علنيًّا عن التوبة، ورمزًا للتطهّر الداخليّ، ونقاء الضمير الذي لا يمكن تقبّل الملكوت بمعزلٍ عنه، وكان يرافق الانغماسَ في الماء الإقرارُ بالخطايا والندم على اقترافها. لم يعد العماد مجرّد طقس تطهّرٍ، بل أمسى انغماسًا يمثّل موتًا عن الماضي، وخروجًا إلى حياةٍ جديدةٍ، وامتلاءً من فيض الله.

الانغماس في الماء كان دليلاً على إرادة تغيير السلوك، والإقلاع عن الخطايا التي تعكّر أجواء الحياة.

صوته دوّى في الصحراء، فغصّت الطرقات بجموع الذين تقاطروا إليه من كلّ صوبٍ، ومن كلّ الأوساط، والمهن، والنزعات: أنقياء أو خطأةٌ، جندٌ ومواطنون بسطاء، كتبةٌ ومؤمنون، معلنين توبتهم، ملتمسين الانغماس في مياه التجدّد. وفي

غمرة هذا الإقبال الكثيف، لم يسعَ يوحنّا إلى الإدهاش، واستلفات الأنظار، وتحريك المشاعر. فقد كان مجرّد مرسل الله، لا طموح لـه سوى النفاذ إلى سرائر النفوس ومكامن الإرادات، وهزّ الضمائر ودفعها. وكان يُداخل صوته نَفَس نَفَس الله، الوحيد القادر على الإصلاح، وإلهام بغض الشرّ، والدفع نحو الفضيلة. وهكذا غدا البشر الذين تسيطر عليهم، عامّةً، رغباتهم الأنانيّة من طعامٍ، وجنسٍ، وامتلاكٍ، وسلطةٍ، يؤوبون إلى الله وحده، ويستعيدون الحرّيّة والفرح النابعين من الحياة في الله.

موسى وإيليّا كانا يحاوران الله على قمم سيناء وحوريب وطابور، أمّا يوحنّا فاستقرّ في قعر وادٍ. وغالبًا ما تتشابه المتناقضات.

لم يظهر المعمدان في أورشليم، ولا في المدن، بل ظلّ صوتَ الصحراء، يزأر كالأسد، موجّهًا تحريضاته المضطرمة إلى المارّة والقوافل. لم يأتِ إلى الشعب، كما كان يفعل الأنبياء الأقدمون، بل كان يجتذبه إليه. والذين كانوا يسمعونه كانوا يتأثّرون، فيعودون إلى مدنهم وقراهم، ونبرات ذلك المتوحّد تُدوّي في أعماقهم، فيُخبرون بما هزّ كيانهم، وينشرون اسم المعمدان، ويوقظون فضول الجموع. فذاع صيته في كلّ مكان. نور الله كان يقوده، وهذا النور لا يُعطى إلاّ لكي يتوهّج، وينتشر، ويلبّي احتياجاتٍ أساسيّةً، وهواجس راهنةً.

مهمّة المعمدان ثلاثيّةٌ: الإنباء بمجيء المسيح الوشيك، وإعداد الشعب لهذا المجيء، ثمّ الإشارة إلى المسيح في شخص يسوع

المهمّة الأُولى إعلان اقتراب الملكوت، وما من إعلانٍ كفيلٌ بإثارة القلوب، واستنفار العزائم، وهزّ الضمائر أكثر من هذا الإعلان: الربّ قادمٌ ليسوس شعبه، وفي يده المذراة التي تفرز الحنطة الجيّدة عن القشّ، فتحفظ الحنطة في الأهراء، أمّا العصافة فتصبح طعمًا للنار. هذه الصور كانت تشيع الطمأنينة في نفوس صانعي الخير، وترعب فاعلي الشرّ.

لأقواله تأثيرٌ هائلٌ، إذ كان يساور سامعيه انطباعٌ بالرهبة والرقّة، بخوفٍ ممزوجٍ بالرجاء. وقد هابه الشعب والحكّام على السواء، مع أنّ أقواله خلت من تطلّعات اليهود السياسيّة والعنصريّة.

لا ينِي يردّد: «**أعدّوا طريق الربّ، قوّموا سبله...**». أيّها القانطون، المنهارون انهضوا، وأيّها المتكبّرون الصَلِفون احنوا رؤوسكم واتّضعوا. ولتكن إرادتكم طاهرةً مستقيمةً، ولتكن نفسكم مستقرّةً. حينئذٍ، ستشهدون خلاص الله، أي المسيح.

وكانت أقواله تستدرّ توبة البسطاء، الصادقين، فيتقاطرون كُثُرًا، ويعترفون بخطاياهم، وينغمسون في مياه الأردنّ، تعبيرًا عن ندمهم. ولكن نادرًا ما استجاب له أحدٌ من الكتبة، أو الفرّيسيّين، فقد كانوا واثقين من كمالهم، ولم يستسيغوا نغمة ذلك النبيّ الذي برز بغتةً، ولا استمرأوا دعواته وتعاليمه. ولذلك ساطهم بلواذع التنديد. كان يثور على الكبرياء والرياء، ولكنّه رقيقٌ معتدلٌ في مخاطبته أفراد الشعب البسيط، الذين يزفّ إليهم بُشرى «معاينة خلاص الله» ويُسدي لهم، بتؤدةٍ وحلمٍ، نصائح ترشدهم إلى السلوك القويم:

«**فسأله الجموع قائلين: «ماذا علينا أن نفعل»؟ فأجاب وقال لهم: «من له قباءان فليعطِ من ليس له، ومن له طعامٌ فليفعل كذلك». وأقبل عشّارون، أيضًا، ليعتمدوا، فقالوا له: «ماذا علينا أن نفعل، يا معلّم؟» فقال لهم: «لا تستوفوا أكثر ممّا حُدّد لكم». وسأله جنودٌ قائلين: «ونحنُ ماذا علينا أن نفعل؟» فقال لهم: «لا تظلموا أحدًا، ولا تفتروا الكذب على أحدٍ، واقنعوا بوظائفكم**».

لم يطالب أحدًا بما يفوق طاقته، ودعا عامّة الشعب إلى المحبّة، والحدب على المحتاجين. ولكنّه كان قاسيًّا على المدّعين المنافقين.

في أعماق الضمير الشعبيّ حاجةٌ فطريّةٌ إلى العدل والبرّ. ومن ثمّ، فهو يشعر بالارتياح عندما يتصدّى صوتٌ جريءٌ، متجرّدٌ، بلا وَجَلٍ، ولا ضعفٍ، لاعوجاجِ أولي السلطان، وينحني أمام من يلتهمهم هوى الخير، وتنسج حولهم القداسة هالةً من نورٍ. فلا عجب إن بسط ذلك النبيّ القابع في الصحراء نفوذه على زمانه، وإن بدا كلّ شيءٍ شاحبًا أمام وجهه الصارم المشعّ. فكلّ كلمةٍ منه تشجب الرذيلة والكذب، وتدعو إلى البرّ، وتنذر، وتشعل الرجاء، وتنهض قداسته مصداقًا لكلّ ما يقول.

لقد رأى فيه الشعب إيليّا وقد انبعث. وهو، في الواقع، كان من فصيلة عظماء الأنبياء، وآخرهم، وأقربهم إلى الحدَث الذي تنبّأوا به جميعهم، وأكثرهم التصاقًا

به. وقد التحق به تلاميذ تبنّوا مثل سيرته، ومارسوا مثل أصوامه، وزهده، فعلّمهم الصلاة، ودرّبهم على التقوى، فكانوا له عونًا على استقبال أمواج التائبين، وتعليمهم، وتعميدهم.

وساور كثيرين الظنُّ بأنّه المسيح المنتظر، فسارع إلى تبديده بكلماتٍ تقطر تواضعًا مذهلاً.

وإذ كان يوحنّا ماضيًا قُدُمًا في الوعظ والتعميد، كان دهاقنة اليهوديّة في أورشليم يراقبونه عن كَثَبٍ، متسائلين من عساه يكون ذلك المتوحّد المستقلّ، فلا هو فرّيسيٌّ، ولا صدّوقيٌّ، ولا غيورٌ، ولا أسّينيٌّ، ولا هيرودُسيٌّ، ولا من الموالين للرومان؛ يمارس عمادًا لا أثر له في طقوس اليهود، ويدعو إلى تحوّلٍ روحيٍّ لا يدخل في قاموس اجتهادات الكتبة؛ وهو يجتذب الجموع من أورشليم، واليهوديّة، والجليل، ويكتسب، كلّ يومٍ، مزيدًا من نفوذٍ، حتّى بات قوّةً أدبيّةً لا يُستهان بها. والذين كانوا، في أورشليم، قابضين على مقاليد الدين اليهوديّ، ضاقوا به ذرعًا، وما عادوا يطيقون على كبحه صبرًا. فعليه أن يكون معهم أو عليهم، وأن يعلن ذلك بجلاءٍ. فألّفوا وفدًا يضمّ ممثّلين عن مختلف تيّاراتهم، وأنفذوه إليه كي يستطلع هويّته، ويتحرّى غاياته. فاليهود الذين طالما قام فيهم أنبياء، لم يحبّوا، حقًّا، يومًا، من يخلخلون النظام، والطقوس، والرؤية المحدّدة إلى الأشياء. وها إنّ هذا الناسك الأبيّ، المنتصب على ضفّة النهر، يعلن انقراض عهدٍ، وبزوغ عهدٍ جديدٍ، تحدوه قوّة من جعلوا حجار الصحراء تصيح، المتعطشّين إلى المطلق، مختاري الله. وكثيرون هم المحيطون بسرّ مولده العجيب، الذي يُلقي بثقله على مصيره المدهش، ورسالته المزلزلة.

وربّما شابت مجيءَ هذا الوفد نيّةٌ عدائيّةٌ، إثر شنّ المعمدان على الكتبة والفرّيسيّين والصدّوقيّين هجومًا شرسًا.

وسأله موفدو الهيكل والسنهدرين: «**من أنت؟**» **فاعترف بغير لَبْسٍ، وصرّح قائلاً: «أنا لست المسيح» فسألوه: «ماذا إذن؟ أإيليّا أنت؟» قال: «لست إيّاه» – «النبيّ أنت؟» أجاب: «لا». فقالوا له: «فمن أنت لنجيب الذين أرسلونا؟ ماذا تقول عن نفسك؟» قال: «أنا صوت المنادي في البرّيّة: مهّدوا طريق الربّ – كما قال أشعيا النبيّ»** (يوحنّا ١: ١٩ – ٢٣).

واعترض وفدٌ من الفرّيسيّين: «**إذا لم تكن المسيح، ولا إيليّا، ولا النبيّ، فلماذا، إذن تعمّد؟**» فأجابهم يوحنّا قائلاً: «**أَنا أعمّد بالماء، وإنّما بينكم من لا تعرفونه. إنّه ذاك الذي يأتي ورائي، ولستُ أنا أهلاً لأن أحلّ سيورَ نعليه**» **(يوحنّا ١: ٢٥ – ٢٧)** «**فهو يعمّدكم بالروح القدس والنار**» (لوقا ٣: ١٦)(*).

عماد يوحنّا كان اغتسالاً بالماء يرمز إلى التوبة، أمّا عماد يسوع فهو عماد النار والروح القدس، الذي يتغلغل إلى أعماق النفس ويحييها. ذلك هو العماد الذي لم يكن بوسع يوحنّا منحه، والذي كان يلتمسه لنفسه، ويعد به الآخرين.

الحوار بين المعمدان والوفد كان سريعًا، واضحًا، لا لَبْسَ فيه، ولا مراوغة، وعاد الوفد صامتًا، ولكنّ صمته كان يخفي غيظًا مكتومًا.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «هو يعمّدكم بالروح القدس والنار»، صفحة ٧٨.

عـــمَادُ يسَـــُوع (*)

وإلى المعمدان وافى من كان المعمدان يعلن سموّه، ويمهّد له السبيل. جاء بلا إنذارٍ، منتظمًا في طابورٍ من الجليليّين ملتمسين العماد، بسيطًا، متواضعًا، في زيّ عاملٍ كادحٍ، لا يتميّز في شيءٍ عن سائر العمّال والقرويّين المساكين. لا شيء فيه ينمّ عن مقيم العدل، رجل النار والروح. لا يحمل مذراةً ولا فأسًا، ولا نارَ على رأسه، ولكنّه كان يحمل خبرة سنوات التأهّب الطويلة، ويعي جسامة المهمّة المسندة إليه. وكانت قوًى هائلةٌ تجيش في نفسه، نابعةً من أعماقٍ لا يُسبَر لها غَوْرٌ.

كان يوحنّا يعرف يسوع، ولكنّه لم يكن قد رآه، مع أنّه قريبه، فهما لم يلتقيا ثانيةً منذ لقائهما الأوّل وهما جنينان. وحينئذٍ تعرّفه. من أجل معرفة إنسانٍ يكفي فتح العينين، ولكنّ تعرُّفه يستلزم رؤيته على ضوءٍ أسمى. وميزة الروحانيّ أنّه يرى، في ضوء الله، أولئك الذين كان يعرفهم معرفةً سطحيّةً، أو لا يعرفهم.

هيئة ذلك النجّار الذي تقدّم منه، يكسوه الغبار، ويقطر عرقًا، وقد أنهكته وعثاء الطريق، كانت على تباينٍ سحيقٍ مع صورة المسيح المتألّقة الراسخة في ذهن المعمدان. فلا هالة تميّزه، ولا أحد سوى أمّه يعرف أنّ المجوس جاؤوا من أقاصي العالم كي يسجدوا لـه، وهو وليدٌ، ولا أحد يذكر أنّه، وهو في الثانية عشرة، قد أدهش علماء الهيكل بحكمته، وسعة معارفه.

غير أنّ المعمدان قد أدرك، بإلهامٍ من الروح، أنّه أمام من كُلّف بتمهيد السبيل لـه، وبإعلانه للملأ.

الرعشة التي جعلته ينتفض في أحشاء أُمّه، لم تكن شيئًا بالقياس إلى ما هزّ كلّ كيانه، عندما مثل أمامه طيف من هو نعمة حياته، وتتويج رسالته القصيرة. وقد تكون

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «في مثل صباح العالم الأوّل»، صفحة ٨٠، و«أنا لم أكن أعرفه»، صفحة ٧٦.

نظرات يسوع قد اخترقت نفسه، كما ستخترق، من بعد، نفوس بطرس، ويوحنّا، وفيليبّس، وآخرين. عرفه بقلبه، قبل أن يسمع شهادة الآب، ويرى علامة الروح، وينقلب الحدْس يقينًا.

كانت المفاجأة من الإدهاش، أمام ذلك «التائب» غير المتوقّع، بحيث ذهل يوحنّا عن الانحناء لحلّ سيور نعليه. وتولاّه شعورٌ بالعجز عن تقديم أيّ شيءٍ لزائره العلويّ، ليقينه بأنّ ذلك الإنسان الوحيد المتمتّع بطهرٍ مطلقٍ، بل الذي يفوق كلّ طهرٍ، والمنزّه من كلّ خطيئةٍ، لا يحتاج إلى أيّ اعتمادٍ بالماء. «**فجعل يوحنّا يمانعه، قائلاً: «إنّي، أنا، المحتاج أن أعتمد منك... وأنت تأتي إليّ!»، فأجاب يسوع وقال له: «دع الآن، فإنّه هكذا يليق بنا أن نتمّ كلّ برّ**» (متّى٣: ١٤ – ١٥).

لم يكن الإله المتجسّد في حاجةٍ إلى معموديّة التوبة. ولكنّه ارتضى الاعتماد على يد يوحنّا كي يشهد له الآب أنّه ابنه الحبيب، ولكي يشهد الروح أنّه روحه، وأنّه فيه ومعه، ولكي يؤكّد الابن تمثّله بالبشريّة التي جاء لإعتاقها من خطاياها.

ظهور المعمدان كان الإشارة التي انتظرها يسوع كي يعتلن، وظهور يسوع كان العلامة التي ترقّبها المعمدان كي يدرك تحقّق رسالته. وكان لجواب يسوع معنًى أدركه يوحنّا، فأجرى طقوس العماد.

وكم حفل ذلك اللقاء بالرموز! فمن جانبٍ، ناسك الصحراء، في ثوبه المغزول بوبر الإبل، وبوجهه النحيل الذي لوّحته شمس الصحراء، وشعره الأشعث، يمثّل درب الإيمان الشائك، قبل المسيح، في حين أنّ الوحي الجديد يأتي به رجلٌ لا يتميّز، في شيءٍ، عن بني قومه.

لقد توخّى البارّ الكامل أن يتقدّم من العماد بصفته ممثّلاً للبشريّة الخاطئة. وهو، البريء الأوحد، توخّى حمل قسطٍ من عبء المجرمين.

جواب يسوع على اعتراض يوحنّا، وهو القول الأوّل الذي أُثِر عنه في حياته العلنيّة، هو إعلان انتمائه إلى الجنس البشريّ، وتضامنه معه، وإقدامه على أقسى التضحيات في سبيل خلاصه.

غطس يسوع في مياه الأردنّ، ولكنّه لم يعترف بأيّة خطيئةٍ، فغسَلَ العالم من أقذاره وأوزاره، وأضفى على الماء قدرة التطهير. فالماء لا يقدّس الخاطئ، ولكنّ

القدّوس قدّس الماء. وأحسّ يوحنّا أنّ فوق يده يدًا إلهيّةً، وفيضًا من نعم السماء. فروح اللّه كان يلفّ يسوع بجناحيه اللّذين رفّا، لثلاثين سنةً خلت، فوق مريم أُمّه.

وقد تضامن الآب والروح مع الابن المتجسّد، المخلّص. «**فلمّا اعتمد يسوع، خرج، لوقته، من الماء، فإذا السماوات قد انفتحت، فرأى (يوحنّا) روح اللّه ينزل كمثل حمامةٍ ويأتي عليه. وإذا صوتٌ من السماء يقول: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت**» (متّى ٣: ١٦ - ١٧).

انشقّت السماء إيذانًا بحدثٍ جمٍّ، فريدٍ، وبعهدٍ جديدٍ. فبيسوع عاد اللّه كي يعمل في التاريخ ويفعّله.

هذا الإعلان كان موجّهًا إلى يوحنّا كي يعرف أنّ يسوع هو فرح الآب، وهو الذي ينحدر عليه الروح، وسينشر هذا الروح في أوصال العالم.

وقد شهد يوحنّا قائلاً: «**إنّي رأيت الروح ينزل من السماء، كمثل حمامةٍ، ويستقرّ عليه. أنا لم أكن أعرفه، غير أنّ الذي أرسلني أُعمّد بالماء، هو قال لي: إنّ الذي ترى الروح ينزل ويستقرّ عليه، هو الذي يعمّد بالروح القدس. وأنا قد رأيت، وأشهد أنّه، هو، ابن اللّه**» (يوحنّا ١: ٣٢ - ٣٤).

لقد ولج يسوع مياه الأردنّ، والناس لا يعرفون سوى أنّه ابن مريم، وخرج منه وقد أعلن اللّه أنّه ابنه المحبوب.

وتبيّن يوحنّا أنّ الأشدّ اندفاعًا إلى عماد التوبة ليسوا من تنوء ضمائرهم بوقر الخطايا. بل الأرفع قداسةً هم الذين يشتركون في التوبة، كي يستعجلوا خلاص العالم. المعمدان الصارم تهيّب القداسة المنبعثة من شخص يسوع، ثمّ أكّد له صوت الآب أنّ ذاك الذي وافى كي يعتمد على يده، هو ابن اللّه الذي جاء هو كي يمهّد له السبيل، والذي سيعمّد بالروح القدس.

هكذا كلّم اللّه يوحنّا كي يطلعه على حقيقة يسوع. ولكنّه وجّه، أيضًا، إلى ابنه كلامًا مماثلاً كرّسه به، وأكّد لـه تضامنه معه في مشروع الخلاص، الذي كان عماده في الأردنّ تمهيدًا له. فقد باح له الآب: «**أنت ابني الحبيب الذي به سررت**».

هذا الموعد غيّر مسرى التاريخ، واستهلّ مسيرة الخلاص. فبغوصه في مياه الأردنّ استبق يسوع موته، وكان عماده صورةً مسبّقة لما ستكون عليه ساعته الأخيرة. إنّ

لاهوت العماد، كما يشير إليه بولس، هو لاهوتٌ مأسويٌّ يتضمّن سرّين مجتمعين من موتٍ وحياةٍ، من تضحيةٍ وولادةٍ جديدةٍ، من آلامٍ وقيامةٍ.

وكان عماد يسوع، أيضًا، مناسبةً لتجلّي الثالوث الأقدس للمرَّة الأولى. فالآب يكلّم ابنه من السماء، والابن يخرج من الماء مصلّيًا، والروح يرفرف على المياه مرافقًا صوت الآب، وعماد الابن. الآب هو الله، والابن هو الله، والحبّ يجمعهما في روحٍ قدسيٍّ واحدٍ، هو الله. وجميعهم يشتركون في طبيعةٍ إلهيّةٍ واحدةٍ.

ومنذئذٍ بات العماد يتمّ باسم الآب، والابن، والروح القدس.

عماد يسوع كان ضروريًّا كي يتعرّف يوحنّا ذاك الذي جاء يمهّد لـه الطريق، وكي يعرف العالم أجمع، من خلال شهادة الآب، أنّ يسوع هو ابنه الحبيب. عمادُه كان بمثابة مسحه، كما يُمسَح الملوك والكهنة، وبمثابة تسلّمه سلطاتٍ مطلقةً لمباشرة رسالته. عماده كان تكريسه مسيحًا، وإعلانه ابن الله الوحيد، وتولّيه دوره الخلاصيّ. ولقد تعمّد لأنّه الحمل الذي أخذ على عاتقه كلّ خطايا العالم. ولم يكن لانغماسه في الأردنّ أيّة غضاضةٍ، فالشمس والنجوم، مع طهرها، تغتسل بمياه المحيط.

* *

عماد يسوع كان ليوحنّا بداية النهاية، وانبلاج عهدٍ جديدٍ. فمجد يوحنّا شرع يغرب وينزلق إلى القيود، والسجن، والذبح، كي يبدأ انتشار الملكوت. ولكنّ المعمدان كان قد أدّى الشهادة التي وُجد من أجلها.

تواضعه كان بحجم جرأته. لقد فاق البشر أجمعين في التضحية بمجده لابن الله. ففي حين كان الجميع يرون فيه معلّمًا، أعلن أنّه ليس سوى خادمٍ. فلا المجد كان يغويه، ولا الموت يريعه.

وعلى تواضعه السحيق ردّت السماء بتدخُّلٍ متألّقٍ. وانزاح حاجز الخطيئة الذي كان يسدّ باب السماء، فانفتحت.

لقد تميّز يوحنّا بغرابته ومفارقاته. أمّا يسوع، فمن نمط من لا يُدهش منظرهم، ولا يصدم أوّل اتّصالٍ بهم، بل يبدون عاديّين. ولكن بقدر ما يوغل المرء في معرفتهم، يتأثّر بهم. إنّه يجوب بلاده، وكأنّه عاملٌ عاديٌّ، ويخضع لعماد يوحنّا، ولكأنّه يهوديٌّ مثقلٌ بالخطايا. يوحنّا يتغذّى بالجراد وعسل البرّ، ويرتدي زيّ الصعاليك، في

حين أنّ يسوع يأكل مثل عامّة الناس، ويلبس جلبابًا طويلاً، وينتعل خفًّا. سعيه عبر البلاد لا يدهش أحدًا، فعلماء الشريعة، أيضًا، كانوا يجوبون الريف، ممارسين مهامّ التعليم والقضاء. ويسوع جليليٌّ يستهدف، أوّلاً، الامتزاج بكلّ شعبه.

وخلافًا لإيليّا، والمعمدان، وسائر الأنبياء، لا يستخدم يسوع صُوَرًا مرعبةً مفرطة العنف، بل يستمدّ صُوَره من الحياة اليوميّة، حياة الريف الساكنة العذبة.

المعمدان هو أوّل شاهدٍ ليسوع، وآخر رجال العهد القديم. وسيكون الإنجيليّ يوحنّا الشاهد الأوّل على الكلمة المتجسّد.

* *

هكذا استُهلّت حياة يسوع العلنيّة، واعتُلنت هويّته، ومهمّته الإلهيّة. لم يعُد نجّار الناصرة، بل ابن الله، الذي سيحتفظ، في عظمته الإلهيّة، بجسدٍ هشٍّ، معرَّضٍ للألم، ولكنّه معصومٌ من الخطيئة، لأنّه وُلد من الروح، في قداسةٍ مطلقةٍ، ومع ذلك افتتح حياته العلنيّة بعمل تواضعٍ سحيقٍ، إذ انضمّ إلى قوافل الخطأة، وارتضى الخضوع لعماد التوبة، ضاربًا للجميع المثل في الأسلوب الأمثل للتأهُّل للملكوت، منتهجًا، منذئذٍ، درب التضحية والصليب.

بعماده ابتدع يسوع سرًّا يرمز إلى الولادة الجديدة في الروح. فكلّ من يصغي إلى صوته، يتجرّد من رذائله، وجهله، وأنانيّته، بالتوبة، والتضحية، والإيمان؛ وكلّ من يلج في لجّة أقواله سيرى، مثلما رأى المعمدان، السماء الموصدة تشرع أبوابها، فيغدو أبناء البشريّة الفاسدة، أبناء الله، ويسمعون، في أغوار وجدانهم، الروح يهمس لهم لَقَبَهم الذي يتخطّى الإدراك، فيتعلّمون تسمية الله أباهم السماويّ.

صَوْمُ يسُوعَ في الصَّحْرَاء

الروح الذي دفع يسوع إلى الأردنّ، دفعه إلى الصحراء، حيث لا أحد سوى أبيه وهو. فالصحراء مكان التوحّد والتجرّد، مكان الانقطاع عن كلّ ما يغذّي الرغبة البشريّة، وإفساح المكان كلّه لله وحده. والاختلاء في الفلاة هو برنامج كلّ بطلٍ روحيٍّ، كلّ مصلحٍ أو نبيٍّ. فمباشرة أيّ عملٍ عظيمٍ تقتضي خلوةً طويلةً مع الله، ومع الذات.

العزلة تدني من الله، وتطهّر القلب والفكر، وتعدّ القرارات الجريئة، وتشدّ العزيمة، وتصوغ الأقوياء.

والصحراء توحي بمعانٍ متعارضةٍ. فهي، من جانبٍ، المكان من الأرض الذي لا ينبت فيه شيءٌ، ولا شيء فيه يعيش؛ وهي فراغ القلب وعقمه. وكلّ شيءٍ فيها ممكنٌ. فالفراغ ينادي مطالبًا بالامتلاء. وفراغ القلب ضروريٌّ لكي يجد فيه الله مكانه. إن لم يتحرّر القلب من كلّ ما يشغله، لا يستطيع سماع الرسالة الإلهيّة. ولكنَّ مجرّد فراغ القلب لا يضمن تسلّل الرسالة إليه، فكلّ شيءٍ مرهونٌ باستعداده. وبمعزلٍ عن الله تغدو الوحدة عقيمةً، ولكنّها، مع الله، خصبةٌ. وفراغ الطبيعة ملائمٌ لشتّى الإيحاءات، الصادق منها والزائف، ملائمٌ لسماع الكلمة، أو لتخيّل سماعها.

ولطالما مارست الصحراء على النفوس التقيّة جاذبًا لا يُقاوَم، وكانت عتبتهم إلى حياة العمل. وقد ظلّ يسوع يحنّ إلى صمتها كي يستغرق في الصلاة، ويوفّر لفكره الاستجمام، وينأى عن دسائس البشر. وباختلائه الطويل فيها، وعى عظمة رسالته، وراز ثقل مسؤوليّته ووهنه البشريّ.

ولكنّ يسوع لم يتّخذ من الصحراء مقامًا، بل مرحلةً، فقد كانت مهامّ جليلةٌ تنتظره. لم يكن في حاجةٍ إلى البحث عن الله، إذ كان الله يقطنه؛ ولا إلى ترصّد صوته، فهو يسمعه دائمًا، وفي كلّ مكانٍ، في الناصرة، وفي الأردنّ، وسط الجموع

الصاخبة، وفي رحاب الطبيعة الصامتة. ولم يكن في حاجةٍ إلى إنضاج مخطّطه الخلاصيّ، فهذا المخطّط ثاوٍ بكامله في الروح الذي هو نوره وقوّته.

لقد نأى يسوع عن البشر كي يتملّى من الإنسانيّة الحقّة التي تهدرها مجتمعاتهم وتشوّهها، ولكي يعيدها لهم صافيةً متألّقةً.

وقبل تعامله مع بني البشر، وقف مع الله، وجهًا لوجهٍ، وحيدًا مع الوحيد، مؤكّدًا عزمه على ألاّ ينشد، من علاقته مع الناس، سوى خدمة أبيه السماويّ .

وكانت تلك العزلة فرصةً لـه، كي يشبع الرسالة التي كان مقدمًا على خوضها تأمّلاً لكلّ وجوهها.

بعض الأتقياء يلتمسون، في الصحراء، الوحدة والسلام. أمّا يسوع فجاءها مصارعًا. هم يفزعون إليها هربًا من الشرّ، وهو جاءها كي يصدّ هجمات الشرّير ويهزمه. وذاك الذي أُعلن ابنًا لله لم يُعتق ذاته من مصير البشريّة الأليم، وخضع طوعًا للتجربة، مثلما كان قد خضع للعماد، طوعًا، تمثّلاً بالبشر.

مثل كبش فداءٍ شخص إلى الصحراء، مستهلاً رسالته الخلاصيّة، كي يصارع عدوّ الله والبشر، وسيّد ملكوت الخطيئة.

* *

يُعتقد أنّ خلوة يسوع تمّت على ما يُدعى «جبل الأربعين»، المطلّ على منظرٍ رائعٍ. فشرقًا سهل الأردنّ، وقمّة «نيبو»، وهضاب «پيرية»، وشمالاً الحرمون بقمّته الشامخة المزدانة بالثلج المتلألئ، والتائهة في أجواءٍ وهّاجةٍ؛ وجنوبًا البحر الميّت المتألّق مثل لوحةٍ فضّيّةٍ؛ وغربًا أرض اليهوديّة حيث تنتصب قممٌ عديدةٌ مخروطيّة الشكل، تحرقها شمس الصيف بنارها: وتتوارى أورشليم وراء بستان الزيتون الذي يقف عنده النظر. صحراء وجبالٌ: عظَمتان مؤتلفتان، مفعمتان شظفًا وجلالاً.

أمامه، على الأرض، أمواجٌ من كثبان الرمال، وحجارةٌ، وأعشابٌ قليلةٌ، مبعثرةٌ، ورياحٌ تعصف في فوهات البراكين والمغاور. صحراء أبديّةٌ، لا ذاكرة لها، صحراء الفتنة، والقوافل التائهة، ومجاري السيول الجافّة. ذاك الذي وسمه وكرّسه روح الله اعتكف وسط العقارب والحصباء. اختار العزلة وامتحان الصحراء، تأهّبًا للضرب على

دروب البشر، وللتحدّث والعمل باسم الآب السماويّ. كان قد تلقّى مسحة اللّه والرسالة. فشاء أن يرسّخ، في داخله، ظروف التضحية والاستعداد الروحيّ.

الصخور فراشه ووسادته، والوحوش رفاقه ومؤنسو وحشته. قيظ الظهيرة يرهقه فيتّقيه بالفزع إلى فيء صخرةٍ أو مغارةٍ. وفي الليل يوقظه البرد القارس مقرورًا، مرتعدًا، في حين تمزّق صمتَ الفلاة صيحاتٌ منكَرةٌ تطلقها حيواناتٌ مختبئةٌ في الحُفَر والأَجحار. والاستسلام للنوم يتعذّر في عالم الأفاعي، والعقارب، وبنات آوى.

وفي المقابل، السماء تفيض نورًا، وأنغامًا إلهيّةً، بحيث أمست تلك العزلة، ليسوع، صلاةً متماديةً، وتأمّلاً، وانغماس كلّ طاقاته البشريّة في اللّه، أَبيه. وحدهم من خبَروا الانخطاف، وشربوا، بجرعاتٍ كبيرةٍ، من دفق الأفراح السماويّة، وسمعوا، نظير بولس «كلماتٍ تفوق الوصف، لا يحلّ لإنسانٍ أن ينطق بها»، يستطيعون أن يتخيّلوا بعض أشعّة نفس يسوع، مصلّيًا، عابدًا، متأمّلاً، مستطلعًا مشيئة أبيه، وعظمة المهمّة التي جاء لأجلها، ومصاعبها، وما تقتضيه من آلامٍ وتضحياتٍ، متسلّحًا بالحكمة، والعدل، والرحمة اللامتناهية، في سبيل خلاص العالم الضالّ. وأمام ناظريه السابحَيْن في النور الأبديّ، كان يرتسم النزاع، والجلجلة، والصليب، فتمتزج، في صدره، ارتعاشات النفس المتدفّقة بأفراح اللّه، بهواجس النفس التي أرهقتها الصراعات المريعة المتربّصة.

وقد كشف له الروح عن رسالته، وهي ليست مهمّة ساحرٍ، ولا مهمّة كلّيّ القدرة، مع أنّه اللّه. فالقدرة الجسديّة لا تساعد على إيقاظ الحبّ الذي يولد من حرّيّة الإنسان الداخليّة، ويسوع الذي تجسّد تضامنًا مع البشر، لم يستهلّ مهمّته بالامتلاء قدرةً، بل بفراغ صومٍ تمادى أربعين يومًا .

رقم الأربعين هو الرقم الذي تقاس به الأحداث العظام في تاريخ اليهود. فكلٌّ من داود وسليمان ملك أربعين سنة. وموسى قضى أربعين يومًا وأربعين ليلةً على جبل سيناء. والنبيّ إيليّا أنفق أربعين يومًا وأربعين ليلةً كي يصل إلى حوريب. ومياه الطوفان غمرت اليابسة مدى أربعين يومًا. ولا عجب إن استخدم يسوع هذا الرقم الرمزيّ، في محيطٍ يقيم لمثل هذه الرموز شأنًا عظيمًا.

انقطع يسوع عن كلّ نشاطٍ، وكلّ اتّصالٍ، في مجّانيّةٍ صافيةٍ، وسط الصخور والرمال، ومضى، في صومه، إلى أقصى احتمال الجسم البشريّ.

بالصوم يتحرّر الروح، ويصبح كلّ شيء شفّافًا، رشيقًا، وينزاح كلّ ثقلٍ، ويغدو الضمير أكثر تبصّرًا، ورهافةً، واقتضاءً. غير أنّ الصوم قاسٍ على اللحم والدم، وعلى الروح، أيضًا، لأنّ الطبيعة تمقت الفراغ. وغالبًا ما يجهد البشر في سدّ هذا الفراغ بالانشغالات، والعلاقات الاجتماعيّة. ولكن الطوبى لمن يتقبّل هذا الفراغ لكي يمتلئ باللّه اللامرئيّ! وقد جرّد يسوع الوقت من كلّ نافلٍ، لكي يعقد حوارًا حميمًا مع اللّه.

لم يرتضِ التقاء أبيه في رؤيا طوباويّة، من جرّاء حرصه على تبنّي الوضع البشريّ، بحيث لا تكون لـه رؤيةٌ إنسانيّةٌ لألوهته، أكثر ممّا لدى كلّ إنسانٍ رؤيةٌ إلى نفسه. لقد ارتضى حدود بشريّته، في فرح التضامن الوثيق مع البشر الذين جاء كي يخلّصهم.

وبصيامه أثبت يسوع أنّ الرغبة في الطعام، وكذلك الرغبات الجنسيّة، ليست قدَرًا محتومًا، وأنّ بوسع الروح السيطرة عليها، وبوسع الجسد تأجيجها، حسب موقف المرء منها.

* *

وتعاقبت الأيّام في رتابةٍ توجع الطبيعة البشريّة. ولكنّ الصيام حفر في بشريّة يسوع طاقات صلاةٍ جديدة. والفراغ أضرم فيه الجوع إلى اللّه. فحياة الصائم شفّافةٌ وساكنةٌ إلى أقصى الحدود، ويخترقها اللهيب الرقيق الذي يشعله الروح؛ والحرمان لا يهدّ الصائم، بل يرتقي به.

في غمرة هذه المحنة ظلّ يسوع ينمو في «الحكمة والنعمة»، وخاصّةً في الحبّ، بالعطاء اليوميّ الذي جعل كلّ أوتار جسده تتوافق مع اندفاع أُلوهته. وتفجّر فيه اندفاعٌ جديدٌ غذّته الصلاة. وبذلك تخطّى جميع الصوفيّين. فهو اللّه ذاته، ووجوده الإنسانيّ ليس وجود كائنٍ مخلوقٍ، بل وجودٌ بشريٌّ تبنّاه كائنٌ إلهيٌّ متعطّشٌ إلى توفيق مصيره الأرضيّ مع الحبّ الإلهيّ.

حكمة يسوعَ وقَتْهُ من استنزاف قواه سدًى. فكان يخدع عضّات الجوع بالصلاة، وبمناجاة أبيه المتّصلة، وبالتأمّل. جسمه كان يضمر، ولكنّه يتروْحَن. هدفه الوحيد كان ترسيخ تضامنه مع البشر لكي يكون، في كلّ شيءٍ، مماثلاً لإخوته، ماعدا الخطيئة.

لقد تبنّى الوهن البشريّ، لأنّه لن يخلّص البشر بالقوّة، بل بالحبّ والتواضع. ولم يحجم عن احتمال شظف العيش، وشتّى ضروب الحرمان، التي تُشرع الإنسان على الله.

* *

في بدء الصوم يشتدّ شعورٌ حادٌّ بالحرمان، ثمّ تغيب الرغبة في الطعام، تحت سيطرة الروح، ويظلّ الجسم يتغذّى من مدّخراته حتّى نفادها.

ومدى أربعين يومًا، عاش يسوع بروحه فحسب، غائصًا بأكمله في الله، في مثل انخطافٍ دائمٍ، عُلّقت، في أثنائه، الاحتياجات الجسديّة. بعدئذٍ اسيتقظ منخاس الجوع ثانيةً، وأَصبح الطعام حاجةً ملحاحًا وضرورةً للبقاء أكثر منه رغبةً، وغدا الجسد يقول بلغته: الطعام أو الموت. وخطر لإبليس أن يستغلّ هذه الحاجة كي يصرف يسوع عن غاياته. لقد كان لاطيًا، متربّصًا بأيّة بادرة وهنٍ. فهو، بطبيعته، دائبٌ على الإغواء، لأنّه أمير الظلمات، وسيّد المستنقعات.

يَسُوعُ يَتَصَدَّى لِلمُجَرِّب (*)

قليلون هم، اليوم، من يؤمنون بوجود إبليس. وهذا مدعاة سرورٍ لـه، فهو يشجّع الإيمان بعدم وجوده. وإن كان الله قد عرّف نفسه بأنّه «الكائن»، فأمير الكذب يعرّف ذاته بأنّه اللاموجود، وكلّ من لا يؤمن بوجوده ينضوي تحت لوائه.

كلّ إنسانٍ معرَّضٌ للتجربة في كلّ حينٍ، وبما أنّ ليسوع جسدًا بشريًّا، كان عليه أن يختبر التجربة، مثل كلّ إنسانٍ، كي يعلّمنا مقاومتها. وهذا ما عناه الرسول بولس بقوله: «**إنّ الحَبْر الذي لنا ليس عاجزًا عن الرثاء لأسقامنا، بل هو مجرَّبٌ في كلّ شيءٍ، على مثالنا، ما خلا الخطيئة**» (عبرانيّين ٤ : ١٥)، وبقوله أيضًا: «**وإذ إنّه، هو نفسه، تألّم وابتُلي، صار في طاقته أن يغيث المبتلين**» (عبرانيّين ٢ : ١٨).

وقد جاء في سفر الحكمة: «إن ابتغيت خدمة الله، فأعدّ نفسك للتجربة».

التجربة ليست شرًّا في ذاتها، فهي للمؤمن المحصّن ضدّها، المقاوم لها، مدرجة تصعيدٍ في معارج القداسة، وهي للمتواطئ معها منزلَقٌ إلى السقوط والخطيئة.

الله نفسه يمتحن من يحبّهم، ولا سيّما في أتّون الألم، كي يزيدهم منعةً وكمالاً، فالصليب هو سبيل القيامة والمجد.

في الواقع، بقدر ما يسمو الإنسان، ويتّسم بالطهر والقداسة، يكون أكثر تعرُّضًا للتجربة. ولقد كانت تجربة يسوع بحجم عظمته وقداسته.

يسوع الذي جاء كي يقهر قوى الشرّ، بدأ بمصارعة أمير الشرّ نفسه، الذي شنّ عليه أشرس هجماته، لأنّه توسّم فيه خصمًا عنيدًا، خطرًا، مرعبًا، بل الخصم الأكبر. ولكنّ يسوع كان محصّنًا ضدّ كلّ نزعةٍ وبيلةٍ، أو غريزةٍ شرّيرةٍ، فلم توهن التجربة عزيمته، بل أكسبه الظهور عليها منعةً، وزاده توغّلاً في القداسة.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «تجربة يسوع»، صفحة ٨٤.

كما حدث لآدم الأوّل، واجه آدم الجديد، بكر الخليقة الجديدة، تجربة إبليس الذي بذل، في هذا السبيل، كلّ مهاراته، مستغلاً الحاجات البشريّة تحت ستار دوافع خدّاعةٍ، بادئًا بالرغبات الجسديّة، لأنّه أَلِف العبث بضعف الإنسان البهيميّ المستعبَد للجسد؛ ثمّ انتقل إلى الرغبات الأشدّ خطرًا، تلك التي أوصلته، هو نفسه، إلى جهنّم: رغبات المجد، والامتلاك، والسيطرة. لقد راح يحوم حول أقدس نفسٍ تجرّأ، يومًا، على مراودتها، يحدوه اليقين بأنّ ما من قدّيسٍ منزّهٌ من الخطأ. فالكبرياء التي كانت سبب هلاكه، تمتدّ كالدمّل على كثيرٍ من الوجوه التي تظنّ أنّها ملائكيّةٌ.

وكان إبليس قد سمع قول الآب ليسوع المعتمد في الأردنّ: «**أنت ابني الحبيب**»، فتوجّس من هذا القول رعدةً، وعليه بنى كلّ تجاربه. وكان حائرًا لأنّه واجه للمرّة الأولى إلهًا متجسّدًا، ولم يكن يعرف هل يتصدّى للإنسان فيه أم للإله. فاختار امتحانه، فإن هو أفلح في غوايته لأَمِن جانبه، ولأحرز انتصارًا ساحقًا، مدوّيًا، على الله وعلى البشر، يجعله أمير الكون بلا منازعٍ. وإن لم يُفلح، يكون قد دفعه إلى الإعلان عن ذاته، وأحاط بما يجهله، قاطعًا الشكّ باليقين. لقد توخّى صرفه عن مشروع الخلاص، وإقرار ملكوت الله الذي سيقوّض ملكوته الشرّير، وكان يراوده أملٌ بألاّ يكون يسوع ابن الله، وحينئذٍ لن يعسر عليه إيقاعه في إحدى شباكه: دغدغة الحواسّ، أو الكبرياء، أو الطموح إلى السيطرة. ولكنّ يسوع واجهه، لا بضعف البشر، ولا بسلطان الله، بل بالحكمة البشريّة التي يلهمها الله، الوفيّة لله، فأجابه، في كلّ هجمةٍ، بمقطعٍ وجيزٍ من الكتاب المقدّس، وألقمه حجرًا.

لم يُصوّر الإنجيليّون إبليس كائنًا أحمق أو نجسًا، بل أظهروه رقيقًا، مقنعًا، متحكّمًا بممالك العالم، ومتخيّلاً يسوع على صورته... لقد عرض على يسوع النجاح بقدراته الإلهيّة الخاصّة، وعامله يسوع بجدّ، مفنّدًا أقواله بكلماتٍ بسيطةٍ، رادًّا على المكر بالصدق، وعلى الخبث بالسموّ.

لا ريب أنّ التجربة كانت شاقّةً، جسديًّا، فهي تمّت في الشتاء حيث القفر أجرد كئيبٌ، والوحوش تعوي جوعًا. ولكنّ يسوع توخّى تحويل هزيمة آدم الأوّل انتصارًا، وكسر شوكة إبليس عدوّ البشر. وكانت قداسته تهيمن على الطبيعة، وتدفع الحيوانات المفترسة إلى احترامه.

التجربة تخلّف في نفوس البشر ندبةً، وربّما لوثةً، لأنّ نفوسنا التي أفسدتها

الخطيئة ميّالةٌ إلى الشرّ، ولا تتخلّص منه إلاّ بالجهد والجهاد. أمّا نفس يسوع المنزّهة من الخطيئة، والتي لم تتسرّب إليها الغوايات، فزادتها التجربة تألّقًا. ومن المحقّق أنّ المياه الرائقة لا تعكّرها العواصف إلاّ إذا كانت راقدةً على سريرٍ من الوحل.

ما من إنسانٍ لا يُجرَّب. وقد ارتضى يسوع أن يتعرَّض للتجارب كي يكون أقرب إلى البشر، وكي يؤكّد إنسانيّته، وتضامنه مع الجنس البشريّ. وبما أنّه جُرِّب، بات يؤازر كلّ من تداهمه التجارب.

التجربة الأولى

لم تقتصر التجربة على يوم صوم يسوع الأخير، بل واكبته طيلة أيّام صيامه الأربعين، التي أنفقها الربّ في التأمّل، ومناجاة أبيه، والكفاح، على غير اكتراثٍ لحاجات جسده.

ويرى بعض المفسّرين أنّ إبليس لم يراود يسوع بتجاربه كلّها، دفعةً واحدةً، وفي آنٍ واحدٍ، بل إنّه هاجمه بها، على التوالي، في مراحل مختلفةٍ من بدء رسالته.

وفي اليوم الأخير، عندما اشتدّ به الجوع قال له إبليس: «إن كنت ابن الله فمرْ أن تصير هذه الحجارة خبزًا». منذ الكلمة الأولى أفصح المجرّب عن أحد دوافعه، ألا وهو التثبّت من كون خصمه ابن الله. صحيحٌ أنّ من عضّه الجوع يتخيّل في كلّ شيءٍ طعامًا، وقد يرى في الحجارة صورةً للأرغفة التي تطالب بها معدته. ولكنّ يسوع كان قد أنهى صيامه، وغدا بوسعه إسكات جوعه، مثل النسّاك، بأيّ طعامٍ متوفّرٍ. غير أنّ هدف الشرّير الأقصى كان صرف يسوع عن رسالته، وامتحان قدراته الإلهيّة، وحمله على استخدامها، متحدّيًا سنن الخليقة، في سبيل غايةٍ مادّيّةٍ دنيا.

وتوخّى في الآن عينه استثارة كبريائه. فإن هو استجاب لدعوته، وأجرى المعجزة، لنفخه ذلك زهوًا بنفسه، ولسرّب إلى ذهنه الوهم بشراء ضمائر الناس وموالاتهم بإغداق الخبز عليهم. ولكم من الزعماء الذين يسعون إلى اصطياد الشعبيّة، بإغداق وعود الخبز والطعام، بمعزلٍ عن أيّ غذاءٍ روحيٍّ، ولكأنّ من يحاولون اجتذابهم كلابٌ جائعةٌ، لا نفس لهم!

ولكم من أبالسةٍ بشريّين يستغلّون وهن إخوتهم وحاجاتهم المادّيّة كي يفتكوا بهم!

لم يعرض عليه إبليس ما لذّ وطاب من طعامٍ وشرابٍ، لأنه كان يعلم أنّ يسوع قد روّض كلّ حواسّه، ولم يعد للغواية المادّيّة أيّة سطوةٍ عليه، فامتحن كبرياءه، مذكّرًا إيّاه بأنّ الطبيعة كلّها خاضعةٌ لنزواته، ولقدرته الكلّيّة. ولكنّ يسوع لم يأتِ كي يسخّر قدراته المطلقة لخدمة ذاته، بل لخدمة من جاء ليفتديهم.

أمّا جوعه فهو تتميم مشيئة الآب، والآب كفيلٌ بإشباعه.

ولكأنّي بالشرّير كان يوحي ليسوع أن يجتذب الجماهير بتوفير الخيرات المادّيّة لها: أطعمهم، أشبعهم، حوّل لهم الحجارة إلى أرغفة، فيتبعوك حيثما تشاء! ولكنّ يسوع، الذي جاء كي يغذّي النفوس، لا الأجساد، يأبى هذا الضرب من الطُّعم.

يسوع يريد أن يؤمن الناس به، بدافع الحبّ والقناعة، حتّى وإن افتقروا إلى الخبز، وقاسوا الجوع، وسُجنوا، وجُلدوا.

لم يكن عسيرًا على من سيحوّل الماء خمرًا، ومن سيشبع بخمسة أرغفةٍ خمسة آلاف جائعٍ، أن يحوّل بضع حجارةٍ إلى أرغفةٍ ساخنةٍ سائغةٍ. ولكنّه أبى أن يتحوّل من مخلّصٍ إلى خبّازٍ، ومن فادٍ إلى زعيمٍ شعبيٍّ، وبهلوانٍ.

وجاء جواب يسوع صارمًا كالحقيقة: «**ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلّ كلمةٍ تخرج من فم الله**». قولٌ جديرٌ بأن يكون دستور اقتصادٍ سياسيٍّ، مسيحيٍّ.

لا بدّ من الخبز للبقاء. وعندما يجوع الإنسان فإنّ أوّل ما يموت فيه هو روحه، أي ما يستطيع، فيه، تلقّي كلمة الله. فالجوع لا يليق لا بكرامة الإنسان، ولا بملكوت الله. الخبز ضروريٌّ، إذن، لحياة الجسد، ولكنّ النفس، أيضًا، في حاجةٍ إلى غذاءٍ آخر، يخرج من فم الله: نداءٍ، اسمٍ، كلمةٍ تهب الحياة، وتعبّر عن مشيئة الله لكلٍّ منّا، أي، بالإيجاز، «دعوة». إدراك المرء أنّه مدعوٌّ باسمه، وامتلاكه الجرأة على الاستجابة لهذا النداء، والالتزام، مدى الحياة، وحتّى النَفَس الأخير، بالمهمّة التي استُدعي لها، تلك هي الحياة الجديرة بالإنسان، لأنّها تلبّي دعوة الله. وإبليس حاول، أوّلاً، ثني يسوع عن دعوته، ولكنّه خسئ، لأنّ يسوع أفهمه أنّ مهمّته، آنذاك، لم تكن تحويل الحجار إلى خبزٍ، بل تتميم مشيئة الآب. وتغلّب يسوع على إبليس، عندما حدّد، بوضوحٍ، دعوته، وعزمه على الالتزام بها.

والويل، لمن يؤثر الأطعمة الأرضيّة، الآنيّة، على ذلك النداء الهابط من السماء، الخارج من فم الله!

لا يستخدم يسوع قدراته الإلهيّة لإشباع غريزةٍ جسديّةٍ، أو لاقتناص شعبيّةٍ جوفاء، ولو هو فعل، لأفسد رسالته. ولكنّه تغلّب على الشرك المنصوب له، ورغم جوعه الهاصر، أعلن أولويّة الطعام الحقّ المنحدر من العلاء، وسفّه المجرّب بتأكيده أنّ الله هو غذاؤه.

يسوع يسارع إلى نُصْرة الضعفاء، وإشباع الجياع، ولكنّه يخزي من يتحدّونه للتفاخر. فهو لم يأتِ كي يعلن نفسه ملكًا، بل لكي يرسّخ مملكة أبيه، ويدمّر مملكة إبليس، عدوّ الله والبشر. إنّه، حقًّا، كلمة الله، الكلمة الخلاّقة، ولكنّه يحتفظ بقدراته الخارقة ومعجزاته لخدمة الآخرين.

إنّ الذي أعلن: «**ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان** ...» لم يكن قد ذاق طعامًا منذ أربعين يومًا. فلا يزاودنّ أحدٌ عليه!

التجربة الثانية

انتهت الجولة الأولى بهزيمة إبليس الذي لم يستسلم. فرغبته في التدمير بلا حدودٍ. كان المجرّب قد فشل في التأثير على يسوع من خلال معدته الخاوية. فحاول استدراجه من ميل البشر الطبيعيّ إلى الكبرياء، والعُجب بالذات، والرغبة في تحدّي المستحيل، وخوض المدهش، وتلبية نداء دُوار الهوّة. لقد زيّن له روعة القفز في الفراغ من قمّة الهيكل، بلا حَرَجٍ ولا وَجَلٍ، وإثبات كونه ابن الله، بمسارعة الملائكة إلى حمله مثلما تحمل النسمة ورقة الشجرة المتطايرة، فيحطّ على الأرض برفقٍ ورقّةٍ، ويُدهش البشر الكَلِفين بكلّ معجزٍ، والذين يؤثرون المدهش على الإلهيّ، ويتوقون إلى تحطيم رتابة حياتهم، على أنْ تظلّ ضمائرهم المذنبة غافيةً. لقد وسوس له أنّ الشعب المتعطّش إلى محرّرٍ قويٍّ، عندما سيشاهده يسقط من شاهقٍ، ولا يُصاب بأذًى، سيؤمن بقدراته الخارقة، وسيرى فيه المسيح المنتظر، وسيعلنه ملكًا.

استهلّ الشرّير محاولته الثانية، من حيث كان قد فشل، وبما كان توّاقًا إلى معرفته: «**إن كنت ابن الله حقًّا**...» وبما أنّ يسوع كان قد ردّ عليه بنصٍّ من الكتاب المقدّس، لجأ إبليس إلى السلاح عينه، ولكنّه جار بالنصّ عن سياقه.

جاء في إنجيل متّى: «**عندئذٍ مضى به إبليس إلى المدينة المقدّسة، وأقامه على جناح الهيكل، وقال له: «إن كنتَ ابن اللّه، فألق بنفسك إلى أسفل، فإنّه مكتوبٌ: إنّه يوصي بك ملائكته، فيحملونك على أكفّهم لئلاّ تصدم بحجرٍ رجلك**». هذا الوعد، الوارد في أحد المزامير، لا علاقة له بالمسيح، وهو يؤكّد للأبرار، السالكين في تقوى اللّه ومخافته، حماية اللّه لهم. ولكنّه ليس وعدًا لمن يتحدّون اللّه بصَلَف، بإجراء معجزاتٍ نافلةٍ، إرضاءً لغرورهم، ولنزواتٍ حمقاء. غير أنّ إبليس صوّر تلك المعجزة، لو تمّت، ولكأنّها أقصر طريقٍ إلى اجتذاب قلوب البشر، وتأسيس ملكوت المسيح، والاستعاضة به عن طريق الصليب.

ولكنّ هذه التجربة أيضًا تحطّمت على صخرة «**إنّه مكتوبٌ، أيضًا، لا تجرّب الربّ إلهك**».

رغم الوهن الذي يُضعف مقاومة الصائم، ظلّ يسوع ساجيًا، متفوّقًا على إغراءات إبليس، وعلى الحجج الماكرة التي قامت عليها. فالعجائب الصاخبة الصادمة ليست دربه، بل هو سيسعى دائمًا إلى إخفاء قدراته كيلا يمارس عنفًا روحيًّا، ولا يُكره أحدًا على الإيمان به عنوةً.

ولطالما طالبته الجماهير، في ما بعد، بعلامةٍ معجزةٍ كي تؤمن به، فرفض. فهو لا يتطلّع إلى وفرة عديد أتباعه، بل إلى صلابة إيمانهم، غير المبنيّ على المدهش. تلاميذه لا يريد اجتذابهم بعرض قدراته الخارقة، بل بإغداق حبّه؛ لا بالتهديد بإنزال نار السماء، بل بالدعوة إلى حسن استخدام العقل والإرادة، وبالنهوض من القبر، لا بالقفز من جناح الهيكل. وهو يبتغي أتباعًا لا يتزعزع إيمانهم، حتّى عندما يبدو وكأنّه يهملهم، ولا يدرأ عنهم شرور الأرض كلّها.

لقد حاول الشرّير إقناع يسوع بأنّ قفزه في الفراغ ووصوله سالمًا هو تأكيدٌ لثقته باللّه، ولسهر اللّه عليه. وهذا فخٌّ لا ينجو منه سوى القدّيسين. لكنّ ثقة اللّه المطلقة في أبيه لا تتيح له تجربته، ولا فرض إيمان البشر قسرًا، بالمعجز.

هذه التجربة سيكرّرها إبليس على امتداد حياة يسوع، بألسنة كثيرين: فذوو قرباه، الذين لا يؤمنون به، قالوا له: «**تحوّل من هنا، وأتِ اليهوديّة لكي يرى تلاميذك، هناك، الأعمال التي تعملها، إذ ليس من أحدٍ يعمل في الخفية إذا أراد أن يكون معروفًا، وبما أنّك تعمل هذه الأعمال فأظهر نفسك للعالم**» (يوحنّا ٧: ٣ – ٤).

«**وتقدّم الفرّيسيّون والصدّوقيّون، ليجرّبوه، فسألوه أن يريهم آيةً من السماء، فأجابهم قائلاً: ... الجيل الشرّير الفاسق يطلب آية! إنّه لن يعطى آيةً إلاّ آية يونان**». **ثمّ تركهم ومضى**» (متّى ١٦: ١- ٤).

وحين كان يسوع معلّقًا على الصليب، كان المارّة والزعماء الدينيّون يشمتون قائلين: «**خلّص نفسك! إن كنت ابن الله، فانزل عن الصليب!**» (متّى ٢٧: ٤٠). والذي قام من القبر، لم يكن عسيرًا عليه النزول عن الصليب، ولكنّ الصليب كان غاية مخطّطه الخلاصيّ. ولطالما دعا يسوع تلاميذه إلى الارتقاء من التفسير المادّيّ للخلاص، إلى إتمامه بالحبّ، وبذل الذات حتّى الموت.

هذه التجربة يتعرّض لها كثيرون، كلّ يومٍ، عندما يهمّون بإلقاء ذواتهم في الفراغ، متوهّمين أنّ قدرات العلم قادرةٌ على وقايتهم وإنقاذهم.

التجربة الثالثة

وجمّع إبليس قواه لشنّ الهجمة الثالثة والأخيرة. فشله في المحاولتين السابقتين أفقده رشده. فراح يكذب، ويتباهى بكذبه، مدّعيًا أنّ العالَم أُعطي له، متجاهلاً أنّ الأرض وما عليها ملكٌ للربّ، وأنّ ليس له منها سوى ما تنازل له عنه البشر بخطاياهم، وخياناتهم، وما أولاه إيّاه زعماؤهم بمساوماتهم، وارتمائهم عند أقدامه، وبتنفيذهم لمآربه. ممالك الأرض استولى عليها إبليس بفضل معاصي البشر، وبيع بعض زعمائهم نفوسَهم له. وليس الله هو من ولاّه عليها. وليس بوسع إبليس أن يُولّي عليها سوى صنائعه الذين باعوه نفوسهم وأعلنوا خنوعهم له.

إنّ مَلِك العدم يوهم فقراء النفوس بملء أيديهم، ويطالبهم، في المقابل، بالانبطاح أمام أقدامه. وغالبًا ما يكون الانبطاح سبيلاً إلى السلطة والمجد. وليس كإبليس خبيرٌ بما تجرّ إليه ممارسة السلطات من جرائم. فميدان السلطة هو، بامتيازٍ، ميدان الكذب، والخداع، والقوّة الغاشمة، والحقارة. فقد قيل: «السلطة تفسد، والسلطة المطلقة تفسد فسادًا مطلقًا». فباسم «مصلحة الدولة العليا»، كم يُرتكَب من اغتيالاتٍ، وسرقاتٍ، وتعدّياتٍ، بمنأًى عن أيّة محاسبةٍ، أو محاكمةٍ، أو عقابٍ!

وخُيّل للشرّير أنّه قد يقوى على إيقاع يسوع في شباك شهوة السلطة، التي طالما لعبت برؤوس الكثيرين! وفي لحظةٍ، بسط، أمام ناظريه، الكون بكلّ امتداده، وبكلّ ثرواته، وقدراته، ومناجمه، وكنوزه، وقوافله، وعروشه، وحضاراته، وهمس في أذنه أنّ كلّ تلك الأمجاد والممتلكات مرهونةٌ بحركةٍ بسيطةٍ، لا تقتضي جهدًا، ولا معاهداتٍ، ولا مواثيق، ولا تتطلّب أكثر من ركعةٍ أمامه كي يطلق يده في كلّ تلك المغريات المذهلة.

حتّئذٍ كان إبليس يتحدّى يسوع بإثبات كونه ابن الله، من خلال أعمالٍ متهوّرةٍ. ولكنّه، في هذه النوبة، لم يمهّد لتجربته بقوله: «إن كنت ابن الله...» ولكأنّه بات واثقًا من ذلك. ولذلك أماط اللثام عن سلطاته الممتدّة على الأرض كلّها، ورغب في منافسة الله مرّةً أُخرى. وجهد في أن يُضرم في يسوع الطموح إلى القوّة، العُجب بالذات، وإرادة السيطرة، ولكأنّه يوسوس في صدره: ماذا تبتغي أن تفعل بالعَظَمة الثاوية فيك؟ أتهدرها على قومٍ لا شأن لهم، ولن يقووا على تقديرها؟ أم على نفوسٍ تقيّةٍ ستسبغ عليها التفاهة؟ أم على جمهور واعظٍ متجوّلٍ تنوي أن تكونه؟ انظر بالأحرى إلى المجد المحيق بعرش العالم. ألست ملكًا؟ ألا ينتظرك مصيرٌ ملكيٌّ؟ سأهبك كلّ ما يضمن السلطة والحكم: الذهب، ومنعة السلاح، والقوّة الغاشمة، والقسوة، والعنف. سأعطيك كلّ سطوة الممالك وغناها، فهي في حوزتي، فتعنو لك الشعوب. ها إنّ كلّ هذا بمتناول يدك، شرط أن تؤدّي لي فروض العبادة. فإبليس في تحرّقٍ دائمٍ إلى تلقّي العبادة، لمنافسة الله.

لقد عرض عليه ممالك العالم كلّه، كي يصرفه عن الصليب، ويستعيض بها عن ملكوتٍ يؤدّي دمه ثمنًا له. عرض عليه إقطاعه الأرض ملكًا، على ألاّ يغيّر فيها شيئًا ممّا رسمه، هو، إبليس، لها، وأن يعزف عن إنشاء ملكوته الروحيّ. لقد أراده ملكًا كما كان يحلم به غلاة اليهود، محاربًا، يدمّر الأعداء، ويغرق شعبه في الانتصارات والثروة، والمنعة، والازدهار. ولكنّ يسوع ما جاء لكي يقتطع أراضي وممالك، ولا لكي يسحق شعوبًا.

لقد غرب عن بال إبليس أنّ يسوع إنّما جاء كي يحرّر البشر من كلّ ما حاول هو إغراءهم به، وكي يعتق نفوسهم من أسره. فهل سيقع، هو ذاته، أسير هذه الغوايات؟

الملكوت الذي ابتغاه يسوع لن يظفر به إلاّ بآلامه وموته. ممالك إبليس هي ممالك عبوديّةٍ، ويسوع يريد، في ملكوته، أَحرارًا. في ممالك إبليس، القلوب تنوء بفراغها، ويسوع وحده يستطيع ملء هذه القلوب سلامًا وحبًّا مجرّدًا. ملكوت يسوع سيقوم على ثورةٍ، ولكنّها ثورةٌ لا تستخدم سيف القتل والعنف، بل سيف الحبّ الذي يخترق القلوب، وينزّهها من الأهواء التي تولّد الحروب والبغضاء. سيغزو يسوع العالم بتغييره ما في القلوب، وبتحريرها، وبزرع الحبّ فيها، وبترسيخ القناعة بأنّ لا جدوى من اكتساب العالم كلّه، إن كان ثمن ذلك فقدان النفس.

لذلك دأب يسوع على الفرار من اليهود الذين توسّموا فيه المسيح الزمنيّ الذي كانوا يتطلّعون إليه، فحاولوا تنصيبه ملكًا. ولذلك أجاب بيلاطس: «**مملكتي ليست من هذا العالم. فلو كانت مملكتي من هذا العالم لدافع حَرَسي عنّي، لكي لا أُسلّم إلى اليهود. ولكنّ مملكتي ليست الآن، من ههنا**».

يسوع لا يعترف إلاّ بسلطةٍ واحدةٍ، هي سلطة الحبّ المنزّه من كلّ عنفٍ، التي يمتلكها اللّه وحده، ويشرك بها جميع عباده. ويسوع قرّر: لن يكون سياسيًّا. سيعلن، قريبًا، ملكوت اللّه، ولكنّه ملكوت حبٍّ. وسيطعم الجياع، لا كما يفعل الزعيم السياسيّ أو الاجتماعيّ، الذي، في سبيل ترسيخ سلطانه ونفوذه، يطعم الجموع خبزًا ويحرمهم اللّه والكرامة، بل مثل أخٍ يقتسم مع إخوته ما تلقّاه من الآب. وأخيرًا سيُصلب، ولكنّه لن يقفز من الصليب، ولن يستنجد بالملائكة، بل سيرتمي بين ذراعي أَبيه، طائعًا.

المملكة التي جاء يسوع يقيمها هي مملكة نفوسٍ، لا تقوم، مثل ممالك العالم، على الاستعباد، والعنف، والحيلة. بل مملكة يسوع تحريرٌ، ورقّةٌ، واستقامةٌ. وبقول إبليس إنّ ممالك الأرض واقعةٌ بحوزته، رمى إلى إرهاب يسوع، بالتلميح إلى القوى الرهيبة التي ستنقضّ عليه، إن هو لم يوالِ الشرّير. ولكنّ يسوع، الذي لا يخشى شيئًا، ردّه بعنفٍ، فهو لا يُجلّ إلاّ أَباه، ولا يوالي سواه. وهو قد جاء ليقوّض قوى الشرّ، لا ليمالئها.

لقد فقد إبليس رشده، فطلب من خالقه أن يسجد لـه. وحيال هذه الحقارة والحماقة لم يجادل يسوع، ولم يساوِم، بل، بحزمٍ، زجره: «**اخسأ، يا شيطان، فإنّه مكتوبٌ: للربّ إلهك تسجد، وإيّاه وحده تعبد!**».

فرّ إبليس خائبًا، وهو يُعدّ ثأره. لن يجرؤ بعد، على التصدّي، مباشرةً، ليسوع في أثناء مسيرته المجيدة، ولكنّه سيستخدم الكتبة والفرّيسيّين، وذوي قرباه، في محاولةٍ لتدميره، وأحد تلاميذه كي يخونه، وزعيم رسله بطرس كي ينكره أمام خادمة قيافا. ثمّ سيحاصره، وهو يلفظ أنفاسه، رازحًا تحت وقر خطايا العالم، كي يدفعه إلى القنوط.

* *

محاولات إبليس الثلاث استهدفت إعاقة رسالة يسوع، وصرفها عن غايتها؛ فهي أوّلاً، سعت إلى مسيحانيّة يُسرٍ، ورفاهٍ؛ وثانيًا، إلى مسيحانيّةٍ تحكمها مظاهر خارقةٌ، عبثيّةٌ؛ وثالثًا، إلى مسيحانيّةٍ تلهث في إثر أمجادٍ سياسيّةٍ. وسيقاوم يسوع بعنفٍ هذه النزعات الثلاث على امتداد رسالته. وسيظلّ، سحابة وجوده على الأرض، يصطدم بإبليس ويطارده، ويطرده من الأجساد المسكينة التي احتلّها، مدمّرًا الشرّ أينما وجده.

إنّ تجربة يسوع أخطر ممّا تبدو ظاهريًّا. فإبليس لم يتوخَّ إيقاعه في تجارب النَهَم والعجب بالذات، والمجد الباطل، والطموح إلى السلطة، فحسْب، بل إنّه جرّبه، بصفته المسيح، وهو على عتبة مباشرته رسالته الخلاصيّة، كي يفسد هذه الرسالة. لقد استهدف الشرّير أن يجعل منه «مسيحًا بنعمة إبليس»، «مسيحًا كما يهوى إبليس»، ووفقًا لصورة المسيح الأرضيّ التي شوّهها اليهود. ولكنّ يسوع، بموقفه الصامد، الصارم، أعلن أنّه:

– حتّى بصفته مسيحًا، ليس بمنأًى عن الاحتياجات والامتحانات التي يتعرّض لها سائر البشر، ولكنّه لن يلجأ إلى المعجزات في سبيل تلافيها.

– كي يقنع مواطنيه برسالته لن يلجأ، إلى خوارق نافلةٍ، ولا يأتي إلاّ «بعلاماتٍ»، لا يلتمس، من ورائها، مصلحةً ذاتيّةً.

– الملكوت الذي سيؤسّسه عارٍ من كلّ صفةٍ سياسيّةٍ أو بشريّةٍ، وهو روحيٌّ محضٌ.

بالإجمال سيحرص يسوع على أن يكون مسيحًا وفق مشيئة الآب، وهو، برفضه الدور الذي جهد إبليس في إسناده إليه، خاطر بحياته، إذ اصطدم بمطامع شعبه، واستجلب، على ذاته، أمواج الحقد. ومن ثمّ كان، كلّما ردّ هجمةً من هجمات إبليس، يرتقي درجةً على المذبح الذي سيُضحّى به عليه. ولكنّه سيستطيع التأكيد، في غاية الشوط، أنّ أمير العالم، وزعيم الأبالسة «**ليس له فيه أيّ مأخذٍ**».

لو أنّ يسوع استسلم لإغراء المجرّب لأضحى إبليس سيّد العالم بلا منافسٍ ولا منازعٍ. ومع ذلك، أفلح إبليس في التسلّل إلى عقول وقلوب بعض خلفاء يسوع، والمنادين باسمه، فأقحمهم في شؤون الأرض، من سُلطةٍ، وثروةٍ، وممارساتٍ خاليةٍ من الحبّ، تحدوها الكبرياء والأنانيّة!

حاول إبليس استغلال جوع يسوع، وكم من أبالسة اليوم يستغلّون الجياع كي يجرّدوهم من إنسانيّتهم!

يسوع رفض الاستحواذ على الناس عن طريق بطونهم، مثلما رفض التأثير عليهم بالخوف والإدهاش، مؤثرًا عقد علاقات حبٍّ معهم، ولو أدّت إلى صلبه.

غير أنّ ما رفضه يسوع، يقبله، وينفّذه أسياد هذا العالم.

سيقول يسوع، في معرض حديثه عن الشرّير، إبليس: «**لا يستطيعٍ أحدٌ أن يدخل بيت القويّ، وينهب متاعه، من غير أن يربط القويَّ، أوّلاً**».

وقد بدأ يسوع بإذلال إبليس وتقييده، ثمّ انصرف إلى أداء رسالته، حرًّا من كلّ حذرٍ.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

إثر مراودات إبليس الثلاث الفاشلة، أمره يسوع بالغروب عن وجهه، فجاءت الملائكة، وأخذت تخدمه، حسب قول الإنجيليّ متّى. أمّا لوقا فلا يأتي على ذكر الملائكة، ولكنّه يقول: «**لمّا استنفد إبليس كلّ تجربةٍ ممكنةٍ، انصرف عنه إلى الأوان المحدّد**» (٤: ١٣). هذا الأوان هو أوان خيانة يهوذا، وفرار التلاميذ، وآلام يسوع وصلبه. تلك هي الفرصة التي كان إبليس يتحيّنها، كي يشنّ هجومه الأخير والأعنف. ولئن هو استطاع النيل من بعض البشر إلاّ أنّ تجربته الأخيرة مع يسوع كلّفته هزيمةً نهائيّةً، حاسمةً.

للشرذمة التي وافت للقبض عليه في جبل الزيتون قال يسوع: «**هي الآن ساعتكم، وهذا سلطان الظلام**» (لوقا ٢٢: ٥٣). وكان قُبَيْل قليلٍ قد حذّر تلاميذه: «**صلّوا لئلاّ تسقطوا في التجربة**» (لوقا ٢٢: ٤٠).

إبليس لا يستسلم، ولن يسلم أحدٌ من مراوداته. وحينئذٍ، فليكن يسوع قدوتنا.

صحيحٌ أنّ يسوع لم يعهد ما نقاسيه، نحن، من صراعٍ بين مغريات الشرّ، ومقتضيات الضمير. ولم يكن بوسعه السقوط لأنّه إلهٌ، ولكنَّ طبيعته البشريّة لم تكن ترفض سُبُل اليسر، والجاه، والمجد، المتيسّرة لها. وهي لم تؤثر درب الصليب الذي رسمه الله لها، بلا عناءٍ، ودماءٍ، واستشهادٍ. كلّ مؤمنٍ معرَّضٌ للتساؤل، في لحظاتٍ حرجةٍ، أمام جاذب المتعة، ورؤية نجاح الأشرار، وما يختبره من خزيٍ أو فشلٍ: أليس الآخرون، باختيارهم العالَم، مُحِقّين، وهل هو مخطئٌ بازدراء العالَم، إخلاصًا لإيمانه؟

على مثال يسوع ينبغي أن نصارع الشرّير، وبيسوع يجب أن ننتصر. فالحرب بين يسوع وإبليس لن تنتهي إلاّ بانتهاء العالم، وأجوبة يسوع على الغوايات الثلاث جديرةٌ بأن تظلّ نبراسًا للمجرَّبين، في كلّ زمنٍ وعصرٍ.

ولا ريب أنّ كثيرين يهوون إلى القنوط والهوان، لأنّهم ينشدون، بأيّ ثمنٍ، السعادة الزائفة التي عرضها إبليس على يسوع فرفضها: أي الخبز الوفير، والجاه، والسلطان.

طلائع الرسل

أخفق الإغواء والمكر في التغلّب على الحبّ. ولم يبقَ للشرّ سوى التواري.

وكان انتصار سيّد ملكوت السماوات على رئيس مملكة الظلمات، بدايةً جديرةً بمهمّة يسوع الفدائيّة. كان يسوع قد استهلّ حجّه مذْ أغلق منجرته، وتخطّى عتبة بيته في الناصرة. وبعد أن تهيّأ، طيلة أربعين يومًا، وأخزى إبليس، حان لـه استئناف مسيرة حجّه، مسيرة إيقاظ الضمائر، وشفاء الأرواح والأجساد. حان له أن يشهد لأبيه، ويرسّخ أُسس ملكوته.

في أعقاب صومه المضني، استعاد قواه، ومضى إلى رسالته بعزيمةٍ وثباتٍ. ردّ كلّ عروض إبليس، فباتت كلّ الدروب تقوده إلى الصليب.

بعد أن أمضى أربعين يومًا مع الوحوش، وبعد أن أَنِس إلى خدمة الملائكة، انطلق إلى مجتمع البشر، وقضى بضعة أيّام انتظارٍ ساحرةٍ كالفجر.

بين عودته من الصحراء، وبدء رسالته، بين التجربة والنشاط الرسوليّ الأوّل، كانت فترة حضورٍ صرفٍ، قصيرةً مثل رفّة جفنٍ. سكينة سنوات الطفولة والشباب أمست وراءه، والكفاح على أرض الوقائع التاريخيّة لم يبدأ بعد. ولكأنَّ يسوع في فسحة عطلةٍ ونقاهةٍ. حالما سيبدأ يتكلّم، سيكون لكلّ قولٍ من أقواله جوابٌ، ولكلّ عملٍ من أعماله ردّ فعلٍ. وسيُحاك نسيجٌ تاريخيٌّ لن يبارحه حتّى تحقيق مصيره. أمّا الآن فهو حرٌّ كالنسيم.

فوقه ملء الروح الذي ينسكب عليه، ويزدهر من حوله. الروح يريد أن يعمل ويخلق، ويُعبّر عن ذاته بأقوالٍ وأفعالٍ، ويتوق إلى النضال. ولكن ريثما يحين وقت ذلك، ينسكب، ويُزهر، ويكتفي بالحضور، ورَوْز طاقاته اللامحدودة.

بنوّته لله، وقداسته المطلقة تتألّقان في مستهلّ رسالته، وتضيئان سرّ عمله العميق،

عمقَ مرامي اللّٰه، الرحب رحابةَ البشريّة، الجادّ والبطوليّ، مثل التضحية التي اقتضاها من ذاته ومن أتباعه.

كان الجميع قد أدركوا أنّ يوحنّا ليس سوى علامةٍ تؤذن بعاصفةٍ مطهّرةٍ، وأنّ أحداثًا خطيرةً تنذر بالتفجّر. وإذ كان اليهود يعلمون أنّ المحرّر سيظلّ خفيًّا مدّةً طويلةً، فقد جعل إعلانُ المعمدان بأنّ المخلّص في ما بينهم قلوبًا كثيرةً ترتعش وتخفق.

* *

عاد يسوع إلى ضفاف الأردنّ، حيث لم يكن أحدٌ يعرفه. واختلط بالشعب، ولمحه يوحنّا، الذي كان محاطًا بصفوة تلاميذه المتمرّسين بالزهد والقداسة، على غراره، فقال لهم: «**هوذا حمَل اللّٰه، الذي يرفع خطيئة العالم. إنّه هو الذي قلت فيه: يأتي ورائي رجلٌ قد تقدّمني، لأنّه كائنٌ قبلي. ولم أكن أنا أعرفه. ولكن لكي يعتلن لإسرائيل جئت أُعمّد بالماء**» (يوحنّا: ٢٩–٣١). حدّق تلاميذ يوحنّا إلى يسوع، ولكن لم يتحرّك أحدٌ منهم، فقول المعمدان فاجأهم. عبارة «حَمَل اللّٰه» كانت حافلةً بمعانٍ لا تخفى على اليهود. وقد عنى يوحنّا بها أنّ العالَم لم يكن في حاجةٍ إلى عالِمٍ، أو مرشدٍ أخلاقيٍّ، أو صانع معجزاتٍ، بقدر ما يحتاج إلى من يضحّي بذاته، تكفيرًا عن خطايا العالم، ويجعل التضحية بالحملان، والتيوس، والعجول، نافلةً. «حَمَل اللّٰه» يعني البريء، المنزّه من كلّ خطيئةٍ، الكفيل بغسل خطايا العالم، عندما سيضحّى به.

«حَمَل اللّٰه»، عبارةٌ تقرن الرقّة والعذوبة بالقوّة، وهي إشارةٌ صريحةٌ إلى نبوءة أشعيا التي تُصوّر المسيح حملاً صامتًا يُقتاد إلى الذبح. ولكأنَّ المعمدان كان يرى، نبويًّا، ذلك الحمل، منذئذٍ، مضرّجًا بدمائه، لفداء العالم.

بعد مشاهدته السماء مشرعةً، وتجلّي الروح، وسماعه صوت الآب شاهدًا لابنه، لم تعد مهمّة المعمدان مجرّد الدعوة إلى التوبة، والإنذار بعدل اللّٰه؛ وهو لم يعد مجرّد معمّدٍ ملتهبٍ غيرةً، بل أمسى إنجيليَّ الأزمنة الجديدة الأوّل. ما كان قد توسّمه الأنبياء قبله، من بعيدٍ، رآه، هو، بأمّ عينيه، ولمسه، وكشف له نورُ اللّٰه سرَّه، فانطلق يبشّر به الجموع بلا مَلَل. وقد انتزعت رؤيته ليسوع، من أعماقه، صيحاتٍ مؤثّرةً.

وقد ارتدى يسوع، منذ اليوم الأوّل، ثوب رسالته، وانحفرت معالمها في كلّ

كيانه. وكانت رسالةً موجعةً، فائقة القداسة، تغمره بالتواضع والرأفة، وتظهره أرقّ بني البشر. حقًّا، كان يسوع حمل الله. وبإطلاقه هذا الوصف عليه، ارتقى المعمدان فوق كلّ آراء شعبه في المسيح، والتقى بأشعيا، نبيّ «رجل الآلام». لقد ومضت الحقيقة كالبرق في نفسه، فأدرك أنّ التكفير عن خطايا البشر، لن يكون، بعد، بسفك دماء حملانٍ وعجولٍ، وتقادم للهيكل، بل بدم ابن الله نفسه، الذي سيبذله طائعًا، مختارًا، بدافع حبٍّ لا مثيل له.

ولكي يبدّد شكوك الجميع كان يردّد، بلا هوادةٍ، ما رآه بعينيه، وما سمعه بأذنيه، لمّا عمّد يسوع الذي لا شيء، ظاهريًّا، كان يوحي بأنّه المسيح المنتظر.

* *

قول يوحنّا كان وداعًا للعهد القديم. كان إسحق قد سأل أباه إبراهيم: «أين حمل التضحية؟» وبعد مئات السنين أجابه المعمدان: «هوذا حمل الله»، الحمل الذي، بتضحيته، سيحرّر العالم من عبوديّة الخطيئة.

ربّما لم يفقه تلاميذ يوحنّا، في اليوم الأوّل، كلّ فحوى هذا القول. ولكن، «**في الغد كان يوحنّا هناك، أيضًا، مع اثنين من تلاميذه. فحدّق إلى يسوع وهو ماشٍ، وقال «هوذا حمل الله»**. ولكأنّه، بهذا التكرار، كان يحضّ تلميذيْه على الالتحاق بيسوع، محقّقًا ما سيعلنه، بعد قليلٍ: «**ليسوع أن ينمو، ولي أن أنقص**». في هذه النوبة أدرك التلميذان أبعاد هذا الوصف، «**فتبعا يسوع. والتفت يسوع، وإذ رآهما يتبعانه قال لهما: «ماذا تطلبان؟» فقالا له: «رابّي – أي يا معلّم – أين تقيم؟» فقال لهما: «هلمّا وانظرا». فأتيا، ونظرا أين يقيم، وباتا معه ذلك اليوم. وكانت الساعة نحو العاشرة**»، أي تلك اللحظة التي يميل فيها ضوء النهار إلى الشحوب، وتخمد الضوضاء، ويشرع يخيّم صمتٌ يدعو إلى النجوى الحميمة. إنّ في تحديد يوحنّا لساعة الحدَث عالَمًا من الذكريات، فقد كانت تلك الساعة حاسمةً في تقرير مصيره إلى الأبد؛ ومفترقًا حاسمًا في حياته!

من المرجّح أنّ يسوع كان يقيم في خصٍّ من قصبٍ، وأفنان شجرٍ، تقي الغريب من برد الليل، وندى صباحات الربيع. وغادر التلميذان المكان، وقد التهب قلبهما، واهتزّ كيانهما. لن نعرف أبدًا، ما دار من حديثٍ بين يسوع وضيفيه؛ ولكن من

المحقّق أنّ مجرّد حضور يسوع ونظرته، وبسمته، وطريقة إِصغائه، وكلامه، قد أسر نفسيهما إلى الأبد.

كانت تلك خطوة العالَم الأولى نحو المخلّص.

أحد التلميذَيْن كان أندراوس، أَخا سمعان بطرس، والآخر يوحنّا بن زبدى، الذي سيُعرف، في ما بعد، بأنّه التلميذ الذي كان يسوع يحبّه.

كان المعمدان قد أعلن لوفد زعماء اليهود: إنّ المسيح بين ظهرانيكم، ولكنّكم لا تعرفونه. وهم لم يسعوا إلى معرفته، ولا إلى البحث عنه. أمّا يوحنّا وأندراوس فقد اندفعا في إثر من قال فيه الأنبياء «إنّ الأبرار يحبّونه». وهكذا شرّف يسوع سابقه، بتلقّيه منه تلميذَيْه الأوّلَيْن، اللّذين لم يجتذبهما يسوع إلاّ بقوله: «**تعاليا وانظرا**». كان الوقت مساءً، فباتا عنده. فلعلّنا، في مساء عمرنا، وقد أرهقنا وقر الخطايا، وانتابتنا من الموت قشعريرةٌ، ننشد منزل الربّ، ونبيت فيه!

كم كانت عذبةً الأحاديث التي تجاذبها الثلاثة، في ذلك المساء، والتي كان لها من عميق الوقع ما رسّخ في ذاكرة يوحنّا أدقّ التفاصيل، وحتّى التوقيت الدقيق! كانت في مثل نضارة أزهار الربيع البكر، وتدفّق النبع الأوّل. لم يكن العالَم قد دنّس، بعدُ، أيّ شيءٍ ممّا يتعلّق بيسوع، ولم يشوّه أيًّا من أقواله. لم يكن أحدٌ قد قاومه، ولا حامت حوله أيّة ريبةٍ. بل كلّ شيءٍ كان ما زال يسبح في شفافيّة الفجر التي تندّ عن الوصف. إنّ ما تبادله الثلاثة، في ذلك اللقاء الأوّل، هو سرُّ حبٍّ غير بشريّ، لا يحيط به تعبيرٌ.

ذلك اللقاء أورى نارًا قدسيّةً راحت تقفز من نفسٍ إلى نفسٍ. فأندراوس بلّغ أخاه سمعان: «**لقد وجدنا المسيح**». وجاء به إلى يسوع الذي حدّق إليه، فانطلق من عينيه ومن إرادته ومض برقٍ ساطعٍ. نظرة يسوع اخترقت نفس بطرس، فقال له: «**أنت سمعان بن يوحنّا، وإنّك ستدعى «كيفا» أي صخرًا**». لقد أطلق عليه، منذ لقائهما الأوّل، اسمًا جديدًا، حدّد له به مصيره.

لم يخشَ يسوع وصف بطرس بالصخرة، وهو يعلم أنّه أشدّ هشاشةً من قصبةٍ جوفاء!

لقد آمن بطرس بيسوع منذ الوهلة الأولى، غير مستندٍ لا على شهادة المعمدان،

ولا على شهادة سواه، ومع ذلك كان إيمانه مطلقًا. فكان له أبلغ أثرٍ على قلب يسوع.

وبإطلاقه عليه اسمًا جديدًا، دمغه يسوع بميسمه، وجعله من خاصّته، وإن لم يفصح لابن يوحنّا عن المصير الذي تفترضه هذه التسمية الجديدة، إلاّ أنّه أشعره بأنه بات مرتبطًا به ارتباطًا لا فكاك منه.

وفي الغد امتدّت النار إلى فيليبّس، إذ كان يسوع ماضيًا إلى الجليل، فالتقاه، وقال له: «**اتبعني**»، لا لساعاتٍ معدوداتٍ، بل إلى غاية الشوط. فلبّى الدعوة بحماس. إنّ لنداء يسوع وقعًا آسرًا لا يُقاوَم. «**كان فيليبّس أوّل من طلب منه يسوع اتّباعه**». ومن فيليبّس قفزت النار إلى نثنائيل، الذي أنبأه فيليبّس بنبرة فرحٍ واندفاعٍ: «**إنّ الذي كُتب عنه في شريعة موسى، وفي الأنبياء، قد وجدناه، إنّه يسوع ابن يوسف من الناصرة**». ولكنّ النار لم تلهب، في الحال، نثنائيل، الذي كان متوغّلاً في علم الكتاب، ومقيّدًا بأحكامه المسبّقة؛ فضلاً عن كونه من قانا، وينظر إلى قرية الناصرة المجاورة نظرة ازدراءٍ، كما هي، غالبًا، نظرة أبناء القرى المتجاورة، فردّ، ساخرًا: «**أمن الناصرة يمكن أن يخرج شيءٌ صالح؟**». ولكنّ صديقه دعاه ببساطة: «**تعالَ وانظر**»، أي لا تتعجّل الحكم قبل أن تشاهد وتسمع. وجاء مرتابًا. غير أنّ إشارةً من يسوع كانت كافيةً لقلب كيانه. إذ لّما رأى يسوعُ نثنائيل مقبلاً إليه، قال: «**هوذا إسرائيليٌّ أصيلٌ، لا غشّ فيه**». **فقال له نثنائيل: «من أين تعرفني؟» أجاب يسوع وقال له: «إنّي قبل أن يدعوك فيليبّس، وأنت تحت التينة رأيتُك». فهتف نثنائيل: «رابّي، أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل». فأجاب يسوع وقال له: «ألأنّي قلت لك إنّي رأيتك تحت التينة آمنت؟ إنّك سترى أعظم من هذا»**.

جرت العادة أن تنتصب إلى جانب كلّ بيتٍ تينةٌ وارفة الظلال، يقضي تحت فيئها القوم ساعات سكونٍ، وتأمّلٍ، واستجمامٍ. وقد أَلِف الرابّيّون أن يفيئوا إليها للتمعّن في دراسة الشريعة. ويمكن تخمين أنّ نثنائيل، قُبيلَ مجيء فيليبس إليه، كان تحت التينة، يجيل في خلَده قضايا مجيء المسيح. وربّما كان يلتمس من الله إشارةً ترشده إلى الحقيقة، في غمرة الشائعات الدائرة حول هذا المجيء. كانت إشارة يسوع، إذن، قراءةً في فكر نثنائيل وقلبه، ومن المحقّق أنّ نثنائيل وقع في أسر ذلك الرجل، الذي كان يقرأ في أعماقه، كما يقرأ في كتابٍ مفتوحٍ. وكان يسوع رفيقًا

بنثنائيل الذي كان مستقيمًا، بيد أنّ حرف الشريعة قد أشاع الظلمة في فكره. وقد ولج إلى محراب وجدانه، فغدا حارًّا في إيمانه مثلما كان حارًّا في شكّه.

أولئك الذين أتوا إلى يسوع متلمّسين دربهم، الذين اجتذبهم، وهم عن أنفسهم ذاهلون، قد وسمهم بدمغته إلى الأبد. نار الصاعقة التي انقضّت على نفوسهم، وحدّدت دعوتهم ومصيرهم، لن تنطفئ. في مرحلةٍ أولى سيعودون إلى مِهَنهم وأعمالهم. ولكنّ شيئًا جوهريًّا فيهم قد تبدّل، ورباطًا نشب بنفوسهم؛ ولن يلبثوا أن يهجروا كلّ شيءٍ، وينقادوا لـه. يسوع، أيضًا، ارتبط بهم، ولم يعُد طليقًا.

هكذا تكوّنت نواة التلاميذ الخمسة الأوائل، الذين خَبَروا فتنة يسوع الروحيّة في ما يتخطّى بساطة زيّه القرويّ، وتوسّموا، من خلال إشعاعه البشريّ، كيانه الخارق الطبيعة، الذي جعلهم يتلعثمون، وهم يعلنون إيمانهم للمرّة الأولى.

إنّ الربّ غالبًا ما يوقظ، باكرًا، في القلوب، تطلّعاتٍ جوهريّةً، تظلّ، سحابة العمر كلّه، تجهد في تحقيقها.

على هذا النحو انتقى يسوع طليعة رفاقه، بسلطانه الساكن، الحازم، وبمعزلٍ عن أيّ إكراهٍ، فاسحًا للدعوات فرصة النضوج، وفاتحًا ذراعيه وقلبه لمن يرغبون، طوعًا، في اتّباعه.

اجتذبهم، بلا خطاباتٍ، ولا عجائب مذهلةٍ، ولا وعودٍ بخيراتٍ أرضيّةٍ. كان حسبَه التفاتةٌ صوب أندراوس ويوحنّا، وتحديقٌ إلى أعماق بطرس، وقول «**اتبعني**» لفيليبُّس، و«**رأيتك تحت التينة**» لنثنائيل، فبقوا جميعهم مخلصين لـه حتّى الموت، واستشهدوا وفاءً لإيمانهم، ورأوا السماء مشرعةً أمامهم.

إيمان أولئك التلاميذ الأوائل، على صدقه واندفاعه، كان بعيدًا عن الكمال، فهم أبناء شعبهم، يقتسمون أحلامه في مسيحٍ يلائم أهواءهم. كانوا يحبّون يسوع، ويولونه ثقتهم، ولكنّهم كانوا يودّون، أيضًا، أن يروا فيه مسيح أحلامهم. إنّ تطلّعات البشر هي دون مخطّطات الله. ولكن كلّما توغّلت النفوس في معرفة الله، تبدّدت أوهامهما. وسيدرك أولئك الجليليّون البسطاء، يومًا، في مدرسة يسوع، أكثر من حكماء اليهود وعلمائهم، سرّ المسيح، وطبيعة ملكوته، ولزوم آلامه، وعمق اتّضاعه، ونار حبّه، وخلود انتصاره.

وفي هذه الأثناء، كانوا يفيضون فرحًا واعتزازًا واندفاعًا، لكونهم طليعة أتباع يسوع.

ما كانت مشاعر المعمدان، وهو يشهد تلاميذه يودّعونه كي يلتحقوا بيسوع؟ لقد رأى في ذلك تحقيقًا للمهمّة التي جاء من أجلها، ولا ريب أنّه سعد بإخلاء مكانه، لمن مهّد له السبيل. وليس كيسوع من يعرف إسالة العزاء في القلوب التي يحرمها من صديقٍ، أو ابنٍ، أو بنتٍ، أو تلميذٍ.

وفي وادي الأردنّ المحفور مثل ثلمٍ جسيمٍ، تحت سماءٍ متوهّجةٍ، حيث شرعت الضمائر تختمر بفعل أقوال المعمدان، انبلج شعاع عمل يسوع الأوّل.

عُـــرْسُ قَـــانَا (*)

قبل سرد هذه الرواية، لا بدّ من ملاحظتين:

أولاهما أَنّ الإنجيليّين الإزائيّين، يبدون مستعجلين في بسط رسالة يسوع في الجليل، فيوحون بأنّها بدأت فور عماده، وعودته من خلوته الصحراويّة، حيث صام وصارع إبليس. غير أنّ الإنجيليّ الرابع الذي حرص على التذكير بما أغفله زملاؤه، وعلى تصحيح تواريخ مسيرة يسوع، يؤكّد أنّ فترةً خصبةً بالأحداث امتدّت بين عودته من الصحراء، ومباشرته رسالته في الجليل.

الملاحظة الثانية هي إغفال الأناجيل لذكر يوسف، منذ مطلع حياة يسوع العلنيّة. ممّا يوحي بأنّ ذلك البارّ كان، بعد أن اضطلع بمهمّة تنشئة يسوع، قد لقي وجه ربّه، وباتت العذراء أرملةً مكرِّسةً حياتها لخدمة ابنها وإلهها.

* *

في أثناء غياب يسوع الأوّل عن المنزل، استضافَ مريمَ أقرباءُ لها أو ليوسف، في قرية قانا المجاورة للناصرة، كانوا يتأهّبون للاحتفال بعرس أحد أبنائهم. والعرس حَدَثٌ هامٌّ، تقتّر الأُسرة، في سبيله، وتتحمّل أقسى التضحيات، عدّة سنواتٍ، وتعدّ له قبل أشهرٍ كي تُخرجه على أبهى وجهٍ، فتظلّ الألسنة تلهج بذكراه سنين طويلة. وغالبًا ما يصبح تاريخًا يُستعان به على تأريخ أحداثٍ أُخرى جرت قبله أو بعده.

وفي القرى، يمتدّ الاحتفال بالعرس أيّامًا، يظلّ، في أثنائها، بيت العريس مشرع الأبواب، يغشاه القوم حينما يشاؤون، يأكلون ويشربون، ويدبكون، ويغنّون، ويقضون أماسي ممتعةً. وعنصر المتعة الأوّل هو الخمرة التي تلعب بالرؤوس، والتي يُسرف الضيوف في تناولها، كما لا يزال جاريًا في أعراس قرانا.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «عرس قانا الجليل»، صفحة ٩٥.

وقد تطوّعت العذراء لمدّ يد العون، وسخّرت مؤهّلاتها الإداريّة وسَهرها العطوف لخدمة ذوي العريس.

ودُعي يسوع، فوافى يواكبه رفاقه الجُدد، ولم يكن في استصحابهم غضاضةٌ، فالبيت مفتوحٌ لكلّ قادمٍ، ولا سيّما أنّ أحد رفاق يسوع، نثنائيل، هو من أبناء قانا، ومدعوٌّ، حُكمًا.

وكم سعدت العذراء بلقاء ابنها وتقبيله، في أعقاب غيابه الأوّل الطويل عنها! كانت تعلم أنّه مضى في سبيل الرسالة التي وُلد من أجلها، فتحمّلت الوحدة، طائعةً، مساهمةً منها في تلك الرسالة. وإضافةً إلى الوحدة كان عليها مواجهة الأقاويل والشائعات، وفضول الجيران، وتلميحات الأقرباء الخبيثة. وها هي ذي تلقاه في قانا، يحمل لقب رابّيّ، وإلى جانبه، قبضةٌ من التلاميذ الذين يرون فيه معلّمًا فذًّا. أمّا هي، فما برحت أُمّه، وحسبُ.

وصل يسوع ورفاقه، والعرس في أيّامه الأخيرة. ويبدو أنّ إقبال الضيوف، في الأيّام السابقة، كان كثيفًا، وأنّ سخاء الضيافة كان بلا حدودٍ. وتبيّنت العذراء أنّ مخزون الخمرة قد نفد، وشقّ عليها وقوع أصدقائها في مأزقٍ كفيلٍ بإفساد فرحتهم، وبوصمهم بعارٍ لن ينساه أهل القرية، سنين طويلةً. وفيما أفراح العرس تدوّي: غناءٌ، ورقصٌ، وتصفيقٌ، وكؤوسٌ تُملأ شرابًا يشيع النشوة، ولا تلبث أن تفرغ، وتُملأ من جديدٍ، والعريسان والندامى لا همّ لهم سوى التمتّع بسُوَيعات الانشراح النادرة، والضيوف لا يعتزمون الانصراف قبل انبثاق الفجر، كي يعودوا عند ظهيرة الغد، والجميع ذاهلون عمّا يدور حولهم، كان القيّمون على الاحتفال يتخبّطون في الحيرة والإحراج. في تلك الأثناء ظلّت أُمّ يسوع، وحدها، رابطة الجأش، لأنّ ابنها كان حاضرًا، وهي، وحدها، تعلم ابن أيّ أبٍ هو.

كانت مدركةً أنّه لم يهجرها إلاّ لأنّ ساعته قد حانت، فلا بأس من أن يُظهر للملأ بعض قدراته الإلهيّة. جاءته، إذن، وقالت: «**لم يبقَ عندهم خمر**». **فقال لها: «ما لي ولكِ، أيّتها المرأة؟ إنّ ساعتي لم تأتِ بعد»**.

قول العذراء «**لم يبقَ عندهم خمر**» لا يبدو تعبيرًا عن رغبةٍ، ولا اقتراحًا، ومع ذلك، فهو أرقّ صلاةٍ تقطر ثقةً مطلقةً.

ردّ يسوع يبدو، لآذاننا، جافيًا. ولكن يجدر بالتنويه أنّ عبارة «يا امرأة»، كان دليل احترامٍ، مثل قولنا: «يا سيّدة»، لا بل كان أكثر تعبيرًا عن التبجيل من قول «يا أُمّي»، فهو يعني أنّ تلك الأُمّ القدّيسة هي نموذج الأنوثة الأسمى، وحوّاء الجديدة المنزّهة من العيب والخطيئة.

أمّا قوله: «ما لي ولك» فهو عبارةٌ كانت رائجةً، وترتدي معاني مختلفةً وفقًا للسياق، ونبرة الصوت. وهوَ هنا، يعني: «لمَ تقولين ذلك لي؟» أو «وما شأننا أنت وأنا؟». هي كانت تدعوه إلى استخدام طاقاته الخارقة لإنقاذ أصدقائها من ورطتهم، وهو ابتغى إفهامها أنّ الساعة لم تحِنْ، بعد، كي يُظهر سلطانه. كان قد أَلِف أن يهبّ لتلبية جميع رغباتها، وابتغى تذكيرها بأنّه، وقد باشر رسالته، قد أصبح بكلّيّته لشؤون أبيه. غير أنّ النظرات التي تبادلتها عيونهما كانت أعمق تعبيرًا من الكلمات. العذراء كانت تنصت إلى قلب ابنها أكثر من إنصاتها إلى كلامه، وكانت تقرأ نفسه في نظراته. وقد انتصر إيمانها على رفضه الظاهريّ، بدليل إيعازها للخدم أن ينفّذوا ما يأمرهم به ابنها.

لقد برهنت، في تلك المناسبة، عن إيمانها المطلق بقدرات يسوع اللامحدودة وذلك قبل أن تشهد من عجائبه شيئًا؛ فاستحقّت طوبى من آمن ولم يرَ (يوحنّا ٢٠ : ٢٩).

ومثلما كان يسوع، ابن الاثني عشر ربيعًا، قد أعلن أنّ عليه الاهتمام بشؤون أبيه السماويّ، ومع ذلك أطاع أبويه وعاد معهما إلى الناصرة، كذلك، في هذه النوبة، ردّ في وقار من لا يخضع، في أداء رسالته، إلاّ لمشيئة أبيه السماويّ، ولكنّه لم يتوانَ عن تلبية رغبة أمّه، حتّى وإن لم تفصح عنها، صراحةً، وإلى أبعد من كلّ ما توقّعت. وبذلك أثبت يسوع أنّه خاضعٌ لمشيئة أبيه السماويّ، ومُلبٍّ لرغبة أمّه الأرضيّة.

لم يغرب عن باله أنّ معجزته الأولى كانت خطوته الأولى صوب الصليب، ومع ذلك خطاها، طوعًا، إكرامًا لأُمّه. ساعته لم تحِن بعد، ولكن بما أنّ أُمّه أرادت، فلتحِنْ الساعة، في الحال، وليكنْ ما شاءت!

«الساعة» موعدٌ محدّدٌ منذ الأزل، وقد عُدِّل، وسُبِّق، بناءً على طلب مخلوقٍ.

هذا هو سرّ كلّ صلاةٍ مستجابةٍ، وتأثير المحدود على اللامحدود، تأثير الزمن على الأبديّة(*).

بدا يسوع رافضًا لطلب أُمّه. ولكنّها لم تشكّ بأنّها ستُلبّى، وبعناد المرأة تصرَّفت، وكأنّها لم تسمع الرفض. وكم يقطر ثقةً قولها للخدّام: «**افعلوا ما يقول لكم**»!

وكان هناك ستّ أجاجين، وُضعت لتطهُّر اليهود، وقد صُنعت من حجر، لأنّ الحجر، في رأي الشريعة، لا يحتفظ بالنجاسة كالآجرّ. وكلٌّ منها يتّسع لنحو مئة ليترٍ. «**فقال لهم يسوع املأوا الأجاجين ماءً». فملأوها إلى فوق. فقال لهم: «استقوا الآن، وقدّموا لرئيس الوليمة**».

بفضل تكتّم مريم، وسرعة مبادرتها، تمّ كلّ شيءٍ بسرعةٍ، بحيث خفي الأمر حتّى على ذوي العريس. وتذوّق رئيس الوليمة، فإذا بها خمرةٌ لم يذق مثلها طعمًا، يومًا. واستولت عليه الدهشة، وكاد يُفشي السرّ، عندما استدعى العريس وعاتبه: «**كلّ امرئ يأتي بالخمرة الجيّدة أوّلاً، فإذا أخذ من الندامى الشراب، جاء بالدون. أمّا أنت فقد أبقيت الخمرة الجيّدة إلى الآن**». وظنّ العريس أنّ الخمرة لعبت برأس رئيس الوليمة نفسه، ولكنّه لمّا تذوّق الخمرة بنفسه، رنا إلى مريم، فإلى يسوع، واتّضح كلّ شيءٍ.

لقد اقترنت، في ذلك الحدث، متناقضاتٌ عديدةٌ: اقترن السخاء بالكتمان، واقترن الرفض بالوفرة، فقد تلا رَفضَ يسوع عطاؤه، بكرمٍ إلهيٍّ، أكثر كثيرًا ممّا طُلِبَ منه. واقترن الفائق بالتواضع، بحيث لم يشعر أهل العرس بالمعجزة. ذلك هو «التواضع الإلهيّ».

وفي الواقع، كانت تلك هديّة يسوع وصحبه للعروسين، وبداية معجزاته، ودليل برّه بأمّه. وقد خصّ بمعجزته الأولى أُسرةً شابّةً تُبنى على الحبّ.

تلك المعجزة ظلّت مغلّفةً بالكتمان إلى أن أماط عنها اللثام يوحنّا الإنجيليّ. ولم يطّلع عليها سوى حفنةٍ من تلاميذ يسوع الأوائل ابتغى الربّ تشديد إيمانهم. ولكنّه تجنّب الأضواء والصخب، وإدهاش الجماهير. لقد استهلّ يسوع رسالته، مثل فجرٍ يستهلُّ نهارًا صيفيًّا شرقيًّا، في سكونٍ جليلٍ، وروعةٍ مضيئةٍ، صامتةٍ.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «ساعة يسوع»، صفحة ٤٦٦.

لقد حوّل عرسًا قرويًّا بسيطًا إلى حَدَثٍ حافلٍ بالعبَر، لكي يفهمنا أنّه كفيلٌ بتحويل كلّ ما يمسّه، وقادرٌ على تحويل طبيعتنا بقوّة الروح، ونشوته.

وهو الذي حوّل الماء خمرًا، سيحوّل الحرف الفاقد الطعم إلى روحٍ محيٍ، وسيحوّل الماجنين الفاجرين إلى عفيفين، والمتكبّرين المتجبّرين إلى متواضعين وُدَعاء. وسيملأ الرعاديد جرأةً في الاعتراف بالله حتّى الاستشهاد.

ولقد كان تحويله الماء خمرًا، في قانا، رمزًا ونبوءةً بالتحويل الجوهريّ الذي سيتوّج به حياته وعطاءه، ويخلّد به حبّه، ألا وهو تحويل الخمرة إلى دمه، الذي سيجدّد، به، كلّ يومٍ، دم البشر.

وهو رمزٌ إلى التحوّل الجوهريّ الذي يجعل من البشريّ إلهيًّا، من غير حاجةٍ إلى خلقٍ جديدٍ، أو إلى هدمٍ. تحوُّلٌ يمثّل العرس المسيحيّ، حيث يقترن الله بالبشريّة. وستكون مهمّة الرسل، كما كانت مهمّة خدَمة العرس، توزيع الخمر الجديد، دم يسوع.

الخمر رمز الحبّ والفرح يمثّل دم المخلّص في الإفخارستيّا.

ما رفضه يسوع لإبليس، فعله في قانا. في الصحراء، إذ كان الجوع يعضّ معدته أبى تحويل الحجارة إلى خبزٍ، فيصبح زعيمًا يجتذب القلوب ببحبوحةٍ مادّيّةٍ. ولكنّه، امتثالاً لرغبة أُمّه، حوّل الماء خمرًا كي يصبح للبشر مخلّصًا. إبليس جهد في صرفه عن الصليب، ودفعه إلى التماس الأمجاد، وأُمّه دفعته إلى الصليب الذي سيوفّر له المجد الحقّ.

إيمان مريم في قدرات ابنها الإلهيّة إيمانٌ مطلقٌ. فهي التي خبرت حبّه، وعطفه، وبرّه بها، لا يساورها شكٌّ بأنّه قد يردّ لها طلبًا. وهو أقام الدليل على أنّه يلبّي، أبدًا، كلّ رغباتها، وفي سبيل ذلك، لا يحجم عن تحويل مجرى الكون، وتغيير طبيعة الأشياء. والعذراء التي قالت لابنها في قانا: «لم يبقَ لديهم خمر»، ما برحت تقول له: «إنّهم يفتقرون إلى المناعة، ويفتقرون إلى الفرح، ويفتقرون إلى النور، فأرأف بهم، واسقِهم من خمرة الحقيقة».

للخدّام قالت العذراء: «افعلوا ما يقول لكم»، وكانت تلك كلمتها الأخيرة التي ذكرتها الأناجيل. وهي ما زالت اليوم تقول لكلٍّ منّا «افعل ما يقول يسوع لك»، كي تنهض من عثرتك، وتتحرّر، وتقوى، وتكبر.

بشفاعة مريم استُهلَّت، في قانا، سلسلةٌ متماديةٌ من العجائب التي ما انفكّت البشريّة تلتسمها، بواسطتها، منذ عشرين قرنًا.

* *

لقد أخذ رئيس الوليمة على العريس مخالفته أصول المآدب، لأنّه استبقى الخمرة الجيّدة إلى الآخر. فالعالمَ يعطي الحلاوة، أوّلاً، ثمّ يلحقها بالثمالة والمرارة. ولكنّ يسوع قلب هذا النظام، فهو يهب الوفرة بعد الصيام، والقيامة بعد الصليب، وفرح صباح الفصح بعد فواجع الجمعة الحزينة. إنّه يقود إلى أسرار المجد، من خلال أسرار الأَلم.

إنّ الخمرة السيّئة قد استُهلكت في العهد القديم، ووُضعت في الاستهلاك خمرةٌ جديدةٌ، مع شروع يسوع برسالته.

هذه الخمرة التي لم يتمتّع بمثل مذاقها بشرٌ، والتي انسابت من معصرةٍ غير مرئيّةٍ، هي إشارةٌ متوهّجةٌ تعلن خمرة الكلمة. وتلك الخمرة التي كان يعبّ منها، بنَهَمٍ ونشوةٍ، ضيوفُ عرس قانا، كانت تخفر سرًّا، وتتراقص فيها رعشة إشارةٍ سماويّةٍ. وستتحوّل، في نهاية شوط رسالة يسوع، إلى دمه الإلهيّ المقدّم، بلا انقطاعٍ ولا نضوبٍ، حياةً تسري في عروق المؤمنين.

* *

كان يسوع، عند لقائه الأوّل بنثنائيل، قد قال: «**الحقّ أقول لكم إنّكم سترون السماء مفتوحةً، وملائكة الله في صعودٍ ونزولٍ على ابن البشر**» (يوحنّا ١: ٥١). وفي قانا بدأ هذا الوعد يتحقّق. فقد كان التلاميذ شهودًا على معجزةٍ أعدّتهم للإيمان بما يصعب الإيمان به. ويوم سيؤكّد لهم يسوع أنّ الخمر هو دمه، والخبز جسده، لن يكون عسيرًا تصديقه على من شهدوا معجزة قانا. ومن ثمّ فإنّ هذه المعجزة التي تبدو من أقلّ معجزات يسوع «روحانيّة»، قد قادت التلاميذ، من حيث لم يدروا، إلى رحاب السرّ الذي يفوق كلّ تصوّر. هكذا «**أظهر يسوع مجده، فآمن به تلاميذه**» (يوحنا ٢: ١٢).

في قانا شرعت تتجلّى قدرات يسوع على الطبيعة، لا بعلاماتٍ مخيفةٍ، بل على

مائدة احتفالٍ، وسط أهازيج أفراح عرسٍ. استخدم هذه القدرات، للمرَّة الأولى، شبه مرغمٍ، امتثالاً لرغبة أمّه، ولكي لا يعكّر صفو الاحتفال، فهو قد هبط على الأرض، لكي يهب البشر الفرح الكامل، والحياة بوفرة.

* *

ولم يبقَ ليسوعِ سوى الاعتلان على دروب فلسطين.

يَومُ رِسَالَةِ يَسُوعَ الأوَّل

رغب بطرس وأندراوس في دعوة يسوع وأُمّه وذوي قرباه الذين كانوا مدعوّين إلى عرس قانا، إلى منزلهما في كفرناحوم، التي تبعد عن قانا نحو عشرين كيلومترًا.

وكانت تلك سانحةً ليسوع كي يكتشف المدينة التي ستحتلّ مكانةً هامّةً في حياته، والتي ستصبح مركز رسالته في الجليل، بحيث دعاها الإنجيليّون «مدينته».

كفرناحوم دسكرةٌ تضجّ بالحياة وبالغرباء، مضّجعةٌ على الضفّة الشماليّة الغربيّة لبحيرة جنّيصارت المعروفة ببحر الجليل، أو بحيرة طبريّة. وهي غنيّةٌ بوفرة مياهها، وبتربتها الخصبة، حيث تزدهر زراعة الحبوب والبقول، وأشجار التين والزيتون، وكروم العنب.

وكانت سوقًا نشطةً، ونقطة عبورٍ شديدة الازدحام على الطريق الذي يربط دمشق بمصر وبالبحر المتوسّط. وكان معظم سكّانها من الصيّادين، والباعة، والتجّار، وجباة الضرائب.

أمّا البحيرة، فهي تمتدّ على طول ٢١ كيلومترًا، بعرض ١٢ كيلومترًا، وعلى ضفافها كانت تنتشر المدن والدساكر والقرى العديدة. وكانت منطقتها تتميّز بنقاء هوائها، وصفاء مائها، وصحّة مناخها. وكانت مئات أشرعة البواخر تتهادى على سطحها، حيث تتجاور سفن الصيّادين وسفن نقل البضائع. وكانت مياهها تزخر بالأسماك.

اسم «كفرناحوم» يعني «قرية الفراء»، أو «القرية الزاخرة بالثمار». وكان ذلك القطاع من الجليل يدعى جليل الأمم لأنّ اليهود هناك سمحوا للوثنيّين بالإقامة بين ظهرانيهم، فعُدّوا أنجاسًا في نظر المتزمّتين. ومع ذلك اختار يسوع أن يطلق رسالته من تلك البقعة.

وإلى جانب كفرناحوم كان ثمّة جنّيصارت، وبيت صيدا، وكورزين، الراقدة على

ضفّة البحيرة الغربيّة، الممتدّة على ثلاثة أو أربعة أميال. إنّها أكثر مناطق فلسطين ازدحامًا بالسكّان، والأشدّ اختلاطًا بالشعوب، والعادات، والأديان، والشيَع المختلفة. ضبّاط هيرودس، ويونانيّو الذيكابول(*)، وفلاّحون، وصيّادون، جليليّون، وسوريّون، وفينيقيّون، ومشارقة كانت قوافلهم تنهج درب البحر؛ وجندٌ، وقادةٌ رومانيّون يراقبون تلك المنطقة الصاخبة، وعشّارون قابعون عند حدود المدن لاستيفاء المكوس، وغوانٍ اجتذبهنّ الازدحام والاختلاط. تلك كانت الجموع التي بشّرها يسوع.

* *

بطرس وأندراوس استأنفا مهنة الصيد، كي يعوّضا أسرتهما عن الحرمان الذي تعرّضت له في أثناء غيابهما. ولم يكن يدور، بعدُ، في خَلَدهما أنّهما سيتخلّيان، قريبًا، عن تلك المهنة، في سبيل صيدٍ آخر.

فإذ كان يسوع يجول على ضفّة البحيرة رآهما يلقيان شبكةً في اليمّ فقال لهما: «**اتبعاني فأجعلكما صيّادي بشر**». **فتركا للوقت شباكهما وتبعاه**.

لقد كان بطرس مدعوًّا إلى الصيد لحساب يسوع، على امتداد العالم، وهذا ما سيفعله في أورشليم، ثمّ في السامرة، وقيصريّة، وأنطاكية، وكورنثس، وأخيرًا في روما حيث استُشهد.

لم يكن هَجْرُ بطرس لأسرته بالأمر اليسير فقد كان متزوّجًا، وهو لا يعرف يسوع إلاّ منذ فترةٍ قصيرةٍ. ومع ذلك لم يتردّد، فقد توسّم، بحدْسٍ علويّ، وبعمقٍ، سموّ يسوع وعظمة دعوته.

ثمّ شاهد يسوع أخوَيْن آخرَيْن هما يعقوب ويوحنّا ابنا زبدى، وكانا لبطرس وأندراوس شريكَيْن، فدعاهما، أيضًا، «**فتركا، للوقت، سفينتهما، وأباهما، وتبعاه**».

أولئك الصيّادون كانوا طليعة من ارتضوا تضحيةً ساميةً ما زالت تتفاعل، اليوم، في كلّ مكانٍ يُمجّد فيه اسم يسوع، وتُلبّى دعوته مع ما تفرضه من انسلاخٍ. فقد كان على أولئك الرجال المنخرطين في مصطرع الحياة والمكبّلين بألف قيدٍ، وخاصّةً

(*) ومعناها «المدن العشر» وهي مدنٌ هلّينيّة، يقع معظمها شرقيّ جنوبيّ الجليل، وقد أولاها الحكم الرومانيّ استقلالاً ذاتيًّا. وأشهرها سكيتوبوليس، المعروفة اليوم بجرش، وفيلادلفيا، وهي عمّان الحاليّة.

بوشائج الدم التي تغلّ القلب، أن يُحكَم عليهم بتجرّدٍ تامٍّ، وطُهرٍ رائعٍ. ولكنّهم، عند ضفّة البحيرة، كانوا سعداء باتّحادهم بيسوع. وما من أحدٍ كان يحلّ، بينهم وبين المعلّم الذي كان يفتنهم، محلّ نعمته.

* *

وكان يوم سبتٍ، فشخص يسوع مع أصدقائه الجُدد، إلى المجمع. لم يكن الجليليّون متشبّثين، كالكتبة، بالفرائض الخاصّة بالهيكل، ولكنّهم كانوا مثابرين على مجمع مدينتهم، حريصين على التقيّد بشريعة السبت.

قدّم، إذن، بطرسُ يسوعَ إلى رئيس المجمع، ولا ريب أنّه حدّثه عن الظاهرة التي واكبت عماده، وعن صومه، وعن معجزة قانا. فدُعي يسوع إلى قراءة نصٍّ من الكتاب والتعليق عليه. لم يكن خطاب يسوع في مثل أناقة خطابات الكتبة وحذلقتهم، ولكنّه أدهش مستمعيه وفتنهم بالسلطة السامية الآسرة المنبعثة من كلامه.

يقول الإنجيليّ مرقس: «**واتّفق أنّه كان في مجمعهم رجلٌ به روحٌ نجسٌ، فصاح قائلاً: «ما لنا ولك، يا يسوع الناصريّ! إنّك قد جئت لتهلكنا. إنّي أعرف من أنت: إنّك قدّوس الله**». استحوذ على الروح الشرّير يقينٌ بأنّ احتلاله لذلك المسكين بات مهدّدًا، فحاول أن يساوم. ولكنّ يسوع كان حازمًا، قاطعًا، فانتهره وأمره: «**اخرس! واخرج منه**». وحينئذٍ لجأ الروح إلى العنف، فخبط الرجل وصرخ بصوتٍ شديدٍ، وخرج منه. وينتهي الإنجيليّ إلى القول: «**فذهلوا جميعهم حتّى سأل بعضهم بعضًا: «ما هذا؟... تعليمٌ جديدٌ يُلقى بسُلطان! ويأمر حتّى الأرواح النجسة فتطيعه». وعلى الأثر، ذاع ذكره في كلّ مكانٍ من أنحاء الجليل**» (مرقس ١: ٢١ – ٢٨).

كان التعزيم، لطرد الشياطين، معروفًا عند اليهود، ولكنّه كان مهمّةً طويلةً وشاقّةً. إلاّ أنّهم لم يروا، قطّ، شيطانًا يُطرد بكلمةٍ واحدةٍ.

يسوع يأمر الأرواح الشرّيرة من بُعد، ويزجرها. أمّا مرضى البشر فينحني عليهم بعطفٍ، ويلمسهم، ويبرئهم. فما إن عاد إلى بيت سمعان وأنداوس، ومعهم يعقوب ويوحنّا، حتّى أُعلم أنّ حمًّى شديدةً ألّمت بحماة سمعان بطرس، وأقعدتها طريحة

الفراش، «**فدنا، وأخذ بيدها، وأنهضها، ففارقتها الحمّى، فأخذت تخدمهم**». الحمّى الشديدة، وإن زالت، تخلّف في الجسم وهنًا يدوم أيّامًا. ولكنّ شفاء يسوع لتلك المرأة كان من العمق والتمام، بحيث هبّت تخدم، ولكأنّها استعادت شبابها.

ربّما لم يرُقْ لرئيس المجلس أن يطرد يسوع الروح النجس، في يوم سبتٍ، مخالفًا فرائض السبت الصارمة. ولكنّ الشعب البسيط الطيّب أكبر، في نبيّ الناصرة، قدراته الخارقة، وتناقلت الألسن أنباءَه من بيتٍ إلى بيتٍ. وما إن غربت الشمس، وانتهت فريضة الراحة السبتيّة، حتّى تهافت أهالي كفرناحوم على البيت الذي كان يقيم فيه، فاحتشد عند بابه جمعٌ غفيرٌ من المبتلين بشتّى الأمراض، ومن المسكونين بأرواحٍ شرّيرةٍ، فطرد الشياطين، وأبرأ الأسقام، وامتدّ به الليل، وهو عاكفٌ على تلبية التماسات ذوي الحاجات. مقعدون، وعرجٌ، وعميانٌ، وشيوخٌ عاجزون، وأولادٌ جاءت بهم أمّهاتٌ أرهقهنّ الغمّ والقلق. ورحمته لا تردّ مطلبًا. محيطٌ من الآلام البشريّة انبسط أمامه فانغمس في لجّته بكلّ قدراته وكلّ رحمته.

مشهدٌ يهزّ القلب: الشمس غربت، ومعها رحل القيظ. وهبّت من الجبال أنسام المساء المنعشة، وفُتحت كلّ الأبواب، ومنها تدفّقت كلّ ضروب البؤس، وتراصّت من حوله، وهو يطوف ما بينهم، ويبرئ أوصابهم، إذ إنّ قدرةً إلهيّةً تخرج منه وتشفي، لكي يتمّ ما قاله النبيّ أشعيا: «**إنّه هو الذي أخذ أسقامنا، وحمل أمراضنا**».

لديه قدرةٌ على الشفاء التامّ، لأنّه يملك قدرة الخلق، والتصرّف بدفق الحياة، وتحويل كلّ حيٍّ. قدرته على الشفاء لا تنضب، ولا تتوقّف عند أيّة حالةٍ مرضيّةٍ. إنّه يبرئ الجميع، محقّقًا دعوته: «**تعالوا إليّ جميعًا**»، قبل تلفّظه بها.

الآلام البشريّة محيطٌ رحبٌ لا شاطئ له، وتخفيفها مهمّةٌ جسيمةٌ لا تنتهي. ويسوع، يتحسّس آلام البشر، ويتعاطف معها. يدعها تدنو منه، ولكنّه لا ينهار أمامها. إنّه يحدّق إليها، في عريها وبشاعتها، ولكنّه لا يتيح لها أن تثبّط عزيمته. فقلبه أرقّ قلبٍ خفق في صدر إنسانٍ، وأكثر القلوب استنارةً، وأمنع من كلّ آلام البشر.

يوم يسوع الرسوليّ الأوّل، ذاك، كان اختزالاً للإنجيل. ومنذئذٍ، كان عهد السكينة والتخفّي قد ولّى، ويسوع أمسى مِلكَ الجماهير المتألّمة التي تحاصره.

في أعقاب ليلة السهاد والدهشة، تلك، أفاق بطرس ورفاقه في ساعةٍ متأخّرةٍ عن تلك التي أَلِفوا الاستيقاظ فيها، ولم يعثروا ليسوع على أثرٍ. فقد كان قد انطلق، تحت جنح الليل، إلى مكانٍ قفرٍ، كي يختلي بأبيه ويناجيه. ومنذئذٍ اكتشف بطرس ورفاقه لديه تلك النزعة التي ستواكبه، حتّى في غمرة زحمة مهامّه المرهقة. فهو، أبدًا، يستعين على الإرهاق بالتأمّل، وعلى ازدحام الجموع من حوله، بخلوة القفار وسكونها، وعلى اتّخاذ القرارات الخطيرة بالتشاور مع أبيه. «ففي الصلاة تندرج مأساة حياة يسوع، وفي الصمت تنعقد القضيّة الكبرى، قضيّة فداء الجنس البشريّ بين الآب والإنسان الإله».

وتوسّل إليه رفاقه أن يعود إلى البيت، حيث تراصّت حشودٌ جديدةٌ مطالبةً بالنبيّ الشافي، ولكنّ جسامة رسالته لا تتيح له المكوث في مكانٍ واحدٍ. فقال لهم: «**هلمّوا إلى مكانٍ آخر، إلى القرى المجاورة: إنّه ينبغي لي أن أبشّر المدن الأُخرى، أيضًا، بملكوت الله. لأنّي لهذا قد أُرسلت**» (لوقا ٤: ٤٣) و(مرقس ١: ٣٨).

شعوره بجسامة رسالةٍ بسعة الكون غدا يرين على إرادته، ويحدوه في كلّ لحظةٍ. وقد شرع يوحي بحجمه الإلهيّ، وبلجاجة مهامّه، فالفصح يقترب، وهو راغبٌ في الظهور في بيت أبيه، هيكل أورشليم.

طرد تجّار الهيكل (بريشة كارل بلوخ)

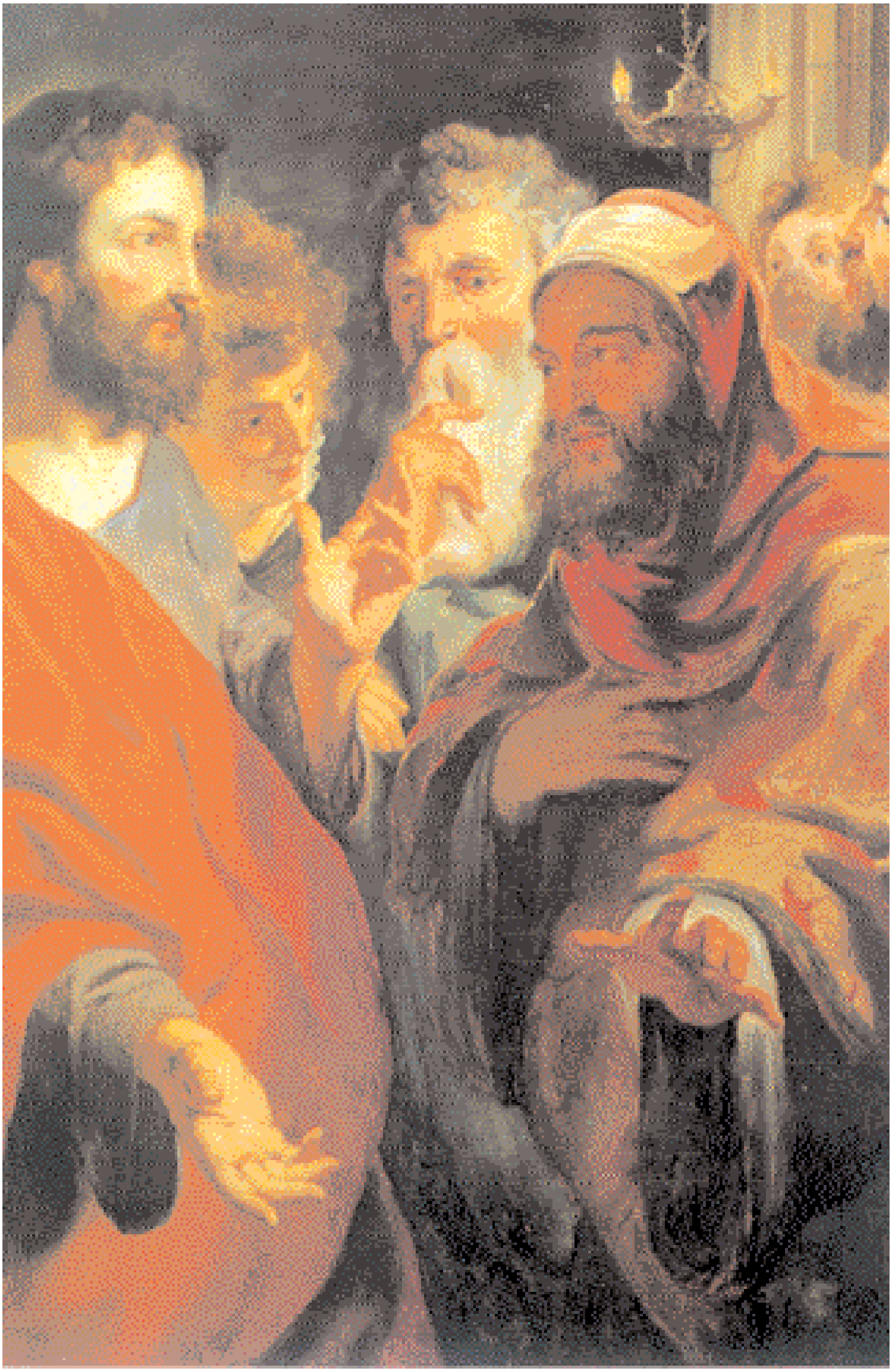

يسوع ونيقوديمُس (بريشة جاكوب جورداينس)

سُخْطٌ في النَّاصِرَة (*)

قبل شخوصه إلى أورشليم، واكب يسوع أُمّه وذوي قرباه إلى الناصرة، حيث كان غيابه الطويل قد أثار التساؤلات. عاد إلى مربع صباه كي يخصّه بباكورة رسالته. وفي يوم السبت وافى إلى المجمع حيث طالما جلس صامتًا، في الصفوف الأخيرة، مختلطًا بمواطنيه البسطاء كي يسمع تلاوة الشريعة، وتعليق العلماء عليها. وكان جميع الناصريّين توّاقين إلى التأكّد ممّا يشاع عنه. فعامِلُ الأمس عاد حاملاً لقب النبيّ، وكان الفضول يلفت إليه الأنظار كلّها. ولا ريب أنّ رؤساء المجمع حدجوه بنظرة صلفٍ وازدراءٍ. فالعلم الزهيد الذي أصابوه لم يكن يسمح لهم بتذوّق أقوال نجّارٍ شبه أمّيٍّ، لم يختلف إلى مدارس الرابّيين، ومع ذلك شذّ عن تعاليمهم وتقاليدهم.

وعقب تلاوة الصلوات المألوفة، ومقاطع من الشريعة، كُرِّم بتلاوة مقطعٍ من النبوءات. وبإيعازٍ من رئيس المجمع دفع إليه الخازن سفر أشعيا النبيّ، فلمّا نشره، وقع على الموضع المكتوب فيه:

«روح الربّ عليّ، لأنه مسحني لأُبشّر الفقراء،

وأرسلني لأنادي للمأسورين بالتخلية، وللعميان بالبصر،

ولأُطلق المرهَقين أحرارًا، ولأنادي بسنة قبولٍ عند الربّ».

إنّ، في الحياة، تدابير إلهيّةً، تبدو صُدَفًا، وتدهش كلّ مؤمنٍ. وكانت تلك إحداها. ويتابع لوقا روايته فيقول: «**ثمّ طوى السِفر ودفعه إلى الخادم وجلس. وكانت عيونُ جميع الذين في المجمع شاخصةً إليه. حينئذٍ شرع يقول لهم: «اليوم تمّت هذه الكتابة التي تُليت على مسامعكم. وكان الجميع يشهدون له، ويتعجَّبون من أقوال النعمة الخارجة من فيه، ويقولون: «أليس هو ابن يوسف؟»**

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «يسوع و أبناء قريته»، صفحة ٩٩.

فقال لهم: «لا شكّ في أنّكم ستقولون لي هذا المثل: «أيّها الطبيبُ اشفِ نفسك. لقد سمعنا بكلّ ما فعلتَه في كفرناحوم، فافعل مثله ههنا في وطنِك». وقال: «الحقّ أقول لكم إنّه ما من نبيٍّ يلقى قبولاً في وطنه».

«وفي الحقيقية أقول لكم إنّ أرامل كثيراتٍ كُنّ في إسرائيل في أيّام إيليّا حين أُغلِقت السماء ثلاث سنين وستّة أشهرٍ، ونشب جوعٌ شديدٌ في الأرض كلّها. فلم يُبعث إيليّا إلى أيٍّ منهنّ بل إلى امرأةٍ في صَرْفت صيدون. وإنّ بُرصًا كثيرين كانوا في إسرائيل في زمان أليشَع النبيّ فلم يُطهَّر أحدٌ منهم، بل نعمانُ السوريّ» (لوقا ٤: ٢٠– ٢٧).

تكلّم يسوع كما تكلّم الأنبياء من قبله، في جرأةٍ لا تصانع، ولا تجزع، ولا تخشى الموت، فالصليب، أبدًا، نُصْب عينيه. بشّر أبناء الناصرة بملكوتٍ كما صوّره أشعيا، قائمٍ على رحمة الله غير المتناهية، فخيّب تطلّعاتهم الوطنيّة، إذ ميّز الفقراء، والمتواضعين، والمأسورين، والمفجوعين، الباكين، المنتشرين في كلّ مكان، عن أبناء الشريعة.

بادئ الأمر استولى الذهول على أبناء قريته، الذين ظنّوا أنّهم ما زالوا أمام نجّار قريتهم، الذي نشأ بين ظهرانيهم، وإذا بهم أمام نبيٍّ يعلن البشرى، والخلاص، بصفته مسيح الربّ. وتناهبتهم مشاعر الإعجاب والحيرة، فخُيّل إلى بعضهم أنّهم كانوا يسمعون أشعيا نفسه يتكلّم بلسانه، في حين عصف الحسد والصغارة بنفوس آخرين تساءلوا: «أليس هذا ابن يوسف النجّار؟». فصغار النفوس لا يرضون بأن يتفوّق عليهم أحدٌ من أمثالهم، ولا سيّما إن كان لا يزال فقيرًا، أعزل، لا ينعم بوهج الثروة، والشهرة والنفوذ.

كان المعمدان قد أعلن أنّ يسوع هو ابن الله، وبات للناصريّ أتباعٌ، بيد أنّ مواطنيه في الناصرة لم يغيّروا نظرتهم إليه، وحتّى عندما شاعت أخبار معجزاته المدهشة، لم ينسوا وضاعة محتده ومهنته، وضآلة علمه، وأعماهم حسدهم، وصغاراتهم، وأحكامهم المسبّقة، عمّن سيخلّد اسم قريتهم إلى الأبد. فالمشاعر التي تضيّق حدود القلب، تحدّ آفاق العقل.

وحدَها أمّه اخترقت سرّه، وأثلج صدرها شروعه بتحقيق الرسالة التي جاء من

أجلها، والتي أحاطتها، في صدرها، بالحبّ والكتمان، وستكون هي شريكته في إنجازها. لقد آثرت ظلّ الامّحاء، ولكن لم يكن لأقوال ابنها ولفعاله، ولحياته كلّها، بما زخرت به من آلامٍ وانتصاراتٍ، ترحيبٌ أحرّ، وصدًى أصدق ممّا كان لها في قلبها.

كان قد جاءهم بُغيةَ إشراكهم في قدراته، وليتهم استقبلوه مثل مواطني لاعب كرة قدمٍ يعود إلى موطنه، في أعقاب جولةٍ مظفّرةٍ! ولكنّهم، عوضًا عن الترحيب والإيمان، قابلوه بالحسد والبغض، والتحدّي. ومع أنّه كان قد أجرى، في قانا وكفرناحوم، معجزاتٍ أبهر بها الجميع، فأكبر القوم قدراته ومجّدوه، طالبه مواطنوه بإجراء معجزاتٍ أُخرى أمامهم كي يؤمنوا به، وكأنّه بهلوانٌ عليه أن يلعب أدوارًا مدهشةً لتسليتهم. ويسوع يأبى أن يجري أيّة معجزةٍ ردًّا على تحدٍّ، أو إشباعًا لنزوةٍ، بل يُجريها طوْعًا، مكافأةً لإيمانٍ، أو تدعيمًا له، أو تعاطفًا مع متألّمٍ محتاجٍ. لا يهزّه ويحدوه سوى الإيمان والحبّ.

وضرب لهم أمثلة أنبياء حبسوا عجائبهم عن بني قومهم غير المؤمنين، وأَغدقوها على أغرابٍ يختلج في صدورهم روح الله. فاستثار غيظهم، وجرح كبرياءهم.

هذا القول كان إدانةً صريحةً لإسرائيل، ممّا أضرم سخط مواطنيه. وفجأةً غاضت نظرات الإعجاب، وتحوّل معلن البشرى إلى عامل شقاقٍ. وعَقِبَ الإصغاءَ الدَهِشَ هياجٌ عارمٌ. وتدافع القوم، دافعين يسوع خارج المجمع، ثمّ خارج المدينة، طاردينه من مرابع صباه. لم يرجموه، ولكنّهم اقتادوه إلى قمّة التلّة القائمة عليها مدينتهم، بُغيةَ القذف به إلى أسفل. كلماتٌ معدوداتٌ كانت كافيةً لكي تنتقل بذلك الجمهور المتقلّب، في غضون لحظاتٍ، من أوج الإعجاب إلى سَوْرة الغضَب، والكره، والعنف. الحقيقة التي أدلى بها لم تُنِرْ نفوسهم، بل أغضبتها، ودفعتهم إلى النبذ، والقتل. ولكنّه حدجهم بنظرةٍ تجلّت فيها ألوهته، والنعمة التي كانت تغمره، فشُلّت أيديهم، ومضى في دربه، وسطهم، ثابت الخطى، رابط الجأش، مودّعًا الناصرة وتلالها، وضفاف ساقيتها، وملاعب صباه، وذكريات ثلاثين سنةً من العمل الدؤوب، والتأهّب الصامت للرسالة.

وسط أولئك المأفونين المستشيطين غيظًا، ظلّ يسوع ساكنًا، وديعًا. فلا شيء يقوى على إيذائه، إن لم يُرِدْ هو ذلك.

ومضى حزينًا، فلا شيء يحزنه كانعدام الإيمان والثقة. وكان مصيره مصيرَ الودعاء المتواضعين، أي التجاهل والاضطهاد.

على غرار أهل الناصرة سيقاوم معظمُ اليهود، ومعظمُ البشر، رسالة ملكوت الله. يقول الإنجيليّ: «**كان الجميع يشهدون له، ويتعجّبون من أقوال النعمة الخارجة من فيه**» (لوقا ٤: ٢٢). والنعمة، هنا، تعني نفحةً حيّةً، حارَّة، فاتنةً، عطيّةً مجّانيّةً، جمالاً رقيقًا هشًّا. في أقوال يسوع قوّة الإيحاء، وفي قول مواطنيه: «**أليس هذا ابن يوسف؟**» مثل لدغة الرقطاء.

مقاومة النعمة هي تعبير البشر العنيف عن حنقهم على الله، على جوهره، وقداسته. والثورة، في أعماق القلب البشريّ، على كيان الله، ثورةٌ تمتدّ إلى كلّ رجال الله: الأنبياء، والرسل، والقدّيسين، والورعين. شيءٌ ما في داخل الإنسان لا يطيق القداسة، ويثور عليها، لأنّه لا يطيق وجود شيءٍ مقدّسٍ في إنسانٍ نعرف والديه، يسكن في جوارنا، وعليه أن يكون مثل الجميع، وألاّ يتميّز بشيءٍ. إنّه يصعب علينا أن يكون ذاك الذي نعرف عنه كلّ شيءٍ مختار الله!

خروج بشرى ملكوت الله من فمٍ بشريٍّ، يثير أعتى الناس وأخبثهم، ولذلك قال يسوع: «**طوبى لمن لا يشكّ فيّ!**».

الشكّ تفجّر منذ أقوال الربّ الأولى، في الناصرة، ثمّ خبا، ولكنّه ظلّ كامنًا، يبرز في كلّ مناسبةٍ، إلى أن هبّت العاصفة التي أطاحت بالمخلّص. إنّها ثورة القلب البشريّ العليل على من جاء للبشر بالخلاص.

كلّ فعلٍ من أفعال يسوع ذريعةٌ لأعدائه كي يتهجّموا عليه مثل شفائه في يوم سبتٍ، أو جلوسه على مائدة العشّارين، ولكنّ الدافع الفعليّ الكمين هو هذا التوجّه السرّيّ الذي لا يُفسّر، الذي يجعل القلب المنحطّ يتصدّى لله القدّوس.

في الناصرة بدأ صليب يسوع يرتسم في الأفق. ولكنّ الروح كان يقوده ويحميه، ويُفشل كلّ عنفٍ بشريٍّ. ولا شيء سيقوى على النيل منه سوى «ساعته» عندما ستأزف.

* *

ومن الناصرة انطلق يسوع وتلاميذه، في قافلة حجٍّ إلى أورشليم.

طَـرْدُ باعَـةِ الهَـيْكَل

كان يسوع توّاقًا إلى إلقاء بذور تعليمه الجديد في أورشيلم، وخير مكانٍ لإلقاء البذرة الأولى هو الهيكل حيث بُشّر زكريّا بمولد يوحنّا المعجز، وتنبّأ سمعان الشيخ بمأساة يسوع.

لبيت أبيه وقعٌ آسرٌ على نفسه. وكان قد أجاب أمّه وهو في الثانية عشرة، أنّ عليه أن يبقى فيه للاهتمام بشؤون أبيه. وها هوذا، وقد بلغ مبالغ الرجال، حان له أن ينظّفه من منتهكي حرمته.

كان أبناء رئيس الكهنة حنّان قد سمحوا بانتقال سوق البهائم ودكاكين الصرافة التي كانوا شركاء فيها، ويجنون منها مرابح جزيلةً، إلى داخل رواق سليمان، فغصّ المكان بالباعة الذين جاؤوا بقطعان الأبقار والأغنام والتيوس، من أجل تقادم الأغنياء، وبأقفاص الحمام التي جاء بها آخرون من أجل تقادم الفقراء. وانتشر الصيارفة الذين كانوا يستبدلون النقود الوثنيّة النجسة بنقودٍ يهوديّةٍ تليق بالهيكل وبسدنته، لقاء عمولاتٍ مجزيةٍ. وقد بدا كلّ ذلك مشروعًا، فالجميع يعملون «لخدمة الله»!

ما أبشع رياءهم وما أعمقه! فهم كانوا قد أقاموا الدنيا وأقعدوها لأنّ الوالي الرومانيّ أدخل، خلسةً، إلى أورشليم أعلامًا تحمل رسومًا وثنيّة، ولكنّهم، في عُقْر الهيكل، ما كانوا يتحرّجون من المتاجرة بنقودٍ منقوشةٍ عليها رسومٌ وثنيّة!

المصالح المادّيّة والجشع أفسدا تلك المواقع المقدّسة، بموافقة من كان من واجبهم حظر تلك المظاهر، والحفاظ على قدسيّة معقل الصلاة الأمثل، وقد تمّ كلّ ذلك تحت سمعهم وبصرهم، وبالتواطؤ معهم.

كان رواق الهيكل قد تحوّل إلى سوقٍ مزدحمةٍ صاخبةٍ، وإلى إسطبلٍ يفوح بروائح

الروث، وشاع فيه الهرج والمرج، واختلطت صيحات التجّار والصيارفة الحادّة، ومساومات الباعة والمشترين الصاخبة، بخوار الثيران، وثغاء الحملان، وهديل الحمام. ولولا أصداءٌ بعيدةٌ لأناشيد المزامير، وبضع ومضاتٍ من المصابيح، لظنّ الزائر أنّه في سوقٍ للبهائم، لا عند عتبات بيت اللّه.

في حجّاتٍ له سابقة، كان يسوع قد لحظ انتهاك المتاجرين لقدسيّة الهيكل، ولكنّه، حرصًا منه على كتمان هويّته، واستمراره في حياة التستّر، كان يدفن غضبه وأساه في صدره. أمّا وقد أزفت ساعته، فقد حان له أن يذود عن كرامة أبيه الممتهنة في عقر داره، من قِبَل من يدّعون تمثيله وخدمته، فأطلق العنان لغيرته، واستنكاره، وغضبه المقدّس.

الأنبياء، من قبل، كانوا قد أنحوا باللائمة على من جعلوا الهيكل «مغارة لصوصٍ». غير أنّ مصالح رؤساء الكهنة كانت قد طغت على أصوات الأنبياء، فكان على ابن اللّه أن يصدي لصيحات الأنبياء ويطرد اللصوص بالسوط.

* *

غضِبَ يسوع، ولكنّه لم ينقَدْ لانفعالٍ طارئٍ، بل، بتؤدةٍ وتصميمٍ، أكبّ على الأرض فجمع حزمة حبالٍ مرميّةٍ، كانت توثق بها المواشي، فجدل منها سوطًا أنزله على ظهور الباعة والصيارفة والسماسرة، وطرد به البهائم، قالبًا موائد الصرافة، ناثرًا النقود، فاتحًا الأقفاص التي تطاير منها الحمام، صائحًا: «**ارفعوا هذه من ههنا، ولا تجعلوا بيت أبي بيت تجارةٍ**».

لقد فعل ذلك بسلطةٍ لم يجرؤ أحدٌ على مقاومتها. رجلٌ وحيدٌ لا يتمتّع، بعد، بأيّة شهرةٍ، ولا سلطةٍ رسميّةٍ، يتحدّى الكهنة، ويُنزل السوط بالباعة الكُثُر، فلا يلقى مقاومةً لا من الباعة، ولا من الشعب، ولا من حرّاس الهيكل، لأنّه كان يرتدي عظمة اللّه وقوّته، ويذود عن حياض بيته، وبيت أبيه، ويملك حقّ التصدّي لكلّ من يدنّسه. ولا ريب أنّ الشعب صفّق له، متذكّرًا قول النبيّ، «غيرة بيتك أكلتني».

ذُعر التلاميذ وهم يشهدون، لدى معلّمهم، جرأةً لم يتخيّلوها، وعنفًا لم يألفوه. وذُهل الحجّاج وروّاد الهيكل، وساد الوجوم. المشهد يصدم بعضًا ويُضحك آخرين.

فالصيارفة منبطحون، يحبون على أيديهم وركبهم، بحثًا عن نقودهم التي درجت على الحضيض، وبهائم مذعورةٌ شاردةٌ في كلّ صوبٍ تتصادم وتتشابك قوائمها. وفي كلّ مكانٍ خوارٌ، وثغاءٌ، وهديلٌ، ونزاعاتٌ حاميةٌ. هذا يدوس يد ذاك، وآخر يتمرّغ في الروث، والفوضى عارمةٌ. والأكثر مدعاةً للرثاء والسخريّة هم المشرفون على النظام، الذين يركضون في كلّ اتّجاهٍ، ويلوّحون بأيديهم، ولا يفعلون سوى مضاعفة الفوضى.

ويسوع مقيمٌ على وقاره. المهابة المنبعثة منه، وغضبه المقدّس حالا دون أيّة مقاومةٍ. فمن المؤكّد أنّ الباعة وأسيادهم كانوا يعون أنّهم كانوا ينتهكون، حقًّا، قدسيّة بيت اللّه، فامتثلوا لأمره، خاسئين.

غيرته على بيت أبيه كانت نارًا تلهب صدره، ولكنّها أدّت إلى حرقه. فهو قد ضرب الكهنة في صُلب موجعهم، في مصالحهم التجاريّة، ولذلك لن يغفروا له، أبدًا، فعلته، ولا سيّما أنّه من «شعب الأرض» المزدرى، وقد تعمّد على يد المعمدان الذي وصفهم بالأفاعي.

لم يُطِق الكهنة واللاويّون رؤية مصلحٍ دخيلٍ يقتحم معقلهم، ويهدّد مصالحهم. لم يجسروا على مناقشته في فعلته ذاتها، ولكنّهم أخذوا عليه تدخّله في ما لا يعنيه، واستوضحوه بأيّة سلطةٍ يفعل ما يفعل، وإلاّ فليأتِ بمعجزةٍ ساطعةٍ مفحمةٍ تثبت سلطته.

كان بوسع يسوع أن يحقّق أمامهم كلّ المعجزات التي قد يتخيّلونها، وكان بمكنته شفاء جميع المرضى المحتشدين في فناء الهيكل، والذين سعوا إليه من كلّ صوبٍ. وما كان ليحجم عن شفاء جميع ملتمسي الشفاء، لو دنوا منه، ولكنّهم كانوا خائفين من علماء الشريعة، وظلّوا خارج الهيكل.

إنّ يسوع الذي يجيب على البسطاء بوضوحٍ، ويحقّق رغباتهم، يردّ على المتحدّين، المتحذلقين، بألغازٍ تزيدهم حيرةً وارتباكًا. فالنوايا الشرّيرة لا تُفلح أيّة شهادةٍ، مهما كانت ساطعةً، في إقناعها.

ردًّا على من طالبوا بإثبات سلطته، ابتسم يسوع، وأومأ إلى صدره، هيكل اللّه

الحقّ، وقال: «**انقضوا هذا الهيكل، وأنا، في ثلاثة أيّامٍ أقيمه**». لم يردّ بصيغة الشرط: «إن قوّضتم هذا الهيكل..»، بل بصيغة الأمر ونبرة التحدّي قال: «انقضوا هذا الهيكل»، لكي يثبت لهم سلطته وقدراته الإلهيّة، واعتزامه الردّ على الصلب بالقيامة، ولكي يهب جميع الأمم هيكلاً حقًّا. وحينئذٍ، لن يعود هيكل الله بناءً من حجرٍ، فالهيكل الحجريّ أمسى بيت اليهود الخرب المهجور، وكلّ هيكلٍ يخلو من الله، ويتحوّل إلى وكر مصالحَ مادّيّةٍ خسيسةٍ، يفقد رسالته، ويهجره الله.

من المحقّق أنّ يسوع لم يكن يعني الهيكل الذي أعاد بناءه هيرودس كي ينافس به هيكل سليمان، ودأب جيشٌ من نحو عشرين ألف عاملٍ، على إشادته طيلة ستٍّ وأربعين سنةً. ستٌّ وأربعون سنةً من الظهور التي حطّمها الانحناء على حفر أساساتٍ بعمق جهنّم، ومن أيدٍ اهترأت حتّى العظم في نحت حجارٍ يزن بعضها خمسين طنًّا، ومن سواعد هُدّت في جمع هذه الكتل لجعلها جدرانًا جبّارةً تسمق حتّى خمسين مترًا؛ ستٌّ وأربعون سنةً من الثروات الهائلة التي التُهمت!

جواب يسوع هذا لم ينسَه أحدٌ ممّن سمعوه. فبعد أقلّ من ثلاث سنوات سيذكره بعضهم كي يتّخذوا منه ذريعةً للادّعاء عليه وإدانته، أو ليهزأوا به وهو على الصليب، أو ليشدّدوا الحراسة على لحده. وسيذكره تلاميذه بعد قيامته، إذ، يومها فقط، سيُدركون أنّه كان يتكلّم عن جسده، هيكل الله الجديد الأبديّ، الذي قوّضه اليهود، حقًّا، ولكنّه أقامه، في اليوم الثالث، بقدرته الإلهيّة.

* *

بطرده باعة الهيكل، كان يسوع يقوّض عبادةً ودينًا، ويتعرّض لنظامٍ دينيٍّ يستخدم الله للسلب، والاغتناء المادّيّ الحرام، وللسيطرة على الضعفاء، وعلى الشعوب الأُخرى.

يسوع قد أمسى هو الهيكل والضحيّة، ولم يعُدْ من حاجةٍ إلى ضحايا دمويّةٍ. جسده سيكون مسكن الله، ومنبع الحياة، وستتكاثر أعضاؤه عبر العالم. هيكلٌ هشٌّ من لحمٍ ودمٍ، منه يستمدّ العالم الحياة. وستغدو قلوب المؤمنين هياكل مبنيّةً بأحجارٍ حيّةٍ، بوجوهٍ، وأيدٍ، وقلوبٍ، وأفكارٍ.

السامريّة (بريشة كارل بلوخ)

العظة على الجبل

(بريشة كارل بلوخ)

الجماعات البشريّة الحيّة هي التي تُبقي هيكل يسوع نابضًا، عندما يتيح رجالٌ ونساءٌ للإنجيل أن يتفاعل مع حياتهم ويخمّرها.

الهيكل بات في كلّ مكانٍ، شفّافًا، كالنور، لا يُرى ولكنّه يشعّ، وكلمة سرّ بانيه هي القيامة.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

لم يرعوِ رؤساء الكهنة. فما لبث أن عاد الباعة ببهائمهم وببضائعهم، وعاد الصيارفة بموائد نقودهم، ينتهكون الهيكل، وسيضطرّ يسوع إلى إنزال السوط بهم مجدّدًا، قُبَيْل موته. لم يُفلح يسوع في القضاء على تجارة الهيكل، ولكنّه أثبت على الملأ كونه سيّد الهيكل، وابن الله، وكان لفعله دويٌّ، وكان انطلاقة عداوةٍ أَضمرها له زعماء اليهود، وزادتها الأيّام شراسةً، إلى أن انتهت بصلبه.

نِيقودِمُسُ وَالوِلادَةُ الجَديدَة

خارج الهيكل تلبّث كثيرون من السقماء، وأصحاب الحاجات، وذويهم وأصدقائهم، فقد كان ولوج الهيكل محظورًا على المرضى والمبتلين بعاهات. أمّا يسوع فقد أبدى لهم كلّ حبّه وعطفه، فشفى كثيرين ممّن كانوا يعانون أسقامًا لا يرجون منها برءًا.

ولكنّ يسوع لم يغترّ بتصفيقهم، ولم يرجُ من الناس أكثر ممّا عهده فيهم، على حدّ قول يوحنّا (٢: ٢٣ – ٢٤): «**فيما كان في أورشليم، في عيد الفصح، آمن باسمه كثيرون لرؤيتهم الآيات التي كان يجريها. غير أنّ يسوع لم يطمئنّ إليهم: فإنّه كان يعرفهم جميعًا، وما كان ليحتاج إلى شهادة أحدٍ على الإنسان لأنّه كان عالمًا بما في الإنسان**».

يسوع هو نقيض النفوس الهزيلة التي يمضي بها الرأي العامّ إلى أبعد ممّا تريد، فتظنّ أنّها تسوده، في حين هي مستعبَدَةٌ له؛ تظنّه منقادًا لها، وهو مجرّد متفرّجٍ؛ تظّنه مقتنعًا، في حين هو ليس أكثر من فضوليٍّ، تظنّه مندفعًا في خدمتها، وهو لا ينشد سوى مصالحه، وأنانيّته. وما إن تدعوه إلى تضحيةٍ حتّى يتخاذل، ويُنكر، ويثور، ويحطّم الصنم الذي كان يبدو معبودًا.

لم يطمئنّ يسوع إلى الأورشليميّين، وأبى أن يودع في أثلام نفوسهم بذاره، لأنّه أدرك سرعة تقلّبهم، وإنكارهم لما آمنوا به برهةً، حالما يُدعون إلى التزام حقيقةٍ لا تدغدغ أوهامهم، وانتهاج استقامةٍ لا تضمن مصالحهم. كان يحبّ الجميع، ولكنّه كان يحذر الكثيرين.

آمن كثيرون من عامّة الشعب بيسوع، في أعقاب ما شاهدوا من معجزاته. غير أنّ الكتبة وعلماء الشريعة أقاموا على إنكارهم، لأنّ الإيمان صعبٌ على من يدّعون تعليم الآخرين. إلاّ أنّ قناعات بعضهم قد اهتزّت. فتوجّسوا خشيةً من مقاومة كلامٍ قادمٍ من السماء. وارتأوا من الحكمة التحرّي والتقصّي، لكيلا يرفضوا جزافًا، حتّى إنْ

لم يندفعوا نحو الإيمان بحماسٍ. ولم تكن هذه المهمّة سهلةً بعد أن أضحى يسوع هدفًا لعداء علماء الشريعة، إثر طرده باعة الهيكل، وأمسى التقرّب منه، ولا سيّما من قبل العلماء، تورُّطًا خطيرًا.

ومن بين من أثارت أقوال يسوع وأفعاله التساؤلات في نفسهم، من غير أن تقلب كيانهم، وتحوّلهم تحوّلاً كاملاً، كان رجلٌ وجيهٌ وثريٌّ، في أورشليم، يدعى «نيقودمس»، من النخبة في السنهدرين، ومن أساطين الفرّيسيّة. كان يودّ عقد علاقةٍ مع المعلّم الجليليّ، ولكنّه كان من النفوس التي تكبّلها الحيطة والتحرّز، ويشلّها الخوف والحياء، وتلجمها قيود الانتماء إلى حزبٍ أو فئةٍ. صفاء نيّته كان بيّنًا، إلاّ أنّ أمثاله الذين أَلِفوا رَوْز الأمور بدقّةٍ وحرصٍ، ينزعون إلى التردّد. وهو كان يفتقر إلى الاندفاع نحو الأسرار التي تفعم القلب رضًى. فمثل هذا الاندفاع حكرٌ على النفوس البسيطة.

ولذلك وافى يسوعَ متسترًا برداء الليل، لئلاّ يقع عليه نظر أحدٍ من زملائه، ولكيلا يثير شبهاتهم. ولا ريب أنّ التماس الاستنارة، ولو في خَفَرٍ أو تحفّظٍ، كان إنباءً بقلبه المستقيم. فهو، منذ الوهلة الأولى، تبيّن أنّ يسوع لا يشترك في شيءٍ مع زملائه الفرّيسيّين والكتبة، وعلماء الشريعة، الذي يستمدّون علمهم ممّن سبقوهم، بل ذكّره بكبار الأنبياء الذين يتكلّم روح الله بألسنتهم. لقد استخلص من معجزات يسوع أنّ صانعها لا يمكن أن يكون إلاّ مرسل الله. ولكنّه لم يستطع إعلان هذا الإيمان، من جرّاء موقعه الاجتماعيّ، وتربيته الفرّيسيّة. وفي سبيل الخروج من هذا المأزق الذي كان يمزّقه، انتهج حلاًّ وسطًا، وجاء ليسوع تحت جنح الظلام، راجيًا أن يحاوره محاورةً خاشعةً، هادئةً.

على نقيض تلاميذ يسوع، الصيّادين الجليليّين الذين، باتّباعهم يسوع، لم يضحّوا، مادّيًّا، إلاّ بمركبٍ عتيقٍ، وشباكٍ مهترئةٍ، كان نيقودمس يغامر بمركزٍ رفيعٍ، وبشهرةٍ راسخةٍ. وكان موقعه يفرض عليه الفطنة، لكيلا يكون حجر عثرةٍ للبسطاء، ولكنّه لم يستطع مقاومة أسر جاذب الناصريّ، الذي أشاع القلقَ في صدره، مع أنّه كان قد أصاب كلّ مآربه من الحياة، وتبوّأ أسمى ما يصبو إليه رجلٌ في مجتمعٍ. ولذلك شاء الربّ أن يُسيل الحقيقة في أعماقه، وأن يرقى به من إيمان العقل والشريعة

إلى أجواء الروح الضاربة في اللانهاية. ولكأنّي به نسرٌ يرتقى بعصفورٍ إلى ما فوق الغيوم.

تمادى الحوار بين يسوع وزائره الليليّ ساعاتٍ، وقد أوجزه يوحنّا الذي كان شاهدًا عليه، في أسطرٍ معدوداتٍ، مبيِّنًا جوهره، فإذ بنا حيال مشهدٍ رائعٍ ببساطته، وسموّه ووقاره.

استهلّ نيقودمس حديثه بكياسةٍ، واعترافٍ متواضعٍ، مثلما يفعل تلميذٌ يبجّل معلّمه. واستفسر، بصيغة الجمع، ولكأنّه يبتغي أن يفهم كي يُفهم رفاقه، فقال: «**رابّي، نحن نعلم أنّك من لدن اللّه جئت معلِّمًا، إذ لا يستطيع أحدٌ أن يصنع الآيات التي أنت تصنعها، ما لم يكن اللّه معه**».

جاء نيقودمس يجادل رابّيًّا، فإذ به أمام مخلّصٍ يجدّد النفوس.

قرأ يسوع في خفايا نفس زائره الحائرة المتردّدة، فتصدّى مباشرةً للموضوع الذي كان يشغل بال المهتمّين بشؤون الدين، وأشرع له آفاقًا تطاول السماء، لم يكن قد أِلفها. وأدهشه عندما أكّد له أنّ ولوج الملكوت يقتضي ولادةً جديدةً، إذ قال له: «**الحقّ الحقّ أقول لك إنّه ما من أحدٍ يقدر أن يرى ملكوت اللّه، ما لم يولد من فوق**». فالملكوت هو مشاركة البشر في حياة اللّه، بفضل ولادةٍ روحيّةٍ جديدةٍ، متحرِّرةٍ من الأحكام السابقة، الراسخة.

لم يكن مغزى هذا القول ليخفى على معلّمٍ للشريعة، مثل نيقودمس، مستغرقٍ في فهم الكتب، حيث الولادة الجديدة كانت تعني الارتداد إلى اللّه. وربّما استنكر، في دخيلته، مثل هذا التلميح الذي قد يصلح لوثنيٍّ، أو لخاطئٍ ضالٍّ. ولكن هل يُطلب من فرّيسيٍّ غيورٍ، ومن ابنٍ بارٍّ لإبراهيم أن يتحوّل روحيًّا. أليس هو ابن الشعب المختار، وابن الملكوت، بوفائه للشريعة؟

من المحقّق أنّ نيقودمس توخّى الاستزادة من تفسير يسوع وإيضاحه، فتظاهر بالغباء وصفاقة العقل، وبأخذ قول يسوع بمعناه الحرفيّ، فأجاب: «**وكيف لرجلٍ أن يولد وهو شيخٌ؟ أفيستطيع أن يلج بطن أُمّه ثانيةً ويولد؟**».

تجاهل يسوع تساؤل نيقودمس الساخر، وعاد فأكّد ضرورة الولادة الثانية بالروح. فمثلما يتعذّر على الإنسان أن يحيا حياةً بشريّةً، ما لم يولد على هذه الحياة، كذلك

يتعذّر عليه أن يحيا حياةً إلهيّةً، ما لم يولد من الله. الولادة الأولى تجعلنا أبناء الدنيا، والولادة الثانية أبناء لله. ولا يتحقّق ذلك بتقدّم وضعنا الحاضر وتحسينه، بل بولادةٍ جديدةٍ. الجسد يلد جسدًا، والروح يلد روحًا. ومن يستمدّ أفكاره من ذاته، مهما كانت ساميةً ومحكمة المنطق، فستظلّ أفكار العالم. وأيّةً كانت جرأة كفاحه، فلن يصيب سوى خير العالَم. الجسد هو الطبيعة البشريّة بأهوائها الفاسدة، والروح هو الطبيعة الروحيّة بتطلّعاتها السماويّة السامية، لا بدّ من عمل الروح لتحويل اللحم والدم، وتأهيلهما للملكوت. وإذ بدا نيقودمس متعثّرًا في إدراك مغزى الولادة الجديدة، أوضحها يسوع بقوله:

«الحقّ الحقّ أقول لك إنّه ما من أحدٍ يستطيع دخول ملكوت الله، ما لم يولد من الماء والروح. ذلك بأنّ المولود من الجسد جسدٌ، والمولود من الروح روحٌ. فلا تعجبنّ من قولي إنّه ينبغي لكم أن تولدوا من فوق. فالريح تهبّ حيث تشاء، وتسمع صوتها، ولكنّك لا تدري من أين تأتي ولا إلى أين تذهب. كذلك هو المولود من الروح» (يوحنّا ٣: ٥ – ٨).

الريح لا تُشاهَد بالعين، ولكنّ مفاعيلها ظاهرةٌ للعيان.

إذا خضعتَ لسنن الريح، فهي كفيلةٌ بنفخ أشرعتك، وبدفع مركبك إلى الأمام. وإن أنت خضعت لسنّة الروح، فستنال ولادةً جديدةً. فلا ترفض هذه السنّة لمجرّد عجز عقلك عن النفاذ إلى سرّها. إنّ روح الله حرٌّ، ويعمل بحرّيّةٍ، ولا يقوى أيّ حسابٍ بشريٍّ على ضبط حركته، أو التنبّؤ بدروبه. وحده الإله القائم في السماء، والماثل على الأرض في جسدٍ بشريٍّ، يستطيع أن يعلم كلّ شيءٍ عن روحه.

بين الروح والجسد هوّةٌ سحيقةٌ. قد ينسكب الروح على الجسد فيحوّله. ولكنّ الجسد بقوّته الذاتيّة، لا يستطيع الارتقاء إلى الروح. ومن يستولي عليه الروح يحوّله إلى إنسانٍ آخر. إذن، لا بدّ من الولادة بالمعموديّة والروح، ومن الإيمان بمن جاء من السماء لكي يعلن ويفتدي، ويقود إلى الحياة مع الله.

لا يمكن تفسير عمل الروح الإلهيّ بحججٍ عقليّةٍ، ولا سبر جوهره. ولكنّه يتجلّى بنتائجه وبالحياة الجديدة غير المرئيّة التي يولّدها. وفي حين كان اليهود يكتفون بالماء وسيلةً للتطهّر، ألحق به يسوع الروحَ رمزًا للحياة الجديدة، وللعماد الروحيّ الجديد الذي يدعو إليه.

فالملكوت ليس وضعًا قائمًا، بل هو مصيرٌ حيٌّ يتكوّن. وكما أنّ الجنين لا يرى النور حتّى يخرج من أحشاء أمّه، كذلك الإنسان الروحيّ لن ينعم بنور اللّه حتّى يموت عن ذاته الخاطئة، ويولد ثانيةً في اللّه.

جدّة هذا التعليم حيّرت العلماء، ولم يكن نيقودمس، بعد، مُعَدًّا لاكتناهها. وفيما كان يسوع يحلّق عاليًا، كان نيقودمس عاجزًا عن مبارحة الأرض، فلطالما قرأ الكتب وهو معصب العينين على غرار زملائه. وها هوذا يحظى بالعثور على المعلّم الحقّ.

استعصى، إذن، فهم هذه التعاليم السامية على نيقودمس، الذي تغذّى، عمره كلّه، بالتعاليم الفرّيسيّة، فسأل، مستزيدًا معرفةً: «**وكيف يمكن أن يكون هذا؟**».

وبرقّة جناحٍ عنيفةٍ هوى يسوع إلى أرض الواقع، وقال له، ساخرًا، بدوره: «**أتكون معلّم إسرائيل ولا تعلم ذلك؟**» أي ماذا تعلّم، إذن، إن لم تعلّم عمل الروح الإلهيّ، في أرواح البشر؟ ولكأنّه يقول له إنّ تمترُس الفرّيسيّين وراء علمهم، وادّعاءَهم كلّ معرفةٍ، يحجب عنهم نفحات الروح وأنواره.

هنا يغفل الإنجيليّ حركة الحوار، ويقتصر على إيجاز أجوبة يسوع من خلال خطابٍ منفردٍ، لا يتعذّر تخيّل ما تخلّله من أسئلةٍ وأجوبةٍ. فقد كان نيقودمس ما برح يصارع الشكّ، ولمس لديه الربّ رغبةً في مزيدٍ من المعرفة، ولكي يقرّب الحقيقة من ذهنه، ضرب له مثلاً من العهد القديم: «**إنّه كما رفع موسى الحيّة في البرّيّة، كذلك ينبغي أن يُرفع ابن البشر، لتكون به الحياة الأبديّة لكلّ من يؤمن به**» (يوحنّا ٣: ١٤ – ١٥).

بذلك ألمح يسوع إلى أنّ شرط خلاص العالم هو ما سيعانيه، هو نفسه، من آلامٍ وموتٍ. فعلى نقيض معلّمي الأخلاق، يسوع يعلّم بموته، إذ إنّ سموم البغضاء، والشهوات، والحسد التي تسرّب مصلها القاتل إلى القلب البشريّ، لا تفقد قدرتها على الإيذاء بمجرّد نصائح حكيمةٍ، وإصلاحاتٍ اجتماعيّةٍ. فثمن الخطيئة هو الموت، وكان لا بدّ من أن يُكفَّر عن الخطيئة بالموت. وسيوضح يسوع، باطّرادٍ، أنّه مقدمٌ على الموت بملء إرادته، لا بسبب وهنٍ أو عجزٍ عن مقاومة الأعداء. إنّ دافع موته الحقّ والوحيد هو حبّه للبشر.

وحلّق يسوع، شاهقًا، في تفسير سرّ الخلاص: «**أجل، لقد أحبّ اللّه العالم**

حتّى إنّه بذل ابنه وحيده، لكي لا يهلك كلّ من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبديّة. لا لم يرسل اللّه ابنه إلى العالم ليدين العالم، بل ليخلّص به العالم. فمن آمن به لا يُدان، ومن لا يؤمن به فقد دين، لأنّه لم يؤمن باسم ابن اللّه الوحيد. وأمّا الدينونة، فهي أنّ النور قد جاء إلى العالم، وأنّ الناس آثروا الظلمة على النور، لأنّ أعمالهم كانت سيّئةً. ذلك بأنّ من يعمل السوء يبغض النور، ولا يأتي، البتّة، إلى النور، لئلاّ تفتضح أعماله. وأمّا الذي يعمل في الحقّ، فإنّه يُقبل إلى النور، لتظهر أعماله، لأنّها في اللّه قد عُمِلت».

بهذا الخطاب أكّد يسوع على الحقائق التالية:

– إنّه أتى بتعليمٍ جديدٍ، لا نظير لـه، في السابق. ومع ذلك هو جديرٌ بالتصديق، لأنّه آتٍ من عند الآب، لخلاص العالم. فلا بدّ من الإيمان به. أمّا من يرفض هذا الإيمان، فيدين نفسه، ويقضي عليها بالهلاك.

– الصليب هو علامة الخلاص التي لا تخطئ.

– ابن اللّه أحبّ العالم، وبذل ذاته لخلاصه. فمن أحبّ النور جاء إليه وخلص، ومن أبغض النور، لأنّ أعماله شرّيرةٌ، والنور يفضحها، فينأى عنه، ويهلك في الظلمة.

من خلال حواره مع نيقودمس رسم يسوع خطوط حياته التي لم تبدأ في بيت لحم، بل كانت في اللّه منذ الأزل، وهو، ابن اللّه، أضحى ابن البشر، لأنّ الآب كلّفه بمهمّة فداء البشريّة، بواسطة الحبّ. وأعلن أنّه نور العالم، غير أنّه، على نقيض سائر المعلّمين، لن يُكتنَه تعليمه بالكامل إلاّ إثر موته العنيف الذي سيكشف جوهره، ويُثبت حقيقته. سيكون موته ذروة إنجازه، ونجاح رسالته على الأرض، وسيكون الصليب، مع كلّ عواقبه، مركز حياته، والعلامة الإلهيّة المغروسة وسط الأجيال والشعوب، علامةً وجيعةً، متألّقةً.

هذه الكلمات التي هُمس بها في خلوةٍ، تحت ستر الليل، أنارت نفوسًا لا يُحصى عديدها، ما زالت تولد بها، ثانيةً. من يؤمنون يتّحدون بيسوع في حياةٍ أبديّةٍ، ومن لا يؤمنون يتخبّطون في اللحم والدم، ويغرقون في الظلمات والموت.

لأقوال يسوع هذه إشعاعٌ بلا حدودٍ. الزمن لا يمحوها، بل يُكسبها تجلّيًا. وهي

تجذب المؤمنين بها إلى عالمٍ قشيبٍ مشرقٍ، فما من معلّمٍ تلفّظ بمثلها. إنّها ليست وصايا نظريّةً مجرّدةً، بل هي حياةٌ تسري في وجدان كلّ من يتجاسر على اختبار الله في الإيمان والتضحية.

في تلك الأثناء كان موقف «نيقودمس» محاكيًا لما سيكون، لاحقًا، موقف القدّيس أوغسطينُس (*)، وهو يطالع رسائل القدّيس بولس، فيشعر أنّه حيال أطعمةٍ شهيّةٍ سائغةٍ لا قِبَل له على ازدرادها.

ولاح الفجر، فكان على نيقودمس أن يعود، خلسةً، لكيلا يشاهده أترابه مع يسوع. وكان فجرٌ خجولٌ يولد في نفسه. انسحب بحذرٍ، ولكنّه سار باتّجاه النور. وظلّت النعمة تعمل فيه بتؤدةٍ، طيلة سنين، إلى أن تجرّأ، في شيءٍ من الخجل، على الدفاع عن الناصريّ، في السنهدرين، معقل العنصريّة اليهوديّة، وإلى أن أسفر عن وجهه الحقيقيّ، في ساعة الظلمات. فالطيوب التي سكبتها المجدليّة على أَقدام الربّ الحيّ، سيسكبها، هو، وقد تحرّر من خوف اليهود، على جثمان إلهه الممزّق.

«ألم يشتمّ يسوع، وهو يتحدّث، في سرّ الليل، مع نيقودمس، روائح المرّ، والأُلوة، والحنوط؟».

(*) أسقف هيبّون، في أفريقيا الشماليّة، من ألمع آباء الكنيسة ومن عظماء الكتّاب اللاتينيّين. من أشهر آثاره: «الاعترافات» و«مدينة الله» (٣٥٤–٤٣٠).

المَعمَدَانُ يَشهَدُ ثانِيَـةً ليسُوع

في ما خلا البذرة الطيّبة التي ألقاها في نفس نيقودمس، وفي ما خلا إثبات دوره في العاصمة الثيوقراطيّة، بطرده باعة الهيكل، وبتعليمه ومعجزاته، وفي ما عدا استثارته عداء زعماء الأمّة عليه وعلى أعماله، كان حصاد يسوع، في أورشليم، هزيلاً، فسارع إلى مبارحتها. ولكنّه لم يغادر اليهوديّة، بل تلبّث، بضعة أشهرٍ، في أريافها، حيث بشّر وعلّم، واجتذب جموعًا غفيرةً، في حين كان تلاميذه الجليليّون، الذين رافقوه، دائبين على تعميد من يطلب منهم العماد.

سِحْر كلامه وشخصه كان آسرًا. وقد اهتزّ كلّ ريف اليهوديّة لسماعه، مفتونًا بنفوذه الروحيّ، وبمعجزاته.

وذات يومٍ، أوغر رجلٌ يهوديٌّ صدور تلاميذ يوحنّا على يسوع وتلاميذه، لمخالفتهم فرائض التطهّر. وكان إقبال الجموع على الاستماع ليسوع، والتعمّد على يد تلاميذه قد أثار حفيظة تلاميذ المعمدان، الذين توجّسوا خشيةً من انحسار نفوذ معلّمهم. إنّ التجرّد فضيلةٌ نادرةٌ، قد يمارسها أفرادٌ، أحيانًا، أمّا الأحزاب، والمدارس، فلا عهد لها بها. ولا ريب أنّ تلاميذ المعمدان كانوا يجهلون حقيقة معلّمهم. فتلك النفس الملتهبة، ذلك القلب المتجرّد، الزاهد، المغرق في الحبّ، ما كان ليكتئب لنجاح يسوع، بل إنّ تخليته الساحة لـه كانت تثلج صدره، وهذا ما عبّر عنه بقوله الرائع: «**ليس لأحدٍ أن يدّعي لنفسه فوق ما أُعطي لـه من السماء. أنتم أنفسكم تشهدون لي بأنّي قلت إنّي لست المسيح، بل أنا رسولٌ قدّامه. فالذي لـه العروس هو العريس، وأمّا صديق العريس، فإنّه يقف هناك ويسمعه، فيملأه صوت العريس فرحًا. فهذا الفرح الذي هو فرحي قد تمّ. فله إذن أن ينمو ولي أن أنقص**» (يوحنّا ٣: ٢٧ – ٣٠). كم كان يوحنّا عظيمًا في تواضعه!

لم يكتفِ المعمدان برفضه أن يقارَن بيسوع، أو أن يُعَدّ لـه ندًّا أو منافسًا، بل أكّد، ثانيةً، أنّه دونه، شأوًا بعيدًا، وأنّه ليس أكثر من منادٍ أمامه، وشاهدٍ على فرحه.

ثمّ حلّق شاهقًا في وصف يسوع الذي يضعه منشأه السماويّ فوق كلّ مخلوقٍ. فهو ابن اللّه، وله، بصفته هذه، السلطان الشامل الأسمى. وعن ذلك ينشأ كمال تعليمه ويقينه، فهنيئًا لمن يؤمنون به، والويل لمن يرفض هذا الإيمان!

ولم تقتصر الغيرة على تلاميذ يوحنّا، بل هي ألهبت، أيضًا، قلوب الفرّيسيّين، الذين ما كانوا يطيقون أن يحظى أحدٌ بنفوذٍ شعبيٍّ سواهم. ورأى يسوع، في ذلك، إشارةً إلى وجوب النأي عن مناطق نفوذ الفرّيسيّين إلى حيث تلقى رسالته قبولاً أفضل. وسنراه، أيضًا، في ما بعد، يحذر من استثارة أعدائه طالما لم تحِنْ ساعته، إلى أن يوفي رسالته حقّها من الانتشار.

حدَثٌ آخر حمل يسوع على استعجال رحيله عن اليهوديّة، وهو اعتقال المعمدان، الذي كان نبيًّا حرًّا، جريئًا. النبيّ هو من يبلّغ زمنه، متحدّيًا زمنه، أوامر اللّه. ويوحنّا كان لسان الضمير الغاضب، والشعب المستنكر سِفاح التتررك هيرودس أنتيپاس الذي سلب أخاه زوجته هيروديّا الفاجرة، التي كانت، في الآن عينه، ابنة أخٍ آخر له. وبصوتٍ مجلجلٍ ندّد يوحنّا بهذا السفاح الآثم، الوقح، فأثار حفيظة هيروديّا العاهرة التي ظلّت على عشيقها الجديد حتّى دفعته إلى إخراس ذلك الصوت المزعج المثير. وكان هيرودس، في دخيلة نفسه، يجلّ المعمدان، ولكنّه كان أجبن من أن يقاوم نزوات عشيقته. غير أنّه، تجنّبًا لمجابهةٍ عنيفةٍ كفيلةٍ بتأليب الشعب عليه، آثر، في مرحلةٍ أولى، إخماد صوت النبيّ، على حين غرّةٍ، وبالحيلة، فاعتقله في قلعة ماخيرونت.

ولا ريب أنّ أعضاء السنهدرين قد انضمّوا إلى العشيقة الفاجرة في تحريض هيرودس على المعمدان، انتقامًا من أقواله اللاذعة فيهم، وتنفيسًا للغيرة التي ألهبها فيهم إقبال الجماهير الكثيف على ابن زكريّا.

وكان ذلك إيذانًا ليسوع بوجوب رفع صوته، والاستعجال في نشر تعليمه. فغادر اليهوديّة إلى الجليل، عبر السامرة.

السَّامِرِيَّة (*)

إطفاءً لغيرة تلاميذ يوحنّا الذين لم يستسيغوا قيام تلاميذه بالتعميد، وإقبال الناس إليهم، ورغبةً في نشر رسالته، إثر اعتقال المعمدان، غادر يسوع اليهوديّة إلى الجليل، فهذه البقعة أقلّ عداءً وتشنّجًا، وأزهى نضارةً، وأكثر ترحيبًا، وملاءمةً للأفكار العميقة المتعلّقة باللّه. ونفوس الشعب فيها أوفر سكونًا، واستقامةً، وقابليّةً للإتيان بثمرٍ وفيرٍ.

ربّما كانوا أشدّ خشونةً من أهل اليهوديّة، ولكنّهم يبذّونهم شهامةً ومروءةً، وطيبةً، ونخوةً. لا يُضاهونهم حذلقةً في علم الكلام، ولكنّهم يحبّون اللّه حبًّا صراحًا.

ثلاثة طرقٍ كانت تؤدّي من اليهوديّة إلى الجليل: أحدها عبر پيرية، وهي الأكثر استخدامًا، والآخر، عبر سهل شارون المحاذي للبحر، والثالث بين الطريقين السابقين، عبر السامرة، وهو أقصر من كليهما ببضع عشراتٍ من الكيلومترات. ولكنّ قليلين من اليهود كانوا ينتهجونه، بسبب العلاقات المتوتّرة بين اليهود والسامريّين، لا بل العداوة المستحكمة بينهم، مذ جاء الأشوريّون السامرة بأصنامهم، ومذ استقبل السامريّون كاهنًا ثائرًا، مطرودًا من أورشليم، أقام في جبل جرزّيم هيكلاً ينافس هيكل أورشليم الذي يعتقد اليهود أنّه الهيكل الوحيد الذي يرتضي فيه يهوه الضحايا والتقادم، والعبادة.

اليهود والسامريّون لا يختلطون. ربّهم واحدٌ، ولكنّ عباداتهم من التباين بحيث تتّهم كلّ فئةٍ الأُخرى بالهرطقة، وتضمر كلٌّ منهما للأُخرى بغضًا ضاريًا.

كانت السامرة، إذن، منطقةً ملعونةً ومزدراةً، وكانت أقذع شتيمةٍ يُرشَق بها يهوديٌّ هي وصفه بالسامريّ. وكان العبور بالسامرة يُعدّ خطرًا وسبب نجاسةٍ، خطرًا

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «السامريّة»، صفحة ١٠٥.

لأنّ السامريّين غالبًا ما يعتدون على اليهود القاصدين أورشليم أو العائدين منها، ولا سيّما في مواسم الحجّ؛ ونجسًا لأنّ السامريّين يُعَدّون مارقين. ومع ذلك اختار يسوع انتهاج طريق السامرة، لأنّه لم يكن يأبه للنجاسة المزعومة، ولأنّ نفوسًا، هناك، كانت في حاجةٍ إليه، فلا بأس من المخاطرة في سبيلها. إنّ يسوع يسمو فوق خلافات البشر، وفوق العداوات الوطنيّة والسياسيّة، وسيسمو فوق السبت نفسه. وهو لا يضمر لأحدٍ حقدًا، ولا يستصغر أحدًا، وقد جاء من أجل جميع البشر بلا استثناءٍ، واتّخذ من سامريٍّ، في أحد أروع أمثاله، نموذجًا أسمى لمحبّة القريب المنفتحة على كلّ ذي حاجةٍ، في حين أدان، بقسوةٍ، كاهنًا ولاويًّا يهوديّيْن، جازا بجريحٍ ملقًى على قارعة الطريق، ولم تتحرّك لمصيبته أحشاؤهما.

* *

عبور السامرة كان يقتضي مسيرة يومين. وكانت سيخار هي غاية المرحلة الأولى، وانتهى إليها يسوع وصحبه، وقت الظهيرة، وشمس أيّار في أوج اشتعالها. كان يسوع منهكًا من التعب، يتصبّب عرقًا، ويتحرّق ظمأً. فتوقّف عند البئر المحفورة في الأرض التي كان يعقوب قد ابتاعها لابنه يوسف، كي يبتني فيها لنفسه لحدًا. وقد عُرفت ببئر يعقوب. وكانت تحيق بالبئر قنطرةٌ فزع يسوع إلى فيئها، كي يصيب بعض راحةٍ، فيما مضى سائر التلاميذ إلى المدينة لابتياع الطعام. ويُرجَّح أنّ يوحنّا تلبّث مع المعلّم، ممّا يفسّر حيويّة رواية الإنجيليّ، ودقّة تفاصيلها.

عند البئر كان يسوع ينتظر نفسًا سينتشلها من هوّة ضلالها، وسيشرّفها بنشر رسالته. وما لبثت أن وافت امرأةٌ، على رأسها جرّةٌ، وفي يدها دلوٌ وحبلٌ. لم يكن مألوفًا امتياح الماء في مثل تلك الساعة القائظة، حيث يكون الناس مستكينين إلى برودة الفيء، مستسلمين للقيلولة، مؤثرين الاستقاء مع طلاوة الصباح، أو ليونة الأصيل. ولا ريب أنّه كان لتلك المرأة دوافع خاصّةٌ حملتها على اختيار ذلك الموعد، حيث تكون البئر مهجورةً، فتسلم من سهام النميمة التي تقذفها بها ألسنة نساء القرية، ومن تعييرهنّ لسلوكها.

كانت عازمةً على ملء جرّتها والعودة، متجاهلةً ذلك اليهوديّ القابع عند مثابة البئر. فاليهود لا يخالطون السامريّين، والتقاليد تستنكر مخاطبة رجلٍ لامرأةٍ، في الشارع، حتّى إن كانت زوجته.

ولكنّه هو الذي بادرها بالقول: «**أعطيني لأشرب**». هذه العبارة البسيطة استهلّت واحدًا من أسمى الحوارات في الأدب الروحيّ. فجريًا على عادته، استنبط يسوع، من حَدَثٍ عاديٍّ، درسًا إلهيًّا، مرتقيًا ارتقاءً رفيعًا ووئيدًا بمُحاوره، أيًّا كان، من الطبيعيّ إلى ما يفوق الطبيعة. ولا يني يكرّر ويوضّح العبارات التي لم تُفهم من الوهلة الأولى، شاحذًا الذهن والإيمان. وبعد أن يُقنع، يحرّك القلب.

كلّما توخّى الله منح نعمةٍ باشر بطلب خدمةٍ، لأنّه حريصٌ على تجريد الإنسان من ذاته قبل أن يسكب فيه كائنًا جديدًا. ويسوع لم يطلب من السامريّة الماء إلاّ لكي يهبها ما هو أثمن، بكثيرٍ، من الماء. وقد تجاوز في طلبه كلّ الأعراف. فاليهود يرفضون حتّى استخدام أواني السامريّين، وهو يطلب من السامريّة أن تعطيه ما يشرب.

السامريّون في نظر اليهود، أقبح من الوثنيّين، ورابّيوهم لا يتورّعون عن الإعلان «أنّ ماء السامريّين أنجس من دم خنزيرٍ». وكم كان في طلب يسوع لمائهم، من جرأةٍ وتحدٍّ، وإزراءٍ بالأعراف!

في الشرق، سقاية العطشان واجبٌ لا يتهرّب منه أحدٌ، ولكنّ السامريّة استهجنت جرأة ذلك اليهوديّ الذي طلب منها ماءً. وقد وجدت في طلبه فرصةً مؤاتيةً للانتقام من كبرياء يهوديٍّ متزمّتٍ أرغمته الحاجة على التماس جرعة ماءٍ من امرأةٍ يحتقر شعبُه شعبَها. فأجابت ذلك الرجل المجهول المتصبّب عرقًا، في شيءٍ من الغنج المقرون بالوقاحة:

– «**كيف! أنت اليهوديّ تطلب منّي أن أسقيك، وأنا امرأةٌ سامريّة؟**».

– «**لو كنتِ تعرفين عطيّة الله، وذاك الذي يقول لك اسقيني، لكنت أنت تسألينه فيعطيك ماءً حيًّا**».

الماء الحيّ، بالمعنى الحرفيّ، هو الماء الجاري في نهر، أو المتدفّق من نبع، على نقيض الماء الآسن، ماء المستنقع. وبالمعنى المجازيّ هو ملء النِعَم التي يفيضها الروح على النفوس، والحياة الجيّاشة التي جاء بها يسوع إلى العالم.

كلام يسوع كان مغلّفًا بالرمز، فاستغلق على مداركها. ولكنّها آنست أنّ محاورها ليس مجرّد رجلٍ يهوديٍّ عاديٍّ، إذ إنّه فرض عليها مهابته، فامتزج في جوابها الاحترام، والاستغراب والسخريّة:

– **«يا سيّدي ليس معك دلوٌ، والبئر عميقةٌ، فمن أين لك هذا الماء الحيّ؟ أفتكون أعظم من أبينا يعقوب الذي أعطانا هذه البئر، ومنها شرب هو وبنوه وماشيته؟»**.

ولكنّ يسوع لا يتوقّف عند الجزئيّات المادّيّة، لئلاّ يهبط إلى دركاتٍ أرضيّةٍ تافهةٍ، بل يتابع تأمّلاته السامية في الماء الحيّ، جاهدًا في الارتقاء بمحاورته إلى أعلى من الحبل والدلو، إلى الماء السرّيّ الإلهيّ الذي لا يعود لمن ينهل منه عهدٌ بالعطش، لأنّ هذا الماء ينقلب إلى معينٍ دفّاقٍ لا ينضب، يصبّ في محيط الخلود اللامحدود.

قدّم يسوع نفسه على أنّه الماء الحيّ، مثلما سيصف نفسه، لاحقًا، بأنّه خبز الحياة. مرَّةً أُخرى يلتقط النسر عصفورًا صغيرًا ليحلّق به إلى أجواز السماء. ولكنّ أفكار المرأة كانت ما تزال عاجزةً عن الارتفاع عن الأرض. كانت ما تزال بشرًا ترى بعيونٍ بشريّةٍ، وتحكم وفق معايير مادّيّةٍ. لم تكن ترى في يسوع سوى مسافرٍ كساه الطريق بالغبار. رأت فيه اليهوديّ، ولم تستشفّ فيه ابن الله. رأت الرجلَ التعِب، ولم تتوسّم فيه سند النفوس المرهقة. رأت فيه المسافر الظمآن، واحتجب عن أبصارها الكائن الوحيد القادر على إرواء عطش العالم.

ومضى يسوع في محاولته الارتقاء بها بصبرٍ وأناةٍ، وأشار إلى جرّتها الملأى المبتلّة، وقال:

– **«إنّ من يشرب من هذا الماء يعود فيعطش. أمّا الماء الذي أُعطيه إيّاه فيصير ينبوع ماءٍ يتفجّر حياةً أبديّةً»**.

إنّ جميع متع الحياة لا توفّر سوى إرضاءٍ عابرٍ. إنّها تهدّئ الحاجة الطارئة ولكنّها لا تزيلها. فشهوة المُتَع لا تتوقّف ولا ترتوي. والمياه التي يهبها العالم تسقط على الأرض، في حين أنّ المياه التي يهبها يسوع هي تفجّرٌ داخليٌّ لا ينضب له فيضٌ.

شرعت المرأة تأخذ كلام يسوع على مأخذ الجدّ. ولكنّها، وقد عاشت، حتّئذٍ، في حمأة المادّة والخطيئة، لم تدرك، بعدُ، المغزى الروحيّ للماء الحيّ. فالتمست هذا الماء، لكيلا تضطرّ ثانيةً إلى العودة للاستقاء. فتلك المهمّة الموكلة إلى النساء، هي، غالبًا، شاقّةٌ، ولاسيّما لمن كان بيتهنّ بعيدًا، أو جاثمًا على مرتفعٍ. فقالت:

– **«أعطِني هذا الماء، يا سيّدي، لكي لا أعطش، ولا أجيء أستقي من هنا»**.

وهمّت بإفراغ جرّتها كي يملأها لها بمائه العجيب. ولكنّه حال دون ذلك.

فكرها كان ما برح يحوم حول العطش المادّيّ. وربّما خطر لها، وهي التي تقطن موطن إيليّا الذي انقطع، أربعين يومًا، عن كلّ طعامٍ وشرابٍ، أنّ بقدرة ذلك الغريب تمكينها من سرّ إيليّا. ولكنّه، هو، كان يُعدّ لها عطيّةً أكثر تحديدًا وواقعيّةً.

لم تكن قد أدركت، بعدُ، أنّ هناك ماءً وماءً، ماء بئر، وماء روحٍ وحياةٍ. كلٌّ من المتحاورَيْن يتكلّم بلغةٍ. هي ثرثارةٌ، تطرح أسئلةً كثيرةً تُستشمّ من بعضها السخريّة؛ وهو يغوص في لجّة مرامي الله، ودائرة رحمته الواسعة. خطابه يتخطّاها، ولكنّه يثير اهتمامها. لقد أفضى بلغزٍ، فدفعها الفضول إلى حلّه. ولكنّها كانت ما زالت في حاجةٍ إلى كسر القشرة الصفيقة التي تطمس بصيرتها، إلى هزّةٍ عنيفةٍ توقظها، فقال لها:

– «**اذهبي، وادعي زوجك وهلمّي إلى هنا**».

هذا الطلب يبدو، للوهلة الأولى، خارجًا عن سياق الحوار. ولكنّه كان خاضعًا لمنطقٍ روحيٍّ مُحكَمٍ. فقد ابتغى يسوع وضعها في مواجهة قذارة ماضيها، كي تخجل منها، وتندم عليها، وتطلب ماء الطهر. ووجدت ذاتها أمام من يقرأ في قرارات النفوس، فلم تكذب، واعترفت، اعترافًا مقنّعًا:

– «**ليس لي زوجٌ**».

– «**لقد أصبتِ إذ قلتِ ليس لي زوجٌ. فإنّك اتّخذت خمسة أزواجٍ، والرجل الذي معك الآن ليس بزوجك. لقد صدقتِ في هذا**».

إنّ ليسوع أسلوبًا بارعًا في النفاذ إلى قناعات البسطاء، وقد استخدمه مع السامريّة مثلما كان قد استخدمه مع نثنائيل عندما قال لـه: «رأيتك تحت التينة». به يُظهر لهم، دفعةً واحدةً، معرفته لخفايا حياتهم، أو بالحريّ قدرته على الاستقرار في سرّ كيانهم.

* *

أحد آباء الكنيسة ارتأى أنّ الأزواج الخمسة يرمزون إلى الحواسّ الخمس التي تمثّل سيطرة الجسد، وتحول دون سيادة العقل. وحينئذٍ تعمّ الفوضى، ويتحكّم الضلال. والضلال ليس الزوج الشرعيّ، بل العاشق الزاني.

وبفضل قول يسوع انتفضت أجنحة تلك التي كانت تشلّها الخطيئة، فانعتقت من قيود الأرض ومراغاتها، ونهدت نحو النور.

تلميح يسوع أصاب هدفه، وأكمل هتك الحجب عمّا طالما جهدت السامريّة في كتمانه، وإعدادها للتحوّل الروحيّ. ربّما لم يكن بعض الرجال الخمسة الآخرين، الذين أشار إليهم يسوع، أزواجًا شرعيّين لها. ومن البيّن أنّ تلك المرأة لم تكن مثالاً للشرف الرفيع، والطهر المتألّق. ولكنّ يسوع إنّما جاء لكي يردّ النعجة الضالّة إلى الحظيرة، ولكي يشفي المعتلّين من أسقامهم. كان عليمًا بفوضى ماضي تلك المرأة، ولكنّه لا يأنف من انتشال ما يجده ساقطًا، مهما كساه من قذارةٍ، فينظّفه، ويعيد له أَلَقه.

لقد حدّق إليها يسوع، ولم تنتبْهُ أيّة نوبة قَرَفٍ، ولا ردّ الفعل الذي يساور أهل الفضيلة حيال امرأةٍ جعلت من الحبّ قضيّة حياتها. ولكنّه لم يتسامح مع الخطيئة، ولم يتواطأ معها. بل إنّه استخدم تلك النفس، الأولى التي التقاها في تلك الديار، لكي يؤسّس بواسطتها، في السامرة، ملكوت الله. لقد اخترق صفاقة خطيئتها مثلما تخترق سهام الشمس حطام زجاجٍ مرميٍّ بين الأقذار، فتوري منه نارًا كفيلةً بإضرام غابةٍ.

أقواله عن الماء الحيّ لم تكن قد نفذت إلى فهمها، بل اكتفت بإثارة فضولها. تباينٌ شاسعٌ بين موقف تلك المرأة اللعوب الساخرة، وجلال يسوع الساكن. فهو قد توسّم، في أعماقها، جوهر صدقٍ واستقامةٍ، فحرص على خلاصها. وقد بدأ بشحذ فضولها، بكلماتٍ تسبح في السرّ. ولكنّها لم تكن تسعى إلى الفهم، بل تأخذ من كلّ قولٍ حجّةً للتندّر.

وكان لا بدّ ليسوع من إنزال ضربته القاضية، الكفيلة بهزّ كيانها، فعمد إلى صدم ضميرها كي يفتح عينيها على الحقيقة. وهي حاولت التملّص بجوابٍ يحجب كامل الحقيقة، من غير أن يكون كاذبًا بكامله. وحيال افتضاح سرّها، واجهت الأمرَ، أوّلاً، بالفكاهة:

– «**أرى أنّك نبيٌّ، يا سيّدي**».

لقد وجدت ذاتها أمام كائنٍ فريدٍ، لم تجد، في وصفه، خيرًا من صفة «النبيّ».

وهل تتسنّى، في كلّ يومٍ، مخاطبة نبيٍّ على هذا القسط من التواضع، والتفهّم، والدماثة، والرأفة!

ثمّ جهدت في دفع الحديث في اتّجاهٍ آخر، تنأى به عن شؤونها الخاصّة، الحارقة، المخزية، ولكأنّها سمكةٌ تتراكض في كلّ اتّجاهٍ كي تتفادى الشصّ. فتطرّقت إلى خلافٍ مستحكمٍ بين اليهود والسامريّين، حول مكان العبادة الصحيحة، مستوضحةً رأي يسوع فيه:

- «إنّ آباءنا عبدوا في هذا الجبل، وأنتم تقولون إنّ المكان الذي تجب فيه العبادة هي أورشليم».

قليلون هم الذين يسألون أين هو الله، حقًّا، وعندما يعلم المرء أين يُقيم الربُّ الذي ينشده، فلكأنّه يقف وراء بابه، خافق القلب، راجيًا أن يفتح له، ويدعوه إلى الدخول. وعندما تبيّن يسوع تحوّلها إلى العبادة، وتأهّبها للإيمان، أفاض عليها الحقيقة دفعةً واحدةً:

- «صدّقيني، أيّتها المرأة، إنّها ستأتي الساعة التي تعبدون الآب فيها لا في هذا الجبل ولا في أورشليم. أنتم تعبدون ما لا تعرفون، ونحن نعرف ما نعبُد، لأنّ الخلاص من اليهود يأتي. ولكنّها ستأتي الساعة - وهي قد أتت - التي فيها العابدون الحقيقيّون يعبدون الآب بالروح والحقّ. فمثل هؤلاء يريد الآب عابديه. ذلك بأنّ الله روحٌ، فينبغي لعابديه أن يعبدوه بالروح والحقّ».

لم ينسَقْ يسوع إلى حيث كانت تريد السامريّة تحويله، ولم يُجب عليها إجابةً مباشرةً، فالخلاف بين اليهود والسامريّين أمسى من مخلّفات الماضي الذي اندثر بمجيئه مخلّصًا للجميع، ولم يعد للجَدَل معنًى.

أقوال يسوع هذه كانت كفيلةً باستنكار الكتبة والفرّيسيّين المتزمّتين، مع أنّها كانت تندرج في سياق أقوال الأنبياء. فهذه الأقوال أطاحت، معًا، برموز اليهود، وأصنام السامريّين، إذ إنّ هذه وتلك تهمل النفس، وتقتصر على تطهّر الجسد، في حين أنّ الله، وهو روحٌ، يُكرَّم بطهر ما هو، فينا، غير جسديٍّ، بطهر القلب والفكر.

المرأة السامريّة كانت تتنقّل، بخفّةٍ، من ماء الشرب، إلى يعقوب وبئره، إلى الآباء، إلى جبل الأجداد الذي تُشاهد، من بعيدٍ، قمّته الشامخة، في فوضى

حديثٍ لا يفضي إلى نتيجةٍ، في حين كان يسوع يقودها، بصبرٍ وأناةٍ، إلى الرغبة في النعمة، وإلى الحياة بالروح، وإلى عبادة الآب. لقد سما بها إلى أرقى ممّا تطاولت إليه رغباتها، وسكب عليها معرفته الإلهيّة برقّةٍ، وتنازلٍ إلهيٍّ، كي يخلّص نفسها. إنّه، حقًّا، المعلّم والمخلّص.

وإذ بالسامريّة، فجأةً، في عالَمٍ لا أثر فيه لخلافٍ بين سامريّين ويهودٍ، ولا منافسة بين جرزّيم وأورشليم، بل عبادةٌ شاملةٌ بالروح والحقّ. فأيّ عالَمٍ هذا؟ حينئذٍ رجت عودة المسيح كي يوضّح كلّ ذلك:

– «**إنّي أعلم أنّ هامشيحا – ذاك الذي يُقال له المسيح – سيأتي. فمتى أتى أخبرنا بكلّ شيءٍ**».

وتفجّر بوح يسوع كالصاعقة:

– «**أنا هو (المسيح)، أنا الذي يكلّمك**».

لطالما حرص يسوع على كتمان هويّته الإلهيّة، وصفته مسيحًا، عن اليهود، تجنّبًا لإضرام اندفاعٍ شعبيٍّ ملوّنٍ بصبغةٍ سياسيّةٍ يسيء إلى رسالته. ولكنّه لم يخشَ من إفشاء سرّه في الأوساط السامريّة. في هذا المكان البعيد عن منال زعماء اليهود، أعلن يسوع مسيحانيّته، وهو واثقٌ من أنّه لن يسبّب سوء فهم الشعب، ولا هياج العلماء. لقد حبس سرّه هذا عن اليهود تحاشيًّا عمّا قد يثيره من لَبْسٍ لديهم، من جرّاء تصوّرهم الخاطئ للمسيح المنتظر. ولكنّه لم يخشَ مثل هذا اللبْس لدى السامريّين.

ما أخفاه عن الجميع، حتّئذٍ، كشفه للقلب البسيط الذي اعترف له ببؤسه. أمّا اليهود فلن يصرّح لهم، إلاّ إزاء الصليب، بتلك الحقيقة التي طالما طالبوه بإعلانها، لا بغية الإيمان بها، بل لكي ينفوها، ويشتموه.

لقد أعلن يسوع للسامريّة، بصراحةٍ، عن هويّته، التي كان التلاميذ الذين اختارهم بنفسه مازالوا يجهلونها. وهكذا، على مدى تاريخ الكنيسة، سيشاهد قومٌ متواضعون، وخطأةٌ، ومرضى، نورًا إلهيًّا يخفى عن عيون رجال الدين، والعلماء، والأساقفة.

كان يسوع قد جهد، ليلةً بكاملها، كي يلقّن نيقودمُس، عالمَ الشريعة، ويقرّب

إلى ذهنه معنى الموت والولادة الجديدة. ولكنّ المرأة، ذات الأزواج الستّة، قد أدركت، في لحظاتٍ، ما عجز العالم اللاهوتيّ عن فهمه.

لقد أشرقت على تلك المرأة البائسة نعمة نورٍ من السطوع بحيث ما عاد أيُّ شكٍّ قادرًا على النفاذ إليها. أجل، إنّ هذا اليهوديَّ المسكين المنهَك من النصب، الذي سار طويلاً تحت الشمس، وغاص في الغبار، والذي كاد يقضي ظمأً، بحيث استجدى رشفة ماءٍ من سامريّةٍ، هو المسيح، مخلّص العالم.

* *

ذلك اللقاء وفّر ليسوع فرصةً للبوح بهويّته بوحًا ساميًا مؤثّرًا. إنّه المسيح الذي ينتظره كثيرون، وقد باح بذلك لامرأةٍ خاطئةٍ حوّلها حضوره، وأعدّها كلامه للحياة الأبديّة. إنّه يهب الروح من يلتمسه، ويدعوه الماء الحيّ. الروح لا يُدرَك في ذاته، ولا يُعرَف إلاّ بأفعاله وتأثيراته، فهو ينقلب في نفوس المؤمنين نبعًا دفّاقًا ينقع عطش تطلّعاتها إلى اللانهائيّ.

ويسوع هو البئر التي حفرها الله عند مفترق الطرق التي تجتازها القافلة البشريّة. إنّه مؤسّس العبادة بالروح والحقّ المتاحة للجميع. إنّه الهيكل الوحيد الثاوي في كلّ نفسٍ يقطنها الروح، وتعبد الله في الحبّ والحقيقية.

* *

لقد شرع يتجلّى نور الأمم الذي تنبّأ به سمعان الشيخ، وخطفت أبصارَ السامريّة أشعّتُه الأولى. وكانت لجّة الحقائق التي ألقاها فيها يسوع من العمق والرهبة، بحيث تطلّعت إلى مجيء المسيح، كي تكتمل استنارتها، وفاجأها يسوع بأنّه هو المسيح.

كانت قد جاءت التماسًا للماء، ولكنّها لّما عثرت على النبع، ذهلت عن جرّتها، ودلوها وحبلها، مثلما تخلّى الرسل الأوّلون عن مراكبهم وشباك صيدهم، ومثلما ذهل يسوع نفسه عن الجوع والعطش. لقد هجرت كلّ شيءٍ، وركضت نحو المدينة كي تبشّر، فشُرِّفت بكونها أولى مبشّرات المسيحيّة. وكان تبشيرها مجزيًا ومثمرًا، ولا سيّما أنّها لم تخجل من الاعتراف بأنّ ذاك المسيح قد سرد لها كلّ ماضيها المخزي. لم تشأ الاستئثار بالنعمة التي حلّت عليها، بل دعت الجميع إلى المجيء والمشاهدة بأنفسهم، وما لبثت أن عادت بطائفةٍ كبيرةٍ منهم، كي يقاسموها الإيمان والخلاص.

ولكم تطوّرت نظرة السامريّة إلى يسوع في غضون ساعاتٍ معدوداتٍ! فهي رأت فيه، على التوالي، رجلاً يهوديًّا، ثمّ «السيّد» ثمّ «النبيّ» ثمّ «المسيح» ثمّ «مخلّص العالم». هذا التطوّر السريع كان معجزةً، ميدانها نفسٌ خاطئةٌ. ولا سيّما أنّ صورة المسيح التي كانت تسكن خيالها كانت تختلف عن صورة ذلك المسافر المغبرّ، العذب النظرة. وكانت تتخيّل له بلاطًا شديد التباين عن تلك الحفنة من الرفاق الرثّي الهندام.

لقد اعترفت بخطاياها فشُفيت، أمّا الفرّيسيّون المفعمون عُجْبًا بأنفسهم، والذين لا يعترفون بخطيئةٍ، فلن يأتي طبيبٌ لشفائهم. فإن رفض الجائع الإقرار بجوعه، فمن يقدّم له طعامًا، وإن أبى الخطأة الإقرار بذنوبهم، فمن يخلّصهم؟

إنّ الآب السماويّ يؤثر الخاطئ التائب، المحبّ، على التقيّ الخاوي من الحبّ. إنّ من يدّعي معرفة كلّ شيءٍ لن يعثر يومًا على الحقيقة، أمّا من يعترف ببؤسه، وفقره، وخطيئته، فهو أقرب إلى السلام، والفرح، والخلاص، ممّا يظنّ.

* *

تحوُّل السامريّة الروحيّ كان نموذجًا رائعًا لعمل الله في القلوب. ارتدادها كان شبه فوريّ، ويحمل أمارات كلّ ارتدادٍ حقٍّ. وهي، في لحظاتٍ، انتقلت من اللامبالاة إلى السخريّة، فإلى الاحترام، ومن الاحترام إلى الرغبة في نعمةٍ وُعدت بها، وهي تجهلها. اعترفت بضلال ماضيها، وحالما أشرق على نفسها النور هرعت إلى نشره، معلنةً، لصالح الذي سكب في نفسها النور، الأقوال التي تهينها، وتشهّر بها، غير خجلةٍ من تقديم هذا البرهان. فالنفس التي تلتهب بالنار الإلهيّة لا تعود تحفل بأمرٍ من أمور الأرض، لا بمجدٍ ولا بعارٍ، لأنّها تصبح، بكلّيّتها، خاصّة الشعلة التي تحييها.

* *

وفيما كان يسوع يعلن للمرّة الأولى عن هويّته، سَمِعَ وقع خطى تلاميذه العائدين من السوق، وهم يهرجون ويضحكون. ولكنّهم، بغتةً، صمتوا، وعرتهم الدهشة، عندما شاهدوا المعلّم يُحادث امرأةً سامريّةً حديثًا أَليفًا. لقد رأوا في ذلك خرقًا للشريعة، وتنازلاً لا يليق بكرامة اليهوديّة. فالتقاليد تستقبح حتّى مخاطبة الرجل زوجته في العلن. فكيف إن كانت غريبةً وسامريّةً!

إنّ يسوع يدين بشريعةٍ تسمو فوق تقاليد البشر، ولا يتوانى عن الإزراء بهذه التقاليد كلّما انتصبت عقبةً دون رسالته. فبمبادراته الفذّة، في كلّ ظروف حياته، لم يفلت من ربقة محيطه فحسب، بل علا فوق كلّ الأزمنة. ورغم محتده اليهوديّ كان متحرّرًا من ضنك آفاق اليهوديّة وعنصريّتها. فهو ابن البشر المتجلّي في جمالٍ وحقيقةٍ أبديَّيْن. أفعاله كانت تؤسّس أخلاقًا جديدةً، وأقواله تغني العقل بأنوارٍ تفوق البشر، وتُعدّه لإدراك أسرار الله المستغلقة.

* *

سيظلّ ذلك الحوار، عند حافّة بئر يعقوب، مع امرأةٍ يزدريها وسَطُها، ويزدري وسَطَها اليهودُ، من الشهادات الأبلغ تأثيرًا على عطف يسوع ورأفته. ومنذئذٍ بدا يسوع راعيًا حريصًا، غيورًا، ساعيًا وراء النعاج الضالّة، راغبًا في ضمّ كلّ ضعيفٍ، وتائهٍ، وضالٍّ، إلى قطيعه.

* *

ودعا التلاميذُ يسوعَ إلى مقاسمتهم الطعام، فأبى. وألحّوا فقال لهم: «**إنّ لي طعامًا، آكله، لستم تعرفونه**». وظنّوا أنّه شارك أحد عابري السبيل طعامه، وقد عهدوه يلتذّ بمشاركة الفقير لقمته المقدّمة بسخاءٍ. والواقع أنّ يسوع كان ما برح في الجوّ الصوفيّ الذي ارتقى بالمرأة إليه، جوّ الماء الذي لن يعود لمن يرتوي منه عهدٌ بالعطش.

إنّ ذاك الحبّ الحيّ الذي أزاحت تلك المرأة القناع عن وجهه، لم يكن قد تسنّى لـه وقتٌ كي يعود إنسانًا يجوع ويعطش. وقد ربأ بأفكار تلاميذه أن تظلّ زاحفةً، فصعّد بها إلى شيءٍ من السموّ الذي كان يسبح في أجوائه، وأوضح لهم: «**إنّما طعامي أن أعمل بمشيئة الذي أرسلني، وأن أتمّم عمله**».

بقدر ما يسمو روح الإنسان يتحرّر جسده من طغيان الحاجات المادّيّة. فالجسد يعيش من الأرض، ولكنّ النفس تتغذّى بالله، وإذا ما ارتوت به نهضت بالجسد المتهالك. سماعُ صوت الآب المتكلّم في أعماق يسوع كان كلَّ ضميره، والعمل بمشيئته كان كلَّ حياته.

كانت المرأة قد تركت جرّتها، لعلّ تلاميذ يسوع يستقون منها، وجرت إلى المدينة، وهي تصيح:

- «**هلمّوا انظروا رجلاً قال لي كلّ ما فعلت، فلعلّه المسيح**».

وتقاطر السامريّون كُثُرًا، متناسين أحقادهم المتوارثة. خرجوا من بيوتهم ومدينتهم وهرعوا ليسمعوه. لم يسألوه أن يدخل مدينتهم، بل أن يقيم بين ظهرانيهم، وهم الذين أَلِفوا أن يوسعوا ضربًا كلّ يهوديٍّ يمرّ بديارهم، بل قد يصرعون، أحيانًا، بعضهم. وتطيب ليسوع الإقامة مع من يطلبون منه ذلك، ولا سيّما عندما يخرجون من مدينتهم، ويتجرّدون من ذواتهم ويأتون إليه. وأقام يسوع عند السامريّين يومين، متمِّمًا عمل خلاصهم. وإذ بأولئك الذين يزدريهم اليهود، يؤمنون به، لمجرّد سماعه، وتبيُّن صدق أقواله، هاجرين كلّ تعليمٍ آخر، في حين أنّ اليهود المعتدّين بوفائهم للشريعة، شهدوا آياته، ولم يؤمنوا به، بل أمعنوا في معاداته.

لقد كان أيسر على السامريّين الإيمان بيسوع من اليهود، لأنّهم متحرّرون من أوهام مسيحٍ عنصريٍّ.

وقد رأوا في يسوع كائنًا فاتنًا، فذًّا، صادقًا، لا شيء يجمعه بالرابّيّين المتجهّمين، المرائين، بائعي الكلام والخطابات الرنّانة.

ولا ريب أنّ غصّةً ستأخذ بحلق الربّ عندما سيعود إلى بني قومه الذين لا يقيمون لأنبيائهم كرامةً، والذين كان نَهَمهم إلى المعجزات أنانيّةً مقنّعةً، واقتضاءً غير مبرّرٍ، وانعدام ثقةٍ، وفضولاً منكرًا.

وكم أثلج صدره إيمان الكثيرين من السامريّين الذين قالوا للمرأة: «**لسنا لكلامك فقط نؤمن، فإنّا قد سمعنا نحن أنفسنا، وعلمنا أنّه، حقًّا، مخلّص العالم**»!

لم تغضب المرأة من كلامهم، هذا، بل كانت سعيدةً بالتقائهم ذلك الرجل الذي لم يحتلّ، قطّ، سواه مثل المكانة التي احتلّها من نفسها. فمن كلّ ما عهدته من لحظات سعادةٍ في حياتها، كانت تلك الساعة التي قضتها في التحدُّث إليه، وقت الظهيرة، عند بئر يعقوب، أكثر الساعات تألّقًا وخلودًا.

وكم كان السامريّون خيرًا من زعماء اليهود، رافضي الإيمان، ومن الأورشليميّين اللامبالين، ومن معظم اليهود الذين كان إيمانهم سطحيًّا! فللمرّة الأولى، في السامرة، أُطلق على يسوع لقب «مخلّص العالم»!

وقد أظهر عمل يسوع في السامرة كم كان هوى الرسالة يطغى، لديه، على كلّ اعتباراتٍ أُخرى، إذ لم يكن خافيًا عليه كم سيضرم عطفه على السامريّين نقمةَ اليهود وبغضهم، فهم يرون، في السامريّين، رمزًا للنجاسة، ويسمّون مدينتهم «سيخار» أي مدينة السكر والعربدة.

وبذلك أكّد يسوع تساوي جميع النفوس، وجميع الأجناس، أمام الآب السماويّ.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

وكان يسوع، عندما لحظ السامريّين قادمين إليه بكوفيّاتهم البيضاء، المتموّجة مع النسيم، قد تخيّل حقول قمحٍ نضجت للحصاد، فارتعش فرحًا، وتوسّم حصادًا روحيًّا وفيرًا، فخاطب تلاميذه: «**أَلستم تقولون: أربعة أشهر، أيضًا، ويكون الحصاد؟ وأنا أقول لكم: ارفعوا عيونكم، وانظروا، فإنّ الحقول قد ابيضّت للحصاد. والحاصد يأخذ أجرة، ويجمع ثمرًا للحياة الأبديّة، فيفرح الزارع والحاصد معًا. وفي هذا يصدق المثل القائل: الواحد يزرع، والآخر يحصد. فأنا قد أرسلتكم تحصدون ما لم تتعبوا فيه. غيركم تعبوا، وأنتم تدخلون على ما تعبوا فيه**».

لقد أنبأهم بحصاد ما زرعه هو. من قبلُ، وعدهم بجعلهم صيّادي بشر، وها هم الآن يصبحون حصدة سنابل بشريّة.

كان الفلاّحون، بعد أن يفرغوا من البذار في مطلع الشتاء، يتنهّدون، ويتنفّسون الصعداء، ويقولون: «أربعة أشهر، ويحين موعد الحصاد»، أي إنّ أمامنا أربعة أشهر استكانةٍ وراحةٍ. ولكنّ هذا القول لا ينطبق على الحصاد الروحيّ، الذي يراه يسوع، وقد أينع، ولم يعد يحتمل إرجاءً. فليهبّ الحصّادون إلى العمل، وإن لم يكونوا هم الذين حرثوا وبذروا. فقد دقّت ساعة إعمال المنجل في تلك الحصائد البشريّة. فمع يسوع ثمّة، دائمًا، حقولٌ تنتظر الحصاد.

وقد حصد يسوع، في ذينك اليومين، أغمارًا وفيرةً.

أمّا المرأة التي التقاها عند البئر، فيُعتقد أنّها التحقت بتلاميذ يسوع، وواكبته حتّى الجلجلة، ثمّ استُشهدت في قرطاج حيث نُفيت. وتقيم لها الكنيسة تذكارًا تحت اسم الشهيدة «فوتين»، في العشرين من آذار كلّ سنةٍ.

مُعجِزَةٌ ثانِيَـةٌ فِي قَانَا: شِفَاءُ ابْنِ ضَابِطٍ مَلَكِيٍّ

في طريق عودته من السامرة، تريّث يسوع، أوّلاً، في قانا، حيث كان قد أجرى معجزته الأولى، محوّلاً الماء إلى خمرٍ، وحيث كانت أمّه تنتظره. وقد التمس، في حبّها، الدفء، والعزاء، والعزيمة. وعاد كلٌّ من تلاميذه إلى بيته كي يستجمّ. غير أنّهم حيثما مضوا كانوا يذيعون أنباء معجزات المعلّم.

وكان عددٌ من الجليليّين الذين شخصوا إلى أورشليم للاحتفال بالفصح قد شهدوا فعاله العجيبة هناك، وأذاعوها لدى عودتهم، فازدهى مواطنوه الجليليّون فخارًا به.

ويبدو أنّ شهرته قد امتدّت إلى قصر هيرودس أنتيپاس، إذ ما كاد يطأ قانا حتّى وافاه ضابطٌ من القصر الملكيّ، كان لـه ابنٌ في كفرناحوم يصارع الموت. وكان قد سمع بمعجزات يسوع، فجاء يحدوه إيمانٌ مضطرمٌ بأنّ لا نجاة لابنه سوى لدى نبيّ الناصرة، وتأهّبٌ لفعل أيّ شيءٍ قد يحقّق هذا الشفاء. وقد التمس من يسوع، لاهثًا، أن يهبط معه إلى كفرناحوم كي يمسّ الفتى ويشفيه، كما يفعل الطبيب أو الساحر، ولكأنّ الشفاء لا يتمّ إلاّ بالحضور واللمس.

وشقّ على يسوع، بادئ الأمر، أن ينظر إليه القوم على أنّه صانع معجزاتٍ، وشافي أسقام الجسد، معرضين عن رؤيتهم فيه طبيب النفوس، ومخلّصها، فقال للضابط، في شيءٍ من نفاد الصبر، بُغيَة إضرام إيمانه: «**إذا لم تعاينوا الآيات والعجائب لا تؤمنون!**».

هذا اللوم المبطّن كان موجَّهًا إلى الجميع، من يهودٍ ووثنيّين، ولكنّ رغبة الرجل الحارقة في شفاء ابنه كانت أقوى من كلّ لومٍ وعتابٍ. فلم يسعَ إلى تبرير ذاته، بل أمعن في التوسّل، معربًا عن إيمانه ورجائه، وقلقه الهاصر، في صيحة إيمانٍ متّقدة: «**يا سيّدي، انزل قبل أن يقضي ابني نحبه**». حينئذٍ أكّد لـه الربّ: «**امضِ، فإنّ ابنك يتدفّق حياةً**».

هذا القول أشاع الإيمان والاطمئنان في قلب الضابط، قبل أن يشهد، بأمّ عينه، برء ابنه. وقد برهن عن إيمانه وثقته بتريّثه في قانا، في تلك الليلة. ولو هو عاد في الحال إلى كفرناحوم، رغم إرهاق صحبه ورواحلهم، لبدت عودته دليل ريبةٍ.

وفي الصباح، وهو في طريق إيابه إلى كفرناحوم، التقى طائفةً من خدَمه قادمين ليزفّوا له النبأ السارّ. فسألهم: «**في أيّة ساعةٍ بدأ يتعافى؟**». فقالوا له «**أمس، في الساعة السابعة أقلعت عنه الحمّى**». وكانت تلك هي، على وجه الدقّة، الساعة التي قال له فيها يسوع: «**امضِ، فابنك حيّ**».

ويضيف الإنجيليّ يوحنّا (٤: ٥٣): «**فآمن هو وأهل بيته جميعًا**».

ذلك الشفاء الفوريّ، الذي تمّ عن بعدٍ، كان معجزةً مزدوجةً، ونعمةً مزدوجةً: فقد برئ جسد الولد، وتحوّل قلب الأب وكلّ أُسرته. الولد نال الشفاء وذووه ظفروا بالإيمان.

بقدر ما يدأب يسوع على شفاء الأجساد، يحرص على شفاء النفوس. وإنّ قائد المئة ذاك الذي التمس من نبيٍّ شفاء ابنه المحتضر، التقى ابن الله «**فآمن هو وأهل بيته جميعًا**». فيسوع إنّما جاء كي يقود البشر إلى الحياة الأبديّة.

يُعتقد أنّ ذلك الضابط هو كوزا، قيّم هيرودس، الذي أمست زوجته حنّةُ من المواكبات ليسوع، والمساعدات له بمالها وخدماتها، مع نساءٍ أُخريات.

ولا ريب أنّ ذلك الحدَث الذي ارتبط بشخصٍ مرموقٍ كان له دويٌّ أبعد أصداءً من المعجزات التي يجريها الربّ في أوساط الشعب، ولا يتهيّأ لها الكثير من الشيوع.

ولقد كانت تلك المعجزة حلقةً في سلسلة معجزاتٍ كثيرةٍ، سيجريها يسوع في الجليل، حيث سيستقرّ، مثبتةً صلته الوثيقة بالآب، وقدرته على تحدّي المستحيل، مكافأةً لمن يؤمنون به.

وقد اتّضح للجميع أنّ يسوع لا يحتاج، كي يشفي، إلى أيّ اتصالٍ مباشرٍ، أو إلى أيّة صيغةٍ محدّدةٍ، أو إلى أيّ تأثيرٍ على فكر المريض وأعصابه، أو إلى أيّ «أثرٍ» من آثاره، كما يطلب السحرة. فيسوع يعمل في عالَم الروح.

كَفَرناحُوم (*)

من قانا هبط يسوع إلى كفرناحوم التي أصبحت «مدينته» ومركز إشعاعه في الجليل، ومكان راحته وتأمّلاته. فكفرناحوم تقع في الجزء الأشدّ كثافةً سكّانيّةً، والأكثر غنًى وازدحامًا، من فلسطين، وقد وفّرت ليسوع المسرح الذي تحتاج إليه رسالته، المتميّز بانفتاحه واتّساعه، وحيويّته، ممّا كان يضمن لتعليمه ومعجزاته أصداءً بعيدةً. ومن كفرناحوم كان بوسع يسوع التنقّل بيُسر بين جميع أرجاء الجليل.

كان النبيّ أشعيا قد تنبّأ: «أَرض زبولون ونفتالي، (أي موطن سبطَيْن من أسباط إسرائيل كانا يقطنان في شماليّ البحيرة وغربيِّها)، طريق البحر، جليل الأمم، الشعب الجالس في الظلمة أبصر نورًا عظيمًا، والذين في بقعة الموت المظلمة أشرق عليهم النور»، والنور هو يسوع الذي وافى تلك البقعة، وراح ينادي: «**لقد تمّ ملء الزمان، واقترب ملكوت الله. فتوبوا وآمنوا بالإنجيل**» (مرقس ١: ١٥).

هناك باشر يسوع رسالته العلنيّة، فتكلّم، وشفى، وطرد الشياطين، وأكمل تأليف فريقه الرسوليّ، غير متحرّجٍ من مجالسة من يزدريهم اليهود، متحدّيًا، كلّما اقتضت الظروف، شريعة السبت. وكانت الجموع تتقاطر إليه من كلّ صوبٍ، «**من اليهوديّة كلّها، ومن أورشليم، ومن ساحل صور وصيدا**».

كان يسوع قد مهّد لرسالته من خلال اعتراف المعمدان، آخر ممثّلي العهد القديم، بمنشئ العهد الجديد، وبتكريس الآب والروح لـه ولرسالته؛ ثمّ تجلّى، في هيكل أورشليم، المدافع الجريء، عن بيت أبيه، وأتاح لطليعة تلاميذه أن يعمّدوا باسمه. ومن خلال عبوره بالسامرة دعا تلاميذه إلى الشروع بالحصاد الروحيّ، كما أنّه وفّر للسامريّين الحسني النيّة بواكير رسالة الخلاص. وها هوذا، وقد أُخرِس صوت

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «الملكوت البعيد القريب»، صفحة ١١٠.

المعمدان، يعلن عن ملكوت الله القادم، وينطلق، بقدرة الله، معلّمًا في المجامع، وهي أماكن التعليم المعهودة، باثًّا، منها، روحًا جديدًا.

وقد وجد يسوع في الجليل أكثر مستمعيه عددًا وإصغاءً. فهم قومٌ طيّبون، رجالٌ أشدّاء خُلُقًا وجسمًا، نفوسٌ سليمةٌ، وقلوبٌ مستقيمةٌ. اشتُهروا بنخوتهم وبشاشتهم. إنّهم أخشن طباعًا من أهل اليهوديّة، ولكنّهم أكثر جاهزيّةً للمروءات. لم يكونوا من المتحذلقين في العلم، أو في علم الكلام، ولكنّهم كانوا يحبّون الله حبًّا صُراحًا. وسرعان ما تبيّنوا، في بساطتهم وصدقهم، أنّ لتعليم يسوع صبغةً قشيبةً، «**فبُهتوا بتعليمه لأنّه كان يعلّمهم تعليم من لـه سلطانٌ، لا كالكتبة، الذين يستندون، في كلّ ما يقولون، إلى ما قرأوا وسمعوا آخرين يقولون**». أمّا يسوع، فكانت السلطة العليا متركّزةً فيه. كان مخلِصًا لروح الشريعة، لا عبدًا لحرفها، فتأهّل للسموّ فوق مقتضياتها، ولترسيخ شريعته الجديدة، التي وضعها في متناول كلّ إنسانٍ.

وقد أيّد الآب تعليم ابنه، وطبعه بخاتمه، بإتاحته ليسوع استخدام قدراته الإلهيّة لخدمة البشر، فأجرى الكثير من المعجزات التي مهّدت لتعليمه، ونهضت عليها مصداقًا، وبرهنت على قدرات الله الكامنة في إنسانيّته.

بكلمةٍ منه كان يعيد البصر إلى العميان، والسمع إلى الصمّ، والنُطقَ إلى البكم، والحركة إلى المشلولين، ويطرد الشياطين والأرواح الشرّيرة، وقد يلجأ إلى اللمس ووضع اليد، كي يظهر أنّ جسده هو وعاء الألوهة. فضلاً عن قدرته على شفاء النفوس، وإعتاقها من قيود الخطيئة، وإعطائها الحياة الأبديّة.

لقد أدهش بسلطته، قولاً وفعلاً، بما لم يعهدوا له مثيلاً لدى علمائهم، واعترف الأبالسة بهزيمتهم أمامه.

قوّةٌ مدهشةٌ كانت تخرج منه، وقدرةٌ عليا كانت تسكنه، وتبدو، ولا سيّما عندما يتكلّم، بلا حدودٍ. لا شيء، حينذاك، كان يقوى على مقاومته، لا الكتبة، ولا المبغضون، ولا الذين تسكنهم أرواحٌ شرّيرةٌ.

وانتشرت سمعته، وشاع أنّ مرسلاً من الله كان يطوف من مجمعٍ إلى مجمعٍ، ويتكلّم بقدرةٍ منقطعة النظير، وأنّ نبرة صوته كانت كافيةً لطرد الأرواح الشيطانيّة؛ وأنّ مجرّد ملامسته لامرأةٍ طرحتها الحمّى أبرأها، فهبّت تخدم ضيوفها. ومنذئذٍ

حُرِّمت عليه السكينة، إذ تدفّقت عليه طوابير طالبي الأشفية والمعجزات، وحاصرته. وكان مجرّد لمسةٍ منه كافيًا لمحو الآلام، والعلل، وإطفاء الحمّيات، وإعادة الحركة إلى الأعضاء المشلولة.

شيءٌ فيه، لا يدركونه، كان يجتذب إليه الجموع ويفتنهم، وحيثما مرّ كان يخلّف عطر حضوره.

يقول الإنجيليّ متّى: «**وكان يطوف في الجليل كلّه، يُعلّم في مجامعهم، ويُنادي بإنجيل الملكوت، ويشفي من كلّ مرضٍ وكلّ سقْمٍ في الشعب. فذاع ذِكره في سوريّة كلّها، فأتوا إليه بجميع المعذّبين، من ذوي الأمراض والأوجاع المختلفة، والذين بهم شياطينُ، والمُهلّين، والمُقعدين، فشفاهم، فتبعه جموعٌ كثيرةٌ من الجليل، والديكاپول، وأورشليم، واليهوديّة وعِبر الأردن**».

صَيْدٌ عَجِيبٌ، وَاصْطِيَادُ صَيَّادِين (*)

رفاق يسوع الأوائل الذين واكبوه إلى قانا، فإلى أورشليم، والسامرة، كانوا قد آب كلٌّ منهم إلى بيته ومهنته، كي يُعملوا الفكر في المستقبل الذي سينتهجونه. وفيما هو كان يطوف مبشّرًا بالإنجيل، وبملكوت الله، كانوا، هم، قد عادوا إلى الاهتمام بتوافه الأمور من صيدٍ، وتصليح شباكٍ، وتنظيفها. وشقّ عليه أن يراهم منصرفين عن المهمّة السامية التي أعدّها لهم، وعن مشاركته عمل الفداء، فاعتزم أن يربطهم به ربطًا وثيقًا لا فكاك عنه، يستطيعون، بفضله تحقيق أرفع غايةٍ في الوجود.

ومرّ بشاطئ البحيرة، فرأى سمعان بطرس وأندراوس أَخاه ينظّفان شباكهما، مثبطَيْن، إثر ليلة صيدٍ خائبةٍ. وفي تلك الأثناء، تراصّت الجموع من حوله، فاستقلّ سفينة بطرس، وطلب منه أن يبتعد بها بضعة خطواتٍ عن الضفّة، كي يطلّ على الجمهور، ويعلّمه بمنأًى عن الازدحام الكثيف الذي كان يحجب شخصه وصوته عن كثيرين.

ولّما فرغ من تعليمه، أوعز إلى بطرس أن يمضي إلى العُرض، ويُلقي شباكه. ولم يكن بطرس يستسيغ تكرار ما كدّ طيلة الليل فيه عبثًا، فنشرُ الشباك المستديرة عمليّةٌ شاقّةٌ تقتضي جهدًا مضنيًا، وهو ورفاقه كانوا قد سبروا كلّ أرجاء البُحيرة ليلاً، فلم يعثروا على سمكٍ. وإن هم قد فشلوا، ليلاً، وهو الوقت الأكثر ملاءمةً للصيد، فلن يوفّر ضوء النهار فرصةً أنسب. وردّ بطرس في شيءٍ من الاستسلام الخجِل: «**يا معلّم، لقد كدحنا الليل كلّه، ولم نُصِبْ شيئًا. ولكن، امتثالاً لطلبك، سأُلقي الشباك**».

على نقيض كلّ ما توقّعه بطرس، كان الصيد من الوفرة بحيث كادت الشباك تتمزّق، فاضطرّ إلى الاستعانة بسفينة شركائه، وكادت السفينتان تغرقان من جرّاء ثقل عبئهما.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «من هم الأسماك؟»، صفحة ١١٢.

بطرس، الصيّاد المتمرّس، أُخذ في شبكة صيّادٍ، وامتثل لأمره، على غير قناعةٍ، وكان الربّ قد توخّى امتحانه هو ورفاقه، في ميدان مهنتهم، لكي يتبيّنوا، بلا ريبةٍ، قدرته ووهنهم. وحينئذٍ اطمأنّوا إليه.

هذا الصيد العجيب أظهر لهم كم ستكون رسالتهم بين البشر خصبةً. سيبحرون في لججٍ أشدّ اضطرابًا وخطرًا من البحيرة، وسيتعرّضون لمخاطر أكبر من تلك التي عهدوها. ولكن سيكون صيدهم وفيرًا، متخطّيًا كلّ أحلامهم وسيكون الإنجيل سفينتهم وشباكهم.

كان بطرس قد شاهد معجزاتٍ أخرى أجراها يسوع، ولم يكن أقلّها تحويله ستّة أجاجين ماءٍ خمرةً لذيذةً، في قانا. غير أنّ تلك المعجزة قد مسّته في الأعماق، وهزّته، وأخافته، وربّما استشفّ أنّها ستحدّد مستقبله. فارتمى عند ركبتي يسوع، وقال: «**ابتعد عنّي، يا سيّدي، فإنّي رجلٌ خاطئٌ**»، **ذلك بأنّ الذهول قد اعتراه، هو وجميع الذين معه**». ولكنّ يسوع سارع إلى تهدئة روعه قائلاً: «**لا تخفْ! فإنّك، بعد اليوم، تكون صيّادًا للبشر**».

كم كان شعور بطرس بعدم كفاءته لاتّباع يسوع عميقًا، باهظًا لكاهله! في قوله هذا، تكمن كلّ نفسه، بعفويّتها وصراحتها، باندفاعها، واضطرامها، وتجرّدها. وقد كان لصيحته وقعٌ بليغٌ في قلب يسوع، فمن يقرّ بوهنه وعدم أهليّته، يكبر في عينَي الربّ. أمام قداسة يسوع، تبيّن بطرس خطيئته. وهذا الشعور بعدمه، وبعظمة يسوع، أهّله للسموق إلى مصيرٍ رفيعٍ. فهذا الشعور هو صفة الرسول الأولى.

وترك بطرس وأخوه أندراوس المركب والشباك، وكذلك فعل شريكاهما يعقوب ويوحنّا، ابنا زبدى. تخلّوا عن كلّ شيءٍ لخوض مغامرة المجهول.

هذه الدعوة وذاك الوعد ما برحا يطرقان، عبر الأجيال، قلوبًا كثيرةً، هجرت، بلا تردّدٍ، الأصدقاء، والوالدين، والوطن، من أجل تبشير أقوامٍ سيكافئونهم، أحيانًا، بالاضطهاد والقتل. وهكذا، بعد أن يكونوا قد ضحّوا، في سبيل خدمة الربّ، بأفراح الحاضر، وأحلام المستقبل، يقضون نحبهم سعداء، ليقينهم بأنّ شهادة الدم هي أخصب الرسالات.

صيّادو بيت صيدا الأربعة أولئك، كانوا باكورة كتائب الرسل الذين سيلقون

شباكهم في خضمّ العالم. كان يسوع قد اجتذبهم إليه، وأظهر لهم بعضًا من قدراته، وها هو الآن يربطهم به، ويبيّن لهم المهمّة التي سينتدبهم لها، بتحويلهم من صيّادي سمكٍ، إلى صيّادي بشرٍ. أولئك الذين لم يكن لهم وزنٌ في موازين العالم، أوكل إليهم مهمّةً جسيمةً، كي تتجلّى عظمة اللّه، من خلال وهن البشر.

هؤلاء التلاميذ الأوّلون كانوا كادحين يأكلون خبزهم بعرق جبينهم، وهذا ما جعلهم جديرين بدعوتهم. إنّهم بسطاء، غير مثقّفين. ولكنّ العلم الجوهريّ سيُعطاهم من فوق. إيمانهم لم يكن ثمرة فصاحة اللسان، بل هبة القدرة الإلهيّة. دُعوا، فلبّوا الدعوة في الحال. ترك بطرس زوجته وأسرته وبيته، وترك ابنا زبدى أباهما، ولم يَحُلْ شيءٌ ولا أحدٌ دون تلبيتهم الدعوة. في مهنتهم كانوا قد تمرّسوا بالصبر والدأب. وكانوا يكنّون للمعلّم إيمانًا حيًّا برسالته الإلهيّة. وكانوا يملكون قلوبًا محبّةً سخيّةً، وعزيمةً صامدةً في مواجهة كلّ محنةٍ.

ربّما لم يكن ما تخلّوا عنه كثيرًا في مقاييس العالم، ولكنّه كان لهم كلّ شيءٍ.

هكذا تأسّست الكنيسة، وتحوّل مركب بطرس المتواضع الهشّ إلى سفينةٍ جبّارةٍ تجوب العالم، ومنها يعلّم يسوع وتلاميذه الأمَم كلّها.

وما برحت سفينة بطرس تجوب أعالي البحار، وتزور كلّ الشواطئ، لا تخشى اصطخاب الأمواج، ولا جنون العواصف. ورغم كدّ الليالي، ما زالت الشباك تلقى في اليمّ، وتمتلئ بالأسماك التي تُخرَج من القيعان المظلمة إلى ضياء السماء المشرقة.

دَعْـوَةُ لاوِي (*)

لقد شهدنا اختيار يسوع لبطرس وأخيه أندراوس، وليوحنّا وأخيه يعقوب، ومن قبل كنّا قد شهدنا انضمام الصديقين فيليبّس ونثنائيل، المسمّى أيضًا برتلماوس إلى جماعته.

ومع انطلاقة رسالته انضوى تحت رايته كثيرون آخرون، منهم من التزموا برسالته التزامًا كاملاً، ومنهم من كان التزامهم به جزئيًّا. وممّن التزموا به كلّيًّا لا يذكر الإنجيل، فضلاً عن دعوة الستّة الآنف ذكرهم، سوى دعوة العشّار لاوي، الذي أصبح الرسول والإنجيليّ متّى.

لاوي كان عشّارًا، أي جابي مكوسٍ وضرائب لحساب المحتلّ الرومانيّ. هو وأمثاله كانوا فئةً ممقوتةً، منبوذةً، ومزدراةً من قبل اليهود الذين يصفونهم بالعملاء ومصّاصي الدماء، لأنّهم كانوا يعملون لصالح الوثنيّين المحتلّين، وقد تعهّدوا بأن يؤدّوا لهم مبالغ محدّدةً من الضرائب، يقسّمونها على المواطنين، ويضيفون إليها نسبًا باهظةً، بمثابة عمولاتٍ وأرباحٍ لهم.

وكان يسوع الذي لا ينفر من ماضي أيّ إنسانٍ، مارًّا، يومًا، بكفرناحوم، فشاهد أحد هؤلاء يتلقّى دفعات المكوس، ويصدر بها إيصالات، وينهمر عليه من لعنات القوم أكثر من النقود التي كانوا يلقونها على مائدته. سُمعة يسوع كانت قد تنامت إليه، وربّما ساوره الحسد حيال تلاميذ ذلك المعلّم، الذين، مع فقرهم، كانوا يحظون بعطف الشعب وبركاته، في حين كان هذا الشعب ينظر إليه نظرته إلى كلبٍ أجرب، مع كلّ ما تكدّس أمامه من نقودٍ. ورنا إليه يسوع، وقال: «**اتبعني**». ولكأنّ ذلك القول نارٌ أُلقيت على مادَّةٍ سريعة الاشتعال، إذ ما كادت تطرق سمع لاوي حتّى «**ترك كلّ شيءٍ، وهبّ فتبعه**». في لحظةٍ، وبلا تردّدٍ، بتر صلته بالماضي، فورًا،

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «دعوة متّى»، صفحة ١١٤.

وقطعيًّا، وتخلّى عن كلّ شيءٍ: ثروته، وممتلكاته، ووظيفته التي كانت تدرّ عليه مالاً وفيرًا، ورفاهيّته، وحتّى اسمه الذي استبدله باسم متّى، أو ماتّيّا – وهو يعني عطيّة اللّه – كي يذرع دروب فلسطين مع يسوع.

كم استكبر دعوة الربّ الزاخرة بالعطف وهو الذي طالما أرهقه ازدراء اليهود!

لقد تخلّى عن العمل عند تخوم المدن، كي يعمل عند تخوم الأرض والسماء، تخوم الزمن والأبديّة. أقلع عن خدمة أسيادٍ ظالمين، كي يخدم سيّد العدل والمحبّة.

بطرس وأخوه، وابنا زبدى، الصيّادون، هم، أيضًا، تركوا كلّ شيءٍ للسير في إثر يسوع. ولكن، كان بوسعهم العودة إلى مراكبهم، وشباكهم وبحيرتهم، متى شاؤوا. ولكنّ متّى، بهجره وظيفته، كان يحرق كلّ مراكبه، ويبتر كلّ صلاته بالماضي. لقد كانت استجابته لدعوة يسوع سخيّةً، كاملةً، جريئةً. هذا، فضلاً عن أنّه كان ثريًّا، مستقرًّا، وصاحب نفوذ. ومع علمه بأنّه لن يجد لدى يسوع سوى الفقر، والاضطهاد، والتشرّد، كانت تلبيته لدعوته فوريّةً، غير مشروطةٍ. هذه التلبية، وإنجيله، خلّداه إلى الأبد. فقد كان أبرع التلاميذ استخدامًا للقلم، وكان له شرف تدوين الإنجيل الأوّل. ومع أنّ اليهود رشقوه بتهمة خيانة وطنه يوم كان عشّارًا، وجّه لهم إنجيله، بُغيةَ هدايتهم، ولكي يثبت أنّ البشر يحبّون وطنهم، حقًّا، بقدر ما يحبّون اللّه.

ويسوغ الاعتقاد أنّ لاوي كان قد شاهد يسوع من قبل، وسمع تعليمه، وأُخذ بسحره؛ وأنّ يسوع لحظ نظرته المتوسّلة، وأنّ رغبة ذلك الإنسان المحبّ في اتّباعه قد مسّت شغاف قلبه، ولا سيّما أنّه كان يعدّ نفسه غير جديرٍ بالانضواء إلى فريق المعلّم. ويسوع الذي يمقت عُجْب الأتقياء الزائفين، لا يقوى على مقاومة قناعة إنسانٍ بحقارته، وامّحاقه أمام طهر اللّه. وكم كانت جرأة يسوع فائقةً ومدهشةً باتّخاذه عشّارًا تلميذًا، ورفيقًا مقرَّبًا حميمًا، وهو متيقّنٌ ممّا سيثيره اختياره هذا من صدمةٍ لدى الفرّيسيّين، واستنكارٍ لدى المتزمّتين، الذين يصِمون تلك الفئة من الناس بالخطيئة والخيانة. ولكنّ يسوع كان يُزري بكلّ تصنيفٍ، ولا يتوانى عن تحدّي أحكام بني قومه المسبّقة. وما كان يقيم أيّ وزنٍ لفوارق المال، والعلم، والطبقات، وإنّما كان يميّز بين منفتحٍ لدعوة اللّه، وموصدٍ القلب دونها، بين منتهجي الدرب الضيّق الوعر، والتائهين في دروب الهلاك المعبّدة الرحبة. إنّ بسيط الروح، المُقرّ بجهله

ووهنه، أكثر جاهزيّةً لاتّباع يسوع من المتكبّر المزدهي بقوّته وعلمه. وإنّ المعترفَ بذنبه وعدم أهليّته، يفرح بالسير في إثره، في حين أنّ مدّعي الورع والكمال يثور على من يُلمح إلى بطلان ممارساته الزائفة.

وحرص لاوي على تكريم يسوع، فأقام مأدبةً فاخرةً في منزله الفخم الذي كان عازمًا على هجره، دعا إليها، فضلاً عن يسوع ورفاقه، طائفةً من أترابه القدامى، العشّارين، احتفالاً بالحظوة الثمينة التي هبطت عليه. وربأ الفرّيسيّون بأنفسهم أن يتنجّسوا إن هم اختلطوا بأولئك القوم. ولبثوا عند عتبة البيت. لم يجسروا على مصارحة يسوع بسخطهم، خشية أجوبته الصارمة التي طالما أحرجتهم، وأخزتهم، فعاتبوا تلاميذه: كيف تتردَّون إلى درك مشاركة العشّارين والخطأة طعامهم؟ أين هي كرامتكم، وأين أنتم من الطهر الشرعيّ؟ وتنامت هذه الأقوال إلى سمع يسوع فقال للفرّيسيّين: «**ليس الأصحّاء يحتاجون إلى طبيبٍ، بل المرضى، فاذهبوا، وتعلّموا ما معنى هذا: إنّي أريد الرحمة لا الذبيحة. وإنّي ما جئت لأدعو الصدّيقين، بل الخطأة**».

في هذه الكلمات تثوي عبقريّة الإنجيل، ويتجلّى من نشأ من العليّ، وانبثق من أحشاء رحمة الله.

كان يسوع يشير إلى أقوال الأنبياء التي طالما جهد الفرّيسيّون في طمسها، لأنّ الأنبياء يرومون الروح، والفرّيسيّين يقتصرون على الطقوس والظواهر.

وانضمّ بعض تلاميذ المعمدان الناقمين إلى الفرّيسيّين، لكي يهاجموا يسوع، ويحطّوا من قدر أتباعه، بعد أن شاهدوهم يتمتّعون بأطايب وليمة لاوي، فاستوضحوا يسوع: «**لماذا، فيما نحن والفرّيسيّون نصوم كثيرًا، تلاميذك لا يصومون؟**» ولكأنّ بلوغ القداسة أمام الله، والتمتّع بالتجلّة في عيون الناس، رهنٌ بالتجهّم والهزال! ومع ذلك لم يُنحِ يسوع باللائمة على صوم تلاميذ يوحنّا، والفرّيسيّين، ولكنّه التمس العذر لتلاميذه، من جرّاء إعراضهم عن الصيام، قائلاً: «**أيستطيع بنو العرس أن يحدّوا ما دام العريس معهم. ولكن ستأتي أيّامٌ يُرفع العريس، فيها، عنهم، فحينئذٍ يصومون**». العريس هو يسوع. مجيئه إلى العالم كان اقتران الله بالبشر، وزواج حبٍّ. وإن كان اقتران رجلٍ بامرأةٍ يجعل منهما جسدًا واحدًا، فالله «صار جسدًا»،

لكي يوثّق تضامنه البشريّ والإلهيّ مع البشر، ويجعل منهم كائنًا واحدًا حيًّا: الكنيسة، جسده.

سيأتي يومٌ يتحوّل فيه عرس التلاميذ إلى حدادٍ، عندما سيُنتزَع منهم المعلّم انتزاعًا شرسًا. وعلى أيّة حال، علامَ التشديد على الصوم المادّيّ، والممارسات الخارجيّة، في حين أنّ ثمّة حاجةً إلى تجديدٍ روحيٍّ كاملٍ، أشار إليه يسوع بقوله: «**إنّه ما من أحدٍ يجعلُ رقعةً من نسيجٍ جديدٍ على ثوبٍ بالٍ، لأنّها تأخذُ من الثوب مِلأها، فيزيدُ الخَرق سوءًا. ولا تُجعَل الخمر الجديدةُ في زقاقٍ عتيقة، وإلاّ فالزقاق تنشقُّ فتُراق الخمرُ وتتلفُ الزقاق. ولكن تُجعلُ الخمرُ الجديدةُ في زقاقٍ جديدةٍ فتُحفظ جميعًا**» (متّى ٩: ١٦–١٧).

الفرائض الشرعيّة وطقوسها وممارساتها هي الثوب البالي، والزقاق العتيقة. أمّا روح يسوع الفائض، وتعاليمه العلويّة فهي الثوب القشيب، والخمرة الجديدة. وقد باتت الشريعة القديمة عاجزةً عن استيعاب سُنّة الإنجيل. لقد بزغ فجر حرّيّة أبناء الله، التي سيتولّى الرسول بولس رفع شعارها، ولكنّ الفرّيسيّين لم يفقهوا أبعاد قول يسوع، فعقولهم الموصدة المحدودة، كتيمةٌ لا ينفذ إليها النور. وقلوبهم متحجّرةٌ. ولكنّهم أدركوا، إدراكًا مبهمًا، أنّ يسوع يضع نفسه وتعاليمه فوق ما جعلوا منه جوهر تديّنهم.

لم يعد بوسع القديم والجديد أن يتعايشا ويتمازجا. ومن ثمّ لم يفرض يسوع على تلاميذه ممارساتٍ عتيقةً بلاها الزمن، في حين آثر الفرّيسيّون التعفّن في تقاليدهم الدارسة.

إنّ يسوع بعيدٌ عن التزمّت، ولكنّه كثير الاقتضاء، في مجال المحبّة فحسب، مع كلّ عواقبها التي تقود بعيدًا. غير أنّه، قبل أن يفرض على تلاميذه ممارساتٍ مرهقةً، عمل على ملئهم بروحه، إلى أن يتمكّنوا من الترقّي بأنفسهم في معارج الكمال.

اتّضح لليهود أنّ الشُقّة بين الناصريّ وبينهم من الاتّساع بحيث يتعذّر ردمها، ولكنّهم لم يُقلعوا عن مراقبته، وعن مناقشته.

الاثنا عشر، والآخرون (*)

لم يُسند الربُّ العناية بالبشر وهدايتهم إلى الملائكة، بل إلى بشرٍ كلّفهم بمهمّةٍ جسيمةٍ، مهمّة غزو العالم كلِّه، روحيًّا. وطلب منهم أن يكونوا «**نور العالم**»، و«**ملح الأرض**».

كان يسوع يطوف بالجليل ناثرًا تعاليمه الخلاصيّة، ومغدقًا نعمه وأشفيته، والقوم يتقاطرون إليه من كلّ صوبٍ، كي يشاهدوه، ويسمعوه، ويستشفوا على يده. وذات يومٍ، كان الازدحام على أشدّه، بحيث كاد القوم يسحقونه، فأوعز إلى تلاميذه أن يبحروا إلى الطرف الآخر من البحيرة، فيما انتحى، هو، على قمّة جبلٍ، كي يختلي بنفسه. وأنفق الليل كلّه يحاور أباه، جريًا على عادته كلّما أقدم على قرارٍ خطيرٍ. وفي الغداة انتقى من أتباعه اثني عشر رسولاً. لم يكونوا مكلّفين بتبليغ رسالةٍ أو أداء مهمّةٍ مؤقّتةٍ، في زمانٍ ومكانٍ محدّدين، كما هي، غالبًا، حال الرسل، بل كانوا أركان مؤسَّسةٍ دائمةٍ، إلى جانب كونهم رُسُلاً بمعنًى أسمى وأنبل، ويحملون رسالة البشرى، رسالة الإنجيل.

أولئك الرجال المغمورون دعاهم إلى التحلّي بنظرةٍ مسكونيّةٍ إلى رسالتهم، لأنّه على أساسهم سيشيد ملكوته. لقد أفاض عليهم أنوارًا كي يشعّوها على البشريّة كلّها، وعلى جميع الأمم.

منذ البدء، توخّى المخلّص أن يبسط تعليمه، وملكه، وحياته، حتّى انتهاء الأزمنة. وفي سبيل ذلك، دعا حفنةً من البشر، أمدّهم بشيءٍ من السلطات التي جاء بها من السماء. فريقه هذا، لم يكن ناديًا للمتعة، ولا جماعةً سياسيّةً، بل كان فريقًا روحيًّا محضًا، تربط أعضاءه وشائج المحبّة، وحبّ الله، وأنوار الروح القدس.

* *

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «يسوع وتلاميذه»، صفحة ١١٧.

أرادهم أن يمكثوا إلى جانبه، لا لكي يلقّنهم دروسًا و أقوالاً يردّدونها في ما بعد، بل لكي يتملّوا من مثال حياته، فيكونوا له شهودًا صادقين.

رقم الاثني عشر رقمٌ رمزيٌّ، هو عدد أسباط إسرائيل الاثني عشر، التي حلّ محلّها، في العهد الجديد، رُسُل يسوع، الذين سيدينون تلك الأسباط في يوم الدين. وقد حرص الجيل المسيحيّ الأوّل على هذا الرمز، إذ سارعت الكنيسة الوليدة إلى اختيار بديلٍ ليهوذا، فور انتحاره، كي يظلّ العدد مكتملاً.

* *

لم يكن الاثنا عشر علماء، ولكنّهم لم يكونوا أُمّيّين، ففي كلّ مدينةٍ وقريةٍ، كانت مدرسةٌ، ولو ابتدائيّةٌ، ملحقةً بالمجمع، يؤمّها الأطفال، وينالون فيها العلوم الأساسيّة.

ولكن لم يكن منهم كاهنٌ، أو كاتبٌ، أو فريسيٌّ، أو وجيهٌ، أو غنيٌّ، أو عبقريٌّ، إذ لم يكن يسوع في حاجةٍ إلى قدراتٍ بشريّةٍ لبناء كنيسته، بل اكتفى بقومٍ بسطاء ثقّفهم على يده، وبثّهم روحه.

لم يكونوا أغنياء، ولكنّهم لم يكونوا معدَمين، ومعظمهم كانوا يكسبون معيشتهم مثل سائر مواطنيهم. كانوا من الطبقة المتوسّطة الحال، حيث الثروة نادرةٌ، والفقر مجهولٌ، وربّما كانوا، جميعهم، يفوقون يسوع يُسرًا. على أيّة حالٍ، كانوا يسوقون حياةً بسيطةً، قليلة المطالب، بلا رغباتٍ ولا ندمٍ.

وقد انتزعهم يسوع من وجودهم الهادئ المضمون، فتشرّدوا، على غراره. لا مركز لهم، ولا بيت، ولا ما يُسندون إليه رؤوسهم. يعيشون يومًا فيومًا، وبيتهم الله. كلّهم متساوون. والأكبر فيهم هو من يخدم إخوته.

بهم أسّس يسوع كنيسته التي ستملأ الكون، وستتحدّى الحدثان. لا شيء كان يميّزهم، آنذاك، غير أنّ اليد التي اختارت تلك الحجار الغشيمة، كانت حاذقةً في صقلها، وقد رآها يوحنّا حجارًا كريمةً، ولآلئ متوهّجة.

كم كانوا يتباينون أذواقًا، ومؤهّلاتٍ، وطباعًا! ولكنّهم كانوا متكاملين. معظمهم شبابٌ، أكبرهم وعميدهم صيّادٌ يُدعى سمعان بن يونا. هو يتزعّم جماعتهم ويتكلّم باسمهم. إنّه متوثّبٌ، جيّاشٌ، مندفعٌ على غير ثباتٍ، وأحيانًا جبانٌ، ممّا يعرّضه لخيبات الرجاء، ولمرارة الإحباط. يدّعي القوّة والإقدام، ولكنّه سريع التعثّر. ولديه

شعورٌ عميقٌ بالخطيئة، ولذلك دعا يسوع إلى الابتعاد عنه، في أعقاب الصيد العجيب، لأنّه رجلٌ خاطئٌ لا يستأهل جوارًا إلهيًّا. ولكنّ حبّه المضطرم ليسوع يساعده على تجاوز وهنه. وقد وضع بيته وسفينته بتصرّف المعلّم، فقد كان شديد التعلّق به. وعندما هجر بعضُ التلاميذ المعلّمَ أعلن أنّ ليس لديه من يمضي إليه، ويحيا بحضوره، سوى يسوع. مذ رآه يسوع غيّر اسمه إلى كيفا، أي الصخر، «بطرس». وهذا الاسم الجديد كان رمزًا إلى المستقبل الخطير الذي كان يُعِدّه لـه. وهذا ما أكّده يسوع عندما أسند إليه قيادة الكنيسة، مع أنّه كان منزّهًا من مطامع الرئاسة والصدارة التي كانت متّقدةً لدى زميليه يعقوب ويوحنّا. وقد استخدم يسوع، في تثقيفه وإعداده، رقّةً مشوبةً بشيءٍ من الصرامة، وصبرًا لا يكلّ. في أعقاب تعثّره، وكبوته، وندمه، وإعادة تأهيله العلنيّة، تولّى دور الزعيم، وأدّاه بعزيمةٍ، وشدّة مراسٍ. فبقدرة المعلّم الإلهيّ أصبح ذلك المندفع المترجرج كالماء، صخرًا راسيًا، منيعًا، وحجر أساس كنيسة يسوع، يتكلّم، ويجيب، ويسأل، ويقرّر، ويعمل باسم زملائه، ولا يعارض أيٌّ منهم زعامته. وممّا يدعو إلى الإعجاب أنّ الإنجيليّ مرقس، الذي عكس تعليم بطرس، كان أكثر الإنجيليّين إبرازًا لمواطن ضعفه، وأقلّهم ذكرًا لمناقبه، وامتيازاته، ولإيثار يسوع لـه، ممّا يؤكّد تجرّد «صخرٍ»، وتواضعه.

أخوه أندراوس نقيضه، فهو الرجل الهادئ، المتواضع، المجرّد من المطامع والادّعاء، المتواري خلف الآخرين، المتصاغر بلا جهدٍ ولا تصنّعٍ. حسبُه فخرًا أنّه أوّل من عثر على يسوع، وأتاه بأخيه سمعان، ثمّ توارى. إنّه الحكيم الصامت الذي لا يُلجأ إليه إلاّ في الأزمات، كما حدث يوم تكثير الخبز. ولكن تحت مظهر السكون، أيّة جرأةٍ باسلةٍ، وأيّة قوّةٍ لا تُقهَر! واللّه الذي يكرّم المتواضعين خصّه بأمجد استشهادٍ. فقد صُلِب، أُسوةً بيسوع، ومن صليبه كان ينادي المعلّم بصيحات حبٍّ مؤثّرةٍ.

أَخوان آخران كانا يؤلّفان، مع بطرس، الفريق المقرّب من يسوع، هما الصيّادان يعقوب ويوحنّا ابنا زبدى. هذا الثلاثيّ، دون سائر التلاميذ، شهد مجد تجلّي الربّ، وإنهاض ابنة يئير من الموت، وقد اختاره يسوع ليشاركه ساعات نزاعه في بستان الزيتون. يوحنّا، أحد الأخوين، هو أصغر التلاميذ، وكان بكرًا عفيفًا، وأثيرًا على قلب المعلّم، فعُرِف بأنّه «التلميذ الذي كان يسوع يحبّه». هو الذي اتّكأ على صدر

يسوع في أثناء العشاء السرّيّ، وإليه أوكل الربُّ أمَّه، أغلى ما لديه في الدنيا، قبل مغادرته العالَم. وكان له شرف إعلان رقّة قلب يسوع، وتدوين الإنجيل الرابع الذي وُصف بالإنجيل الروحيّ، وتبليغ رسالة الحبّ الإلهيّ، والمناداة بالمحبّة الأخويّة. ولكنّه، خلف مظهر وداعته، كان يتوقّد غيرةً بحيث أطلق عليه يسوع لقب «ابن الرعد»، ويبدو أنّه قد ورث الكثير من غيرة أُمّه سالومي التي واكبت يسوع، مع نساءٍ أُخرياتٍ، على مدى امتداد رسالته، وأسدت للجماعة خدماتٍ جلّى.

كان أطول التلاميذ عمرًا، وقد توارى، سنواتٍ، كي يتيح لبطرس وبولس نشر البشرى في شتّى أرجاء المعمورة. وعندما شرعت البِدَع تذرّ قرنها، في نهاية القرن الأوّل، رفع صوته، وحلّق عاليًا فوق الغمام. إنجيله، ورسائله، ورؤياه، بروقٌ، ورعودٌ، وصواعق.

أمّا أخوه يعقوب الذي لُقِّب بالكبير، تمييزًا له عن يعقوب الصغير الملقّب بأخي الربّ، فلا نعرف الكثير عنه، سوى أنّه شرب الكأس حتّى الثمالة، كما وعد المعلّم، وأنّ سيف هيرودس أغريپا قد جعل منه أوّل رسولٍ شهيدٍ، بين التلاميذ.

فضلاً عن هؤلاء الأربعة، ثمّة برتلماوس، الذي لم يُعرف عنه سوى القليل. من المتّفق عليه أنّه نثنائيل الذي وجده فيليبّس تحت التينة. كان بارًّا، مستقيمًا، صموتًا، متواضعًا. ويذكر التقليد أنّه بشّر الهند، وأنّ جلده سُلخ عنه، وهو حيٌّ، ثمّ صُلب ورأسه إلى أسفل.

فيليبّس، صديقه، كان انتظاره للمسيح قد دفع به إلى الانضمام لجماعة المعمدان. يُظهره الإنجيل مسارعًا إلى تلبية دعوة يسوع الأولى، متعاطفًا مع احتياجات الجموع التي كانت تتبع يسوع في الصحراء، عاجزًا عن فهم كيف يسع بضعة أرغفةٍ أن تُشبع الآلاف، بطيء استيعاب الأمور الروحيّة، وهو الذي التمس من يسوع أن يريهم الآب الذي لا يكفّ يحدّثهم عنه. يقال إنّه كان متزوّجًا، وإنّ بناته كنّ طلائع عذارى الكنيسة، وإنّه توفّي في هيراپوليس، في فريجية.

سمعان الكنعانيّ، أو الغيور، هل سبق له أن انضوى تحت لواء الغيورين المتزمّتين الذين لا يتورّعون عن فرض الشريعة بالعنف؟ ربّما، فدروب الربّ تستغلق على مداركنا. ومن المفارقات أن يجاور هذا الغيور عشّارًا سابقًا، هو متّى. غير أنّ حبّهما المشترك ليسوع حرَّرهما، كليهما، من كلّ حبٍّ آخر.

متّى خلّد نفسه بإنجيله. تكلّم، مرّةً، عن نفسه كي يقول إنّه كان عشّارًا وقد تكلّمنا عنه بإسهاب.

توما صيّادٌ آخر. لُقّب بالتوأم، ربّما لأنّ المؤمن، في داخله، كان يقيم إلى جانب المرتاب. المؤمن فيه كان يرى أنّ الموت مع الربّ خيرٌ من البعاد عنه، ولكنّ الريّاب فيه كان يعتقد أنّ الموت سيكون خاتمة ما صنعه الربّ. شرطه جسّ الربّ كي يؤمن بقيامته بات أبرز ملامحه. غير أنّه، بعد العنصرة، توغّل حتّى أقاصي الهند، ناشرًا فيها الإيمان بيسوع. وما برح المسيحيّون، هناك، يدعون أنفسهم «مسيحيّي القدّيس توما». أمّا قوله الشهير: «**فلنمضِ نحن أيضًا، ولنمُتْ معه**»، فقد أصبح شعار الشهداء.

يعقوب المعروف بالصغير– تمييزًا له عن يعقوب بن زبدى أخي يوحنّا – وأخوه تدّاي أو يهوذا، هما ابنا خالة يسوع، ولذلك سمّيا أخوي الربّ، مجازًا. لكلٍّ منهما رسالةٌ هي جزءٌ من أسفار العهد الجديد. يعقوب أصبح أوّل أسقفٍ على أورشليم. وقد قضى أيّامه الأخيرة راكعًا مستغرقًا في الصلاة، بحيث قيل إنّ جلد ركبتيه أمسى في مثل قساوة جلد الجمل وثخانته. بسبب صلابة إيمانه قُذف به من قمّة الهيكل ورُجِم، وقد جثا، وهو يحتضر، كي يطلب لمضطهديه الصفح. واعتقد معاصروه أنّ جريمة قتله سرّعت دمار أورشليم وهيكلها.

هؤلاء الأحد عشر جميعهم جليليّون، وقد قيل في الجليليّين إنّ الثروة أدنى شأنًا، لديهم، من الشرف. وحده، الثاني عشر، يهوذا إسقريوت، من جنوبيّ البلاد. وقد أوكل إليه يسوع أموال الجماعة، دليلاً على ثقته به. ولكنّ شيطان الجشع، والعنصريّة اليهوديّة، كانا أقوى على نفسه، من ثقة الربّ، فباعه بحفنةٍ من النقود الفضّيّة.

في مجموعهم كان التلاميذ يمثّلون البشريّة، فلا بدعَ إن وُجد بينهم خائنٌ.

أؤلئك الرجال كانوا ذهبًا خامًا اختاره الصائغ الإلهيّ كي يذيبه في بوتقته، ويصوغ منه جواهر نفيسة. معظمهم بسطاء، ضئيلو زاد العلم، ولكنّهم سيخزون العلماء، وأولي السلطان، والأغنياء. ولكن كان على يسوع، قبل ذلك، أنّ يتغلّب على ضيق آفاقهم، ووهن إرادتهم.

كانوا، في كرمته، الأغصان التي يضطرّ إلى تشذيبها كي تأتي بجنًى وفيرٍ،

عذبٍ، وقد دأب على تنقيتهم من الرداءة، والصغارة، والمطامع الحسيرة الرؤية، وعلى بثّهم روحه، وإيمانه، وعلاقته بالآب، وحبّه للبشر.

كان روحه عليهم وفيهم، وكان لهم القوَّة، والعلم، والسلطان، كي يعلنوا بشرى الملكوت. ومصداقًا لإعلانهم، نفحهم هبة شفاء العلل، والأمراض، وطرد الأرواح الشرّيرة، باسمه.

لقد أزرى يسوع ورسله بكلّ الوسائل البشريّة من حنكةٍ سياسيّةٍ، وقوّةٍ بهيميّةٍ، وبلاغةٍ، ومالٍ، ولم يشهد التاريخ لجرأة مغامرة الربّ مثيلاً، فقد ابتغى خلاص العالم، وهو لا يملك سوى روحه. ولم يزوّد فريق عمله إلاّ بهذا الروح.

بادئ الأمر لم يكن لدى أولئك الرجال الذين اختارهم يسوع سوى فكرةٍ مبهمةٍ عن رسالته. وكان يشقّ عليهم، أحيانًا، فهم أبسط إعلاناته، وكان ذلك يحزنه. ولكنّه دأَب على تثقيفهم في كثيرٍ من الصبر، وكان يبتهج كلّما وضحت أفكاره لديهم، فيشكر أباه السماويّ الذي أَوضح هذه الأمور للصغار، وأَخفاها عن الحكماء والمثقّفين. وقد أثبتت الأيّام أنّ كثيرين من المثقّفين المغرورين بعلمهم هم الذين شوّهوا تعليم يسوع أو حاولوا تدميره، فيما حافظ على نقاوة هذا التعليم وأصالته البسطاء المجرّدون من الكبرياء، وإرادة السيطرة على الآخرين، والذين لا تسمّم أَفكارهم التأويلات الفكريّة، والفتاوى الشاذّة، والنظريّات الماورائيّة الهوجاء. هؤلاء لا يضيفون من عندهم شيئًا إلى تعليم يسوع، فآراء معلّمهم، وإرادته، وشخصه، هي لهم الكنز الوحيد الأعظم.

إنّ ما انتهى إليه أولئك البسطاء يظهر أنّ «إصبع اللّه كان هناك». فسفر أعمال الرسل يذكر أنّ زعماء اليهود «**لمّا رأوا جرأة بطرس ويوحنّا، وعلموا أنّهما رجلان أُمّيّان، ومن عامّة الشعب، تعجّبوا**». فقد كان التلاميذ صائبي الحكم والتقدير، متمكّنين من الاستنتاج المنطقيّ، كما أثبتت، من بعد، كتاباتهم وأعمالهم. فقد تولّى يسوع وروحه تثقيفهم، وتأهيلهم لفهم الحقائق المسيحيّة، ثمّ للتبشير بها. وقد نهض كثيرون منهم بهذه المهمّة، بسموّ نظرٍ، وبطولةٍ مدهشَيْن.

كانوا في ميعة الشباب، وأوج القوّة، فاحتملوا، بفرحٍ ويُسرٍ، المشاقّ المضنية، وضروب الحرمان التي أحاقت برسالتهم.

كانوا راسخي الإيمان والورع، مستقيمين، نزيهين، متواضعين، حكماء، نشيطين، ولكن متجرّدين، فقد تخلّوا عن أعزّ ما كانوا يملكون، استجابةً لكلمةٍ واحدةٍ من المعلّم. وكانت تربطهم به وشائج تجمع إلى صدق المودّة، عمقَ الاحترام. وقد قاسموه، طيلة ثلاث سنوات، عيش الفقر، والشظف، والتضحية، والتشرّد. وبعد قيامته وصعوده بشّروا بملكوته، بجرأةٍ وأمانةٍ تتحدّيان أعتى المخاطر والصعاب.

قبل العنصرة وحلول الروح القدس الذي حوّلهم، ورغم خصالهم الرفيعة المحقّقة، لم ينجوا من مثالب خطيرةٍ: فقد كانوا بطيئين في فهم بعض تعاليم يسوع، عاجزين عن الاقتناع بضرورة آلامه وصلبه، يحسد بعضهم بعضًا، ويتنافسون على المراتب، عدائيّين، حسيري البصر، واهني العزيمة، بحيث أنكر زعيمهم معلّمه، خوفًا من اتّهام خادمةٍ، وفرّوا جميعًا في ساعة الخطر.

ومع ذلك يمكن القول إِنّهم كانوا معدنًا ثمينًا، انصهر في بوتقة الروح، فتحرّر من كلّ خبثٍ. وكان لهم يسوع أحكم المعلّمين، وأشدّهم صبرًا. وقد حرص، منذ اختياره لهم، على إبقائهم إلى جانبه. وكان مثاله خير مدرسةٍ لهم. وإذ كان ذلك المثال الفذّ دائمًا محطّ أبصارهم، تعلّموا معرفته عن كَثَبٍ، والإمعان في تقديره، واستيعاب روحه، والتمثّل به. فقد كانت فضائله فطريّةً، بسيطةً، خاليةً من شظف المعمدان، ومن تظاهر الفرّيسيّين. كلّ كيانه كان يشعّ تواضعًا، وتجرّدًا، وثقةً في الآب، وكمال قداسة. وفي مدرسته تعلّم التلاميذ التقوى الحقّة، بمنأًى عن عبوديّة الحرف المتشنّجة. تعاطفه مع كلّ ضروب الآلام، ورحمته حيال الخطأة، وحبّه للآب السماويّ، كانت تؤلّف مثالاً ينطبع في نفوسهم. وقد أسهمت معجزاته، أيضًا، في تثقيفهم، وفي ترسيخ قناعاتهم بأنّه المسيح ابن الله. وقد خصّهم ببعض معجزاته التي خلّفت في نفوسهم أثرًا باقيًا.

كم كان التلاميذ محظيّين بالعيش في ظلّ أكمل المعلّمين وأقدسهم! ومع أنّهم قاسموه متاعبه وحرمانه، إلاّ أنّهم تذوّقوا، في حضوره، أعذب فرحٍ. وقد أشار، هو نفسه، يومًا، إلى هذا الامتياز، فقال لهم: «**أمّا أنتم فطوبى لعيونكم لأنّها تبصر، ولآذانكم لأنّها تسمع. وإنّي الحقّ أقول لكم إنّ كثيرًا من الأنبياء والصدّيقين قد اشتهوا أن يروا ما أنتم راؤون ولم يروا، وأن يسمعوا ما أنتم سامعون، ولم يسمعوا**».

ولا ريب أنّ تعليم يسوع لهم وللشعب، كان عامل تثقيفٍ هامًّا. كلُّ ما كان يدلي به من أقوالٍ عن ملكوت السماوات، وعن طبيعة اللّه، وعن شخصه هو، وعن الكمال المسيحيّ، والمحبّة الأخويّة، ومستقبل الكنيسة، كان يتسرّب إلى عقولهم فيثقّفها، وإلى قلوبهم فيصلحها. وكثيرًا ما كان يخصّهم بخطاباتٍ ودروسٍ واضحةٍ، حيّةٍ، تنفث فيهم روحه، وتبلّغهم مشيئته، وتوضح لهم مهامّهم الحاضرة والمستقبليّة، والسلوكَ الذي ينبغي أن ينهجوه بصفتهم مبشّرين بالإنجيل: دروس في التواضع، والتسامح، والقدوة الصالحة، والمحبّة الشاملة. وكان يلقى، أحيانًا، مشقّةً كبرى في إقحام بعض الدروس الجوهريّة في عقولهم، فيبثّ شكواه من غلاظة أذهانهم. ومن المؤثّر رؤية الإنجيليّين يوردون، بصدقٍ وبساطةٍ، هذه الشكاوى، التي لا تشرّف التلاميذ.

وكان يعتصم بالصبر، وينتظر أن يشتدّ عودهم كي يقتضي منهم ما كانوا، بعدُ، عاجزين عن تحقيقه.

غير أنّ أُسلوب تعليمه الأكثر نجاعةً كان الحبّ الأبويّ الذي أحاطهم به، باستمرارٍ. ومن المحقّق أنّهم كانوا عاجزين عن مقاومة حنانه، ورغباته، والعمل بإرشادات ذلك المعلّم المحبّ. قيادته لهم كانت، دائمًا، قيادة الصديق المخلص المتفاني. كانوا أسرته الشديدة التماسك، وهو دائمًا زعيمها الموقّر. كان يطلق عليهم أعذب الألقاب والأسماء، فيدعوهم، على التوالي: أصدقاء، وإخوةً، وأبناءً صغارًا. وكان يسهر على راحتهم عندما يتعبون. وقد اعترف أحدهم: «**إذ كان قد أحبّ خاصّته الذين في العالم، بلغ به حبّه لهم حدّه الأقصى**»، أي إنّه أفرط في حبّهم.

وكان تأثيره عليهم عذبًا يتسلّل إلى نفوسهم تسلُّلَ العطر، ولم يحاول، يومًا، تغيير طباع واحدٍ منهم عنوةً؛ إلاّ انه كان، دائمًا، حازمًا على غير قسوةٍ أو عنفٍ، حريصًا على تقويم أخطائهم وعيوبهم. حتّى عتابه لهم كان مشوبًا بالرقّة، بحيث قيل إنّه لم يُشاهَد قطّ، بين زعيمٍ وأتباعه، أو بين مؤسّسٍ وتلاميذه، مثل ذلك الطابع الإلهيّ، وذلك الصدق الكامل، الصارم، اللّذَيْن وسما أعمال يسوع وخطابه تجاه رسله. لقد اختارهم وأحبّهم، وأوكل إليهم رسالةً جسيمةً، ولكنّه لم يتهاون معهم، ولم يصانع، ولم يداهن ولم يغدق الوعود والتوقّعات جزافًا، بل حدّثهم، دائمًا، بلغة الحقيقة الصرف، وباسم هذه الحقيقة بلّغهم وصاياه، ورسالته. فلا بدع إن آتى تعليمه لهم أينع الثمار، وأوفرها.

وفضلاً عن الاثني عشر، اختار يسوع، من بين أفواج أتباعه الكُثُر، اثنين وسبعين آخرين، لم ينقطعوا لخدمته كلّيّةً، ولكنّهم كانوا ينفّذون، باندفاعٍ، المهمّات التي ينتدبهم لها. وكان، ثمّة، أيضًا، عدّة دوائر من التلاميذ المحيقين به، والرافعين راية رسالته، وقد تجمّع منهم خمس مئةٍ، شهدوا صعوده إلى السماء.

وإلى جانب كلّ أولئك الرجال، تطوّعت طائفةٌ من النساء لخدمة يسوع ورسله، ولمساندتهم بعملهِنّ وبمالهنّ.

وعلى كلّ مرحلةٍ من حياة يسوع قامت امرأةٌ شاهدةً: امرأةٌ فريدةٌ أنجبته، وهدهدت طفولته، وامرأةٌ سقته عند الظهيرة في السامرة. امرأةٌ مسحت وجهه في طريقه إلى الجلجلة، وأُخرى تناولته بين ذراعيها إثر إنزاله عن الصليب، وأُخرى مدّت لـه يدًا مرتجفة، فجرَ القيامة.

كان لهنّ ابنًا أو أخًا، يكلّمهنّ ندًّا لندّ، ويخصّهنّ بإيحاءاتٍ مذهلةٍ. يهبهنّ الطمأنينة، عندما تقسو عليهنّ الحياة، وينتزعهنّ من أيدي جلاّديهنّ، ويواسيهنّ في قنوطهنّ.

ولقد دفع مجرى كثيراتٍ في اتّجاهٍ آخر: فلن يكون من السهل على الزانية أن تستأنف نهجها السابق بعد أن أنقذها من براثن المتعطّشين إلى رجمها، ولوّح لها بسنى الطهر؛ ولن يكون من اليسير على أُختيْ لعازر، بعد أن بعث أخاهما من القبر أن تستعيدا حياتهما، وكأنّ شيئًا لم يكن. ولن يكون باستطاعة أرملة «نعيم»، أن تواصل العناية بابنها كأيّ ابنٍ، بعد أن كانت تقوده إلى القبر، وعادت به وهو ينبض حياةً وحيويّةً!

جديد يسوع أنّه جعل من نسوةٍ شريفاتٍ رفيقات سفره، محطّمًا التقاليد الضيّقة التي كانت تحظر حتّى مخاطبة امرأةٍ علنًا، وأشرع لنشاطهنّ الحكيم، ولغريزة التفاني الثاوية في قلوبهنّ، وقلوب أخواتهنّ في كلّ جيلٍ، مجالاً واسعًا للأعمال الخيّرة، جلّين في ميدانه، وفي حضن الكنيسة، وأتين به حصادًا رائعًا في شتّى المجالات.

* *

منذ عرس قانا، لم يتوقّف يسوع عن السير، يحيق به رسله وتلاميذه، متأهّبين للمضيّ حتّى النهاية، وإن لم يعرفوا من هذه النهاية شيئًا. قال لهم «تعالوا» فجاؤوا،

لأنّ يسوع لا يُقاوَم. هجروا عملهم وأُسرهم، وكلّ ما له، في حياتهم، شأنٌ، وكلّ ما جهدوا في سبيله، كي يتبعوه، وهم لا يعلمون إلى أين يمضي بهم.

ومع ذيوع صيته، وانتشار روايات معجزاته، كانت ترفد جماعته أفواج القادمين الجدُد، وباتت تنقّلاته تعلن عن ذاتها بسُحُب الغبار التي تثيرها مسيرتهم اللجبة، والنيران التي يشعلونها على السفوح، عندما يتوقّفون للاستراحة، وتناول الطعام. بعضهم يقدمون لفترةٍ، ثمّ يؤوبون إلى أعمالهم، وأُسرهم، فيحل محلّهم غيرهم أوفر منهم عددًا.

بانتظار بلوغ هدفٍ ما، يسيرون، ويتحدّثون، ويعلّقون على ما يشاهدون ويسمعون، في جوٍّ من الفرح والألفة، ويضحكون ما تيسَّر لهم الضحك.

بعضهم يتقدّمه خطواتٍ، وآخرون يحيقون به، وبعضهم يتبعونه عن كَثَبٍ لكيلا يفوّت أحدٌ كلمةً من أقواله الإلهيّة. عادةً، يتولّى هو الحديث، ولكنّه، غالبًا ما يحرّضهم على طرح الأسئلة بأُلفةٍ وبساطةٍ. وهو، وسطهم، متلفّعٌ بكوفيّةٍ تقيه قيظ الشمس، مرتدٍ ثوبًا طويلاً يشدّ وسطه حزامٌ، ومنتعلٌ خفًّا، ويشعّ منه وقارٌ إلهيٌّ.

وكان يسوع يحبّ هذه الأُسرة الروحيّة، ويعدّ علاقته بها أمتن من علاقة القربى. فذات يوم، إذ كان يحيق به جمعٌ غفيرٌ، جاء من يقول له إنّ أُمّه وأقرباءه ينتظرونه خارجًا، فأشار إلى تلاميذه قائلاً: «**هؤلاء هم أُمّي وإخوتي**».

وشيئًا فشيئًا، ذاع صيت الرابّيّ الناصريّ، الشافي، في كلّ أرجاء الجليل، وباتت الجموع تحاصره. وعندما كان يعتكف ليصلّي، كان يهرع إليه تلاميذه قائلين: «الجموع بانتظارك»، فيسارع إليهم.

ولكن، عندما كان يؤوب القوم إلى بيوتهم، ويلوّن الشفَقُ الأُفقَ بمجموعةٍ من الألوان المتحرّكة، المتبدّلة، الأخّاذة، ويسجو الكون، وتسود موسيقى الأمواج، كان يطيب ليسوع أن يستلقي على الشاطئ، ومن حوله أصدقاؤه، فيستفيض في محادثتهم عن الملكوت، وعن أبيه.

تُرى، هل كان التلاميذ يدركون، في تلك اللحظات المسروقة من الخلود، أنّ القوّة العظمى التي أوجدت الكون، والتي تسوسه، كانت مستلقيةً في ما بينهم؟

مُعْـــجزَاتٌ

تعاليم يسوع ومقتضياتها من السموّ غير المألوف، والشدّة الصارمة، والجدّة المطلقة، والتحدّي لكلّ التقاليد الراسخة، بحيث كان لا بدّ من تدعيمها بإشاراتٍ حسّيّةٍ تحمل على تقبّلها، واعتناقها، والالتزام بها. وفي تلك الفترة من تبشيره في الجليل، أغدق يسوع معجزاته بسخاءٍ، كي تكون مصداقًا ودعمًا لتعليمه.

ولطالما أظهر الإنجيليّون يسوع صانع معجزاتٍ كلّيَّ القدرة، تتنازل الطبيعة، لدى سماع صوته، عن أكثر سننها ثباتًا، وأمامه ينهزم الموت، والمرض، والأرواح الشرّيرة. وفي كلّ ذلك يتميّز بفرادةٍ مطلقةٍ.

المعجزات هي طابع الله، وكتاب اعتماد يسوع. الإنجيل يدعوها أعمال قدرةٍ، لأنّها تقتضي قدرةً خارقةً، وتبرز سلطة صانعها المعجزة. ويدعوها آياتٍ، لأنّها تنهض دليلاً على رسالة المخلّص، وشهادةً عليها لا تُدحَض. بشفائه مشلولاً أثبت للفرّيسيّين أنّه يملك سلطة غفران الخطايا. ولتلاميذ يوحنّا الذين جاؤوه بُغية التأكّد هل هو المسيح حقًّا، أجاب: «**امضوا وقولوا ليوحنّا ما رأيتم وسمعتم: العميان يبصرون، والعرج يسيرون مستقيمين، والصمّ يسمعون، والبرص يطهرون، والموتى ينهضون، والفقراء يُبشَّرون بالإنجيل**».

كونُ يسوع كلمة الله المتجسّد هو، في ذاته، معجزة المعجزات، فلا بدع إن انسكبت من قلبه ويديه ألوف العجائب.

يسوع هو المعجزة، ولأنّه كذلك لا تنفكّ المعجزات تنبت تحت أقدامه، مؤكّدةً رأفته، وقدرته الفائقة، ومدعّمةً إيمان من يشهدونها.

سواءٌ أُجريت عن كثبٍ أو عن بعدٍ، تتّسم عجائب يسوع بقاسمٍ مشتركٍ، وهي أنّها لا تدع فسحةً للشكّ، ولا يقوى التلاميذ، ولا الغرباء اللامبالون، ولا الخصوم، على إنكار واقعها. وهي، في النفوس المستقيمة، تولّد الإيمان تلقائيًّا، ولدى

الفضوليّين تثير الدهشة، والذهول، وضربًا من الرعدة الدينيّة، وشعورًا غريزيًّا بأثر إصبع الله في ما يحدث. وهي، لدى الأعداء العنيدين المصمّمين على السير مغمضي العينين دون النور، توحي بالبغضاء والخشية. أمّا الكتبة والفرّيسيّون، فحيال عجزهم عن إنكارها، يعزونها إلى عمل إبليس، فيما هم، في قرارة نفوسهم، يرون فيها خطرًا على مصداقيّتهم ونفوذهم.

إنّ معجزةً واحدةً مثبتةً، وهادفةً إلى تأكيد رسالة صانعها، كافيةٌ للدلالة على مصداقيّته. ولكن كم تكتسب هذه المصداقيّة مزيدًا من دعمٍ عندما يملك المرسل الإلهيّ قدرةً فائقةً على استخدامها كلّما شاء!

معجزته الأولى، في مطلع حياته العلنيّة، هي معجزة قانا. وقد واكبت معجزاتٌ أُخرى تعليمَه، ففاضت حيث كان يضطرم الإيمان، وتناقصت عندما كان إيمان الجماهير يفتر ويخبو. وكانت خاتمة معجزاته الصيد العجيب الثاني، في أعقاب قيامته.

يسوع لم يصنع أيّة معجزةٍ من أجل ذاته، فلا هو حوّل الحجارة خبزًا، لإسكات جوعه، بعد صومه أربعين يومًا، ولا استنبط ماءً ليروي سغَبَه أمام بئر يعقوب في السامرة، ولا هو انحدر عن الصليب ردًّا على شماتة أعدائه، وتحدّي الشعب، كي يثبت ألوهته. ولكنّه كان يهبّ لإجراء أشفيةٍ معجزةٍ، بدافع الرأفة، والرحمة، والعطف.

غالبًا ما تأتي عجائب يسوع ثمرةً لحنانه، فهو، عطفًا على تلاميذه الذين اختارهم وأحبّهم، سكّن العاصفة، التي كادت تودي بهم، وما انفكّ يسكّن عواصف نفسيّةً أشدّ إثارةً للجزَع. وتعاطفًا مع عريسيْن كانا يواجهان الحرَج والفضيحة أمام مدعوّيهم، حوّل الماء خمرًا. وإشفاقًا على امرأةٍ فقدت سندها الوحيد، أنهض ابن أرملة «نعيم». ورأفةً ببشرٍ لم يقوَ على تحمّل آلامهم ومآسيهم، شفى العديد من الأسقام، وطرد الأرواح الشرّيرة.

رأفته جمّةٌ، شاملةٌ، دائمةٌ. فذلك الإله الذي تأنّس شقّت عليه أوجاع إخوته في البشريّة. وكانت معجزاته دليل إنسانيّة الله.

وبمعجزاته ابتغى يسوع أيضًا تدعيم الإيمان بألوهته وبرسالته الخلاصيّة. ولذلك

أعرب عن مرارةٍ حيال الذي شهدوا، بعيونهم، أعماله الإلهيّة، ولكنّ قلوبهم ظلّت موصدةً دون الإيمان به.

ولذلك، ربّما كانت أخطر معجزاته شأنًا تلك التي يحدثها في أغوار القلوب فيغيّرها، وفي أعماق النفوس فتولد على حياةٍ جديدةٍ. هذه المعجزات تُثبت أنّ لكلّ فردٍ قيمةً مطلقةً، وأنّ خلاص إنسانٍ هو إسهامٌ في خلاص البشريّة جمعاء.

وإلى ذلك فإنّ لمعجزات يسوع أبعادًا رمزيّةً، فهو، إثر شفائه أكمه، أي أعمى منذ مولده، أعلن: «**لقد جئتُ إلى هذا العالم كي يبصر فاقدو البصر**» (يوحنّا ٩ : ٣٩). وقد فتح آذان الصمّ كي يسمعوا الكلمة، ويتلقّوا الحقيقة؛ وشفى المقعدين كي ينهضوا وينطلقوا نحو الحياة، ويسعوا نحو الملكوت. وأطلق ألسنة الصمّ كي يشيدوا بمجد الله، ويبلّغوا رسالته، ويستطيعوا، هم الذين كانوا منبوذين، لا يؤبَهُ بشأنهم، أن يعبّروا عمّا يجول في نفوسهم.

وبمعجزاته قضى يسوع على مفهوم النجاسة الخارجيّة، وعلى الكثير من المحرّمات المصطنعة وأظهر أنّ المرض ليس، بالضرورة، عقاب خطيئةٍ شخصيّةٍ، وأنّ العلّة ليست، دائمًا، لعنةً من الله.

ولا جَرَم أنّ كبرى معجزات يسوع هي قيامته التي نهضت مصداقًا لكلّ ما قال وفعل، وأثبتت أنّه هو الحياة.

حيال المعجزات، يقف البشر موقفَيْن متباينَيْن: فمنهم مَن قلوبهم وأَذهانهم منفتحةٌ على رسائل السماء، ولا يستغربون تدخّل خالق الكون، في سبيل خليقته، لإصلاح خلَلٍ، أو لترسيخ إيمانٍ، و لايستهجنون مخالفته، استثنائيًّا، السنن التي رسمها للطبيعة. غير أنّ آخرين نصّبوا من العلم إلهًا، وحصنًا لا يُقتَحَم، مع إحاطتهم بضيق حدوده، وبعجزه عن تفسير أمورٍ كثيرةٍ، فباتوا يرفضون، مبدئيًّا، كلّ ما يخالف السُّنَنَ الطبيعيّة، ولا يتوانون عن تكذيب الوقائع التي يشهدونها بعيونهم، ويسمعونها بآذانهم، ويجسّونها بأيديهم، وبكلّ حواسّهم، إن لم يعثروا لها على تفسيرٍ «علميّ». ولو امتلكوا ذرّةً من صدقٍ تجاه ذواتهم، وتجاه العلم الصحيح، لحذوا حذو الطبيب الفرنسيّ، «ألكسي كاريل»، الحائز على جائزة نوبل في الطبّ، والذي، هو، أيضًا، باسم العلم، كان يرفض التسليم بالمعجزات. ولكي يثبت ذلك، رافق قافلة مرضى

إلى مدينة لورد الفرنسيّة، فتحقّقت معجزةٌ فائقةٌ، تحت سمعه وبصره، وبين يديه. فلم يخشَ تغيير موقفه، بما يتوافق مع استقامة الوجدان، والأمانة للعلم الحقّ، وسلّم بأنّ ثمَّة قوّةً أعلى من العقل والعلم، وبأنّ الخالق لم ينأَ عن خليقته، وبأنّ الحياة تستأهل أن تُحيا، أيضًا، وفقًا لإلهام الروح.

ومن مخازي عصرنا أنّ بعض مفكّريه رأوا في المعجزات التي أجراها يسوع في زمانه، والتي ما برح يجريها، في شتّى بقاع العالم، في كلّ حقبةٍ، إهانةً لعقولهم النيّرة، فجهدوا في تفسيرها تفسيرًا «علميًّا». فجاءت تفسيراتهم، بسخافتها، وبهلوانيّاتها، مبعث سخريّةٍ ورثاءٍ، وإهانةً للعقل، وامتهانًا لكلّ سامٍ قدسيٍّ.

معجزات يسوع حدَثٌ فريدٌ في تاريخ البشريّة، وهي الدليل القاطع على اتّحاده الوثيق بالآب، وعلى دوره الإلهيّ بين البشر، وتأكيدٌ لرفعته وألوهته.

من استقراء الإنجيل يتّضح أنّ معجزات يسوع أكثر من أن يحيط بها حصرٌ. ولكنّ الإنجيليّين اقتصروا على تفصيل بضع عشراتٍ منها: نحو ستّة عشر شفاءَ أمراضٍ متنوّعةٍ، وثمانية اختراقاتٍ لسُنن الطبيعة، وستّ حالات طرد أرواحٍ شرّيرةٍ، وثلاث حالات إنهاض موتى، هذا عدا المعجزات المتعلّقة بشخص يسوع كتجلّيه، وقيامته، وظهوراته الخارقة بعد قيامته.

وقد ذكرنا، آنفًا، بعضًا من معجزاته، وسيوشّي الكثير منها سردنا لسيرته على امتداد الصفحات التالية.

شِفـَــاءُ أبْــرَص(*)

كان البَرَص يُعدّ دليلاً على غضب الله وعقابه، وكان البُرْص رمزًا للنجاسة. فالأبرص يشهد بعينيه، وهو حيٌّ، ما تتعرَّض لـه الجثّة من تفسّخٍ في اللحد. وكانت شريعة موسى قد فرضت عليه فرائض مفرطةً في المهانة والقسوة، إذ كان يُنبذ ويُطرد خارج المجتمع، ويُكره على ارتداء أسمالٍ خَلِقةٍ، وإن كان ميسورًا. وإذا ما دنا من مكانٍ مأهولٍ كان عليه أن يَحجُب فمه بحاشية ثوبه، ويصيح: نجسٌ، نجسٌ. نجاسته كانت في مثل نجاسة الجثّة.

غير أنّ أحد أولئك المساكين المنفّري المنظر، قد تجرّأ فاقتحم زحمة الناس، مزريًا بأوامر الشريعة، إذ كانت قد ترامت إليه أنباء معجزات يسوع، فراوده الأمل بأن ينعم بشيءٍ منها. وقد روى الإنجيليّ مرقس ما حدث بعباراتٍ مقتضبةٍ تنبض حيويّةً. فقال: «**وتقدّم إليه أبرصُ، وتضرّع وجثا، وقال لـه: «إن شئت فأنت قادرٌ أن تطهّرني». فأشفق عليه ومدّ يده ولَمَسَه، وقال لـه: «لقد شئتُ، فاطهُرْ». وللوقت ذهب عنه البرَص وطهُر. فصرفه يسوع من ساعته وانتهره قائلاً: «انظُرْ لا تقل لأحدٍ شيئًا، بل امضِ أرِ الكاهنَ نفسَك، وقرّب عن تطهيرك ما أمر به موسى شهادةً لهم». وأمّا هو فما إن خرج حتّى جعل ينادي ويذيعُ الخبر بحيث أصبح يسوعُ لا يستطيع دخول مدينةٍ علانيةً. فكان يقيم خارجًا، في أماكن مُقْفرة، وكانوا يأتون إليه من كلّ مكان**» (مرقس ١ : ٤٠ – ٤٥).

الأبرص خرق أوامر الشريعة التي كانت تحظر عليه الدنوّ من الأصحّاء، بدافعٍ رغبته المضطرمة في الشفاء. ويسوع خرق الشريعة التي ترى في لمس الأبرص نجاسةً قصوى، لأنّه لا يدين إلاّ بشريعة المحبّة، ويُرجّح المحبّة على الشريعة. «وعندما تقترن المحبّة بالقدرة، فهي تزري بالشريعة».

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «اللمسة المجنونة»، صفحة ١١٩.

العلّة كانت ماثلةً محقّقةً، والشفاء كان كاملاً، فوريًّا. فضلاً عن أنّ شفاء البَرَص كان، سابقًا، من امتياز الأنبياء، فموسى شفى، من تلك العلّة، أخته مريم، وإليشع شفى منها نعمان السوريّ.

لقد أثبت يسوع، مرّةً أُخرى، أنّ ما من بَرَصٍ لا يشفيه حبّه، وما من نجاسةٍ لا يطهّرها.

غير أنّ يسوع حذّر الأبرص الذي شفاه من إذاعة نبأ شفائه، جريًا على نهجه في مطلع رسالته، إذ كان يأمر من يشفيهم بألاّ يشيعوا الأمر، ليقينه بأنّ معجزاته ستوغر عليه صدور زعماء اليهود، وستدفعهم إلى إزالته. وهو لم يكن، بعدُ، راغبًا في استعجال هذه النهاية، ريثما يتسنّى له نشر تعاليمه، ونثر بذور رسالته.

في تلك الفترة كان يسوع يبشّر بالملكوت، ممتنعًا عن إعلان كونه مؤسّسه. وكان يعمل أعمال المسيح، محجمًا عن إعلان نفسه المسيح، لأنّ مفهوم المسيح، عند اليهود، كان ما برح مصطبغًا بصبغةٍ قوميّةٍ، سياسيّةٍ، يأباها. وكان يؤثر أن يُسفر تدريجيًّا عن هويّته كي يُعِدّ أذهان تلاميذه، والمؤمنين به، للإيمان بأنّه «رجل الآلام»، المسيح الذي سيُهان، ويُعذَّب، ويُصلب، من أجل خلاص العالم، ثمّ يقوم من الموت كي يهب المؤمنين به حياةً لا يعقبها موتٌ.

غير أنّ فرح الأبرص الذي نال الشفاء كان من الشدّة بحيث انطلق يذيع، في كلّ مكانٍ، ما أنعم به عليه الربّ.

ربّما خُيّل لذلك الأبرص أنّ تواضع يسوع هو الذي أملى عليه أمره بكتمان شفائه المعجز. ولكنّه كان موقنًا بأنّ ذلك الأمر لا يعفيه من إعلان عرفانه بجميل من شفاه. ولعلّه أدرك أنّ عليه التزام صمْتٍ مؤقّتٍ، ريثما يعلن الكهنة طهره، ويعود إلى حضن المجتمع. ولكنّ حملة الدعاوة التي شنّها حرمت يسوع الراحة، إذ حاصره المبتلون بعِلَلٍ، من كلّ صوبٍ، فاضطرّ إلى التواري وانتحاء أماكن منعزلةٍ. بيد أنّ أصحاب الحاجات كانوا يفلحون دائمًا في العثور عليه.

وفي تلك المرحلة من تبشيره التفّت حول يسوع ثلاث فئاتٍ: التلاميذ، والجموع، والطبقة القائدة من شيوخٍ، وعلماء شريعةٍ. التلاميذ يلازمون المعلّم، ويقاسمونه حياته، ويتملّون من تعاليمه وفضائله. إنّهم التربة المختارة التي يحرثها ويخصبها. يسوع

يحبّهم، ويخصّهم بإيثاره، ويكلّمهم بصراحةٍ، ويطلعهم، بتؤدةٍ، على أهدافه ومصيره، وينفذ بروحه إلى أعماقهم، ويجعلهم خاصّته.

الجموع تلقائيّةٌ، متلقّيةٌ، لا تقاوم الجدّة والقدرة، والإحسانات الملموسة. من هذه الفئة اختار يسوع تلاميذه، ففيها تكثر القلوب البسيطة، والنفوس المستقيمة. وكان شعب الجليل هو الأكثر استقلالاً عن السلطات الدينيّة القائمة، والأكثر جاهزيّةً لتقبّل أعمال يسوع وأقواله التي تثير ريبة تلك السلطات. ومن ثمّ كان يوحي ليسوع، من الثقة والارتياح، أكثر ممّا يوحي شعب أورشليم الأكثر انقيادًا لرؤسائه الدينيّين. منذ الوهلة الأولى أحبّ يسوع هذا الشعب، واندفع نحوه، ورحّب به، وتحنّن على بؤسه، وغمره بإحساناته. كلّمه بأمثالٍ مداريًا عجزه عن فهم الحقيقة الإلهيّة العارية، وواقيًا قدسيّة تعليمه من تشويه الجهل الشعبيّ. كان يجتذبه، في إثره، إلى المجامع، وعبر الحقول، وعلى ضفاف البحيرة، وحتّى الهضاب المنعزلة. وقلّما شوهد مثل هذا الجَيَشان حول نبيٍّ، فلكأنّه فعل جاذبٍ إلهيٍّ.

وعندما يحرّك إنسانٌ بلادًا بكاملها، على هذا النحو، وينفذ إلى قلب أهلها، سرعان ما تتصدّى له المقاومة. وقد واجهها يسوع في الجليل وفي أورشليم، وكانت قائدتَها الطبقةُ العليا، حارسة التقاليد، ومالكة السلطة، وممثّلة التعاليم الشائعة. وقد ارتدت تلك المقاومة وجوهًا شتّى: التحدّي الماكر، والمداهنة، والترهيب. كانت، أبدًا، متربّصةً، كي تباغت وتنقضّ، وتحاصر من تبتغي إهلاكه. وكلّما هو اكتسب عظمةً، ازدادت شراسةً. كانت ماهرةً في استثارة الأهواء، بارعةً في ضروب الرياء والشحناء، لا تتقاعس عن أيّ إيذاءٍ. ولم تكفّ عن مطاردة يسوع حتّى شهدته يلفظ أنفاسه على الصليب.

ولا بدعَ في ذلك، فكلّ من يأتي بفكرةٍ أو بصيغةٍ، أو بقوّةٍ جديدةٍ، يستعدي الأفكار والصِّيَغ والقوى العتيقة. فالإنسان الذي وُلد كي يتقدّم باطّراد، غالبًا ما يقاوم التقدّم. ويسوع المجدِّد الإلهيُّ كان أقدس ضحايا التجديد. وصفحات الإنجيل تزخر بصدامات يسوع مع الفرّيسيّين، أرباب الجمود، صداماتٍ تتّسم، حينًا، بالحيطة والتحفّظ، وحينًا بالصلابة والقوّة، وتنطق غالبًا بالحزن والاستنكار، فيسوع دائبٌ على دحض أقوالهم، وفضح سلوكهم، وإنذارهم بأوخم مصيرٍ.

شِفَاءُ مُخَلَّعٍ دُلِّيَ مِنَ السَّقْفِ(*)

ما كاد يسوع يعود إلى كفرناحوم، تحت جنح الليل، حتّى شاع نبأ عودته، وتهافت عليه الشعب. فغيابه عنهم لم يُخمِد اندفاعهم، بل زاده ضرامًا، وسرعان ما اكتظّ البيت الذي حلّ فيه، وفناؤه، والأزقّة المحيطة به، بالقادمين لرؤيته. وقد انضمّ إليهم نفرٌ من علماء الشريعة غاظهم تعاظم سمعته وشعبيّته، فتقاطروا من الجليل، ومن اليهوديّة، ومن أورشليم، لا رغبةً في التثقّف بأقواله، بل ابتغاءَ التربّص به، وإدانته. وحدَث، بغتةً، ما فجّر قدراته الإلهيّة.

البيت مشرع الأبواب، والقوم يلجونه بلا استئذانٍ، متى شاؤوا. وقد شهدنا أمثلةً على هذا الاقتحام في بيوتٍ كرّمها الله بحضوره. الحشود سدّت باب البيت، والطرق المؤدّية إليه. وفي تلك الأثناء، وافى أربعة رجالٍ يحملون رجلاً مشلولاً مستلقيًا على فراشه الذي حمله كلٌّ منهم من أحد أطرافه. كانوا موطّني العزم على مقابلة المعلّم، والظفر بشفاء المخلّع، بأيّ ثمنٍ. ولكنّهم لم يجدوا إلى ولوج البيت سبيلاً، وكاد الوقت يدهمهم، إذ سرعان ما سيفرغ يسوع من خطابه، وينتحي مكانًا منعزلاً، بحيث يتعذّر الوصول إليه.

ودلّتهم الحاجة إلى حيلةٍ طريفةٍ وجريئةٍ، فالبيت الذي كان يقيم فيه المعلّم يشبه بيوت قرانا القديمة المؤلّفة من طبقةٍ واحدةٍ لها سطحٌ مستوٍ، سقفه مكوّن من عمدٍ خشبيّةٍ بدائيّةٍ، متباعدةٍ، أُفقيًّا، تسند ألواحًا خشبيّة رقيقة، وتعلوها طبقة معتدلة السماكة من طينٍ وقشّ، تُحدَل في مطلع الشتاء، وفي أثنائه، كي تتماسك، وتمنع تسرّب ماء المطر إلى داخل البيت. ولم يكن من العسير نقب طبقة الطين هذه، وتدلية الرجل المشلول من خلال فرجات العُمد الخشبيّة. وهذا ما فعله، بلا تردّدٍ، الرجال الأربعة الذين دلّوا عليلهم ملفوفًا بفراشه، ومربوطًا بحبالٍ إلى أن انتهوا به

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «احتراق السقف»، صفحة ١٢١.

عند أقدام يسوع، غير مبالين بتساقط حطام السطح والسقف على الحضور، وباعتراض صاحب البيت.

توقّف يسوع عن الخطابة، مبديًا إعجابه بإيمان الرجل وحامليه المفعم ثقةً وجرأةً. وكان تأثّره بالغًا بذلك الإيمان المصمّم الذي يُطيح بكلّ عائقٍ، ولا يحدّ اندفاعَه حاجزٌ.

كان الفرّيسيّون الحاضرون يراقبون، بدقّةٍ، شفاه صانع المعجزات ويديه. ولكنّهم لم يتوقّعوا، قطّ، غرابة العبارات التي تلفّظ بها، ولا سيّما أنّها بدت على غير علاقةٍ بالعليل الملقى أمامه، والذي قال له: «**طبْ نفسًا، يا بنيّ، فخطاياك مغفورةٌ**». لقد توقّعوا منه كلّ شيءٍ إلاّ تلك الجريمة التي لا يسع يهوديًّا تصوّرها: أن يعدّ الإنسان ذاته إلهًا.

كثيراتٌ هي النفوس التي، في مواجهة يسوع، تكتشف حقيقتها، وتسبر مدى تلوّثها، وتنال نعمة وضوح الرؤية. هذا ما يفسّر صيحة بطرس: «**ابعد عنّي، يا ربّ، فإنّي خاطئ**». وربّما كانت الصلاة الصامتة الأولى التي قالها المخلّع، في نفسه: «اغفر لي، يا ربّ»، قبل أن يلتمس البرء من علّته، فاستحقّ جوابًا لم تتلفّظ، قطّ، بمثله، من قبلُ، شفاهٌ بشريّةٌ: «**مغفورةٌ لك خطاياك**». كلّ الخطايا التي تحفل بها حياة إنسانٍ، أكبرها وأصغرها، حتّى المخزية منها، التي لا يجسر المرء على البوحِ بها لأحد، أو التي يأبى إطالة التفكير بها، كلّ هذه الخطايا، محاها يسوع دفعةً واحدةً، من غير أن يُكرِه المخلّع على اجترار خزيها. لقد أولى الربّ شفاء نفس المخلّع أولويّةً على شفاء جسده.

وفي الحال، أدرك الفرّيسيّون مغزى ذلك القول الذي يتحدّى كلّ تصوُّرٍ، وتبادلوا نظرات التفاهم، واستخلصوا نيّة يسوع في إعلان نفسه إلهًا. فمن يستطيع أن يغفر الخطايا سوى اللّه؟

وقد فاتهم أنّ ذاك الواقف أمامهم هو اللّه، حقًّا، وهو يملك غفران الخطايا، وفاتهم، أيضًا، أنّه يقرأ خفايا القلوب والأفكار.

كتم علماء الشريعة غيظهم واستنكارهم، خوفًا من الشعب. ولكنّ يسوع الذي اخترق مظانّ قلوبهم، فضح ما كان يعتمل في دخائلهم، فقال لهم متحدّيًا: «**لماذا**

هذه الأفكار تجول في صدوركم؟ ما الأيسر أن يقال للمخلّع: مغفورةٌ خطاياك، أم أن يُقال: قمْ احمل فراشك وامشِ؟ فلكي تعلموا، إذن، أنّ لابن البشر سلطانًا على الأرض أن يغفر الخطايا، قال للمخلّع: لك أقول: قمْ واحمل فراشك، وامضِ إلى بيتك». فقام، وحمل للوقت فراشه وخرج أمام الجميع، حتّى ذُهلوا كلّهم ومجّدوا الله قائلين: «ما رأينا، قطّ، مثل هذا!».

الفراش الذي طالما كان دليل علّةٍ، أضحى، بغتةً، برهان شفاءٍ معجزٍ!

بشفائه المخلّع، بكلمةٍ منه، أثبت يسوع للجميع أنّ ألوهته ليست ادّعاءً، وأنّه يملك، حقًّا، سلطان غفران الخطايا، فشفاء الشلَل وغفران الخطايا يستلزمان، كلاهما، قدرةً إلهيّةً. ولكنّ الشفاء أمرٌ مرئيٌّ يمكن التثبّت منه، وهو كفيلٌ بإثبات القدرة على غفران الخطايا. من خلال تلك المعجزة أثبت «ابن البشر» أنّه يمتلك قدرات «ابن الله».

كان من السهل اتّهام يسوع بالدجل عندما غفر الخطايا، ولكن لم يكن ممكنًا إنكار شفاء علّةٍ مزمنةٍ، شفاءً فوريًّا كاملاً، ولا التشكيك في حقيقته.

الشعب البسيط مجّد الله، أمّا أدعياء العلم، أعداء النور، فازدادوا غيظًا وحقدًا.

وفيما كان المخلّع يمضي على قدميه، معافًى، وسط أهازيج الجمع، كان الفرّيسيّون يستغلّون الصخب والهرج السائدين كي ينسلّوا على أطراف أقدامهم.

* *

ومنذ ذلك اليوم بات يحقّ للإنسان ألاّ يستسلم لمرضٍ، أو لعاهةٍ، أو لظلمٍ، بل سيكون موطن اضطهاده هو موطن كفاحه، وسيكون كفاحه هو كفاح الله.

صِدامات بين ممثّل الرّوح وممثّلي الشّريعة

حنقُ علماء الشريعة على يسوع حملهم على التربّص به، وعلى مراقبة كلّ خطوةٍ من خطواته، للإيقاع به.

واتّفق أنّ يسوع وتلاميذه مرّوا بحقلٍ كان القمح فيه قد شارف النضج. وانتاب بعضَهم الجوعُ، فطفقوا يقتطفون سنابل، ويفركونها في راحة يدهم، وينفخون على قشورها فتتطاير، ويلتهمون حبّها الطريّ اللذيذ. فعندما كان يسوع يفتقر إلى طعامٍ، هو وتلاميذه، كان يتذوّق متعةً كبرى في التشبّه بالعصافير التي تنقر حبوب القمح، وترنو إلى السماء، مزقزقةً فرحًا وشكرًا. لم يكن عليهم، في ذلك غضاضةٌ، ولم يكن عملهم يُعدّ سرقةً، فقد حلّلته الشريعة بصراحةٍ. ولكنّ ذلك اليوم كان سبتًا، وهنا كانت تثوي المشكلة. فالذين حرَّموا تناول ثمرةٍ هوت من شجرةٍ، أو بيضةٍ أنزلتها دجاجةٌ، يوم سبتٍ، ما كانوا لينظروا بعين الرضى إلى فرك سنابل، لسدّ الجوع، في يوم سبت. فقد كان ذلك، في نظرهم، بمثابة حصادٍ!

وعاتب الفرّيسيّون يسوع قائلين: «**انظر! لماذا يفعل تلاميذك، في السبت، ما لا يحلّ؟**» فأجابهم بحجّةٍ مستقاةٍ من تاريخهم وكتبهم، مثبتًا أنّ الشريعة ليست مطلقًا لا يحتمل استثناءً، وقال: «**أما قرأتم، قطّ، ما فعل داود، حين أخذه العَوَز، وجاع هو والذين معه، كيف دخل بيت الله... وأكل خبز التقدمة الذي لا يحلّ أكله إلاّ للكهنة، وأعطى منه، أيضًا، للّذين معه؟**».

ولكأنّي بيسوع يقول لهم إنّ داود نفسه كان يجيد التمييز بين العَرَضيّ والجوهريّ، وما كان يخشى تخطّي بعض الوصايا غير الجوهريّة، من أجل سلامة الإنسان.

في نظر الفرّيسيّين، داود ينتسب إلى ماضٍ غابرٍ، أمّا الشريعة الحقّة فهي التي أَبتدعتها الفرّيسيّة.

وأدلى يسوع بحجّةٍ ثانيةٍ: فالكهنة يعملون يوم السبت أكثر من أيّ يومٍ آخر. وفي

ذلك الدليل على أنّ السبت ليس أمرًا مقدّسًا في ذاته، بل إنّ، ثمّة، استثناءاتٍ تبيح مخالفة وصيّته. وإن كان العمل أُبيح للكهنة، يوم السبت، فهو، الأعظم من الهيكل، لأنّه المسيح، يستطيع أن يبرّر لتلاميذه مخالفة السبت.

وأخيرًا أخذ عليهم يسوع عجزهم عن فهم مقاصد الله الحقّة، فقال: «**لو كنتم فهمتم ما معنى أريد الرحمة لا الذبيحة، لما حكمتم على من لا ذنب لهم؛ لأنّ ابن البشر هو ربّ السبت، أيضًا**». وبذلك أفهمهم أنّ قلوبهم قد خوت من الرحمة، فباتوا يسارعون إلى إصدار الأحكام القاسية جزافًا، غير ملتمسين للآخرين عذرًا، مثلما عجزوا عن فهم أنّ يسوع هو ربّ الشريعة، وبالتالي ربّ السبت، أيضًا.

وقد أَلِف يسوع التحليق من حدَثٍ عابرٍ إلى مبدإٍ أبديٍّ يظلّ للأجيال نبراس هدايةٍ، فأعلن بجلالٍ: «**إنّ السبت جُعل للإنسان، لا الإنسان للسبت**». ثمّ أكّد سموّه فوق كلّ الشرائع: «**وابن البشر هو ربّ السبت، أيضًا**».

فشريعة السبت لم توضع لمجرّد فرض عبءٍ ثقيلٍ على كاهل الإنسان، بل لكي توفّر له يوم راحةٍ واستجمامٍ، وانقطاعٍ لعبادة الله. وهذه الفريضة لا تُنتَهك إلاّ إذا خالفت مقصد الله هذا. أمّا علماء الشريعة فجعلوا من هذه الفريضة مطلقًا، وحاكوا حولها تفسيراتٍ نأت بها بعيدًا عن غايتها الأصليّة. وتجرّأ يسوع فأعادها إلى مكانها الصحيح: السبت لصالح الإنسان، لا الإنسان لخدمة السبت. وابن الإنسان الذي جاء ليحرّر ويخلّص، ويُعيد لوصايا الله معناها الأصيل هو «**ربّ السبت، أيضًا**» يستخدمه بحرّيّةٍ، في سبيل كلّ ما يخدم الإنسان، ويحطّم، بلا تردّدٍ، قيوده التي تُقعِد عن عمل الخير، وترهق الإنسان، وتستعبده.

وقد أثبت هذا القول بالفعل، في يوم سبتٍ آخر، عندما وافى المجمعَ، حيث سبقه رجلٌ متيبّس اليد، وقد جاء آملاً الظفر بالبرء من علّته. وتذكر أناجيل منحولةٌ أنّ ذلك الرجل كان بنّاءً، وأنّ تلك العاهة أودت به إلى البطالة والفاقة. وتقاطر خصوم يسوع، ليروا هل يخرق فريضة السبت، ويشفي العليل، فيمسكون عليه مأخذًا خطيرًا.

وقال يسوع للرجل: «**قمْ إلى الوسط**»، كي يُضفي على فعله ألقًا، ويفضح، علنًا، على الملأ، رياء الكتبة والفرّيسيّين. ثمّ استجوب خصومه: «**أَسألكم هل يحلّ**

في السبت فعل الخير؟ أم من الأَوْلى فعل الشرّ؟ وهل يحلّ أن تُخلَّص نفس؟ أم من الأَوْلى أن تُهلَك؟» فلزموا الصمت. فأجال فيهم نظراتٍ تقطر غمًّا، لغلاظة قلوبهم. ثمّ قال للرجل: «**مدّ يدك**»، **فمدّها، فعادت يده صحيحةً**».

لقد تحدّى يسوع خُصومه، وأخزاهم، وأدهشهم بشفاءٍ لم يَقُم، فيه، بلمسةٍ أو بحركةٍ، مكتفيًا بكلمةٍ، بأمرٍ.

وكان من شأن هذا الشفاء فتح عيونهم على الحقيقة، والتعليم الجديد، ولكنّه زادهم عمًى «**فخرجوا في الحال وائتمروا مع الهيرودسيّين ليهلكوه**». ولكنّهم لم يجسروا على إيذائه في الجليل حيث كان قد أغدق إِحساناته وأشفيته، وسحر القوم بأقواله، وحيث كان الشعب أقلّ خضوعًا لنفوذ الرابّيّين، فضلاً عن أنّ سلطة السنهدرين، في الجليل، كانت ضئيلةً.

كانت الهوّة ماضيةً اتّساعًا بين حرفيّة الشريعة، وجدّة تعليم يسوع، وكان قرار قتله يتأكّد يومًا فيومًا. وأثبت علماء الشريعة أنّهم أسرى تقاليدهم البالية، وأحكامهم المسبّقة المتحجّرة، وأنّهم غير مؤهّلين لاستيعاب تعليم يسوع الجديد.

وضاق يسوع ذرعًا بعمى قلوبهم، فنأى عن تلك الأجواء المتجهّمة، ولحق به جمعٌ غفيرٌ وافى من كلّ حدبٍ وصوبٍ. وكان يشفي مرضاهم، ويبلسم جراحهم، بمنأًى عن الجلبة والضجيج.

أمّا الجرح الذي أشرعه في نفوس خصومه، فلن يشفيه، سوى رؤيتهم له معلّقًا على الصليب.

شِفَاءُ غُلامِ قَائِدِ مِئَةٍ رُومَانِيٍّ

قائدٌ وثنيٌّ، ولكنّه ناصع السريرة، نبيل القلب، بدليل تعاطفه مع اليهود الذين بنى لهم مجمعًا، بماله الخاصّ، في كفرناحوم، وبدليل قلقه الشديد على عبدٍ له كان عزيزًا عنده، ابتُلي بعلّة أفضت به إلى عتبات الموت. وتلك، لعمري، حالةٌ نادرةٌ، فلطالما شهدنا القادة يعاملون بجفاءٍ وتعالٍ خدّامهم، ونادرًا ما رأيناهم يحدبون عليهم. وفي حين كان حكماء اليهود يوصون ببيع الخادم المريض، عطف ذلك القائد على خادمه، وتوجّع لمرضه. وطار فكر القائد إلى صانع المعجزات يسوع، ولكنّ إرهاف إحساسه منعه من المثول، بذاته، بين يدَي المعلّم، لأنّه تخيّله على غرار الرابّيّين المتشدّدين الذين يرون في أيّ اتّصالٍ بوثنيٍّ مصدرَ نجاسةٍ. فانتدب لهذه المهمّة وفدًا من وجهاء كفرناحوم اليهود، اضطلعوا بالمهمّة بأمانةٍ، وألحّوا في التماسهم من الربّ تلبية طلب القائد، مُشيدين بأياديه البيضاء على مدينتهم، ومؤكّدين استئهاله تلبية ما جاؤوا فيه.

استجاب يسوع لطلبهم، بلا تلكّؤٍ ولا اعتراض، ويمّم، معهم، شطر بيت القائد، الذي لحظه قادمًا، وسط الموكب، فتولاّه شعور تجلّةٍ مشوبةٍ بالرهبة، وأبى أن يسبّب له حرجًا حيال أبناء دينه، بدخوله بيتًا وثنيًّا، فأنفذ لـه وفدًا آخر يبلّغه قوله: «**يا سيّدي، لا تعنِّ نفسك فوق ما كلّفتها، فأنا لا أستحقّ أن تدخلٍ بيتي، ولذلك لم آتِ إليك بنفسي لألتمس عونك ونعمتك. ولكن قل كلمةً فيبرأ غلامي. أنت السيّد فما عليك إلاّ أن تأمر. فأنا الإنسان المولّى سلطةً دنيا أقول لأحد مرؤوسيّ: «امضِ»، فيمضي، ولآخر: «تعالَ» فيسارع إلى المجيء، وأقول له: «افعل» «فيفعل»**».

لم يشأ القائد أن يشخص يسوعُ إلى بيته، لا لأنّ إيمانه بالربّ اهتزّ، بل لأنّ إيمانه كان بلا حدودٍ، ولأنّه كان موقنًا أنّ بوسع الربّ الإبراء عن بعدٍ، بمجرّد كلمةٍ منه، وبمجرّد إرادته.

يقول الإنجيل إنّ يسوع أُعجب جدًّا بإيمان قائد المئة. إلهٌ يعجب بإيمان وثنيٍّ، أمام حشدٍ من اليهود الذين يدّعون احتكار الإيمان! أخيرًا عثر يسوع على إنسانٍ يتكلّم

لغةً هو كَلِفٌ بها، واستشفّ فيه طليعة القادمين من المشارق والمغارب للانضمام إلى الملكوت.

أيّ تواضعٍ في قول قائدٍ: «**إنّي لست أهلاً، يا سيّدي، لأن تدخل تحت سقفي**»، وأيّ إيمانٍ في قوله الواثق: «**قل كلمةً فقط فيبرأ فتاي**»! ولا عجب إن تبنّت الكنيسة هذا القول، ولقّنته لكلّ متقدّمٍ من المائدة المقدّسة، فبات يُكرَّر آلاف المرّات كلّ يومٍ، في شتّى أصقاع المسكونة. وقد كان لهذا القول وقعٌ بليغٌ على نفس يسوع الذي ترك إعجابه العارم يتفجّر من خلال إعلانه: «**الحقّ أقول لكم إنّي لم أجد لأحدٍ مثل هذا الإيمان حتّى في إسرائيل**». مثل هذا الإيمان كان قد أوحى ليسوع هذه النبوءة: «**وإنّي أقول لكم إنّ كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب، ويتّكئون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت السماوات، وأمّا بنو الملكوت فيُلقَون في الظلمة الخارجيّة. هناك يكون البكاء وصريف الأسنان**» (متّى ٨: ١٠–١٢). فكثيرون من اليهود، بخطيئتهم، وغلاظة قلوبهم، وعمى بصيرتهم، وإيثارهم الظلمة على النور، أقصوا ذواتهم عن مأدبة الملكوت.

القائد الرومانيّ أولى يسوعَ رجاءً مجنونًا، وتوقّع منه الشفاء، والحياة والمستقبل، ولذلك استعظم الربّ إيمانه.

ولا ريب أنّ فكر يسوع الذي كان يغوص في طوايا المستقبل، توسّم من خلال ذلك القائد، العالمَ الوثنيّ الواسع الذي سيرحّب بمن سينبذه بنو قومه ودينه، وسيصلبونه.

مرَّةً أُخرى أثبت يسوع أنّ ما له أبلغ الوقع في نفسه ليس فضيلةً مدهشةً، ولا هو زهدٌ خارقٌ، ولا هو علمٌ لاهوتيٌّ رفيعٌ، بل الاستسلام الواثق، والامّحاء الذي ينمّ عن صفاءٍ روحيٍّ هو نعمة النعم. إنّه تواضعٌ لا يُكتسب بالإرادة، فالتواضع الكامل يجهل نفسه. أمّا قرع الصدر فحركةٌ لا تكلّف شيئًا، فالفرّيسيّ، أيضًا، قرع صدره شاكرًا الله، لأنّه يتميّز عن الآخرين الخطأة.

«**ورجع الموفدون إلى البيت فوجدوا الغلام قد تعافى**».

* *

عدّ قائد المئة ذاته غير جديرٍ بدخول يسوع إلى بيته، فعدّه يسوع جديرًا بأن يدخل هو إلى قلبه.

إقَامَةُ ابْنِ أرْمَـلَةِ "نعـيم"

كان يسوع يطوف أرياف الجليل، يواكبه تلاميذه وحشدٌ من الحريصين على ألاّ يفوّتوا كلمةً من أقواله، فاستأهلوا أن يكونوا شهودًا على حدَثٍ جَلَلٍ نادرٍ. وعند مشارف قرية «نعيم»، أو «نائين»، التي تبعد نحو خمسين كيلومترًا عن كفرناحوم، ونحو عشرة كيلومتراتٍ عن الناصرة، مزّقت الجوّ صيحاتٌ حادّةٌ، وأصداء نحيبٍ يقطّع نياط القلوب. وإذ بموكبٍ جنائزيٍّ يقود إلى مقرّه الأخير شابًّا وحيدًا لأمّه، يحمله، في نعشٍ مكشوفٍ، أربعة رجالٍ، يتوقّفون بين فينةٍ وأُخرى، ويحلّ محلّهم أربعةٌ آخرون، وفي كلّ مرحلةٍ يتجدّد النحيب والصياح. وفاة شابٍّ في زهرة العمر، وحيد أرملةٍ، أدمت قلوب جميع أهالي «نعيم»، فسارت، خلف النعش، القريةُ كلّها، كبارها وصغارها، رجالها ونساؤها، وقد أخذ بجميعهم التأثّر بفاجعة الأمّ التي، بعد أن فقدت زوجها، فُجِعت بابنها الوحيد، ولم يبقَ لها، في الوجود، أنيسٌ، ولا سندٌ ولا رجاءٌ، ولا فرحٌ، بل أضحت نموذجًا للألم والمأساة. ورقّ قلب يسوع لها، فدنا منها، وبادرها بالقول: «**لا تبكي**» يا أمّاه. ربّما سمعت مثل هذا القول من آخرين، لم يكن لقولهم أيّ أثرٍ. ولو كان قول يسوع مجرّد مجاملةٍ، لكان عديم الجدوى، ونافلاً، وسمجًا. ولكنّ يسوع لا يجامل، ولا يقول إلاّ ما يعنيه. فهو نبع كلّ فرحٍ حقٍّ، وكلّ عزاءٍ، ويعرف كيف يقضي على أوجع الأحزان. وقد أسال قوله في قلب الأمّ الجريح بلسم عزاءٍ، ونورٍ ورجاءٍ، فيسوع وحده كان يملك قدرة تجفيف دموعها. ثمّ شقّ الربّ الجمع، وضرب النعش بيده، فتوقّف حاملوه، وكما كان يحدث لدى كلّ توقّفٍ، تفجّرت عاصفة نحيبٍ جديدةٌ. غير أنّ يسوع أَخرَسَ النّدّابات، ووسط الوجوم السائد، خاطب الفتى المسجّى، الذي شحُب وجهه، وضُمّت ذراعاه إلى صدره، بكلماتٍ بسيطةٍ، ولكن بنبرة سلطةٍ لا تقاوَم: «**أيّها الشابّ، لك أقول: قمْ**»، ولكأنّه كان يخاطب نائمًا. وبالفعل لم يكن موته سوى سباتٍ عابرٍ، إذ سرعان ما عاد إلى جسده الروح، فاستوى، وعاد يتكلّم. وعقد

الذهولُ لسانَ الأُمّ، وكأنّها في حلمٍ تخشى الاستيقاظ منه. ولكنّ الربّ هدّأ روعها، وسلّمها ابنها ينبض حياةً، وهمس في أُذنها كلمات تشجيعٍ، ترك لنا الإنجيليّ مهمّة تخمينها.

حتّئذٍ، لم يكن لأيٍّ من معجزات يسوع مثل هذا الوقع الشعبيّ الواسع. فقد كانت تلك أولى إقاماته أمواتًا، وقد جرت جهارًا، في وضح النهار، في حضور مدينةٍ بكاملها. ولا بدعَ، بالتالي، إن استحوذت على الجموع تلك الرهبة الدينيّة السحيقة التي يوحي بها حضور الله. فراحوا يسبّحون هاتفين: «**لقد قام فينا نبيّ، وافتقد الله شعبه**».

كلّ شيءٍ تمّ ببساطةٍ وسكونٍ: لا جهد، ولا تلمّس، ولا توسّل، فيسوع هو سيّد الحياة والموت. إنّه يتكلّم كسيّدٍ، والموت يخضع له خضوعه لله. قدرته هي، دائمًا، في خدمة عطفه، وعطفه اللامحدود في خدمة البشر. كلّ ما يموت ينبعث حيًّا لدى سماع صوته. وفي مقبرة البشريّة حيث تزرع الخطيئةُ الموتَ، يُنبت يسوع الحياةَ، بتحطيمه الخطيئة. وما فتى «نعيم» الذي أقامه، سوى رمزٍ لنفوسٍ لا يحيط بها إحصاءٌ، لا تني تهوي إلى الموت، ويعيدها صوت المخلّص، كلّ يومٍ، إلى حياة الله.

يقول ماسّينيون، في هذا السياق: «يسوع يُنهض الأموات، وكأنّه يضطلع بأيّة مهمّةٍ عاديّةٍ. يأمر الراقدين رقادًا أبديًّا، فيتجلّى إلهًا للأموات، مثلما هو إله الأحياء. ويبلغ سجوُّ نفسه ذروتَه، عندما يصنع العظائم».

وذهل القوم، لدى رؤيتهم، بأمّهات عيونهم، جثّةً تسري في أوصالها الحياة، بأمرٍ إلهيّ، ونبيًّا يعود إليهم، بعد انقطاعٍ طويل الأمد.

معجزةٌ جسيمةٌ لا يقوى عليها سوى الخالق نفسه، خضّت أنباؤها المنطقة كلّها. والمعجزُ، أيضًا، روايةُ الإنجيليّين لها، في بساطةٍ مطلقةٍ، مذهلةٍ، تليق بها.

رِسَـــالَةُ المَعْـمَدَان(*)

في معتقله، في قلعة ماخيرونت، كان المعمدان يضجّ مثل أسدٍ في قفص، ويتقلّب على جمر العجز القسريّ، والحيرة الخانقة. وكلّما تمادى اعتقاله، أحرقت فكره حمّى الانتظار. كان قد وُلد وعاش ليكون سابقًا للمسيح، ولم يضنّ بيومٍ من حياته في سبيل هذه المهمّة. وقد هاله أن يقضي طغيان حاكمٍ سفيهٍ على وجوده، قبل أن تُتاح له رؤية تحقيقٍ ساطعٍ مدوٍّ لما وُجد من أجله. هذه الخشية كانت ترهقه أكثر من قيود الاعتقال، ومن سيف أنتيپاس المسلّط على رقبته.

كان هيرودس قد شلّ حركة المعمدان، ضمانًا لصمته، ولكنّه لم يُكرهه على عزلةٍ تامّةٍ، بل بدافع التطيّر، والاحترام، والخوف المُبهَم، سمح له أن يستقبل تلاميذه وأصدقاءه، ويطّلع منهم على ما يجري في الخارج. ولكن، لم تكن مشاعر تلاميذ المعمدان تتوافق، في شيءٍ، مع مشاعر معلّمهم، حيال يسوع. فهم كانوا يرون في المعلّم الجليليّ منافسًا خطيرًا لمعلّمهم، وكانوا يضيقون ذرعًا بذيوع شهرته، وارتفاع شأنه.

فضلاً عن أنّهم، نظير سائر اليهود، كانوا يتوقّعون مسيحًا قويًّا متزمّتًا. وقد شكّكهم تعاطفُ يسوع مع العشّارين والخطأة، وخلوُّ أعماله ممّا يومئ إلى تدشين مملكةٍ يهوديّةٍ متحرّرةٍ، وإلى «غربلةٍ» تنظّف البيدر؛ مثلما شكّكهم موقف تلاميذ يسوع المتغاضي عن فرائض الشريعة، وعن وصايا الصيام.

وكان يُحزِن قلبَ يوحنّا موقفُ تلاميذه أنفسهم من يسوع وتلاميذه، موقفٌ يتّسم بالريبة، والحسد، والتحفّظ، ولكأنّهم أكثر تعاطفًا مع أعداء يسوع. ولكأنّ كلّ ما أجراه الربّ من معجزاتٍ مذهلةٍ، تحت سمعهم وبصرهم، لم ينفذ إلى قناعاتهم، ولم يوسّع آفاق أفكارهم الضيّقة، الحسيرة البصر.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «أأنت الآتي أم ننتظر آخر؟»، صفحة ١٢٣.

كان يوحنّا راغبًا في أن يقاسمه تلاميذه نظرته إلى يسوع، وإجلاله لـه. وكان يتابع، من سجنه، خوارق قريبه، وعظائم أفعاله، ولكنّه يأخذ عليه تكتّمه على هويّته، وتلكُّؤه في إعلان ملكوته. وكان يتوقّع منه أُسلوبًا أوفر حزمًا وجزمًا، فرسالته، هو يوحنّا، لن تكتمل إلاّ بإعلان مسيحانيّة ابن مريم. وكان يمضّه التساؤل عمّا يستطيع فعله كي يدفع يسوع إلى إعلان كونه المسيح، وكي يدفع تلاميذه إلى الإيمان بيسوع الذي كانت تبعدهم عنه غيرتُهم.

وأخيرًا، وطّن العزم على إنفاذ اثنين منهم إليه كي يستوضحاه: «**أأنت الآتي أم ننتظر آخر؟**».

لا ريب أنّ هذا السؤال آلم قلب يسوع، كما كانت تؤلمه غلاظة أذهان تلاميذه أحيانًا.

ويلحظ الإنجيليّ لوقا أنّ يسوع شفى، في حضور تلميذي المعمدان، «**كثيرين، من أمراضٍ وعاهاتٍ، وأرواحٍ شرّيرةٍ، ووهب البصر لعميانٍ كُثُر. فأجاب وقال لهما: «اذهبا وأخبرا يوحنّا بما رأيتما، وبما سمعتما: إنّ العمي يبصرون، والعرج يمشون مستوين، والبرص يطهرون، والصمّ يسمعون، والموتى يقومون، والفقراء يُبشَّرون، وطوبى لمن لا يعثر فيّ**».

لعلّ المعمدان توقّع جوابًا أكثر وضوحًا. فيسوع لم ينفِ أنّه المسيح، إذ لم يكن لديه إلى هذا النفي سبيلٌ، ولكنّه لم يعلن «نَعَمًا» صريحةً، مثلما تمنّى المعمدان. لم يكن جواب يسوع كلماتٍ، بل كان أفعالاً ناطقةً تنبئ بهويّته، ولا سيّما أنّ هذه الأعمال هي التي جعل منها الأنبياء علامةً للمسيح المنتظر.

إنّنا نجهل ما كانت ردّة فعل المعمدان، ولكن يسعنا تخمين أنّه كان يؤثر إعلانًا صريحًا مدوّيًا، يبدّد كلّ ريبةٍ ما زالت تساور تلاميذه وعامّة الشعب، إعلانًا يستقطب نحو يسوع جموعًا غفيرةً تنصّبه ملكًا بالأهازيج والتراتيل. وربّما غرب عن بال يوحنّا أنّ يسوع أبى الإسراع في إعلان مسيحانيّته، لأنّ عقليّة الشعب لم تكن، بعدُ، مُعَدّةً لذلك، فالشعب يتوقّع مسيحًا سياسيًّا، ويسوع حريصٌ على أن يظلّ مسيحًا روحيًّا.

فلا بدعَ إن خلا جوابه، وكلّ تبشيره، من أيّ وعدٍ بمغانم أرضيّةٍ، أو وطنيّةٍ، أو بتحريرٍ سياسيٍّ لشعبٍ معيّنٍ. فهو إنّما يبتغي خلاص كلّ إنسانٍ.

«**الفقراء يُبشَّرون**»: هذه العبارة تترجم جسارة مهمّة يسوع، التي تخزي الحكمة البشريّة، وادّعاءها مخاطبة النخبة فحسب، وعجزها عن النفاذ إلى البسطاء. أمّا الربّ فينير كلّ ضمير، وأشعّته نفّاذةٌ بقدر ما تكون النفس متجرّدةً ومتواضعةً، وبقدر ما يكون القلب منفتحًا، جاهزًا. وعدل ملكوته لا يجارى: فالأكثر تصاغرًا، واقتناعًا بعدمهم، هم الأوّلون، وهم العظماء الحقيقيّون، والأوفر قداسةً.

ولئن تمنّى يوحنّا جوابًا أكثر وضوحًا، فمن أجل تبديد شكوك تلاميذه، ومن أجل إقناع الشعب. أمّا هو، فكان إيمانه بيسوع صلبًا، ثابتًا، لا يهتزّ ولا يتزعزع، ولا سيّما بعد أن سمع، بأذنيه، شهادة الآب في ابنه الحبيب.

غير أنّ يسوع، إثر انصراف تلميذَيْ يوحنّا، امتدح المعمدان مدحًا فريدًا، أو بالحريّ رثاه رثاءً مؤثّرًا، إذ كان يتوقّع دنوّ أجله، ومأساة موته الدامي، وفي الآن عينه ندّد بالفرّيسيّين وعلماء الشريعة الذين رفضوا رسالته، فقال: «**ما خرجتم تنظُرون في البرّيّة؟ أقصبةً تهزُّها الريح؟ أم ماذا خرجتم تنظُرون؟ أإنسانًا عليه الثياب الناعمة؟ ولكنّ الذين عليهم الثياب الفاخرةُ ويعيشون على الترف، هم في قصور الملوك. أم ماذا خرجتم تنظُرون؟ أنبيًّا؟ أقول لكم: أجَل، بل أكثر من نبيٍّ. فإنّه هو الذي كُتِبَ عنه: ها أنا أُرسل رسولي أمام وجهك، فيُعِدُّ طريقكَ قُدّامك. وإنّي أقولُ لكم إنّه ليس في مواليد النساء أعظمُ من يوحنّا، بيد أنّ الأصغر في ملكوت اللّه أعظمُ منه**» (لوقا ٧: ٢٤ – ٢٨).

بنبرةٍ قويّةٍ أشاد يسوع بصمود سابقه، وبتقشّفه، وبعظمة نبوّته. فيوحنّا كان قد أثبت بصرامة أقواله، وجرأته التي لا تنثني، وبمواقفه التي لا تهاون، ولا تلين، وبكَلَفه بالعدل والاستقامة، أنّه سنديانةٌ منيعةٌ، لا قصبةٌ تتمايل مع كلّ ريحٍ. وقد كان لشظف عيشه وقعٌ في قلوب الشعب أكثر من عزيمته الشمّاء، وقد احتفظ له القوم بصورة الناسك الزاهد، في حين كان الفرّيسيّون والصدّوقيّون يتسربلون بالمطارف الباذخة، بغيةَ اقتناص إعجاب الأمراء، وإزراءً بالفقراء والعامّة.

قد يكون بين رجال العهد القديم من يضاهي يوحنّا قداسةً، ولكن ليس بينهم من يجاريه كرامةً. فكرامته ناجمةٌ عن علاقته الحميمة الفريدة بالكلمة المتأنّس. المعمدان هو صلة الوصل بين العهد القديم الغارب، والعهد الجديد البازغ. وهو يتفوّق على أنبياء العهد القديم الذين لم يُكتب لهم سوى التلميح إلى المسيح من بعيدٍ، فهو رآه

بعينيه، وأشار إليه بإصبعه. ولكنّه توقّف عند عتبة العهد الجديد، ولم يتسنّ له ولوجه، ولذلك فالأصغر في ملكوت يسوع أعظم منه.

يسوع والمعمدان فعلا الكثير. ولكنّ معظم الشعب اليهوديّ ظلّ متفرّجًا سلبيًّا، فلا هو رقص لطبل الراقصين، ولا هو ناح مع المنتحبين. لا تاب استجابةً لدعوة يوحنّا، ولا هرع إلى التماس الملكوت، استجابةً لدعوة يسوع.

لقد قدّم اللّه ذاته للبشر، مضطرمًا حبًّا، ولكنَّ البشر ظلّوا من جليد. وقد أوحى هذا الواقع للربّ قولاً ينضح مرارةً: «**فبِمَنْ أشبّهُ أبناء هذا الجيل؟ ومن يُشبهون؟ إنّهم يُشبهون صبيةً جُلوسًا في الساحة يتصايحون قائلين: زمّرنا لكم فلم ترقصوا. ندَبْنا لكم فلم تبكُوا. جاء يوحنّا المعمدان لا يأكل ولا يشرب خمرًا، فقلتم إنّ به شيطانًا! وجاء ابنُ البشر يأكل ويشرب، فقلتم: هوذا رجلٌ أكولٌ، شِرّيبٌ، صديقٌ للعشّارين والخطأة! غير أنّ الحكمة قد زكّاها جميعُ بنيها**» (لوقا ٧: ٣١ – ٣٥).

ومع ذلك أُرسيت أُسس الملكوت، «**فالفقراء يُبَشَّرون**»، و«**الحكمة قد زكّاها معظم بنيها**». أمّا الآخرون فسكارى، تائهون، والويل لمن يصمّون آذانهم عن همسات الروح!

الفقراء والخطأة اقتفوا آثار يسوع، ولكنّ العلماء لم يصدّقوه بل انتقدوه وناهضوه، وقد عبّر المعلّم عن ذلك الواقع الأليم بعباراتٍ مؤثّرةٍ: «**وفي تلك الساعة بالذات تهلّل يسوع، بفعل الروح القدس، وقال: «أحمدُك، أيُّها الآب، ربُّ السماء والأرض، لأنّك حجبتَ ذلك عن الحكماء وأهل الذكاء، وكشفته للأطفال. أجل، أيّها الآب، أحْمدُك لأنّه هكذا حَسُن لديك. لقد دفع إليّ أبي كلّ شيءٍ، وليس أحدٌ يعرف مَن الابن إلاّ الآب، ولا مَن الآب إلاّ الابن، ومن يشاءُ الابنُ أن يكشف له**» (لوقا ١٠: ٢١ – ٢٢).

أنوار العقل، ليست دائمًا أنوار القلب، وأنوار البشر ليست، دائمًا، أنوار اللّه، ولكي نميّزها يدعونا الربّ: «**فتعالوا إليّ، يا جميع المُتعبين، تحت ثقل أحمالكم، وأنا أوتيكُم الراحة. خُذوا نيري عليكم وتتلمذوا لي، لأنّي وديعٌ ومتواضعُ القلب، فتجدوا الراحة لنفوسكم. أجل، إنّ نيري ليّنٌ، وحِملي خفيف**» (متّى ١١: ٢٨ – ٣٠).

عِظَـةُ الجَبَـل - التَّطْويـبَات (*)

كان يسوع قد نفذ إلى قلوب الشعب وقناعاتهم، بعطفه، وقدراته، وشفائه كلّ عليلٍ، وبأقواله السامية التي استشمّ من خلالها سامعوه روحًا إلهيًّا. وبات مدٌّ بشريٌّ عارمٌ ينصبّ عليه بلا توقّفٍ من الجليل، واليهوديّة، والمدن العشر الهلّينيّة شرقًا، ومن فينيقيا غربًا. وارتأى الربّ أنّ الساعة قد أزفت كي ينثر بذار تعليمه الإلهيّ الخالد في أثلام تربة الأجيال، فيُعلن لتلاميذه أسس الملكوت الذي جاء يبشّر به، ويطلع مستمعيه على موقفه من الشريعة التي جاء كي يكمّلها ويرتقي بها، ويرشد كلّ إنسانٍ طيّب النيّة إلى قمّة الكمال التي أراد له أن يتسنّمها.

هذا الإعلان كان حدَثًا فريدًا في تاريخ العالم، ولكنّه تمّ، ورُويَ، في بساطةٍ مذهلةٍ، تنمّ عن زهد يسوع في كلّ بهرجٍ، وفخامة مظهرٍ. وقد شُبّهت عظة الجبل بإعلان الشريعة الموسويّة في سيناء. ولكنْ شتّان بين إعلان الشريعتين: موسى تلقّى الوصايا على جبلٍ أجرد في صحراء سيناء، ويسوع لقّن جوهر تعليمه على تلّةٍ مخضّلةٍ في الجليل، تزدهي بكلّ سنى الربيع، وتغسل حواشيها بحيرة جنّيصارت، في صباحٍ نديٍّ، ساجٍ. «هناك صحراء حارقةٌ، وصخرةٌ مريعةٌ جسيمةٌ مكلّلةٌ بالبروق في منطقةٍ مرعبةٍ، وهنا تلّةٌ مخضلّةٌ مشرفةٌ على منطقةٍ كانت تُعدّ من أكثر بقاع العالم رونقًا ورواءً. هناك كان كلام الربّ يدوّي مثل رعدٍ يشيع القشعريرة في القلوب، وهنا يترقرق الكلام عذوبةً. فعندما يكون ابن اللّٰه هو المتكلّم، ينساب النور غامرًا الأرض، ويتفجّر من قلب العالم القاسي، نبع حبٍّ مجهولٌ. هناك كان الشعب يؤمر بالابتعاد، وهنا يدنو الشعب ويتراصّ، في أُلفةٍ حلوةٍ، من مشرّعٍ، هو، في آنٍ واحدٍ، مخلّص البشريّة. هناك كانت الشريعة، وهنا الإنجيل، البشرى السعيدة».

(*) راجع **يسوع في إنجيله**، العناوين التالية: «عظة الجبل» – «سعادة اللّٰه والتطويبات» – «تطويبات» – «الويلات» – «من هم الذين طوّبهم يسوع؟»، من الصفحة ١٢٧حتّى الصفحة ١٤١.

على تلّة التطويبات، انبثقت مدينة برٍّ ونورٍ، ستظلّ قداستها وأنوارها تغمر الأكوان حتّى انتهاء الدهور.

تلك العظة الفريدة أُلقيت من على جبلٍ لم يحدّده الإنجيل، ويُعتقد أنّه إحدى هضاب الجليل، التي باتت تُدعى «جبل التطويبات»، والتي لا يتعدّى ارتفاعها مئةً وخمسين مترًا، على مسافة نحو ثلاثة كيلومتراتٍ من كفرناحوم.

تلك العظة أوردها كلٌّ من الإنجيليَّيْن متّى ولوقا. غير أنّ متّى جمع، في عظةٍ واحدةٍ، مكثّفةٍ، مسهبةٍ، جوهر تعليم يسوع الذي أدلى به في مناسباتٍ متعدّدةٍ، كي يبرز وحدته، وتكامله، وفرادته، وخصّص له ثلاثة فصولٍ من إنجيله (٥ و٦ و٧) في حين اكتفى لوقا بإيراد قسمٍ من ذلك التعليم في الفصل السادس (١٧–٤٩) من إنجيله، ثمّ أتى على ذكر أجزاءٍ أُخرى منه، مبثوثةٍ في تضاعيف فصولٍ عِدَّةٍ.

ومن المؤكّد أنّ الإنجيليَّيْن كلَيْهما قد أوجزا، في أسطرٍ معدوداتٍ لا تقتضي تلاوتها أكثر من حفنة دقائق، ما أسهب يسوع في إلقائه، ساعاتٍ طوالاً، حافلةً بالصبر والرقّة، كي يرسّخ في أذهان مستمعيه، تعاليمَ دأب على ترديدها، وتأكيدها، وتفسيرها. ومع ذلك، ومن خلال هذا الإيجاز، ما زلنا نسمع جرْس يسوع الساحر، ونتنسَّم روحه وحبّه الإلهيَّيْن، مثلما كان القوم المتجمهرون عند أقدام المعلّم يتجرّعون، جرعاتٍ كبيرةً، من كأس السعادة التي يسكبها لهم، وكان مصيرهم، بفضلها، يتحوّل.

ومن ثمّ يليق بنا أن نتأمّل، بتأنٍّ وخشوعٍ جمَّيْن، كلّ لفظةٍ من ألفاظ هذه العظة، التي زفّها المخلّص، قاعدة كمالٍ مثاليٍّ، مهداةً إلى جميع المرشّحين إلى ملكوت الله، والصابين إلى الاهتداء بروحه.

إنّ عظة الجبل والتطويبات هي الروح المسيحيّ في مواجهة الروح اليهوديّ والوثنيّ. إنّها تتعارض مع الشريعة القديمة، التي تصحّحها، وتكمّلها، وتحوّلها شريعة نعمةٍ وحبٍّ، وتتعارض مع مبادئ الكمال التي اكتفى بها وثنيّون وفرّيسيّون كانوا يعدّون أنفسهم نماذج للكمال والتقوى.

كان موسى، بسبب غلاظة قلوب اليهود، قد ربط الازدهار المادّيّ بالخضوع للوصايا، وجعل من الثروة دليلاً على بركة الله، ومن الشدائد والمِحَن علامةً على

غضبه، وقد نجم عن ذلك ازدراؤهم للفقراء والمرضى، وتخيّلهم أنّ مهمّة المسيح المنتظر هي تحقيق الأمجاد والثروات، والبحبوحة، وسيطرة «شعب الله المختار».

وببضع كلماتٍ بدّد يسوع هذه الأوهام، فأظهر وبال الغنى وهنّأ الفقراء الزاهدين؛ وشجب نزعة التسلّط، داعيًا إلى الوداعة والرحمة؛ وعوضًا عن تكريم الرخاء، مجّد الجوع والعطش إلى البرّ، وزيّن الطهر في عيون الكَلِفين بالملذّات. ووسط شعبٍ ينتفض تحت نير الاحتلال، لم يخشَ تطويب روح السلام، وتقدير المضطَهَدين في سبيل قضيّةٍ ساميةٍ.

وليس من العسير تصوّر اغتباط المقهورين والودعاء، والرازحين تحت وقر الشدائد، والباكين الذين لا يُعنى أحدٌ بكفكفة دموعهم، وهم يسمعون يسوع يخاطبهم: «**طوبى لكم... طوبى...**».

مثل تلك التعاليم لا تأتي إلاّ من إله!

بدأ يسوع بالإشارة إلى من يقبضون، حقًّا، في نظره، على ناصية السعادة، فأعلن ما سُمّي سلسلة التطويبات (متّى ٥: ٣–١٢):

– **طوبى للفقراء بالروح فإنّ لهم ملكوت السماوات**(*): الفقير هو الأعزل الذي لا سند له، ولا مطمع سوى الله ورضاه. هو الذي لا يستعبده المال ولا يعني لـه سوى وسيلةٍ للعيش القنوع، ولخدمة المحتاجين. فكم من ميسورين يزدرون المال، وفقراء ينصّبونه إلهًا ولا يتطلّعون إلاّ إليه!

الفقر الروحيّ هو وضع الثروة المادّيّة، في حياتنا، في الموضع الذي تحتلّه في مخطّط الله، واعتبار خيرات الأرض أدواتٍ نستعين بها، بتواضعٍ، على اجتياز الحياة، ومساعدة الآخرين على اجتيازها. أمّا الكَلَف بهذه الخيرات، التي يلتهمها الصدأ والديدان، فهو تعريض النفس لخشية فقدانها، خشيةً وبيلةً، مرهقةً.

الفقر الذي دعا إليه يسوع هو موقفٌ روحيٌّ لا يستهدف زيادة عدد المحتاجين، بل زيادة عدد الزاهدين المتمثّلين بيسوع، الذي اختار أن يحيا الفقر. وليس الفقر المطلوب مجرّد زهدٍ بالمال، بل هو زهدٌ بكلّ ما يزدهي المرء بامتلاكه من مواهب. إنّه وداعةٌ، وتواضعٌ، وخضوعٌ طوعيٌّ لمشيئة الآب السماويّ.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «طوبى للفقراء»، صفحة ١٤٥.

إنّه انعتاقٌ من السجون التي نحبس فيها نفوسنا.

ليس الفقر الإنجيليّ وضعًا مادّيًّا يتّصف بالحرمان، بل هو وضعٌ نفسيٌّ يتّصف بالتحرّر.

ولن يندم، يومًا على شيءٍ، من تخلّى عن كلّ شيءٍ في سبيل اللّه.

– **طوبى للودعاء فإنّهم يرثون الأرض**(*): الوديع هو المتواضع، الصبور، الذي ينبذ العنف، ولا يحدوه سوى العطف والمحبّة. العنيفون يدمّر بعضهم بعضًا، وتبقى الأرض للودعاء.

العالم، اليوم، ينزع إلى قياس كلّ شيءٍ بميزان القوّة، ولذلك هو يتخبّط في أزماتٍ طاحناتٍ، ويسوده الاضطراب والقلق.

أمّا الوداعة فهي «ثمرة الروح»، وهي هبة اللّه.

«بالحقيقة كان هذا الرجل صدّيقًا». هكذا هتف قائد المئة عندما رأى احتضار كلّ وداعة العالم على الصليب.

– **طوبى للباكين، فإنّهم يعزّون**(**): الباكي هو من يتألّم لكلّ مظاهر الظلم والقهر التي تنشب بأيّ إنسانٍ بريءٍ. هو الذي يستسلم لقرارات السماء، وإن بدت قاسيةً، مرهقةً. هو من يرضى بالألم الذي يحلّ به، بالاشتراك مع يسوع المتألّم، وحينئذٍ، سواءٌ كان هذا الألم نتيجة شعورٍ بالهوان والنقص والعجز، أو نتيجة ظلم البشر، أو بفعل قوى الطبيعة العمياء، فهو يحمل، في ذاته، بذور العزاء، ويغدو للآخرين معين فرحٍ. قد يرأف العالم بالباكين، ولكنّه لا يعرف إلى تعزيتهم سبيلاً. ولكنّ اللّه يعزّيهم بتعليمهم تقديس أحزانهم، وبإشراق أنوار الرجاء أمام عيونهم، وبغمر نفوسهم بفرحه الوطيد، وبسعادته العتيدة...

– **طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ فإنّهم يُشبَعون**(***): إنّهم من يرتقون بإرادة الخير حتّى ذروة الحبّ، ويناضلون في سبيل سيادة العدل، ويقهرون ذواتهم كي

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: صفحة ١٥٢.

(**) راجع **يسوع في إنجيله**: صفحة ١٥٥.

(***) راجع **يسوع في إنجيله**: صفحة ١٥٨.

يكونوا جديرين بالإنجيل، الذي اتّخذوه نبراسًا لحياتهم. قد يسبّب لهم كلّ ذلك ألمًا بليغًا، بل قد يقودهم إلى الصليب، ولكنّهم يتذوّقون، منذ هذه الدنيا، طعمًا مسبّقًا لما سيتذوّقونه عندما سيشاهدون الله وجهًا لوجه.

كلّ تطلّعٍ صوب الكمال، وكلّ صبوٍّ إلى القداسة، ينبعان من جوعٍ وعطشٍ إلى البرّ والعدل. بيد أنّ التطلّع والصبوّ ينبغي ألاّ يكونا مجرّد رغبةٍ حالمةٍ، بل يجب أن يتحوّلا إلى عملٍ جاهدٍ، فاعلٍ. وبما أنّ الفعل هو ابن الألم، والعمل ابن الجوع، فالله لن يشبع ويروي إلاّ الذين حضنوا، في داخلهم، شهيّةً موجعةً إلى العدل والبرّ. ومن يعاني العطش حقًّا، يسمع همس الماء، ولو كان خافتًا.

الله لا يردّ على الفضول، بل على القلق والرغبة. ولن يحظى بالامتلاء إلاّ من تقدّم من الله بكلّ فراغه، وخواء نفسه.

أعطِ، اللهمّ، الجائع خبزًا، وأعطِ من يمتلك الكثير الجوع إلى المحبّة والعطاء.

الإنسان أكبر من أن يكتفي من الأرض بالقليل، فهو يتجاوز العالَم. واللانهائيّ، وحده، قادرٌ على إرضائه.

فالويل لمن يجد على الأرض كفايته، ولا يشعر بما يفتقر إليه.

والويل للشبعان، الراضي عن ذاته، فاقد الرغبة والشهيّة إلى الأكبر، والأسمى، والأفضل، فالحياة هي، في المقام الأوّل، جهدٌ من أجل تجاوز الذات، وحركةٌ إلى الأمام.

– **طوبى للرحماء فإنّهم يُرحمون**(*): الرحمة هي كبرى صفات الله. هي التعاطف مع كلّ ألمٍ، والتغاضي عن كلّ إهانةٍ، وإحاطة الصالحين والأشرار، الأصدقاء والأعداء، بالحبّ والعطف. هي الاندفاع إلى إغاثة كلّ ملهوفٍ، تمثّلاً بالرحمن الرحيم. ومن خفقت أحشاؤه بالرحمة، غمره الله برحمته وغناه.

لم يكن يسوع رحيمًا فحسب، بل كان الرحمة متجسّدةً، وفيه تتّصل الهوّتان: امتلاء الله المحبّ، وبؤس البشر.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: صفحة ١٦٢.

- **طوبى لأنقياء القلوب فإنّهم يعاينون الله**(*): القلب النقيّ هو النظرة النيّرة، والنيّة الصافية. من مرّغ قلبه في الشهوات الدنسة، وفي الجشع والمطامع الأرضيّة، وفي حمأة الكراهية، ومن شوّهت روحَه أنفاسُ إبليس، غشت نفسَه ظلمةٌ قاتلةٌ، وأُسدلت على بصيرته حُجُبٌ صفيقةٌ، تمنعه من رؤية النور والخير. أمّا من احتفظ بقلبٍ عذريٍّ، بريءٍ، نقيٍّ، فنعمة الله تقطن فيه وتنيره، وعيناه تنعمان برؤية الله بلا حجابٍ، وجهًا لوجه. تلك هي السعادة القصوى.

نقاء القلب ليس، فقط، ضبط الحواسّ، بل صفاء الكائن الداخليّ العميق، وسلامة النيّة أمام الله. ومشاهدة الله لا تتسنّى بالذكاء، بل بالنظرة الصافية. والنظرة تصفو عندما تصفو النفس. فجذور العين ضاربةٌ في أعماق القلب.

القلب النقيّ هو الذي يسكنه حضور الله الفاعل، وينيره. إنّه قلبٌ مستقيمٌ يمضي بتصميمٍ نحو كنزه.

- **طوبى لصانعي السلام، فإنّهم أبناء الله يُدعون**(**): صانعو السلام ليسوا، فقط، المسالمين، بل هم، خاصّةً، الساعون إلى إحلال السلام وإشاعته، فالله إله سلامٍ، ويسوع إنّما جاء ليشيع السلام بأسلحة الحبّ، والعطف، والإخاء الشامل، ونبذ الكراهية والعنف. وكلّ من ينهج وفقًا لهذه المبادئ، كي يُحلّ السلام، يتمثّل بالله، ويستأهل أن يدعى له ابنًا بامتيازٍ.

لا يصنع السلام إلاّ من كان في سلامٍ مع ذاته. والسلام الداخليّ هو انتصارٌ على أهوائنا، وغرائزنا السفلى، وعلى كلّ ما يحول دون أن نكون في سلامٍ مع إِخوتنا.

ليس سلام يسوع هروبًا أو استسلامًا، بل هو نضالٌ متّصلٌ. وقد أثبت القدّيسون أنّ السلام الداخليّ لا يتعارض مع آلامٍ كثيرةٍ، وصراعاتٍ ضاريةٍ. وحيث يسود هذا السلام يستطيع الفرح الذي يرافقه التساكن مع مِحَنٍ أليمةٍ.

ولكن فلنحذر الخلط بين سلام يسوع الروحيّ، والسكينة التي يحلم بها حكماء العالم، والتي يتوارى خلفها الكثير من اللامبالاة.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: صفحة ١٦٤.

(**) راجع **يسوع في إنجيله**: صفحة ١٦٦.

سلام يسوع يتغلّب على المنغّصات التي تولّدها أباطيل العالم، ويُحصّن من الإحباط حيال جسامة مقتضيات ملكوت الله.

الحرب يسهل إشعالها، أمّا السلام فيقتضي قدرةً على تخطّي الصعاب والحواجز، ولجم الكراهية والعنف، وهذه القدرة تنبع من الله.

إنّ مواجهة العداوة بالحبّ، والشرّ بالخير، هي تحليقٌ فوق صخب مفاهيم العالم، وامتلاك حرّيّةٍ إلهيّةٍ، نابعةٍ من نعمة الله، وتعالٍ إلى مرتبة أبناء العليّ.

- طوبى للمضطَهَدين من أجل البرّ، فإنّ لهم ملكوت السماوات. طوبى لكم إذا أهانوكم واضطهدوكم، وافتروا عليكم كلّ سوءٍ من أجلي. افرحوا وابتهجوا فإنّ أجركم عظيمٌ في السماوات. إنّهم هكذا اضطهدوا الأنبياء الذين قبلكم(*):
من نهَج نهْجَ الإنجيل عادى مُثُل العالم، واستعدى أبناءه. فحيال يسوع، الحيادُ متعذّرٌ: بل على كلّ إنسانٍ أن يكون معه أو عليه. ومن كان معه، كان العالم عليه. وبقدر ما يلتزم بالإنجيل تزداد شراسة العالم عليه حدّةً. ولكنّه، بذلك، يرتقي إلى منزلة الأنبياء.

من يناضل في سبيل العدل يستجلب على ذاته عداوة من يخافون العدل وينتهكونه. ومن يطالب بالمساواة بين الجميع يستفزّ غضب من يأبون التنازل عن شيءٍ من سلطاتهم وامتيازاتهم

وطوبى للكنيسة إن اضطهدها الأغنياء، والزعماء، والمتنفّذون، بسبب وفائها لرسالة المعلّم!

إنّ من تطالهم التطويبات: البسطاء، والفقراء، وأنقياء القلوب، وصانعو السلام... ليسوا من هم كذلك بالسليقة والفطرة، أو بحكم الظروف، بل من أصبحوا كذلك، بولادةٍ جديدةٍ.

* *

قد يرى العالم في بعض الخصال التي طوّبها يسوع، كالفقر، والوداعة، والرحمة والمسالمة، والتعرّض للاضطهاد دلائل وهنٍ، ومهانةٍ، في حين أنّها ترقى بمن تمرّسوا

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: صفحة ١٧٠.

منها إلى أسمى درجات القوّة الساجية، العذبة، الواثقة، التي لا سلاح لها سوى الحقيقة والمحبّة. وعلى تلك الخصال أن تترسّخ بالإيمان والثقة باللّه، وإلاّ كان الفقر دافعًا إلى الجشع وعبادة المال أكثر من الغنى، ولأدّى الجوعُ إلى الخَبَل، والألمُ إلى اليأس، والتعرُّضُ لاضطهاد الآخرين وازدرائهم إلى الدمار. ولكن، بالإيمان وأَزْر اللّه، تصبح كلّ هذه منابع خلاصٍ وسعادةٍ.

كلّ ما يعدّه العالم نفيًا للحياة، يصبح، في تعليم يسوع، شرطًا للحياة الحقّة: الفقر، والتواضع، والدموع، واللهفة على العدل والبرّ، والتخلّي عن الحقوق، والكَلَف بالسلام، والوداعة التي ترفض كلّ مقاومةٍ عنيفةٍ، والزهد في كلّ ما يعكّر نقاء القلب، واحتمال اضطهادات هذا العالم، حيث الأقوياء دائبون على سحق الضعفاء، وامتهان العدل. ذلك هو الدرب المفضي إلى الملكوت.

كلّ إنسانٍ ينشد السعادة، ولطالما أرشد فلاسفةٌ ومفكّرون إليها، عبر دروبٍ تفضي، في معظمها، إلى الخيبة والمرارة، فالعالَم حَكَمٌ سيّئٌ عندما يتعلّق الأمر بالسعادة الحقيقيّة وشروطها. سعادة يسوع مرتبطةٌ بالسعي إلى ملكوت اللّه، ولا سعادة بمعزلٍ عن هذا السعي. والتطويبات دربٌ إلى الملكوت.

لقد تصدّى يسوع لروح العالم، وناقض كلّ حِكَمه الداعية إلى الأمان، والانتقام، والمتعة، والشهرة، واللهو، والجنس، والسلطة، والرفاه.

التطويبات هي تحريضٌ على العيش في العالَم، بعقليّة الملكوت، وليست دعوةً إلى الهروب من العالم. فاللّه الذي يعتلن أبًا عطوفًا، يدعو أبناءه إلى حياة الحبّ في وجهيه اللّذين لا ينفصلان، واللّذين يندمجان في حبٍّ واحدٍ: حبّ اللّه وحبّ البشر.

فغالبيّة الأقدمين قد أجمعت على أنّ السعادة تكمن في اليُسر والمتعة، وأنّ القداسة تنبع من الارتواء، وأنّ اللذّة هي إشباع الرغبات، وأنّ المجد هو نتيجة تقدير الغير. أمّا يسوع، فمنذ عباراته الأولى، طوّب المحرومين، وأكّد أنّ الارتواء يثوي في روح الفقر، والمتعة في الظمأ، والمجد في الاضطهاد. لقد قلب كلّ شيءٍ رأسًا على عقب: الأبيض صار أسود، والأسود أبيض. الحلم غدا كابوسًا، والقمّةُ قاعدةً، والقاعدة قمّةً. إنّه تحوّلٌ أكثر إعجازًا من تحويل الماء إلى خمرةٍ عذبةٍ، في قانا. إنّه تحوّل الفقر

إلى غنًى، والدموع إلى فرحٍ، وانتقال امتلاك الأرض من المحاربين إلى الودعاء.

التطويبات قلبٌ لمعايير القيَم، وصدمٌ للمفاهيم السائدة. ليست تعليمًا أخلاقيًّا رفيعًا فحسب، بل هي حلول واقعٍ مقدّسٍ سامٍ، وتجلّي عظمةٍ سماويّةٍ جديدةٍ لا تُقاس بقِيَم الأرض. إنّها فجر الملكوت القادم.

وكلّ ثورةٍ إزاء هذه، عبَث أطفالٍ. فللّذين يظنّون أَنّ لا سعادة بمعزلٍ عن الثروة، يقول يسوع: «**طوبى لمن يملكون روح الفقر**». وللّذين يقولون: «اضحكوا تضحك لكم الدنيا» يقول: «**العزاء للباكين**». وللّذين يقولون: «بما أنّ الطبيعة زوّدتكم بغرائز، فأطلقوا لها العنان، لكيلا تُمنَوا بالكبت». يقول: «**طوبى لأنقياء القلوب**». وللقائلين: «اسعوا وراء الشهرة والشعبيّة بأيّ ثمنٍ»، يقول: «**طوبى لكم إن أبغضكم العالم، واضطهدوكم، وقالوا عنكم كلّ سوءٍ من أجلي**». وللقائلين: «في زمن السلم، أعدّوا للحرب» يقول: «**طوبى لصانعي السلام**».

يُزري يسوع بتفاهة الحِكَم الرائجة، ويدعو إلى نبذ ما تدعو إليه، وإلى إحكام السيطرة على انفلات الغرائز السفلى التي تستعبد الروح، وإلى الإعراض عن المغالاة في التماس المغانم المادّيّة، وعن اعتبار الخيرات الخارجيّة عن النفس مصدرًا للسعادة. كلّ الدعوات إلى سعادةٍ زائفةٍ، مثل العُجْب بالذات، والإباحيّة، والاستغراق في الملذّات، والاستهداء بمقولة: «فلنأكلْ، ونشربْ، ونلهُ، اليوم، لأنّنا غدًا سنموت»، كلّ هذه يمقتها يسوع ويعارضها، لأنّها معين فوضى الأفكار والروح، ومصدر بؤسٍ وخيبات أملٍ، وكروبٍ.

لم يُترجَم، قطّ، التطلّع إلى السعادة، وعلمها، بمثل هذه النبرة النفّاذة، وهذه الصيغة الأخّاذة. وكلّ من يبحث عن السعادة بعيدًا عن حيث وضعها يسوع، واهمٌ يعرّض ذاته لخيباتٍ مريرةٍ، لجوع النفس، وللدموع والنحيب. فالله، الآب السماويّ، هو المُلك الذي يجدر بنا اقتناؤه، والتعزّي والامتلاء به، والظفر ببنوّته، وتمليكه على الذات. تلك هي الغبطة الأبديّة، الإلهيّة، الكاملة، التي لا تتحقّق بين ليلةٍ وضحاها، بل تُكتسب بفضل صراعاتٍ موجعةٍ، وتضحياتٍ مطّردةٍ.

إعلان تطويبات يسوع مثيرٌ ومقلقٌ، فهو يضع السعادة حيث يضع البشر البؤس. إنّه رسالةٌ ثوريّةٌ لأنّها تعارض كلّ قِيَم العالم وتطيح بها، لا عن طريق فوضى العنف،

بل بفضل انقلابٍ داخليٍّ روحيٍّ، هو تحوّلٌ في القلوب، وتنكّبٌ عن الأنانيّة والأثرة، والتفاتٌ إلى الله معين كلّ صلاحٍ، المنبع الأوّل لكلّ حياةٍ، ولتجدّد الحياة المطّرد.

إنّه دعوةٌ إلى فرحٍ يتخطّى المتعة، وإلى عطاءٍ يتخطّى الرغبة، وإلى استسلامٍ لله يتخطّى القلق، وإلى جرأةٍ تتخطّى حذَر العالم وهواجسه.

فالله هو كلّ شيءٍ، ومنشأ كلّ خيرٍ: الحبّ والسلام، والفرح.

إنّه دعوةٌ متفجّرةٌ من الأعماق كفيلةٌ بتجديد الحياة، بتوافقها لا مع النزوات الطبيعيّة، بل مع الله وحده، أي مع الحبّ الحقّ. إنّها تغلّب النعمةَ الإلهيّةَ على نزعات الشهوة العكرة، وتغلّب التعاون والترحيب بالآخر على السيطرة، وتغلّب الخدمة على السطوة، والكيان على الامتلاك.

إنّه تحقيقٌ لنشيد تمجيد العذراء، إنّه تعبُّدُ الفقراء، وشكرُهم، في ما يتجاوز قهر الأغنياء، وقوى العالم.

قال دانييل روپس عن التطويبات إنّها «أجمل ما نطق به لسان بشرٍ». فهي ليست مجرّد خواطر، بل هي حقائق قاسيةٌ غير منفصلةٍ عن الصليب. ما علّمه يسوع على الجبل، هو ما أفضى به إلى الصليب: حبّ الأعداء، اقتلاع العين أو بتر اليد تفاديًا للوقوع في الخطيئة؛ طهر القلب، في حين تجأر الأهواء الجسديّة وتزأر مطالبةً بإشباعها؛ الصفح عمّن يبتغون سلبنا الحياة؛ قهر الشرّ بفعل الخير؛ مباركة لاعنينا؛ الكفّ عن ادّعاء الحرّيّة ما دام الحقّ، والعدل، وحبّ الله، أي مقوّمات كلّ حرّيّةٍ، لم تستولِ، بعدُ، على نفوسنا؛ عيشنا في العالم من غير أن نتيح لـه إفسادنا؛ حرماننا ذواتنا بعض المُتَع المشروعة بُغيةَ صلب أنانيّتنا، وخلع «الإنسان القديم» عنّا.

التطويبات هي أكثر من وعودٍ مستقبليّةٍ، إنّها مقتضيات كمالٍ للوقت الحاضر. إنّها دعوةٌ إلى اعتناق الصليب في سبيل بلوغ سعادةٍ ساميةٍ، بالإعراض عن السعادة الزائفة التي لا ترضي سوى الغرائز السفلى؛ ودعوةٌ إلى ازدراء ما يعبده العالم، وإلى تكريم ما يعدّه العالم أوهامًا. ولا يخدعنّ أحدٌ نفسه، ويعلّلها بالحصول على فردوسيْن معًا: واحدٍ على الأرض، والثاني في الآخرة. أوَ لم يعلن يسوع:

«ولكن، ويلٌ لكم، أيّها الأغنياءُ، فإنّكم قد أصَبتُم عزاءَكم،

ويلٌ لكم، أيّها المتخَمون الآن، فإنّكم ستجوعون،

ويلٌ لكم، أيّها الضاحكون الآن، فإنّكم ستحزنون وتبكون،

ويلٌ لكم إذا جميعُ الناس قالوا فيكم قولاً حسنًا، فإنّهم هكذا فعل آباؤهم بالأنبياء الكذَبَة» (لوقا٦: ٢٤–٢٦).

التطويبات صورةٌ ليسوع رسمها بنفسه. فهو الفقير الوديع، المتواضع القلب، الرؤوف، المضطَهَد حتّى الصلب. ولكنّه مغتبطٌ لأنّه أحبّ حتّى النهاية، وأعطى كلّ شيءٍ بحرّيّةٍ، مجّانًا، وبلا رجوعٍ.

ويسوع هو نفسه غذاء الجياع إلى البرّ، وثروة المعدمين الدفينة، وسكون الودعاء الذي لا يتزعزع، وسموّ روح الرحومين، وقوّة المعذّبين، وضياء الأطهار المتألّق، وخيال صانعي السلام المُفعَم تآخيًا، وصمود المضطَهَدين الرائع.

ويسوع يحمل في قلبه جميع الذين طوّبهم: الفقراء بالروح، والودعاء، والمحزونين، الجياع والعطاش إلى البرّ، وأنقياء القلوب، ومشعّي السلام، والمضطَهَدين...

ومفارقة هذه السعادة قد خبَرَها، جيلاً إثر جيلٍ، القدّيسون المعلَنون والمُغفلون، منذ ألفي سنة، ويَخبَرها كلّ مسيحيٍّ حقٍّ يجد قوّته في فرح الحبّ، في ما يتخطّى المتعة والمكافأة. ذلكم هو سرّ الإنجيل، سرّ قدّيسين قدامى، وقدّيسين أناروا عصرنا: الأمّ تيريزا، وشارل دي فوكو، وأُخت يسوع الصغيرة مادلين، والأب پيير، والأخت إيمانويل، وجان ڤانييه، والبابا يوحنّا بولس الثاني، وأمثالهم.

وعلى محيّا إنسان التطويبات يُقرأ، منذ هذه الدنيا، فرح الملكوت الذي يعكس إشعاع كنزٍ ثاوٍ في صميم قلبه، إذ إنّه يظفر بما يعجز العالم، هنا، عن منحه: المشاركة في سعادة الله.

هذه الحياة في الله، هي القيمة السامية، والنكهة، والإشعاع لدى من يحيونها، وهي التي تجعل منهم ملح الأرض، ونور العالم العذب، المناقض لألَق العالم المصطنع.

شَـريعَـةُ يَسَـوعَ الجَـديدَة

لا بدْعَ إن تابع يسوع عظته قائلاً: «**أنتم ملح الأرض، فإذا فسد الملح، فبماذا يُعاد إلى ملوحته؟ إنّه، من بعدُ، لا يصلح لشيءٍ، فيطرح خارجًا، ويدوسه الناس**»(*).

الملح هو ما يضفي على الطعام نكهةً وطعمًا، ويحفظه من الفساد، وهو رمزٌ لثبات العهد ورسوخه.

«**أنتم نور العالم. فالمدينة على مرتفعٍ لا يمكن أن تخفى. والسراج إذا أُوقد، فليس ليوضع تحت المكيال، بل على المسرجة فيضيء لجميع الذين في البيت. هكذا فليُضئْ نوركم قدّام الناس، ليروا أعمالكم الحسنة، ويُمجّدوا أباكم الذي في السماوات**»(**).

منذ الوهلة الأولى أدهش يسوع بجدّة تعليمه، وتميّزه عن كلّ مألوفٍ. ولكنّ تجديده تجلّى أكثر وضوحًا، عندما تطرّق إلى الشريعة، فلم ينكرها، ولكنّه عدّها مرحلةً مؤقّتةً جاء هو كي يطوّرها، ويدفعها إلى مراقي الكمال، ويبرز جوهرها بعد أن أغرقها الرابّيّون تحت ركامٍ من التفسيرات خنقت روحها، وأرهقوا بنير فرائض عزوها إليها، كواهل المؤمنين، وتمادوا فجعلوا تفسيرهم للشريعة فوق الشريعة نفسها.

الشريعة القديمة كانت قد أمست حروفًا ميتةً محفورةً في الحجر. والشريعة الجديدة التي علّمها هو، هي روحٌ حيٌّ يخفق فيه روحه، ويبتغي حفرها، عميقةً، في صميم القلوب. الشريعة كانت قيدًا وقسرًا، أمّا شريعته فرباط قناعةٍ، ورضًى داخليٌّ. تلك كانت تصنع عبيدًا، وهذه تنجب قلوبًا حرَّةً. تلك كانت ترهب، وهذه توحي بالحبّ. تلك خارت قواها، وفقدت العزيمة، وهذه تُمِدّ البشر بقوّة اللّه. تلك صُوَرٌ

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «أنتم ملح الأرض»، صفحة ١٧٤.

(**) راجع **يسوع في إنجيله**: «أنتم نور العالم»، صفحة ١٧٨.

ورموزٌ، وهذه جوهرٌ وواقعٌ. تلك وعدت، وهذه حقّقت الوعود. تلك لم تطالب إلاّ بكمالٍ نسبيٍّ، وهذه لا ترتضي إلاّ بمثل كمال الله. ولذلك حذّر يسوع تلاميذه: «**إنّي أقول لكم، إنّكم إن لم يزد برّكم على برّ الكتبة والفرّيسيّين، فلن تدخلوا ملكوت السماوات**».

لقد جاء يسوع لكي يطوّر، ويتمّم، ويسوق إلى الكمال كلّ ما أمر به الله، ولكي يحقّق النبوءات، ويزيل كلّ ما يُحيق بالوحي القديم من ظلمةٍ ولَبْس، وينفث في سنَن الأخلاق روحًا ساميًا، ويستعيض عن الطقوس الرمزيّة بعبادةٍ قلبيّةٍ جليلةٍ أكثر جدارةً بالله. ما كان قد وُضع لغايةٍ تثقيفيّةٍ، ولفترةٍ محدّدةٍ، آن له أن يتّخذ قيمةً مطلقةً، وشأنًا أبديًّا. وآن للشوائب الكثيرة العالقة بالشريعة الموسويّة أن تزول، فهي كانت سياسيّةً بقدر ما كانت دينيّةً. وكانت تُخضع سعادة الفرد لرفاه الجماعة. والمكافآت التي كانت تعد بها لم تكن تتخطّى عتبات الأرض. كانت تستهدف الأفعال الخارجيّة، ولكأنّ لا شأن للاستعدادات الداخليّة. تقتصر على الأوامر والنواهي، ولا تعير اهتمامًا للنصائح التي تقود إلى الكمال. تقول: «افعل هذا، وامتنع عن ذاك»، ومن خضع لها، حرفيًّا، ومادّيًّا، ظنّ نفسه كاملاً مرضيًّا لدى الله.

ولكن، في الواقع، من استقراء بنود تعليم يسوع الجديد، يتّضح أنّ الإنجيل هو تحويلٌ للتشريع الموسويّ أكثر منه استمرارًا له، وهذا يتجلّى من خلال الصيغة التي أعلن فيها تعليمه، كما من خلال جوهر هذا التعليم الذي كثيرًا ما ينقض الماضي.

ففي الصيغة قال: «**سمعتم أنّه قيل للأقدمين... أمّا أنا فأقول لكم..**». وما هذا التعارض بين ما قيل وما يقوله يسوع إلاّ إعلان تشريعٍ جديدٍ يحلّ محلّ التشريع الموسويّ، وكلّ تشريعٍ مستمدٍّ من روح الأرض، في كلّ زمانٍ.

«**سمعتم أنّه قيل...**» وما يزال يقال من تعاليم ونصائح، ليست سوى تسوياتٍ بين الغرائز والعقل، بين المُثُل العليا، والتقاليد الشائعة. «سمعتم أنّه قيل...» على لسان موسى وبوذا، وكونفوشيوس، وأرسطو، وما سيُقال على لسان فلاسفة الأجيال المتعاقبة، ومعلّميها. «**أمّا أنا فأقول لكم...**» الآن، وفي كلّ زمن... قولٌ يحمل كلّ معاني المطلق.

– «**سمعتم أنّه قيل للأوّلين: «لا تقتل»، فإنّ من يقتل يستوجب القضاء. أمّا**

أنا فأقول لكم إنَّ من غضب على أخيه يستوجب القضاء. ومن قال لأخيه «رَقّا» يستوجب حُكم المجلس. ومن قال: «يا معتوه» يستوجب جهنّم النار. وإذن، فإن جئت بقربانك إلى المذبح وتذكّرت هناك أنّ لأخيك عليك شيئًا، فدع قربانك هناك، قدّام المذبح، وامضِ أوّلاً فصالح أخاك، وحينئذٍ ائتِ وقرّب قربانك»(*).

«بادر إلى موافقة خصمك ما دُمت معه في الطريق لئلاّ يُسلمك الخصمُ إلى القاضي، والقاضي إلى الشُّرطيّ فتُلقى في السجن. فالحقّ أقول لك إنّك لا تخرج من هناك حتّى تؤدّي آخر فلسٍ عليك» (متّى ٥: ٢١ – ٢٦).

الشريعة تحكم بالموت على القاتل المتعمّد، وقد تمادى الكتبة في الجدل حول القتل، والظروف التي تحلّله، والعقوبات التي يستأهلها القاتل. ولكنّ يسوع يمضي إلى أبعد من ذلك بكثيرٍ. إنّه ينفذ إلى جذور النوايا حيث تولد الرغبة في القتل، بُغيةَ اجتثاثها. فلا يقتصر على إدانة جريمة القتل المادّيّة، بل يدين مشاعر البغض التي توحي بالقتل، وتقتل نفس صاحبها. وقد قال القدّيس يوحنّا: «**من يبغض أخاه، فهو قاتلٌ في نفسه**». وهو يدين سورات الغضب. ثمّة غضبٌ مقدّسٌ، تلهمه غيرة الله، والرغبة في الإصلاح. أمّا الغضب الذي يدينه يسوع، فهو ذاك الذي توري سعيره الكراهية. وعندما تواكب انفجار الغضب ألفاظ ازدراءٍ وتحقيرٍ، فالخطيئة ترتدي مزيدًا من خطورةٍ. وإن كانت الإهانة تستوجب الإعدام، ونار جهنّم، فما بالك بالقتل المتعمّد؟

– «سمعتم أنّه قيل: «لا تزنِ». أمّا أنا فأقول لكم إنّ من نظر إلى امرأةٍ في شهوةٍ، فقد زنى بها في قلبه. فإن عثّرتك عينك اليُمنى فاقلعها وألقِها عنك بعيدًا. فإنّه خيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدُك كلّه في جهنّم. وإن عثّرتك يدُك اليُمنى فاقطعها واطّرحها عنك بعيدًا، فإنّه خيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك، ولا يذهب جسدُك كلّه إلى جهنّم».

وقيل: «من طلّق امرأته فليدفع إليها كتاب طلاقٍ». أمّا أنا فأقولُ لكم إنّ

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «من حبّ الشريعة إلى شريعة الحبّ»، صفحة ١٨٢.

من طلّق امرأته - إلاّ في حالة الزنى - حمَلها على الزنى. ومن تزوّج مطلّقةً فهو زانٍ» (متّى ٥: ٢٧- ٣٢).

الشريعة تحظر الزنى وتعاقب المشتركيْن فيه. ولكنّ يسوع يدين نيّة الزنى التي تولّدها الشهوة الفاسقة، والخاطرة العكرة، لا لأنّها قد تقود إلى فعل الزنى، فحسب، بل لأنّها سيّئة في ذاتها، وتفضي إلى تدمير طهر القلب وبراءته، وإلى إسدال سُجُفٍ صفيقةٍ بين الله والنفس. وقد دعا يسوع إلى اجتثاث النوايا الخبيثة، ولو بعمليّةٍ جراحيّةٍ أليمةٍ. وهو لا يرضى بأيّة مهادنةٍ مع الغرائز السفلى، ويحذّر حتّى من النظرة المشوبة بشهوةٍ فاسقةٍ.

كثيرون أدانوا فعل الزنى، أمّا يسوع فيحذّر من نيّة الزنى، حتّى لو ظلّت حبيسة الصدور. فكلّ من ألقى على امرأةٍ نظرة شهوةٍ، فقد ارتكب في قلبه زنًى لا يقلّ خطورةً عن فعل الزنى نفسه. فنيّة الخطيئة هي خطيئةٌ. وإن كان فعل بعض الأمور شرًّا، فالرغبة في فعلها شرٌّ لا يقلّ خطورةً. إنّ يسوع يتغلغل إلى مظانّ القلوب، ويريدها نظيفةً، لكيلا تولّد القذارة. فاجتثاث الشرّ من جذوره، بل تدمير بذوره قبل أن تضرب جذورًا، خيرٌ من مكافحته عندما ينمو.

وبذلك رفع يسوع من شأن العفّة والبتوليّة، وأعاد للزواج قدسيّته وديمومته، فحتّى عندما يملّ الرجل جسد زوجته يبقى مسؤولاً عن روحها.

وقد تبدو بعض أقوال يسوع على جانبٍ من المغالاة مثل قوله: **إن عثّرتك عينك فاقلعها؛ وإن عثّرتك يدك فاقطعها**... ولكن لم يكن عسيرًا على مستمعيه إدراك مرماها، فهي تأكيدٌ وتشديدٌ على ما قصد قوله. فيسوع عليمٌ بوهن الجسد ونزعاته الشرّيرة، ولذلك، إنقاذًا للنفس، دعا إلى بتر مصادر الخطيئة. هذه الوصايا استفظعها البعض واستنكروها، والبعض أرادوا تطبيقها حرفيًّا فشوّهوها، وجاروا بها عن مرماها. أمّا الذين نفذوا إلى روحها، وعملوا به، فقد ارتقوا على أجنحتها إلى أسمى معارج الكمال والبطولة، وخير نموذجٍ لهذا الفهم، ولهذه الممارسة فرنسيس الأسّيزي، وغاندي، وسواهم كُثُرٌ.

مطالب يسوع مخيفةٌ لأنّ مطامعه لا تقبل بأقلّ من التمثّل بالكمال الإلهيّ.

- **«وسمعتم أيضًا أنّه قيل للأوّلين: «لا تحنث، بل أوْفِ للربّ بأيمانك». أمّا**

أنا فأقول لكم: لا تحلفوا البتّة، لا بالسماء لأنّها عرش الله، ولا بالأرض لأنّها موطئ قدَميه، ولا بأورشليم لأنّها مدينة الملك العظيم. ولا تحْلف أيضًا برأسك لأنّك لا تقدرُ أن تجعل شعرةً واحدةً منه بيضاء أو سوداء، ولكن ليكُن كلامُكم «نَعَم» أو «لا»، فما زاد على ذلك فهو من الشرّير» (متّى ٥: ٣٣ – ٣٧).

لقد حظرت الشريعة الحنث بالقَسَم، وحذّرت من الإسراف في الاستشهاد باسم الله. وكانت أتفه الأقوال تُشفَع بقسم (مثل استخدامنا عبارة «والله» بداعٍ وبغير داع). كان القوم يلجأون إلى القسم لتأكيد أيّ شيءٍ، ويقسمون بكلّ شيءٍ، وفي سبيل التملّص من تبعات قسمهم كانوا يلتمسون لدى الكتبة والرابّيّين منفذًا، فتأتيهم الفتاوى متوافقةً مع المصالح، مخالفةً، أحيانًا، لكلّ منطقٍ سليمٍ. وقد أبدع التلمود في استنباط الفتاوى الرامية إلى التحايل على القَسَم. فأفتى، مثلاً، بأنّ القسم بالهيكل لا يُلزم، أمّا القسم بذهب الهيكل وتقادمه فهو ملزمٌ، لأنّ الذهب والتقادم هي من نصيب الكهنة، ومن ثمّ فهي ترتدي قدسيّةً خاصّةً! وقطعًا لدابر هذه السلوكيّات ولفتاواها معًا، أدان يسوع الإفراط المعيب في استخدام القسم، ودعا أتباعه إلى الاكتفاء بالصدق الخالص، وبقول «نعم» للتأكيد، أو «لا» للنفي، ولا شيء سوى ذلك. فإنّما القسم هو دليل انعدام ثقةٍ متبادلٍ، أو غطاءٌ للكذب. وحيث تسود المحبّة الصادقة، ينتفي الكذب، وتنتفي الحاجة إلى الأيمان.

– **«سمعتم أنّه قيل: «عينٌ بعينٍ، وسنٌّ بسنٍّ » أمّا أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشرّير، بل من لطمك على خدّك الأيمن فقدّم له الآخر أيضًا. ومن أراد أن يقاضيك ليأخذ قباءَك فتخلّ له عن الرداء أيضًا. ومن سخّرك لميلٍ واحدٍ فامضِ معه ميلَيْن. ومن سألك فأعطِه. ومن أراد أن يقترض منك فلا تُولِّه ظهرك»** (متّى ٥: ٣٨ – ٤٢)(*).

شريعة المعاملة بالمثل، هذه، كانت أرقى ما انتهى إليه العدل والحكمة البشريّان، بهدف كسر حلقة ثأرٍ لا نهاية لها، والحدّ من الانتقام العشوائيّ. لكنّها ظلّت دليلاً على البربريّة، واللاتسامح، والحقد. وقد تخطّاها يسوع الذي علّمنا التضحية بالحقوق في سبيل المصالحة والسلام، ومقاومة العنفِ بالرقّة، والجشعِ بالتجرّد، وقهر الشرّ بعمل الخير، والبذل بلا حسابٍ.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «من ضربك على خدّك الأيمن»، صفحة ١٩٠.

هذه الشريعة كانت تخيف المجرم، إلاّ أنّها كانت تشحذ لدى الضحيّة وذويه غريزة الانتقام ومتعتها، وقد ارتأى بعض الحكماء الاستعاضة عن وحشيّة هذه الشريعة باستبدال التعويض العينيّ، بتعويضٍ ماليٍّ. ولكنّ يسوع رفض فكرة الثأر من جذورها وأدان مقابلة الشرّ بمثله. واستعاض عنها بأنبل ما سما إليه فكرٌ بشريٌّ، داعيًا إلى مقابلة الشرّ بالإحسان. فالثأر ثمرة الحقد، والحقد يولّد الحقد والعنف. أمّا البريء الذي يمدّ، لمن يصفعه، الخدّ الآخر، فهو كفيلٌ بتحطيم سلسلة العنف. بهذه الوسيلة يعلّمنا يسوع قهر العداوة بمواجهتها بقوّةٍ أدبيّةٍ أسمى منها. هذا الموقف هو الذي يولّد الأبطال، وكبار النفوس، والقدّيسين، ومباركي الله، الذين يصبحون نور العالم، وملح الأرض، وخميرة الجماهير، ونخبة الشعب، وعامل تحويل الوجود. وقد عبّر يسوع عن تعليمه الجديد هذا بأقوالٍ خالداتٍ، لم تخطر، قطّ، ببال بشرٍ، وبرغبةٍ في التطلّع إلى ما لا يرضى بأقلّ من التمثّل بكمال الله نفسه.

يسوع يريد تحويل النمر الثاوي في أعماق الإنسان إلى حَمَلٍ، والاستعاضة عن الانتقام والعنف بالمحبّة والغفران، وإقامة شريعة أبناء الله فوق شريعة البشر الطبيعيّة. قد تفلح المقاومة في ترويض الخصم، بيد أنّ الرحمة تحوّل قلبه، وهي قد تفضي بصاحبها إلى الاستشهاد، ولكنّ بطولة الاستشهاد كفيلةٌ بهزّ قلوب الجلاّدين أنفسهم، لأنّها الانتصار الحقّ الذي يتوّج القوّة الأرفع سموًّا. تلك هي العلامة الإلهيّة التي تميّز تلاميذ من سلّم جسده للجلاّدين، وخدّيه للصفع والبصاق، ولم يقاوم، بل كان كشاةٍ تساق إلى المسلخ. إنّه تعليمٌ يرقى بالبشر عاليًا، ولطالما ولّد، وما برح يولّد الشهداء، أبطال الوداعة المطلقة، ويحوّل الإنسان من الانتقام والقتل إلى المسامحة، والتضحية بالذات.

لم يضع يسوع وصايا محدّدةً للتعامل مع القريب، ولم يكن لـه من قياسٍ سوى الحبّ، والعطاء، والتضحية، بلا قياسٍ. ودعا إلى الارتقاء فوق كلّ معايير الأرض، بل فوق النجوم، دافعًا إلى بذلٍ وتسامحٍ مذهلَيْن: «**من لطمك على خدّك الأيمن، فقدّم له الآخر أيضًا... ومن سخّرك لميلٍ واحدٍ، فامضِ معه ميلين...**»(*).

– «**سمعتم أنّه قيل: «أحبب قريبك، وأبغض عدوّك». أمّا أنا فأقول لكم: أحبّوا**

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «مقتضيات يسوع»، صفحة ٢٠١.

أعداءكم، وأحسنوا إلى من يبغضكم، وصلّوا لأجل الذين يضطهدونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات: فإنّه يُطلعُ شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين. فإنّكم إن أحببتم من يُحبّكم فأيُّ أجرٍ لكم؟ أفليس العشّارون أنفسُهم يفعلون ذلك؟ وإن سلّمتم على إخوتكم فقط فأيّ شيءٍ عَجَبٍ تفعلون؟ أفليس الوثنيّون أنفسهم يفعلون ذلك؟ فأنتم، كونوا كاملين كما أنّ أباكم السماويّ كامل» (متّى ٥: ٤٣ – ٤٨)(*).

تعليم يسوع الداعي إلى المسامحة ومقابلة الشرّ بالإحسان، لا يمكن فهمه وممارسته إلاّ في إطار المحبّة الشاملة. وقد تعذّر على اليهود فهمه لأنّهم أَلِفوا بغض كلّ من لا يشاركهم الجنس، والدين، والمعتقد، والعبادة. فقد عدّوا حتّى إخوتهم السامريّين الذين خالفوهم الرأي بشأن الهيكل رجسًا ونجاسةً. تقواهم كانت احتقارًا للغير، وبُغضًا. بل كان بغضهم للغير واجبًا.

ويسوع دعاهم إلى كسر تلك الحلقة المميتة من التعصّب والبغض التي أَلِفوا دفن ذواتهم في إطارها، كي ينطلقوا إلى أجواء المحبّة الشاملة المنعشة.

ربّما لم ترد في كتب العهد القديم توصيةٌ صريحةٌ ببغض الأعداء، ولكنّ كلّ كتبهم التاريخيّة، والمزامير، والنبوءات تنضح بهذا الحقد. ونورد، مثالاً على ذلك، ما جاء في المزمور ١٠٩ (٦–٩):

«أقِمْ عليه شرّيرًا، وليقف متّهمٌ على يمينه،
إذا حوكم فليخرج مذنبًا، لتكن صلاته خطيئةً،
لتكن أيّامه قليلة، وليتولّ منصبَه آخر،
ليكن بنوه يتامى وامرأته أرملة

وقد جاء في وصايا رهبان قمران: «أحبّوا أبناء النور، وأبغضوا أبناء الظلمة». ولكنّ يسوع دعا إلى حبّ الجميع حتّى الأعداء، على غرار الله، ودعا، في ميدان الحبّ، إلى سخاءٍ بلا حدودٍ، لأنّ الله لا يرتضي إلاّ بكلّ القلب، ولأنّ يسوع يطمح لنا بسموٍّ لا حدود له، فالحبّ الحقّ يسمو فوق كلّ حدٍّ بشريٍّ.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «أحبّوا أعداءكم»، صفحة ١٩٢.

وفي مرحلةٍ لاحقةٍ، جاء في إحدى الصلوات اليهوديّة التي كانت تتألّف من ثمانية عشر دعاءً، دعاءٌ يقول: «فليمُت النصارى، والهراطقة، في الحال، وليُمحَوا من كتاب الحياة؛ ولا يكن لهم ذكرٌ بين الأبرار».

أيّة صلاةٍ هذه التي تفيض بغضًا للآخرين؟ وما أبعدها عن صلاة يسوع الحافلة بالصفح والغفران!

بعض حكماء البشر والأنبياء حاولوا ترويض نزعات البغضاء، والحدّ من حدّتها وغلوائها، ولكنّ يسوع ابتغى اجتثاثها من جذورها، واستبدالها بحبّ الأعداء، وهذا الحبّ هو قمّة المفارقة والسموّ.

لقد أبرز يسوع قدرة المحبّة الطاغية، فهي لا تقتصر على تخطّي الإهانة، بل تمتدّ إلى حبّ الأعداء، ولا حدود لها سوى عطف الآب السماويّ الذي يُطلع شمسه على الصالحين والأشرار. وإن كان الخطأة أنفسهم يمارسون محبّة الأصدقاء، فمبدأ تلاميذ يسوع: «**كونوا كاملين، على غرار كمال أبيكم السماويّ**».

لقد وجدت المحبّة، على شفاه يسوع، الصِيَغ الأرفع سموًّا. فحِكَم الأقدمين جميعها، وشريعة اليهود، عجزت عن تعليم المحبّة الحقّة. ولم يخطر لها، قطّ، الدعوة إلى حبّ الأعداء. أمّا يسوع فأوصى: أحبّوا على غرار أبيكم السماويّ. إنّه يحبّ حتّى الأشرار الذين يعادونه ويهينونه. فتمثّلوا به، وأحبّوا من يناصبكم العداء.

الحبّ الذي دعا إليه يسوع هو حبٌّ بلا تحفّظٍ، وهو حبٌّ مجّانيٌّ، وإلاّ فهو ليس حبًّا.

مجرّد المحبّة لا يكفيه، فهو يقتضي جنون المحبّة(*). ولو لم يكن مطلبه هذا نابعًا من الحبّ المتجسّد لكان لا يُطاق.

الهوّة، إذن، كانت سحيقةً بين الشريعة الموسويّة، والنموذج الذي رفع يسوع لواءه. وهو قد واجه نقص الشريعة، والفهم الخاطئ لها، بالكمال الذي دعا إليه. فقد استعاض عن الحدّ الأدنى من الخير والفضيلة بالتماس كمالٍ لا حدود له، وبه لا يني المرء يتخطّى ذاته. استعاض عن الشريعة بالنعمة. والمحبّة التي دعا إليها هي أكثر فاعليّةً، والتزامًا بالكفاح من أجل العدالة.

* *

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «حبٌّ بلا قياس: حريّة أبناء الله»، صفحة ١٩٦.

لقد علّم يسوع أنّ عنصر البرّ الأساسيّ هو صفاء النيّة، لأنّ النيّة هي روح كلّ أعمالنا، فإن كانت فاسدةً أو عكِرةً، أفسدت الأعمال، وإن هي صفت سمت بها. حتّى أفضل أعمالنا، إن هي خلت من صفاء النيّة، غدت رذائل، ولم تحتفظ من الخير إلاّ بمظهرٍ وقشورٍ، ومن ينهض بها، وإن لبس لباس الفضيلة، إلاّ أنّه، في عين الله، مراءٍ مرذولٌ.

ولذلك تصدّى يسوع، أيضًا، لممارساتٍ جيّدةٍ في ذاتها، ولكن تفسدها النوايا التي تحدوها، مثل الصلاة، والصدقة، والصوم، عندما يلتمس ممارسها تقدير الناس له، وإكبار فضائله. فهذه الأفعال لا تحافظ على قيمتها إلاّ إذا كانت خالصةً لوجه الله، محاطةً بسرٍّ لا يحيط به سوى الآب السماويّ، بحيث تجهل اليسرى ما فعلت اليمنى:

«احترزوا من أن تصنعوا برّكم قدّام الناس لكي ينظروا إليكم، وإلاّ فلا أجر لكم عند أبيكم الذي في السماوات. فمتى صنعت صدَقةً فلا تُبوِّقْ بها قدّامك كما يفعل المُراؤون، في المجامع والشوارع لكي يمجّدهم الناس: فالحقّ أقول لكم إنّهم قد استوفوا أجرهم. وأمّا أنت فمتى تصدّقت فلا تعرف شمالُك ما تصنع يمينُك؛ لكي تكون صدقتك في الخُفية، وأبوك الذي يرى في الخُفية هو يُجازيك.

«ومتى صلّيتم فلا تكونوا كالمُرائين: فإنّهم يُحبّون أن يُصلّوا قيامًا في المجامع، وفي ملتقيات الطرق، لكي يظهروا للنّاس. فالحقّ أقولُ لكم إنّهم قد استوفوا أجرَهم. وأمّا أنت فمتى صلّيتَ فادخُلْ حُجرتك، وأوصِد الباب، وصَلّ لأبيك الذي هو هناك في الخُفية. وأبوك الذي يرى في الخُفية هو يجازيك.

«وإذا صلّيتُم فلا تُثرثِروا كالوثنيّين: فإنّهم يتصوَّرون أنّهم بكثرة الكلام يُستجاب لهم. فلا تتشبّهوا بهم لأنّ أباكم عالمٌ بما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه» (متّى ٦: ١–٨)(*).

فالبوْن شاسعٌ بين التقوى التي كان يتظاهر بها اليهود، وتلك التي دعا إليها يسوع، والتي كانت تنال رضاه. فالفرّيسيّون كانوا يبوّقون لكلّ صدقةٍ يقدّمونها، على مرأى الملأ، التماسًا لتقدير الناس وتمجيدهم، فيفقد إحسانهم، في عين الله، كلّ

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «كيف نحسن، وكيف نصلّي»، صفحة ٢٠٤.

قيمةٍ. وكانوا يختارون أماكن الصلاة الأشدّ ازدحامًا، ويحرصون على الحضور في الموعد المحدّد، ويختارون مواقع الصدارة، بحيث يراهم الجميع وهم يتصنّعون الخشوع والعبادة، ويعرّضون العصائب على جباههم، وأذرعتهم، إشارةً إلى تديّنهم.

كانوا ينتصبون وقوفًا في المجامع، متمتمين عبارات الصلوات. وأحيانًا يتوقّفون في قارعات الطرق، وزواياها، وفي الساحات، عندما تحين مواعيد الصلاة، كي يتلوا صلواتٍ ببغّائيّةً طويلةً، ولا رغبة لديهم إلاّ في استلفات أنظار الناس. ولذلك أنحى الربّ بالثلب على سلوكهم هذا، وحذّر تلاميذه من التمثّل بهم، وعلّمهم صلاةً بسيطةً، تخاطب أبًا محبًّا عطوفًا، طالبةً تقديس اسمه، وحلول ملكوته، وإتمام مشيئته؛ ولا تسأله سوى الكفاف من العيش، وتعلّم مسامحة الآخرين، على غرار صفحه هو، والقدرة على مقاومة شباك الشرّير. فإذا ما تحقّقت هذه الصلاة أمسى كلّ شيءٍ كاملاً، فلا شرّ، بعد، ولا بغضاء، ولا معوزين ينفقون جوعًا، ولا فوضى، بل سيادة الخير، والحبّ، والإشعاع، والحياة الساجية، والسلام والتناغم، بحيث تصبح الأرض سماءً: الله في الإنسان، والإنسان في الله. إنّ نفس يسوع تسري في هذه العبارات المقتضبة، التي تترجم إلى لغات البشر تنهّدات الروح التي لا توصف، في كلّ الضمائر التي غشتها نفحاته، والتي تقول:

«**فأنتم صلّوا هكذا:**(*)

أبانا الذي في السماوات،
ليتقدّس اسمك،
ليأتِ ملكوتُك، لتكُن مشيئتك،
على الأرض، كما في السماء
خبزَنا كفافنا أعطِنا اليوم.
واترْكْ لنا ما علينا كما تركنا نحنُ لمن لنا عليه.
ولا تدَعْنا في التجربة: بل نجّنا من الشرّير.
فإنّه إن غفرتم للناس زلاّتهم غفرَ لكم أبوكم السماويّ، أيضًا.
وإن لم تغفروا للناس فأبوكم أيضًا لا يغفرُ لكم زلاّتكم» (متّى ٦: ٩– ١٥).

* *

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «أبانا» صفحة ٢٠٩.

الصلاة الحقّة هي حوارٌ بين الإنسان والله، بين الابن وأبيه. هذه الصلاة الداخليّة هي التي تحوّل الإنسان بكامله نحو الله. إنّها حضور الله فينا، وعينٌ محدّقةٌ إلى هذا الحضور في قلب تواضعنا، وفي قلب حرّيّتنا، وفي أعماق كياننا الروحيّ.

وليست الصلاة إقامةً في وضعٍ ضبابيٍّ، حيث تمتزج هواجسنا بأحلامنا. وليست إلقاء رسالةٍ في صندوق بريد اللامحدود، بل هي انفتاحٌ على الله، والتحدُّث إليه بألفةٍ، لا بصفةٍ شخصيّةٍ، بل بالتضامن مع الآخرين، إذ إنّنا ندعوه «**أبانا**».

الصلاة هي الإبحار صوب الله، ووضع الذات في تصرُّفه، من أجل إبراز نور الحياة. وهي أن نقول له، غالبًا، شكرًا.

* *

وكان الكَلَف بالتظاهر يغشى، أيضًا، أصوام الفرّيسيّين. فهم يكثرون منها، ويغالون في ممارستها، فيمتنعون عن كلّ اغتسالٍ أو ادّهان، ويذرون الرماد على رؤوسهم وجباههم، ويمعنون في تكلّف التقشّف. ولكنّ كلّ ذلك كان، في نظر الله، باطلاً، لأنّه لم يكن يبتغي مرضاته، بقدر ما ينشد إيهام الناس، والتماس تعظيمهم، في حين أنّ الصلاة والصوم علاقةٌ شخصيّةٌ بين الله والإنسان، وليسا للتظاهر أمام الناس. لذلك حذّر يسوع من التمثّل بهم:

«**ومتى صُمتم، فلا تكونوا مُعبّسين كالمرائين: فإنّهم يُنكّرون وجوهَهم لكي يظهروا للناس صائِمين. فالحقّ أقولُ لكم إنّهم قد استوفوا أجرَهم. وأمّا أنت فإذا صُمت فطيّب رأسَك، واغسلْ وجهَك، لكي لا يظهر للناس أنّك صائمٌ بل لأبيك الذي في الخُفية. وأبوك الذي يرى في الخُفية هو يُجازيك**». (متّى ٦ : ١٦-١٨).

التطلّع إلى السماء هو، إذن، ما ينبغي أن يحكم أعمالنا ويحدوها، وأن يقدّس واجباتنا. وعلى تلميذ يسوع ألاّ يكتفي بالأرضيّ، والبشريّ، والمخلوق، وأن يتخلّى عن كلّ أنانيّةٍ وحبٍّ للذات، وعن كلّ فرحٍ ومجدٍ باطلَيْن. الآب هدفه ومرتجاه، ولا بغيةَ له سواه. والآب كامنٌ في صميم الضمير والكيان، ولكنّه يرى، ويسمع، ويكافئ، ويبارك، فمن يتطلّع إليه يغمره هو بنوره، ومن يُصغي إليه يُمدّه بقوّته. ومن يكافئه الله ويباركه يتذوّق طعم ملكوته ومجده.

صوب هذا العالَم الإلهيّ، نحو هذه السماء التي يقطنها الآب، يوجّه يسوع، ويرفع قلوب تلاميذه، فكما أنّ النيّة هي روح أعمالنا، كذلك الحبّ هو ملهم نوايانا، وموجّهها. ولكنّ الإنسان أرضيٌّ، جشعٌ، طامعٌ في الربح، لا يرتوي من الثروة، ولا يشبع من كلّ ما هو عابرٌ، زائلٌ. فالمتعة، والامتلاك، والتكديس هي ما يهلكه ويخضعه لعبوديّة المادّة. ويسوع يريده زاهدًا بكلّ ذلك، متحرّرًا من جاذب المادّة، بكلّيّته لأبيه، النبع الذي لا ينضب كيانًا، وحياةً، وقوّةً، وفرحًا، فالآب يقتضي الحبّ كلّه، والإنسان لا يقوى على الجمع بين حبّيْن طاغييْن. والابن الذي يثق بعطف أبيه، وسهره، وسخائه، لا يقلقه تأمين ضروريّات الحياة. إنّ الله يقتضي كلّ الذات، لأنّه هو الكلّ، ويضمن كلّ شيءٍ.

إنّ تلميذ يسوع يتحملّ مسؤوليّة وجوده على هذه الأرض، ويؤدّي واجبات هذا الوجود، ويواجه مِحَنه، ولكنّه لا يروم من الأرض غُنمًا أو ثوابًا، بل يحيا في سبيل وطنٍ آخر، سماويٍّ، خاضعًا لسننٍ أسمى من سُنَن الأرض. يصوم، ولكن بوجهٍ مشرقٍ، وجبينٍ ساجٍ، غير ملتمسٍ من التضحية سوى التجرّد من حطام الدنيا، واتّحادٍ أوثق بالله. يصلّي، ولكنّ صلاته حوارٌ مع الآب في السرّ. يتصدّق ما استطاع إلى الصدقة سبيلاً، ولكن من غير أن تدري يسراه ما جادت به يمناه. يبتغي من العمل الخبز اليوميّ، ولكن في غير قلقٍ على الغد، وفي زهدٍ بالكنوز التي قد يغشاها الصدأ، ويسلبها اللصوص، وبحيث لا يكون قلبه نهبًا بين الله و«مامون»، ويستسلم للعناية متذوّقًا وصايا الربّ ووعوده:

«لا تكنزوا لكم كنوزًا على الأرض حيثُ السوسُ والعُثّ يُتلفان، وحيثُ اللصوصُ ينقُبون ويسرقون. بل اكنزوا لكم كنوزًا في السماء حيثُ لا سوسٌ ولا عُثٌّ يُتلفان، وحيثُ لا لصوصٌ ينقُبون ويَسرِقون. فإنّه حيث يكونُ كنزُك يكونُ قلبُك أيضًا» (متى ٦: ١٩-٢١).

«لا يستطيع أحدٌ أن يكون عبدًا لسيّدين: فإنّه إمّا أن يُبغضَ الواحدَ ويحبّ الآخر، وإمّا أن يلزم الواحد ويَنبُذَ الآخر. فإنّكم لا تستطيعون أن تكونوا عبيدًا لله وللمال.

«من أجل هذا أقولُ لكم: لا تهتمّوا لحياتكم بما تأكلون أو تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبَسون. أفليست الحياةُ أعظم من الطعام، والجسدُ أعظم من

اللباس؟ انظروا إلى طير السماء: إنّها لا تزرع ولاتحصُد ولا تجمعُ في أهراء، وأبوكم السماويُّ يقوتُها. أفلستُم أنتم أكرم عليه منها جدًّا؟ ثمّ من منكم إذا اهتمّ استطاع أن يزيد على قامته مقدار ذراعٍ واحدةٍ؟

«**ولماذا تهتمّون للّباس؟ تأمّلوا زنابقَ الحقل كيف تنمو. إنّها لا تتعب ولا تغزل، وإنّي أقول لكم إنّ سليمان نفسه، في أوج مجدِه، لم يلبس كواحدةٍ منها. فلئن كان عشب الحقل القائم اليوم والذي في غدٍ يُطرح في التنّور يُلبسه اللّه هكذا، فكم أنتم بالأحرى، يا قليلي الإيمان؟**

«**فلا تهتمّوا إذن قائلين: ماذا نأكُل؟ أو: ماذا نشرب؟ أو: ماذا نلبس؟ فإنّ هذا كلّه يطلبُه الوثنيّون بدأبٍ؛ وإنّ أباكم السماويّ يعلم أنّكم تحتاجون إلى هذا كلّه. فاطلبوا أوّلاً ملكوت اللّه وبرَّه، وهذا كُلّه يُزاد لكم. فلا تهتمّوا إذن للغد فالغدُ يهتمّ بنفسه، فحَسْبُ كلّ يومٍ همُّه**» (متّى٦: ٢٤-٣٤)(*).

* *

وعلى ابن اللّه أن يكون بسيطًا شفّافًا يشعّ نوره، ولا يحجب ضياءَه أيّ ظلٍّ. فالنظر العاجز عن رؤية نور اللّه أعمى:

«**سراج الجسد العين. فإن كانت عينُك صحيحةً كان جسدُك كلُّه في النور. ولكن إن كانت عينُك عليلةً فجسدُك كلُّه يكون في الظلام. وإن كان النورُ الذي فيك ظلامًا فيا لـه من ظلام!**» (متّى ٦: ٢٢-٢٣).

فالمرء «لا يرى جيّدًا إلاّ بقلبه» (سانت اكسوپيري).

ومن غَمَره حبّ اللّه، أحبّ إخوته مثل حبّ اللّه لـه ولهم، واتّصف بالتواضع والطيبة والتسامح، ولم يغترّ بنفسه، ولم تخفَ عليه أوهانه وأخطاؤه، فأعرض عن إدانة الآخرين، وترك الإدانة للديّان الوحيد، العليم بالخفايا. وقد عبّر يسوع عن هذه الحكمة بعباراتٍ نابضةٍ حياةً وبصُوَرٍ أخّاذةٍ، فقال:

«**لا تدينوا لئلاّ تُدانوا. فإنّه بالدينونة التي بها تدينون تُدانون، وبالكيل الذي به تكيلون يُكال لكم. لماذا تنظر إلى القذى في عين أخيك، والخشبة التي في**

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «دعابة»، صفحة ١٨١.

عينك لا تفطنُ لها؟ أم كيف تقول لأخيك: دعني أُخرج القذى من عينك، وفي عينك أنت خشبةٌ! فيا مُرائيّ، أَخرج الخشبة من عينك أوّلاً، وعندئذٍ تتبصّرُ كيف تُخرج القذى من عين أخيك (متّى ٧: ١– ٥)(*).

ودعا يسوع إلى التمييز، وعدم العبث بالمقدّسات، وإلى الحرص على مواهب الله، والتحفّظ حيال الإنسان البهيميّ الذي لا احترام لديه ولا وازع، العدائيّ، القذر، وقد صوّر يسوع بالخنازير تلك النفوس المستسلمة لطغيان الغرائز، التي تزدري الحقيقة، وتهين الحبّ، وتقاوم الروح القدس:

«**لا تعطوا المقدّسات للكلاب ولا تطرَحوا لآلئكم قدّام الخنازير، مخافة أن تدوسها بأرجلها، ثمّ ترتدّ عليكم فتُمزّقكم**» (متّى ٧: ٦).

وأهاب بنا أيضًا أن نطلب ما نحتاج إليه من الآب بثقةٍ وإلحاحٍ فنظفر به:

«**اسألوا تُعطَوا. اطلبُوا تجدُوا، اقرعوا يُفتح لكم. فإنّ كلّ من يسأل يُعطى، ومن يطلُب يجدُ، ومن يقرع يُفتح له. أم من منكم إذا سأله ابنُه رغيفًا يُعطيه حجرًا، أو طلب سمكةً يعطيه حيّةً؟ فإذا كنتم، أنتُم الأَشرار تعرفون أن تُعطوا العطايا الصالحة لأولادكم، فكم بالأحرى أبوكم الذي في السماوات يمنحُ الخيرات للّذين يسألونه!**» (متّى ٧: ٧–١١).

ووضع يسوع القاعدة الذهبيّة، قالبًا القاعدة السلبيّة القائلة بالامتناع عن الإساءة إلى الغير مثلما نأبى أن يسيء الغير لنا، وجاعلاً منها مبادرةً إلى عمل الخير الذي نتمنّى أن يفعله الغير لنا، وهذا ما يفترض القضاء على الأنانيّة، واليقين الراسخ بأنّ الله سيعاملنا مثلما نعامل نحن الآخرين، وإن نحن سخونا، لبزّنا هو سخاءً وعطاءً.

«**كما تُريدون أن يفعل الناس لكم افعلوا أنتم أيضًا لهم. لأنّكم إنْ أحْببتُم من يُحبّكم فأيُّ فضلٍ لكم، فإنّ الخطأة أيضًا يُحبّون الذين يحبّونهم. وإن أحسنتم إلى من يُحسن إليكم فأيّ فضلٍ لكم، فإنّ الخطأة أيضًا يفعلون ذلك. وإن أقرضتمُ الذين ترجُون الاستيفاء منهم، فأيُّ فضلٍ لكم، فإنّ الخطأة أيضًا يقرضون الخطأة لكي يستردّوا منهم المثل. ولكن أَحبّوا أعداءَكم. وأحسنوا**

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «من هو الأعمى؟ القشّة و العارضة»، صفحة ٢٢٠.

وأقرِضوا غير راجين شيئًا فيكون أجركم عظيمًا، وتكونوا بني العليّ، فإنّه، هو، يرفُقُ بالجحودين والأشرار، فكونوا رُحماء كما أنّ أباكم رحيمٌ.

لا تدينوا فلا تُدانوا. لا تحكُموا على أحدٍ فلا يُحكم عليكم. اغفروا يُغفر لكم. أعْطُوا تُعطَوا. فإنّكم تُعطَون في أحضانكم كيلاً جيّدًا، مُلبّدًا، مهزوزًا، فائضًا، إذ بالكيل الذي تكيلون به يُكال لكم» (لوقا ٦: ٣١ – ٣٨).

وقد أكّد أنّ أقوالنا وأفعالنا تضرب جذورًا عميقة في نوايانا. فلكي تتّصف أعمالنا بالخير، ينبغي أن تكون أفكارنا مشبعةً به. وانطلاقًا من هذا المبدأ يمكننا تبيّن الدجّالين، والأنبياء الكذبة، واتّقاء الوقوع في شراكهم. أفعالهم هي الكفيلة بفضح حقيقتهم، فلا نستسلمنّ لأقوالهم:

«احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم في ثياب النعاج وهم في الباطن ذئابٌ خاطفةٌ. إنّهم من ثمارهم تعرفونهم: أيُجتَنى عن الشوك عنبٌ، أو عن العوسج تينٌ. فهكذا كلّ شجرةٍ جيّدةٍ تُثمر ثمرًا جيّدًا، وكلُّ شجرةٍ رديئةٍ تُثمر ثمرًا رديئًا. الشجرة الجيّدة لا تستطيع أن تُثمر ثمرًا رديئًا، ولا الشجرة الرديئة أن تُثمر ثمرًا جيّدًا. وكلُّ شجرةٍ لا تُثمر ثمرًا جيّدًا تُقطع وتُلقى في النار. فمِن ثمارهم تعرِفونهم» (متّى ٧: ١٥– ٢٠).

ويختم يسوع بالتحذير من الاكتفاء بالعواطف الجوفاء، والأقوال الكسلى التي لا تُلزم الكيان كلّه، فاللّه إنّما يثمّن الجهد والتضحية. وكلُّ قداسةٍ لا تبنى على أُسس العمل الجادّ، والممارسة الجريئة، دخانٌ يتلاشى، وقصورٌ من رمالٍ:

«ليس كلّ من يقول لي: يا ربُّ، يا ربُّ، يدخل ملكوت السماوات، بل الذي يعمل بإرادة أبي الذي في السماوات. كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم: يا ربُّ، يا ربُّ، ألم نكُنْ باسمك قد تنبَّأنا، وباسمك قد طردْنا الشياطين، وباسمك قد صنَعنا المُعجزات الكثيرة؟ فحينئذٍ أُعلن لهم: إنّي ما عرفتُكم قطّ، فإليكم عنّي، يا فاعلي الإثم!

«فكلّ من سمع أقوالي هذه وعمل بها يُشبه رجلاً عاقلاً بنى بيته على الصخر: فهطل المطر، وجاءت السُيول، وعصفت الرياحُ، وانقضّت على ذلك البيت فلم يسقُط لأنّ أساسه ثابتٌ على الصخر. وكلُّ من يسمعُ أقوالي هذه

ولا يعملُ بها يُشبه رجلاً جاهلاً بنى بيته على الرمل: فهطل المطرُ، وجاءت السيول، وعصَفت الرياحُ، وضربت ذلك البيت فسقط. وكان سقوطُه عظيمًا» (متّى ٧: ٢١– ٢٧).

ويسوع خير نموذجٍ لخير بنّاء، إذ أشاد كنيسته على صخر تلك العظة التي انقضّت عليها عواصف عشرين قرنًا من المقاومة، والبغض، والبدَع، ولكنّها صمدت، وستظلّ صامدةً إلى الأبد، لأنّ أساساتها إلهيّةٌ، منيعةٌ.

* *

بالإجمال ألغى يسوع من الشريعة ما تجاوزته شريعته، وارتقى بالفرائض القديمة، التي نفث في أوصالها الروح، والحبّ، وحرّيّة أبناء الله. لقد نهض بوصايا العفّة، والزواج، والقَسَم، والثأر، ومحبّة القريب، من الحضيض الذي كانت تزحف عليه إلى ذرًى باذخاتٍ، وسما شاهقًا فوق تقاليد الإحسان، والصلاة، والصوم. عظة يسوع على الجبل هي، لمن يتقبّلها، الكنز الحقّ الوحيد، لأنّها تحرّره من كلّ همٍّ نافل، وتقتضي محبّةً أشمل وأسمى كمالاً، وصلاةً أشدّ صدقًا وإلحاحًا. إنّها بابٌ ضيّقٌ، ولكنّها تنقذ الإنسان من ذاته، ومن الأنبياء الكذبة، وتحفزه على عمل الخير. وهي، أخيرًا، صرحٌ مشادٌ على الصخر، صامدٌ يتحدّى الرياح والعواصف والسيول.

إنّها أساس الشريعة المسيحيّة الجديدة. ومن عمل بها، بات ملحًا للأرض، يحفظ البشريّة من الفساد، ونورًا للعالم يهديه إلى الله.

إنّ عظة الجبل تتعارض مع كلّ ما يحبّه العالم، بحيث يصلب العالم كلّ من يرتقي إلى مستواها. العالم كفيلٌ بإيصال من يكرّم روح الفقر إلى أدنى دركات الفاقة، لأنّه لا يؤمن إلاّ بالمال. وهو كفيلٌ بإذلال من يجلّ الودعاء لأنّه لا يؤمن إلاّ بالقوّة، وما انفكّ يستهدي بنيتشه. وهو يهزأ بمن يخشى الخطيئة، وبمن يبكي ندمًا على ما اقترف منها، ويعدّه مأفونًا. أمّا من يقول: «**طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ**»، أي من يلتمس الحقيقة المطلقة، فيرجّح العالم كفّة برأبّا عليه، ويصلبه بين لصّين كي يوهم البشر بأنّه ليس خيرًا من رفيقَي صليبه هذَيْن.

ويختم الإنجيليّ متّى عرضه لجوهر تعليم يسوع بقوله: «**فلّما أتمّ يسوع هذا**

الكلام، بُهت الجموع من تعليمه، لأنّه كان يعلّمهم كصاحب سلطانٍ، وليس مثل كتبتهم» (متّى ٧: ٢٨ – ٢٩).

فيسوع قد تخطّى حكمة الوثنيّين، وآداب الشريعة اليهوديّة. ما استشفّته الحكمة من خلال قناعٍ، أسفر يسوع عن ملء حقيقته الصريحة؛ وما بدأت به الشريعة، أكمله. ما من أحدٍ، قبله، وبعده، لم يجهد في ممالأة الوهن البشريّ والشرّ. ولكنّ يسوع لا يحتاج إلى تسوياتٍ، بل ينطق بكلمة البرّ والقداسة العليا، وله وحده حقّ المطالبة بالكمال، والبطولة، لأنّه، وحده، يبعث في الضمير الواهي، طاقة الله. إنّه ينتزع البشريّة من الأهواء الطاغية عليها، ومن الغضب، والكَلَف بالمتعة، ومن نزعات الانتقام والعنف؛ ويلقّنها الوداعة والزهد، والعطف، والطيبة، والحبّ؛ يقتلعها من الأرض التي ترهقها وتميتها، ويعيدها، مطهَّرةً، إلى الآب السماويّ، الوحيد القادر على منحها السعادة، والحياة اللانهائيّة.

لقد استعاض يسوع عن شريعة الخوف التي سُنّت لشعبٍ بدائيٍّ، بشريعة الحبّ المعدّة لشعبٍ مدعوٍّ إلى كمال الله.

ثورة يسوع لا تحطّم، ولا تدمّر، بل تجدّد كلّ شيءٍ انطلاقًا من القلب، أي من الحرّيّة الراسخة، ومن الالتزام بسُبُل الخير، بدافع الحبّ. لا يسحقها الواقع، لأنّها تنهض به، بزخمٍ داخليٍّ، مثلما تسمق النبتة نحو الشمس، ومثلما يحلّق العصفور نحو اللازورد، ومثلما يستقيم الطفل على قدميه، رغم قوانين الجاذبيّة، فالحبّ لا يحتاج إلى من يلقّنه ما يتوجّب عليه فعله، بل يكتشفه بنفسه.

يسوع لم يدمّر الشريعة، بل حطّم القشور التي كانت تخنقها، وحرّر روحها، وأضفى عليها فيضًا من روحانيّةٍ، وحبٍّ، وبذلٍ للذات. لم يكتفِ بحظر أفعالٍ شرّيرةٍ، بل ابتغى اجتثاث جذور الشرّ التي تنتج هذه الأفعال، فالخطيئة تكمن في القلوب والنوايا، أكثر ممّا هي في الأفعال. لقد حدّد يسوع الخطيئة في منبعها، وقد باتت المأساة تتمّ في داخلنا بين رغباتنا الأكثر خفاءً، وابن البشر الثاوي في سرّ قلوبنا. لم يقتصر على التوصية بعدم إيذاء الغير، بل دعا إلى المبادرة لإزالة غضب الآخر. وتوغّل إلى أقصى الحدود، فدعا إلى حبّ الأعداء، وكانت تلك ذروة ثورته الروحيّة(*).

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «ما جئت لأنقض بل لأتمّم»، صفحة ١٨٧.

وليس الألم، في تعليم يسوع، عقبةً بل هو وسيلةٌ، فالذين يتجرّدون من كلّ شيءٍ يمتلكون الله، والمتألّمون يسعدون، والودعاء والمتواضعون هم الأقوى؛ والمضطَهَدون هم المنتصرون، والجياع والعطاش إلى البرّ هم المرتوون؛ والقلوب المطهّرة من كلّ أنانيّةٍ وشهوةٍ، تعاين الله، والتضحية هي المحَلِ الكفيل بزعزعة العالم ورفعه.

ذلكم هو تشريع يسوع، في جماله المطلق الذي ما انفكّت أجيال البشريّة تتأمّله بدهشةٍ، وتهتدي به. إنّه الهرم المنتصب، ثابتًا، شامخًا، وسط الرمال المتحرّكة التي تتخبّط فيها البشريّة.

لقد أحسن الإنجيليّ متّى صنعًا في جعل عظة الجبل في مدخل الإنجيل. وقد كتب «سانت بيڤ» (Sainte Beuve)(*): «يمكن القول إنّه، في اليوم الذي أُلقيت فيه تلك العظة، على قمّة تلّةٍ في الجليل، اعتلن شيءٌ جديدٌ وغير متوقّعٍ في التعليم الأخلاقي... لّما شرع ذلك الناصريّ، ابن الثلاثين عامًا، الفرد البسيط، الذي لا سلطة مرئيّةً له، ولا يقود أُمّةً، ولا يستمدّ إلاّ من ذاته شعورًا برسالةٍ إلهيّةٍ، يتكلّم على هذا النحو، وبهذه الطريقة المفعمة عذوبةً وقوّةً، ورقّةً، وجرأةً، وبراءةً، وإقدامًا، معًا، استُهلّ عهدٌ أخلاقيٌّ جديدٌ».

ولا عجب إن بُهت المستمعون متأثّرين بشخصه الذي جمع السلطة والوقار إلى العذوبة والسحر، وبتعليمه الذي قرن الحقيقةَ المطلقةَ بالبساطة والسموّ، وعظمة الأهداف والمقتضيات. ومن خلال كلّ ذلك تجلّى يسوع مشرّعًا فذًّا ينطق بلسانه، ويسنّ شرعته، على نقيض الكتبة والفرّيسيّين الزاحفين على أرض الحرف الموروث الهزيل.

لقد كانت عظة الجبل أساس التحوّل الروحيّ المقتضى من أجل إحلال ملكوت الله على الأرض. فمن خلال صفحاتٍ قليلةٍ، مقتضبةٍ، تجلّى روح يسوع الفذّ، وتألّق أكثر الخطابات البشريّة جدّةً، وثوريّةً، وخصبًا، وأبديّةً. ولا بدعَ، فهو خطابٌ إلهيٌّ.

(*) كاتبٌ وناقدٌ فرنسيٌّ (١٨٠٤– ١٨٦٩).

مَسْحَةُ عِطْرٍ

كانت عظة الجبل في حياة يسوع العلنيّة، وفي ميدان نشر رسالته، عمل سلطةٍ مطلقةٍ. فبصفته مشرّعًا ومعلّمًا، لا يخضع لسلطة أحدٍ سواه، أملى شريعته على كلّ ضميرٍ، وصاغ وصاياه، ونفث روحه. لم يبلّغ أوامر الله، كالأنبياء، بل تكلّم باسمه لأنّه الله. لم ينفِ موسى، بل أكمله وتخطّاه، ولكنّه دحض تعاليم فقهاء الشريعة التقليديّة، وأخضعها لأخطر اتّهام. وأعلن أنّه هو المعلّم الوحيد، الذي ينبغي الإصغاء لتعاليمه.

هذا الموقف سعّر نيران غيظ العالم الرسميّ الذي لم يُرِد أن يرى في يسوع سوى مشاغبٍ. وبقدر ما كان شأنه ينمو، كان العداء له يستفحل، والمكائد والتهديدات تتضاعف.

ولكن، وسط هذا الجوّ المكفهرّ المرهق، وفّر الآب لابنه أيّامًا هادئةً، ودفع، في إثره، نفوسًا وديعةً، واثقةً، تعزّيه من مقاومة أعدائه، وتمكّنه من إظهار قدرته الإلهيّة، متيحةً لـه المتعة الوحيدة التي التمسها بين البشر: شفاء المرضى، وتعزية الحزانى، وخلاص الخطأة.

وقد جاءت حادثة المرأة الخاطئة مصداقًا لأقواله في الفرّيسيّين، ولعطفه على الخطأة التائبين.

* *

سمعان فرّيسيٌّ ثريٌّ أقلقه الترحيب الشعبيّ الذي كان يحظى به نبيّ الناصرة، صانع المعجزات الذي يحرّك، من حوله، أمواجًا من الجماهير، حيثما مضى، ويدوّي اسمه في كلّ محفلٍ، وتشطر تعاليمه الناس بين معجَبٍ ومستنكرٍ. فدعاه إلى عشاءٍ في بيته، بُغيةَ سَبر دخيلة نفسه، واستبيان حقيقة هويّته.

لم يكن يسوع يستمرئ مثل هذه الدعوات، ولكنّه لا يتخلّف عنها، ويجعل منها، دائمًا، مناسبةً لعمل رأفةٍ، أو لتعليمٍ سامٍ.

وكانت تقاليد الضيافة تقضي بأن يقبّل المضيف ضيفه، وأن يغسل، هو أو أحد خدمه، قدميه، وأن يسكب على شعر رأسه ولحيته زيتًا عَطِرًا.

ولكنّ استقبال سمعان ليسوع كان باردًا وجافًّا، وخلا من كلّ مظاهر التكريم هذه، واقتصر على إيمائه لـه إلى مكانه من المائدة. فقد كان سمعان يخشى انتقاد زملائه الفرّيسيّين له، إن هو خصّ يسوع باستقبالٍ حارٍّ.

لقد استقبل ضيفه باحترامٍ حَذِرٍ، متجنّبًا إظهار الكثير من المودّة، أو المغالاة في الإنفاق، كي يثبت لنظرائه أنّه إنّما استقبل الناصريّ بدافع الفضول، لا غير.

ولئن ارتضى يسوع الجلوس إلى مائدته، فلأنّه كان يرى، آتيةً إليه، تلك المرأة، حاملةً إناء العطر الرخاميّ، واحدةً من آلاف النساء اللواتي انتُهكت أجسادهنّ وأرواحهنّ، وتألّمنَ، من جرّاء ذلك، حتّى الموت؛ تلك الخطيئة التي انقلبت، بالتوبة، حبًّا.. لقد ناء كاهلها بوقر ماضٍ مثقلٍ بالفسق، فجاءت توّاقةً إلى التوبة والطهر، وموقنةً أنّها لن تحظى بهما إلاّ على يد ذاك الذي حلّ ضيفًا على بيت سمعان؛ فدخلته، بلا استئذانٍ.

كم احتاجت من جرأةٍ كي تواجه أولئك الفرّيسيّين الذين كانوا يلتهمونها بعيونهم، ويرشقونها بنظرات ازدراءٍ تقطر شهوةً، ورياءً! كانت قد سمعت أقوال المخلّص فاهتزّت أركان كيانها، ووطّدت العزم على نبذ سُبل الضلال التي طالما سلكتها، والانطلاق على دروب النور، في إثر يسوع؛ وجاءت كي ترسّخ انقلابها النفسيّ، وتقدّم آيات الشكر لمن انتشلها من مستنقعها، وكي تنال، من يديه، بركةً تؤازرها على المضيّ قُدُمًا، بثباتٍ، في نهجها الجديد. ولا ريب أنّها كانت، في أغوار قلبها، موقنةً أنّ يسوع هو الكائن الوحيد الكفيل بنفحها رجاءً جديدًا بحياةٍ نظيفةٍ، قشيبةٍ.

وكان يسوع، جريًا على العادة المتّبعة في المآدب، مضطجعًا على فراشٍ، متّكئًا على راحة يده اليسرى، وقد ثنى ساقيه خلف ظهره، فجثت عند قدميه، وأطلقت العنان لدموع ندمها وتوبتها، فغرّقت بها رجلَي المخلّص. وإذ لم تكن تملك ما تمسحهما به، مسحتهما بحرير شعرها السَبْط. ثمّ استلّت من صدرها قارورة عطرٍ نفيسٍ غالي الثمن، فكسرتها وسكبتها على قدميه. ربّما تمنّت أن تسكب ذلك العطر على رأس يسوع ولحيته، ولكنّ خَفَرها وندمها منعاها من التطلّع إلى أعلى من قدميه.

لم تسكب العطر قطرةً قطرةً، كي يقدّر الموجودون ثمنه، وكمن يفي دينًا، وهو مُكرَهٌ، متردّدٌ، بل أفاضته دفعةً واحدةً، مثلما كانت تسكب ندم نفسها، وتقذف عنها وقر عارها.

العطر حاجةٌ أساسيّةٌ للغانية، وما تضحية تلك المرأة بعطرها الثمين سوى تعبيرٍ عن توبتها الناجزة، وبتر صلتها بماضيها. ومن جانبٍ آخر، كان إرسال شعر المرأة، علنًا، على الملأ، مدعاة مذلّةٍ، وسببًا وجيهًا لتطليقها. وقد كال التلمود أجمل مديحٍ للمرأة التي لا ترسل شعرها، أبدًا، حتّى أمام زوجها. وما كان فعل المرأة سوى الدليل على المذلّة التي ارتضتها، إكرامًا لمخلّصها.

وأكبّت على قدمَيْ مخلّصها تقبيلاً. كانت جرأتها تضجّ حبًّا، ودموعها تنضح توبةً، وسكب عطرها يعبّر عن تضحيتها وتجرّدها. ولكنّها التزمت صمتًا مطبقًا، وأمسكت حتّى عن رفع أبصارها إلى مخلّصها. غير أنّ ما واكب صمتها من مبادراتٍ، وما ارتسم على محيّاها من انفعالاتٍ كان أبلغ تعبيرٍ وأعذبه عن التهاب عواطفها وصدقها، عن شكرها الدفّاق، وندمها الحارق، ونبل مقاصدها. واعتصم يسوع، أيضًا، بالصمت والسكون، ولكأنّه غريبٌ عمّا يدور من حوله. ولا ريب أنّ الملائكة وقفت مذهولةً أمام ذلك المشهد المدهش. ولكنّ وجه سمعان ارتسمت عليه بسمةٌ ساخرةٌ سرعان ما أعقبتها تكشيرة استنكارٍ. فقد حدّثته نفسه أنّ هذا النبيّ المزعوم قد فشل في الامتحان، وأثبت أنّه لا يمتلك من النبوءة أثرًا، وإلاّ «**لعلم من هي هذه المرأة التي تلمسه، وما حالها: إنّها خاطئةٌ**». ففي يقينه أنّ صبغة الخطيئة ملتصقةٌ بها إلى الأبد، وأنّ ملامستها رجسٌ مغرقٌ في البشاعة. لقد أوصد دونها كلّ أبواب التوبة والهداية، ولم يكلّف نفسه عناء البحث عمّا دفعها إلى المستنقع الذي غرقت في مياهه الآسنة، والذي ربّما كان لسمعان ولنظرائه يدٌ طولى فيه. لم يسائل نفسه، لحظةً، هل هي كانت راضيةً عمّا انتهت إليه، أو، ربّما، أُرغمت عليه، وعافته نفسها، بحيث جفاها النوم، لياليَ وأيّامًا، وهجرت السكينةُ قلبَها.

إزاء مثيلات تلك المرأة يقف العالم أحد موقفَيْن: أو إنّه يأبى الإدانة، أو يأبى الصفح. قد يغضّ الطرف غضًّا لئيمًا، أو يدين بقسوةٍ لا رحمة فيها. أمّا اللّه، فهو، حيال التوبة، يغفر ويطهّر. وكان من شأن سمعان وأترابه أن يقابلوها بنفورٍ وقرفٍ، وأن يطردوها بعنفٍ، كي يظهروا نصاعة فضائلهم.

وكان يسوع يقرأ ما يجول في خلد سمعان بل كان يسمع أفكاره، على حدّ قول القدّيس أوغسطينُس، فقال لـه، برقّةٍ تكاد لا تخفي عاصفة غضبٍ تزمجر في داخله: «**يا سمعان، عندي شيءٌ أقولـه لك... كان لُمداينٍ مديونان، على أحدهما خمس مئة دينار، وعلى الآخر خمسون. وإذ لم يكنْ لهما ما يُوفيان به، سامحهما كلَيْهما، فأيّهما يكون أكثر حبًّا لـه؟**» **أجاب سمعان وقال:** «**هو، في ما أرى، الذي سامحَهُ بالدَّين الأكبر**» **فقال له:** «**إنّك بالصواب حكمتَ**».

والتفت نحو المرأة، وقال لسمعان: «**أترى هذه المرأة؟ إنّي دخَلتُ بيتَك فلم تسكُبْ على قَدَميَّ ماءً، وأمّا هي فبالدُّموع قد غسَلت رجليَّ، وبشعر رأسها قد مسحَتْهما. وأنت لم تُقبّلني، وأمّا هي فمُذْ دخلت لم تكُفَّ عن تقبيل رِجْليَّ. أنت لم تدهَنْ رأسي بزيتٍ، وأمّا هي فبالطِّيب دهنَت رجْليَّ. من أجل ذلك أقولُ لك إن خطاياها، خطاياها الكثيرة، قد غُفرت لها، بما أنّها قد أحبَّتْ كثيرًا. أمّا الذي يُغفر له قليلٌ فإنّه يُحِبُّ قليلاً**».

ثمّ قال لها: «**إنّ خطاياكِ قد غُفرت**». **فأخذ المتّكئون معه يقولون في أنفسهم:** «**من يكون هذا حتّى ليَغفر الخطايا أيضًا؟**» **وقال للمرأة:** «**إيمانُك قد خلّصك فاذْهبي بِسلام**» (لوقا٧: ٤٣-٤٩).

كم كان يسوع يحبّ الذي يؤثرونه على نجاساتهم!

سمعان أخذ على يسوع، في قلبه، عجزه عن تبيّن حقيقة المرأة، وردّ عليه يسوع: «**أترى هذه المرأة؟**» أي أنت لا ترى منها سوى ما تريد أن تراه، وقد عميتَ عن جوهرها. أنت وأضرابك لا ترون الخطيئة إلاّ عند الآخرين، لأنّكم تخالون أنفسكم كاملين، فتعمون عن خطاياكم.

وما أكثف عمى الذين يأبون أن يروا! سمعان يرفض رؤية الأمور تحت نورٍ جديدٍ. ولم يرَ في تلك المرأة، مع كلّ تعابير توبتها، سوى خاطئةٍ حقيرةٍ منبوذةٍ من جماعة المحترمين، وأداة نجاسةٍ. ولم يرَ يسوع، في مجادلته، جدوى، فآثر أن يروي لـه مثلاً، كي يحمله على استخلاص العبرة بنفسه.

وبقوله عنها: «**أحبّت كثيرًا**»، أراد يسوع مقارنتها بالمدين الآخر، المتمثّل في الفرّيسيّ، فهو، ظاهريًّا، قليل الخطايا، ولكنّه خالٍ من الحبّ، وفي نظر يسوع،

الخطايا عائقٌ دون ولوج الملكوت، ولكنّها خاضعةٌ للغفران، أمّا خلوّ القلب من الحبّ، فهو عائقٌ لا يمكن تخطّيه. والفرّيسيّ الراضي عن ذاته قد يبلغ عتبة الملكوت، ولكنّ افتقاره إلى الحبّ سيحول دون اجتيازه لها. أمّا تلك التي كانت خاطئةً، وكرهت خطيئتها، فهي تجري بسرعةٍ قصوى صوب الملكوت، يحدوها الحبّ.

أوَ لم يقل يسوع للفرّيسيّين، يومًا: «**الحقّ أقول لكم إنّ العشّارين والبغايا سيسبقونكم إلى ملكوت الله**» (متّى ٢١: ٣١)، بفضل تواضعهم، وتوبتهم، وانفتاح قلوبهم؟

لقد امتدح يسوع تلك المرأة لأنّها تابت بقدر ما أخطأت، وأحبّت بقدر ما تابت. وكان درس يسوع واضحًا: فالشأن كلّه للحبّ، للعطاء، لا للرغبة؛ وللمجّانيّة، لا للجشع. وقبل أن يفرغ من درسه التفت يسوع إلى المرأة، وقال، برقّةٍ متناهيةٍ، لتلك الخاطئة الكبيرة التي أصبحت التائبة الكبيرة: «**مغفورةٌ لك خطاياك. إيمانك خلّصك فامضي بسلام**». السلام والحبّ صنوان متلازمان. كان قد لمس صدق حبّها وتوبتها، فلم يوصِها بأيّ شيءٍ آخر. توبتها، ودموعها التي هي دماء قلبها، حسب تعريف القدّيس أوغسطينُس، كوفئت، في الحال، بملء الحبّ، في حقيقة الله.

لقد سكب يسوع نفسه في ذلك الغفران الذي منحه لتلك التي ازدراها المراؤون، وأدانوها بقسوةٍ. لقد ألقى عليها نظرةً من الطهر غسلتها من أدرانها، وعوّضها عن إكليل البراءة الذي ذبل، بإكليل التوبة الصادقة، والحبّ الذي نال الصفح وجعل منها رسول التوبة والتكفير.

كان اليهود يعلّمون أنّ المرء يتنجّس بمجرّد ملامسته كائنًا غير طاهرٍ، وبالتالي استنكروا إحجام يسوع عن ردع المجدليّة التي لمست قدميه.

ولكن وفق شريعة يسوع الجديدة، طهرت المجدليّة، ويسوع لم يتنجّس. تلك هي الثورة الأخلاقيّة والطقسيّة الكبرى التي أحدثها يسوع، منبع كلّ طهرٍ.

هذا اللقاء بين الطهر المتجسّد، والخطيئة المتجسّدة، يُسيل العزاء في نفوس من لا يكفّون يصارعون، ويقيمون السدود، لدرء مدّ الدم والرغبة الذي لا يفتر لـه صَخَبٌ. ولكأنّ يسوع تعمّد استثارة طغمة الفرّيسيّين المرائين المحيقين به، والذين ساءلوا

أنفسهم، مستنكرين: كيف يتجرّأ هذا على غفران الخطايا، والغفران وقفٌ على الله وحده! وقد غرب عن بالهم أنّهم في حضرة الإله المتجسّد!

* *

كتم الإنجيليّ، بخَفَر، اسم المرأة، ولكنّ التقليد يكاد يُجمع على تعرّف مريم المجدليّة فيها. إنّها من تلك النفوس التي يقودها الهوى، فتضحّي، في سبيله، بكلّ شيءٍ، حتّى بالشرف. ولكنّ الناصريّ طرد شياطينها، وحوّل هواها صوب الحبّ الأسمى. ولا شيء أبلغ وقعًا على النفس المرهقة بوقر خطاياها من الرأفة المتعاطفة، والصوت الذي يعلن المغفرة. وانقلبت الخاطئة العلنيّة تائبةً علنيّةً، غير حافلةٍ بأقاويل الناس، ولا بأنظار الضيوف التي اخترقتها اختراق السهام المسمومة. كسرُها إناءَ الطيب الفاخر أعلن عن حبّها. وهي، وإن لم تتلفّظ بحرفٍ واحدٍ، إلاّ أنّ في تواضعها، وانكسارها، ودموعها، وقبلاتها، وضفائر شعرها المنفلتة التي باتت ممسحةً لقدمي المخلّص، بلاغةً لا تُجارى.

يقول الرسول بولس إنّه تثقّف عند قدمي رابّي غمالئيل، وبوسع المجدليّة أن تعترف أنّها اهتدت وتثقّفت «عند قدمي» يسوع، فغدت له خير تلميذٍ ورسولٍ. إنّها تجتاز الإنجيل ويداها مثقلتان بالعطر، ساعيةً من بيت سمعان، إلى الجلجلة، إلى بستان يوسف، إلى عتبة الفردوس باعثةً إشارات رجاءٍ، ونورٍ، وحبٍّ.

لم يكن يسوع، لها، نبيًّا تجلّه، بل ابن الله الذي تعبده. ولم تأتِ ملتمسةً إحسانًا مادّيًّا، كما يفعل الجميع، بل جاءت تتوسّل من يشفي النفوس، ويحوّلها، ويسمو بها. لم ينتحب ندمٌ، قطُّ، مثلما انتحب، في ذلك اليوم، ندمُها. ولم يعبّر، قطّ، الحبّ التائب، بمثل تلك الرقّة، والحرارة، والرهافة، عن التماس الغفران. ولم ترمز، قطّ، الدموع الممزوجة بالطيب إلى إيمانٍ أشدّ حيويّةً، وعبادةً.

المجدليّة هي النموذج الأكمل للتائبين، بل هي التعبير البشريّ عن الجمال الأروع والحبّ اللامحدود، والمثال الأسمى لمزج الحبّ بالإيمان، مزجًا مدهشًا.

إزاء توبتها، كان يسوعُ هو الله الغفور الذي يتقبّل ندم قلبٍ محطّمٍ، ويبعثه مجدَّدًا، قشيبًا. ألوهته تتألّق، وحبّه هو حبّ الله. ولذلك استطاع قول: «**إنّ خطاياك**

قد غُفرت». وقد أدركت المجدليّة أنّ هذا القول هو قولٌ إلهيٌّ، في حين استنكره عمى الفرّيسيّين.

لم تعد الخطيئة مدعاةً للقنوط، فثمّة ما يقهرها، والسبيل إليه دموع التوبة والإيمان. وقد أرشدت إليه المجدليّة الخاطئين، وتقدّمت موكبهم. فصَفْحُ يسوع حقّق لها أمنيّتها الغالية الصافية، وارتقى بها إلى قمّة صوفيّة الحبّ السماويّ. وجسدها الذي كان رمزًا للنجاسة والخزي، انقلب، في لحظاتٍ، مقرًّا للثالوث.

يقول فرانسوا مورياك، في هذا السياق: «إن كانت تلك المرأة هي التي أعتقها يسوع من سبعة شياطين، فنحن نتساءل كيف انقلبت من مسكونةٍ بالأبالسة إلى مسكونةٍ بالحبّ، وكيف عمل الله فيها. إنّ المعجزات التي يحدثها الربّ في الداخل هي أخطر شأنًا من العجائب الظاهرة التي تبهر. سكنى الشياطين وعبوديّة الجسد ليستا قدَرًا محتّمًا، بل بوسع حبّ الله القضاء عليهما. حبٌّ أكبر يتغلّب على الحبّ الآخر. كان كائنٌ بشريٌّ هو كلّ عالمها. والآن تلاشى العالم كلّه، حول كائنٍ واحدٍ سامٍ، وتلاشى حتّى جسدها. لم تحسب للعالم حسابًا، وكأنّه غير موجودٍ، عندما غسلت قدمي يسوع بالطيوب، ممزوجةً بدموعها، ومسحتهما بشعرها، بلا خَجَلٍ ولا حرَجٍ. وها قد أصبح حبُّها إلهَها...

«ساعة جثت عند قدمَيْ يسوع، كانت المجدليّة قد تخطّت المرحلة التي لا تزال فيها الخليقة المكرّسة بكاملها لله تسمع، أحيانًا، هوًى قديمًا يزأر بجوعه. فالمجدليّة قد ماتت عن كلّ ما هجرته. ولن يفصلها شيءٌ، بعدُ، عن ذاك الذي نشدته من مخلوقٍ إلى مخلوقٍ...

«إنّ النفوس المسكوكة على صورة المجدليّة، ما برحت تملأ العالم، مذ هي مرّت به، وغدا بوسع أشدّ النفوس تلوّثًا معرفة أنّ بوسعها أن تحظى بأعظم حبٍّ، لأنّها تلوَّثت أكثر من سواها. فقد أقامت المجدليّة، بين مستوى الانحطاط الذي انتشل منه يسوع بعض مخلوقاته، والحبّ الذي دانت له به هذه المخلوقات، علاقةً كفيلةً باستنباط القداسة من أحشاء الحقارة.

«لقد استبدلت المجدليّة جنون الجسد بجنون الصليب، ولن تتوانى عن المغالاة، كسابق عهدها، ولكنّ المغالاة التي كانت تجعلها تتوغّل في عباب الخطيئة، تحوّلت

إلى مغالاةٍ في السموّ، حيث كلّ إفراطٍ متاحٌ، وحيث تجاوز الذات مفتوحٌ إلى ما لا نهاية، وحيث لا حدود للطهر والكمال سوى طهر الآب السماويّ وكماله».

ما أدركته الخاطئة بحدْسها الثاقب الصائب، أغفله الفرّيسيّ الذي ظلّ ريّابًا، فاترًا، عاجزًا عن فهم توبة النفوس، وصفح الله. ولكن، إلى جانب أمثاله، أصحاب الرقاب القاسية، والقلوب الغليظة، والفكر الفظّ، كم من نفوسٍ خلّصها الحبّ والإيمان!

وما برحت دموع المجدليّة تنهمر ولا تنضب، وما زالت الطيوب تنسكب على جسد ابن البشر، وما فتئت الأجيال تتوارث حبّه، وهو يتلفّظ بكلمات الصفح التي تشدّ العزائم، وتعزّي القلوب، وما انفكّت خطايا كثيرةٌ وجسيمةٌ تُغفر لمن يعظم حبّهم.

إنّ شذا عطر المجدليّة يفوح في أجواء الأرض على مدى العصور. تقبّله يسوع فأضحى رائحته، رائحة الرحمة اللامتناهية التي تؤتي الحياة الأبديّة. المجدليّة هي أولى تائبات المخلّص، وقد اعترفت به منقذ الخاطئين، والتمست منه الشفاء الحقّ الذي يبرئ جراح النفس المميتة. بدموعها أعربت عن توبتها الحقّة. وأدّت الكفّارة الحقّة، كفّارة الحبّ. وقد أولاها يسوع ما لم يولِ مثلَه أحدًا سواها. «**لقد أحبّت كثيرًا**». هذا القول لم يكن قد تفوّه أحدٌ بمثله، ولم يتخيّل العالم ما يدانيه روعةً، وما انفكّ أمنع قوّةً وأسرًا للقلوب من كلّ أنوار العقل، وكلّ كتب الأخلاقيّات، وكلّ ضغوط الشريعة.

وسنرى المجدليّة، في الجلجلة، إلى جانب إنائَي الطهر، مريم العذراء، ويوحنّا الحبيب، دليلاً حيًّا على رأفة يسوع الجمّة اللامتناهية. ثمّ إنّ تلك التي أقامها يسوع من موت الخطيئة، آثرها بأوّل ظهورٍ لـه، بعد قيامته، وجعلها رسول هذه القيامة. لقد صاغ، من حمأة البشريّة، تحفةً فريدةً.

لم تكن عيون البشر قد شهدت، قطّ، مثل ذلك، ولا قلوبهم خفقت بمثل هذه الفرحة. ولم يكن ملكوت الله، يومًا، بمثل ذلك القرب من منالهم.

* *

توبتكم حرّرتكم، وإيمانكم خلّصكم، أنتم من يبكون، ويؤمنون، ويحبّون، فامضوا بسلام!

التَّجْديفُ عَلى الرُّوحِ القُدُس

كان الكتبة والفرّيسيّون يُمعنون في إحكام شباك مكائدهم حول يسوع، وكان عديدهم يتضخّم، برفدٍ من القادمين من أورشليم واليهوديّة، الذين أقضّ مضاجعَهم تصاعدُ شعبيّة نبيّ الجليل المطّرد. ولكنّهم فشلوا في الحدّ من اندفاع الجماهير، ومن عزمها على اتّباع يسوع، ومن تهافتها الكثيف عليه لسماعه، وللظفر بشفاء مرضاها. وقد انضمّ، في ذلك، إلى الجليليّين، وثنيّون من المدن المجاورة: إيدوميّون، وسكّان المدن العشر، وصور وصيدا وسوريّة.

وكان أشدّ ما يفتّ من عضد أعداء يسوع المعجزات الخارقة، والأشفية العجيبة، التي يجريها تحت سمعهم وبصرهم.

وبالفعل، اتّفق أن جيء إليه، وهم شاهدون، برجلٍ أعمى وأخرس. وكان يُعتقد أنّ شيطان العمى والبكم كان يسكنه. وشفاه يسوع في الحال، شفاءً ناجزًا، فعاد الرجل يرى، وانطلق يتكلّم. وإذ عجزوا عن إنكار واقع الشفاء، راحوا يتخرّصون على يسوع زاعمين أنّ به «بعلزبول» أي رئيس الشياطين، وأنّه به يطرد الأبالسة. فاستدعاهم يسوع وقال لهم، على مسمعٍ من الجماهير، كي يسفّههم: «**كيف يقدرُ الشيطان أن يطرُد الشيطان؟ فإنّه إذا انشقّت مملكةٌ على نفسها فهذه المملكة لا تستطيعُ أن تثبُت. وإذا انشقّ بيتٌ على نفسه فهذا البيت لا يستطيعُ أن يثبُت. وإذا قاوم الشيطان نفسه وانقسم فلا يُمكنه أن يثبُت، بل يضمحلّ. ولكن لا يستطيع أحدٌ أن يلجَ بيتَ القويّ وينهَب أمتعته ما لم يُوثق القويّ أوّلاً وبعدئذٍ ينهبُ بيته.**

«**فالحقّ أقول لكم إنّ كلّ شيءٍ يُغفر لبني البشر: الخطايا والتجاديف، مهما أمعَنوا في التجديف. وأمّا من جدّف على الرُّوح القدس فلا مغفرة له إلى الأبد، لأنّه متلبّسٌ بخطيئةٍ أبديّةٍ. ذلك لأنّهم قالوا إنّ به روحًا نجسًا**» (مرقس ٣: ٢٣–٣٠).

لم يملك أعداء يسوع، في حربهم عليه، سوى سلاح النميمة والإفك، لأنّهم كانوا عاجزين عن مقاومة قدرة أقواله الخارقة، أو التشكيك في معجزاته البيّنات. فاختلقوا أبشع فريةٍ كفيلةٍ بتدمير سمعة قدّيسٍ.

أيّة تُهَمٍ قد تُلصق بيسوع قد تُغفر. أمّا مماهاته بالشرّ والشرّير، وعزو كلّ أعماله التي يفعلها بقوّة الروح القدس، إلى الشيطان، فهي التجديف الذي لا عذرَ له، ولا غفران.

من يأمل في رحمة الله، واثقًا، يظفر بها، أيّةً كانت أخطاؤه، أمّا الذي يرى في الله مصدر شرٍّ، فهو يحكم على نفسه بالهلاك.

التجديف على الروح القدس هو رفض النور، ومقاومة الحقيقة، والتجنّي عليها، وهذا ما فعله الفرّيسيّون الذين رأوا، بأمّهات عيونهم، يسوع يطرد الشياطين، فنسبوا هذا العمل إلى رئيس الشياطين. لطالما أغضى يسوع عن التهم والإهانات الموجّهة إليه. ولكن، في هذه النوبة، كانت التهمة من الجسامة، والمكر، والصفاقة، والقدرة على إشاعة أثرٍ سيّءٍ في نفوس الشعب، بحيث لم يتوانَ الربّ عن دحضها بمنطقٍ صارمٍ، وحكمةٍ، ووضوحٍ.

بتخرّصاتهم الباطلة فضح الفرّيسيّون فساد نفوسهم، ودأبهم على تضليل ضمائر الشعب، فشنّ عليهم الربّ هجومًا محكمًا، محذّرًا الشعب من سمومهم

«**اجعلوا الشجرة جيّدةً فثمرُها يكونُ جيّدًا، واجعلوا الشجرة رديئةً فثمرُها يكونُ رديئًا. إنّه من الثمرة تُعرف الشجرة؟ فيا نسلَ الأفاعي، كيف تستطيعون أن تقولوا قولاً جيّدًا وأنتم أردياء؟ إنّه من فيض القلب يتكلّمُ الفم. فالإنسانُ الصالحُ من كنزه الصالح يُخرج الصلاح، والإنسان الشرّيرُ من كنزه الشرّير يُخرج الشرّ. وإنّي أقول لكم إنّ كلّ كلمةٍ باطلةٍ يقولُها الناسُ يُؤدّون عنها حسابًا في يوم الدين. لأنّك بكلامك تتبرّأُ، وبكلامك يُحكمُ عليك**» (متّى ١٢ : ٣٣ – ٣٧).

إنّ طرد الشياطين هو العلامة المحسوسة لهزيمة إبليس، وانهيار سلطانه، فإن فقد أمير هذا العالم سلطته في بيته، فلأنّ من هو أقوى منه قد تغلّب عليه وقيّده. وهذا يعني أنّ فجر المسيح قد بزغ. ولكنّ الفرّيسيّين والكتبة الذين أعمت البغضاءُ

بصيرتهم، ادّعوا أنّ يسوع يُخرج الشياطين بدعمٍ من الشياطين. لطالما شنّوا عليه حروب الهزء والشتيمة، والتهديد بالموت. وها هم قد انتهوا إلى الحمق، وطفح الكيل، فأدانهم الربّ بالجريمة التي لا تُغتفر، ألا وهي التجديف على الروح القدس: أي رؤية أنوار الروح وإنكارها، رؤية عمله وعزوه إلى عدوّه، عن قصدٍ وتصميمٍ.

إنّ كلّ خطيئةٍ قابلةٌ للصفح، لأنّ رحمة الله بلا حدودٍ. ولكن من يرفض التوبة والنعمة، فالله نفسه لا يستطيع أن يغفر له.

لقد حذّر يسوع من يزعجهم عمل الله، ويصدم عقولهم، من أشدّ التجارب مكرًا، وهي عزو عمل الله إلى عدوّه أو إلى قوى مجهولةٍ. فهم بهذا العمى الطوعيّ العنيد يكذبون على ذواتهم، ويوغلون في كذبتهم. وما أكثر الذين ما برحوا يجدّفون على الروح ويعصبون عيونهم لكيلا يروا أنواره، ويجهدون في إقناع ذواتهم ببطلان ما رأوا!

ولذلك دعا يسوع إلى إصلاح الذات في الأعماق، فهذا الإصلاح هو شرطٌ لا مفرّ منه للإتيان بثمرٍ، وبأعمالٍ صالحةٍ، وإلاّ اتّصفت كلّ الأعمال بالشرّ. وحذّر يسوع، أيضًا، من إدانة الآخرين جزافًا، لأنّ كلّ إدانةٍ ستخضع لحكمٍ صارمٍ.

أُسقط بيد الفرّيسيّين والكتبة، ولكنّهم تمادوا في تعاميهم، ولكأنّ كلّ ما شاهدوا من معجزاتٍ بأمّهات عيونهم، لم يكن كافيًا لإقناعهم، فلعبوا دور إبليس المجرّب في الصحراء عندما طالب يسوع بمعجزاتٍ نافلةٍ لإثبات أنّه ابن الله. فقالوا له: «نريد أن نرى منك آيةً»، أيْ حدثًا فائقًا يجري في السماء، ولا مبرّر له سوى الردّ على تحدّيهم، مثل كسوف شمسٍ مباغتٍ، أو عاصفةٍ في سماءٍ ساجيةٍ، وفي الوقت الذي هم يحدّدونه، وكأنّهم يمتحنون قدرات بهلوانٍ. ولكنّ يسوع الذي لا يُجري المعجزات إلاّ بدافع العطف، أو بُغيَة مساندة إيمان أصحاب النوايا السليمة، ردّ عليهم بقوله: «**الجيل الشرّير الفاسق يطلب آيةً! إنّه لن يُعطى آيةً إلاّ آية يونان النبيّ: فكما أنّ يونان ظلّ في بطن الحوت ثلاثة أيّامٍ وثلاث ليالٍ، كذلك ابن البشر يكون في جوف الأرض ثلاثة أيّامٍ وثلاث ليالٍ.**

«**إنّ رجال نينوى سيقومون في يوم الدين مع هذا الجيل ويحكُمون عليه،**

لأنّهم تابوا بوعظ يونانَ - وههنا أعظمُ من يونان. وملكةُ التيمَن ستقوم في يوم الدين مع هذا الجيل وتحكُم عليه لأنّها أتت من أَقاصي الأرض لتسمع من حكمة سليمان - وههُنا أعظمُ من سليمان» (متّى١٢ : ٣٩- ٤٢).

لا حدود لمقتضيات غير المؤمنين بما يفوق الطبيعة، حتّى عندما يرون بعيونهم، ويلمسون بأيديهم. إنّهم يشكّكون في ما لا يفسح للشكّ مجالاً. لذلك أنحى عليهم الربّ بأقسى لائمةٍ، مؤكّدًا أنّه لن يريهم من الآيات سوى أعظمها: قيامه من الموت، في اليوم الثالث.

لقد أهاب يسوع بمختلقي التخرّصات بُغيةَ محاربته، أن يثوبوا إلى جادّة المنطق السليم، وأن يحكموا على الشجرة من ثمارها، فلا يدينوا أنفسهم بما يفترون.

إنّ بعض الأقوال والتهم الباطلة أكثر إجرامًا من أعمال القتل، والتُهم التي ألصقها الفرّيسيّون بيسوع لا تختلف عن لذع الأفاعي. ولا ريب أنّها قد عاثت فسادًا في النفوس الصغيرة التي عجزت عن الارتقاء إلى مستوى يسوع، وأشاعت، حوله، من الأكاذيب، ما جعل حتّى ذويه يظنّون أنّه فقد عقله، فحاولوا الحجر عليه.

أَقْـرِبَاءُ يَسُـوع

رغم ضراوة عداء زعماء اليهود، كانت محاصرة الجموع ليسوع تتفاقم، بحيث لا تدع له متنفَّسًا، ولا سانحةً لتناول لقمةٍ يقيم بها أَوَده. فحاجات البشر محيطٌ بلا شواطئ، ورأفة يسوع سعةٌ بلا حدودٍ. وهو حسبه من الطعام العمل بمشيئة أبيه السماويّ، الذي يملأ كلّ كيانه رضًى واكتفاءً.

بعد أن تأزّمت علاقته بالكتبة والفرّيسيّين، بات يسوع يؤثر النأي عن المجمع، والتعليم في الهواء الطلق، حيث تنتفي القيود، وحيث يستطيع المجيء والاستماع، بحرّيّةٍ، النساء والأطفال والمنبوذون، وأصحاب العاهات، الذين كانت أبواب المجمع موصدةً دونهم. وكان يعلّم بلا هوادةٍ، في كلّ مكانٍ وكلّ سانحةٍ.

وذاك الذي كان الرؤساء الدينيّون قد رشقوه بشبه حرمٍ، كان القوم «**يحملون المرضى على فرشٍ إلى حيث كانوا يسمعون أنّه هناك، وحيثما كان يتوجّه إلى قرًى أو مدنٍ أو ضياعٍ، كانوا يضعون المرضى في الساحات، ويلتمسون منه أن يلمسوا ولو هدب ثوبه، وكلّ من لمسه كان يبرأ**» (مرقس ٦: ٥٣– ٥٦).

وتنامت إلى قريته، الناصرة، أنباء غلوّه في البذل بلا حسابٍ، وتآمر زعماء اليهود عليه. ربّما قلّةٌ من ذويه خشيت، حقًّا، أن يؤدّي به الإرهاق إلى التهلكة، مثلما خشيت عليه انتقام الزعماء الدينيّين، الذي قد ينعكس عليهم خزيًا وعقابًا، إذ كان من الشائع معاقبة ذوي أيّ نبيٍّ كاذبٍ، إن هم توانوا عن ردعه عن غيّه. ولكن من المرجّح أنّ كثيرين من ذوي قرباه كانوا يحسدونه، ويشقّ عليهم أن يروا ذاك الذي نشأ بين ظهرانيهم، وعرفوه نجّارًا تكسوه نشارة الأخشاب، ولم يحصّل من العلم سوى زادٍ ضئيلٍ، يتمتّع بكلّ تلك الشهرة الذائعة، والشعبيّة العارمة؛ ذكْرُه جارٍ على كلّ لسانٍ، والجموع تتراصّ من حوله لسماعه، والتماس شفاءاته، ولتشكر له نعمه. لقد كان أيسر على الغرباء الإيمان به وبقدراته، منهم.

إنّ الرداءة تحكم دائمًا على التضحية بالجنون، وقد ادّعى نفرٌ من أقربائه حرصًا زائفًا على حياته، زاعمين أنّه «فقد الصواب»، وألّفوا منهم لجنةً مهمّتها انتزاعه من غلوّه في بذل ذاته، بمنأًى عن كلّ قواعد الحيطة والحكمة، كي يعودوا به، قسرًا، إلى قريته حيث كانوا يعتزمون حجره، في عيشة رداءةٍ وخمولٍ تحاكي حياتهم. وأقنعوا أمّه بالانضمام إلى وفدهم. وهي، لا ريب، كانت خائفةً عليه من عنفهم، أكثر من خوفها عليه من الكتبة والفرّيسيّين، ومن الإرهاق الذي كان يعرّض له ذاته. ومن المحقّق، أيضًا، أنّه كان لتوقها إلى رؤيته، عقب غيابٍ طويلٍ، يدٌ في حملها على مواكبة وفدهم إليه.

ولكن، أمام الازدحام الذي كان يسدّ كلّ منافذ بيت بطرس في كفرناحوم، تعذّر على أقربائه الوصول إليه، فأنفذوا من يبلّغه: «**ها إنّ أمّك وإخوتك خارجًا يطلبونك**». فأجابهم قائلاً: «**مَن أُمّي، ومَن إخوتي؟**» وأجال نظره في المتحلّقين حوله، وقال: «**هؤلاء هم أُمّي وإخوتي...**» (مرقس ٣: ٣١ – ٣٤).

لقد أجال نظرًا جديدًا في البشر حيث رأى أسرته في الله، الشاملة، التي لا تحدّها تخومٌ، وأعلن: «**إنّ أُمّي وإخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها**» (لوقا ٨: ٢١).

لهؤلاء جميعًا يؤكّد يسوع أنّهم سيجدون في قلبه أرقّ المودّة، كتلك التي تجمع أفراد الأُسرة الواحدة، بل ما هو أسمى منها.

ومن المحقّق أنّه لم يخطر له، بهذا القول، أن يقلّل من شأن أُمّه، ومن إجلاله لها، بل أراد أن يؤكّد، على الملأ، أنّه يقدّر فيها خضوعها لمشيئة الله أكثر من عطفها عليه، وأنّ العلاقة الروحيّة التي تربطه بها هي أجلّ شأنًا من وشائج الدم، وأنبل منها.

أواصر اللحم والدم لا تعني شيئًا لابن الله، فهو ليس من هذه الأرض، بل مولودٌ من الروح، وممتلئٌ به؛ وهو مؤسّس أسرة أبناء الله الكبرى. وحتّى الذين تسري في عروقهم دماءٌ مثل دمه لا يصبحون له ذوي قربى ما لم يشاركوه الامتلاء بالروح. ومن هذا الملحظ لم يكن أقربَ إليه من أمّه.

من يتّحد بالله برُبُط الإيمان والحبّ، يضحي لله ابنًا وليسوع أخًا. وإن هو، بغيرته، ولّد يسوع في نفوس الآخرين أمسى لـه أُمًّا. وإن هو ولّده في ذاته، بات معه واحدًا، وغدا يحيا معه، ويسوع يحيا فيه.

هذه هي الولادة الجديدة، والقرابة الجديدة، اللّتين لقّنهما يسوع، ودعا إليهما.

أمْثَالُ المَلكُوت

حياة يسوع، في تلك الفترة، نشاطٌ دائبٌ، لا يلجمه كلَل، وارتحالٌ دائمٌ لا يستمرئ سكينةً أو هوادةً. فيسوع لا يملك شيئًا، لا أرضًا، ولا مهنةً، ولا مسكنًا ثابتًا، وإنّما عمل أبيه يستأثر بكلّ كيانه وكلّ إرادته، ولا يشغله عن التبشير همّ مأكلٍ أو ملبسٍ.

وما انفكّت كفرناحوم منطلقه ومثابه، وكلّما عاد إليها من رحلةٍ، كان يشايعه جمعٌ غفيرٌ راغبٌ في سماعه، فيحدّثهم عن الملكوت، ويختار منبرًا لتعليمه، هضبةً مخضلّةً، أو متن مركب أحد تلاميذه الصيّادين، في الهواء الطلق، وأجواء العزلة الحافلة بالأصداء، وسكون البحيرة، وتمتمة أمواجها الخافتة.

فجدران المجمع كانت تضيق بحشود المتدافعين لسماع ما لم تسمع مثله المسكونة، قطّ، وللإنصات إلى كلمة ابن الله، الذي ينطق العليّ بصوته، ويكشف مخطّطه الخلاصيّ ويبلّغ البشر مشيئته.

لقد علّم يسوع حكمةً إلهيّة «ليست من هذا العالم»، ولم يكن بوسع سامعيه المخلصين إلاّ التفاعل مع تعليمه.

بتشبيهاتٍ بسيطةٍ، حيّةٍ، أعدّ يسوع مستمعيه، والمؤمنين به في كلّ جيلٍ، لفهم حقائق تفوق الطبيعة. إنّها في منتهى الواقعيّة، ولكنّ أكثر القلوب إرهافًا تخفق لصدقها وسموّ تعاليمها، وهي، إلى ذلك، تظهر لنا نفس يسوع المتأمّلة، الملتفتة إلى أدقّ التفاصيل، ومسيرة فكره الذي يرنو إلى جمالات الخليقة، وعيناه محدّقتان إلى سنى سماء أبيه.

وبعد أن كان قد أوجز، في التطويبات وعظة الجبل، المبادئ الأخلاقيّة والروحيّة التي يتعيّن على أتباعه التحلّي بها، وبيّن الطابع الروحيّ لملكوت الله الذي لا يُصار إليه إلاّ بتوبةٍ صادقةٍ، وبتحوّلٍ جوهريٍّ، واستعداداتٍ نفسيّةٍ تؤهّل لاقتحام هذا

الملكوت، أعلن، من فوق مركب صيدٍ متهادٍ على أديم مويجات البحيرة، طبيعة هذا الملكوت.

وقد فعل ذلك من خلال أمثالٍ جمعها الإنجيليّون الإزائيّون في باقةٍ عطرةٍ، تتميّز بأسلوبها الفريد.

* *

المثل هو أسلوبٌ تعليميٌّ، مستمدٌّ من صميم وقائع الحياة اليوميّة، يستخدم حدَثًا واقعيًّا شائعًا، كي يوضح حقيقةً أدبيّةً أو روحيّةً. إنّه توضيح فكرةٍ مجرّدةٍ غير ملموسةٍ، من خلال واقعٍ ملموسٍ، في سبيل غايةٍ تعليميّةٍ، وعِبَرٍ ساميةٍ. إنّه أقرب أساليب التعليم منالاً من الأذهان، وأشدّها اجتذابًا للانتباه، وأعمقها رسوخًا في الذاكرة، وأكثرها ملاءمةً لمدارك البسطاء.

والمثل، وإن بدا تبسيطًا شعبيًّا، إلاّ أنّه أغنى فلسفةً ممّا يبدو، فهو دعوةٌ إلى إعمال الفكر، وإلى استنباط الجوهر ممّا يثوي تحت قشور الواقع، ولذلك يمهّد يسوع لأمثاله بقوله: «**اسمعوا**»، أي تنبّهوا وعوا، فلِما سأقوله أبعادٌ مؤثّرةٌ على وجودكم. وهو، غالبًا، يختتمها بقوله: «**من له أذنان للسماع، فليسمع**»، أي فليوقظ المستمع أنبل ما فيه، وليسمع بآذان قلبه، متخطّيًا معنى المثل الحرفيّ، كي ينفذ إلى مغزاه العميق، وأثره على حياته.

وقد استخدم يسوع أُسلوب المثل بتميّزٍ، وفنٍّ مرهفٍ، وبلاغةٍ لا تُجارى. وغالبًا ما كان يلجأ إليه، بُغيةَ الفصل في قضيّةٍ يختلف، فيها، مع خصومه، ويودعه من الإقناع، ما يُكرِه خصومه على الاعتراف بصواب رأيه.

في مرحلةٍ أولى يجيب المثل، فعلاً، على السؤال، وفي مرحلةٍ ثانيةٍ يعيد السائل إلى ذاته. ليس المثل مجرّد خطابٍ، بل هو رابطٌ بين شطرين، نوعٌ من الفسحة التي تستقبل سؤالاً كي تعيده، معدّلاً، إلى من يطرحه.

المثل يعبّر عن التجارب الجوهريّة، والوقائع التي يصعب الإحاطة بها بكلماتٍ، من خلال صِيَغ تشبيهٍ، وعباراتٍ كفيلةٍ بإضاءة ما تقصر اللغة عن التعبير عنه، وعن الخبرة العميقة التي يتعذّر مشاركة الآخرين بها، من خلال حكمةٍ، أو قولٍ مأثورٍ، بسيطٍ ولكنّه محكم السبك، يُشرع المدى للخيال. وفي الغالب يُلجأ إلى تشبيهٍ قد

يمهّد السبيل للفهم، أو إلى المجاز الذي يجمع ضدّين، بحيث يوقظ صدامهما الذهن على التخيّل والإدراك. المثل يُشرع للعقل آفاق التفكير والاستنتاج.

استخدام الأمثال ميّز تعليم يسوع الذي كان قاصًّا ممتازًا. وقد انتهى إلينا من أمثاله الكثيرة نحو أربعين مثلاً، ونحو ثلاثين مثلاً قصيرًا. هذه الأمثال تفتح الذهن على عالَمٍ خاصٍّ من الفهم، وتنبض بقوّةٍ شعريّةٍ، ولاهوتيّةٍ، جمّةٍ.

المثل يفتن المستمع، لأنّه يروي حكايةً، وكلٌّ ينتظر من الحكاية النتيجة المدهشة، فيبقى الذهن متنبّهاً، مترصّدًا، مفتونًا بأدنى تفصيلٍ يمكّنه من بلوغ الهدف المقصود.

أمثال يسوع معجونةٌ بحياته، وأفعاله، ولقاءاته، وصراعاته. إنّها تحدّثنا عنه، وتدوّن في نفوسنا أثر حضوره. وبفضل الأمثال يصبح يسوع المبشِّر، يسوع المبشَّر به.

أمثال يسوع مقتبسةٌ من التجربة اليوميّة، تفوح بأريج الجليل، وتعكس عادات زمنه. وهي تقرن البساطة بالإدهاش. إنّها صورةٌ لأحداثٍ واقعيّةٍ، ولكنّ عبقريّة يسوع تكمن في إبراز غرابتها غير المألوفة، ومفارقاتها. فيسوع يستهلّ أمثاله بطرح واقعٍ يسلّم به خصمه، ورويدًا رويدًا، يحمل هذا الخصم على التسليم بالنتيجة المنطقيّة التي لم يتوقّعها، وعلى استخلاص العبرة التي لم يكن ليقرّها، لولا واقعيّة المثل. فالمجتمع اليهوديّ، في أيّام يسوع، كان يأبى إظهار السامريّ، وكأنّه بطل الرأفة والمحبّة، أو جعل العشّار المزدرى الملعون رمزًا أعلى للتواضع والتقوى الحقّة، ويستنكر مسارعة أبٍ إلى معانقة ابنٍ عاقٍّ ضلّيلٍ، وإقامة الأفراح ابتهاجًا بعودته. ولكنّ أمثال يسوع فرضت قبول كلّ هذه الوقائع.

المثل دعوةٌ إلى إعمال الفكر، والإمعان فيه، بغية اكتشاف مفارقاتٍ جوهريّةٍ. إنّه لغزٌ لا بدّ من فكّ أسراره. إنّه يستثير الفضول وينيره. يخاطب أعمق منابع الحدْس، ويقرع على الباب الصحيح.

المثل يصدم ببساطته، وغرابته، ومفارقاته، وحيويّته، معًا، لأنّه مستمدٌّ من ملاحظةٍ دقيقةٍ للواقع. إنّه يثير القلق، ويحمل على التأمّل. والمثل قبس نورٍ ينبغي الاستعانة به على اكتشاف مزيدٍ من نورٍ، وإضرام مزيدٍ من نارٍ، وإلاّ خمد القبس وانطفأ.

أمثال يسوع مآثر أدبيّةٌ وروحيّةٌ رائعةٌ كان لها تأثيرٌ بليغٌ على الإيمان، والروحانيّة

المسيحيّة. وهي، فضلاً عن ذلك، وسيلةٌ مثلى للنفاذ إلى أعماق رسالة يسوع وفكره، تتيح لنا أن نعرفه عن كَثَبٍ، وبالتالي أن نحبّه ونلتزم بتعليمه، على وجهٍ أكمل.

قال فيها ريڤيل (A. RÉVILLE): «القرون كرّت، والأمثال بقيت، مثيرةً الاهتمام، محفورةً، بيُسرٍ، في الذواكر، بفضل صورها الزاهية.. إنّها توفّر غذاءً جوهريًّا لتأمّل المفكّرين، ولفهم البسطاء. ومن خلالها يتجلّى يسوع فنّانًا لا يُضاهى. ميزة أمثاله أنّها تُحدث أثرًا بليغًا، بوسائل مغرقةٍ في البساطة».

الأمثال قصائد صغيرةٌ، نماذج فنٍّ فريدةٌ، لوحاتٌ فاتنةٌ، تبرز فكرتها الرئيسة من خلال ملامح وألوانٍ متنوّعةٍ. بإيجازٍ تقول ما تريد إبلاغه، وهي خاليةٌ من أيّة كلمةٍ نافلةٍ.

فيها تتجلّى قدرة يسوع على الملاحظة الدقيقة. بيد أنّ التعاليم السامية التي توحي بها تتخطّى، بما لا يُقاس، جمالها الفنّيّ. إنّها تنطوي على كنوز عِبَرٍ لا تنضب. والمفكّرون يغوصون عميقًا في فحواها. وممّا يسبغ عليها نكهةً مميّزةً أنّها لم تخضع لقوانين التأليف، والشذب، والتلميع، بل تدفّقت، تلقائيّةً، دافئةً، من قلب الربّ وشفتيه.

* *

ليس تعليم يسوع تعليم أُستاذٍ فقيهٍ، بل تعليم إنسانٍ ملمٍّ بأسرار القلب البشريّ، ويُجيد لغته، ويستعيض عن الأفكار المجرّدة بالصورة البليغة الإيحاء. إنّه يؤثر الحدْس على التحليل الذهنيّ، ويعلم أنّ الكائنات المصنوعة من لحمٍ ودمٍ تتقبّل الصور خيرًا من تقبّلها التجريد الصرف، وتتقبّل الروايات أكثر من الأفكار.

ولغة يسوع شعريّةٌ لأنّه ينطق بلغة الحبّ. وهو يخاطب، في المقام الأوّل، الطفولة وقواها الحيّة. ولكنّه لا يُزري بالعقل، بل هو يتكلّم بمنتهى العقلانيّة. ليس في تعليمه ما يناهض العقل، ولا ما هو دون العقل، بل فيه ما يفوق العقل. ولغته الشعريّة تتفوّق على اللغة التحليليّة، عندما يتعيّن التعبير عن الإلهيّ، أو عن جوهر الإنسان. تلك هي لغة يسوع التي تستعصي على فهم العلماء والحكماء، ويدركها البسطاء بيُسرٍ.

* *

وفي مجال إعلان الملكوت كان لا مفرّ من اللجوء إلى الأمثال، لأنّ هذا الإعلان كان يقتضي حذَرًا جمًّا. فالتحدّث لليهود عن الملكوت، بمعزلٍ عن الإيضاح

والتفسير، كان ينطوي على خطر التلويح بمَلِكٍ كلّيّ القدرة، محاطٍ بكتائب المحاربين، والملائكة المجرّدة للقتال، تقود إسرائيل من نصرٍ إلى نصرٍ، حتّى السيطرة التامّة على المسكونة كلّها، والسيادة المطلقة على جميع الأمم، التي تغدو موطئًا لقدميه. في حين أنّ الملكوت الذي جاء يسوع ليقرّه يناقض هذه النظرة اليهوديّة العنصريّة مناقضةً كلّيّةً، فهو ملكوتٌ روحيٌّ محضٌ، مشرعٌ على جميع الأمم، وقائمٌ على الحبّ الشامل، والسلام، والبذل بلا حدودٍ.

كان، إذن، على يسوع أن يحدّث الشعب اليهوديّ الجامح الخيال، فيجتذبه، ويحرّره من أوهامه، في آنٍ واحدٍ. فلا ريب أنّ ملكوت الله قادمٌ، لا بل إنّه قد شرع يتحقّق، ولكنّه ليس الملكوت الذي يحلمون به. ومن ثمّ، كان على تعليم يسوع أن يُظهر ويُخفي، أن يفتح العيون على الواقع، ويصرفها عن الأوهام. كان يسوع يسير فوق أرضٍ ملغومةٍ معرَّضةٍ للانفجار، في كلّ لحظةٍ، فلم يكن لديه مفرٌّ من استخدام الأمثال. فالمثل واضحٌ ومبهَمٌ. إنّه للأبصار الصافية، الساجية، نورٌ عذبٌ، ولكنّه يستغلق على من يأبون معرفة الحقيقة، لأنّها تدفعهم إلى التخلّي عن أحكامهم المسبَّقة التي لا يرتضون عنها بديلاً، وإلى انتهاج سلوكٍ جديدٍ لا يستمرئونه. فهم يخشون الرؤية والفهم لئلاّ يضطرّوا إلى التوبة، وإلى العزوف عن الدروب المعوجّة، و إلى الإنابة إلى الله. ولذلك، فهم «**إذا نظروا لا يبصرون، وإذا سمعوا لا يفهمون، لئلاّ يتوبوا، فيُغفَر لهم**». في قول يسوع، هذا، إنذارٌ مفعمٌ حزنًا لرافضي الرؤية، والفهم، والتوبة، الماضين، بعنادٍ، إلى الضلال والهلاك.

نور الشمس هو، دائمًا، نعمةٌ من السماء، ولكنّه، فيما يُضيء العيون السليمة، يُوجع العيون العليلة.

ويسوع، الذي حذّر من رمي الجواهر أمام الخنازير، لم يشأ أن يبهر، بنوره الساطع، أنظارًا حسيرةً لا تحتمله، لئلاّ تلعن النور وتُدان. وهو إنّما جاء كي ينقذ البشر، لا لكي يدينهم. كلّمهم بأمثالٍ لكي يحفر في نفوسهم تساؤلاتٍ تقودهم، بتؤدةٍ، إلى الفهم والخلاص.

الإيمان هو مبدأ الفهم، ورفض الإيمان هو علّة ظلام الفكر. فمن تمرّس من هذا المبدأ، يُعطَ فيزدهر، ومن افتقر إليه فحتّى ما كان يظنّ أنّه لـه يؤخذ منه. الإيمان يستمطر مواهب الله، أمّا رفض الإيمان فيُنضب منابعها. وإذا اكتفى الإنسان بذاته،

واعتمد عليها دون الله، افتقد القوى الإلهيّة، التي تضاعف الحياة مئات الأضعاف، وتنبت الفضائل، وتسمو بالطبيعة، فيغرق، شيئًا فشيئًا، في الضلال، وهو موت العقل، وفي الرذيلة، وهي موت النفس؛ فتعمى بصيرته، ويثقل قلبه، وتتراخى إرادته، ويزداد ضميره عنادًا. وهذا ما عبّر عنه يسوع بعباراتٍ مخيفةٍ.

* *

الملكوت يصعب تحديده، ولكنّ يسوع يُبرز عنه صُوَرًا تضيء معناه. والملكوت حاضرٌ في شخص يسوع، في أعماله وأقواله. وأمثاله تضفي على تفاصيل الحياة شأنًا عظيمًا، فعلى مسرح الحياة اليوميّة، تنعقد قصّة الخلاص.

فتحقيق الملكوت ليس فكرةً جامدةً، بل هو واقعٌ ديناميٌّ، يسوع وسيطه، ومحرّكه، وضمانته. إنّه التزامٌ فاعلٌ، فالربّ لا يحفل باعترافٍ لا يتخطّى الشفتين، ولا بالتزامٍ يحاكي لهيب هشيمٍ يوريه انفعالٌ طارئٌ، عابرٌ، بل على ابن الملكوت أن يثمر ثمار الملكوت، وعلى من يعلنون الانتماء إلى يسوع أن يبرهنوا، بحياتهم، عن هذا الانتماء.

لقد توخّى يسوع تحويل الفكر اليهوديّ عن آماله المعقودة على انتصارٍ عنيفٍ كاسحٍ، بقيادة زعيمٍ محاربٍ لا يُقهر، وصرفه إلى اعتناق عقيدةٍ تصلح للبشريّة جمعاء، بداياتها متواضعةٌ، ونجاحها بطيءٌ، ولكنّها تستأهل التضحية بكلّ شيءٍ في سبيلها. وقد استعان على ترسيخ فكرة الملكوت الجديد بأمثالٍ حيّةٍ تصدم الفكر، وتوقظ التساؤل. ومع أنّ هذه الأمثال كانت على جانبٍ كبيرٍ من الوضوح، إلاّ أنّ الأذهان التي لم تستنِرْ بضياء الروح، عجزت عن اكتناهها، إذ لم تكن عظة الجبل قد أينعت، بعدُ، في تلك النفوس التي ما انفكّت تحلم بسعادةٍ أرضيّةٍ تهبط عليها، مجّانًا، بلا جهدٍ.

وفي أمثاله يوظّف يسوع ذاته، وقِيَمه، ويرى في روايتها، أكثر ممّا يرى في التأكيد المباشر، الوسيلة المثلى لتبليغ فرادة رؤاه للوجود، وحكمته المبدعة

أمثال يسوع دعوةٌ إلى التغيير، وإلى المقارنة بين مواقف متباينةٍ، تمهيدًا لاختيار الأفضل منها. بواسطتها وضع يسوع أسمى الحقائق في متناول أكثر الأذهان بساطةً. وما زال وقعها نضرًا، قشيبًا، تهتزّ له أوتار النفوس البشريّة، بعد ألفين من السنين.

في أمثال يسوع، نجد ملكوت الله، وإله الملكوت.

مَثَلُ الزّارِع (*)

كان الفلاّح قد حرث أرضه في الخريف، وما إن همت أولى الأمطار حتّى شدّ إلى جنبه كيسًا مليئًا بذارًا، وراح ينثره في الأثلام التي أعدّها لاحتضانه. غير أنّ جزءًا من الأرض التي تلقّت البذار، جعل منه المارّة دربًا ومعبرًا، فقست تربته، وظلّ البذار الذي أُلقي فيه مكشوفًا، فمنه ما نقره الطير، ومنه ما ديس بالأقدام، والتصق بالنعال. وبعض البذار سقط على حجارٍ تغطّيها طبقةٌ رقيقةٌ من التراب، فنبت في الحال، ولكنّه لم يضرب جذورًا، فما إن سطت عليه الشمس حتّى جفّ ومات. وبعض البذار سقط في أرضٍ لم تُحرَّر من شوائبها، فنبت ومعه نمت الأشواك، والأعشاب الضارّة، فخنقته. أمّا باقي البذار فأُلقي في تربةٍ نظيفةٍ، عميقةٍ، حسنة الحرث، فنما فيها الزرع سليمًا، قويًّا، خصبًا، وأعطى ثلاثين وستّين، ومئة مِثْلٍ.

وقد فسّر يسوع بنفسه هذا المثل لتلاميذه: فالبذار هو كلمة الله، وإعلان الملكوت السماويّ. وما سقط منه على الدرب ونقره الطير هو البشارة التي تلقّاها من لم يكونوا مستعدّين لها، وغير مبالين بها، فتلقّوها بآذانهم، لا بقلوبهم، وسرعان ما اختطفها منهم الشرّير. والبذار الذي سقط على أرضٍ حَجِرةٍ يمثّل المستمعين السطحيّين الذين يتقبّلون البشارة بفرحٍ عابرٍ، ولكنّهم لدى الصعوبة الأولى، يغفلون كلّ شيءٍ. والبذار الذي وقع بين الأشواك، يمثّل مستمعين تستحوذ عليهم الأهواء، وهموم العالم. هؤلاء يحتفظون بالبشرى في قلوبهم، لفترةٍ وجيزةٍ، ولكنّ الرغبات المادّيّة لا تلبث أن تخنقها. وأخيرًا البذار الذي أُلقي في الأرض الطيّبة هم الذي يتلقّون البشرى، ويحرصون عليها، ولا يكفّون يتأمّلونها، إلى أن يستخلصوا منها أغزر الثمار.

البذار الجيّد واحدٌ، ولكنّه يلاقي أربعة مصائر متباينةٍ، لأنّ ثمّة أربعة أنماطٍ من

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «خرج الزارع ليزرع»، صفحة ٢٢٢.

الحقول التي تتلقّاه. الكلمة واحدةٌ. ولكنّ ثمّة أربعة أنماطٍ من النفوس تتلقّاها، ثلاثةٌ منها تفشل في الإفادة منها. وقد رسم يسوع الزارعُ، بلمساتٍ رشيقةٍ، لوحاتٍ مدهشةً للقلوب المتحجّرة، والقلوب السطحيّة، والقلوب المشتّتة، التي لا ينمو فيها الكلام الإلهيّ، وكذلك القلوب حسنة الاستعداد، حيث يؤتي كلام الله الحصاد الوفير.

إنّ البذار، في ذاته، يحمل الخصب، ولكنّ طبيعة الأرض تفقده قسطًا من خصوبته. البذار هو كلمة الله، ولكن، وفقًا لاستعدادات القلب، تعجز الكلمة عن توليد الإيمان، أو تولّد إيمانًا عابرًا لا قرار له، وأحيانًا تولّد إيمانًا طويل الأمد، ولكنّه غير فاعلٍ.

كلمة الله هي، دائمًا، غنيّةٌ بالحياة والطاقة، ولكنّ أسبابًا خارجيّةً قد تحدّ من خصبها الطبيعيّ، فهناك مستمعون غير مبالين، أو بليدو المشاعر، لا يولون الكلمة إلاّ اهتمامًا مشتّتًا، فتدغدغ آذانهم، ولكنّها لا تنفذ إلى محراب نفوسهم، بل تمرّ على السطح مرورًا خاطفًا، ومن شأن أيّ ظرفٍ، مهما كان تافهًا، أن يمحو أثرها.

وآخرون ينصتون إليها باهتمامٍ، وفرحٍ، وإعجابٍ، لأنّهم يجدونها رائعةً، معزّيةً، ساميةً، ولكنّهم لا يعتزمون اتّخاذها سُنَّة حياةٍ. هؤلاء السطحيّون المترجرجون قد تلامس الحقيقة آذانهم، ولكنّها لا تهزّ إرادتهم. أدنى محنةٍ كفيلةٌ بالإطاحة بانطباعاتهم السطحيّة هذه، مثلما تجفّف الشمس الساطعة، في يومٍ واحدٍ، نبتةً لا جذور لها.

أمّا الذين لا يقتصرون على الإعجاب بالكلمة، بل يحبّونها، ويسعون إلى اتّخاذها نهج حياةٍ، فقد يكونون أكثر تأهّبًا للإفادة منها. ولكنّهم يتخيّلون، أحيانًا، القدرة على التوفيق بينها وبين روح العالم، ويُبقون قلوبهم مشرعةً على كلّ عروض الخارج، فيخنق حبّ المتعة والرفاه، والمجد البشريّ، نواياهم الصالحة، ويصبحون زهورًا لا تعقد ثمرًا، أو ثمرًا لا ينضج.

جذور النفس هي الله، وعمقها ينحفر فيه، والنسغ ينبع من روحه. والنفس التي لا تتّحد بالله تعيش على السطح، وكلّ ما يُبذَر فيها تحرقه أشعّة الشمس الأولى بنار المحنة.

لا شيء أعمق تواريًا وسرّيّةً من البذار، ولا شيء أكثر تواضعًا واستتارًا من الكلمة الإلهيّة. الثمرة تعلن عن البذار، والفضيلة هي تجلّي الكلام الإلهيّ وسناه. والنفس تضيء بأعمال الروح: المحبّة، والفرح، والسلام، والصبر، والعطف، وطول الأناة، والرحمة، والإيمان، والتواضع، والعفّة.

* *

إنّ الذين يسمعون، وهم على جانب الطريق، غير عازمين على العزوف عن دروب العالم، لا ينبت فيهم زرعٌ، لأنّهم يحاكون الأرض الصلبة، ممرّ جميع الأضاليل، ومقرّ كلّ الرذائل، حيث الأفكار الباطلة، والأهواء الجامحة، كالطيور الكاسرة، تلتهم الحبوب الجيّدة، فور وقوعها.

والأرض الحَجِرة هي القلوب التي تخشى أكثر ممّا تحبّ، الخالية من عمقٍ تضرب فيه البذرة جذورًا. تتلقّى الكلمة فتثمر، في الحال، ثمار التوبة، ولكن حالما ينتابها كَمَدٌ، أو تجربةٌ، أو اضطهادٌ، تذبل نبتتها الواهية.

الأرض الصلبة هي النفوس المتحجّرة، بسبب بعدها عن الله، وقد فقدت كلّ خصبٍ، وكلّ اهتمامٍ بمصيرها. في الطفولة كانت الكلمة قد وجدت رطوبةً أنبتتها، ولكنّ شهوات الشباب، وكبرياء الكهولة، وبخل الشيخوخة، جفّفتها.

الأشواك هي الهموم البشريّة الزاحفة، والمطامع المادّيّة الخانقة، التي تنمو إلى جانب الكلمة الطيّبة، وتخنق نبتتها الإلهيّة، وتحول دون إثمارها. إنّ الاستسلام للسخريّة والاضطهاد، والخجل، والوصوليّة، والنهم إلى الثروة، والانقياد للأهواء والغرائز، كلّها أشواكٌ مميتةٌ.

ازدراء الكلمة، والجبن، والتخاذل، والاستعباد لخيرات العالم، تلك هي الآفات التي تهدّد ازدهار الوحي الإلهيّ. البذار هو نفسه للجميع، يسقط من يد الله الواحدة كي يزكو في جميع القلوب، ولكن الويل لمن يحوّل ذاته إلى تربةٍ عقيمةٍ، أو حَجِرةٍ، أو شائكةٍ!

والملكوت ليس حَدَثًا مباغتًا، مدوّيًا، بل هو ينمو، برفقٍ وتؤدةٍ، في تربةٍ سهِر الزارع على حرثها، وتحريرها من شوائبها، وإخصابها.

* *

عجيبٌ أنّ التلاميذ لم يفقهوا مثل الزارع، مع كلّ بساطته، وهذا يوضح وضعهم الذهنيّ في تلك المرحلة من رسالة يسوع، حيث كانت أذهانهم واهيةً، بطيئةً في فهم تعاليمه، ولكن كانت تحدوهم رغبةٌ صادقةٌ في التعلّم، وكانوا ينهجون السلوك القويم لبلوغ النور. كانت أمثال المعلّم توقظ فضولهم، ورغبتهم في المعرفة، والتعلّم على يد معلّمٍ فذٍّ، فيستوضحونه كلّ ما لم يقووا على استيعابه، وكان، هو، يسارع إلى التفسير.

القَمْحُ وَالزُّؤانُ، وَشَبَكَةُ الصَّيَّاد (*)

ومن حقل الزراعة، أيضًا، استنبط يسوع مثلاً آخر، أكّد، من خلاله، أنّ الصراع سيظلّ، أبدًا، محتدمًا، على الأرض، بين الخير والشرّ. فعلى الصالحين أن يألفوا وجود الأشرار إلى جانبهم، غير متأثّرين بشرّهم. مثال ذلك أنّ مزارعًا بذر، في حقله، حنطةً جيّدةً، ولمّا شرع الزرع ينمو، اتّضح لعمّاله أنّ الزؤان ينبت إلى جانب الحنطة. خبرتهم العريقة هي التي مكّنتهم من لحظ ذلك. فنبتة القمح، ونبتة الزؤان، في مستهلّ مرحلة نموّهما، يصعب التمييز بينهما. وأعربوا عن دهشتهم، وهم الذين أشرفوا على نثر البذار الجيّد. ولكنّ ربّ الحقل بيّن لهم أنّ عدوًّا حسودًا، حاقدًا، يريد به وبهم سوءًا، وافى، ليلاً، ونثر، بين بذار القمح بذار زؤان. فاستأذنوه باقتلاع الزؤان في الحال، ولكنّه أبى، فالتربة طريّةٌ، وجذور القمح والزؤان متشابكةٌ، ومن شأن اقتلاع الزؤان، في تلك المرحلة، اقتلاع نبتات القمح معه. ومن ثمّ، من الأفضل التذرّع بالصبر حتّى ينضجا، كلاهما، وتأذن ساعة الحصاد. حينئذٍ، يغدو من اليسير فرز الزؤان، الذي يتميّز برقّة سنابله، وضآلة حبّه، فيُحصَد، أوّلاً، على حدةٍ، وبعنايةٍ، خشية وقوع حبّاتٍ منه في التربة، حيث قد تضرب جذورًا، وتهدّد موسمًا آخر، ويُحرَق ما حُصِد منه اتّقاءً لمضارّه. وبعدئذٍ، يُحصد القمح، صِرفًا، بمنأًى عن أيّ اختلاطٍ أو تلوّثٍ.

وقد فسّر يسوع نفسه هذا المثل لتلاميذه، قائلاً: «**الذي يزرعُ الزرع الجيّد هو ابن البشر. والحقل هو العالم. والزرع الجيّد بنو الملكوت. والزؤان بنو الشرّير، والعدوّ الذي زرعه هو إبليس. والحصاد مُنتهى العالم. والحصّادون الملائكة. فكما أنّ الزؤان يُجمع ويُحرق في النار كذلك يكون في مُنتهى العالم: يُرسل ابن البشر ملائكته فيجمعونَ من مملكته كلّ المعاثر وفاعلي الإثم، ويُلقونهم في أتّون**

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «دعوهما ينميان كلاهما معًا...»، صفحة ٢٢٥.

النار: هناك يكون البكاء وصريفُ الأسنان. وأمّا الصدّيقون فيتألّقون، حينئذٍ، كالشمس في ملكوت أبيهم. فمن له أُذنان فليسمع!» (متّى ١٣: ٣٧- ٤٣).

هذا المثل دعوةٌ إلى الصبر والمقاومة. فالشرّ ينمو، لا محالة، إلى جانب الخير، في جوارنا، وداخل ذواتنا. فلنقوَ على التعايش مع كليهما، مستعينين بالله على اتّقاء آثار الشرّ الوبيلة، ولندع للخالق القيام بعمليّة الفرز، في الموعد الذي يحدّده، في ملكوته.

إنّه سرُّ تجاوُرِ الخير والشرّ، وتزامن عمل ابن الله لخلاص العالم، وجهد الشرّير ابتغاءَ إهلاكه. والإنسان حرٌّ باختياره هذا أو ذاك، وعلى اختياره يتقرّر مصيره.

وكما هو الأمر في الحقل، كذلك هو في البحر، حيث يختلط الجيّد من السمك بالرديء، والرديء أنواعٌ: منه الميّت الفاسد، ومنه ما يُعدّ سامًّا وضارًّا، ومنه ما كانت الشريعة تحظر تناوله لأنّه خالٍ من الفِلْس والحراشف. وفي هذا البحر الزاخر بكلّ صنفٍ ألقى الصيّاد شبكته الكبيرة «**فلمّا امتلأت أطلَعُوها إلى الشاطئ ثمّ جلسوا فجمعُوا الجيّد في أوعيةٍ، وأمّا الرديء فطرحوه خارجًا. كذلك يكون في مُنتهى العالم: يَخرج الملائكةُ ويفصِلون الأشرار من بين الصدّيقين، ويُلقونهم في أتّون النار: هُناك يكون البكاءُ وصريفُ الأسنان**» (متّى ١٣: ٤٨-٥٠).

حقل الملكوت (*)

وفي السياق عينه ضرب يسوع أمثلةً أُخرى. فقال: «**مثلُ الملكوت كمثَل رجلٍ ألقى الزرعة في الأرض. فسواءٌ نام أم استيقظ، في الليل وفي النهار، فالزرعُ ينبُت ويزكو ولا يدري كيف. فالأرضُ من نفسها تُخْرِجُ العُشبَ أوّلاً، ثمّ السنبُلة، ثمّ القمح ملءَ السنبُلة. ومتى أدرك الثمرُ يُعمِلُ فيه المِنجَل في الحال لأنّ الحصاد قد آن أوانُه**» (مرقس ٤: ٢٦– ٢٩).

فالإيمان وبلوغ الملكوت لا يتهيّآن للمرء بإرادته، وقوّة ساعده، فحسب، بل هما، إلى حدٍّ بعيدٍ، من عمل الله.

وبالتالي، واجب الإنسان أن يريد، ويوطّن العزم، ويُعدّ حقل نفسه لتلقّي غيث الله وغوثه، والله كفيلٌ بالإنبات، والتنمية، بتؤدةٍ، ولكن بثباتٍ.

فلنثق بقدرة ملكوت الله السرّيّة الفائقة، التي ستؤتي حصادًا وفيرًا في الوقت المحدّد، فالوقت عاملٌ أساسيٌّ لكلّ ما يستلزم نموًّا. ولا نلجأنّ إلى العنف، إذ إنّ شدّ النبتة إلى فوق لا يساعد على تسريع نموّها. ولا نستسلمنّ للقنوط عندما يبدو لنا أنّ الله يدع الأمور تسير على هواها، وهُوَيناها، فهو، في هذه الأثناء، يسهر على إنضاج البذرة.

وضرب يسوع، أيضًا، مثل حبّة الخردل، وقال: «**بماذا نُشبّه ملكوت الله؟ وبأيّ مَثَلٍ نمثّله؟ إنّه مثل حبّةِ خردلٍ. إنّها حين تُزرع في الأرض تكونُ أصغر جميع البُزورِ التي على الأرض. لكنّها إذا زُرعت طلَعتْ وصارت أكبر البُقول جميعًا. ثمّ تُفرعُ أغصانًا كبيرةً حتّى إنّ طير السماء تستطيعُ أن تُعشِّشَ في ظلّها**» (مرقس ٤: ٣٠ – ٣٢). كي يعلّمنا أنّ الملكوت يبدأ صغيرًا، بل مفرطًا في الصغر، شبّه

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «البذرة العنيدة»، صفحة ٢٢٨، و«بذار الله»، صفحة ٢٣٠.

الملكوت ليس فقط بحبّة حنطةٍ، بل بما هو أصغر منها بكثيرٍ، بحبّة الخردل التي تكاد لا تُرى عندما تودع التربة، ولكنّها، متى نَمَتْ، أمست من أكبر البقول، وأفرعت أغصانًا كثيرةً وكثيفةً، بوسع طير السماء أن تبني فيها أعشاشها. فليست المظاهر الصاخبة هي المهمّة، بل الطاقة الصامتة التي لا تُقاوَم. فلا تصدمنّا وضاعة البدايات، ما دام يحدوها روح النموّ.

على نقيض الشريعة التي أُعلنت وسط هزيم الرعود، ووميض البروق، على الملكوت أن ينمو في الخفاء والتواضع، وأن يمتدّ شيئًا فشيئًا، حتّى أقاصي المسكونة.

لم يرمِ يسوع إلى إظهار كِبَر الملكوت الذي أسّسه، وإلاّ لشبّهه بكرمةٍ، أو بسنديانةٍ، أو بأرزةٍ، ولكنّه حرص على وصف ضآلة البذرة بُغية إبراز جسامة نموّها، قياسًا إلى حجمها. كذلك كان نشوء كنيسته الذي استند على اثني عشر رجلاً من عامّة الشعب، معظمهم صيّادون، التفّوا حول نجّار قريةٍ. ومع ذلك، قبل وفاة آخر أولئك الاثني عشر، كانت الكنيسة قد تخطّت تخوم العالم المتحضّر. ولم تفلح ثلاثة قرونٍ من الاضطهادات الشرسة المستمرّة في لجم زحفها. وأمست حبّة الخردل شجرةً فاءت إلى ظلّها أُمم العالم.

زرع يسوع بذار الملكوت في مثل صِغَر حبّة الخردل، صامتًا، متواضعًا. استهلّه بعظته على الجبل التي بدت وكأنّها غمامةٌ رقيقةٌ، قد تبدّدها أدنى هبّة ريحٍ، ولكن منها توهّج نورٌ غمر الكون، وما برح يزداد ألقًا، بعد عشرين قرنًا.

وشبّه يسوع، أيضًا، عمل الروح على إنماء الملكوت، ذلك العمل الخفيّ، الصامت، الواثق، بخميرةٍ «**أخذتها امرأةٌ وقرنتها في ثلاثة أكيالٍ من الدقيق حتّى اختمر العجين كلّه**» (لوقا ١٣ : ٢١).

ولكم شهدنا قبضة خميرةٍ تدسّها ربّة البيت، مساءً، في عجينٍ غزيرٍ، فإذا ما استيقظت، صباحًا، تبيّنت أنّ الخميرة الضئيلة قد غزت، في ليلة تفاعلٍ خفيٍّ، كمّيّةً تفوقها بلا قياسٍ، وتغلغلت في ثناياها، وحوّلتها.

فعل الخميرة هذا رمزٌ لطبيعة الملكوت الحميمة، الصامتة، الروحيّة. فالملكوت لا يمتدّ بقوّة السلاح، ولا بدعم المال، أو بالوسائل السياسيّة، بل بغزوه العقول والقلوب، وبالتفاعل معها تفاعل خميرٍ إلهيٍّ، سرّيٍّ.

والخميرة تمثّل قدرة الإنجيل على التحويل الجوهريّ النشيط، وعمل النعمة المؤثّر في النفوس. فالمسيحيّة، رغم مُثُلها السامية، وأخلاقيّاتها الصارمة، قد توفّقت إلى إسقاط عبادة الأصنام، وفجّرت ينابيع بطولةٍ ما انفكّت تتدفّق على العالم بزخمٍ متعاظمٍ.

الخميرة الحقّة هي روح الله، والدقيق هو الجنس البشريّ. إنّه دقيقٌ لا طعم له في ذاته، ولكنّ انسياب الروح إلى داخله، يحوّله، ويُضفي عليه نكهةً مستساغةً. على تلك الطاقة الإلهيّة الحميمة قام الإنجيل، وتعليم بولس، وبها امتدّت المسيحيّة إلى أقاصي الأرض، بمعزلٍ عن قوّة السلاح، أو أيّة قوّةٍ ماديّةٍ. وحيثما دُسّت الخميرة المسيحيّة، فهي قد أسهمت في إنارة العقول، والسموّ بالأخلاق، وتنظيم العلاقات الاجتماعيّة، وتأليه النفوس.

قِيمَةُ المَلَكُوتِ الجُلَّى(*)

وضرب يسوع، أيضًا، مثلين يؤكّدان عظمة قيمة الملكوت، الذي يستأهل التضحية بكلّ شيءٍ في سبيل الظفر به. فقال: «**ويُشبه ملكوتُ السماوات كنزًا دفينًا في حقلٍ. فالرجُل الذي وجده أخفاهُ، ومن فرحه مضى فباع كلّ ما له واشترى ذلك الحقل**».

«**ومثلُ ملكوت السماوات، أيضًا، كمَثَل تاجرٍ يطلُب لآلئ كريمةً. فلمّا وجدَ لؤلؤةً نفيسةً جدًّا مضى فباع كلّ ما يملك واشتراها**».

إنّ التضحية الكلّيّة هي ثمن الحصول على الله؛ غير أنّ الجبناء والأنانيّين يتقاعسون، ولا يدركون أنّ الافتقار هو السبيل إلى الظفر بثروات الملكوت. يأبون التخلّي عن ملذّاتهم فيفقدون أفراح الله، ويرفضون التخلّي عن علمهم المحدود، فيظلّون خارج محراب الحقيقة اللامتناهية؛ ويتشبّثون بالمطامع البشريّة، فيحرمون أنفسهم العظمة الأبديّة الموقوفة على أبناء الله.

الظفر بالملكوت يقتضي كلّ أصناف التضحيات، مثل بتر علاقاتٍ عزيزةٍ، والتغلّب على مقاومةٍ عنيدةٍ، وتخطّي عقباتٍ كأداء. وكلّ ذلك يستلزم جرأةً بطوليّةً ضرب عليها كبار المرتدّين، عبر تاريخ الكنيسة، أروع أمثلةٍ.

ويبقى يسوع هو الكنز الإلهيّ الذي يسع البشريّة أن تغتني به، بلا حدودٍ، وهو، مثل كلّ أبديٍّ، يمتلك القديم والحديث، ما كان، وما هو كائنٌ، وما سيكون. يمتلك سرّ الماضي، والحاضر، والمستقبل. من التمس منه الحقيقةَ علّمه، أو القدرةَ على الحياة، زوّده بها، أو العزاءَ أفاضه على قلبه بغزارة، أو الرجاءَ أضاء به نفسه، أو السعادةَ، أتاح حتّى للأشدّ حرمانًا منها تذوّق طعمها، منذ هذه الأرض(**).

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «كنز الملكوت»، صفحة ٢٣٢.

(**) راجع **يسوع في إنجيله**: «ملكوت الله في ما بينكم»، صفحة ٢٣٥.

ومن ثمّ لم يعد يحقّ للإنسان أن يشكو، حتّى لو ران على نفسه البؤس والعوَز، إذ بات بوسعه الانعتاق منهما. فما كان يتلهّف إليه، أبدًا، ويفتقده: الحياة والسعادة، الحياة التي لا تخشى الموت، والسعادة الحقّة التي تزيدها المِحَن رسوخًا، كلّ هذه باتت في متناول يده، فحسبه أن يلتمسها من يسوع، ويسعى إلى ملكوته، كي يحيا ويسعد.

وبعد أن كشف يسوع لتلاميذه أسرار الملكوت، أهاب بهم أن يستخدموها لتعليم الأجيال، فقد تلقّنوا تعليم ملكوت السماوات، وبات بوسعهم أن يُخرجوا من كنوزهم كلّ جديدٍ وعتيقٍ. «**أفهمتم هذا كلّه؟ قالوا لـه:** «**نعم**». **فقال لهم:** «**هكذا كلّ كاتبٍ تلقّى تعليم ملكوت السماوات، يُشبه ربّ بيتٍ يُخرج من كنزه جديدًا وعتيقًا**» (متّى ١٣: ٥١–٥٢).

تَسْـــكِينُ العَـاصِفَةِ (*)

كلّما اشتدّت حملات أعداء يسوع، عليه، شراسةً، وكلّما هو أدلى بتعاليم جوهريّةٍ يصعب فهم أبعادها منذ الوهلة الأولى، كان الأب يجري على يديه خوارق تخزي مناوئيه، وتلقمهم حجرًا، وتدعم إيمان تلاميذه، وتفتح أذهانهم على قدراته الإلهيّة، علّهم يتوغّلون في تمثّل تعاليمه.

لقد بات يسوع مقصد المبتلين بالعلل والعاهات، يلاحقونه، ويحاصرونه، ويشدّون ثيابه، ويلقون بأنفسهم عليه، بمناظرهم المنفّرة أحيانًا، وبروائحهم المقزّزة، وكان، هو، يتنشّق بهدوءٍ، هذه الروائح، ولا ينفر من أيّ شيءٍ آتٍ من البشر. ومع كلّ هذه المحاصرة، كان، دائمًا، مبتهجًا. غير أنّه كان مرهقًا، ولا ريب أنّ يديه، كانتا، في المساء، وجيعتين، تغشاهما طبقةٌ من الدم، واللعاب، والصديد، فيتوق إلى شيءٍ من النسيم المنعش، ومن الصمت، والعزلة، وإلى الصلاة حيث يروي لأبيه تفاصيل لقائه بالبشر. تارةً كان يصعّد، وحيدًا، في الجبل، وتارةً أُخرى، كان يستقلّ سفينة بطرس، ويقلع إلى أعالي البحيرة. ولكنّه، حتّى عندما يطبق جفنيه، كي يصيب شيئًا من الراحة، لم تكن تبارحه أنظار المرضى التي ألهبتها الحمّى، وقروحهم، وجدَعاتهم، فيتأمّلها، ويحبّهم. وبعد أن يغلبه النعاس، يظلّون يراودون أحلامه.

وفي ذلك اليوم، وما إن فرغ يسوع من الإدلاء بأمثاله المتعلّقة بالملكوت، حتّى حاصره المبتلون بشتّى الأسقام، فشفاهم، وبلغ به الإرهاق والنَصَب والنعاس كلّ مبلغٍ، فأمر تلاميذه بالإبحار، فجأةً، شطر ضفّة البحيرة الشرقيّة، حيث كان يتطلّع إلى فسحة سكونٍ ونقاهةٍ. وشايعته سفنٌ أخرى عديدةٌ تقلّ الراغبين في سماعه أو في الظفر بنِعَمٍ خاصّةٍ. وما كاد يجلس في السفينة حتّى جاؤوه بوسادةٍ أسند إليها رأسه، واستغرق في سباتٍ سحيقٍ.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «النائم الذي يُخرس العاصفة»، صفحة ٢٣٧.

وقد عُهِد عن بحيرة طبريّا تقلّب الأنواء فيها تقلُّبًا مفاجئًا، منتقلاً بها، بين لحظةٍ وأُخرى، من سكونٍ مطلقٍ، حيث المياه ساكنةٌ لا تغضّن سطحها أدنى موجةٍ، ولا تنفخ أشرعة السفن فيها ولو نسمةٌ رقيقةٌ، إلى عاصفةٍ هوجاء ترقى بالأمواج جدرانًا شاهقةً مهدّدةً، تسوطها رياحٌ عنيفةٌ تكاد تطيح بكلّ شيءٍ في طريقها. وفيما كان يسوع مسترسلاً في سباته، انقضّت على المركب واحدةٌ من تلك العواصف المباغتة التي جهد التلاميذ في مقاومتها، واتّقاء أضرارها، ما استطاعوا، إلى أن أُسقِط في يدهم، وامتلأ المركب ماءً، وبدا لهم الهلاك محتّمًا.

أحداث تلك الليلة، انحفرت في أعماق ذاكرة بطرس، مع تمرّسه بالإبحار. فهو، ربّما، للمرَّة الأولى، شاهد الموت وجهًا لوجه. وطالما روى انطباعاته تلك على مسامع مرقس الذي رواها روايةً تنبض حيويّةً.

إنّ أسوأ ما في العاصفة هو الشعور بتلاشي كلّ شيءٍ: كلّ توازنٍ، وكلّ استقرارٍ، وكلّ يقينٍ، بحيث يبدو كلّ شيءٍ خداعًا، وكذبًا، ووهمًا.

كان التلاميذ، إذن، يتراكضون، في كلّ اتّجاهٍ. وقد أخذ منهم الذعر كلّ مأخذٍ، وأمست سفينتهم التي غمرتها المياه، كُرةً تتقاذفها الأمواج الصاخبة، وتوشك، في كلّ لحظةٍ، أن تحطّمها أو أن تغرقها. ومع ذلك يسوع مستسلمٌ لسباتٍ يشبه الموت. وكانت تتنازع التلاميذ مشاعر متضاربةٌ، بين رغبةٍ في عدم إزعاج المعلّم، وهم يعلمون مدى تعبه، والرعدة من هول الكارثة المنذرة؛ بين إجلالهم لـه، والاستغاثة به، إلى أن تولّتهم الخشية من هلاكه معهم، فجاؤوه، وهم يصيحون، في شيءٍ من العتب: «**يا معلّم، أما يهمّك أنّنا نهلك!**».

واستيقظ يسوع، فشاهد صخب الطبيعة، وصخب القلوب المذعورة. كان وجهه وثوبه يقطران ماءً، واللجّة تغمر ركبتيه داخل السفينة، ورداؤه المبتلّ يصطفق ويتطاير مع الريح الهوجاء. «**فزجر الريح، وقال للبحر: «اسكتْ، اخرس!» فسكنت الريح، وساد هدوءٌ عظيمٌ**». **ثمّ التفت إلى التلاميذ، وعاتبهم عتابًا رقيقًا، قائلاً: «لم خوفكم هذا؟ أحتّى الآن لا إيمان لكم؟»**. إنّ مجرّد ظنّهم أنّ المعلّم، وهو نائمٌ، أو متظاهرٌ بالنوم، لا يعي المخاطر التي يتعرَّض لها تلاميذه، لدليلٌ على وهن إيمانهم به. قد يشفع بهم الخوف الذي يشلّ التفكير، أحيانًا، ولكنّهم كانوا في حاجةٍ إلى مثل تلك المحنة كي تترسّخ ثقتهم بالمعلّم.

إنّ مجرّد توسّل التلاميذ إلى يسوع أن ينقذهم لهو، في ذاته، دليل إيمانٍ. ومع ذلك أخذ عليهم المعلّم وهن إيمانهم، لأنّ من يؤمن لا يخاف. وإن بدا الله، أحيانًا، بعيدًا، صامتًا، فما ذلك إلاّ استدعاءٌ للإيمان وامتحانٌ له.

إنّ الذي استقيظ من سُبات الموت، سيستيقظ دائمًا، في الوقت المناسب، من سباته العابر، وسيهبّ لإنقاذنا.

غير أنّ التلاميذ، وهم الذين قضوا عمرهم فوق اليمّ، وجابهوا الكثير من العواصف، لم يشهدوا، قطّ، عاصفةً تسكن دفعةً واحدةً، مثل طائرٍ يسقط، هامدًا، برصاصة صيّادٍ. بل عهدوا لها سكونًا تدريجيًّا يستغرق ساعاتٍ. قد هالهم ما رأوا، وتساءلوا، وتساءل ركّاب السفن الأُخرى التي كانت تواكبهم، دهشين: «**من يكون هذا حتّى إنّ الريح والبحر يطيعانه؟**».

كانت تلك معجزةً لا سابقةَ لها في تاريخ شعبهم.

* *

تعليقًا على هذه الحادثة كتب فرانسوا مورياك(*): «كان التلاميذ يحدّقون، مذعورين، إلى ذلك الرجل المنتصب، وقد عبثت الريح بشعره، وكأنّه شخصٌ لا يعرفونه. فقد برز، من خلال الدم واللحم، إلهٌ كلّيّ القدرة. القدرة على شفاء المرضى، بل حتّى على إقامة الأموات، قد تُعطى لنبيٍّ عظيمٍ، وهم أنفسهم قد يوهبون هذه النعمة. أمّا أن يأمر الريح والبحر فيطيعانه، فهذا ما جعلهم يتساءلون: «**من هذا؟**». وبصوته الذي أَلِفوه عنّفهم: «**أين إيمانكم؟**» في الواقع لم يدهش يسوع من رعدتهم أمام هذه السلطة على الطبيعة الهائجة. فقد كان ذلك يتخطّى تصوّرهم. ولكنّه كان يعلم أنّ المعجزة الكبرى، والأكثر إدهاشًا هي لجم قلبٍ تعصف الأهواء في أجوائه: فلا الريح ولا البحر يقويان على مقاومته، في حين أنّ القلوب التي مزّقها الحبّ، والأجساد التي تعصف بها الرغبات، تمتلك قدرةً على الرفض هوجاء. إنّ ريح القلوب قد تهبّ في وجه الله العاجز عن تغييرها، هاتفةً: «لا»».

بعمله هذا أكّد يسوع للتلاميذ أنّه يسهر عليهم، حتّى عندما يبدو مستغرقًا في

(*) كاتبٌ وروائيٌّ فرنسيٌّ شهيرٌ، (١٨٨٥–١٩٧٠). حاز جائزة نوبل في الأدب عام **١٩٥٢**. من مؤلّفاته: «حياة يسوع».

النوم، وأنّه سيّد الطبيعة المطلق، التي تخضع لصوت خالقها، وتعنو لأوامره، صاغرةً.

فليطمئنّ، إذن، بطرس، وخلفاؤه، الذي يديرون دفّة سفينة يسوع، كنيسته، ولا يتسرَّبنّ إلى قلوبهم أيّ خوفٍ، فالعواصف، مهما اصطخبت وجُنّت، لن تقوى على إغراق هذه السفينة، فهي تحت حماية سيّد الكون، ولو بدا نائمًا، أو متواريًا. وهو يأمر الأحداث التي تريد بالكنيسة سوءًا، مثلما أمر أمواج البحيرة ورياحها، بكلمته الكلّيّة القدرة، الكفيلة بلجمها. فتتعالى هتافات العبادة فوق البحر الذي سكن. وفي السجوّ السائد، تُسمَع نأمة السفينة متابعةً مسيرتها بهدوء، موقنةً بأنّ لا شيء قادرٌ على إغراقها، ما دام سيّدها على متنها، ولو نائمًا، صامتًا.

هذا ما أدركه، بعمقٍ، البابا الراحل، يوحنّا بولس الثاني، الذي ما انفكّ يردّد هتاف: «**لا تخافوا**»!

«جَوقَـةُ» شَيَاطِينَ، فِي قَطِيعِ خَنَازِير

أرست سفينة يسوع وصحبه، في منطقةٍ يسمّيها الإنجيليّ متّى «كورة الجدريّين» فيما يدعوها الإنجيليّان مرقس ولوقا «أرض الجيراسيّين»؛ ففي تلك المنطقة كانت قريتا «غدارا» و«جيراسا» المتجاورتان، فكان البعض ينسبون تلك البقعة إلى إحداهما، والبعض إلى الأُخرى.

وما كاد يسوع وصحبه يطأون اليابسة حتّى اندفع نحوهم إنسانٌ غريب الأطوار، كان قد اتّخذ من المقابر والكهوف مسكنًا له. كان عاريًا، قذرًا، منفّرًا، يعيش كالحيوانات، وغالبًا ما ينقلب هياجه على ذاته، فيمزّق جسده بالصخور والحجارة. ولكنّه، أحيانًا، يتعرَّض للمارّة، فيهاجمهم، ويشيع في نفوسهم الرعب، وفي أجسادهم الكدمات والجروح. ولطالما حاولوا تقييده بالسلاسل والأغلال، ولكن بلا جدوى، إذ إنّه كان يمتلك قوّةً بهيميّةً هائلةً تمكّنه من كسر القيود والأغلال، واستئناف عيشه المتوحّش.

وما إن شاهد يسوع، من بعيدٍ، حتّى جاء واطّرح عند قدميه، ولكأنّ قوّةً لا تقاوَم تدفعه نحوه، وهو يصيح بكلّ قواه: «**ما لي ولك، يا يسوع، ابن الله العليّ؟ ناشدتك الله، لا تعذّبني**». كان إبليس هو المتكلّم بصوت الرجل المسكون، وكان يتوقّع أن يُطرد منه. إنّ ذاك الذي كان يُحكم قبضته على نفس الرجل المسكين، وجد نفسه مجرّدًا من كلّ حوْلٍ وقوّةٍ، حيال يسوع، الذي، كي يُظهر للحضور جسامة المعجزة التي سيجريها، سأله: «**ما اسمك؟**»، فردّ: «**اسمي جوقة، لأنّنا كثيرون**»، ولكأنّه كان يبتغي إخافة الربّ. ولا ريب أنّ التلاميذ ارتعدوا لسماعهم ذلك، فالجوقة، لدى الرومانيّين، كانت تتألّف من ستّة آلاف رجلٍ، أي ممّا يكفي لتأليف جيشٍ. لقد كان ذلك المسكين، حقًّا، ثكنةً شيطانيّةً حصينةً.

والتمس الأبالسة الدخول في قطيعٍ كبيرٍ من الخنازير كان يرعى هناك، بُغيةَ إثارة الشعب على الربّ، ولكنّ الخنازير، وقد اقتحمتها الأبالسة، انقضّت، بقوّةٍ هائلةٍ،

من البحيرة إلى الجرف، وغرقت جميعها. لقد وقع الأبالسة في فخّهم ذاته، وانعتقت المنطقة من شرورهم. تلك المأثرة كانت تستأهل ذلك الثمن!

* *

استحوذ الذعر على رعاة الخنازير، فجروا مسرعين إلى المدينة، كي يطلعوا أصحابها على ما جرى، ويبرّئوا ذمّتهم من مسؤوليّة فقدانها. وجاء أصحاب القطيع، وطائفةٌ من سكّان المدينة. ولدى مشاهدتهم ذلك الرجل الذي كانت شراسته أسطوريّةً، وهو قابعٌ عند قدمَيْ يسوع، ساكنًا، أنيسًا، ناعمًا بكلّ ملكاته العقليّة، ولدى سماعهم أقوال الشهود، أدركوا كلّ ما جرى، ولم تساورهم ريبةٌ بأنّ في الأمر معجزةً. ولكنّهم وقعوا في حيرةٍ: لقد فقدوا رأسمالاً جسيمًا، بهلاك خنازيرهم، ولكنّهم انعتقوا من آفةٍ، وقدراتٍ شرّيرةٍ كانت تعيث في ديارهم فسادًا. هل يقاومون يسوع، وهو يملك هذه القدرات الفائقة؟ أليس في هذا السلوك تهوُّرٌ؟ أو هل يُعربون عن عرفانهم بجميله، ويدعونه إلى الإقامة بين ظهرانيهم؟ ولكن أليس في تجوّل صانع عجائب في ديارهم مخاطرةٌ؟ إذ يمكن توقّع كلّ شيءٍ منه.

بعضهم وثنيّون، وترحيبهم به يعني اعترافًا بإله إسرائيل، والالتزام بما يقتضيه هذا الاعتراف. وبعضهم يهودٌ يغنمون من تربية الخنازير مكاسب جسيمةً، ولكنّهم لا يتجاسرون على تربيتها بأنفسهم، فيوكلونها إلى وثنيّين، ويُدخلون لحومها، خلسةً، إلى فلسطين متحايلين على موسى وشريعته. هؤلاء يخشون الفضيحة، والوثنيّون يؤثرون التضحية بخنازيرهم، مداهنةً للأرواح الشرّيرة، ورغبةً في الانعتاق من يهوديٍّ يمتلك قدراتٍ رهيبةً. ومن ثمّ أجمعوا، كلّهم، على أن يلتمسوا من يسوع، بكياسةٍ، الرحيل عنهم. فهم حريصون على ألاّ يعكّر أحدٌ صفو الحياة التي ارتضوها على علاّتها، وأبَوا عنها فكاكًا. وفي منطقهم المادّيّ رأوا أنّ تحرير إنسانٍ أمرٌ تافهٌ بالقياس إلى فقدان قطيع خنازير.

كانت تلك النوبة الوحيدة التي سبّبت فيها عجائب يسوع الهَلَع. ويسوع الذي يحترم، في الإنسان، حتّى عمى بصيرته، لم يفرض ذاته عليهم، فهو يأبى الإقامة بين ظهراني قومٍ لا يسعدون بوجوده، فانصرف عن ديارهم.

واحدٌ، فقط، كان قد تعلّق بيسوع، ورغب في الارتباط به: هو الذي كان عبدًا

لإبليس، فحرّره الربّ، وأعاد له كرامته الإنسانيّة. ولكنّ يسوع بيّن له، برقّةٍ، أنّه سيكون أوفر جدوى للملكوت، بمكوثه في قريته، وبالشهادة لمحرّره. وهو، وإن لم يحظَ بشهرة المجدليّة، التي حرّرها يسوع من سبعة شياطين، فصارت له شاهدةً مندفعةً، متفانيةً، بل «رسولة الرسل»، إلاّ أنّه انطلق يشهد، مُخبرًا في مدن الذيكاپول كلّها، بما صنعه يسوع له.

إنّ قبول يسوع يقتضي تضحياتٍ جمّةً، والذين يخشون مقتضيات اتّباع يسوع يؤثرون طرده على التضحية في سبيله. لذلك جعل يسوع من ذاك الذي حرّره من الشياطين نموذجًا للتغيير الجوهريّ الذي يطرأ على من يحلّ فيه روح الله.

لقد وازن الجراسيّون بين نعمة الله اللامحدودة، وفيض رحمته، من جهةٍ، وقطيع خنازيرهم من الجهة الأُخرى، فرجحت لديهم كفّة الخنازير. فبهائمهم أغلى عليهم من نفوسهم.

لم يحاولوا معرفة هويّة يسوع، ولم يروا فيه سوى ذاك الذي ألقى الذعر في خنازيرهم وأهلكها، وإن هو أهلك الخنازير، اليوم، فما عساه يفعل غدًا، إن هو تلبّث في ما بينهم؟ ولم يغضب يسوع عليهم، فقد أَلِف أن يُقابَل بالعبادة أو بالبغض. بل إنّه كلّف الرجل الذي أعتقه من جوقة الشياطين، والذي التمس اتّباعه، أن يمكث بين ظهرانيهم، ويبشّرهم بملكوت السماوات، وجعله، بذلك، سابقًا لشاول الطرسوسيّ، وأوّل رسولٍ للمسيحيّين بين الوثنيّين.

«للغَدَريّين ذُريّةٌ أكبر من أن تُتخيَّل، تتكوّن ممّن دُعوا، ورأوا، ولمسوا، ومن أدركوا أنّ الحقيقة حيّةٌ، وأنّها كائنٌ حيٌّ. ولكنّهم أناسٌ ملتزمون بمهنتهم، ملتصقون بشهواتهم، لهم أسرةٌ يعيلونها، وأهواء لا يقوون على كبحها. يخشون، أكثر من خشيتهم النار، هذا الحبّ الذي يحفر ثلمه في اللحم الحيّ، الذي يشذّب، ويبتر. فيؤثرون أن يُتركوا وخنازيرهم. يدركون أنّ الصليب جنون، ولكنّهم يأبون التمثّل بالملائكة، ويستسلمون لنصيحة العقل» (فرانسوا مورياك).

وأخيرًا، جديرٌ بالملاحظة أنّ الإنجيليَّيْن مرقس ولوقا ذكرا رجلاً واحدًا مسكونًا حرّره الربّ، في حين أنّ الإنجيليّ متّى تحدّث عن رجليْن مسكونَيْن.

إقَامَةُ ابنَـةِ يَـئِيرَ، وَشِفَاءُ ٱمْرأةٍ نَازِفَـةٍ(*)

عاد يسوع إلى كفرناحوم، حيث كان جمعٌ غفيرٌ في انتظاره. غير أنّ أحدهم كان، أكثر من جميع الآخرين، ينتظره، في حرقةٍ وجيعةٍ، وهو وجيهٌ يهوديٌّ، ورئيسٌ للمجمع، ارتسمت أَمارات الفاجعة على محيّاه، يُدعى يئير، له ابنةٌ وحيدةٌ، في الثانية عشرة من عمرها، تعاني سكرات الموت. فرغم عداء زعماء اليهود ليسوع، كان وجهاؤهم، إذا ما دهاهم خطبٌ شخصيٌّ، وفقدوا كلّ أملٍ، يفزعون إليه.

كان الازدحام حول يسوع على أشدّه، ولكنّ يئير شقّه، مدفوعًا بزخم رجاءٍ مجنونٍ. كان قد شهد بعض معجزات يسوع، وفي هلعه وخوفه على ابنته، حصر كلّ رجائه في نبيّ الناصرة. لم يكترث بلقبه، وبكلّ ما يمثّل، بل أقبل وارتمى عند قدمَيْ يسوع، «**وابتهل إليه بإلحاحٍ، قائلاً: إنّ ابنتي الصغيرة على آخر رمقٍ. فهلمّ وضع يدك عليها، فتنجو وتحيا**».

لا ريب أنّ الفرّيسيّين الموجودين هناك استنكروا إزراء رئيس المجمع بمركزه وكرامته، وركوعه أمام صانع معجزاتٍ مريبٍ. ولكنّ يسوع لم يقوَ على مقاومة ذلك الإيمان المتّقد، وتوسّل أبٍ هَلِعٍ يسحق قلبَه الخوفُ من فقدان ابنته، فمضى معه في الحال، عبر الأزقّة الضيّقة التي غصّت بحشودٍ توّاقةٍ إلى مشاهدة معجزةٍ جديدةٍ. وكان الجمع يزحم يسوع، ويدفعه من كلّ صوبٍ. وكانت النعمة تتدفّق منه، تدفّق الماء من نبعٍ، وتداخلت معجزةٌ في معجزةٍ.

فوسط تلك اللجّة البشريّة كانت امرأةٌ مبتلاةٌ، منذ اثنتي عشرة سنةً، بنزيف دمٍ تحدّى براعة النطاسيّين، الذين استنزفوا كلّ مواردها، بلا طائلٍ، ولم تُجْدِ، في شفائها، وصفات الرابّيين المداوين الدجّالين، وصفاتٌ غريبةٌ تمتزج فيه الشعوذة بالسخافة، منها أن تجلس المرأة المصابة القرفصاء، عند مفترق طرقٍ، وبيدها كأس

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «المستان»، صفحة ٢٣٩.

نبيذٍ، فيأتيها أحدهم، على حين غرّةٍ، من خلفها، ويصيح فتشفى؛ وكان للرابّيّين علاجٌ آخر يوصف بأنّه حاسمٌ قاطعٌ، وهو ابتلاع حبّة شعيرٍ منتزعةٍ من روث بغلٍ أبيض. حبّةٌ واحدةٌ كانت كفيلةً بإيقاف النزف مدى يومين، وحبّتان، خلال يومين، كانتا كفيلتين بإيقافه ثلاثة أيّام؛ أمّا اتّخاذ حبّةٍ، على امتداد ثلاثة أيّامٍ متعاقبةٍ، فمن شأنه تحقيق شفاءٍ تامٍّ ونهائيٍّ! وقد جرّبت تلك المسكينة كلّ أنماط العلاج التي نُصحت بها، ولكنّ علّتها كانت تتفاقم، وحالها ترقّ، حتّى شارفت على الإملاق، ولم يبقَ لها من أملٍ سوى الدنوّ من ذاك الذي سمعت عن معجزاته، والذي كان يشيع، من حوله، طاقاته الإلهيّة. وإذ لم يكن بوسعها التماس الشفاء منه علنًا، لأنّها، بحسب الشريعة، نجسةٌ، ولأنّها، باختلاطها بالجمع تسبّب لكثيرين النجاسة، وطّدت العزم على الدنوّ منه، ولمس هدب ثوبه، خلسةً، وهي موقنةٌ، في سريرتها، أنّ هذه اللمسة كافيةٌ لتوفير الشفاء لها. في ثقتها الراسخة، لم يتطاول أملها إلى لمس صانع العجائب نفسه، بل اقتصرت رغبتها على لمس هدبٍ من ثوبه. لقد أيقنت أنّه الطبيب الوحيد الصادق القادر على منحها البرء، فعزمت على اختلاسه منه. وراحت تصارع، وتزاحم، وتدفع بالمناكب، شاقّةً أمواج الحشد، حتّى تمّ لها ما سعت إليه. وفي الحال شعرت بالشفاء يسري في كلّ أوصالها. أيّ فرحٍ غامرٍ، بعد سنين من الألم واليأس! في تلك اللحظة شعر يسوع أنّ قوّةً شافيةً خرجت منه. فلم يشأ أن يظلّ ذلك الشفاء الذي تحقّق في غفلةٍ عن الجميع، طيّ الكتمان، بل توخّى أن يجعل منه، للحضور، درسًا في الإيمان العنيد، الذي يؤتي المعجزات. فتوقّف، والتفت إلى الوراء وسأل: «من لمس ثيابي؟» سؤالٌ بدا مستهجَنًا، غير متوقّعٍ. وسادت الحيرة، وتساءل الحضور عمّا يعنيه بسؤاله هذا؛ وكان بطرس لسان حال رفاقه والجمع المحتشد، فقال له: «**إنّك ترى الجمع يزحمونك، وتقول من لمسني؟!**» ولكنّ الربّ استمرّ يجيل في الجمع أنظاره المتفحّصة. لم يكن يسأل عن لمسةٍ عفويّةٍ عابرةٍ، لمسة زحامٍ غير مقصودةٍ، بل عن لمسة قلبٍ، مترعةٍ إيمانًا، نالت مكافأتها. وظلّ ثابتًا، محدّقًا إلى الجمهور، منتظرًا اعترافًا. واتّضح للمرأة أنّ سرّها قد كُشِف، وأنّ واجب العرفان بالجميل يحتّم عليها الاعتراف، جهارًا، بكلّ ما جرى، فخرّت، مرتجفةً، أمام يسوع، وروت على مسمع الجميع الحقيقة كلّها. وقد أيّد الطبيب الإلهيّ نجاعة العلاج الذي لجأت إليه، وقال لها: «**إيمانك قد خلّصك، يا ابنتي، فامضي بسلامٍ، وكوني معافاةً من دائك**». نادرًا ما خاطب يسوع امرأةً

بقوله: «يا ابنتي»، وإنّما قالها لتلك المرأة، تقديرًا لإيمانها، وتسكينًا لروعها. ومضت المرأة تحمل نعمتَيْن: شفاء الجسد، وسلام النفس.

كم من أمثالها، المؤمنين البسطاء، سمعوا، في أغوار نفوسهم، القول المعزّي: «**يا ابني، إيمانك خلّصك، فامضِ بسلام**»!

أسطورةٌ قديمةٌ ادّعت أنّ تلك المرأة هي ڤيرونيكا التي مسحت بمنديلها وجه المخلّص الماضي إلى الجلجلة، فانطبعت عليه صورته. الواقع هو أنّ الله وحده يعرف اسمها. غير أنّ مثال إيمانها المتواضع، البسيط، الواثق، الذي استأهل مديح يسوع، هو الذي خلّد ذكراها.

* *

رؤية هذه المعجزة كانت قد شحذت رجاء يئير، وأضرمت إيمانه، وإذ جاء، من بيته، مَن حاول إطفاءه. فحين كان يسوع ما برح يمتدح إيمان المرأة، وافى، من منزل يئير، من يقول لـه: «**لقد ماتت ابنتك، فلا تُتعب المعلّم**». وسمع يسوع فأجابه: «**لا تخف! آمن فقط، وهي تنجو**». لقد خُيّل إلى أولئك القوم أنّ يسوع يشفي الأمراض فحسب، وفاتهم أنه ربُّ الحياة والموت، ولا يخيفه الموت. وحبّ يئير لابنته كان أقوى من الموت، وكذلك كان إيمانه الذي رسّخه يسوع بقوله: «**لا تخف! آمن فقط!**» ولا تخشَ طلب المستحيل فالإيمان يقوى على كلّ شيءٍ.

كان بيت يئير يدوّي بالولاويل والعويل، ويعجّ بالنوّاحين والنوّاحات، والطبّالين والزمّارين الجنائزيّين. هؤلاء هم صورةٌ للرابّيّين الذين كانوا يخنقون الدين بسيطرتهم، يدّعون أنّهم معلّمو الشعب، وإنْ هم سوى ممثّلين هزليّين في جنازة حكم اليهود البائد، وكهنوتهم الميت، وهيكلهم المندثر. يزعمون أنّ ما مات مات، ويأبون الإيمان بأنّ يسوع قادرٌ على بعث حياةٍ جديدةٍ. ولذلك أمرهم يسوع بالصمت، لئلاّ يملأوا آذان المتوفّاة بكلماتٍ جوفاء، ولكأنّهم يبتغون الحؤول دون نفاذ كلام الحياة إليها، كلام يسوع، وهو كلام «روحٍ وحياةٍ».

«**لم يدَع يسوع أحدًا يدخل معه إلاّ بطرس، ويوحنّا، ويعقوب، وأبا الصبيّة وأمّها. وكان الجميع يبكون وينوحون عليها. فقال: «لا تبكوا. إنّها لم تمت، ولكنّها نائمةٌ**».

هكذا كان هو يرى رقادها، ولكنّ الحاضرين كانوا متيقّنين من موتها، فدلائله ثابتةٌ، ساطعةٌ. ولذلك لم يستسيغوا هزار يسوع أمام جثّةٍ هامدةٍ، فسخروا منه، لجهلهم بأنّ الموت، مثل الرياح والبحر العاصف، يخضع لأوامره، وبأنّه، هو وحده، يسخر من الموت. أوَ ليس هو، من أعلن: «**من آمن بي، وإن مات فسيحيا**»، «**أنا القيامة والحياة**»؟

وكان والدا الفتاة نهبًا بين الواقع الماثل المفجع، وتأكيد صانع المعجزات. ولكنّ يسوع دفعهما، مع تلاميذه الثلاثة، إلى العلّيّة التي سُجّيت فيها الفتاة، بعد أن حرّرها من النوّاحين والفضوليّين. وفيما كان الصخب مدوّيًا في الخارج، دنا الإنسان الإله من الفتاة التي هجرتها الحياة، فأخذ بيدها الباردة الجامدة، ووجّه لها كلمتين، فحسب، أعادتا لها الروح. تانك الكلمتان انحفرتا، عميقًا، في ذاكرة شاهد العيان بطرس، فكان يردّدهما، كما تلفّظ بهما المعلّم، باللغة الآراميّة العذبة، وأعاد مرقس ذكرهما، بحرفيّتهما، كما قيلتا: «**طابيتا قومي**»، أي: «**يا بنيّتي قومي**».

«**فعادت روحها، وقامت من وقتها**». ولكي ينتزع الربّ الوالدين من ذهولهما، وكأنّهما لا يصدّقان عيونهما، أمرهما بإعطائها طعامًا يشدّد قواها، في أعقاب فترةٍ متماديةٍ من السقم، مبرهنًا عن رقّة عطفه المواكبة لقدرته. «**وأوصاهم، مشدّدًا، بألاّ يعلم أحدٌ بذلك**»، أقلّه ريثما ينأى عن البيت، وعمّا قد يستثيره الحدَث من تظاهراتٍ صاخبةٍ. ولكن أنّى لهما كتمان الأمر، بعد أن شاهد كثيرون، ومنهم، بلا ريبٍ، أطبّاء، تلك الفتاة تغادر إلى العالم الآخر، وإذا بها تتجوّل في ما بينهم، وتتكلّم بطلاقةٍ مدهشةٍ. ولاعجب إن قال متّى، تعقيبًا على ذلك الحدث: «**فانتشر هذا الخبر، في تلك الأرض كلّها**».

وحده يسوع الناصريّ سخر من الموت، وعلّمنا أنّ الموت ليس لنا نهايةً، بل هو عتبة حياةٍ جديدةٍ، نسمع فيها صوته ينادينا: «قوموا إلى الحياة الحقّة».

شِفاءُ أعْمَيَيْنِ وأبْكَم

إقامة ابنة يئير من الموت، وإبراء المرأة النازفة ذاع أمرهما، وتنامى خبرهما إلى اثنين من الذين حُرموا أجمل حواسّ الوجود، حاسَّة النظر. فتوهّج في صدريهما نور الأمل. واستعانا بمن قادهما إلى يسوع، فتعقّبا خطاه، وهما يصيحان: «**ارحمنا، يا ابن داود**».

هذا النداء لم يرُقْ ليسوع، لأنّه كان صدًى لمفهوم المسيح اليهوديّ، الذي كان يأباه، والذي كان كفيلاً بتأجيج الغليان الذي أثارته المعجزتان، في أوساط الشعب. من المحقّق أنّه لم يكن للأعميين، في ذلك المفهوم، ذنبٌ، ولكنّ الربّ ابتغى امتحان إيمانهما الشخصيّ، كي يجعلهما جديرَيْن بالنعمة التي سيمنّ بها عليهما، والتي كان قد وهبهما إيّاها في سرّه. فتظاهر بتجاهل ندائهما، الذي تواصل أَشدّ إلحاحًا وصخبًا، وهو عنه ساهٍ، حتّى انتهى إلى البيت الذي يقيم فيه، فتبعاه.

لقد رأى يسوع في لجاجتهما مثل إيمان المرأة النازفة الذي أشاد به، ومثالاً للإيمان الذي أهاب بيئير أن يعتصم به. فسألهما: «**أتؤمنان أنّي قادرٌ على شفائكما؟**» أجابا: «**نعم، يا سيّد**». «**حينئذٍ لمس أعينهما قائلاً: «بحسب إيمانكما، فليكن لكما، «فانفتحت أعينهما**».

ومثلما كان يسوع قد أوعز إلى يئير وأسرته بكتمان أمر إقامة ابنتهم من الموت، كذلك أَنذر الأعميين، قائلاً: «**إيّاكما أن يعلم أحد**». فهو، ما دام في الجليل، كان يداري خصومه، ويتجنّب، ما استطاع، مصادمتهم، لأنّ ساعته لم تكن قد حانت، بعدُ، وكان لا يزال عليه أن يتمّم رسالته. ولكنّه، عندما ستأزف ساعته، ويمضي إلى أورشليم، لن يتوانى عن تحدّي خصومه، وعن مجابهتهم بجرأةٍ، وبلا تحفّظٍ.

غير أنّ الأعمَيَيْن لم يقويا على حبس عرفانٍ بالجميل ضجّ به قلباهما. «**فما إن خرجا حتّى أشاعا أمره في تلك الأرض كلّها**».

* *

وما كاد الأعميان يخرجان، حتّى جيء إلى يسوع بأخرس، بفعل شيطانٍ. وإذ لم يكن يملك حرّيّته، وقدرة التعبير عن إيمانه، بادر يسوع إلى شفائه، وما إن طرد منه الروح الشرّير، حتّى تكلّم الرجل بطلاقةٍ. فهتفت الجموع بإعجابها، معلنةً: «**إنّه ما رؤي، قطّ، مثل هذا في إسرائيل**». هذا القول كان تعليقًا على سلسلة المعجزات التي أجراها الربّ، على التوالي، في ذلك اليوم المبارك. وفيما عبّر الجمع عن إعجابهم، عاد الفرّيسيّون، المصرّون على التعامي عن الحقيقة، يتقيّأون افتراءاتهم الدنيئة، فما كانوا يملكون سوى ترديد لازمة حقدهم وغيظهم: «**إنّه برئيس الشياطين، يطرد الشياطين**».

في ذلك اليوم، كان يسوع قد قهر الأمراض، والموت، والشياطين، ولكنّه لم يُفلح في كسر شوكة كبرياء الإصرار على الإنكار، لدى زعماء اليهود.

إيفادُ الاثنَي عشَر (*)

«**كان يسوع يطوف في المدن كلّها والقرى، يعلّم في مجامعهم، ويدعو بإنجيل الملكوت، ويشفي من كلّ مرضٍ وكلّ سقمٍ. ولـمّا رأى الجموع أشفق عليهم، لأنّهم كانوا مُتعَبين، مرهقين، مثل غنمٍ لا راعيَ لها**»، فرعاتهم الدينيّون يزدرونهم، ويُرهقونهم بفرائض لا قِبَل لهم على الالتزام بها، ويجفّفون فيهم منابع الروح، ويقودونهم إلى الضلال. حينئذٍ قال لتلاميذه: «**إنّ الحصاد كثيرٌ، ولكنّ العملة قليلون، فاسألوا ربّ الحصاد أن يرسل عملةً إلى حصاده**» (متّى ٩: ٣٥–٣٨).

المهمّة جسيمةٌ وملحّةٌ، والوقت المتاح ليسوع من القِصَر بحيث لا يتّسع لتبشير فلسطين بأكملها، فلا بدّ من مساعدين ينهضون معه بهذه المهمّة، ويتأهّبون لنشر رسالته، بعد صعوده، في جميع أرجاء المسكونة.

ولا بأس من أن يختبروا قدراتهم، ويتعلّموا الطيران بأجنحتهم الخاصّة، تحت رعايته.

في سبيل هذه الغاية دعا الاثني عشر، وأوفدهم، اثنين اثنين، كي يغشوا أرحب رقعةٍ ممكنةٍ، وينشروا نداء الله إلى ملكوته الجديد، الذي شرع يتبلور. وضماناً لنجاح رسالتهم، وبما أنّهم سيكونون سفراءه على الأرض، زوّدهم بمثل سلطاته: القدرة على شفاء الأسقام، وتطهير البرص، وطرد الشياطين، وإقامة الموتى. ولكنّ استكمال النجاح كان مرهوناً، من قبلهم، بشرطين: دأبٌ لا يكلّ ولا يهاود، وتجرّدٌ تامٌّ. فهم قد نالوا كلّ شيءٍ بلا مقابلٍ، فعليهم أن يجودوا بكلّ شيءٍ، بلا مقابلٍ ولا تحفّظٍ: «**مجّانًا نلتم، مجّانًا أعطوا**».

على غرار معلّمهم، ستكون معجزات الحبّ هي علامة رسالتهم، وسلطتهم،

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «وصيّة يسوع لمرسليه»، صفحة ٢٤٣، و«سلامٌ لهذا البيت»، صفحة ٢٤٥.

وسيعمل روحه فيهم وبهم. إلاّ أنّه، بالمقابل، يطالبهم بالعطف الذي يهب ذاته، وبالتجرّد الذي يذهل عن ذاته، وبالفقر الذي يتجرّد من كلّ شيءٍ، وبالثقة التي تستسلم لعناية الآب بلا تحفّظٍ.

وعلى الرسول أن يقرن السخاء بالتجرّد، وألاّ يشغله أيّ همٍّ أرضيٍّ. فمن يمتلك كنوز الله التي لا تُسرَق ولا تفسد، يزري بثروات الدنيا الزائلة. وعندما يشهد القوم زهده، وسعادته بهذا الزهد، سيدركون كم الملكوت ثمينٌ. ومن المؤكّد أنّ بعضهم لن يضنّوا عليه بالأساسيّ من مقوّمات العيش.

الفقر الطوعيّ المطلق هو أساس كلّ رسالةٍ، وشرط جدواها. وإن كان كلّ مسافرٍ في فلسطين يصطحب، في جعبته، زادًا للطريق، وبعضًا من المال يخفيه في هميانه، ورداءً احتياطيًّا يتّقي به لسعات البرد، أو يستبدل به ثوبًا أُصيب بالبلل، وأحذيةً متينةً تقاوم الطرقات الوعرة، وعصًا معقّدةً، تحسُّبًا للمصادفات الخطرة، وخرجًا يستوعب المؤونة، وربّما الهبات والهدايا، فتلميذ يسوع يمضي مجرّدًا، أعزل، لا يأخذ معه زادًا، ولا مالاً، ولا ثوبًا إضافيًّا، ولا يستعين براحلةٍ، بل يسير على قدميه، منتعلاً خفًّا رقيقًا. وإن اضطرّ، استعان بعصًا على السير، لا بهراوةٍ للحماية والقتال؛ يحاكي متسوّلاً مرتحلاً. ولكنّ المتسوّل يحمل كشكولاً يملأه بما يُمّن عليه به، أمّا تلميذ يسوع فلا مزود لـه ولا كشكول، بل استسلامٌ تامٌّ وواثقٌ للعناية الإلهيّة: «**ولا تخافوا الذين يقتلون الجسَد ولا قُدرة لهم على قتل الروح، بل خافوا بالحريّ من يقدِرُ أن يُهلِكَ الروح والجسد كليهما في جهنّم**» (متّى١٠: ٢٨– ٣٣).

مهمّتهم: «**نادوا بأنّ ملكوت السماوات قد اقترب**». هذه العبارة توجز علم التلاميذ الذي لقّنهم إيّاه من خلال مخاطبة الجموع، ومن خلال أمثاله، ونجاواه الحميمة معهم. ربّما لم يكونوا قد سبروا كلّ عمق هذا التعليم، ولكنّهم أحاطوا بما يكفي، منه، كي يؤكّدوا أنّ الملكوت هو ملكوت معلّمهم الإلهيّ، وأنّه مشرَعٌ لكلّ من يتوب ويؤمن.

رسالتهم هي قلب مفاهيم العالم رأسًا على عقبٍ، وإفهام البشر أنّ الحياة الحقّة هي غير ما يحيونه. إنّها مهمّة تقويض أعماق الإنسان ووجوده، في سبيل بعث بشريّةٍ أُخرى.

هل كان يُدرك أولئك المرسلون أنّهم ماضون إلى أقاصي عوالم وتواريخ لم تبنْ لها، بعدُ، حدودٌ منذ عشرين قرنًا؟

* *

أرسلهم خفيفين، جاهزين، مجرّدين من كلّ ما يُثقل ويُعيق. بشرٌ شفّافون لا مجال للخلط بينهم وبين مالهم، وشهاداتهم، وأوسمتهم، وبطاقاتهم الشخصيّة، فهم لا يحملون سوى إنسانيّتهم، متحرّرين من كلّ ما يفرّق البشر.

نظير المعلّم، على التلميذ ألاّ يستند على نفوذٍ سياسيٍّ، أو على وسائل مادّيّةٍ، وألاّ يشغل باله بهموم الأرض. فبتجسّده، تخلّى يسوع عن مجد ألوهته، كي يأتي العالم بسيطًا متواضعًا، فقيرًا. إنّ أيّ مشروعٍ قائمٍ على المال والقوّة، لا يأتي بالله، بل إنّ السطوة، والمال، والحيلة هي، دائمًا، حاجزٌ دون انتشار رسالة يسوع. ومهمّة الرسول هي أن يُغني العالم بقِيَمٍ خالدةٍ، بوسائل الفقر والتجرّد.

لقد أراد يسوع من تلاميذه أن يرتقوا إلى مستوًى رفيعٍ من الفضيلة، والثبات، والتجرّد، والتواضع، بحيث ينتشر الإنجيل بمثال سلوكهم، وبتبشيرهم، على السواء.

لا خبزَ، ولا مزوَدَ، ولا مالَ، بل رفيقٌ. إنّ المسيرة تطيب مع رفيقٍ، إذ لا يقوى واحدٌ بمفرده على حمل كلّ جِدَّة يسوع. وسيكون كلّ رفيقٍ للآخر سندًا، ومشجّعًا، ومرشدًا، عزاءً وفرحًا. وعندما يبلّغ أحدهما الرسالة المكلّف بتبليغها سيحدّق المستمعون إلى عيني رفيقه للتثبّت من صدق المتكلّم. ولذلك أرسلهم اثنين اثنين. وحذّرهم من هدر الوقت في المجاملات الفارغة: «**لا تسلّموا، في الطريق، على أحدٍ**»، فالسلامات، في بلادنا، ما زالت تلتهم، من الوقت، قسطًا كبيرًا. وأوصاهم أن يحلّوا ضيوفًا على من هو جديرٌ باستضافتهم، بحيث لا يسيء إلى سمعة رسالتهم، ويمكثوا لديه حتّى الفراغ من مهمّتهم، فالتنقّل من بيتٍ إلى بيتٍ، من شأنه إهانة المضيف الأوّل وإشاعة الأقاويل، وخلق العداوات، وفتح باب النميمة. وأوصاهم أن يتحلّوا بحذر الحيّة وحكمتها، وبوداعة الحمامة وبساطتها. هاتان الفضيلتان تكمل أحداهما الأُخرى. فالحذَر، بمعزلٍ عن البساطة، ينقلب مكرًا، والبساطة، بمعزلٍ عن الفطنة، تنقلب سذاجةً. المكر يضلّل، والسذاجة العمياء تفضي إلى الهلاك.

يسوع يأبى مقاومة الشرّ بالعنف، بل يدعو إلى قهره بالوداعة، أو تجنّبه. ولكن على الرسول ألاّ يستسلم لعقبةٍ، أو خطرٍ، أو عنفٍ، بل عليه المضيّ قُدُمًا، في مهمّته، حتّى نهاية الشوط، بلا تخاذلٍ ولا وجلٍ، وصوت يسوع لا يني يدوّي في آذانه وروْعه: «**لا تخافوا**».

لم يزيّن يسوع لتلاميذه مهمّتهم، ولم يوهمهم بأنّها ستكون، دائمًا، نزهةً ممتعةً، فقد ترفض بعض القرى استقبالهم، وحينئذٍ، لا يتعيّن عليهم إدانتها أو التنديد بها، بل الاكتفاء بمغادرتها، ونفض غبار أرجلهم خارجها، محمّلين الرافضين تبعة تنكّبهم عن الخلاص.

ولم يخفِ عنهم إمكانيّة تعرّضهم للاضطهاد، فهو نفسه جاء متجسّدًا إلى خاصّته، وخاصّته رفضته. جاء نورًا، والعالم آثر الظلمة. وقد يلقون، هم أيضًا، المصير عينه: «**هاءنذا أُرسلكم كالنعاج بين الذئاب. فكونوا حكماء كالحيّات وبُسطاء كالحمام. ولكن احذروا من الناس: فإنّهم سيُسلّمونكم إلى مجالس القضاء، ويجلدونكم في مجامعهم. وتُساقون إلى الوُلاة والملوك من أجلي، شهادةً لهم وللأمم. ومتى أسلموكم فلا تهتمّوا كيف أو بماذا تتكلّمون. فإنّ ما تتكلّمون به تُعطَونه في تلك الساعة، لأنّكم لستم أنتم المتكلّمين بل روحُ أبيكم هو يتكلّم فيكم. وسيُسلّم الأخُ أخاهُ للموت، والأب ابنَه، ويقوم الأولاد على والديهم ويقتُلونهم. وسيُبغضكُم الجميعُ من أجل اسمي. والذي يثبُتُ إلى المنتهى فهو الذي يخلُص. وإذا طاردوكم في هذه المدينة فاهربوا إلى أُخرى.**

«**ليس التلميذُ فوق معلّمه، ولا العبدُ فوق سيّده. فحسبُ التلميذ أن يكون كمُعلّمه، والعبد كسيّده، فإذا كان ربُّ البيت قد أسمَوْه بعلزَبول، فكيف بالأحرى أهلُ بيته؟**» (متّى ١٠: ١٦–٢٥).

وقد أوضح يسوع لتلاميذه أنّ هوى الرسالة يفوق كلّ هوًى، ويفرض التضحية حتّى بأشدّ العواطف طبيعيّةً وشرعيّةً، إن هي ناقضت مقتضيات الرسالة: «**لا تظنّوا أنّي جئتُ لأُلقي على الأرض السلام. إنّي ما جئت لألقي السلام بل السيف. أجل، جئت لأفرّق بين المرء وأبيه، بين البنت وأُمّها، بين الكنّة وحماتها. ويكونُ أعداء الإنسان أهل بيته. لذلك من أحبّ أباهُ أو أُمّه أكثر منّي فليس خليقًا بي. ومن أحبّ ابنه أو بنتَه أكثر منّي فليس خليقًا بي. ومن لم يحمل صليبه**

ويتبعني فليس خليقًا بي. من حفظ حياته خسرها، ومن خسر حياته من أجلي حفظها» (متّى ١٠ : ٣٤–٣٩).

لقد ابتغى يسوع أن يجعل من الاثني عشر، نموذجًا لجميع رسل المستقبل، تجرّدًا، وفقرًا، وبذلاً، وجرأةً، وإقدامًا. وجعل منهم ممثّليه: «**من قَبِلَكم، قَبِلَني، ومن قبلني، قبل الذي أرسلني**». من خلال الاثني عشر كان يسوع يخاطب جميع مرسليه عبر الأجيال، وينفثهم روحه وقوّته، ويُعدّهم لسرّ الصليب والقيامة، ويضرب لهم من نفسه مثلاً، ويدعوهم إلى الصمود، مع علمهم بأنّ نصيبهم سيكون، غالبًا، عداء البشر، والعنف، والاضطهاد، والإدانة، والبغض، والموت.

ولكنّه حصر رسالتهم في الشعب اليهوديّ، الذي ابتغى تبشيره، أوّلاً، قبل الانفتاح على العالم أجمع. فاليهود الذين آمنوا بوحدانيّة الله، وأُعطوا الوصايا، ثمّ تاهوا في شعاب التفسيرات، وخلوا من الروح، ينبغي أن يكونوا طليعة التائبين إلى روح العبادة الحقّة، وإلى التخلّي عن الحلم بملكوتٍ أرضيٍّ قائمٍ على القوّة والسيطرة، وعن معاداة الآخرين، والتحوّل إلى الملكوت الروحيّ الذي بشّر به يسوع، والذي أسّسه على المحبّة الشاملة، والسلام، والإخاء، والمشاركة.

فضلاً عن كون تلاميذ يسوع ما برحوا مشبعين بالفكر اليهوديّ، ولم يفقهوا، بعد، مسكونيّة رسالته، وأبعادها، التي سيهديهم إليها روحه القدّوس، بحلوله عليهم، يوم العنصرة، والتي سينتدب لها، بولس، رسولاً فذًّا، من صميم غلاة اليهود، قَلَب كلّ كيانه، فأعلن على الملأ أنّ جميع البشر، بلا استثناءٍ، مدعوّون إلى أخوّة يسوع، وبنوّة أبيه، على قدم المساواة، بمنأًى عن أيّ تمييزٍ، إلاّ في صدق الإيمان. وفي تيّار بولس اندفع جيشٌ من الرسل الأبطال.

وفي تلك الفترة التدريبيّة، خشي المعلّم عليهم من التورّط في نقاشاتٍ لن يستطيعوا مواجهتها، وحذّرهم من الجدال في المجامع، وأمام الحشود، فعودهم كان ما زال طريًّا، عاجزًا عن الصمود أمام أهواء الجموع السريعة الفوران، والسريعة الهمود، الشديدة التقلّب، وهشًّا حيال حبائل الفرّيسيّين، ومكائد علماء الشريعة. وريثما يملأهم بروحه الذي يؤهّلهم لتبشير الأرض كلّها، حصر مهمّتهم في تبشيرٍ منزليٍّ، شبه فرديٍّ.

هذا هو الرسول الذي يريده يسوع: إنسانٌ كريمٌ تلقّى من الله كلّ شيءٍ، ويهب كلّ شيءٍ بلا مقابلٍ، ولا حسابٍ، بسخاءٍ يحاكي سخاء الله. ما تلقّاه بلا فضلٍ يهبه بلا منّةٍ. الروح نعمةٌ، لا يُبتاع ولا يُباع. سعيدٌ من يتلقّاه، وأسعد منه من يبلّغه للآخرين. وفيض الفرح هذا هو كنزه ومكافأته. ومن مزايا الرسول الإشعاع: فالنفوس المنفتحة تحرّض على الانفتاح.

ومرسل يسوع هو مرسل سلامٍ. على غرار معلّمه، لا عهد له بعنفٍ أو بقهرٍ، بل هو من جنس أبناء الله المسالمين. و«السلام» الذي يحيّي به ليس مجرّد صيغة مجاملةٍ اجتماعيّةٍ، بل إنّه يحمل قدرةً قدسيّةً، لأنّه التعبير الحيّ عن الروح المحيي الذي يحمله. هذا الروح يفيض ممّن هو حاديهم، فاعلاً فيهم ومن حولهم. وبانتشاره يغني لا الذين يتلقّونه، فحسب، بل، أيضًا، أولئك الذين يهبونه. ولكنّ الويل والثبور لمن يرفضونه.

وذاك الذي يرسله يسوع إلى عالمٍ معادٍ، بلا مالٍ، ولا مؤونةٍ، ولا عصًا، ولا سيفٍ، ولا قوّةٍ بشريّةٍ، متواضعًا، فقيرًا، وديعًا، مسالمًا، هو أمنع من كلّ قوّةٍ مادّيّةٍ: فهذه قد تقتل الجسد، ولكن لا سلطة لها على النفس، والنفس، للرسول، هي كلّ شيءٍ، ففيها يقطن روح الله، وهذا الروح هو حياته. ومن ثمّ، هو لا يخشى إلاّ من يقوى على إهلاك نفسه. ولكنّ الآب، الذي لا يُقهَر، يسهر على من يتّقونه، ويحيط أبناءه برعايةٍ أبويّةٍ: «**أمَا يُباع عُصفوران بفلس؟ ومع ذلك لا يَسقُطُ واحدٌ منهما على الأرض بمعزلٍ عن أبيكم. أمّا أنتم فحتّى شعرُ رؤوسكم كُلُّه مُحصًى. فلا تخافوا: فإنّكم، أنتم، أكرم من العصافير كُلِّها**» (متّى ١٠: ٢٩ – ٣١).

ولكي يزيد تلاميذه إقدامًا ورجاءً، رسم، بخطوطٍ وهّاجةٍ، ما سيكافئ تضحياتهم: «**فمن اعترف بي قدّام الناس أعترفُ أنا أيضًا به قدّامَ أبي الذي في السماوات، ومن أنكرني قدّام الناس فإنّي أنكرُه قدّامَ أبي الذي في السماوات**» (متّى ١٠: ٣٢ – ٣٣).

الظفر باعتراف يسوع أمام أبيه، والانتماء إليه، والمكوث معه، في ملء النور، والحبّ، والحياة، هو الرجاء الأسمى الذي، في سبيله، يحتمل الرسول كلّ اضطهادٍ وعناءٍ، فالانتماء إلى يسوع يقتضي إيثاره على الجميع، حتّى على أقرب الناس إلى القلب، والأوثق صلةً بالذات، بل حتّى على الذات والحياة نفسيهما.

من حرص على الحياة الزائلة ليس أهلاً للحياة الأبديّة. فينبغي التضحية بالجسد في سبيل النفس، والتضحية بالنفس والجسد في سبيل روح اللّه. الجسد الذي يبتغي العيش لذاته، يفقد أسمى مهمّاته، ولا يعود أداة الفكر المجيدة، ويتردّى إلى ذلّ المادّة التي تخنقه. والنفس التي تنكفئ على ذاتها، وتأبى الاتّحاد باللّه، تتخلّى عن ملء الكيان، وتتخبّط في عدمها.

التضحية، إذن هي سُنّة الرسالة.

وختم يسوع وصيّته لتلاميذه بنبرة عزاءٍ عذبةٍ. فالصلة الوثقى التي تربطه بالآب غدت تربطه بأولئك الذين سيواصلون رسالته: «**من قبلكم قَبلني، ومن قبلَني قَبل الذي أرسلني. مَن قَبل نبيًّا لكونه نبيًّا فأجرَ نبيٍّ يُصيب، ومن قَبل صدّيقًا لكونه صدّيقًا فأجرَ صِدّيق يُصيب. ومن سقى أحد هؤلاء الصِغار ولو كأس ماءٍ باردٍ، لكونِه تلميذًا، فالحقَّ أقولُ لكم إنّ أجره لا يَضيع**» (متّى ١٠: ٤٠–٤٤).

تقبُّل يسوع هو فهمه، ومشاركته روح حقّه، وعدله، وسلامه. وتقبّل تلميذه هو مساندته في مهمّته. ولأدنى مبادرةٍ، في هذا المضمار، جزاؤها. حتّى كأس الماء يُحسب لها حسابٌ.

هذه الوصايا، التي نقلها تلميذٌ كان شاهد عيانٍ، تنتصب صرحًا تعليميًّا فذًّا، إذ قلّما تهيّأ لعبقريٍّ أن يورّث تلاميذه عبقريّته، فسموّ عبقريّته نفسه عقبةٌ دون لحاق تلاميذه به، ومن ثمّ هو، غالبًا، يمضي بسرّه إلى لحده، ويدفنه معه، ويَذَر من فتنهم برهةً لوهنهم وضحالتهم. ذلك هو شأن القادة، والفلاسفة، والمشرّعين، والفنّانين. جميع هؤلاء يفشلون في بثّ روحهم في تلاميذهم. ولكنّ يسوع نفث روحه وروح أبيه في نفوسٍ بسيطةٍ، وعقولٍ لا ثقافة لديها، وصاغ تلاميذه على صورته، وأبرز نموذجَ الرسول الذي يقرن الزهد بالوداعة، والتواضع بالصمود، ولا يتخلّى عن السخاء في مواجهة الاضطهاد.

وما زال يسوع يولد، من جديدٍ، في رسلٍ تتألّق صورته فيهم. وحتّى عندما تكفهرّ الأجواء، وتقفر الأرض، ويبدو أنّ الينابيع قد نضبت، ينبعث بشرٌ جُدُدٌ يجسّدون نموذج يسوع. حياتهم هي العمل بكلامه. ولم يخلُ عهدٌ من مثل أولئك الرسل، كما أرادهم قلب يسوع، ومن مثل تلك النفوس الكريمة، المتألّقة بنوره، الخافقة بحبّه.

زيارة ثانية إلى الناصرة

بعد أن أوفد تلاميذه في مهمّةٍ تبشيريّةٍ، شدّ يسوعَ الشوقُ إلى مرابع صباه، ومنزل أُمّه، وأمل أن تكون مشاعر مواطنيه تجاهه قد غدت أفضل حالاً. وفي الواقع، كانت تلك المواقف على جانبٍ كبيرٍ من التباين. فالقوم البسطاء، طيّبو النوايا، ابتهجوا لمجيئه، وأعربوا عن اعتزازهم به، وبصنائعه التي دوّت أنباؤها في كلّ فلسطين، فتنافسوا على دعوته إلى موائدهم الوضيعة، الحافلة بالمحبّة والتكريم.

ولكنّ كثيرين من أهل الناصرة كانوا مقيمين، بعنادٍ، على أحكامهم المسبّقة، المبرمة. فهذا النجّار ابن النجّار الذي نما وترعرع بين ظهرانيهم، ولم يحصّل من العلم سوى زادٍ ضئيلٍ، وكدح جاهدًا في سبيل لقمة العيش، من أين لـه كلّ هذه الشهرة الكاسحة، وأيّ حقٍّ لـه في الظهور بمظهر المعلّم الذي تتراصّ من حوله الحشود معجبةً، مفتونةً، فيما هم ما برحوا في أماكنهم، مُغْفَلين؟

وآخرون كانوا يأخذون عليه اتّخاذه من كفرناحوم مقرًّا، بدلاً من قريته، وإجراءه المعجزات في كلّ مكانٍ، وحرمان قريته منها. أما كانت الناصرة أَوْلى بمعجزات ابنها، لعلّها تنعتق من سمعة الإغفال والحقارة التي يصمها بها جيرانها، فتثبت أنّ من الناصرة يخرج معلّمون مشهورون، على نقيض ما ادّعى نثنائيل ونظراؤه؟

ربّما توقّع يسوع من ذوي قرباه ومواطنيه موقفًا أوفر ودًّا من ذاك الذي واجهوه به، لدى زيارته الأولى. ولكنّه وجد الكثيرين منهم وقد أمسوا أكثر حسدًا، ونقمةً، وتحاملاً عليه، وبه وبأسرته تشهيرًا، وبقدراته تشكيكًا. كانوا يتساءلون بأيّ حقٍّ ينصّب نفسه معلّمًا ونبيًّا، وهم أدرى الناس بنشأته في ما بينهم. يُقال إنّه يصنع معجزاتٍ، فعلامَ كدَح عشرين عامًا لتأمين معيشته، ولم يستعِنْ بقدراته الخارقة؟ هم تعلّموا أنّ النبيّ يأتي بزيٍّ غريبٍ، ولا أحد يعرف منشأه، أمّا هو فيحاكي أيًّا منهم، وجميعهم على نشأته شهودٌ. ولكأنّهم كانوا يتحدّونه، فلئن كانت لديه القدرة على صنع المعجزات المنسوبة إليه، فليُجرِ مثلها أمامهم كي يؤمنوا به. ويسوع يرفض التحدّي، ولا يستجيب إلاّ للإيمان البسيط، الصادق، المطلق، غير المقيّد بشرط.

«إخوته» ومواطنوه كانوا قد التزموا، حياله، اللامبالاة، ما دام كان يحيا تجسّده في الخفية والصمت. أمّا وقد تكلّم، وأدهش، وأجرى المعجزات الباهرة، ونبهت سمعته، فقد سخطوا، واستنكروا نبوّته، وعدّوا إمعانه في التبشير بلا تحفّظٍ، واستقطاب الجماهير من كلّ صوبٍ، ضربًا من الجنون.

في المجمع أدهشهم بسموّ كلامه، وسلطانه. ومع ذلك كانت أحكامهم المسبّقة أقوى أسرًا. فتداولوا، في ما بينهم: «**من أين له هذه الحكمة، وهذه المعجزات؟**». لم يستطيعوا إنكار حكمته ومعجزاته، فهي واقعٌ راهنٌ، ولكن صعب عليهم الاعتراف بها. وعوضًا عن الافتخار به، جهدوا في تحجيمه إلى مستواهم. لقد كان لهم عثرةً لأنّهم لم يستطيعوا رفع أبصارهم إلى مصدر حكمته، وقدراته.

بهذه العقليّة، أقام أهل الناصرة سدًّا منيعًا دون الإيمان بمواطنهم، وبتعليمه، ودون التمتّع بعجائبه. فالإيمان يلتمس النعمة ويظفر بها، أمّا النيّة السيّئة، فهي حاجزٌ دون قدرات العطف الإلهيّ. البشر لا يقوَوْن على فعل شيءٍ بمعزلٍ عن الله. ولكن، بالمقابل، بمعزلٍ عن إرادة البشر، وبمنأًى عن الحبّ، والتواصل، والتبادل، لا يفعل الله شيئًا.

وقد اختار أهل الناصرة التنكّر ليسوع، وإنكار قدراته الإلهيّة، فحُرِموا من مفاعيلها. واكتفى يسوع بشفاء قلّةٍ منهم توسّم فيهم شرارات إيمانٍ.

وقد ذكّرهم بأنبياء، من قبله، لم يسارعوا إلى نجدة قومهم الذين خلت قلوبهم من الإيمان، ولكنّهم أغاثوا غرباء عمرت بالإيمان قلوبهم، ولكأنّه يقول لهم إنّ الوثنيّين أحقّ منهم بصنائعه، وإنّه يؤثر «نجاستهم» على «طهر» بني قومه.

وأوغر الناقمون الصدور على النبيّ الذي لم يكرّم قريته، وتعالت صيحاتٌ مطالبةً بطرد المدّعي، وبقتل الخائن. ولكنّه أفلت من براثنهم، ومضى في سبيله. لا ريب أنّ هيبة سلطانه قد شلّتهم، ومن المرجّح أنّ كثيرين من محبّيه قد ضربوا من حوله سورًا، ودرأوا عنه كلّ شرٍّ.

ويُقال إنّ أُمّه العذراء، أُحيطت علمًا بنيّة قتل ابنها المبيّتة، فهرعت إلى المكان الذي اقتاده إليه مبغضوه، ولكنّ خوفًا شديدًا استحوذ عليها، وحال دون متابعتها السير، فاستندت إلى جدار مغارةٍ، وفي ذلك المكان عينه شُيّد ديرٌ، وكنيسةٌ دُعيت كنيسة القدّيسة مريم، سيّدة الخوف.

مَصْرَعُ يُوحَنَّا المَعْمَدَان

هيرودس أنتيپاس كان قد اقترف جريمة سِفاحٍ نكراء، عندما اقترن بهيروديّا زوجة أخيه فيليبّس، وقد أنّبه المعمدان، علنًا، قائلاً: «**لا يحقّ لك ذلك!**». فسجنه هيرودس، بُغية إخراسه، ومنعًا لانتشار استنكار جريمته بين الشعب، وإرضاءً لعشيقته.

ولكنّ هيرودس، في سرّه، كان يجلّ النبيّ، ويخشى إيذاءه، تطيُّرًا، واحترامًا لقداسته، وخشية ثورةٍ شعواء قد يوري مقتلُه نيرانها. ومن ثمّ فقد اعتقله في قبو مقرّه، في قلعة ماخيرونت، وأفسح له مجالاً واسعًا لحرّيّة استقبال تلاميذه وزائريه. وكان، هو نفسه، بحجّة استجوابه، يقضي ساعاتٍ، يحادثه.

وضاقت هيروديّا ذرعًا من حماية هيرودس للنبيّ السليط اللسان، الذي فضح خطيئة سفاحها، ولم تطق صبرًا على استمرار عشيقها أسير سحر ذلك الواعظ البغيض، الذي كان شوكةً تنخرها في كلّ حينٍ، وكابوسًا يؤرّقها في الليل والنهار، ويوهمها أنّ سطوته على عشيقها كانت أشدّ أسرًا من سطوة فتنتها عليه. وترسّخ لديها اليقين بأنّ إزاحة ذلك القدّيس، شاهد الله، سيمكّنها من التمتّع بخطيئتها، بلا مكدّرٍ، ومن إغراق ضميرها في سباتٍ سحيقٍ. فوطّنت العزم على القضاء عليه، في أوّل سانحةٍ.

ووفّرت فرصةُ الاحتفال بذكرى مولد هيرودس السانحةَ التي طالما ترقّبتها، فأقامت مأدبةً باذخةً، ودعت إليها أرفع شخصيّات البلاط، وأعيان التتركيّة كلّها، وطغمةً من الأثرياء المتطلّعين إلى كلّ مرهفٍ مدهشٍ؛ وزيّنتها بأفخر الأطعمة، وأعذب أصناف الشراب، وأكثرها إسكارًا، وأشاعت فيها جوّ طربٍ طاغٍ أحيته فرق العازفين والمنشدين المجلّين، وأجمل القيان. وكان من الشائع، في مآدب ذلك العهد، وإثر امتلاء المدعوّين بالطعام والشراب، وقبل استسلامهم للخمول، إيقاظ غرائزهم من جديدٍ، بالإتيان براقصاتٍ، هنّ، عامّةً، من البغايا المبتذلات. غير أنّ هيروديّا فاجأت مدعوّيها، في تلك الليلة، باستعراضٍ فريدٍ، أدّته الأميرة صالومي، ابنتها من زوجها

السابق، ابنة الخمسة عشر ربيعًا، التي كانت قد درّبتها، بيدها وبمثلها، على الفجور، والتي كانت قد أتقنت، في روما، صنوفًا من الرقص الخليع، الكفيل بإطاحة صواب أعتى الرجال؛ وحرَّضتها على استخدام كلّ ما لديها من وسائل الفتنة والإغراء. واستجابت الفتاة لرغبة أُمّها، استجابةً فاقت كلّ توقّعٍ؛ فقد أُدخلت إلى حلبة الرقص في قاعة الرجال، بعد أن لعبت النشوة والشهوة بالرؤوس، وراحت تدور وتدور، وتبتدع من الإغواء ألوانًا، دافعةً الضيوف إلى حدود الهذيان، مضرمةً سعير الشهوة حتّى في عمّها وعشيق أمّها، ولا سيّما عندما اختتمت رقصتها بالاطّراح عند قدميه، والتحديق إلى عينيه المخمورتين. ولّما رأى هيرودس الأفواه الفاغرة ذهولاً، والعيون المضرَّجة نشوةً، وتفرُّدَ بلاطه بكلّ مرهفٍ مُغرٍ، وتبيّن كلّ ما أضفته هيروديّا على الحفل من فخامةٍ، ورهافةٍ، وبهجةٍ، ونشوةٍ، وما فرضته على الحضور من إعجابٍ فائقٍ، استقدم ابنتها الراقصة، وهي ما زالت تختلج وتتصبّب عرقًا، وقال لها: «**سَليني ما شئتِ فأعطيك**». ولكي يُسبغ على وعده مزيدًا من العلنيّة، شفعه بقسمٍ أخرق، قائلاً، على مسمع جميع الحضور: «**إنّي أعطيكِ ما سألت، ولو نصف مملكتي**».

وسط تصفيق المدعوّين المدوّي، ووعود التتررك البرّاقة، عادت الصبيّة طفلةً غِرّةً، حائرةً، وكانت أُمّها قد توقّعت حيرتها هذه، وأعدّت عدّتها لاهتبالها واستغلالها. ولّما جاءتها صالومي راكضةً، وأوكلت إليها مهمّة اختيار مكافأتها، وكانت هيروديّا تترأّس المأدبة، في قاعة النساء، وأدركت أنّ هيرودس قد علق في الفخّ الذي نصبته له، داعبت ابنتها برقّةٍ، وهمست في أذنها: دعي عنك كلّ شيءٍ آخر، فسنظفر بما نريد، حينما نشاء، وحسبُك، الآن، أن تطلبي رأس يوحنّا المعمدان على طبقٍ. فدخلت، مسرعةً، على الملك، فصمتت الموسيقى، واشرأبّت الأعناق، ثمّ عُصرت القلوب، عندما سمعوها تقول: «**أريد أن تعطيني، في الحال، رأس يوحنّا المعمدان على طبقٍ**».

هذا الطلب المباغت أيقظ التتررك من نشوته وغفلته، وأوقعه في حيرةٍ قاتلةٍ، فتلكّأ في الإجابة، وهو يروز ثقل حمق وعده الأرعن، وقسَمه المتهوّر. ولكن لات ساعة مندمٍ. لقد استحوذ عليه حزنٌ شديدٌ. ولكنّه كان قد أقسم، والحنث بالقسم، أمام المدعوّين، لم يكن أقلّ إحراجًا من تنفيذ مطلبٍ مجرمٍ.

حفاظًا على لياقةٍ اجتماعيّةٍ، أغضب الله والبشريّةَ، وارتكب جريمةً وحشيّةً بشعةً، على وقع الكأس والطاس، وصحاف الطعام، وأقدام الراقصات. خوفه من هزء الموجودين، ومن غضب خليلته، تغلّب، لديه، على إجلاله للنبيّ، وعلى كلّ وازعٍ أخلاقيٍّ.

وأنصت الحضور، واجمين، إلى وقع أقدام الجند، وهم يهبطون السلّم المؤدّي إلى سجن القلعة، وإلى صرير الباب، وارتعشوا لدى سماعهم ضربة الصارم القاضية. فقد كان المعمدان على مسافة خطواتٍ من المدعوّين، ولاريب أنّ صخبهم، ودويّ تصفيقهم تناميا إلى سمعه، ولّما شاهد السيّاف قادمًا، منتضيًا سيفه، أدرك كلّ شيءٍ، فكشف عن عنقه، ومدّه. ومضةٌ، صوت قطعٍ، وسقوطٌ! لحظاتٌ، وتصرّمت حياة ابن زكريّا وإليصابات، آخر أنبياء العهد القديم، وأوّل المبشّرين بالعهد الجديد، بملكوت السماوات، وبابن الله ومريم!

الرأس النازف لم يكن يعني للصبيّة شيئًا، فما إن تناولته حتّى هُرعت به إلى أمّها ودفعته إليها. ولكنّه كان يعني لأمّها كلّ شيءٍ: انتقامًا رائعًا، وانعتاقًا نهائيًّا من لسانٍ سليطٍ، ونهايةً للقلق الذي كان ينتاب عشيقها كلّما التقى النبيّ، وسمع تقريعه. ويقال إنّ هيروديّا، كي تنقع كلّ غليل نقمتها، راحت تطعن بخنجرٍ لسان النبيّ القتيل، طعنةً إثر طعنةٍ، بلا هوادةٍ، وأمرت بقذف جثمانه للكلاب والكواسر. ولكنّ تلاميذه سارعوا إلى أخذ ذلك الجثمان، ودفنه.

* *

منذئذٍ غدا طيف يسوع وأنباؤه تروّع التتررك. صحيحٌ أنّ النبيّ الناصريّ مسالمٌ، حالمٌ، لا يتحدّث إلاّ عن الصفح والرأفة والمحبّة، وبذلك يساعد على الاستقرار الاجتماعيّ. ولكن من يضمن أولئك الأنبياء؟ ألم يكتفِ المعمدان، أمدًا طويلاً، بتعميد الناس، مغضيًا عن التترك الفاسد؟ غير أنّ صورة رأسه المضرّج بالدماء كانت تطارد التترك الذي، كلّما سمع أخبار يسوع، خيّل إليه أنّه يوحنّا، وقد انبعث حيًّا. وكان يتمنّى التقاء الناصريّ كي يطمئنّ قلبه، ولكن هيروديّا كانت ساهرةً على منع هذا اللقاء. ويسوع كان راغبًا عن لقاء قاتلٍ لسابقه، وحجر عثارٍ لشعبه.

* *

رأس يوحنّا المعمدان

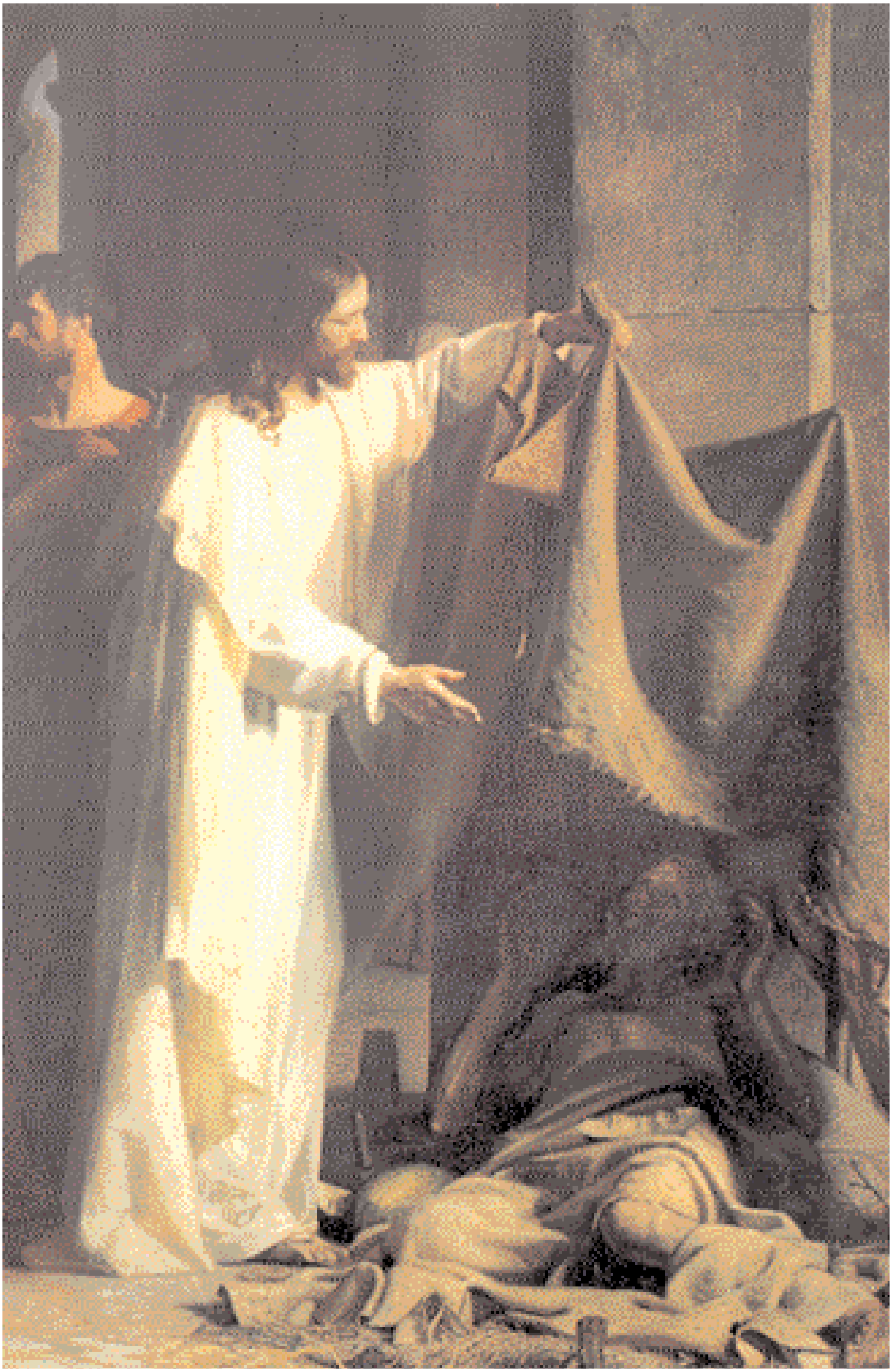

(بريشة كارل بلوخ) شفاء مخلّع بيت حسدا

الموت المأسويّ هو مصير الأنبياء، وجزاء الجرأة التي لا تلين، جرأة أبطال الحقيقة والعدل، والفضيلة، الذين يدمغون بدمهم حياتَهم، وأقوالَهم، وبسالَتهم، وحبَّهم، ورسالتَهم. العالم يبغضهم ويقتلهم، كي يخنق صوت الحقّ الذي يندّد بهم ويدينهم، ولكنّه، بذلك، يخلّدهم، وهل من فصاحةٍ أقوى من دمٍ مسفوكٍ في سبيل اللّه والحقّ؟ وهل من تعبيرٍ عن الجرأة التي لا تنثني أَبلغ من رأس المعمدان على طبقٍ يُدفع إلى فاجرةٍ قاتلةٍ؟

لقد سبق المعمدانُ يسوعَ في الإعلان عن الملكوت القادم، وفي الموت العنيف، فامتزج دمه بدم أسلافه الأنبياء، وبدم الحمل، كما كان يدعو يسوع. وسيظلّ درب البشريّة مضرّجًا بدماء الأبرياء.

ولم يثُر الشعب من جرّاء قتل المعمدان، لأنّ الزعماء الدينيّين كانوا راضين عن هذا القتل، متواطئين عليه مع الفُجّار.

زِيَارَةٌ خَاطِفَةٌ إِلَى أُورُشَلِيم، وَشِفَاءُ مُخَلَّعِ بَيْتَ حِسْدَا

أُخرس صوت المعمدان، فقرَّر يسوع أن يتكلّم جهارًا، ويعلن هويّته، في معقل اليهوديّة، أورشليم.

في أثناء زيارته السابقة إلى المدينة المقدّسة، كان قد لفت إليه أنظار الأمّة كلّها، شعبًا ورؤساء، لا مبالين ومتشدّدين في الحفاظ على الشريعة. طردُه لباعة الهيكل كان قد أسبغ عليه مظهر المصلح الروحيّ الذي تلهبه الغيرة الإلهيّة، وكثيرون هم الذين رأوا فيه مرسل الله، ومعلّمًا ذا سلطان، غير أنّ قليلين هم الذين رأوا فيه المسيح، إذ إنّ أوصاف المسيح الراسخة في الذهن اليهوديّ لا تتوافق مع نجّار الناصرة. ويسوع نفسه كان حريصًا على ألاّ يعلن كونه المسيح، قبل أن تترسّخ تعاليمه في النفوس، بكلّ ما تتميّز به من جدّةٍ، واستقلاليّةٍ، وروحانيّةٍ.

يسوع يحمل دمًا ملكيًّا من نسل داود، ولكنّ أُسرته هوت إلى الفقر، وفقدت عظمتها. وُلد في بيت لحم، ولكنّ الشائع عنه أنّه ناصريٌّ. يتكلّم كما لم يتكلّم أحدٌ، قطّ، ولكن لا رتبة علميّةً لـه. يغدق مظاهر قدرته، ولكن ليست تلك هي العلامات التي يقتضيها اليهود. يشفي، ولكن معظم أشفيته يجريها في أيّام السبت. يوحي بأنّه المسيح، ولكنّه يأبى دور المسيح الأرضيّ كما يتخيّله اليهود. يعلن مساواته للآب، وزعماء اليهود يرون، في هذا القول، ادّعاءً وتجديفًا. يعلن ملكوت الله، وشرائعه السمحاء، التي تنهي العمل بالشريعة الموسويّة، وتفرض عليها أن تتحوّل أو أن تزول، وفي إعلانه هذا يثوي قرار إعدامه.

مذ شرع يُجري معجزاته في الجليل، متحرّرًا من قيود السبت والشريعة، معلّمًا غير تعاليم الرابّيّين، وفاعلاً غير أفعالهم، وسالكًا غير سلوكهم، أخذ الفرّيسيّون يتّهمونه بالتجديف، ويدينونه بالكفر، ورأى فيه القابضون على مقاليد السلطة الثيوقراطيّة تهديدًا ينذر مصالحهم، وقوّةً خطيرةً لا مناص من ضبطها، وتحطيمها، وإزالتها.

كان عالمًا وهو شاخصٌ، ثانيةً، إلى المدينة المقدّسة، أنّه سيجد خصومه أشدّ لؤمًا وسطوةً، وأشرس عداءً ونقمةً، ولكنّه سيظلّ هو هو، في أورشليم كما في الجليل، وسيبقى واجب المحبّة لديه يسمو على كلّ واجبٍ وحسابٍ. وقد أثبت ذلك بشفائه مخلّعًا، يوم السبت.

فعند باب الغنم الذي تُدخل منه خراف الأضاحي وتُغسل قبل أن يضحّى بها في الهيكل، كانت بركةٌ تدعى «بيزاثا» أي «بيت الرحمة»، تتجمّع فيها مياه الأمطار، ويقبع على جنباتها مُبْتَلون بشتّى الأسقام والعاهات، من عميٍ، وعرجٍ، ويابسي الأعضاء، متظلّلين بأروقتها الخمسة التي تقيهم من قيظ الشمس، ولفح الرياح، وانهمار الأمطار. وكانت تعزى إلى مياه تلك البركة قوّةٌ شفائيّةٌ عجيبةٌ؛ ففي موسمٍ معيّنٍ من السنة، كانت تلك المياه تفور، وأوّل من كان يُلقى فيها، لدى فورانها، كان يبرأ من علّته، أيّةً كانت. وقد رأى بعض المفسّرين في أروقة البركة الخمسة، كتب التوراة الخمسة التي يقبع في حماها الشعب اليهوديّ المبتلى بشتّى العاهات، والذي لا رجاء لـه في الشفاء، سوى مجيء المخلّص الهابط من السماء، الذي يخضّ مستنقعهم الآسن.

وشاهد يسوع، عند تلك البركة، وسط ركام البؤس الماثل أمامه، رجلاً سقيمًا منذ ثمانٍ وثلاثين سنةً، ينتظر، كلّ سنةٍ، فوران المياه، فيجهد في إلقاء نفسه في عبابها، ولكن، من جرّاء سقمه وعجزه، يسبقه آخرون، لهم، ربّما، أصدقاء أو أقرباء، يساعدونهم على الارتماء في الماء فور اصطخابه. ويعود ذلك المسكين ينتظر سنةً أُخرى، وفوران مياهٍ آخر، وتتكرّر مأساته. قدّر يسوع جميل صبره واحتماله، ورقّ لـه قلبه فسأله: «أتريد أن تبرأ؟» فأجابه السقيم: «**يا سيّدي، ليس لي أحدٌ يُغطِسني في البركة إذا تحرّك الماء. وبينما أكون متحاملاً إليه ينزل قبلي آخر**». **فقال لـه يسوع: «قمْ، احمل فراشك، وامشِ». فبرئ الرجل من ساعته وحمل فراشه ومشى** (يوحنّا ٥: ٥– ٩).

سحابة ثمانٍ وثلاثين سنةً، لم يلحظ أحدٌ ذلك المسكين، ولم يتعاطف أحدٌ مع آلامه. ومرّ يسوع، فلحظه، وأخذته به الرحمة، فشفاه.

من قول يسوع «**قمْ**» تفجّر الشفاء، وبه عادت القوّة التي كانت العلّة قد أطاحت بها. ولكلٍّ منّا، نحن الذين أقعدتهم الخطيئة، يقول يسوع «**قمْ**»، انهض، فحسبك

أن تريد حقًّا، كي تنعتق من علّتك. احمل فراش جسدك الخاطئ الذي تضّجع فيه نفسك. ارفعه عن الأرض، انتزعه من براثن الفساد. وبفضل الأسرار ونعمة الله، ستسيطر نفسك على جسدك، وستستعبده، وستستخدمه من أجل خلاصها. امشِ، إنأَ بنفسك عن الجوّ الموبوء الذي كان سبب اعتلالك، وآرقَ نحو الأجواء الصحّيّة، نحو السماء!

حدَثٌ رائعٌ! ولكنّ زعماء اليهود لم يروا في شفاء مخلّعٍ أقعدته علّته منذ ثمانٍ وثلاثين سنةً، بكلمةٍ واحدةٍ، كلّ ما انطوى عليه هذا الشفاء من إعجازٍ وروعةٍ، ودواعي الفرح. بل إنّهم، بدافع ضيق أفقهم، وخبث نواياهم، توقّفوا عند تفصيلٍ تافهٍ، ورأوا فيه إزراءً بشريعتهم. كلّ ما لحظوه من تلك المعجزة الغرّاء، هو حدوثها في يوم سبتٍ، وإيعاز يسوع إلى الرجل الذي شفاه بحمل فراشه، الذي ظلّ طريحه، كلّ تلك السنين، تحدّيًا لفريضة السبت. ذلك الشفاء، كان، إذن، في نظرهم، عملاً منكرًا، جديرًا بالعقاب.

ولكأنّ ثمانيةً وثلاثين عامًا من الراحة القسريّة لم تكن كافيةً!

لطالما عمي الفرّيسيّون عن فعال يسوع المفعمة محبّةً وعطفًا، وأخذوا عليه مخالفته لشريعة السبت، كما كانوا، هم، يفسّرونها، ولكأنّ الله أوجدهم فقط للحفاظ على هذه الوصيّة التي تحجب كلّ ما سواها. وقد تفتّقت عبقريّتهم عن مجموعة محظوراتٍ، مدهشةٍ بسخافتها، عدّوها انتهاكًا للراحة السبتيّة. فحظروا حمل الأعمى لعصاه، وحمل أيّ شيءٍ، حتّى سنًّا مستعارةً، أو شريطًا غير مخيّطٍ بالثوب؛ مثلما حظروا كتابة حرفين من الأبجديّة معًا، أو قتل حشرةٍ مزعجةٍ، أو غسل الأسنان بالخلّ، إلاّ بشرط ابتلاع الخلّ، ورشّ حبوبٍ في قنّ الدجاج أكثر ممّا يستطيع الدجاج التهامه، مخافة أن تنبت حبّةٌ منه، فعندئذٍ يُعدّ رشّ الحبوب بذرًا...

قال اليهود للذي شُفي: «**إنّه السبت! فلا يحلّ لك أن تحمل فراشك**». فأجابهم: «**إنّ الذي أبرأني هو قال لي: «احملْ فراشك وامشِ». فسألوه: «من الرجل الذي قال لك: «احمل فراشك وامشِ**»؟ ولم يكن الذي شُفي يعرف من هو، لأنّ يسوع كان قد ابتعد وتوارى، غائصًا في زحمة الحشود، تفاديًا لإثارة أيّة تظاهرةٍ صاخبةٍ تعيق رسالته قبل الأوان.

اللّه يتعذّر العثور عليه في الزحمة والصخب. وذلك المخلّع لم يعرف، فور شفائه، من شفاه، ولم يعرف يسوع، ومن ثمّ لم يكن خلاصه، بعدُ، ناجزًا، إلى أن قابل الربّ، ثانيةً، في الهيكل، وهناك حرص يسوع على أن يُكمل شفاءه، قارنًا شفاء جسده بشفاء نفسه، فقال له: «**ها إنّك قد عوفيت، فلا تعُدْ إلى الخطيئة، لئلاّ تُصاب بما هو أسوأ**».

وما إن عرف المخلّع الذي ظفر بالشفاء اسم طبيبه الإلهيّ حتّى راح يذيعه في كلّ مكانٍ، وهو، في سذاجته، يظنّ أنّ قدرات يسوع الفائقة ستكون حجّةً كافيةً لإقناع اليهود، وتبرئة المخلّص في نظرهم. وقد غرب عن باله أنّه، بذلك، إنّما كان يزيد حنق اليهود عليه ضرامًا. وعلم يسوع بدسائسهم، وبما كانوا يبيّتون له من نوايا إجراميّةٍ، ولكنّه كان ماضيًا قُدُمًا، بثباتٍ، في درب رسالته، معلّمًا، علنًا، في الهيكل، فاتنًا الجماهير بقدراته، وتفوّق شخصيّته، وقد واجه مهاجميه ومنتقديه من زعماء اليهود بقوله: «**إنّ أبي لا ينفكّ يعمل، وأنا، أيضًا، أعمل**».

إنّ اللّه طاقةٌ فيّاضةٌ دائمة العمل، ولا حاجة بها إلى الراحة. بعمله يتحرّك الكون، ويحيا كلّ ما فيه. ولئن هو توقّف عن العمل، لهوت إلى العدم الخليقة كلّها التي، بكلامه، يغذّيها، وينمّيها، ويعيدها إليه خفّاقةً، لاهثةً شوقًا إليه.

لا رائد لسلوك يسوع سوى مشيئة أبيه الذي لا يني يراه ويسمعه، وما أفعال إنسانيّته سوى تنفيذ إرادة الآب السامية، والاحتذاء بمثاله الأبديّ. ما يريده الآب هو يريده، وما يفعله الآب هو يفعله. وكما أنّ ما من سلطةٍ بشريّةٍ تحكم سلطة اللّه، لا قِبَل لأحدٍ على إدانة سلطة يسوع، فحقّه في العمل مساوٍ لحقّ اللّه فيه، واللّه يعمل، بلا هوادةٍ، لخلاص البشريّة، وهذا العمل مستمرٌّ، مطّردٌ، مثل حبّه، بلا توقّفٍ ولا هوادةٍ.

إجابة يسوع كانت إعلانًا بأنّه المسيح، وبأنّ المسيح هو اللّه. هاتان الحقيقتان توجزان الإنجيل كلّه. وهما أساس كلّ عمل المعلّم، تتجلّيان من خلال كلّ خطاباته، وتفسّران حياته كلّها، وما ألهبته من عداواتٍ وأحقادٍ لدى أعدائه، وما أفضت إليه من مصيرٍ مأسويٍّ، ومن تأثيرٍ مذهلٍ مارسته على البشريّة، ولا سيّما في أعقاب صلب يسوع وقيامته. ولا عجب إنْ دأب زعماء اليهود على إنكار كونه المسيح وابن اللّه، وعلى التصميم على قتله كما أشار الإنجيليّ يوحنّا: «**فاشتدّ طلبُ اليهود لقتله لأنّه**

لم يقتصر على نقض السبت. بل قال إنّ اللّٰه أبُوه، فساوى نفسه باللّٰه» (يوحنّا ٥: ١٨).

بقدر ما كانت الرحمة هي حادي يسوع وملهمته، كان الحقد رائد اليهود وديدَنهم.

كان يسوع حريصًا على أمور الدين، ولكن ليس الدين الذي صاغه اليهود على هواهم بما يرضي غرورهم، وكبرياءهم، وعُنصريّتهم، ويصون مصالحهم. ولذلك وطّنوا العزم على قتله، فأجابهم بما يتخطّى إدراكهم، وأكّد أنّه ابن اللّٰه، لا بالتبنّي، بل بالجوهر، وأنّه واللّٰه واحدٌ. واستفاض في فضح زيفهم وضلالهم، والتأكيد على ألوهيّة رسالته: **الحقّ الحقّ أقولُ لكم إنّ الابن لا يستطيع من عند نفسه أن يعمل شيئًا، إنّه لا يعمل إلاّ ما يرى الآب يَعمَله، وكلّ ما يعملُه الآب يعمله الابن على مثاله، لأنّ الآب يُحبّ الابن ويُريه كلّ ما يعمل، وسيُريه أعمالاً أعظم حتّى لتأخذكُم الدهشة. فكما أنّ الآب يقيم الأموات ويُعطي الحياة، كذلك الابن يُعطي الحياة لمن يشاء. الآب لا يدين أحدًا بل جعل كلّ القضاء بيد الابن. لكي يُكرّم الجميعُ الابن كما يُكرّمون الآب. فالذي لا يُكرّمُ الابن لا يُكرّم الآب الذي أرسله. الحقّ الحقّ أقول لكم إنّ من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله الحياة الأبديّة، ولا يصيرُ إلى دينونةٍ، بل انتقل من الموت إلى الحياة.**

الحقّ الحقّ أقول لكم إنّها ستأتي الساعة – وقد أتت الآن – التي يسمع فيها الأموات صوت ابن اللّٰه، والذين يسمعون يَحْيَون، لأنّه كما أنّ الآب له الحياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أن تكون له الحياة في ذاته، وأعطاه سلطان القضاء لأنّه ابن البشر. لا تتعجّبوا من هذا. فإنّها ستأتي الساعة التي يسمعُ فيها جميع الذين في القبور صوته فيخرجون منها. فالذين عملوا الخير إلى قيامة الحياة، والذين عملوا الشرّ إلى قيامة الدينونة. أنا لا أستطيع من نفسي أن أعمل شيئًا، وإنّما أحكُمُ وفقًا لما أسمعُ، وحُكمي عدلٌ لأنّي لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني.

«لو كنت أشهدُ لنفسي لما كانت شهادتي مقبولةً. ولكنّ الذي يشهد لي هو آخر، وأنا أعلم أنّ شهادته لي صحيحةٌ. لقد أوفدتم رُسلاً إلى يوحنّا فشهد للحقّ. ومع أنّي لا أعوّل على شهادة إنسانٍ فإنّ ما أقوله فيه إنّما هو لخلاصكم. كان يوحنّا السِراج المُوقد المنير، وقد شئتم أن تستمْتعوا هُنيهةً بنوره. وأمّا أنا

فلي شهادةٌ أعظم من شهادة يوحنّا. إنّها الأعمال التي خوّلني الآبُ أن أعمَلها. فهذه الأعمال التي أعملُها هي نفسُها تشهد لي بأنّ الآب هو الذي أرسلني. والآبُ الذي أرسلني هو نفسه شهد لي. ولكنّكم ما سمعتم قطّ صوته، ولا رأيتم قطّ وجهه، وكلامه لا يستقرّ فيكم لأنّكم لا تُصدّقون الذي أرْسله.

«**أنتم تتفحّصون الكتب لأنّكم تظنّون أنّ لكم بها الحياة الأبديّة وهي التي تشهد لي. ولكنّكم لا تُريدون أن تأتوا إليّ لتكون لكم الحياة**» (يوحنّا ٥ : ١٩–٤٠).

ليس أخطر ممّن تَديُّنهم طقوسٌ ومظاهر. فمن يحبّ الله، حقًّا، ويعبده، في الحقّ، يتّصف بالرقّة والوداعة. ولكنّ من يحبّ نفسه، تحت غطاء الدين، هو، دائمًا، حادٌّ وعنيفٌ. العبادة الحقّة مجبولةٌ بالرحمة، أمّا العبادة الزائفة فهي رياءٌ وبغضاء. ومعظم أعضاء الطبقة الدينيّة الحاكمة، من صدّوقيّين وفرّيسيّين، كانوا قد شوّهوا الشريعة تشويهًا أعماهم، وانحطّ بهم إلى دركٍ سحيقٍ، وأغلق دون الحقيقة نفوسهم، وأفعمها، حيالَ يسوع، بغضًا عنيدًا، وعنفًا شرسًا. لقد صبّوا على يسوع اتّهاماتهم، لا استنادًا على الشريعة نفسها، بل على تفسيرهم لها تفسيرًا مغرقًا في التفاهة والحمق، وقد تشبّثوا بتفسيرهم، وأعرضوا عن جوهر الشريعة وروحها. خضعوا لصغارات أفكارهم، ونبذوا كلام الله.

منذئذٍ انهمرت على يسوع تُهَم التجديف، وإنذارات الموت. ولكنّه لم يُحجم عن تحدّي أوهام أعدائه، ولم ترعبه الأحقاد التي كانت تثيرها إعلاناته. فإرادة أبيه تسمو، لديه، فوق كلّ شيءٍ، وأهلاً بالموت، بل بالموت المهين، إن كانت تلك هي مشيئة الآب. فهو لم يقدم إلى هذا العالم إلاّ لكي يشهد للحقيقة. ولذلك، رغم الاتّهام والتهديد، تعمّد أسلوبًا أكثر علنيّةً، وتأكيدًا لمساواته بالله، وأسهب في إيضاحه بقوّةٍ وعزمٍ.

الآب يحبّ ابنه، وروح حبٍّ واحدٍ يعقد بينهما علاقةً لا يحيط بها وصفٌ. بينهما نورٌ واحدٌ، وقدرةٌ واحدةٌ لا نهائيّةٌ. المساواة بينهما كاملةٌ، والاتّحاد مطلقٌ. هنا يكمن سرّ المسيح ووظيفته.

الأنبياء تكلّموا عن يسوع، وأشاروا إلى أوصافه. ولكنّ اليهود أعرضوا عن

الأنبياء. ولم يحدّقوا إلاّ إلى ما في أنفسهم من مطامع وعنصريّة، وأشاحوا بأبصارهم عن إشارات الله، فحكموا على بصائرهم بالعمى، وعلى نفوسهم بموتٍ أبديٍّ. لقد استشهد يسوع بالكتاب الذي ادّعوا امتلاك مفاتيحه، في حين غابت عن بصائرهم حقائقه.

إنّ المعجزات، والأعمال الخارقة التي خوّل الآب ابنه أن يحقّقها، هي كتب اعتماده الموقّعة بيد الله، والخاتم الذي يؤكّد رسالته. وهذه الشهادة لا يدحضها إلاّ من أعمى عينيه عن الواقع.

وخصوم الربّ يستغرقون في تقصّي الكتب، وفي إحصاء حروفها ونقطها. ولكنّهم يفتقرون، في سبيل اكتناهها، إلى الاستعدادات الروحيّة المقتضاة: البساطة، والتواضع، والصدق، لأنّ قلوبهم خوت من حبّ الله الحقّ. والواقع أنّ الفكر، في ميدان الإيمان، بمعزلٍ عن القلب، ليس سوى نورٍ ناقصٍ. فهم ينشدون، من خلال تفسير الكتب الملهمة، تقدير الناس، ومديحهم، أكثر من نشدانهم مجد الله، ومن ثمّ يعجزون عن الإيمان بحقائق لا تتوافق مع حساباتهم ومطامعهم. إنّهم لم يؤمنوا، متجرّدين ومخلصين، بكلّ ما قاله موسى، ولذلك لم يؤمنوا بالمسيح.

لقد جرّد يسوع دور المسيح من كلّ صبغةٍ يهوديّةٍ، وجعله تحقيقًا لما أعلنه الأنبياء، بكلّ جماله السنيّ، وكلّ عظمته الخالدة، الأبديّة. لم يصانع أوهام أُمّةٍ ضالّةٍ، بل خاطب ضمير كلّ إنسانٍ صادقٍ، وأيقظ أسمى تطلّعاته. ففي هوّة بؤسه النفسيّ، وموته الروحيّ، يحتفظ الإنسان بتطلّعه إلى مصيرٍ إلهيٍّ، ويعاني جوعًا وعطشًا إلى حياةٍ تلبّي صبوّه الجمّ إلى الحقيقة، والكمال، والخلود. وإلى هذا الإنسان يتوجّه يسوع، فيكلّمه، وينهضه، ويبعثه، ويجيبه.

أقوال يسوع كانت تسحر بسموّها، وتصدم بصدقها. وكان وقعها بليغًا في نفوسٍ كثيرةٍ. ولكنّ زعماء اليهود كانوا يرون في كون يسوع نفسه هو المسيح وابن الله، إهانةً لهم ولإلههم، وطعنةً نجلاء لكبريائهم. والكبرياء الجريحة تعمي الفكر، وتوصد القلب، وترسّخ الأحقاد.

لقد جاءهم بكلّ حجّةٍ كفيلةٍ بإقناع أيّ إنسانٍ صادقٍ. ولكنّه عجز عن ليّ رفضهم العنيد. فمن ميزات الإنسان المنكفئ على ذاته، المعجب بنفسه، المتشبّث بأحكامه

تكثير الخبز (بريشة كلود جيرودان)

التجلّي (بريشة كارل بلوخ)

المسبّقة، تحدّي الحقيقة، والعقل، والبداهة، والدعوات إلى الطيبة، والعطف، وتوسّلات الحبّ، والفتنة، والجمال، وحتّى اللّه. وقد قُيّض ليسوع أن يصطدم، دائمًا، بمثل هذا العناد، وبحزنٍ مشوبٍ بالرقّة والوعيد قال لليهود: «**أنا لا أقبلُ المجدَ الذي من عند الناس، وإلى ذلك فأنا أعرفُكم، فإنّكم ليست فيكم محبّة اللّه. قد جئت باسم أبي فلم تقبَلوني، وأمّا إذا جاءكم آخر باسم نفسه فإنّكم تقبلونه. بل كيف لكم أن تؤمنوا وأنتم تطلبون المجد بعضُكم من بعض، ولا تطلبون المجد الذي من عند اللّه دون غيره. لا تظنّوا أنّي أنا من يشكوكم لدى الآب. إنّ لكم من يشكوكم، مُوسى الذي به أنطْتم رجاءَكم. فلو كنتم تُصدّقون مُوسى لصدَّقتموني لأنّه كتب عنّي. فإذا كنتم لا تُصدّقون ما كتب فكيف تُصدِّقون ما أقول؟**» (يوحنّا ٥: ٤١–٤٧).

في أورشليم مركز الرأي العامّ، والسلطة الرسميّة، أعلن يسوع أنّه ابن اللّه، وبات الجميع يعرفون من هو، وما يبتغي. وسيكون، حيثما حملته قدماه، محطّ أنظار الجميع، وحجر عثرةٍ للمدّعين، وموضع خلافٍ. وقد توجّس دهاقنة الدين والمال أن يفتن الشعب، فتربّصوا به. ولكنّه كان يتّقي شرّهم، حتّى تحين ساعته. فنأى عنهم، وهجر اليهوديّة، عائدًا إلى الجليل.

القِسْمُ الرَّابع

السَّنَة الرَّسُولِيَّة الثَّالِثَة وَالأخيرة

تكثيرُ الخبْزِ الأوّل (*)

تزامنت عودة يسوع من زيارته الخاطفة إلى أورشليم، مع عودة التلاميذ من مهمّتهم التبشيريّة الأولى. عادوا يرفلون فرحًا مزدوجًا، فرح نجاحهم في مهمّتهم، وفرح لقاء المعلّم الذي كان يحتلّ حبّة قلوبهم. واندفعوا يروون له الأحداث التي كانوا أبطالها وشهودها. وسعد يسوع بمشاركتهم فرحتهم، فاضطلاعهم برسالتهم كان يوحي له الرجاء في المستقبل.

كان النَصَب قد نال من التلاميذ، لأنّهم بذلوا ذواتهم بلا حسابٍ، فشاء المعلّم أن يوفّر لهم فسحة نقاهةٍ واستجمامٍ، ويوفّر لنفسه فرصة التفرّغ لتثقيفهم، ومناجاتهم مناجاةً حميمةً. إنّهم أبناؤه، ويا لرقّة سهره عليهم، ويا لرهافة قلب من قال لهم: **«تعالوا، أنتم وحدكم، إلى مكانٍ قفرٍ واستريحوا قليلاً»، ذلك بأنّ القادمين والذاهبين كانوا كثيرين حتّى لم تتيسّر لهم فرصةٌ للأكل»!** (مرقس ٦: ٣١).

ولكنّ خلوة يسوع بتلاميذه كانت متعذّرةً في كفرناحوم، فالبيت الذي يقطنونه كان محاصرًا، ليلَ نهار، بجموع الراغبين في رؤية الربّ وسماعه، والظفر بأشفيته ونِعَمه، بحيث حرموهم حتّى فرصة التحادث، وتناول الطعام. ولا ريب أنّ مناسبة عيد الفصح، وتدفّق الحجّاج الذين، في طريقهم إلى أورشليم ومنها، كانوا يتوقّفون في كفرناحوم، لمشاهدة النبيّ الناصريّ، كانا يسهمان في تفاقم الازدحام من حوله.

فأوعز إلى تلاميذه باستقلال سفينةٍ، والانطلاق معه إلى مكانٍ قفرٍ هادئٍ، ينعمون فيه بالسكون. ولكنّ الجموع تبيّنت وجهتهم، وسبقتهم إلى مقصدهم. فكلّ قفرٍ يغشاه يسوع سرعان ما يغصّ بالجموع. وما إن أرست السفينة التي كانت تُقلّ يسوع وتلاميذه، وهبطوا إلى اليابسة حتّى وجدوا حشودًا كثيفةً تنتظرهم، وآلافًا من العيون محدّقةً إلى المعلّم.

(*) **راجع يسوع في إنجيله:** «مأدبة الصحراء»، صفحة ٢٤٦.

ما أروع مشهد الجموع التي تتقاطر من كلّ صوبٍ كي تسمع يسوع يتكلّم!

أحلام العزلة والسكون بدّدتها رأفة يسوع على تلك الجموع التي رأى فيها قطيعًا تائهًا منهكًا، ولكنّه وفيٌّ، واثقٌ، توّاقٌ إلى الخلاص، ينشد راعيًا(*). لقد لمس، بكلّ أوتار كيانه، وبكلّ حبّه ورأفته، جوع أولئك المساكين، وعطشهم، ونَصبَهم، فشفى العاهات والعلل الكثيرة التي جاؤوه بها، وحدّثهم، حديثًا مستفيضًا، عن ملكوت السماوات الذي جاء لإحلاله على الأرض. وكرّت الساعات، سريعةً عجلى، ومالت الشمس إلى المغيب، وأخذت تتوارى خلف الجبال، ويسوع ما برح يتكلّم، والقوم منصتون، مفتونون، ساهون عن كلّ شيءٍ، لا يقوَوْن على رفع أبصارهم عن المعلّم الفذّ، ولا على الانسلاخ عن تذوّق أقواله، وارتشافها بشغفٍ، غير شاعرين بانسياب الساعات، وزحف المغيب، ولا بمَلَلٍ، أو كلَلٍ، أو جوعٍ.

التلاميذ، أيضًا، كانوا يستسيغون كلام يسوع عن الملكوت، ولكن كان عليهم الاهتمام بمقتضيات العيش الأساسيّة، ولا سيّما وقد شرع الليل يخيّم، والمكان قفرٌ، والشعب الذي صبر على الجوع، وهو مأخوذٌ بسحر كلام يسوع، لا يملك زادًا. وجاؤوا فهمسوا في أذن المعلّم أن يصرف الجموع، لعلّهم يجدون، في القرى والمزارع المجاورة، لقمةً يسندون بها بطونهم الخاوية، ومأوًى يبيتون فيه. حاجاتٌ أذهلتهم عنها سعادتهم بقرب الربّ.

ولكنّ يسوع، امتحانًا لتلاميذه المكلّفين بالشؤون المادّيّة، أجاب: «**لا حاجة بهم إلى الذهاب. بل أعطوهم أنتم ليأكلوا**». وما أسهل القول! هل غاب عن ذهن يسوع أنّ تلاميذه لا طعام لديهم ولا مال. وذَهِل التلاميذ عن قدرات معلّمهم الإلهيّة، فلم يجُل ببال أحدٍ منهم أن يقول له: «بل تدبّر أنت الأمر بسلطانك». وأجرى فيليبُّس حسابًا ذهنيًّا سريعًا خرج منه بأنّهم حتّى لو أنفقوا مئتي دينار، وهم لا يملكون منها فلسًا واحدًا، فلن يبتاعوا ما يوفّر لكلّ نفرٍ لقمةً. وجال أندراوس، أخو سمعان بين الجمع، وعاد ليخبر أنّ الجميع جاؤوا لا يحملون زادًا ولا مؤونةً، ما خلا فتًى أكثر حيطةً من الجميع، قد جاء بخمسة أرغفة شعيرٍ وسمكتين. بلّغ أندراوس نتيجة بحثه، ولكنّه علّق بأسًى: «**ولكن ما هذا لمثل هذا الخَلْق؟**».

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «أشفق يسوع على الجموع»، صفحة ٢٥٢.

تجاهل يسوع تعليق أندراوس، مثلما تجاهل حساب فيليبّس، وأمرهم: «**هاتوا الأرغفة الخمسة والسمكتين، وأتكئوا القوم خمسين خمسين**»، ولكأنّهم في احتفالٍ دينيٍّ. فكلّ وجبةٍ جماعيّةٍ، عند اليهود، ترتدي طابعًا قدسيًّا. وقد تولّى يسوع، في هذا الاحتفال، وظيفة ربّ المائدة. وبفضل تنظيم القوم حلقاتٍ، على هذا النحو، بات من اليسير إحصاء الحضور، فإذا بهم خمسة آلافٍ. ويلحظ الإنجيليّ متّى، العشّار السابق، الخبير بالإحصاء، أنّ عدد الخمسة آلافًا لا يتضمّن «النساء والأولاد». ولكن كرم الله لا يُقاس بالأعداد والكميّات.

كانت تنبسط، ثمّة، حقولٌ مخضلّةٌ، موّارةٌ بخضرة الربيع الزاهية، وعلى بساطها السندسيّ الوثير، أُتكئ القوم، وفقًا لأمر الربّ، كما يُجلس ربّ بيتٍ، في مأدبةٍ كبرى، ضيوفه، كلاًّ في مكانه، تيسيرًا لخدمة التوزيع، ودرءًا للفوضى والتدافع اللّذين غالبًا ما يحدثان في ظروفٍ مماثلةٍ. وسرعان ما غطّى الشعب التلّة كلّها.

ابتغى يسوع ترسيخ إيمان تلاميذه بأنّ لا شيء يتعذّر عليه. لا ريب أنّ هذا الإيمان كان كامنًا في صدورهم، ولكنّه كان ما برح خجولاً مترجرجًا. لم يكن يسوع في حاجةٍ إلى ذلك الزهيد من الخبز والسمك المتوفّر، ولكنّه استخدمه كي يبرز جسامة المعجزة، بمقارنة ضآلة المتوفّر بعدد الذين سيطعمهم ويشبعهم به. فقد كان بلغ مرحلةً تستلزم الشروع بالكشف عن هويّته أمام تلاميذه، وأمام الشعب.

رفع يسوع عينيه إلى السماء، فالسماء توحي بفكرة اللامحدود. ويسوع، دائمًا، رائعٌ ومؤثّرٌ عندما يرفع عينيه إلى السماء. وبارك الأرغفة والسمكتين، كما يفعل كلّ ربّ أُسرةٍ قبل الطعام، وطفق يقسّم ويملأ القفف التي تُوزّع تترى. يداه لا تكفّان عن التقسيم، والقفف تمتلئ باطّراد، والتلاميذ يطوفون بالقوم، مرَّةً فمرَّةً، والجميع يتناولون من طعامٍ لا ينضب، حتّى الامتلاء. في كلّ لحظةٍ كان التلاميذ يتوجّسون خشيةً من أن يقول أحدهم إنّ السلال فارغةٌ، ولكن كان كلّ فردٍ يتناول كلّ حاجته، شاكرًا، والسلال لا تفرغ. خلقٌ، وفيض عطاءٍ بلا حدودٍ، ومع ذلك حرص الربّ على جمع ما فضل، لئلاّ يُهدَر شيءٌ. وقد امتلأت اثنتا عشرة قفّةً كِسَرًا وفضلاتٍ. ما كان قد بدا مغرقًا في الضآلة فاض منه الكثير. ما أبعد حساباتنا عن حساب الله!

عن هذه المعجزة تساءل القدّيس أوغسطينُس:

«من يقوت الخليقة إلاّ ذاك الذي ينبت من الحبيبات حصادًا؟ وقد أجرى المسيح ما أجراه بقدرةٍ من ألوهته. تلك القدرة التي تنشئ من البذار سنبلاً هي التي كثّرت الأرغفة بين يديه، لأنّ القدرة هي من صفات المسيح. وتلك الأرغفة كانت شبه بذارٍ. أجل، إنّها لم تُبذر في الأرض، ولكنّها نمت بين يدي ذاك الذي فطر الأرض».

«ولمّا شاهد الناس الآية التي صنعها يسوع، قالوا: «إنّه، حقًّا، النبيّ الآتي إلى العالم!»».

لقد وُلد، لدى الشعب الذي شبع من الطعام العجيب، انطباعٌ بأنّ زعيمًا لهم قد ظهر، وهو كفيلٌ بأن يعيد لهم أمجادهم وسيادتهم. كانت بذور الثورة متوفّرةً في تلك الصحراء، التي احتشد فيها جمهورٌ مستثارٌ، متحفّزٌ، هزّه حدثٌ فاق كلّ توقّعاته. وكان، ثمّة زعيمٌ فذٌّ خليقٌ بأن يُنادى به ملكًا، ومجلس قيادةٍ من اثني عشر عضوًا. ولكنّ يسوع صرف الشعب، بعد أن زوّده بكلمات عزاءٍ، كي يتمّ ارفضاضه بهدوءٍ وانتظامٍ.

يسوع الذي كان قد رفض غواية إبليس عندما حرّضه على تحويل حجارة القفر إلى أرغفةٍ تشبع جوعه، بعد صيامه أربعين يومًا، لم يتردّد في تكثير خمسة أرغفةٍ بحيث أشبع بها خمسة آلاف جائعٍ، شهدهم يندفعون إلى اقتفاء أثره، مأخوذين بكلامه، ذاهلين عن الطعام والشراب. كان قد قال: «**اطلبوا، أوّلاً، ملكوت الله وبرّه، وهذا كلّه يزاد لكم**» (متّى ٦: ٣٣). هذا الوعد تحقّق، في ذلك اليوم، على أسطع وجهٍ. فذلك الجمع كان قد التمس، سحابة النهار، الملكوت والبرّ، أي خبز الروح، فأُعطي، أيضًا، خبز الجسد من غير أن يلتمسه.

لقد تدفّق النبع الثرّ، نبع الحبّ الإلهيّ، ولم يكن الطعام المادّيّ الذي جاد به يسوع سوى صورةٍ مسبَّقةٍ للغذاء الروحيّ الذي سيعلن عنه.

وما برح يسوع يغذّي البشريّة المهدّدة بالجوع، ويدفعها إلى العمل الذي يخصب الأرض، وإلى القناعة التي تحرص على ثمار التعب، وعلى العدل في امتلاك الخيرات، وإلى المحبّة في اقتسامها بين الإخوة. معجزة يسوع هي إلهامه هذه

الفضائل، لكيلا ينفق أحدٌ جوعًا في الملكوت الذي أسّسه، حيث يُرحِّب الذين ينعمون بالوفرة بالبائسين، في مآدب أخويّةٍ عامرةٍ.

معجزةٌ جماعيّةٌ لم تطَلْ شخصًا واحدًا، بل جماعةً غفيرةً تمثّل البشريّة الجائعة إلى كلام الله، الذي يتكاثر الغذاء بين يديه، فيوعز إلى تلاميذه أن يجودوا به، بسخاءٍ ووفرةٍ لا ينضب لها معينٌ. تلك المائدة العجيبة كانت رمزًا للمائدة الإفخارستيّة التي سيمنح بها الربّ جسده ودمه، غذاءً لمليارات البشر، في كلّ وقتٍ، وكلّ مكانٍ، حتّى منتهى الدهور.

وجديرٌ بالملاحظة أنّ الإنجيليّ الرابع، الذي درج على إغفال المعجزات التي جاء زملاؤه المؤتلفون على ذكرها، قد أورد، هو أيضًا، هذه المعجزة بإسهابٍ، لأنّه رأى فيها تمهيدًا لسرّ الإفخارستيّا الذي يتبوّأ مكانًا رحبًا من إنجيله.

لقد ناصب علماءُ الشريعة والزعماءُ الدينيّون يسوعَ العداء، وأنكره مواطنوه في الناصرة، ولكنّ سواد الشعب بات مفتونًا بشخصه وتعليمه. وبعد أن كان يسوع يفزع إلى الصحراء، من مطاردة الجموع لـه، أمست الصحراء تضيق بالساعين في إثره، وتدوّي بصيحات الهاتفين: «**هذا، هو، حقًّا، النبيُّ الآتي إلى العالم**». غير أنّ هذا الهتاف الذي بدا تكريسًا لانتصار يسوع، استشفّ، هو، فيه، الخطر الأكثر فداحةً، والذي سيبذل في سبيل تفاديه، كلّ قوّته، وسكونه، وكلّ موارد حكمته الإلهيّة.

تلك المعجزة الساطعة استفزّت اندفاع الجماهير التي شاءت إعلان يسوع ملكًا كي يشرع بتحقيق أحلام شعب إسرائيل. ولكنّه رفض الدور الذي رسموه له، لأنّه ليس دوره. كان يربأ بنفسه أن يكون المسيح الأرضيّ، العنصريّ، الذي يحلم به اليهود. وكان حريصًا على إخفاء مسيحانيّته، ريثما يدرك الناس أنّه مسيحٌ روحيٌّ، إلهٌ تجسّد وارتضى الاستشهاد من أجل افتداء العالم من خطاياه.

سحيقةً كانت الهوّة بين تطلّعات اليهود إلى مسيحٍ أرضيٍّ، ومسيح الملكوت الذي كانه يسوع. هم كانوا يريدون الهبوط به إلى مستواهم، وجعله أداة كبريائهم الوطنيّ الذي لا يحلم إلاّ بالتحرّر من الاحتلال الرومانيّ، وبغزو المسكونة، وبالتنعّم بالبحبوحة المادّيّة، وبجعل الأرض كلّها تحت أقدامهم.

ولطالما تحاشى يسوع عن أيّة إشارةٍ كفيلةٍ بدغدغة أحلام اليهود بالمسيح الذي تخيّلوه. ولطالما أشار، صراحةً أو تلميحًا، إلى كونه الإله المتجسّد، رجل الآلام الفادي. بيد أنّ علماء الشريعة أبوا فهمه، وعجِزَ وعيُ الشعب البليد عن اكتناهه. وخشي يسوع على تلاميذه أن يؤخذوا بحمّى اندفاع الشعب إلى المناداة به ملكًا عليهم، فأمرهم بالإبحار إلى العبر، قبالة بيت صيدا، ريثما يصرف الجمع. كان يخشى على تلاميذه من عدوى الفوران الشعبيّ، ولكنّه، هو، كان يروّض الشعب، ويفتنه، ولا يقع، أبدًا، أسير نزواته، إذ إنّ ذاته بكاملها، وكلّ إرادته، بين يدي أبيه.

لقد رفض العرش الذي قدّمه له الشعب، مثلما رفض العرش الذي عرضه عليه إبليس. ولم يرتضِ، على الأرض، سوى عرش الصليب، وتاج الشوك، كي يكون ملكوته روحيًّا محضًا، وسماويًّا.

التلاميذ أبحروا، والجمع انصرف، وفي حلوق جميعهم غُصَصٌ، لاضطرارهم إلى الابتعاد عن صانع معجزاتٍ منقطع النظير، يمتلك قدراتٍ خارقةً هائلةً، رأوا فيه نبيًّا حقيقيًّا، بعد أن غاب الأنبياء عن شعبهم أمدًا طويلاً. وانصرف، هو، إلى مناجاة أبيه، مرتديًا معطف الليل.

صلاة يسوع الإله تستعصي على الإدراك، فهي صلاةٌ لذاته، وحوارٌ مع نفسه. مبدؤه في أبيه المساوي لـه. إلاّ أنّه، بالتجسّد، أصبح خادمًا، تابعًا. ولصلاته وجهان: شكرٌ لموهبة الخلق التي منحه إيّاها مثيله السماويّ، الآب، وخشيةٌ، وتوجّسٌ أوحى بهما الضلال الشعبيّ، الذي لم يتوخَّ، فيه، مسيحًا روحيًّا، بل ملكًا أرضيًّا.

يَسُوعُ يَسيرُ فَوقَ الأمْواجِ الصَّاخِبَة

لم يستسغ التلاميذ أمر المعلّم لهم بالإبحار، وحدهم، من جرّاء توقهم العارم إلى الانفراد به، بعد غيابٍ طويلٍ عنه، في أثناء أدائهم رسالتهم الأولى. فتريّثوا على متن السفينة، أملاً في أن ينضمّ إليهم بعد صرفه الجموع. ولكنّ الليل بسط أجنحته على الكون، ولم يظهر ليسوع طيفٌ، فلم يجدوا من الإبحار بدًّا. وكما يحدث، أحيانًا، في تلك الفترة المتقدّمة من الخريف، كانت تهبّ، بعد الغروب، من الجبال المحيطة بالبحيرة، رياحٌ باردةٌ هوجاء، تجعل الإبحار متعذّرًا. وقد عصفت تلك الرياح، في تلك الليلة، وراحت تدفع سفينة الرسل جنوبًا، في حين كان الغرب وجهتهم، فطووا الشراع، وأخذوا يجدّفون بكل عزائمهم، ولكن لا يتقدّمون إلاّ ببطءٍ شديدٍ، فالتجديف لم يُجدِ إلاّ في إبقاء سفينتهم عائمةً، في مكانها، رغم جهود بحّارةٍ عتاةٍ نظراء بطرس وأندراوس، ويعقوب. فقد كانت الأمواج ترتفع جدرانًا مخيفةً، وتحفر هوًى سحيقةً، مريعةً. وأنفقوا من الليل معظمه وهم ما برحوا في منتصف البحيرة، التي كانت ثلاث ساعاتٍ كافيةً لاجتيازها من طرفٍ إلى آخر، في ظروفٍ مناخيّةٍ طبيعيّةٍ.

في تلك الأثناء، كان يسوع مختليًا على تلّةٍ يناجي أباه، فرأى، بروحه، صراع أحبّائه مع العاصفة، وهبّ لنجدتهم. وربّما لم يلحظ انتقاله من الأرض الصلبة إلى اليمّ، بل تابع سيره، فأمام قدراته الإلهيّة لا فرق بين اليابسة واللجّة. وبغتةً، لاح للتلاميذ طيفٌ مبهَمٌ، ذو شكلٍ بشريٍّ، شفّافٍ، رقيقٍ، يحاذيهم، يسير فوق الأمواج، يصعد ويهبط معها، ويتقدّم نحوهم، ممّا أضاف إلى جَزَعهم من العاصفة، ذعرًا جديدًا، عصف بخيالهم المضطرب. فقد كان الخوف من الأشباح المؤذية يُشيع الخوف في قلوب الشعوب، حينذاك. فلم يتمالكوا عن إطلاق صيحات الرعب. وتابع الطيف مسيرته المهيبة، وكأنّه يبتغي تجاوزهم، غير آبهٍ بذعرهم، وصياحهم، ويأسهم. وطاف ببال بعضهم خاطرٌ مجنونٌ: قد يكون المعلّمِ. ولكن كيف ذلك، وهم قد تركوه على اليابسة قبل سُوَيْعاتٍ؟ إلاّ أنّه توقّف، فجأةً، وخاطبهم برقّةٍ طالما

استعذبوها، وبصوتٍ طالما رقصت لـه أوتار قلوبهم: «**تشجّعوا! أنا هو، لا تخافوا!**» هكذا يأتي يسوع، دائمًا، في عزّ الليل، وفي غمرة العاصفة، وفي ذروة الخطر، ويقول: لا تخافوا. كم يسوع ماهرٌ في قرن الرهبة بالألفة!

وكان بطرس، في اندفاعه المعهود، أوّل من نفض عنه الخوف، وهتف: «**إن كنتَ أنت هو، يا ربّ، فمُرْني أن آتي إليك على الماء**». لم تكن تحدوه الرغبة في أن يكون بطل معجزةٍ، بقدر ما كان يدفعه التوق إلى الاقتراب من المعلّم المحبوب، وتبديد كلّ شكٍّ بشأن حضوره. وأجابه المعلّم، برقّةٍ: «**تعالَ**». ومشى بطرس، بضع خطواتٍ، صوب المخلّص، والعاصفة ما برحت تزمجر.

طيلة خبرته في الصيد، لم تجُلْ في خاطره محاولة السير على سطح الموج. ولمّا وجد نفسه وحيدًا، أعزل، وسط عصف الريح، وجموح اللجّة، انطفأت فيه نار الإيمان التي كانت قد أخرجته من المركب، واستحوذ عليه حذَر الصيّاد المتمرّس، الذي تعلّم أنّ اللجّة، وإن سكنت، غدّارةٌ، وتوجّس خشيةً من أن تبتلعه الأمواج الصاخبة، التي لن تسعفه مهارته في السباحة على مواجهتها.

كان بطرس قد حدّق إلى عيني يسوع، ومشى على متن الموج. كان مؤمنًا، والإيمان وضعه في منطقة القوّة المنبعثة من يسوع. الإيمان هو المشاركة في كيان يسوع، وبطرس المؤمن كان يمشي مثل يسوع ومعه. ما دامت عيناه محدّقتين إلى عيني الربّ، وما دام إيمانه يبقيه ملتزمًا بإرادته، ظلّ الماء يحمله. ولكن حانت لحظةٌ وهنَ فيها زخم إيمانه، واستعاد حساباته البشريّة، فاستحوذت عليه جاذبيّة الأرض. وحينئذٍ، عوضًا عن غرس أبصاره في أعماق عيني يسوع، أشاحها عنه، وحدّق إلى قدميه، فجرّه الخوف إلى أسفل، وأخذ يغرق، فصرخ: «**نجّني، يا ربّ**»!. وللوقت مدّ يسوع يده، وأمسكه، وقال لـه: «**يا قليل الإيمان، لماذا داخلك الشكّ؟**».

انتشله، وخاطبه بما يستحقّ من رقّةٍ وحزمٍ، وفي عينيه بسمةٌ، وفي صوته حلاوةٌ. التماس بطرس السير على الماء نحو يسوع كان دليل قلبٍ طيّبٍ، وثقةٍ كبرى بالمعلّم. وخطأه ثوى في تخاذله وخوفه، فكان تراخي ثقته سببَ غرقه المهين. ما أقلّ اللحظات التي نحدّق فيها إلى عين الله، ونستمدّ منها القوّة! ولذلك لا ننى نغرق، ونغرق.

ذلك هو بطرس كما صوّره لنا الإنجيل: عفويٌّ، مفعمٌ إيمانًا، مندفعٌ، كريم النفس، يسارع إلى تحدّي المخاطر، يجسر على التجاسر، ولكنّه شديد التأثّر، متأرجح العزيمة، يستسلم للخوف حالما يلوح خطر. لقد منح ذاته وحياته، بلا تحفّظٍ، ليسوع، ولكن أرعبه صخب الريح. دفعه حبّه للمعلّم إلى فناء قصر رئيس الكهنة حيث كان معلّمه يُقاضى، ولكن كان حَسْبُ ارتياب خادمةٍ فيه كي ينكر هذا المعلّم. ولكنّه سرعان ما كان يعود إليه نادمًا، مستغيثًا. لو لم يرتَبْ، ولو كان إيمانه ثابتًا لما آذته الريح، ولبات اليمّ صلبًا تحت قدميه. إيمانه هو الذي سار فوق الموج، وعندما اهتزّ إيمانه، غرق هو. وكان لا بدّ من أن يتعثّر إيمانه، وينهض، مرّةً إثر مرّةٍ، قبل أن يترسّخ، ويصمد.

السير فوق الأمواج الصاخبة هو دعوة كلّ مسيحيٍّ. وهو، في سبيل ذلك، لا يحتاج إلى أيّ سندٍ بشريٍّ، بل حسبه الإيمان الصلب، والثقة المطلقة بالربّ، والحبّ اللامحدود، والتحديق إلى السماء.

* *

وما إن صعد يسوع إلى السفينة حتّى سكتت الريح، وبغتةً انتهت السفينة إلى مقصدها، فقد كانت الطبيعة تخضع، في كلّ شيءٍ، لمشيئة خالقها. ولا بدعَ في ذلك، فحيث يسوع، هناك السلام، والخلاص، والسعادة. وكلّ شيءٍ، معه، يمسي سهل المنال. وقد سجد له الذين كانوا في السفينة قائلين: «**أنت، حقًّا، ابن الله!**». وتبخّر ذعر واهني الإيمان، الذين كانوا يقطرون ماءً باردًا، وعرقًا، ورعدةً.

لطالما أجرى يسوع، على مشهدٍ من تلاميذه، معجزاتٍ بيّناتٍ، لم تُفلح في إزاحة القناع عن بصيرتهم، فهم، على غرار الشعب الذي شبع خبزًا وسمكًا عجيبَيْن، كانوا يجيلون، في أذهانهم، أفكار أمجادٍ أرضيّةٍ.

معجزاته كانت تدهشهم، ولكن لا تنير أذهانهم. فكانوا يتساءلون عن سبب معارضته تنصيبه ملكًا، مع امتلاكه كلّ هذه القدرات الخارقة، فإلى أين كان يقودهم، وإلى أيّ هدفٍ كان يرمي؟ إنّ الإنسان الذي يعميه زهوه وأباطيله لا يرى عمل الربّ. ولكن ما إن يدهمه الخطر، وينتزعه من ذاته، حتّى يرغمه على التطلّع إلى السماء فتنفتح عيناه وقلبه، ويدرك، ويسجد.

لقد أظهر يسوع لهم، في هذه النوبة، لونًا جديدًا من قدراته الإلهيّة، «**فبلغ منهم الدَهَش أقصاه، لأنّهم لم يفهموا شيئًا من أمر الأرغفة، لأنّ قلوبهم كانت غليظةً**». غير أنّ اعترافهم: «**أنت، حقًّا، ابن الله**» يدلّ على أنّ عمى نفوسهم لم يكن كاملاً.

بسيره على الموج العاتي، وبإخراسه العاصفة، وباختزاله ساعاتٍ من التجديف في ثوانٍ، حملهم على الاعتراف بألوهته، وأقامهم شهودًا على مجده الإلهيّ، المشعّ حتّى من جسده البشريّ، والذي يمكّنه من أمر الطبيعة وقواها، ويرقى به فوق سننها وجاذبيّتها، فتعنو لـه الأمواج صاغرةً، وتجعل من ذاتها موطئًا لقدميه.

ما برح يسوع ساهرًا على سفينة كنيسته، وحتّى عندما تهزّها، بعنفٍ، الأمواج الصاخبة، فهو يصلّي من أجلها، وحيدًا، على جبله الإلهيّ؛ ولا يلبث أن يهرع إلى نجدتها، فيظهر، بغتةً، متألّقًا، ساكنًا، ويبلّغ المجذّفين المرهقين كلمة الثقة، والسلام، والطمأنينة.

كلّ من يؤمن به يقوى على السير فوق اليمّ الصاخب، والسيطرة على العناصر الثائرة، والظلمات، والرياح، والعواصف. أمّا من يجزع، ويفقد الثقة، فيُهزم ويغرق. ولكن حسبه صرخة استنجاد بالمعلّم كي ينقذه. وبمجرّد حضوره، وولوجه السفينة القلقة، يسود الهدوء، ويبلغ الشوط غايته، فيسوع هو الشاطئ، وهو الأبديّة.

خُــبْزُ الحيَــاة (*)

أرسى يسوع وتلاميذه في جنيصّارت، وما إن انحدروا إلى اليابسة حتّى تعرّف القومُ الربَّ، الذي سبقته سمعةُ خوارقه. وسرعان ما ذاع نبأ وصوله إلى تلك البقعة، فتقاطرت الجموع مرحّبةً به، آتيةً إليه بكلّ سقيمٍ وصاحب حاجةٍ، فأغدق عليهم أشفيته وآلاءه، واجتاز القرى والدساكر مخلّفًا في كلٍّ منها شهادات عطفه وكرمه، وقدراته الفائقة. وكانوا يجمعون مرضاهم في الساحات، فيضع يديه عليهم ويشفيهم. كثيرون منهم كانوا قد سمعوا بشفاء المرأة النازفة لمجرّد لمسها «شرّابة» ثوبه، فكانوا يتسابقون إلى لمس أهداب معطفه، فينالون شفاءً تامًّا.

أمّا الذين كانوا قد شبعوا من الخبز والسمك اللّذين كثّرهما الربّ تكثيرًا عجيبًا، والذين شاهدوا تلاميذه يبحرون في السفينة الوحيدة الموجودة في تلك الديار، فقد باتوا حيث كانوا، آملين التقاءه، في اليوم التالي. بحثوا عنه في كلّ مكانٍ ولم يعثروا له على أثر. فارفضّ بعضهم عائدين إلى بيوتهم، أو متابعين سفرهم، أمّا أولئك الذين وطّنوا العزم على تنصيبه ملكًا، حالمين بأن يضمن لهم حياةً رغيدةً، هانئةً، يتوفّر لهم فيها كلّ شيءٍ بلا عناءٍ، وبعد أن طال انتظارهم له، وبحثهم عنه، استقلّوا سفنًا قادمةً من طبريّا، ومضوا صوب كفرناحوم، أملاً في العثور عليه.

مطاردتهم له كانت دليلاً على عدم تخلّيهم عن الرغبة في المناداة به ملكًا. فالمعجزات التي أجراها أمامهم أيقظت لديهم صورة مسيحٍ يغرقهم بالخيرات: سنابل تبلغ قامة الفارس، وكرومٍ تفيض الخمر أنهارًا. فكان عليه تبديد أوهامهم، ودعوتهم إلى الاهتمام بما يغذّي نفوسهم، ويعلّمهم أنّه هو غذاء النفوس، وأنّ المعجزات التي يجريها اللّه على يده، إن هي إلاّ تأييده لرسالته هذه.

لقد خيّرهم بين نوعين من الخبز: خبزٍ عابرٍ، فانٍ، وخبزٍ باقٍ للحياة الأبديّة. فهم،

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «أنا خبز الحياة»، صفحة ٢٥٤.

رغم معجزة الأمس، كانوا يرون أنّ موسى أعظم منه. فموسى استنزل على أجدادهم منًّا لذيذًا مدى أربعين عامًا. وهو أشبعهم خبز شعيرٍ، يومًا واحدًا. ولكنّ يسوع ذكّرهم بأنّ المنّ كان ينبغي أن يؤكل في الحال، وإلاّ فسد، في حين هو كان يُعدّ لهم خبزًا لا يفسد. ولمّا سألوه من هذا الخبز، أجاب: «**أنا خبز الحياة!**».

ذاك الذي جاء من الله، كان عليه أن يصبح ضحيّةً، كي يستطيع البشر التغذّي به، وسيكون، إذن، خبز تقدمةٍ طوعيّةٍ لجسده الخاصّ، كي ينتزع العالم من عبوديّة الخطيئة، ويقوده إلى حياةٍ جديدةٍ، وإلى الوحدة والتحرّر، إذ يتعذّر الالتئام حول تلك المائدة السماويّة، حول ذلك العيد الإلهيّ، أناسٌ سجناءُ أنانيّتهم الفرديّة، جماعاتٌ وأُمَمٌ تتجاهل وتتحاسد، ويحتقر بعضها بعضًا، وتتعارك وتتقاتل. ويتعذّر الجلوس إلى مائدةٍ واحدةٍ، لاقتسام فرح الملك على من لم يتعلّموا أن يتحابّوا.

من يأكل جسده، يتمثّل طبيعته الإلهيّة، ويحيا بحياته، وكم البوْن شاسعٌ بين طعام المنّ المادّيّ وجسد المسيح الروحيّ الصرف! غير أنّ ذهن مستمعيه لم يكن قادرًا على الارتقاء فوق المادّيّ والمحسوس. فقالوا: «**كيف يستطيع هذا أن يعطينا جسده لنأكله؟!**» إنّه يبدو ضربًا من الجنون أن يقدّم إنسانٌ جسده طعامًا. ولكنّ «ابن البشر» لم يكن إنسانًا عاديًّا. وقد بات جسده ودمه خبزًا وخمرًا، وحياةً أبديّةً.

الإنسان الأوّل استحقّ الموت الروحيّ، بتناوله الثمرة المحرّمة، وها هي ذرّيّته تستعيد حياة الروح، بتناولها خبز الحياة!

اليهود أرادوا ترجمة معجزاته وقدراته إلى واقعٍ يحقّق أحلامهم الوطنيّة، ورأوا فيه موسًى آخر سيطعمهم المنّ، ويحرّرهم من المحتلّ. وهو حرص على إبلاغهم أنّه جاء لخلاص العالم أجمع، وأنّه لا يحرّر إلاّ بالحبّ، من أجل الحبّ، عبر تحوّل القلوب. وكان يعي أنّ مشروعه لن يتحقّق إلاّ بعد لأيٍ، وبفضل امتحاناتٍ مضنيةٍ، متماديةٍ، تفضي، حتمًا، إلى انتصار الحبّ.

لقد حان أوان ارتقائه بتطلّعاتهم، وإطلاعهم على طبيعة خبز الحياة الذي جاء به إلى العالم.

إنّ الخطاب المستفيض الذي ألقاه يسوع في تلك المناسبة، كما نقله الإنجيل الرابع، بما انطوى عليه من عظمة التأكيدات، وجرأة الصِيَغ، وقوّة الرموز، وكثافة النور،

يتّصف بتأثيرٍ لا يُقاوَم، ويبرز الجهد الذي بذله يسوع، في ذلك الظرف الخطير، كي يبدّد أوهام الجليليّين، وأحلامهم في مسيحٍ سياسيٍّ، محاربٍ، منتصرٍ، ولكي يدخلهم إلى محراب دوره الروحيّ الإلهيّ. كان لا بدّ له من تبديد كلّ التباس، ومن تمزيق كلّ قناعٍ، وهو موقنٌ أنّ حقيقته ستقذف الخيبة في النفوس الزائفة، وهي كثيرةٌ، ولكنّها ستنفث الحياة والعزيمة في النفوس المستقيمة، القليلة العدد.

قبل إدلائه بهذه الأقوال المدهشة كان يسوع قد دعا إلى التوبة والتحوّل، والتجدّد، وكان قد أجرى جمًّا من المعجزات، برهنت على عطفه، وقدراته الإلهيّة، وسلطانه على غفران الخطايا، وعلى تطوير الشريعة، والارتقاء بها إلى الكمال، ممّا أوحى لكثيرين أنّه المسيح الذي سيرسّخ ملكوت الله. ولذلك حرص على رسم معالم الملكوت الذي ابتغى إقامته، دائبًا على السموّ بالنفوس فوق الاهتمامات الأرضيّة، صوب العدل، والطهر، والمحبّة، والصفح، وعلى إبلاغ مستمعيه أنّ رسالته، بصفته المسيح، لا تستهدف سوى النفوس، ومصيرها الأبديّ. وكم لقيت هذه الرسالة من مقاومةٍ شرسةٍ، من قِبَل عقائد كرّستها أجيالٌ من اليهود، أساءت تفسير وعدٍ إلهيٍّ، وصوّرت الملكوت سيطرةً سياسيّةً، ومآدبَ باذخةً، وقطافًا وفيرًا، وأرضًا، وقوّةً، وتطلّعاتٍ إلى مسيحٍ ملكٍ جبّارٍ يحقّق كلّ ذلك! وقد توخّوا من يسوع، بعد أن شهدوا قدراته، أن يكون لهم هذا المسيح، وهذا الملك.

لقد آن ليسوع أن يبيّن حقيقة رسالته لمن يطالبونه بتحقيق مطامعهم، وأن يوضّح معالم ملكوته لمن يطالبونه بإنشاء مملكتهم. لقد حان له أن يعلن عن المهّمة التي أوكلها الآب له، وعمّا يتوجّب عليهم تجاهه، كي يظفروا بالخلاص، لا الخلاص من أعدائه السياسيّين، بل من الخطيئة، ولكي ينالوا الحياة الحقّة، لا تلك القائمة على وفرة الغلال، بل على حياةٍ روحيّةٍ كثيفةٍ تمهّد للحياة الأبديّة.

تلك الوثبة نحو الذرى كانت لحظةً حرجةً؛ وكان لا بدّ من توقّع رفض مستمعيه فهمه، وفشل رسالته في الجليل. ولكن لم يكن مفرٌّ من لحظة الحقيقة تلك.

استهلّ طالبو تنصيبه ملكًا بسؤالٍ مزيجٍ من دهشةٍ وعتابٍ: «**رابّي، متى وصلت إلى هنا؟**» أو، بالحريّ «**كيف وصلتَ إلى هنا؟**». فهم قد شاهدوا تلاميذه يبحرون، تاركينه على البرّ، ولم يروا، بعد ذلك، أيّة سفينةٍ أُخرى قدمت لتمضي به. وهم عاتبون عليه لأنّه لم يستجب لدعوتهم إلى تنصيبه ملكًا. ولكنّ يسوع لم يردّ على

استفسارهم الذي أملاه الفضول والمصلحة المادّيّة، بل سارع إلى هتك زيف دوافع اهتمامهم به، وارتقى بهم إلى مستوًى روحيٍّ سامٍ، وقال لهم: «**الحقّ الحقّ أقول لكم إنّكم لم تطلُبوني لأنّكم شاهدتُم الآيات بل لأنّكم أكلتم من الخبز وشبعتم. فاعملوا لا للطعام الذي يفنى بل للطعام الذي يبقى للحياة الأبديّة الذي يُعطيكموه ابن البشر؛ فإنّه هو الذي ثبّته اللّه، الآب، بخَتْمه**» (يوحنا ٦: ٢٦ – ٢٧).

لقد توخّى إفهامهم أنّه لم يشفِ أسقام الأجساد، إلاّ لكي ينفذ إلى النفوس فيبرئها، ولم يُشبع مِعَدهم الخاوية، إلاّ لكي يحملهم على التماس غذاء الروح؛ فالملكوت الذي جاء يؤسّسه، لن يقدّم ولائم تدغدغ الحواسّ، بل إنّه سيسكر النفوس البريئة بنشوة الروح الإلهيّ. فدعاهم إلى الإعراض عن نشدان الطعام الفاني الذي لا يُشبع إلاّ إلى حين، وإلى التماس الطعام الذي يبقى للحياة الأبديّة، والذي يعطيه ابن البشر...

لقد فجّر يسوع، بغتةً، النور حول هويّته الإلهيّة، التي أزفت ساعة إعلانها؛ وأذهلت دعوتُه الملحّة، اليهودَ، برهةً، عن ملتمساتهم الأرضيّة، فسألوا: «**ماذا علينا أن نفعل لنعمَل أعمالَ اللّه؟**»، **أجاب يسوع وقال لهم**: «**عمل اللّه أن تؤمنوا بالذي أرسله**».

سؤالهم: «**ماذا علينا أن نفعل لنعمل أعمال اللّه؟**»، يندرج في سياق المنطق اليهوديّ: ماذا علينا أن نعطي اللّه كي يعطينا؟ ولكنّ القضيّة ليست قضيّة مقايضةٍ، بل هي قضيّة إيمانٍ بأنّ يسوع هو مرسل اللّه. هم كانوا يعتقدون أنّ اكتساب رضى اللّه يتحقّق بتنفيذ بنود الشريعة، وبالصوم، والصلاة، والتصدّق، والتقادم، بمعزلٍ عن مكنونات القلوب، ولكنّ اللّه يقتضي، قبل كلّ شيءٍ، الإيمان بيسوع ابنه: «**عمل اللّه أن تؤمنوا بالذي أرسله**».

في جواب يسوع هذا عتابٌ مبرّرٌ. فيسوع يستهدف، من معجزاته، إصدار إشاراتٍ بليغةٍ إلى رسالته الإلهيّة، إشاراتٍ تحمل ختم اللّه، وتثبت كونه ابن العليّ. غير أنّ جموع اليهود لم ترَ فيها سوى أعمالٍ مدهشةٍ، ومصلحةٍ مادّيّةٍ. وكما قيل، عوضًا عن أن ترى، في الخبز العجيب، إشارةً، رأت، في الإشارة، خبزًا. كانوا يلتمسون عطاياه، بمعزلٍ عنه. وهو لم يعِدْ، يومًا، بطعامٍ فانٍ، يقيم الأَوَد لفترةٍ قصيرةٍ، بل وعد بطعامٍ لا يفنى، يُعِدّ لحياةٍ أبديّةٍ.

لا يعطي يسوع خبزًا لرعاية الجسد، ولحياةٍ فانيةٍ، بل يهب ذاته، «**الخبز النازل من السماء**»، غذاءً للروح، وضمانًا لحياةٍ أبديّةٍ.

خبز الحياة هو كلام الحقيقة الذي أبى اليهود سماعه.

والحياة الأبديّة هي المنزّهة عن الأوهان، والأوصاب، والاحتياجات المواكبة لحياة الجسد الحاضرة. ومن يظفر بها لن يعرف، بعدُ، جوعًا ولا عطشًا. إنّهم يتذوّقون بعضًا من طعم هذه الحياة، حتّى على الأرض، أولئك الذين يتغذّون بالخبز الحيّ، الجسد الإلهيّ، الذي يدمّر عناصر الموت، بقضائه على كلّ نجسٍ فاسدٍ: «**أنا هو الخبزُ الحيُّ، النازل من السماء، فمن أكل من هذا الخبز يحيا إلى الأبد. والخبزُ الذي أُعطيه أنا هو جسدي المبذولُ لحياة العالم**».

أجابهم يسوع، إذن، أنّ رضى الله يكمن في إيمانهم بابنه، الذي ثبّته بختمه. فالإيمان بالابن هو الإيمان بالآب، لأنّ الآب والابن واحدٌ؛ فعليهم الإيمان به حتّى لو خيّب كلامه رجاءهم، وبدّد أحلامهم بملكٍ زمنيٍّ يعيد لأمجاد إسرائيل وهجها، وعليهم الالتزام بملكوته، ولو كان نفيًا لملكهم.

الإيمان هو جوهر تعليم يسوع، وسرّ الحياة الأبديّة. والإيمان يقتضي نكران الذات، والزهد الكامل، والاستسلام لكلمة الله ومشيئته. وما أبعد هذا التعليم عن وصايا علماء الشريعة! أمسِ، رفض يسوع إعلانه ملكًا أرضيًّا، وها هو ذا، اليوم، يعلن ذاته رسول الله، وابنه الوحيد، ويدعو إلى الإيمان به. ولكنّ الشعب تردّد، وقاوم، فآخر ما يسلّم به الإنسان هو الإيمان المطلَق.

ادّعاء يسوع بدا لمستمعيه مفرطًا، واقتضاؤه طموحًا. وهم، من جانبهم، اقتضوا آيةً كبرى كي يؤمنوا به. صحيحٌ أنّه، بالأمس، أشبع خمسة آلاف نفرٍ بخمسة أرغفةٍ وسمكتين. ولكنّ موسى، كان قد استنزل لآبائهم المنّ من السماء، مدى أربعين سنةً. وآية موسى هذه، في نظرهم، أعظم، وأبلغ إقناعًا.

بالأمس كانوا مندفعين لتنصيبه ملكًا، ولإعلانه مسيحًا، واليوم يطالبونه بآيةٍ تفوق آية موسى، كي يؤمنوا به. كم كان إيمانهم به سطحيًّا!

لم تتجلَّ، قطّ، قدرة الله، وعطفه، وحكمته مثلما تجلّت بكلّ ملئها في مسيرة ابنه، في قداسته، وأقواله، وأفعاله. وكلّ من يطالب، مع ذلك، بآياتٍ كي يؤمن،

إنّما هو أعمى البصيرة، يحول دون نفاذ نور اللّه إلى عقله وقلبه. هذا العناد في الإنكار كان يحزن قلب يسوع، غير أنّه كان واثقًا من أنّ كلّ من يحدوهم روحه القدّوس سيُقبلون إليه (يوحنّا ٦: ٣٧– ٤٠).

رغم الآيات التي لا تُحصى التي نثرها على دربه، أبى يسوع، دائمًا، الامتثال لشرط الذين يُخضعون إيمانهم لرؤية المعجزات. غير أنّه لم يضنّ على محاوريه بتفسيرٍ. فالمنّ الذي استنزله موسى، مع أنّ السماء كانت مصدره، إلاّ أنّه كان طعامًا مادّيًّا سريع العطب والفناء، كان قوتًا مؤقّتًا لم يُفِدْ سوى فئةٍ ضئيلةٍ، في زمانٍ ومكانٍ محدّدَيْن. كان ظلاًّ باهتًا للطعام الإلهيّ الذي سيشبع ملايين الملايين حتّى منتهى الدهر.

لا ريب أنّ يسوع كان، حينئذٍ، يرى، بروحه، الجموع الغفيرة الجاثية أمام قربانةٍ صغيرةٍ، فهو، بحضوره المتواري تحت هذا العَرض، سيستنهض، عبر العصور، في كلّ بقاع المعمورة، جموعًا لا تحصى من المؤمنين، تبدو إزاءَها، جموع كفرناحوم وأورشليم هزيلةً، شاحبةً.

أخيرًا أفشى يسوع سرّه، وأماط القناع عن هويّته الإلهيّة. إنّه آية الآيات التي لا تقع تحت الحواسّ، ولا يتعرّفها سوى الإيمان. هو، حقًّا، الطعام المنحدر من السماء، وهو الوحيد الذي يهب خبز الحياة لا لشعبٍ صغيرٍ، بل لكلّ المسكونة.

مستمعوه فسَّروا هذا الخبز وفق مشتهاهم، فقالوا: «**يا سيّد، أعطِنا من هذا الخبز على الدوام**». هذا الطلب يبدو صدًى لطلب السامريّة «**أعطِني من مائك لئلاّ أعود فأستقي**». ولكنّ السامريّة سرعان ما أدركت سرّ ماء الحياة. أمّا اليهود فلم يحيدوا عن مادّيّتهم، فهم لا يؤمنون إلاّ بمعجزةٍ وطنيّةٍ، وبسحرٍ سياسيٍّ. وقد استشفّ يسوع، في طلبهم، التماسًا لطعامٍ أكثر رهافةً ممّا يسعهم الحصول عليه، وحاول الانتقال بهم من مشروعهم السياسيّ إلى نور اللّه الداخليّ الذي يضيء كلّ شيءٍ بنورٍ جديدٍ. ولكي يصدم ذلك الشعب المتقلّب، مضى قُدُمًا في إيضاح فكرته الجريئة: «**أنا خبز الحياة. من يأتِ إليّ فلن يجوعَ أبدًا. ومن يؤمن بي فلن يعطش أبدًا. غير أنّكم، وقد قلتُه لكم، قد رأيتموني ولا تؤمنون. فكلّ ما يُعطينيه الآب يُقبل إليّ، ومن أقبلَ إليّ فلا أنبذُه خارجًا، لأنّي نزلتُ من السماء، لا لأعمل بمشيئتي بل بمشيئة الذي أرسلني. ومشيئةُ الذي أرسلني أن لا أفقد أحدًا من**

الذين أعطاني، بل أن أُقيمه في اليوم الأخير. أجلْ، تلك مشيئة أبي: أن تكون لكلّ من يرى الابن ويؤمن به، الحياةُ الأبديّة، وأنا أقيمهُ في اليوم الأخير» (يوحنّا ٦: ٣٥- ٤٠).

أيّ وقارٍ، وأيّ سنًى، وأيّ عمقٍ، في هذا القول! وكم يُحسن المعلّم الإلهيّ التحليق بالأذهان والقلوب!

لقد أعلن يسوع واقعًا مغلّفًا بالسرّانيّة، ينطلق بالبشر إلى ما يتخطّى كلّ اختبارٍ. لطالما قال: «**أنا الكرمة**» «**أنا الراعي**» «**أنا الباب**»، «**أنا الحياة**»، «**أنا النور**»، ولكنّه، في ذلك اليوم أعلن إعلانًا بسيطًا ومحيّرًا، معًا، إذ قال «**أنا خبز الحياة**».

اللّه وحده يستطيع أن يقول إِنّه شيءٌ آخر غير ذاته، هو وحده يستطيع أن يكون في ما لا يتّسع لاحتوائه. ولكن، فيما كانت أقواله الأُخرى مجازيّةً، يسوغ التساؤل ألم يتخطَّ المجاز عندما قال إِنّه الخبز، وألم ينحدر إلى أعماق كيان الخبز؟

ثمّة واقعٌ ثابتٌ، بشريٌّ، مألوفٌ، يحاكي تكثير الخبز: هو الكلمة. فالكلمة العامّة، نظير النور، تُقتَسم وتظلّ كاملة. وبين الكلمة، والنور، والخبز المكثّر إفخارستيًّا، والخبز المكثّر عجائبيًّا، وجوه شبهٍ. والربّ يسوع، المعلّم الأسمى، يرتقي بالكائنات من الأدنى إلى الأسمى، ويُعدّها لسرّ الأسرار.

إذن، الخبز الذي يعد به يسوع العالم هو ذاته، الحياة التي يقدّمها عطاءً سخيًّا منقطع النظير. إنّه الخبز الذي يوفّر جوهر الحياة بكلّ اتّساعها، وفي أكثر مظاهرها تنوّعًا. وسيعلن، في ما بعد، أنه نور العالم، والراعي، والباب، والحظيرة، والطريق، والحقّ، والحياة، والكرمة الحقّة، لتبيان غنى طبيعته المتعدّدة الوجوه.

ولكن على هذا الخبز أن يُؤكل ويُتَمَثّل، أي ينبغي الاّتحاد بيسوع بوشائج إيمانٍ حيٍّ، منيعٍ، وفاعلٍ. وحينئذٍ تتحقّق الشروط، ولن يعود المتناول يعهد جوعًا ولا عطشًا. خبز يسوع خبزٌ روحيٌّ، لا يتلف لأنّه من اللّه، ومفعوله لا ينفذ كما هي حال الطعام المادّيّ، بل إنّ من يتغذّى به ينعتق من الجوع.

خبز الحياة هو يسوع نفسه، الذي جاء إلى العالم، وما على العالم إلاّ أن يأتي إليه بالإيمان. وهو لن يردّ أحدًا، بل إنّه يحفظ من يأتون إليه، حتّى القيامة والحياة الأبديّة. وما من أحدٍ يستطيع المجيء إلى يسوع إلاّ بالإيمان، بدافع الآب، وفي نوره.

ومن يؤمن به أنّه خبز الحياة الحقّ الهابط من السماء، ومن يتناوله، يُفلت من أسر الجوع والموت. إنّ الذين أكلوا المنّ ماتوا، فما من خبزٍ مادّيٍّ يُنقذ من الموت. أمّا خبزه، هو، فخبزٌ روحيٌّ خالدٌ، ويهب حياةً لا نهاية لها. إنّ كلّ خبزٍ يفعل وفقًا لطبيعته. و«برهان الخبز أنّه يغذّي» (كلوديل).

لقد جاء يسوع لكي يمحو خطيئة العالم، ويهبه الحياة، عبر التضحية بجسده على الصليب. فلا بدْعَ إن هو جعل جسده ودمه غذاءً للعالم، ووسيلةً للاتّحاد بالآب. فكما أنّ الابن يحيا بالآب، كذلك من يتغذّى بالابن، ويتمثّله، يحيا حياةً أبديّةً.

الجليليّون الذين شهدوا معجزة تكثير الخبز والسمك، والذين جاؤوا ينصّبون يسوع ملكًا، لم يفهموا أقواله، فصمتوا، وعادوا أدراجهم. كانوا يعرفون الخبز والجسد. ولكنّ يسوع كلّمهم عن الله الذي اتّخذ جسدًا، وحقّق التبادل بين الجسد والكلمة، بين المادّة والروح، بين الإنسان والله. كلّمهم عن جسد الله الذي تأنّس كي يصبح الغذاء الروحيّ للحياة الأبديّة، فاستعصى عليهم فهمه.

لليهود سرّ التجسّد نفسه غير مقبولٍ، لأنّه يتعارض مع وحدانيّة الله. وإن هم كانوا يرفضون قول: «**صار الله بشرًا**». فكم بالأحرى يرفضون قول «**صار الله خبزًا**». إنّه أمرٌ مستحيلٌ، إلهيًّا وبشريًّا. إنّه يبدو وكأنّه طقس أكل آلهةٍ، لم تجرؤ على تخيّله حتّى الأساطير والممارسات السحريّة.

لم يقدّم يسوع هذا السرّ على أنّه رمزٌ أو مثلٌ، أو نسخةٌ من منّ موسى، بل، على نقيض ذلك، علّم أنّ الخبز السماويّ الذي يعطيه هو جسدٌ سرّيٌّ، ولكنّه حيٌّ، ومبدأ الحياة الروحيّة. وكان يعي أنّ إعلانه هذا السرّ الفضيحة قد يعرّض للفشل كلّ عمله، وقد يصدم خيرة تلاميذه، ولكنّه ارتضى هذه المخاطرة.

الغذاء المادّيّ لا يقيم أَوَد الحياة إلاّ لفترةٍ، أمّا الغذاء الروحيّ فيُشرك في الحياة الأبديّة. ولكأنّ يسوع يؤكّد أنّ من «يشرب دمه» ينتصر على الموت، وأنّ، ثمّة، علاقةً سرّيّةً بين تلقّي الإفخارستيّا والقيامة.

وفي تلك الأثناء كان قد انضمّ إلى الجمع كتبةٌ وفرّيسيّون وأزلامهم، وقدم بعضهم من أورشليم لمناوأته وتسفيهه أمام الشعب. هؤلاء، أكثر من سواهم، استغلق على مداركهم كلام يسوع، الذي يتخطّى كلّ ما تعلّموه، فأخذوا يتذمّرون، ويندّدون

بأقواله، لأنّه أعلن: «**أنا الخبز الذي نزَل من السماء**». **وقالوا**: «**أليس هو يسوع، ابن يوسف؟ ألسنا نعرفُ أباه وأُمّه؟ فكيف يقول الآن: إنّي نزلت من السماء؟**» **فأجاب يسوع وقال لهم**: «**لا تتذمّروا في ما بينكم، فإنّه لا أحد يستطيع المجيء إليّ إذا لم يجتذبه الآب الذي أرسلني، وأنا أقيمه في اليوم الأخير. قد كُتب في الأنبياء: ويكون الجميع مُتتلمذين للّه. فكلّ من سمع الآب وتعلّم منه يأتي إليّ. ليس أنّ أحدًا رأى الآب إلاّ الذي هو من عند اللّه، فهو قد رأى الآب. الحقّ الحقّ أقول لكم إنّ من آمن فله الحياةُ الأبديّة**» (يوحنّا ٦: ٤١ – ٤٧).

أولئك الفرّيسيّون لن يستطيعوا رؤية النور، لأنّهم يدّعون أنّهم نورٌ للآخرين، ولذلك خاطبهم يسوع بجفاءٍ.

كلماته الكبيرة، السامية، فضحت صغارة نفوسهم، ووهن أذهانهم. هم أرادوا العودة به إلى قريته، الناصرة، وإلى أبيه الأرضيّ، يوسف. ولكنّه، هو، نأى عنهم صوب أبيه السماويّ، منبع كلّ خلقٍ، وكلّ حياةٍ.

لم يتوقّف، إذن، عند اعتراضاتهم وترّهاتهم، بل مضى قُدُمًا، بسكونٍ، ورباطة جأشٍ مدهشَيْن، في حسر النقاب عن هويّته الإلهيّة، وعن كونه خبز الحياة. لا بل إنّه توغّل في هذا المضمار، مؤكّدًا أنّ جسده هو غذاء البشر. فاستنكروا قوله: «**كيف يستطيع هذا أن يعطينا جسده لنأكله؟!**» غير أنّه أمعن في الإدلاء بمفارقاتٍ تصدم العقل وتتحدّاه، مؤكّدًا أنّه، هو، حمل التضحية الذي يتعيّن على البشريّة بأسرها أن تتناوله كي تتحرّر من خطيئتها، وتحيا، وتخلص، إذ لا تكفي المشاركة في روح يسوع، بل لا بدّ من المشاركة في كلّ كيانه، للظفر بالحياة الأبديّة.

وكلّما أمعنوا، هم، في استنكار أقواله، لأنّهم كانوا مصمّمين على رفض الإيمان به، كان هو يستغرق في تحدّيهم: «**أنا هو هذا الخبزُ الحيُّ النازل من السماء. فمن أكل من هذا الخبز يحيا إلى الأبد. والخبزُ الذي أُعطيه أنا هو جسدي المبذولُ لحياة العالم**». **فضجّ اليهود في ما بينهم قائلين**: «**كيف يستطيعُ هذا أن يُعطينا جسدَه لنأكُلَه؟!**»

فقال لهم يسوع: «**الحقّ الحقّ أقول لكم إنّكم، إذا لم تأكُلوا جسد ابن البشر وإذا لم تشربوا دمه، فلا حياة لكم في أنفسكم. من يأكل جسدي ويشرَب**

دمي فله الحياة الأبديّة، وأنا أقيمه في اليوم الأخير. فإنّ جسدي مأكلٌ حقٌّ، ودمي مشربٌ حقٌّ. من يأكل جسدي ويشرب دمي أقام فيّ وأقمتُ فيه. وكما أنّ الآب الذي أرسلني حيٌّ وأنا أحيا بالآب، فكذلك من يأكلني فإنّه يحيا بي» (يوحنّا ٦ : ٥١ – ٥٧).

خليقٌ بالتنويه أنّ «الجسد»، هنا، لا يعني الجزء المادّيّ من الكائن، في مقابل «الروح»، جزئه الروحيّ، بل هو يعني الكائن بأكمله، الأنا، وقد قصد به يسوع كلّ ذاته. الخبز الذي يقدّمه، إذن، هو ذاته كاملةً.

لم يكن ممكنًا تأكيد حضور يسوع الفعليّ في القربان، بكلام أكثر وضوحًا، وحزمًا، وواقعيّةً. وإنّنا لنسمع، هنا، نبضات قلب المخلّص، ونلمس تأثّره، وهو يقدّم ذاته غذاءً لأصدقائه، ولجميع المؤمنين به، عبر سرّ الإفخارستيّا. فالإفخارستيّا ضرورةٌ لصحّة النفس وحياتها، مثل ضرورة الطعام للجسد، ومن يفتقدها سرعان ما يذبل، ويعتلّ: «**أجل، هذا هو الخبزُ الذي نزَل من السماء، إنّه ليس كالذي أكله آباؤكم وماتوا، فمن يأكل هذا الخبز يَحيَ إلى الأبد**» (يوحنّا ٦ : ٥٨).

قد يبدو، في أقوال يسوع، تكرارٌ نافلٌ، ولكنّه تأكيدٌ فرضه التمهيد لسرّ يسوع العظيم. فهو، عندما كان يقول إنّه خبز الحياة، الخبز الحيّ النازل من السماء، كان واضحًا أنّه يتكلّم عن ذاته، ولكن كيف يسعه أن يكون غذاءً؟ ها هو ذا يعلن أنّ هذا الخبز هو جسده الذي ينبغي أن يؤكل. «**أنا خبز الحياة**». هذا هو جوهر خطابه كلّه. إنّ يسوع الإفخارستيّ، هو يسوع الطبيعيّ نفسه، وقد ضُحّي به في القربان، وأصبح طعامًا وشرابًا لنفوسنا، نأكله حقًّا، فيُشبع أرواحنا، ويجدّد أجسادنا، ويودع فينا بذرة القيامة المجيدة، والخلود.

هذه الدعوة إلى التهام جسده بدت مناقضةً للعقل، منافيةً للأخلاق، فضيحةً، وحجر عثارٍ. وقد وصفها أعداؤه بالهراء والهذيان، ومع ذلك، استمرّ يسوع في إبراز ضرورة تناول جسده، خبز الحياة.

الوحدة الأبديّة بين الله والإنسان تتمّ بالمناولة الإفخارستيّة التي تغذّينا بجسد يسوع، ومن خلال تمثُّلنا هذا الغذاء، يُدخلنا الله، روحيًّا، إلى صميم حياته الإلهيّة.

هذه الأقوال الأخيرة أدلى بها يسوع في المجمع، فلم تلاقِ معارضةً محتدمةً، بيد

أنّها كانت من الجرأة والغرابة غير المألوفتَيْن، بحيث هزّت كيان كثيرين من مستمعيه، بل حتّى من تلاميذه الذين «**ارتدّ عنه كثيرٌ منهم، وانقطعوا عن السير معه**» قائلين: «**إنّه كلامٌ عسيرٌ، فمن يطيق سماعه؟**».

وعاتب يسوع المتذمّرين من تلاميذه قائلاً: «**أهذا حجر عثارٍ لكم؟ فكيف إذا رأيتم ابن البشر يصعد إلى حيث كان قبلاً!**».

كلام المعلّم استعصى على فهمهم، لأنّ تفكيرهم كان مادّيًّا، ولأنّهم تخيّلوا التهامًا مادّيًّا لجسد المسيح، في حين أنّ كلام يسوع هو «روحٌ وحياةٌ»، ولو هم أخذوه على محمل الروح لوضح لهم معناه. «**أمّا الجسد، بمعزلٍ عن الروح، فلا يملك نفعًا**».

التلاميذ الذين تعثّروا وارفضّوا، كان بوسع يسوع الحؤول دون هجرهم له، لو ألمح لهم أن كلّ ما قاله إنّما هو رمزيٌّ، وأنّ حضوره في الإفخارستيّا حضورٌ رمزيٌّ، وليس حضورًا فعليًّا، ولكنّه لم يقل ذلك، لأنّه كان يعني، حقًّا، ما يؤكّده.

البشر، سجناء الجسد، صعب عليهم اكتناه أقوالٍ إلهيّةً. وكان لاستنكار الفرّيسيّين صدًى لدى بعض التلاميذ، الذين رأوا للمعلّم وجهًا مجهولاً، واعتبروا أنّه تخطّى كلّ الحدود. ولكن ما عاد شيءٌ يوقف يسوع. فتدفّقت تصريحاته رهيبةً، مذهلةً.

كان يرى بعض الشعلات التي جهد في إذكائها تنوس، وتخمد. ولكنّه استمرّ يمطر عباراته الوجيزة المثقلة بإعلاناتٍ يصعب إدراكها.

كان على الذين لم يفهموا أن يقولوا: «لم نفهم، فافتحْ على الفهم أذهاننا»، ولكنّهم، عوضًا عن ذلك، أدانوا، وفقدوا النعمة المقدّمة لهم.

لقد أحزنته رؤية الذين شهدوا كلّ ما خصّه الله به من امتيازاتٍ، وكلّ الآيات التي صدّق بها الآب رسالته، يأبون الإيمان. ولكنّه كان يرى، بالروح، كلّ الذين سيأتون إليه مؤمنين، ويتأثّرون خطاه، على مدى العصور، فيثلج العزاء قلبه.

حلقة أصدقائه كانت تضيق، ولكنّ إيمانهم الذي امتُحن، قد ترسّخ.

النهاية كانت تقترب، والقوم من حوله، يرفضّون، وشيئًا فشيئًا، كانت تشتدّ وحدته. ولكنّه لم يتراجع عن أيٍّ من تعاليمه، ومضى في إعلان رسالته حتّى آخر الشوط، وإلى أن يتمّ كلّ شيءٍ.

إعلان يسوع سرّ الإفخارستيّا فجّر واحدةً من أقسى أزمات حياته. فوعده بمنح جسده، ودمه، وروحه، وألوهته، في سبيل نفوس البشر أفقده أكثر ممّا ربح. حتّئذٍ، كان كثيرون يسيرون في إثره: الجماهير، والشعب البسيط، والنخبة، ومثقّفون، وزعماء روحيّون، وأخيرًا تلاميذه. بيد أنّ ذلك التعليم الروحيّ السامي كان أرقى ممّا تطيقه أذهان معظمهم. والجماهير لا تنشد زعيمًا يطعمها نظريّاتٍ روحيّةً، بل ملكًا يشبعها خبزًا وسمكًا، بلا عناءٍ، ويعدها بالبحبوحة المادّيّة.

البشر يريدون الحياة، ويسوع راغبٌ في منحهم إيّاها. ولكنّ الحياة التي يبتغي يسوع منحها هي غير الحياة التي يتطلّعون إليها. هم رغبوا في تنصيبه ملكًا عندما أشبعهم خبزًا وسمكًا. ولكن عندما سيقول لهم بيلاطس: «هوذا مليككم»، سيهتفون: «اصلبه، اصلبه!».

ما كان أيسر على يسوع اجتذاب الجماهير عن طريق إشباع مِعَدهم! ولكنّه توخّى، أوّلاً، اكتساب قلوبهم ونفوسهم. بيد أنّ الذين أدهشهم عمل يديه، نأوا عن قلبه.

في ذلك اليوم، فقد يسوع النخبة، والمثقّفين، والزعماء الدينيّين، وعددًا من تلاميذه الذين رأوا، في تقديم جسده طعامًا، هلوسةً غير معقولةٍ. لقد أبوا أن يستخفّ بعقولهم، ويحملهم على الاعتقاد بأنّ كلامه هو الحقيقة المطلقة.

غير أنّ ارفضاض الكثيرين من حوله، حتّى من صفوف التلاميذ، ارفضاضًا سافرًا، وقحًا، كان أخفّ وقعًا على نفسه من بقاء يهوذا، أحد الاثني عشر، الذي كان يبيّت نيّة خيانته، وازداد إصرارًا على هذه الخيانة إثر سماعه إعلان المعلّم أنّ جسده سيكون خبز الحياة الحقّ.

كثيرون ممّن وافوا، واثقين، كي يسمعوا تعليمًا قيل لهم إنّه عميقٌ ومنعشٌ، استنكروا وتقزّزوا. وحتّى بين الذين كانوا قد اتّبعوه وأخلصوا لـه، ثمّة من اتّهموه بالجنون وهجروه صاخبين، وانضمّوا إلى جماعة الناقمين عليه، المتآمرين على النجّار المأفون.

تشتّت الجمع، وما عاد ابن البشر في حاجةٍ إلى التماس القفر، ولا إلى استقلال سفينةٍ للفرار من الحشود، فقد توغّل بعيدًا، في كشف حقيقةٍ قاسيةٍ، وتخلّى عنه

كثيرون، ولم يبقَ إلى جانبه سوى الاثني عشر، دهشين، وقد تغلّب وفاؤهم على حيرتهم.

وحدّق إليهم يسوع، فردًا فردًا، وانساب من شفتيه سؤال رقيقٌ، حزينٌ، ينبض إنسانيّةً جريحةً: «**وأنتم، أفلا تريدون أن تذهبوا؟**». وأجاب بطرس بلسان الجميع: «**إلى من نذهب، ياربّ؟ إنّ عندك كلام الحياة الأبديّة. فإنّا نحن قد آمنّا بك، وعرفنا أنّك قدّوس الله**».

يسوع الذي طالما شهدناه أَنوفًا، شامخًا، واثقًا، صامدًا كالطود، بدا وكأنّه مهزومٌ، يتسوّل شيئًا من الحبّ. وكان بطرس هو من وفّر له عزاء حبّه، وحبّ رفاقه.

لا يهجر إنسانٌ حبًّا، إلاّ في سبيل حبٍّ آخر. ولم يكن لدى بطرس وزملائه الرسل أيّ حبٍّ آخر. ولكنّ يسوع فاجأهم بإنبائهم أنّ واحدًا منهم سيخونه. فهذا الخطاب قوّض كلّ ما تبقّى في نفس يهوذا من أملٍ في مملكةٍ أرضيّةٍ يتولّى فيها منصبًا رفيعًا. وقد دأب يسوع، بتلميحاته، على هزّ نفسه، وإيقاظ ضميره ووفائه، ولكن عبثًا. فقد كان خان المعلّم في قلبه.

بطرس ظلّ منصتًا إلى الروح، ملتزمًا بيسوع. كلام المعلّم يتخطّاه، ولكنّه يرى أنّ هذا التخطّي طبيعيٌّ فغالبًا ما يتخطّانا الله، ونحن لا نقوى على تخطّي ذواتنا إلاّ به، باستسلامٍ كلّيٍّ، في الليل، وفي المحنة. وقد تكلّم بطرس باسمنا جميعًا.

جواب بطرس يُشعر أنّه، هو البسيط، قد ارتقى إلى القمّة الروحيّة التي أراد يسوع دفعهم إليها، والتي استعصت على فهم مدّعي العلم. إنّه يثق في يسوع الذي لا يقوى على سبر أغواره، ولكنّه يندفع، طوعًا، في نفق الإيمان المظلم، ويندفع معه رفاقه، ما عدا واحدًا، كان قد انفصل، بقلبه، عن المعلّم، وبات بقاؤه إلى جواره خيانةً.

اثنا عشر وجهًا كانت ملتفتةً نحو ذلك الوجه الوجيع. ولكنّ واحدًا من تلك الوجوه كان كافيًا لإلقاء الظلمة على كلّ ذلك النور المتألّق في الأحد عشر. وأخيرًا أزاح يسوع حجر السرّ الجاثم على صدره: «**ألم أكن قد اخترتكم، أنتم الاثني عشر؟ ومع ذلك، فإنّ واحدًا منكم شيطانٌ**» (يوحنّا ٦: ٧). يسوع كان قد اختار يهوذا، ولكنّ أبالسة المال والسياسة أفسدته.

كم نزف قلب يسوع قبل أن تخترقه الحربة الرومانيّة!

* *

لقد أسهب الإنجيليّ الرابع في وصف خبز الحياة، ووجد البعض هذا الفصل من إنجيله مغرقًا في الصوفيّة، وبعيدًا عن أُسلوب يسوع المألوف البسيط. والواقع هو أنّ الموضوع نفسه قمّةٌ في الصوفيّة والسموّ، وقد عالجه يسوع بالأسلوب الأقرب إلى مدارك الشعب.

من خلال هذا الحديث عن خبز الحياة، أعلن يسوع عن سرّه العظيم، سرّ الإفخارستيّا الذي سيكرّسه ويرسّخه، في أثناء عشائه الأخير، وسيستفيض الإنجيليّون الإزائيّون في وصفه، ولكنّ يوحنّا لن يأتي، حينئذٍ، على ذكره، لأنّه أشبعه، في فصله السادس، تفصيلاً، ولأنّ الرسول بولس قد أعلنه حيثما بشّر، وبات أوائل المسيحيّين يحيون ذكراه كلّما اجتمعوا.

مُدُنٌ ناكِرَةُ الجَمِيل، وَنِـيْرٌ لَيِّنٌ

كثيرون هم الذين أحجموا عن ولوج الملكوت الذي أشرع يسوع أبوابه، لأنّ روحانيّته السامية أخافتهم. فهجره نفرٌ من أتباعه أنفسهم، في حين ما انفكّ الكتبة والفرّيسيّون يتربّصون به، ويحيكون لـه المكائد، ويشهّرون به، وهيرودس يراقبه ويهدّده، لأنّه، في اضطراب ضميره، كان يتوسّم فيه صورة المعمدان الذي قتله.

ظاهريًّا، وبشريًّا، كان يسوع قد انتهى إلى فشلٍ، ولم يفلح كلّ ما أفاضه من بلاغةٍ، وحكمةٍ، ولطفٍ، ومعجزاتٍ، ونفحات الروح، في فتح تلك النفوس المتحجّرة على الإيمان، إذ عندما يتعيّن عليها الخيار بين الإنجيل وأحكامها المسبّقة، بين شريعة يسوع الجديدة وتقاليدها الوطنيّة، تتنكّر ليسوع، وتؤثر عبوديّة تقاليدها وأحكامها الراسخة؛ وعوضًا عن اتّباعه، تريده أن يتبنّى، هو، أهواءَها.

ومن المدن الثلاث التي أغدق عليها الربّ فيض آلائه، فظلّت سادرةً في غيّها: كورزين، وبيت صيدا، وكفرناحوم، وقد انتزعت لا مبالاتُها، منه، صيحة ألمٍ جريحةً، وتنديدًا رهيبًا: «**حينئذٍ طفِقَ يُقرّعُ المُدن التي أجرى فيها أكثر مُعجزاته لأنّهم لم يتوبوا، فقال: «ويلٌ لكِ، يا كورَزين! ويلٌ لك يا بيت صيدا! لأنه لو صُنعَ في صور وصيدون ما صُنع فيكما من المعجزات لتابتا من قديمٍ بالمِسْح والرماد. وإنّي أقول لكم إنّ صور وصَيدون ستكونان، في يوم الدين، أهون منكما مصيرًا.**

«**وأنت، يا كفرناحوم، أترتفعين حتّى السماء؟ فإنّه سيُهبط بك إلى الجحيم! لأنّه لو صُنع في سدوم ما صُنع فيك من المعجزات لثبتتْ إلى اليوم. وإنّي لأقول لكم إنّ أرض سدوم ستكون في يوم الدين أهون منكِ مصيرًا**» (متّى ١١: ٢٠ – ٢٤).

تلك المدن الثلاث قد اندثرت، وعلى أنقاضها نهض مجد يسوع، وخلق روحُه المحيي شعوبًا جديدة، وعالَمًا جديدًا، فيما بقيت، هي، غارقةً في الموت والدمار.

كان يسوع يتجرّع كؤوس النكران والخيانة، ولكنّه لا يستسلم لليأس أو للشكّ، لأنّه كان أمنع من الشرّ، ولأنّه كان يستمدّ، من مشيئة أبيه، عزاءً، فيستسيغ آلام مصيره. فما كاد يفرغ من تقريع المدن الثلاث، حتّى توجّه إلى أبيه حامدًا، وإلى المتعبين من البشر مؤاسيًا: «**أحمدُك، يا أبتِ، ربّ السماء والأرض، لأنّك حجبت هذه عن الحكماء والفُقهاء، وكشفتها للأطفال. أجل، أيّها الآب، إنّه هكذا حسُن لديك. إنّ أبي قد دفع إليّ كلّ شيءٍ فلا أحد يعرف الابن إلاّ الآبُ. ولا أحد يعرف الآب إلاّ الابن ومن شاء الابنُ أن يكشف له**».

«**فتعالوا إليَّ، يا جميع المُتعبين تحت ثِقل أحمالكم وأنا أوتيكُم الراحة. خُذوا نيري عليكم وتتلمذوا لي، لأنّي وديعٌ ومتواضع القلب، فتجدوا الراحة لنفوسكم. أجل، إنّ نيري ليّنٌ، وحِمْلي خفيف**» (متّى ١١: ٢٥ –٣٠).

بقوله هذا، أعلن يسوع مبدأً أثبتت العصور صحّته. فالذين يزدهون بعلمهم وفهمهم، ولا يرضون الاهتداء إلاّ بنور عقولهم، يقيمون حجابًا بين نور الله ونفوسهم، أمّا الذين يعترفون بمحدوديّة معرفتهم، ويؤمنون، فينعمون بغنى أسرار الله.

قلّما فجّر وعي يسوع لألوهته مثل تلك الأقوال المغرقة في القوّة والوضوح. ولم يلهمه، قطّ، حُبُّه المتّقد للبشر، وتأثّره ببؤسهم، ومشاركته لهواجسهم ومعاناتهم، مثل هذه الدعوة المؤثّرة، التي ما انفكّت أصداؤها تبلسم الجراح، وتغمر النفوس بالطمأنينة.

نير يسوع هو روح الله الذي لا يرهق من يرتضون حمله. لا ريب أنّ الخضوع له يقتضي نكران الذات، والسيطرة على الغرائز والأهواء، والزهد بالمصالح، وبالحياة نفسها. ولكنّ الإنسان الذي ينكر ذاته، إنّما ينكر ما ينطوي عليه من عدمٍ وبطلانٍ؛ وبفضل هذه التضحية لا يلبث أن يخبر عذوبة الله، وطاقاته، وسكونه، فيتحرّر من الزمن وعواصفه، كي يدخل في سجوّ الخلود.

ومع ما برهن عنه الشعب من عجزٍ عن فهم روحانيّته، ومن تخاذلٍ دون اتّباعه، لم يكفّ يسوع عن إغداق أشفيته ومعجزاته عليهم، مقابلاً قسوة قلوبهم بمزيدٍ من الرأفة.

نِفَـــاقٌ وَنجَاسَـــةٌ (*)

كان الفرّيسيّون دؤوبين على ترصّد يسوع، بُغيةَ أخذه في مخالفةٍ تدينه، وتنال من شأنه أمام الشعب. ولحظوا، يومًا، أنّ تلاميذه يهملون، أحيانًا، فريضة غسل أيديهم قبل الطعام. وهذا الإهمال، في نظرهم، خرقٌ خطيرٌ للشريعة حمّلوا المعلّم تبعته.

التطهّر، أصلاً، يعني استقامة النفس والقلب. غير أنّ أولئك المرائين لم يقيموا أيّ شأنٍ لدخيلة النفس، وذهلوا عن روح الطهر، وظنّوا أنّ الإسراف في الوضوء يعفيهم من دموع التوبة، ومن واجبات الرأفة والإحسان، وأفعال البرّ.

وبلغ بهم التزمّت أن جعلوا من فرائض الوضوء ركنًا أساسيًّا من أركان العبادة، ولم يقصروها على اغتسال الأشخاص، بل فرضوا تطهير الأقداح، والصحاف، والجرار، والآنية النحاسيّة، والأسرّة. الاغتسال كان يخضع لنظامٍ محكمٍ، محدّدٍ بدقّةٍ، وتطهير الأواني كان علمًا معقّدًا، قائمًا بذاته، تحتلّ تفاصيله سفرًا كاملاً من التلمود.

وكان الرابّيّون يتنافسون على التشدّد في التزام تلك الفرائض، فبعضهم أوجبوا قطع مسافة أربعة آلاف قدمٍ لامتياح ماء الوضوء. وآخرون أفتوا بتفضيل الموت عطشًا على مخالفة فريضة التطهّر، ورأى بعض علماء الشريعة أنّ تناول الطعام بأيدٍ غير مغسولةٍ يحاكي معاشرة بغيٍّ، وأنّه يعرِّض لأذى الأبالسة...

ومع ذلك، لم يكن لكلّ تلك الطقوس أثرٌ في صُلب الشريعة، بل هي تقليدٌ هم وضعوه، لا بدافعٍ دينيٍّ، أو صحّيٍّ، بل بدافعٍ عنصريٍّ، خشيةَ أن يكون أحد اليهود قد التقى أو صافح أجنبيًّا، أو وثنيًّا، فتنجّس، ولا بدّ من إزالة هذه النجاسة.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «القلب والأيدي»، صفحة ٢٦٠ و«طهرٌ ونجاسة»، صفحة ٢٦٣.

ذلك التشدّد في طقوسٍ نافلةٍ يُظهر، بجلاءٍ، هوّة السخافة، التي تردّت إليها عقول أولئك العلماء. وقد انبرى يسوع، دائمًا، متصدّيًا لتلك البِدَع البشريّة التي لا تمتّ إلى الدين الحقّ بصلةٍ، بل هي تشوّهه، وتنفّر منه.

أدان الفرّيسيّون، إذن، سلوكَ التلاميذ، وجاؤوا إلى يسوع مستنكرين: «**لماذا تلاميذك لا يجرون على سنّة الشيوخ، بل يتناولون الطعام بأيدٍ نجسة؟**» وكانت تلك سانحةً مؤاتيةً كي يشنّ الربّ حملةً شعواء على ريائهم، وكي يمزّق أقنعة النفاق التي يتوارون خلفها. فأجاب وقال لهم: «**لقد أصاب أشعيا في ما تنبّأ به عليكم، أيُّها المراؤون. فإنّه مكتوبٌ:**

إنّ هذا الشعب يُكرّمني بشفتَيْه وأمّا قلوبُهم فبعيدةٌ منّي.

إنّهم بالباطل يَعبدونني لأنّ التعاليم التي يُعلّمونها ليست سوى وصايا من صُنع الناس.

فإنّكم تتركُون جانبًا وصيّة الله وتتمسّكون بسُنّة الناس».

وقال لهم: «**أجل إنّكم تنقضُون وصيّة الله لتُقيموا سُنّتكم. فموسى قد قال: «أكرم أباك وأُمّك. وأيضًا: من لَعَن أباه وأمّه فليُقتل قتلاً». وأمّا أنتم فتقولون: إذا قال أحدٌ لأبيه أو أمّه إنّ ما تنتفع به منّي قربانٌ – تقدمةٌ مُقدّسةٌ – فإنّكم تحلّلون له ألاّ يفعل من بعدُ شيئًا لأبيه أو أمّه، مُبطلين هكذا كلام الله بسُنّتكم التي تتناقلونها. وأشياء كثيرةٌ مثل هذه تفعلونها!**» (مرقس ٧: ٦– ١٣).

جواب يسوع كان ساحقًا. وهو لم يدخل في جَدَلٍ معهم، بل ارتقى بالموضوع إلى دائرةٍ عليا، لا قِبَل لهم على مجاراته فيها. ردّ على هجومهم بهجومٍ. ففضح نفاقهم، وخرقهم لأقدس الشرائع، لتسخيرهم الدين لمصالحهم، مستعيضين عن وصايا الله بفرائض جوفاء من صنع أيديهم، وبفتاوى خرقاء تضحّي بأقدس مبادئ الأخلاق والوصايا الأساسيّة.

مثال ذلك أنّ الله أوصى بإكرام الوالدين، وبمساعدتهم في شيخوختهم وعازتهم، ولكنّ علماء الشريعة أفتوا أنّ كلّ من قال إنّ ماله «قربانٌ»، أي وقفٌ للهيكل بعد مماته، يظلّ يتمتّع به ما دام حيًّا، ولكنّه يُعفى من واجب إعانة والديه، ولو نفقا جوعًا.

بقوله هذا، اقتحم يسوع صلب القضيّة، فاصلاً بين الروح والحرف، بين سنّة الأخلاق، وشكليّاتٍ تافهةٍ، وفتاوى ماكرةٍ. وأثبت أنّ كلّ ما ليس من صنع الله باطلٌ، وأنّ الفرّيسيّين والكتبة إن هم سوى ضالّين مضلّلين، وسوى عميانٍ يقودون عميانًا. وبعد أن أخزاهم حَرِصَ على تحذير الناس منهم ومن تعاليمهم، فدعا الجمع وقال لهم: «**اسمعوا لي كلُّكم وافهموا. إنّ ما من شيءٍ ممّا هو خارج الإنسان إذا دخل الإنسان ينجّسُه، بل ما يخرج من الإنسان هو الذي ينجّس الإنسان. فمَن له أُذنان للسمع فليسمع!**» (مرقس ٧: ١٤ – ١٦).

حكمةٌ ستظلّ تدوّي على مدى الأجيال. قولٌ خالدٌ يشرّف الإنسان، ويسمو بكرامته فوق رواسب الأرض. كلماتٌ حرّرت البشريّة من قيودٍ باطلةٍ، وارتقت بها إلى صفاء الروح، وأصالة الكيان!

بذلك أكّد يسوع أنّ الإنسان هو، جوهريًّا، روحٌ وكائنٌ أخلاقيٌّ. وكلّ ما خلا ذلك، عرضيٌّ وخاضعٌ لهذا الجوهر الأسمى.

لطالما ألمح الأنبياء إلى بطلان عبادة الطقوس الجوفاء، وندّدوا بها، بعباراتٍ يخيف عنفها، أحيانًا. غير أنّ الفرّيسيّين وشركاءهم، مضوا قدُمًا في ضلالهم وتضليلهم، جاعلين من الطقوس الشكليّة البرّ كلّه، غير حافلين بالفضيلة الحقّة الكامنة في محراب النفس. ولم يرتفع صوتٌ واحدٌ من صفوف الكهنة والشيوخ والكتبة، فاضحًا تزوير الدين هذا، إلى أن جاء يسوع فحرّر الضمائر من عبوديّة الحرف المميت، والفرّيسيّة الجوفاء، ونفحها حرّيّة أبناء الله، وأقام، في هيكلها، العبادة الحقّة، بالروح، والقلب الطاهر.

هذا القول كان تقويضًا للتعاليم الموروثة، وقلبًا للقِيَم والموازين الشائعة الراسخة، بحيث صدم لا الفرّيسيّين والكتبة فحسب، بل، أيضًا تلاميذ يسوع أنفسهم، الذين نشأوا على الطقوس الفرّيسيّة، وأُشبعوا بتعاليم علماء الشريعة. ولذلك، ما إن خلوا إلى المعلّم حتّى استفسروه عنها. بطء فهمهم كان يُحزن قلب المعلّم الصبور. ولذلك فسّر لهم قوله تفسيرًا واقعيًّا فجًّا، مؤكّدًا أنّ الطعام حاجةٌ فيزيولوجيّةٌ ولا علاقة له بالروح، ولا قِبَل لأيّ طعامٍ على تدنيس النفس. أمّا غسل الأيدي فعملٌ صحّيٌّ تفرضه النظافة، ولا علاقة له بطهر النفس أو كدَرها. القلب، إذن، هو المختبر الذي يفرز الجيّد من السيّئ. وكم كان تفسيره بليغًا: «**أفأنتم أيضًا بلا فهمٍ! ألا تفهمون**

أنّ ما يدخُلُ الإنسان من خارج الإنسان لا يقْدِرُ أن يُنَجِّسه. لأنّه لا يدخُل في قلبه بل في جوفه ثمّ يذهب إلى الخلاء». بهذا الكلام أعلن أنّ جميع الأطعمة طاهرةٌ. ثمّ قال لهم: «إنّ ما يخرُجُ من الإنسان هو الذي يُنجّس الإنسان. لأنّه من الباطن، من قُلوب الناس، تنبعث النيّات الشريرة: الفسقُ والسرقةُ والقتلُ، الزنى والطمعُ والخبثُ، المَكْرُ والفُجورُ والحَسَدُ، الاغتيابُ والكبرياءُ والسفهُ. كلُّ هذه القبائح من باطن الإنسان تخرجُ وهي تُنجّسُه ولا علاقة لها بطعامٍ أو اغتسالٍ». بل كلّ إنسانٍ هو صانع نجاسته. إنّها ثمرة شهوته، ونتاج قلبه.

هذا المبدأ سيكون للوثنيّين عونًا على اعتناق المسيحيّة، إذ أزاح، دونهم، عوائق جمّةً.

* *

هكذا، وفي كلّ مناسبةٍ، كان يسوع يضيف إلى تعليم تلاميذه عنصرًا جديدًا، كي يحفر تعاليمه، بتؤدةٍ وعمقٍ، في قلوبهم وأذهانهم.

ولكن لزم التلاميذ وقتٌ طويلٌ، وكلُّ عبقريّة بولس وشدّته، كي يعملوا بمبدأ يسوع هذا، ويقتنعوا بأنّ ما من طعامٍ يدنّس النفس، فجميع الأطعمة، في ذاتها، طاهرةٌ، وأنّ الطهر المطلوب هو طهر القلب، لا غير.

شِفَاءُ ٱبْنَةِ ٱلمَرْأَةِ ٱلكنْعَانِيَّة (*)

الجموع التي كانت تتطلّع إلى مسيحٍ عنصريٍّ يوفّر لليهود السيطرة والازدهار صدمتها روحانيّة يسوع، وزهده في كلّ مجدٍ وطنيٍّ، فارفضّت عنه. وبطء فهم تلاميذه لجوهر رسالته كان يثقل صدره، فعزم على النأي بهم إلى حيث تتوفّر لهم الخلوة والسكينة، كي ينصرف إلى إعدادهم للمهمّة الجسيمة التي سينتدبهم لها. وإذ كان عليهم نشر رسالته في العالم الوثنيّ، انطلق بهم، للمرَّة الأولى، إلى ديارٍ وثنيّةٍ، فوافى هضبة الجولان، واجتاز سفح الحرمون الشامخ المكلّل بالثلوج، وانتهى إلى نواحي صور وصيدا الفينيقيّة التي ألحقها الرومانيّون بسوريّة.

لم يكن التبشير في تلك الديار بغيته الآنيّة، الفوريّة، فهذه المهمّة لم تحِنْ ساعتها بعد، وهو سيوكلها، عندما ستحين ساعتها، إلى رسله. بل كان يتوخّى، في المقام الأوّل، الانعتاق، مؤقّتًا، من جوّ الدسائس والحقد، والتقاط الأنفاس، في أعقاب مرحلةٍ مرهقةٍ، وخاصّةً التفرّغ لإكمال تثقيف تلاميذه.

وكان وراء موافاته إلى تلك الديار، دافعٌ آخر لم يعرفه سواه. كانت، ثمّة، أمٌّ مفجوعةٌ، في حاجةٍ حارقةٍ إلى نعمته، وكان إيمانها الكفيل بأن يمسي لتلاميذه وللأجيال مثالاً وقدوةً، يجتذبه.

كان يسوع ينشد التكتّم والتخفّي، في ديارٍ ليس فيها من يعرفه، غير أنّ هيبته كانت تستلفت الانتباه، وكانت شهرة صانع العجائب قد تسرّبت إلى تلك الناحية، أيضًا، فتدافع القوم لمشاهدته والتماس نعمه. وكانت أولى من توسَّلنَ عونه امرأةٌ يصفها متّى بالكنعانيّة، ويطلق عليها مرقس وصفًا أكثر دقّةً، فيقول إنّها، «سوريّةٌ فينيقيّةٌ»، ما إن تنامى إلى علمها مجيء يسوع حتّى هرعت وهي تصيح: «**ارحمني، يا سيّدي، يا ابن داود! إنّ ابنتي بها شيطانٌ يعذّبها عذابًا شديدًا**». تجاهلها

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «الكنعانيّة»، صفحة ٢٦٦.

الربّ، ولم يجبها بكلمةٍ، بغيةَ امتحان إيمانها وترسيخه، وتعليم تلاميذه القدرات الهائلة للصلاة المتواضعة المثابرة.

ابنة تلك المرأة هي التي كانت مسكونةً، ولكنّ الألم كان يسحق قلب أمّها، والألم ولّد إيمانها، فاعترفت بيسوع ربًّا وإلهًا، وأيقنت أنّه السيّد الأوحد على الأرواح.

استمرّت المرأة في التوسُّل الملحاح، واستمرّ يسوع في التظاهر بعدم سماعها، إلى أن ضاق التلاميذ ذرعًا بلجاجتها، فسألوا المعلّم أن يلبّي طلبها، ويصرفها. سؤالهم كان مشوبًا بالأنانيّة. فهم كانوا يرغبون، حقًّا، في رؤيتها تعود وقد نالت ملتمسها، ولكنّهم، أيضًا، كانوا راغبين في التخلّص من إزعاجها. ولكنّ يسوع أجابهم: «**إنّي لم أُرسَل إلاّ إلى الخراف الضالّة من بيت إسرائيل**»، ولكأنّه كان يقول لهم: سيحين أوان خلاص الوثنيّين، وستناط هذه المهمّة بكم، ولكنّ هذه الساعة لم تحِنْ بعدُ، لا لي، ولا لكم.

كلّ ذلك الإعراض لم يثبّط عزيمة المرأة، ولم يوهن إيمانها، فظلّت تطارد يسوع بتوسّلاتها إلى أن دخل بيتًا، فجاءت، وسجدت لـه، واطّرحت عند قدميه، قائلةً: «**أغثني، يا سيّدي!**» فأجابها بقسوةٍ، مستخدمًا لغة اليهود الذين يبغضون كلّ أجنبيٍّ ويزدرونه، ويصفونه بالكلب: «**لا يحسُن أن يؤخَذ خبز البنين، ويُلقى للكلاب الصغيرة**». لطّف يسوع لغة اليهود في حديثهم عن الوثنيّين، فلم يقل «الكلاب» التي قد تعني كلاب الشوارع الشاردة، بل صغار الكلاب التي يربّيها أهل البيت ويدلّلونها. ومع ذلك، لم يخلُ جوابه من قسوةٍ وإهانةٍ.

قسوةٌ وإهانةٌ تدهشان على لسان أمير الوداعة، يسوع الذي كان يعدّ حتّى الكلمة الجارحة بمثابة جريمة قتلٍ. غير أنّه تعمّد التظاهر بانتهاج مسلك اليهود، والتكلّم بعنجهيّتهم، كي يظهر لهم، ولتلاميذه، مدى خَطَل عنصريّتهم وضلالها. وقد أيّد موقف المرأة الكنعانيّة مرماه، ففي حين أمعن المخلّص في إذلالها، أمعنت، هي، في ثقتها وإيمانها. قسوة يسوع كانت مثل دواءٍ مفرط المرارة، ولكنّه يؤتي الشفاء. وقد أجابت تلك المرأة التي أولاها حبُّها لابنتها مثابرةً لا تلين، وإيمانًا لا يتزعزع: «**أجل، يا سيّدي! ولكنّ الكلاب الصغيرة تأكل من الفتات الذي يسقط من موائد أصحابها**».

تلك كانت ردّة فعل إيمانها، وفي نظر يسوع، الإيمان يعني الخلاص. فيسوع يحبّ الهزيمة أمام التواضع، والصبر، والإيمان الثابت الصامد. وكم كان عظيمًا إيمان تلك الكنعانية التي لم يثبّطها لا موقف التلاميذ غير الودّيّ، ولاصمت يسوع الجليديّ، ولا تظاهره بالازدراء، ولا كلامه القاسي، بل ظلّت متشبّثةً بالرجاء رغم كلّ أسباب القنوط الظاهرة، ولم تفقد شيئًا من ثباتها، واندفاعها، ومن الثقة التي أولتها الربّ. بل بدت وكأنّها تعتذر عن طلبٍ لا حقّ لها فيه، ولكنّها ازدادت به تشبّثًا، فحبّها لابنتها يحملها على تخطّي كلّ صدٍّ أو إهانةٍ.

تلك المرأة الكنعانيّة البسيطة حطّمت، بإيمانها، الصَلَف اليهوديّ، وفتحت بعنف، الباب الذي أتاح للأُمم ولوج الملكوت. لقد قوّضت الحواجز والحدود، وأسهمت في صنع التاريخ.

إنّنا لنعجب من صفاء رؤية تلك المرأة، وإرهاف شعورها، وثقتها المطلقة البالغة حدّ الجنون. فالإيمان، قبل أن يكون مجموعة معتقداتٍ، هو انطلاقة حبٍّ، صوب يسوع.

لقد سبق ليسوع أن أعظم إيمان قائد المئة، وها هوذا يستسلم لإيمان تلك المرأة، التي لم تنل حتّى الإهانةُ من ثقتها، فقال لها: «**يا امرأة، عظيمٌ إيمانك! فليكن لك كما تريدين**».

وعادت المرأة إلى بيتها سعيدةً، فوجدت ابنتها مضّجعةً على سريرها، ساكنةً، تفيض سلامًا، بعد أن تحرّرت من الشرّير.

* *

واستأنف يسوع مسيرته. ولم تكن تلك المعجزة غاية الشوط، بل نقطة انطلاقٍ إلى المزيد. فبعد تواري وجه الكنعانيّة، ظهرت وجوهٌ أُخرى، وأجسادٌ أُخرى عليلةٌ تلتمس الشفاء: أصحاب عاهاتٍ، وعرجٌ، وعميانٌ، وصمٌّ، وبكمٌ، ولكأنّ بحر الجليل محاطٌ بزنّارٍ من العلل المتطلّعة إلى البرء.

شِفَـــاءُ أَصَمَّ أَبْكَم

لم يطل مقام الربّ في الديار الفينيقيّة، ويقول القدّيس مرقس: «ثمّ غادر أرض صور وصيدون، وجاء إلى بحر الجليل عبر أرض الذيكاپول». بهذه الكلمات اختزل الإنجيليّ مئات الكيلومترات التي اجتازها يسوع في الأراضي اللبنانيّة السوريّة، عبر مناطق شبه خاليةٍ، زيّنها الله بجمالاتٍ خلاّبةٍ. وبذلك تسنّت ليسوع فسحة العزلة والخلوة مع تلاميذه التي كان يلتمسها.

ويروي الإنجيليّ مرقس شفاء أصمّ أَبكم، أجراه يسوع في تلك الديار، بأسلوبٍ مبتكرٍ غير مألوفٍ، فيقول: «**فأتوه بأصمّ أَلْكن وسألوه أن يضع يده عليه. فأخذه من بين الجمع، على حِدَةٍ، ووضع إصبعه في أذنيه ثمّ تفل ولمس لسانه. ونظر إلى السماء، وتنهّد، وقال له «إِفّتَحْ» أي انفتِحْ. فانفتح للوقت مِسْمَعاه، وانحلّت عُقدةُ لِسانِه، وتكلّم بطلاقةٍ.**

وأوصاهم ألاّ يقولوا لأحدٍ. ولكنّهم كانوا كلّما أوصاهم زادوا به نداءً. وكانوا يقولون، وهم على أشدّ ما يكون الإعجابُ: «إنّه قد أحسَنَ في كلّ ما فعل. وجعل الصُمّ يسمعونَ، والبُكم يتكلّمون» (مرقس ٧: ٣٢– ٣٧).

لقد تعمّد الربّ الابتعاد عن فضول الجمع السريع الاشتعال. كان بوسعه أن يشفي العليل بكلمةٍ، أو بنظرةٍ، أو بمجرّد إرادةٍ، إلاّ أنّه ابتغى إشراك الرجل في شفائه، ولكن بما انّه لم يكن بوسعه التفاهم مع أصمّ أبكم، استخدم حركاتٍ محسوسةً، رمزيّةً، وكأنّه كان يعيد إلى الأعضاء المعطوبة سلامتها المفقودة، فاتحًا الأذنين المسدودتين، مطلقًا اللسان المربوط، شاحذًا لدى الرجل الرجاء والثقة.

وقد رفع عينيه إلى السماء مشركًا أباه بعمله، ثمّ اكتفى بلفظةٍ واحدةٍ، نقلها مرقس كما سمعها من بطرس في أصلها الآراميّ العذب «**إِفّتَحْ**». فتمّ الشفاء.

بعمله هذا لقّن التلاميذ دروسًا عديدة. فبابتعاده عن الجموع، ورفع أبصاره إلى

السماء، وتنهّده، لقّنهم النأي عن التظاهر والتماس تمجيد الناس، وطلب كلّ شيءٍ من الله، عبر تنهّد الصلاة، وتأوّهات التواضع. وبلمسه العليل أراد إظهار أنّ جسده هو وعاء الألوهة. استخدم إصبعه لفتح الأذنين المسدودتين، ولعابه لإطلاق اللسان المعقود، ثمّ بكلمةٍ أجرى الشفاء. صلّى، وعمل كإنسانٍ، وأبرأ بكلمةٍ منه، كإلهٍ.

وأراد أن يفهم تلاميذه أنّ لديه لكلّ داءٍ دواءً، وأنّ المعجزة تنساب من إرادته وأنّه غير مقيّدٍ بأسلوبٍ، وأنّ قدراته هي قدرات أبيه، الخالق.

ورغب يسوع في أن يظلّ هذا الشفاء العجيب طيّ الكتمان، ولكنّ عرفان القوم بجميل الربّ منعهم من الامتثال لطلبه. ويلاحظ الإنجيليّ أنّه كلّما طالب يسوع بالكتمان، أمعن القوم في الإذاعة والإعلان. ونادرًا ما استثارت إحدى معجزاته مثلما استثارت هذه من إشادةٍ، فقد رأى فيها القوم تحقيقًا لنبوءة أشعيا عن عهد المسيح: «**حينئذٍ يطفر الأعرج كالأيّل... ولسان الأبكم يترنّم، وتنفتح آذان الصمّ وعيون العمي**».

٤٨٤

تَكْثِيرٌ ثَانٍ لِلخُبْزِ وَالسَّمَك

«**وانتقل يسوع من هناك، وجاء إلى شاطئ بحر الجليل**».

على طول الطريق كان ينثر آلاءه وأشفيته، وكثيرون، لدى عبوره، كانوا ينضمّون إلى قافلته، ويتأثّرون خطاه، مثلما تقتفي النعاج أثر راعيها، غير مهتمّين بالغد، مسحورين، مفتونين، وكانت حشودهم تتضخّم، كلمّا مضى قدُمًا.

واختار يسوع تلّةً جلس على سفحها، وتحلّقت الجموع من حوله، مأخوذةً بتعاليمه. وإلى هناك تقاطر الناس من المدن والقرى المجاورة، حاملين إليه أصحاب الأسقام والعاهات: «**من عرجٍ، وعميانٍ، وشلٍّ، وخرسٍ**» وكثيرين آخرين كانوا يطرحونهم عند قدميه فيشفيهم. ومعظم الذين كانوا يأتون إليه، كانوا يمكثون قريبًا منه، ولا يطيقون عنه بعادًا.

انقضت ثلاثة أيّامٍ بلياليها، على هذا المنوال، ونفد ما كان لدى الجموع من زادٍ. وخلافًا لما حدث عندما كثّر يسوع الخبز والسمك، لإطعام الجموع، لبضعة أشهرٍ خلت، ليس التلاميذ هم الذين لفتوا انتباه المعلّم، بل في هذه النوبة، كان هو من بادر، فقال: «**إنّي مشفقٌ على هذا الجمع. فإنّهم معي منذ ثلاثة أيّامٍ، وليس لهم ما يأكلون، فلا أريد أن أصرفهم على الطوى، لئلاّ تخور قواهم في الطريق**»، ولا سيّما أنّ بعضهم جاؤوا من أماكن قصيّةٍ، ولن يحتملوا العودة ببطونٍ خاويةٍ.

حيال ذلك الوضع الشائك كان الخيار عسيرًا: إمّا دعوة كلّ فردٍ إلى تدبّر أمره بنفسه، وقد يفلح في ذلك أقوياؤهم، وقد يهلك آخرون قبل بلوغ المرام، وإمّا أن يُنفق التلاميذ كلّ مدّخراتهم، وأكثر منها، كي يصيب كلّ نفرٍ كسرةً لا تُشبِع، ولا تغني من جوعٍ.

وتدخّل يسوع، شاعرًا بمسؤوليّته حيال أولئك الذين لحقوا به إلى القفر «**طالبين،**

قبل كلّ شيءٍ، ملكوت الله». فسأل التلاميذ: «كم رغيفًا عندكم؟» فقالوا: «سبعةٌ، ويسيرٌ من صغير السمك».

كما حدث في النوبة السابقة، أمر تلاميذه بإجلاس القوم حلقاتٍ، تسهيلاً لخدمتهم، وجيء إليه بالزهيد المتوفّر، فشكر، كما تشكر أسرةٌ عندما تجلس إلى مائدة الطعام، وبصفته خالق كلّ شيءٍ، وسيّد الخليقة، بارك الأرغفة والسمكات، بتلك البركة التي أهّلت الكائنات للنموّ والتكاثر، في بدء الخليقة. وقد أشبع ذلك الزهيد كلّ ذلك الخلق، وجُمع من الفضلات سبع سلالٍ مليئةٍ، لأنّ الله يهب، دائمًا، بوفرةٍ. «**وكان الآكلون أربعة آلاف رجلٍ ما عدا النساء والأولاد**».

وجديرٌ بالتنويه أنّ كثيرين ممّن تناولوا من هذه الوجبة العجيبة الثانية كانوا من الوثنيّين، وقد سعد يسوع بإطعامهم. وفي ذلك الدليل على أنّ ما كان قد قاله للمرأة الكنعانيّة بأنّه لا يليق إطعام صغار الكلاب بخبز البنين، لم يكن سوى امتحانٍ لإيمانها، ولا يعكس شعوره ويقينه، وأنّ استخدامه مصطلحات اليهود، بتلك المناسبة، لم يبتغِ منه سوى إظهار بطلانها.

بتكثيره الخبز والسمك، مرَّتين، كان يسوع يُعِدّ البشريّة لسرّ الإفخارستيّا حيث سيقدّم ذاته طعامًا للجياع، وخبز حياةٍ وقوّةٍ، وسيكلّف تلاميذه بتوزيع غذائه السماويّ العجيب، فالربّ حريصٌ على إشراك البشر، ولا سيّما كنيسته، في عطاءاته.

الأشياء الضئيلة الشأن، مثل خبز الشعير، وصغار الأسماك الجافّة، تسبغ عليها بركة يسوع قدرة مضاعفة النعمة التي تشبع النفس وتملأها قوّةً روحيّةً.

بين يدي التلاميذ كان الطعام قليلاً، جافًّا، ولكن ببركة الربّ غدا طيّب المذاق، وفيرًا، فائضًا. كذلك هي عناصر الأسرار المادّيّة: الماء، والخبز، والخمر، والزيت، فهي، في ذاتها، عاجزةٌ عن أيّ تأثيرٍ، ولكنّها ببركة يسوع ونعمته، تتلقّى قدرةً خارقةً.

لم يجد يسوع مشقّةً في صرف الجمع الوثنيّ الشاكر، الطيّع، الذي لا تحدوه مثل مطامع اليهود وتطلّعاتهم. ثمّ ركب السفينة، وجاء إلى تخوم «مجدان»، أو «دلمانوتا».

خَـمِيرُ الفرِّيسِيِّين، وَشِفَـاءُ أعْـمَى فِي بَـيْتَ صَـيْدَا

لا ريب أنّ ما واكب عبور يسوع بالذيكاپول من عجائب قد تنامى إلى مسامع خصومه من مختلف المدارس والأحزاب، الذين ما انفكّوا يتربّصون به كي يأخذوا عليه ذريعةً لإهلاكه. وجاءه نفرٌ منهم مموِّهين مكرهم، ونيّة الإيقاع به، بقناع الصدق، والتمسوا مشاهدة آيةٍ من السماء كي يؤمنوا به. ولكأنّ كلّ ما أجرى من آياتٍ من كلّ لونٍ ليس دليلاً كافيًا، ولكأنّ هذه الآيات هي من الأرض، مملكة إبليس، وقد يكون إبليس شريكًا في صنعها، وإنّما هم يطالبون بدليلٍ فلكيٍّ مثل سقوط كوكبٍ مزركشٍ بألوان قوس قزح، أو كسوفٍ مباغتٍ للشمس، أو إيقاف مسيرتها، في الأوان الذي يحدّدونه. لقد أرادوه أن يتمثّل بموسى الذي استمطر المنّ من السماء في الصحراء، ويشوع بن نونٍ الذي أوقف مسيرة الشمس، وبإيليّا الذي فتح سدود سماءٍ محتبسةٍ منذ ثلاث سنواتٍ. وإن هو عجز عن ذلك، فهو دون هؤلاء الأنبياء قدرةً، وعليه الكفّ عن ادّعاءاته المسيحانيّة.

لقد ترفّع يسوع، أبدًا، عن إجراء أيّة معجزةٍ استجابةً لتحدٍّ، أو إرضاءً لنزوة متحذلقين مصمّمين على رفض الإيمان، مهما شاهدوا من آياتٍ، ماضين في عزمهم على قتله مهما فعل وأظهر. فتنهّد أسًى على غلاظة قلوبهم وعمى بصائرهم، وأجابهم «**إذا كان المساءُ قلتم: صحوٌ! لأنّ السماء في مثل حُمرةِ النار. وفي الصباح: اليوم مطر! لأنّ السماء مُحمرَّةٌ كالحةٌ. إنّكم تعرفون أن تُميّزوا وجه السماء، وأمّا علامات الأزمنة فلا تستطيعون! الجيلُ الشرّير الفاسق يطلب آيةً! إنّه لن يُعطى آيةً إلاّ آية يونان**» (متّى ١٦: ٢–٤).

إنّ التنبّؤات المبنيّة على مظهر السماء قد تخدع، غير أنّ علامات الأزمنة المسيحيّة، ومجموعة الأعمال التي تنهض مصداقًا لرسالة يسوع الإلهيّة، والنبوءات التي تحقّقت كلّها فيه، علاماتٌ لا خداعَ فيها. ومن وطّن النيّة على عدم رؤيتها لن تؤتيه آيةٌ في السماء، أيّة استنارةٍ.

كان اليهود قد افتقروا، منذ سنواتٍ، إلى أنبياء، وكانوا يتوقّعون، بلهفةٍ، مجيء المسيح. وجاء يسوع، وأفاض آياته ومعجزاته، ولكنّهم ما انفكّوا يطالبون بالمزيد، ولذلك رأى ألاّ يعطي ذلك الجيل الشرّير الفاسق إلاّ آية يونان، الذي خرج من بطن الحوت، بعد ثلاثة أيّامٍ من سجنه فيه، وستكون قيامة يسوع من القبر، في اليوم الثالث لدفنه، هي الآيةَ الحاسمة التي سيقدّمها لمن يريد الإيمان بصدق.

وجديرٌ بالتنويه أنّ أولئك الذين جاؤوه للإيقاع به كانوا مزيجًا من متعادين، أي من الفرّيسيّين والصدّوقيّين الذين يكادون يختلفون في كلّ شيءٍ، إلاّ أنّ حقدهم على يسوع وتصميمهم على إهلاكه قد جمعاهم في حلفٍ شيطانيٍّ، سيصمد حتّى الجلجلة.

ولذلك فيما كان الربّ وتلاميذه مبحرين يجتازون إلى العبر، حذّرهم من أولئك الماكرين الأشرار، قائلاً: «**تنبّهوا وتحرّزوا من خمير الفرّيسيّين والصدّوقيّين**». وقد عنى بالخمير تعليم أولئك المضلّلين الذين يفسدون به نفوس الشعب، غير أنّ التلاميذ الذين كانوا ما برحوا ماديّي التفكير، استخلصوا، من قول المعلّم، عتابًا لهم، لأنّهم، في غمرة إبحارهم المفاجئ، أغفلوا التزوّد بخبزٍ للطريق، وتبيّنوا، في ما بعد، أنّه لم يبقَ معهم سوى رغيفٍ واحدٍ، رغيفٍ لثلاثة عشر كادحًا مشحوذي الشهيّة!

وقرأ يسوع ما كان يجول في خواطرهم، وشقّت عليه رؤيتهم ما برحوا عاجزين عن التحليق فوق الهموم المادّيّة، فقال لهم، بنبرةٍ تقطر حزنًا وحنانًا: «**يا قليلي الإيمان، لماذا تُفكّرون في أنفسكم أنّكم لم تتزوّدوا خبزًا؟ أحتّى الآن لا تفهمون! أما تذكرون الأرغفة الخمسة للآلاف الخمسة وكم قفّةٍ رفَعْتم؟ ولا الأرغفة السبعة للآلاف الأربعة وكم سلّةٍ رفعتم؟ كيف لا تُدركون أنّي لست بشأن الخبز قلت لكم: تحرّزوا من خمير الفرّيسيّين والصدّوقيّين؟» ففهموا عندئذٍ أنّه ليس من خمير الخبز يحذّرهم بل من تعليم الفرّيسيّين والصدّوقيّين**» (متّى ١٦: ٨ – ١٢).

كان يسوع يحذّرهم من خمير التعليم الفاسد، خمير الفرّيسيّين وهو رياءٌ، وتعنّتٌ ضيّق الأفق في التشبّث بالحرف، وخمير الصدّوقيّين، وهو الطمع والسطحيّة، وخمير هيرودس، وهو المكر والكَلَف بالملذّات. كلّ ذلك كان من الوضوح بحيث استغرب يسوع كيف غابت فحواه عن إدراك تلاميذه.

ما كان أبعد تفكير يسوع عن تفكير البشر! فحتّى تلاميذه، شهود حياته، ومستودع أقواله، كانوا يعيشون في مُناخٍ غير مناخه، ويأخذون أقواله في غير المعنى الذي يبتغيه. ولكم أحزن انغلاقُهم دون الحقائق الروحيّة قلبَه! هم، أيضًا، لهم عيونٌ ولا يبصرون، ولهم آذانٌ ولا يصغون، وقلوبٌ من حجرٍ! ولكن من المحقّق أنّ أقواله، وأمثلة سلوكه انحفرت في ذاكرتهم، فما انفكّوا يذكرون كم من آلاف البشر أشبع بالزهيد المتوفّر، وكم ملأت الفضلات من سلالٍ. ولكن علامَ لم يدركوا، لكلّ ما يقوله يسوع ويفعله، بُعدًا روحيًّا، ودعوةً إلى الارتقاء نحو الله، بدلاً من الانهماك بالمتطلّبات الأرضيّة؟ كانت الاهتمامات المادّيّة ما تزال طاغيةً على أفكارهم، ولم تستولِ، بعدُ، على نفوسهم غيرة الملكوت. وأخيرًا أدركوا أنّ المعلّم أراد تحذيرهم من فساد الروح.

لقد كان يسوع قد أخذهم على علاّتهم، ولم يتوقّع أن يتحوّلوا تحوّلاً جذريًّا، بين يومٍ وآخر. ولكنّه كان دائم الحرص على الارتقاء بهم، ولو اضطرّ إلى استخدام بعض القسوة أحيانًا. لم يدعُهم إلى السباحة في الأحلام، بل كان لهم مدرسة كمالٍ صارمةً، تنمّ عن حبٍّ عميقٍ، كثير الاقتضاء، ولكن ممعنٍ في الرقّة الأبويّة.

وانتهى يسوع وصحبه إلى بيت صيدا وهناك أتوه بأعمى وطلبوا إليه أن يلمسه. «**فأخذ بيد الأعمى واقتادَه إلى خارجِ القرية، وجعل من ريقه على عينَيْه، ووضع يديه عليه، وسأله: «أتُبصرُ شيئًا؟» وإذ بدأ يُبصر قال: «أُبصر الناس. أراهم كأنّهم أشجارٌ ولكنّهم يمشُون». فوضع يديه على عينَيْه مرَّة أُخرى فأبصر، وعاد صحيحًا يرى كلّ شيءٍ جليًّا. فأرسله إلى بيته قائلاً: «لا تدخُل القرية**» (مرقس ٨: ٢٢-٢٦).

ذوو الأعمى طلبوا شفاءه بلمس يسوع له، ولكنّ الربّ، الذي ابتغى شفاءه بدافع الرأفة، لا من أجل إظهار قدراته، آثر انتهاج أسلوبٍ أكثر سرّيّةً وغرابةً، وبعيدًا عن أنظار الجماهير، وعن اندفاعهم الديماغوجيّ. ولقد تمّ الشفاء مرحليًّا، أكيدًا، ولكن خفيًّا. وقد ابتغى يسوع أن يحرّض إيمان الرجل، كي يستحقّ الشفاء بالإيمان، ويشترك في حدوثه. وكان هذا الشفاء التدريجيّ رمزًا إلى انفتاح بصيرة التلاميذ، ببطءٍ، على حقائق الروح.

لم تكن، ثمّة، حاجةٌ إلى وضع الريق على عيني الأعمى، ولا وضع يديه عليه،

فلا الريق ولا اليدان تشفي، بل في إرادة الربّ وحدها تكمن القدرة على الشفاء. ولكنّ يسوع توخّى أن يظهر أنّه غير محكومٍ بأيّ أُسلوبٍ؛ وبما أنّ إيمان الرجل كان ما زال واهيًا، شفاه على مهلٍ كي يوقظ إيمانه ويضرمه. ففتح بتؤدةٍ عيني جسده، فيما كانت ظلمات نفسه تتبدّد شيئًا فشيئًا.

ويبدو أنّ الرجل لم يكن من مواطني بيت صيدا، فأمره بالعودة إلى بيته، متحاشيًا عن دخول القرية، لكيلا يثير شفاؤه لغَطًا، ولكيلا يرى فيه القوم مسيحًا وطنيًّا أرضيًّا، مثلما كانوا يتخيّلون ويتوقّعون.

بتكثيره الخبز أعلن يسوع أنّه غذاء النفوس، وبشفائه الأعمى رمز إلى أنّه نورها. لقد فقد الإنسان فهمه للأمور الإلهيّة، فتاه في الظلمات، عاجزًا عن اكتناه الله. وجاء يسوع فأخذه من يده، وحقّق فيه إحدى أعظم وظائف المسيح: فتح بصيرته، رويدًا رويدًا، على الحقيقة الأبديّة.

وقد تجلّى عمل الإنارة هذا بأبهى صوره في الجليليّين الذين اختارهم يسوع لنفسه رسلاً، ووقف على تثقيفهم، وصَوْغهم، الأشهر الأخيرة من حياته الأرضيّة، إذ حرص على النأي عن ضوضاء المدن، وصخب الجموع، بُغيةَ توفير فسحات خلوةٍ معهم، وإعدادهم للتعليم الأسمى والأصعب، والأكثر إدهاشًا. وليس من العسير استقراء نتائج التغيّرات التي طرأت على التلاميذ، ومراحل تطوّرها ونموّها. فأولئك الرجال البسطاء خرجوا من الشعب اليهوديّ، وتحرّروا، بتؤدةٍ، من الظلمات التي يتخبّط فيها شعبهم، وخضعوا، من خلال علاقتهم بيسوع، لعمل روحه الفعّال، ووعوا، شيئًا فشيئًا، هويّته، وقدراته الإلهيّة، وتعليمه، ووصاياه، ومخطّطاته. وفي غضون أقلّ من ثلاث سنواتٍ، تجرّد أولئك الصيّادون، والجباة، وأبناء الشعب البسطاء، من طبيعتهم البدائيّة، وارتدوا طبيعة معلّمهم، فصار هو لهم الحكمة، والقوّة، والعبقريّة، به يفكّرون، ويعملون، وسيكون رديفُهم بولس لسانَ حالهم عندما سيعلن: «لست، بعدُ، أنا من يحيا، بل يسوع هو من يحيا فيّ».

لطالما كانوا شهود معجزاته، وها هم يتأثّرون بعظمته، وألوهته، ولكنّهم ما زالوا بعيدين عن تخيّل آلامه، ومهانته، وموته، ومأساته الدامية الوشيكة، التي آن له أن يطلعهم على سرّها.

مَــنْ أَنَــا ؟ (*)

صعّد يسوع وصحبه شمالاً، مبتعدين عن اليهوديّة إلى أن انتهوا إلى مدينة قيصريّة فيليبّس، التي كان هيرودس فيليبّس، ابن هيرودس الكبير من كليوپاترا، قد بناها على بُعد أربعة كيلومترات شماليّ البحيرة، وعلى مقربةٍ من منابع الأردنّ، وقد أطلق عليها اسم «قيصريّة»، تيمّنًا بقيصر، وتزلّفًا له.

تلك الناحية كانت، في معظمها، وثنيّةً، ومن ثمّ بات يسوع فيها بمنأًى عن محاصرة الجموع، وعن مكائد الفرّيسيّين، وعن أيّة تطلّعاتٍ سياسيّةٍ لدى الشعب. وتوفّرت لـه فسحةٌ للخلوة بتلاميذه، ولتكثيف تثقيفهم، وإعدادهم للمرحلة القاسية الحاسمة التي غدت قريبةً.

كان التلاميذ زبدة عمل يسوع، وخيرة ثماره. ربّما لم يكونوا منزّهين من العيوب، ومن غلاظة الأذهان، وربّما لم يخلصوا بعد من آثار أوهام شعبهم، ولكنّهم كانوا يحملون بين ضلوعهم، قلوبًا طيّبةً مفعمةً إخلاصًا للمعلّم، وإيمانًا به. هذه الصفات لم تكن متوفّرةً لدى الجموع التي أَلِفت الاحتشاد حول يسوع، والتي كانت تلتمس فيه صانع المعجزات، وشافي الأمراض، ومكثّر الأَرغفة. ولا ريب أنّها كانت كِلِفةً بسماع أحاديثه عن ملكوت الله، تلتهب بجرْس صوته، وغالبًا ما يحدوها اندفاعٌ وطنيٌّ يشجبه الربّ. ولطالما كان اندفاعهم هذا نار هشيمٍ سرعان ما تهمد.

بعد سنةٍ ونصفٍ من مواكبتهم لرسالته، بات بوسع يسوع مصارحة تلاميذه بالقضيّة الأكثر دقّةً، والتي كانت الأكثر إبهامًا لهم: أي صفته المسيحانيّة. فهل كان ذلك المعلّم المحبوب، صانع المعجزات القدير، ذلك الواعظ المفوّه، المؤثّر، هو نفسه المسيح الذي توقّعه أنبياء اليهود منذ قرونٍ، أو مجرّد نبيٍّ متأخّرٍ، حاصلٍ على مواهبَ إلهيّةٍ خارقةٍ؟ هل هو أحد أبناء الله، أم ابن الله الوحيد؟ هذه التساؤلات كانت لا تني

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «من أنا؟»، صفحة ٢٧٠.

تراود أذهان التلاميذ أنفسهم، وكان تحفّظ المعلّم في البوح بحقيقة هويّته يغذّي رِيَبهم.

كان هذا التعتيم يحيّرهم، غير أنّ ثقتهم بحكمة المعلّم، كانت تحملهم على الانتظار الصبور، ريثما يميط يسوع، بنفسه، النقاب عن سرّه، في الوقت الملائم.

لقد انتهت رسالة يسوع إلى مفترق طرقٍ خطيرٍ، وحان للمعلّم، أن يبدّد كلّ إبهامٍ يغشى نفوس التلاميذ، مع كلّ ما يربطه بهم من علاقةٍ حميمةٍ، حول هويّته، ورسالته، والرسالة التي سينتدبهم لها. لقد حان له أن يقضي على رِيَبهم وحيرتهم. فهم، في بعض الأيّام، كانوا مبهورين، مفعمين يقينًا، ويقولون، في ما بينهم: «إنّه، حقًّا، ابن الله». ولكنّ بعض أقواله، وأنماط سلوكه، كانت تسرّب الشكّ إلى أذهانهم.

كانوا يزدادون به التصاقًا بقدر ما يشهدون تنكّر اليهود لـه. بيد أنّ ثقتهم فيه لم تكن منزّهةً من أحلام المجد الذي يمنّون أنفسهم بالتمتّع به، في الملكوت العتيد.

على مدى مواكبته الطويلة لهم، كان قد فتح أذهانهم، بتؤدةٍ، ورفقٍ، على أمورٍ كثيرةٍ، وحاول اجتثاث الكثير من الأوهام اليهوديّة الراسخة في عقولهم. وهنا، في هذه الديار الوثنيّة، لم يكن يخشى أن تستثير إعلاناته المسيحانيّة، أيّة تظاهراتٍ عنصريّةٍ جامحةٍ. ولا ريب أنّه كان قد أعدّهم، في أثناء خلوته معهم، لهذه الإعلانات الخطيرة. وقد تأهّب، هو نفسه، لها، باختلائه للصلاة. ولم تكن الصلاة، لـه، مجرّد اندماج كلّ فكره وإرادته، وطاقاته البشريّة، في الله، أبيه، بل كانت لـه، أيضًا، الوسيلة الأوفر قدرةً على نفوس من يبتغي خلاصهم، والارتقاء بهم، وتثبيتهم. بصلاته كان يُسبغ على ما سيُقدم عليه طابعًا إلهيًّا، ويدعو تلاميذه إلى التخشّع، قبل أن يفسح لهم فرصة البوح، بمكنونات نفوسهم.

ولكي يسهّل عليهم المهمّة، شرع باستيضاحهم عمّا يفكّر الناس فيه. لم يفعل ذلك بدافع الفضول، أو من باب الاستعلام، فقد كان يعرف كلّ شيءٍ. ولكنّه ابتغى استدراجهم إلى التعبير الصريح عن رأيهم فيه.

الناس كانوا قد شاهدوا معجزات يسوع وقدراته المنقطعة النظير، وأقرّوا أنّه يفوق البشر، ولكنّ الصورة الراسخة في أذهانهم عن المسيح، الذي يريدونه ويتطلّعون

إليه، والمختلفة عن الصورة التي رسمها النبيّ أشعيا عنه، لم تكن متوافقةً مع الناصريّ المسالم، المتواضع، ومن ثمّ، فحتّى أكثر الذين أكبروا قدراته ومعجزاته رأوا فيه إيليّا الذي كانوا يتوقّعون عودته كي يعدّ لمجيء المسيح، أو المعمدان الذي ظنّ بعضهم أنّه أفلت من براثن هيرودس، وظنّ آخرون أنّه انبعث حيًّا. وكان هذا الظنّ يراود هيرودس نفسه؛ وآخرون رأوا فيه النبيّ إرميا أو نبيًّا آخر.

وبعد أن بسط التلاميذ رأي الناس بيسوع، سألهم: «**وأنتم من تقولون إنّي هو؟**». أشهرٌ معدوداتٌ كانت تفصله عن آلامه وصلبه، التي ستبدو وكأنّها إقرار فشل رسالته. وكان لا بدّ له من معرفة مدى قدرته الاعتماد عليهم. كان عليمًا بما يعتمل في ذهن كلٍّ منهم، وفي قلبه، ولكنّه كان حريصًا على سماع اعترافهم من فمهم. وكانت لحظةً مهيبةً. طرح سؤاله هذا بعذوبةٍ ورقّةٍ، كي يحملهم على الردّ بعفويّةٍ وصراحةٍ. واستولت على التلاميذ رعشةٌ، وقد رأوا يسوع يسبر أعماق قلوبهم. واعتراهم فرحٌ ممزوجٌ بالخَفَر، واعتصموا بصمتٍ فصيحٍ ما عتّم أن حطّمه سمعان بطرس. فما من أحدٍ كان أجدر بالإجابة من ذلك المندفع، المتأجّج القلب، الذي هتف من أعماق كيانه: «**أنت المسيح ابن الله الحيّ!**». وارتسمت أَمارات البِشْر على محيّا الأحد عشر، الذين تمكّنوا، أخيرًا، من البوح، بلسان أحدهم، برؤيتهم للمعلّم، الذي أجال بصره على تلك الوجوه الحبيبة، ثمّ حدّق إلى الناطق باسمهم، وقال: «**طوبى لك، يا سمعان بريونا! لأنّه ليس اللحم والدم كشفا لك هذا، بل أبي الذي في السماوات. وأنا أقولُ لك: أنتَ صخرٌ، وعلى هذا الصخر سأبني كنيستي. وأبوابُ الجحيم لن تقوى عليها. وسأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات: فكلّ ما ربطته على الأرض يكونُ مربوطًا في السماوات، وكلُّ ما حللته على الأرض يكون محلولاً في السماوات. حينئذٍ أوصى التلاميذ بألاّ يقولوا لأحدٍ إنّه المسيح**» (متّى ١٦: ١٨–٢٠).

ما من اعترافٍ أكثر تلقائيّةً، ووضوحًا، وشمولاً، وإيجازًا، وديناميّةً. إنّه اعترافٌ بأنّ يسوع هو المسيح، أي مركز التاريخ، وفادي العالم: هذه هي مهمّته وهذه هي رسالته. ولكن بوحي الروح سما بطرس إلى أعلى من ذلك، وتجلّى إيمانه بكلّ سناه، من خلال إعلانه عن منشأ يسوع وطبيعته، وكلاهما إلهيّان: «**أنت ابن الله الحيّ!**».

قالها بوحي نعمةٍ سيطرت عليه، ونورٍ غمر نفسه، وقوّةٍ إلهيّةٍ تكلّمت بفمه. لم

يكن متأثّرًا فقط بمعجزات يسوع، بل كان شخص المعلّم قد استحوذ عليه. وكان نظره قد نفذ إلى أعماق كيانه. كان وجهه يعلن عن أكثر من إنسانٍ، وكان يحيا إلى جانبه حياة اللّه الحيّ. وكان بطرس يشتمّ فيه رائحةً أذكى من أطيب عطرٍ، رائحة الحياة. وكان يتجرّع كلماته مثل ماء نبعٍ يتدفّق بغزارةٍ. وهذا ما عبّر عنه عندما قال، في مناسبةٍ أُخرى: «**إلى من نذهب، يا ربّ؟ إنّ عندك كلام الحياة الأبديّة، فإنّا نحن قد آمنّا بك، وعرفنا أنّك قدّوس اللّه!**».

لم يكن من اليسير أن يؤمن بطرس ورفاقه بألوهة من كان يقاسمهم كلّ تفاصيل الحياة اليوميّة، فيسير، ويأكل، ويشرب، معهم، ويستسلم للكرى مثلهم. ولا ريب أنّ إعلان بطرس، اليهوديّ المؤمن بوحدانيّة اللّه، وباستحالة أن يكون له ولدٌ، أنّ يسوع هو ابن اللّه الطبيعيّ الفرد، لا واحدٌ من أبناء اللّه بالمعنى المجازيّ، ما كان ممكنًا أن ينبع إلاّ من وحيٍ إلهيٍّ سامٍ.

اللّه وحده يستطيع اقتضاء الإيمان المطلق به، ولا يسوغ أن يضع إنسانٌ إيمانه في إنسانٍ آخر له أخطاؤه، ونقائصه. وما طالب يسوع بأن يؤمن الناس، به، إلاّ لأنّه إلهٌ. ولم يكن بمكنة علمٍ أو عبقريّةٍ اكتشاف تلك الأُلوهة، بل بإلهام الروح وحده يستطيع الارتقاء إلى هذا الإيمان. والروح هو الذي ألهم بطرس، ونطق بلسانه.

مذ التحق بطرس بيسوع آمن أنّه المسيح. ثمّ، مع كرّ الأيّام، وحيالَ ما كان يشهد من آيات يسوع ومعجزاته، أدرك، هو ورفاقه الرسل أنّ معلّمهم أكثر من إنسانٍ متفوّقٍ موهوبٍ، وأنّه يعمل بقوًى إلهيّةٍ هي من صميم كيانه. وكان سؤال يسوع وما واكبه من وحي الروح، مفجّر هذا الإيمان الكامن الذي نما، مع الأيّام، في صدره: «**أنت ابن اللّه الحيّ**»، وإذن من طبيعة اللّه عينها. وفي هذا الاعتراف يكمن موجز الإيمان المسيحيّ.

وإنّنا، بعد ألفين من السنين، نكاد نلمس نبرة فرح يسوع، الذي أعلن استحالة اكتشاف هذا الإيمان على «اللحم والدم»، أي على الإنسان الأرضيّ، بكلّ أوهانه، ولا سيّما بعقله البشريّ المستسلم لقدراته وأنواره الخاصّة وحدها. اعتراف بطرس، إذن، لم يكن نتيجة تفكيره الخاصّ، ولا تعليم بشرٍ، فالالهيّ وحده يعلن الإلهيّ، والآب، وحده، يستطيع إظهار أُلوهة ابنه، الذي ارتدى جسدًا بشريًّا.

كانت صيحة بطرس كافيةً لتأسيس الكنيسة. ففي مثل زخم اعتراف بطرس، كانت إشادة يسوع ببطرس، ووعده المدهش. لقد سبق له أن أسماه «صخرًا»، وها هو ذا يفسّر هذا الاسم، ويضفي عليه بعدًا أبديًّا، إذ جعل من صخرة بطرس، حجر أساس كنيسته الدهريّة، التي تتهاوى دونها قوى الجحيم. وفي هذا السبيل زوّد زعيم رسله بسلطاتٍ فريدةٍ، رمز إليها بالمفاتيح، وبالحلّ والربط. فالكنيسة هي التي تفتح الأبواب المؤدّية إلى الله وإلى الأبديّة، ومهمّة بطرس وخلفائه، وأعوانه، هي تحطيم قيود العبوديّات التي تُخضع البشر للخطيئة، ولإبليس.

لم يقل يسوع لبطرس: أنت الزعيم، أنت الرئيس، الأوّل، السيّد، بل أنت صخر الأساس الذي يضمن متانة البنيان. فسلطة الكنيسة ليست سيطرةً، وفوقيّةً، بل هي تنبع من الإيمان، وحبّ الله. وسيدلي بطرس، لدى انتدابه لرعاية الكنيسة، بإعلان حبّه الصادق الراسخ للربّ.

ولكن، فور هذا الإعلان أوصى يسوع تلاميذه بألاّ يذيعوا، على الملأ، ما أعلنوه لتوّهم، لأنّ الشعب لم يكن، بعدُ، مؤهّبًا لهذا الإعلان. فاليهود ينتظرون مسيحًا على هواهم، لا وظيفة لـه سوى تحقيق مطامحهم المادّيّة العنصريّة، ولأنّ التلاميذ أنفسهم، الذين ما برحوا يشاركون شعبهم مطامحهم، وتطلّعاتهم إلى مسيحٍ يرفض يسوع أن يكونه، لم يكونوا قد أدركوا، بعدُ، صورة المسيح الحقّ، رسول الروح إلى «جميع الأمم». ومن ثمّ كان من شأن إعلان يسوع مسيحًا، إشعال اندفاعٍ شعبيٍّ لا طائل تحته، وإثارة ريبة السلطات، وإلهاب نقمة الزعماء الدينيّين، فيُقضى على يسوع قبل فراغه من أداء رسالته.

ولكيلا يقود جوّ التفاؤل المهيمن، التلاميذَ، إلى التوغّل في أحلام المجد الذي منّوا نفوسهم به لدى تسنّم يسوع العرش، ولكي يوقظهم من نشوتهم، ويعدّهم لصدمة الصليب الكفيلة بتحطيمهم، شرع يبسط أمامهم، ما سيتعرّض له، في أورشليم، من مهانةٍ، وآلامٍ تنتهي بالصلب المذلّ، إذ لا بدّ لطريق مجده أن يمرّ عبر الجلجلة. صحيحٌ أنّ آلام يسوع لم تكن قدَرًا محتّمًا، ولكنّها جزءٌ من المخطّط الفدائيّ الذي ارتضاه المخلّص طائعًا، وأيّده الآب.

لم ينسَ يسوع أنّ تلاميذه استصعبوا كلامه عن خبز الحياة، فكان لا بدّ من

إعدادهم لتقبّل فكرة إكليل الشوك، عوضًا عن التاج، وفكرة العارضتَيْن الخشبيّتَيْن المتصالبتَيْن، عوضًا عن العرش والصولجان.

لو باح لهم يسوع بذلك، قبل اعترافهم بألوهته، لربّما أدّى هذا البوح إلى إحباطهم، ولعجزوا عن احتمال عثرة الصليب. أمّا وقد آمنوا بأنّه ابن الله، فقد بادر إلى الإفصاح عن الحقيقة كاملةً، الحقيقة التي طالما ألمح إليها بعباراتٍ مقنّعةٍ، وإلى نصب الصليب أمام عيونهم، لكي يكونوا على بيِّنةٍ ممّا ينتظرهم. كانت عيونهم مثبتةً على شفتيه، وقلقهم يتضاعف مع كلّ كلمةٍ يخبرهم بها أنّ زعماء شعبهم سيقبضون عليه، وسيسيمونه العذاب، ويقتلونه، ولكنّه سيقوم في اليوم الثالث. كلامٌ استعصى على مداركهم.

معظم الناس يسيرون نحو مصيرهم معصّبي العينين، ولكنّ يسوع كان يقرأ مصيره، في أدقّ تفاصيله، من خلال مشيئة أبيه، ومن خلال الأنبياء، ومن خلال بغض أعدائه الذي لن ينقع غُلّه سوى موته المهين. غير أنّ التلاميذ رفضوا هذا المصير، فإيمانهم الوطيد بقدرات معلّمهم الإلهيّة، وحبّهم لشخصه، وأوهام شعبهم حول المسيح المنتظر التي كانت تراودهم، كانت تنهض حاجزًا دون قبولهم بالمصير المفجع الذي أطلعهم عليه. وفي هذه النوبة، أيضًا، كان بطرس هو لسان حالهم، وربّما بتكليفٍ منهم، انتحى بالمعلّم، وهمس مستنكرًا: «**معاذ الله، يا ربّ! ، لا، لن يكون لك هذا!**».

أمثال بطرس كُثُرٌ، لأنّهم لا يستطيعون استيعاب فكرة إلهٍ يُعذَّب، ويُذَلّ، ويُصلَب كالعبيد المجرمين. ولكنّ استنكار بطرس كان يشوبه كثيرٌ من المحبّة، ولكأنّه كان يقول ليسوع: «**لا، لا أريد أن تتألّم، وتُهان، وتُصلَب**».

إعلان يسوع عن آلامه وموته كان صفعةً على وجه التلاميذ الذين كانوا يتوقّعون للمعلّم كلّ مجدٍ، ورفعةٍ، وتكريمٍ، فشقّ عليهم «هضم» فكرة صليبه المهين، وانتفضوا عليها.

للحظاتٍ خلت، كان بطرس يتكلّم بلغة الروح، وها هو ذا يتكلّم بلغة اللحم والدم، بلغة اليهود الأرضيّين. ولذلك عنّفه المعلّم، وردّ على همسه بنبرةٍ عاليةٍ كي يسمع سائر التلاميذ الذين كانوا يشاركون بطرس موقفه، وكي يدركوا أنّ يسوع

يعنّفهم، هم، أيضًا: «**اذهب ورائي، يا شيطان! إنّك لي معثرةٌ، لأنّك لا تنظر إلى ما للّه، بل إلى ما للناس**».

هذا المقطع من الإنجيل هو أسطع دليلٍ على صدق الإنجيليّين، المنقطع النظير. فنحن لم نسمع، قطّ، يسوع يطلق صفة «إبليس» على أحدٍ، حتّى من أكثر من تعرّض لهم بالثلب والتقريع. ومع ذلك لم يحجم الإنجيليّون عن إيراد موقفه الصارم من زعيم الرسل، بلا تمويهٍ ولا توريةٍ، عندما حاول بطرس مخالفة خطط اللّه، والحياد عن درب الصليب.

كم هي موثّرةٌ براءة الإنجيليّين في نقل هذا الحدث!

ليس مسيح اللّه هو ما تمنّته الرغبة البشريّة، بل ما شاءته حكمة اللّه الأبديّة، ومن لا يؤمن بهذه الحكمة يعجز عن اكتناه سرّ اللّه المتجسّد، الذي ارتضى الألمَ والموتَ من أجل افتداء البشر.

وربّما ذكّر موقفُ بطرس يسوعَ بمراودات إبليس في الصحراء، عندما زيّن له أمجاد الدنيا، كي يصرفه عن الصليب، ولذلك دعاه شيطانًا. وبقدر ما كان قد غبطه، عندما تكلّم بوحي الروح، بنفس القدر كان ردّه على معارضته لفكرة الصليب عنيفًا، صارمًا، قاسيًا. ولكن، في الحالتين، كان حبّه له واحدًا، والرغبة في تثقيفه واحدةً.

وسرعان ما استعاد يسوع وداعته، وقد تبيّن أنّ صورة الصليب قاسيةٌ جدًّا على تلك العقول البسيطة، وأنّهم لن يدركوها إدراكًا صحيحًا كاملاً، إلاّ بعد لمسهم آثار المسامير والجروح في يديْه، وقدميْه، وأثر الحربة في جنبه. ولكنّه بات أكثر تصميمًا على ترسيخ ثقافة الصليب في أذهانهم وقلوبهم، وأذهان جميع الرسل والمؤمنين على مدى العصور: «**حينئذٍ قال يسوع لتلاميذه: «من أراد أن يتبعني فليكفُر بنفسه، ويحمل صليبه، ويتبعني. فإنّ من أراد أن يُخلّص نفسه يخسرها، وأمّا الذي يخسَرُ نفسه من أجلي فإنّه يحفظُها. ماذا ينفعُ الإنسان لو ربحَ العالَم كلّه وخسر نفسه؟ أم ماذا يُعطي الإنسانُ فداءً عن نفسه؟ فإنّ ابن البشر سوف يأتي مع ملائكته في مجد أبيه، وحينئذٍ يُجازي كلّ أحدٍ بحسب أعماله. وأقول لكم الحقّ إنّ من القائمين هنا من لا يذوقون الموت حتّى يُشاهدوا ابن البشر آتيًا في مُلكه**» (متّى ١٦: ٢٤ - ٢٨).

عباراتٌ قاطعةٌ، ومفارقاتٌ حادّة! فالخلاص مرهونٌ بالتخلّي عن كلّ شيءٍ، وخاصّةً عن الذات، أو بالموت عن الذات كما سيقول الرسول بولس، ثمّ بحمل الصليب، في كلّ لحظةٍ، واقتفاء خطى يسوع المصعّد نحو الجلجلة.(*)

لم يكن بوسع بطرس أن يكون حجر عثرةٍ ليسوع، ولكنّ يسوع كان حجر عثرةٍ للكثيرين ممّن سحرهم عطفه، وفتنتهم أقواله، وتوقّعوا منه أن يقف موقف الجبّار المنتصر، وكان لا بدّ ليسوع من تبديد كلّ لَبْسٍ، ولا سيّما عن أذهان من وطّنوا العزم على اتّباعه، فتلفّظ بتلك العبارات الجليلة، الخالدة، التي تبرز التعارض الحادّ بين الوجود الأرضيّ، والوجود السماويّ، والذي يجبر المرء على الخيار. فإن هو ابتغى اتّباع يسوع، والتمس الحياة الأبديّة معه، فلا مفرّ له من أن يزهد بالعالم، وبالحياة، وبذاته، لكي لا ينكره ابن البشر، في مجده. ثمّة مفارقةٌ لا بدّ من قبولها؛ فالصليب هو درب السعادة. والتضحيةُ بالحياة شرطٌ لخلاص النفس، ولا شيء يساوي هذا الخلاص، أو يعوّض عن هلاك النفس، حتّى امتلاك العالَم بأسره. أمّا من يستحيي بالمسيح وبصليبه، فلن يرحّب به ابن الله في ملكوته.

إنجيل الملكوت هو إنجيل ما ينبغي أن نعرفه عن يسوع، وما ينبغي أن نفعله لكي نكون له تلاميذ أوفياء. وهو الاعتراف بأنّ يسوع هو الطريق إلى الملكوت، فلا مناص من اتّباعه وفقًا لرغبته وشروطه. هذه الشروط قد تبدو شاقّةً، ولكن كم من ملايين البشر انتهجوا طريق يسوع! وكم بدا الزهد في مباهج الحياة عذبًا لمن اعتنقوا الصليب في إثر المخلّص، واثقين من أنّه سيُشرع لهم ذراعيه، في موطن مجده!

لم يخشَ يسوع صدم غريزة التعلّق بالحياة الأرضيّة، المتأصّلة في النفس البشريّة والتي تأبى الألم والموت، وأكّد أنّ ذيْنك الألم والموت ليسا ثمنًا باهظًا للحياة الأبديّة الحقّة.

هذا التعليم الذي يزدري كلّ ما يطمح إليه البشر ويشتهونه، وهذه الروحانيّة التي جعل يسوع، من ذاته، رمزًا لها، هزئ منهما الصدّوقيّون والفرّيسيّون والمنساقون في إثرهم. ولم يخفَ على الربّ أيّة سخريّةٍ ستنصبّ على من سيسيرون في إثره، ورأى، بعينيه الإلهيّتين، الجبناء الذين سيستحيون به، ولكن على من يستحيون من

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «مقتضيات يسوع»، صفحة ٢٠١.

ابن اللّه أن يذكروا اليوم الذي سيقفون، فيه، بين يديه، يومَ مجده، يومَ لن ينفع حياءٌ ولا ندَمٌ.

كان اعتراف بطرس هو قمّة الإيمان والحبّ، ومركز الإنجيل، وكان إعلان آلام يسوع وواجب اتّباعه على درب هذه الآلام الوجهَ الآخر لهذا الاعتراف.

وقد حفر يسوع في نفوس تلاميذه أسرارًا سيعطيهم روحُه مفاتيحَها.

وبدأ التلاميذ يدركون أنّ عليهم أن يؤمنوا بوعد المعلّم، وينضمّوا إلى مغامرته المجنونة. وقد هزّتهم حكمته السامية التي ستظلّ تهزّ ضمائر البشر حتّى نهاية العالم: «**ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كلّه، وخسر نفسه؟**» ولكنّ أحد التلاميذ، يهوذا الخائن، كان يردّ، في داخله: «وما نفع النفس، إن فقدنا العالم!».

ولّما لحظ يسوع الغمّ الذي غشى نفوس تلاميذه، عندما أنبأهم بآلامه وصلبه، سارع إلى شدّ عزيمتهم، وبثّ أشعّة الرجاء في قلوبهم بقوله: «**أقول لكم الحقّ إنّ من القائمين هنا من لا يذوقون الموت حتّى يشاهدوا ابن البشر آتيًا في ملكه**». وكان يشير، بذلك، إلى تجلّيه الذي سيشهده بعضٌ منهم.

التَّجَـــلِّي(*)

خيّم الوجوم على نفوس التلاميذ، في أعقاب إعلان معلّمهم عمّا سيُسام من آلامٍ ومهانةٍ، ستنتهي بصلبه، فيما هم كانوا يتوقّعون، في أعقاب إعلان بطرس أنّ يسوع هو المسيح، وابن الله، دُنُوَّ اعتلان ملكوته الباهر، ويتطلّعون إلى مواقع الشرف التي سيتبوّأونها فيه. وإذ بأحلامهم تتهاوى، ويعقب تشوّفاتهم المتألّقة واقعٌ قاتمٌ، وإذ بحديث المعلّم لا يدور إلاّ على إنكار الذات، وحمل الصليب، وسكرات الموت، في سبيل الظفر بالحياة الحقّة. ومع أنّه كان يلوّح بقيامته في اليوم الثالث، إلاّ أنّهم ما كانوا يدركون لهذه القيامة معنًى. بهذه التعاليم التي لم يكونوا قد تأهّبوا لها أُهبةً كافيةً، بلغ اضطرابُهم ذروتَه.

أولئك الجليليّون ذوو الخيال الجامح، كانوا قد رضعوا التعصّب اليهوديّ، وأوهام المسيح المحارب المظفّر من أثداء أُمّهاتهم، فثبّط تبديدُ هذه الأوهام عزائمَهم. واتّضحت للمعلّم ضرورة الشدّ من عضدهم، وإثبات صحّة اعتراف بطرس بألوهته، وإظهار نموذجٍ من أمجاده يقيهم من الانهيار التامّ عندما سيشهدون نهايته المهينة على صليب العار.

وبعد انقضاء أسبوعٍ على اعتراف بطرس، وإعلان يسوع الأوّل الصريح عن آلامه، اختار ثلاثةً منهم سيكونون، أيضًا، شهود نزاعه، لكي يملأ عيونهم بأنوار مجده، فلا تنخلع قلوبهم عندما سيشهدون آلامه وموته. وهم: بطرس الذي جعله صخرَ أساس كنيسته، وابنا زبدى: يوحنّا، نجيُّ أفكاره الحميمة الذي كان يؤثره بحبّه، ولا يرتضي منه أيّ شكٍّ أو فتورٍ، وشقيق يوحنّا يعقوب الذي لا ينفصل عنه، والذي سيكون أوّل الشاهدين ليسوع بدمهم. واصطحبهم إلى جبلٍ حيث كان يعتزم الاعتكاف للصلاة.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «التجلّي» صفحة ٢٧٦، و«تأمّلات في التجلّي»، صفحة ٢٨٢.

لم يذكر الإنجيليّون اسم ذلك الجبل، ولكن من المرجّح أنّه جبل طابور، أو أحد سفوح الحرمون.

إثر بضعة أيّامٍ من المسير الحثيث، توقّفوا عند قمّةٍ، فيما كان النهار يحتضر. وطاب للتلاميذ المنهكين من التصعيد الجاهد، تحت سماءٍ تصبّ سعيرًا، الرقاد في العراء، تحت غطاء النجوم، وتنشّق شذا الأزاهير البرّيّة الفوّاحة. وما كادوا يستلقون على الحضيض، ويستسلمون لنسمات الجبل المنعشة، حتّى غلبهم سلطان الكرى، فيما كان المعلّم الإلهيّ، على بعد خطواتٍ منهم، مستغرقًا في الصلاة.

كم كان يسوع يتحيّن لحظات السكون والنور هذه، التي تدخله إلى صميم حميميّة الآب، بعيدًا عن ضوضاء العالم والبشر! فعلى شفا الفراغ، كان يستسلم، بالكامل، إلى حضور أبيه، منعتقًا من قيود جسده.

وبغتةً استيقظ التلاميذ الثلاثة على وهج نورٍ ساطعٍ، وما إن نفضوا عن عيونهم وطأة النعاس، حتّى طالعهم مشهدٌ صاعقٌ يتعذّر وصفه، ولكأنّ حريقًا شبّ بالجبل، فساد نورٌ باهرٌ، ولكأنّ كلّ الكواكب قد حزمت أضواءها في بؤرةٍ واحدةٍ، وسكبت على الجبل تألّقها؛ ويسوع واقفٌ وسط هذا النور، ولكأنّه هو منبعه. وتنامت إلى التلاميذ أصواتٌ مبهمةٌ، يتخلّلها صوت يسوع.

يبدو الإنجيليّون يتلعثمون وهم يعبّرون عن ذلك المشهد: «**فأضاء وجهه كالشمس، وصارت ثيابه بيضاء كالنور**»، «**صارت ثيابه متألّقةً، ناصعة البياض جدًّا، حتّى لا يستطيع قصّارٌ على الأرض أن يأتي بمثل بياضها**»...

«شمس محيّاه جعلت السماء قاتمةً، وثلج ثيابه أبدى كلّ شيءٍ مدلهمًّا. ذلك اليهوديّ الفقير، في معطفه الصوفيّ الخشن، كان يشعُّ نفسَ النور الذي بهر بولس الطرسوسيّ عند مدخل دمشق، وكثيرين ممّن أوتوا رؤية إشعاع الربّ» (فرانسوا موریاك).

لم يكن النور المنبعث من يسوع آتيًا إليه من الخارج، مثل نور الله الذي كان يعكسه موسى على جبل حوريب، بل كان يشعّ من كلّ كيانه. يسوع نفسه هو منبع النور، والسنى، والمجد الإلهيّ ...

صلّى يسوع، واستجاب الآب لصلاته استجابةً مدهشةً. لم تتغيّر قسمات وجهه،

ولكنّها امتلأت نورًا وجمالاً مذهلَيْن. وكأنّ يسوع، مدى لحظاتٍ، خلع جسده البشريّ، وارتدى جسد ابن الله الممجّد.

مدى لحظاتٍ، انهار الجدار الفاصل بين عالَم الأرض وعالَم السماء.

ثياب يسوع التي تألّقت ناصعةً كالثلج، صورةٌ للمادّة، عندما ستخضع لتجدُّدٍ إلهيٍّ، وجسده المشعّ نورًا، رمزٌ لما سنصبح، يومًا. ونفسه التي يقطنها اللامحدود تعلن عن مصير الأرواح المدعوّة إلى حياة الله.

التجلّي هو أكثر معجزات يسوع إظهارًا لألوهته. فهو عندما يُخضع الأرواح، ويغفر الخطايا، ويُبرئ الأسقام، ويأمر الطبيعة، يمارس إرادته على كائناتٍ خارجيّةٍ، وعلى نحوٍ مرئيٍّ. ولكنّه، بتجلّيه، أصبح، هو نفسه المعجزة. وحينئذٍ، تغلغلت الألوهة الكامنة فيه تحت ستار جسدٍ نظير جسدنا، في جسده الواهن، وحرّرته من كلّ عتمةٍ، ووهنٍ، وموتٍ، وألبسته تألّق المجد.

ليس المدهش تجلّي مجد يسوع وسناه، مدى لحظاتٍ، بل تواريهما عن الأنظار، في جميع الأوقات الأُخرى.

وإلى جانب يسوع شاهد التلاميذُ الثلاثةُ موسى وإيليّا، «**وقد ظهرا بمجدٍ، وتحدّثا بانتقاله المزمع أن يتمّ في أورشليم**» (لوقا ٩: ٣١). ففي أورشليم سيُصلب يسوع، وسيقوم قاهرًا الموت، مثبتًا ألوهته، منهيًا العهد القديم، مستهلاًّ عهدًا جديدًا، عهد الكنيسة والمحبّة.

أعظم ممثِّلَيْن للعهد القديم، موسى الذي كان يُقال إنّه سيعلن عن مجيء المسيح، وإيليّا الذي كان يُعتقد أنّ عودته ستسبق هذا المجيء، وستمهّد له، والذي مثّله، على أرض الواقع، يوحنّا المعمدان، جاءا للشهادة. كلّ تاريخ العهد القديم جاء لينحني أمام ابن الله، ويعترف بحلول عهده الجديد، الذي سيتحقّق بصلبه وقيامته، والذي سيشمل العالم أجمع، لا شعبًا واحدًا.

التلاميذ الثلاثة الذين كانوا قد جأروا هَلَعًا لمّا رأوا يسوع يسير فوق البحر الصاخب، التزموا الصمت، وظلّوا فاغري الأفواه، دهشةً وإعجابًا، حيال تجلّي معلّمهم وإلههم، يتأمّلونه في خشوعٍ، وحبٍّ، وعبادةٍ. ومثل تلميذيْ عمّاوس، من بعد، كانت قلوبهم مضطرمةً فيهم. ولا بدْعَ إن عرض بطرس إقامة ثلاث مظالٍّ لكلٍّ

من يسوع، وموسى، وإيليّا، كي يبقوا على تلك الحال إلى الأبد. كان يتمنّى تخليد تلك اللحظات الفريدة! غير أنّ غمامةً كثيفةً ظلّلتهم، ومنها انطلق صوتٌ رهيبٌ جعلهم يعفّرون جباههم بالتراب، جزعًا وتجلّةً. وكان الصوت يقول: «**هذا هو ابني الحبيب، فله اسمعوا**».

ولكأنّ الآب يعلن أمام ممثّلي العهد القديم: إنّ الشريعة والنبوءة، الممثّلتَيْن في موسى وإيليّا، واللّتين مهّدتا للمسيح، قد انتهى دورهما بمجيئه، وانبثقَ عهدٌ جديدٌ. وأصبح ابني هو صوتي، وهو الشريعة، والمعلّم الأوحد. حسبكم، بعد الآن، الإنصات إلى مشرّع العهد الجديد، والعمل بأقواله، فهو، منذ الآن، الناطق الوحيد باسمي.

كان لا بدّ من تدخّل الآب العلنيّ من أجل إقناع التلاميذ بالإصغاء إلى ابنه، وبمواكبته على درب آلامه الخلاصيّة. ولكأنّه كان يقول لبطرس، الذي أبت نفسه المُحبّة أن يتألّم معلّمه: استمع إليه مهما قال، واتبعه حيثما قادك، وأيًّا كان الدرب!

وانحسرت الغمامة، ولم يعد الآب في حاجةٍ إلى التحدُّث من خلالها، بل أمسى يكلّم البشر بوجهٍ سافرٍ، من خلال ابنه المتجسّد.

توارى موسى وإيليّا، ولم يبقَ سوى يسوع وحده. إنّه هو الشريعة الجديدة، وهو النور الإلهيّ. على كلّ ما سبقه أن يتوارى في حضوره، فهو، وحده، يهدي البشريّة إلى الهدف الذي يبتغيه، والدرب الذي ينبغي انتهاجه. دربٌ بطوليٌّ، وهدفٌ يتخطّى أسمى طموحاتنا. وإن كان الموت هو الدرب، فنلسرْ معه، كي ندخل، معه، إلى الحياة.

وظلّ التلاميذ ساجدين، إلى أن ربّتت على أكتافهم يدٌ رقيقةٌ، فإذا بيسوع أمامهم، وحيدًا، بوجهه المألوف، ومعطفه الزريّ، يقول لهم: «**انهضوا، لا تخافوا!**».

حول هذا الحدث الجَلَل كتب جان غيتّون (Jean Guitton)(*) الأسطر الرائعة التالية:

(*) فيلسوفٌ وكاتبٌ فرنسيٌّ، ومن ألمع المفكّرين المسيحيّين في القرن العشرين. كان عضوًا في الأكادميّة الفرنسيّة (١٩٠١– ١٩٩٩).

«تاريخ اليهود يُختصر في رجلٍ يدعى موسى، يرمز إلى «الشريعة»، وآخر يدعى إيليّا، يرمز إلى «النبوءة»، أو التقليد. نبعان للتاريخ اليهوديّ، أحدهما سكونيٌّ، هو التشريع، والآخر ديناميٌّ، وهو عمل أشخاصٍ مميّزين يُدعون أنبياء. الشريعة هي المؤسّسة، والنبوءة هي الوحي، وهما لا ينفصلان. فالسكونيّ كان، في مستهلّه، ديناميًّا...

«يسوع هو موسى الجديد، فهو يصدر شريعةً جديدةً، ولكنّها ديناميّةٌ: إنّها شريعة حبٍّ، ويسوع مشرّعٌ نبويٌّ.

«وسط البروق والغمام تلقّى موسى الشريعة، وفي تجلٍّ مضيءٍ باهرٍ، ولكن رقيقٍ، ومن غير بروقٍ، أعطى يسوع الإيمان.

«التجلّي هو الحدث الأكثر كثافةً في الإنجيل، إنّه مفصلٌ في التاريخ: زمنٌ انقضى، وآخر يبدأ. ما من لحظةٍ أكثر جلالاً. إنّه تحوّلٌ كبيرٌ من الشريعة إلى الإيمان. حتّئذٍ، كان الخلاص يكمن في اتّباع شريعةٍ أصدرها الله. وأصبحت الشريعة تُختَزَل في حبّ كائنٍ فريدٍ. انتقالٌ من الجماعيّ إلى الفرديّ، من المبهم إلى المحسوس. في شخص يسوع يقترن الشمول بالفرديّة.

«لقد لحظ بطرس ولادة يومٍ سيدوم إلى الأبد. إنّه فَرِحٌ فرحَ من يعلم أنّ عهدًا انتهى وعهدًا يبدأ؛ فرح من يريد مواصلة اللحظة المميّزة: القبض على مرور الأبديّة الخاطف في الزمن. بطرس هو الحجر، البناء، التأسيس. لقد طبع يسوع في قلبه هذه الدعوة عندما أسماه صخرًا. بيد أنّ الجماعة التي يؤسّسها ستكون جماعة حجّاجٍ، سيرتاحون في المساء، لا تحت صخرة كنيسةٍ، ولكن في بيتٍ من أغصان أشجارٍ. كنيسة التاريخ تخيّم في الزمن.

«أمّا الغمامة التي تغشى يسوع وتلاميذه، فهي، في آنٍ واحدٍ، ظلٌّ ونورٌ. إنّها توفيقٌ وتأليفٌ بين الظلمات والنور، إنّها عبورٌ من العتمة إلى الضياء. ويمكن القول إنّ الغمامة ترمز إلى المزيج المبهم بين زمن السماء وزمن الأرض. حتّئذٍ كان فريق الأرضيّين الثلاثيّ (بطرس ويعقوب ويوحنّا) وفريق السماء الثلاثيّ (يسوع وموسى وإيليّا) يفصلهما ذلك الجَلَد الشفّاف الذي يفصل العالم القابع تحت القمر عن العالم القائم فوق القمر، ويفصل الأرض عن السماء؛ ولكن بعد تجلّي يسوع اتّحدت السماء بالأرض، وكانت الغمامة تكريسًا لهذه الوحدة. ومن الغمامة انطلق صوتٌ

قائلاً: «**هذا هو ابني الحبيب**». الغمامة تغطّي الابن الذي أولاه الآب كلّ سلطانٍ. ومن ثمّ فالتجلّي لا ينحصر في ثلاثةٍ محظيّين، بل يتعلّق، أيضًا، بمن يدخلون في تواصلٍ مع الكلمة».

يقول متّى: «**وفيما هم نازلون من الجبل أوصاهم يسوعُ قائلاً: «لا تُعْلِموا أحدًا بالرؤيا إلى أن يقوم ابن البشر من الأموات». فسأله التلاميذ قائلين: «فلماذا يقول الكتبة إنّ إيليّا ينبغي أن يأتي أوّلاً؟». فأجاب وقال لهم: «أجل، إنّ إيليّا يأتي ويُصلح كلّ شيءٍ. ولكن أقول لكم إنّ إيليّا قد جاء ولم يعرفوه. بل صنعوا به كلّ ما أرادوا. وكذلك ابن البشر سيَلقى منهم الآلام». حينئذٍ فهم التلاميذ أنّه إنّما كلّمهم عن يوحنّا المعمدان**» (متّى ١٧: ٩- ١٣).

ساعة حدوث التجلّي لم يفقه التلاميذ الشهود مغزاه، جيّدًا، فقد كانوا مذهولين، مبهورين، مخبولين. ولذلك أوصاهم المعلّم بألاّ يبوحوا بالأمر لأحدٍ. فإن هم لم يفهموا، فأنّى لمن لم يشهدوا أن يفهموا، ولا سيّما أنّ فكرة المسيح السياسيّ المنتصر كانت راسخةً في خلدهم، ولو هم شاهدوا ما شاهده الثلاثة المختارون لتأجّجت في نفوسهم نيران الغيرة الوطنيّة العنصريّة، ولاستحال عليهم فهم ملكوت الروح الذي جاء يسوع يؤسّسه.

مشهد التجلّي أودع في نفوس التلاميذ الثلاثة خميرة طاقةٍ، وثقةٍ، ومناعةٍ كفيلةٍ بوقايتهم من هجمات الإحباط والريبة. ولكنّ الربّ أوصاهم بالكتمان، لأنّ عطايا الله الكبرى، بسبب عظمتها، يتعذّر تصديقها، والتسليم بواقعها. وقد يكون البوح بها، قبل الأوان، انتهاكًا لقدسيّتها. إلاّ أنّها، وهي دفينةٌ في وجدان من كان عليها شاهدًا، تثبّت عزيمته، وتنير ذهنه. وقد امتثل التلاميذ لوصيّة المعلّم، فكتموا السرّ، ولكن استغلق عليهم قوله: «**إلى أن يقوم ابن البشر من بين الأموات**». ففكرة قيامة الربّ كانت بعيدةً عن أذهانهم، بقدر ما كانت بعيدةً فكرة آلامه.

وقد شاء الربّ أن يحتفظ تلاميذه بتلك الرؤية، وبتلك الأقوال كي يشهدوا بها، من بعد، أمام العالم.

شدّد التجلّي قلوب التلاميذ الشهود، ولكنّه ضاعف تساؤلاتهم. لقد شاهدوا مجد المعلّم الإلهيّ، وسمعوا تفويض الآب المطلق لـه، فعلامَ إصراره على إبقاء هذا المجد

طيّ الكتمان، وما حاجته إلى الآلام والصلب، وهو الخالق الكلّيّ القدرة؟! ثمّ ما معنى «أن يقوم ابن البشر من بين الأموات»؟ وإن كانت تلك عشيّة إعلان الملكوت، فلمَ لم يبقَ إيليّا كي يصلح كلّ شيءٍ؟ وألمح يسوعٍ إلى أنّ إيليّا قد جاء فعلاً، في شخص المعمدان، ونفّذ مهمّته. وكان المعمدان صورةً لإيليّا، في أقواله ومصيره. إيليّا اضطُهد لأنّه أغضب إيزابيل، ويوحنّا وقع ضحيّة سخط هيروديّا الفاجرة. وانتهز يسوع هذه السانحة كي يذكّر تلاميذه بأنّه كما كُتب أنّ على إيليّا أن يأتي، أوّلاً، ويصلح كلّ شيءٍ، كذلك مكتوبٌ، أيضًا، عن ابن البشر أنّه سيتألّم كثيرًا ويُرذل، قبل أن يقوم إلى مجده. ومع ذلك ظلّ عسيرًا على التلاميذ التوفيق بين ما شاهدوه من مجد جبل طابور، وإنباء يسوع بآلامه الوشيكة.

وقد يخيّل إلينا أنّ مجرّد حظوة التلاميذ بمشاهدة تجلّي الربّ كان من شأنه قلب كيانهم إلى الأبد. غير أنّ انعتاق الإنسان من أوهان بشريّته، يستلزم مسيرةً وئيدةً، طويلةً، وشاقّةً، وجهدًا ممضًّا، وفيضًا من النعم الإلهيّة.

فمشهد التجلّي ألهب لدى ابني زبدى مطامع المجد، فأعربا عن رغبتهما في تسنّم مراتب الصدارة، في الملكوت العتيد، ممّا أضرم حسد سائر الرسل، وأثار غضب المعلّم. وبطرس لم يتحرّر، فورًا، من خوفه، وتقلّبه، فأنكر الربّ ثلاثًا، وهو في أحلك ساعاته. ولن يتذكّر بطرس وجه معلّمه المتألّق إلاّ بعد أن واجهه بوجهٍ ملطّخٍ بالدم والبصاق، مكمدٍّ من جرّاء الصفعات، ثمّ بعد أن شاهده خارج القبر، مثقوب اليدين والقدمين، ومطعون الجنب. حينئذٍ انحفر مشهد تجلّيه في صميم قلبه، فكتب في خريف عمره، وفي رسالته الثانية: «**كنّا مُعاينين جلاله. فإنّه قد أخذ من الله الآب الكرامة والمجد. إذ جاءَهُ من المجد الفخيم صوتٌ يقول: «هذا هو ابني الحبيبُ، الذي به سُررت». وهذا الصوتُ قد سمعناه، نحن، آتيًا من السماء، حين كُنّا معَه في الجبل المقدّس**».

وهتف يوحنّا، بعد عقودٍ، وقلبه ما برح يخفق تأثّرًا: «**قد رأينا مجده، مجد ابنٍ وحيدٍ، آتٍ من الآب!**».

شِفَاءُ فَتًى مُصَابٍ بالصَّرَع

(مرقس ٩: ١٤-٢٩)
(لوقا ٩: ٣٧- ٤٣)

واجه المنحدرون من جبل التجلّي، حيث امتزجت السماء بالأرض، مشهدًا يتباين كلّ التباين عن سنى المجد الذي ما برح ملء عيونهم وقلوبهم، إذ شاهدوا، من بعيدٍ، حشدًا كثيفًا من الخلق يراقبون، بفضولٍ ومتعةٍ، جماعةً من الكتبة والفرّيسيّين، يهزأون بالتلاميذ التسعة الذين لم يواكبوا يسوع إلى الجبل، مستغلّين عجزهم عن شفاء فتًى مصابٍ بالصرع، وبسكنى روحٍ شرّيرٍ.

وما إن لحظ القوم يسوع عائدًا مع رسله الثلاثة، إثر غياب أيّامٍ عديدةٍ، حتّى خفّوا للسلام عليه. وكان قد تنامى إلى سمع يسوع بعضٌ من عبارات الجدل، فاستوضح حقيقة الأمر، ولكن لم يجبه أحدٌ. فالتلاميذ صمتوا، خجلاً من الفشل الذي مُنوا به، والآخرون خرسوا إجلالاً ومهابةً، إذ كانت لا تزال تتألّق حول جبين يسوع هالة نورٍ سماويٍّ.

وهتك الصمتَ السائدَ أبٌ أرهق كاهليه الغمّ، قدم يجرّ ابنه من يده، فشقّ الحشدَ، ودنا من يسوع وقال: «**يا معلّم، أسألك أن انظر إلى ولدي. إنّه وحيدي. إنّ روحًا (أبكم) يعتريه فيزعق بغتةً، ويخبطه، فيُزبد، ولا يُقلع عنه بالجهد إلاّ بعد أن يرضّضه... يأخذه في أيّ مكانٍ فيصرعه، فيزُبد، ويصرف بأسنانه، وييبس، وقد سألت تلاميذك أن يطردوه، فلم يستطيعوا**».

وتنهّد يسوع بمرارةٍ وقال: «**أيّها الجيل غيرُ المؤمن، إلى متى أكون معكم؟ إلى متى أحتملُكم؟.... إليّ به**». **فأتوه به. فحالما رأى الروح يسوع خبط الغلام فسقط على الأرض يتمرّغُ ويُزبد. فسأل أباه**: «**منذ كم من الزمان يحدُث له هذا؟**» **قال**: «**منذ طفولته. وكثيرًا ما ألقاه في النار أو الماء ليُهلكَه. ولكن إن**

استطعت شيئًا فتحنَّن علينا وأغِثنا». فقال له يسوع: «إن استطعت!... إنّ كلّ شيء مُمكنٌ للمؤمن» (مرقس ٩: ١٩-٢٣).

تنهُّدُ يسوع كان تعبيرًا عن ضيقه بالجمع المتفرّج اللامبالي، وبالكتبة والفرّيسيّين الذين ابتهجوا بإخفاق التلاميذ في شفاء الفتى، وكأنّ استمرار محنة ولدٍ مسكينٍ ووالدٍ ملوّعٍ، مدعاةٌ لسرورهم! وبالتلاميذ الذين ثبّط الفشل عزائمهم، فأخذ إيمانهم ينوس، وأخيرًا بالوالد الذي كان يخفي وراء عبارات الاحترام، ريبته، وضعف ثقته، اللّذين تجلّيا في قوله ليسوع: «**إن استطعت شيئًا...**» أهذا كلّ ما لديه من إيمانٍ، ويأتي طالبًا معجزةً! ولكن، ألم يكن فشل التلاميذ هو الذي ألقى الريبة في خَلَد الوالد المسكين؟ وأجاب يسوع بأسًى: «**لو استطعت...**» وأفهمه أنّ من يصنع المعجزات هو الإيمان، حرصًا منه على توليد الإيمان في قلبه، كي يولّد إيمانُه المعجزةَ. واعتملت النعمة في قلب الوالد، فهتف: «**إنّي أومن! فاسند ضعف إيماني**». لقد بات يؤمن بصدقٍ، ولكنّه كان يخشى ألاّ يكون إيمانه كافيًا لاستئهال شفاء ابنه، فالتمس من الربّ أن يزيده إيمانًا. وتغلّب عطف يسوع على خيبة أمله.

وعقب فعل الإيمان هذا، تحقّق للوالد كلّ ما ابتغاه، «**وإذ رأى يسوعُ الجمعَ يزدحمون انتهر الروحَ النجس قائلاً له: «أيُّها الروح الأبكم الأصمّ، أنا آمُركَ: اخرجْ منه ولا تعُد إليه من بعدُ». فصرخ الروح وخَبطَه بعُنفٍ، وخرج. فصارَ الغلامُ كالميت حتّى قال كثيرون: «إنّه قد مات». فأخذ يسوعُ بيدِهِ وأنهضه فقام**» (مرقس ٩: ٢٥-٢٧).

ترك يسوع الجمع يمجّدون قدرة الله، والكتبة يتميّزون سُخطًا وغيظًا، ووافى مع تلاميذه بيت أحدهم. وكان هؤلاء يُكبرون المعجزة، بقدر ما لمسوا عجزهم دونها. وربّما خُيّل إليهم أنّ، ثمّة، أُسلوب شفاء، لم يحسنوا، بعدُ، استخدامه، فسألوه: «**لماذا لم نقدرْ نحن أن نطرُده؟» فقال لهم: «لقلّة إيمانكم. فالحقّ أقول لكم إنّه لو كان لكم إيمانٌ بقدر حبّةٍ من خردلٍ لقلتُم لهذا الجبل: انتقلْ من هنا إلى هناك، فينتقل، ولما استحال عليكم شيءٌ. ثمّ إنّ هذا الجنسَ لا يُطردُ إلاّ بالصلاة والصوم**».

لقد حرص يسوع على تلقين تلاميذه أنّ مثل تلك الأعمال المعجزة لا تقوى عليها سوى نفوسٍ طهّرتها الصلاة والأصوام، وتغلّبت على أهواء الجسد.

فبالصلاة يتّحد الإنسان بالكائن الكلّيّ، وبالنور، والعطف، وقدرة الله. وبالصوم ينعتق من ربقة كلّ ما هو مادّةٌ، وقوّةٌ مخلوقةٌ. وبالصوم والصلاة يسمو ويقوى، ويقطع قيوده بالعالم الأرضيّ الذي يموت عنه، ويستمدّ منعته وحياته من معين العالم الإلهيّ، فيصبح أداته التي لا تُقاوَم.

لا شيء أقوى من إنسانٍ يصلّي ويصوم كما ينبغي، فإنّ له جناحَيْن أمنع من الريح، يرتقيان به فوق كلّ جاذبٍ أو عائقٍ أرضيَّيْن. «**وكلّ شيءٍ ممكنٌ للمؤمن**».

إيمان التلاميذ كان يتعاظم ويترسّخ، فالبراهين على قدرة المعلّم الإلهيّة كانت تتوفّر كلّ يومٍ. وربّما هذا ما كان يجعل تصديقهم لما ينبئهم به من آلامه الوشيكة، ومهانته، وموته، متعذّرًا. وكان لا بدّ ليسوع من الإمعان في تهيئة تلك القلوب المنتشية بمشاهد المعجزات الغزيرة، المدهشة. فدأب على التأكيد لهم، عبر إنذاراتٍ وإنباءاتٍ متكرّرةٍ، أنّ آلام ابن البشر وصلبه هي طوعيّةٌ بالكامل، بما أنّ الذي بإمكانه توقّعها، بقدرته، أيضًا، وبيُسرٍ، تحاميها. ولكنّ تلك الأقوال التي كانت ما برحت مستغلقةً على مداركهم، كانت تسرّب الحزن إلى نفوسهم، إذ إنّها كانت، في آنٍ واحدٍ، تطيح بمطامعهم الأرضيّة، وتجرح حبّهم لمعلّمهم. ولذلك كانوا يهابون أن يستوضحوه، لأنّهم كانوا يهابون أن يؤكّد لهم الحقيقة التي كانوا يأبون تصديقها. فالإنسان يهرب من الحقيقة التي تهين عقله. ولا شيء كان أبعد عن هوى التلاميذ من مسيحٍ ضحيّةٍ، متألّمٍ، مُذَلٍّ. ومع محاولات يسوع المتكرّرة لترسيخ هذه الفكرة في أذهانهم، ما انفكّوا، هم، يعلّلون أنفسهم بأمجاد ملكوته العتيد، ويتنافسون على تبوُّؤ مراتبه.

يَسُوعُ يُكمِلُ تَثقِيفَ تَلَاميذِه

جاء يسوع وصحبه كفرناحوم، حيث بات بوسعهم الفيء إلى بيتٍ هادئٍ، ربّما هو بيت بطرس، أو بيتٌ آخر وضعه متّى بتصرّفهم. وكان المعلّم يتطلّع إلى مناخ هدوءٍ ينصرف فيه، بسكونٍ، إلى إكمال تثقيف تلاميذه، بُغيَةَ تزويدهم بإرشاداتٍ سلوكيّةٍ تليق بأتباعه، مستمدًّا من الأحداث الصغيرة الطارئة، عِبَرًا ودروسًا. ويوضح الإنجيليّ مرقس أنّ يسوع «**لم يُرِد أن يدري به أحدٌ**»، لكي يتفرّغ بالكامل لمهمّته التثقيفيّة.

وتوافق وصول يسوع وصحبه إلى كفرناحوم مع مرور جباة ضريبة الدرهَمَيْن، المفروضة على كلّ رجلٍ بالغٍ، من أجل تغطية نفقات الهيكل. وأقبل الجباة على بطرس، وقالوا: «**أما يؤدّي معلّمكم الدرهَمَيْن؟**»، **قال**: «**بلى**». **ولمّا وصلَ إلى البيت ابتدرَه يسوعُ قائلاً**: «**ماذا ترى، يا سمعان، مِمَّن يأخذ ملوكُ الأرض الخراج أو الجزية، أَمِن بنيهم أم من الغرباء؟**» **قال**: «**بل من الغُرباء**». **فقال لـه يسوع**: «**فالبنونُ إذنْ أحرارٌ. ولكن، لكي لا نُريب هؤلاء الرجال، امضِ إلى البحر وألقِ الشِصَّ. وأوّل سمكةٍ تخرُج خُذْها وافتَح فاها فتجد فيه إستارًا**(*)**. فخُذه وأدِّ لهم عنّي وعنك**».

لقد استشمّ بطرس، في سؤال الجباة، مكيدةً، وأبى أن يظهر معلّمه في مظهر من يعادي الهيكل، فأبدى استعداده لأداء الضريبة.

من هذا الحدَث الذي يبدو، في ظاهره، ضئيلاً، استخلص يسوع عِبَرًا جسيمةً. فقد تسنّت لـه فرصةٌ جديدةٌ للتأكيد على أنّه ابن الملك الأزليّ، ومن ثمّ، غير خاضعٍ لضريبةٍ. فالهيكل هو بيت أبيه، ومن غير المعقول أن يؤدّي له ضريبةً، ولكن، بما أنّه ارتضى أن يلبس صورة عبدٍ، من أجل خلاص العالم، تنازل عن حقوقه الإلهيّة،

(*) الإِستار نقدٌ يساوي أربعة دراهم.

لأنّ المحبّة، عنده، كانت تتفوّق على العدل والحقوق. كذلك كان قد تناسى ألوهته عندما طلب من يوحنّا أن يعمّده، مع أنّه البراءة المطلقة، وكذلك أيضًا، خضعت أمّه لطقوس التطهّر، وهي الطهر نفسه.

فريضة الهيكل كانت تُفرَض على أفراد الشعب، ويُعفى منها معلّمو الشريعة، ولم يُطالَب بها يسوع من قبل. ولكن يبدو أنّ نظرة الجباة إليه قد تبدّلت، مع تفاقم عداوة الفرّيسيّين له. ومع ذلك، ارتضى الربّ أن يؤدّي الضريبة، درءًا لتشكيك الجباة والتلاميذ. غير أنّه أدّاها بأسلوبه الإلهيّ الخاصّ. فهو لم يألف أن يحمل ما سمّاه «پاپيني» «براز إبليس»، أي النقود، ولذلك تناول الضريبة من فم سمكةٍ، بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ، مظهرًا أنّه سيّد الخليقة كلّها، وأنّه، لو شاء، لامتلك كلّ كنوز الدنيا.

وقد أدّى يسوع الضريبة عن نفسه، وعن بطرس معًا، واضعًا زعيم تلاميذه على قدم المساواة معه، كي يوطّد مركزه، خليفةً لـه. تمييز بطرس هذا أثار، بين التلاميذ، جدَلاً حول تراتبيّة المراكز التي سيحتلّها كلٌّ منهم. ولّما عاد بطرس من مهمّته، واكتمل عقد التلاميذ، وضمّهم البيت جميعًا، استوضحهم المعلّم: «**فيمَ كنتم تتباحثون في الطريق؟** «**فأطرَقوا، لأنّهم كانوا يتباحثون في الطريق في من هو الأعظم**» (مرقس ٩: ٣٣-٣٤).

الألسن التي كانت، في الطريق، طويلةً، خرست، بعد أن هتك المعلّم أسرار الصدور. وخجلت الضمائر ممّا تردّت إليه، ومن إغفالها لأقوال المعلّم، في ما يتعلّق بصليبه. لقد تعذّر عليهم تصديق أنّ من كان على قدرةٍ فريدةٍ في إجراء المعجزات، وإنهاض الموتى، يعجز حيال موتٍ مهينٍ، ويستسلم لـه. ثمّة سرٌّ استغلق عليهم قبل الصليب، وأمسى، بعد الصليب، معثرةً للكثيرين، على حدّ قول الرسول بولس، في رسالته الأولى إلى الكورنثيّين (١: ٢٢ - ٢٤).

ولكي يلقّن تلاميذه روحانيّته، ويصرف أذهانهم عن الترّهات الأرضيّة، والتماس الأمجاد الجوفاء، استأنف يسوع القول: «**إنّ من أراد أن يكون الأوّل فليكن آخر الكلّ وخادمًا للكلّ. ثمّ أخذ ولدًا وأقامه في وَسْطهم، وضمّه بين ذراعيه، وقال لهم:** «**من قَبِل ولدًا مثل هذا من أجل اسمي، فإيّاي قَبِل، ومن قبلني فليس إيايّ يقبلُ بل الذي أرسلني**» (مرقس ٩: ٣٥- ٣٧)(*).

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «أخذ ولدًا، وأقامه في وسطهم...»، صفحة ٤٠٦، و«طفولة»، صفحة ٣٢٣.

ثمّ أضاف قائلاً: الحقّ أقول لكم: «**إن لم تتبدّلوا، ولم تصيروا مثل الأولاد، فلن تدخلوا ملكوت السماوات. فمن جعل نفسه صغيرًا مثل هذا الولد، هو الذي سيكون الأعظم في ملكوت السماوات**» (متّى ١٨: ٣-٤).

يعني يسوع بالأطفال أولئك الذين احتفظوا بالشفافيّة والنقاء، حيث كان يرى انعكاس وجهه.

مطلب يسوع يبدو تعجيزيًّا، فهو يطلب منّا، نحن الذين خبَروا الشرّ وانغمسوا في مستنقعه الآسن، وباتوا ملوَّثين بالكامل، العودة إلى صفاء طفولتنا، إلى الاستسلام الواثق، استسلام من لا يعرف الشرّ. ولكنّ الربّ يؤثر على كلّ شيءٍ هذه الطفولةَ المُكتسَبة، المتغلّبة على كلّ مخازي الحياة، تلك التربة التي عادت بكرًا، بعد أن تحرّرت، خطوةً خطوةً، من مدّ الرغبات والشهوات. هذه الطفولة هي انتصار الناضجين، في حين أنّ الطفل قد يحمل، كامنةً فيه، كلّ عناصر الشرّ التي قد يغدو ضحيّتها.

عند اليهود لا قيمة للأطفال لأنّهم لم يتلقّوا الشريعة بعد، وليسوا قادرين على ممارستها، ويسوع يرحّب بهم لأنّهم يتقبّلون الملكوت ببساطةٍ. لديه تقبّل الملكوت أجلّ شأنًا من ممارسة الشريعة. فلا الممارسات التقويّة، ولا أعمال البرّ، كافيةٌ كي توفي الله حقوقه علينا.

والفقراء، كالأطفال، ليس لديهم ما يعطونه، بل يتلقّون كلّ شيءٍ، ولذلك هم أثيرون على قلب الربّ.

في ملكوت يسوع نبلٌ، ولكنّه يناقض نبل العالم. ففيه يسمو المرء بقدر ما يتّضع، وينمو بقدر ما يتناقص، ويسود بقدر ما يخدم. الأعظم هو الأكثر تصاغرًا. وليس المجد والتكريم لمن يتبوّأ المركز الأعلى، بل لمن يأتزر ويغسل أقدام خدّامه. فالله صار بشرًا، وربّ السماء والأرض تواضع حتّى الصليب. وفي ذلك، للتلاميذ، ولجميع المؤمنين، درسٌ في التواضع منقطع النظير.

* *

كانت تلك سانحةً كي يلقّن يسوع تلاميذه أنّ شرط ولوج الملكوت، وتبوُّؤ أرفع المراتب فيه، هو أن يجعل المرء نفسه آخر الجميع، وخادمهم، وأصغرهم، معترفًا

بضآلة علمه، ووهن قوّته وإرادته، وبطلان نشاطه، وطموحه، وملذّاته، ومجده، وبالإجمال، أن يعترف بعدمه. فالله لا يعتلن إلاّ للمتواضعين، وللّذين يصرخون إليه من وهاد بؤسهم. ولكي يرسّخ هذه العقيدة في نفوس تلاميذه، أقام طفلاً وسطهم، رمزًا للصغر، والبراءة، والتواضع. كم كان حبّه للصغار كبيرًا بحيث أعلن: «**من قَبِل ولدًا مثل هذا من أجل اسمي فإيّاي قَبِل، ومن قبلني فليسَ إيّاي يَقبَلُ بل الذي أرسلني**»! (مرقس ٩: ٣٧).

ذكّر يسوع، إذن تلاميذه، أنّ من رام أن يكون الأوّل، عليه التزام المقام الأخير، وأن يكون، في قلبه، وبصدقٍ، الأصغر، وفقط بهذا الاستعداد، وبفضل إرادةٍ مصمّمةٍ على الخدمة، سيعثر على سرّ الزعامة الحقّة، المفيدة. وعلّمهم، أيضًا، أنّ كرامة السلطة المسيحيّة القصوى هي تكريس الذات، بمحبّةٍ وحنانٍ، للعناية بالأكثر ضآلةً وهشاشةً.

حدب يسوع على الصغار والضعفاء حمله على التحذير الشديد من تعثيرهم ومن التسبّب في سقوطهم، وقد أطلق تحذيره بعباراتٍ صاعقةٍ فقال: «**ومن عثّرَ أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي فحريٌّ به أن تُعلّق في عُنقه رحى حمارٍ ويُقذف في لُجّة البحر. ويلٌ للعالم من معاثره! إنّه لا بُدّ من أن تقع العثرات. ولكن ويلٌ للإنسان الذي تقعُ العثراتُ على يده!**

«فإن عثَّرتك يدُك أو رجْلُك فاقطعها وألقِها عنك بعيدًا، فخيرٌ لك أن تدخُل الحياة وأنت أقطعُ اليد والرِجْل من أن تُلقى في النار الأبديّة ولك يدان أو رجْلان. وإن عثّرتك عينُك فاقلعْها واطّرِحْها عنك بعيدًا، فخيرٌ لك أن تدخُل الحياة وأنت أعور من أن تُطرح في جهّنم النار ولك عينان. فإيّاكم، إذن، أن تحتقروا أحدًا من هؤلاء الصغار. فإنّي الحقّ أقول لكم إنّ ملائكتهم، في السماوات، يُشاهدون أبدًا وجه أبي الذي في السماوات» (متّى ١٨: ٦–١٠).

عنف يسوع المتفجّر من هذه الأقوال نابعٌ من عطفه على الضعف البشريّ، ومن رؤيته، في استغلال هذا الضعف لإهلاك النفوس، عملاً شيطانيًّا. وما أكثر أعوان إبليس، الذين يمارسون طغيانهم وقهرهم على النفوس البريئة! إنّ الطفل الذي جعل منه يسوع مثلاً حيًّا هو البشريّة كلّها، بوهنها العقليّ المتمثّل في الجهل، والأحكام المسبّقة، وبوهن إرادتها النابع من غرائزها الضاغطة، وهشاشة حياتها الناشئة من

الفقر. استغلال هذا البؤس، وازدراؤه، وصرفه عن الله، مع أنّه الخلاص الحقّ الوحيد، تلك هي المعثرة القصوى.

لقد توسّع الرسول بولس في هذا الموضوع، فبيّن أنّ من كان متنوّرًا، قويًّا، ويحقّ له فعل أيّ شيءٍ بضميرٍ مرتاحٍ، عليه الامتناع عنه، مع ذلك، إن كان من شأنه تسبيب عثرةٍ لأخٍ ضعيفٍ. فالعثرة أبلغ تأثيرًا وبيلاً، إن هي صدرت عمّن يُعَدّ معلّمًا ونموذجًا، ومثالاً، والذي لا بدّ له من العنف على ذاته، لتجنّب التعثير. وقد عبّر يسوع عن هذا الواجب، بقوّةٍ لا تضاهى، داعيًا إلى التضحية، بلا رحمةٍ ولا تردّدٍ، بكلّ غالٍ عزيزٍ: باليد، والرجل، والعين، إن هي كانت سببًا للتعثير. خيارٌ لا تساهل فيه، فإمّا تضحيةٌ وحياةٌ، أو جهنّم أبديّةٌ. ولكم أهمدت هذه الأقوال الرهيبة من تجارب وإغراءاتٍ آسرةٍ، وكم من المبادرات السخيّة كانت استجابةً لوحيها!

لم يذُدْ أحدٌ، قطّ، عن قدسيّة الكائن البريء الضعيف، وعن حقوقه، بمثل نبرة يسوعٍ التي قرنت العنف بالرقّة. ذلك الموضوع كان يفجّر، من قلب يسوع، ينابيع دفّاقةً بالعطف والحنان، وبالرأفة والحبّ. لقد كان يرى، في البشريّة كلّها، ذلك الكائن الواهن، الضالّ، الذي يتعيّن عليه مساندته وإنقاذه. وقد أوجز مهمّته بقوله «**إنّ ابن البشر قد جاء ليخلّص ما كان هالكًا**».

كم البراءة ثمينةٌ في نظر الربّ، وكم هي فظيعةٌ جريمةُ تدنيسها!

منذ قرونٍ يسمع العالَم المشكّك لعنات يسوع هذه، ولكنّه يهزأ بها، لأنّه فقد الإيمان.

في مواجهة عالَمٍ يُفسد الطفولة، ويؤلّه كلّ شهوةٍ، استنّ يسوع شريعة براءةٍ تكاد تفوق الطبيعة، وتسبغ على العفّة ونقاء القلب والجسد، قيمةً جُلّى، ولا يرضى، في ذلك، مساومةً أو تسوياتٍ، أو تخفيفًا، بل يدعو إلى التضحية القصوى، تفاديًا للعثرات.

إنّ تعثير أيّة نفسٍ جريمةٌ كبرى، فلكلّ نفسٍ، لدى راعي النفوس، قيمةٌ لا محدودةٌ، عبّر عنها الراعي الأعظم والأصلح بمَثَل راعٍ فقد خروفًا، فترك القطيع كلّه كي يمضي بحثًا عنه: «**فماذا ترون؟ إذا كان لرجُلٍ مئةُ خروفٍ، فضلّ واحدٌ منها، أفلا يَتْرُك التسعة والتسعين في الجبال ويمضي في طلب الضالّ؟ وإذا**

وجدَه، فالحقّ أقول لكم إنّه يفرَحُ به أكثر من فرحه بالتسعة والتسعين التي لم تضلّ. كذلك أبوكم الذي في السماوات يريدُ أن لا يَهلك أحدٌ من هؤلاء الصغار» (متّى ١٨ : ١٢-١٤)(*).

وأُسوةً بالراعي الصالح، واجب المؤمنين هو السعي إلى المصالحة، وردع الأخ الضالّ عن غيّه: «**إذا خطئ أخوك فاذهب إليه وعاتبه، بينك وبينه وحدكما. فإن سمع لك فقد ربحت أخاك. وإن لم يَسمعْ لك فخُذ معك واحدًا أو اثنين لكي تقوم كلُّ كلمةٍ على قول شاهدَين أو ثلاثةٍ. فإن أبى أن يَسْمع لهما فقُل للكنيسة. وإن لم يسمع حتّى للكنيسة، أيضًا، فليكن عندك كالوثنيّ والعشّار. فالحقّ أقول لكم إنّ كلّ ما ربطتم على الأرض يكون مربوطًا في السماء، وكلّ ما حللتم على الأرض يكونُ محلولاً في السماء**» (متّى ١٨ : ١٥-١٨).

وأوصى يسوع بتضامن المؤمنين، لأنّه مع كلّ جماعةٍ تنشد البرّ، ومع الأخوة المتّحدين، ولأنّ الصفح والوحدة شرطٌ لا معدى عنه كي تؤتي الصلاة ثمارها، ولكي يحضر يسوع بين المصلّين.

ثمّ روى التلميذ يوحنّا أنّه شاهد إنسانًا يشفي باسم يسوع، فمنعه، لأنّه لم يكن منضويًا إلى فريقهم. فاستنكر يسوع فعله قائلاً: «**من ليس علينا فهو معنا**». فالذي يعمل باسم يسوع يؤمن بقدراته، ولا يمكنه أن يناصبه العداء، أو أن يقول فيه سوءًا. وإن هو لم يكن من تلاميذه المعلَنين، إلاّ إنّه يسير معه. وإن هو لم يلتحق، بعد، بجماعة يسوع، إلاّ إنّه من المرجّح أن يفعل ذلك، لاحقًا. أمّا صدّه، ومنعه من فعل أمرٍ جيّدٍ في ذاته، لمجرّد أنّه خارج الفريق، فذلك يؤدّي إلى إبعاده نهائيًّا، وينافي المحبّة والعدل. لقد زعم يوحنّا ورفاقه احتكار الرسالة المسيحيّة، ولكنّ يسوع أفهمهم أنّه يرحّب بكلّ فاعل خيرٍ باسمه.

في قول يسوع: «**من ليس علينا، فهو معنا**» تأكيدٌ على انفتاح الإنجيل على الكون أجمع(**).

* *

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «عطفٌ مجنونٌ: النعجة الضالّة»، صفحة ٢٨٩.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «نفحة الروح المدهشة: من ليس علينا فهو معنا»، صفحة ٢٩٤.

وجاء دور بطرس كي يطرح سؤالاً كان يراوده. فهو مكلّفٌ بإدارة الكنيسة، وبما أنّ اللّه يصفح، فعلى الكنيسة أن تصفح باسمه، وقد وضع الرابّيّون للصفح حدودًا، لا تتجاوز ثلاث مرَّات. ولكنّ بطرس، عملاً بأمر المعلّم، يريد أن يفوق الكتبة والفرّيسيّين برًّا، فاستوضح: «**ربّ، كم مرَّةً يخطأ إليّ أخي وأغفر له؟ أَإلى سبع مرّات؟**». وقد غاب عن ذهن بطرس أنّه يستفسر نبع الغفران الذي لا ينضب، وربّ الرحمة اللامحدودة الذي أجابه: «**بل إلى سبعين مرَّةً سبع مرّات**»، أي بلا حسابٍ، وبلا نهايةٍ(*).

بذلك عنى يسوع أنّ كلّ إنسانٍ في حاجةٍ دائمةٍ إلى رحمة اللّه، ومن ثمّ عليه ألاّ يضنّ، أبدًا، بالصفح عن الآخرين، بل يمكن القول إنّ عليه أن يكون أكثر نزوعًا إلى الصفح من اللّه، لأنّه، هو، يحتاج، كلّ لحظةٍ، إلى الصفح. وأكّد يسوع، من خلال مثلٍ رائعٍ، أنّ صفح اللّه عن الإنسان، مرهونٌ بصفح الإنسان عن أخيه، فقال: «**لذلك يُشَبَّه ملكوتُ السماوات برجُلٍ ملكٍ أراد أن يُحاسب عبيدَه. فلمّا شرع في المُحاسبة قُدِّم إليه واحدٌ عليه عشرةُ آلاف وزنةٍ. وإذ لم يكُن له ما يُوفي، أمر سيّدُه أن يُباع هو وامرأته وأولادُه وكلّ ما له ويُوفى عنه. فخرَّ العبدُ على قدميْه وسجد له قائلاً: أمْهِلْني فأوفيك كلّ ما لك. فرقّ سيّدُ ذلك العبد له، وأطلقه، وترك له الدين.**

«**وما إن خرج ذلك العبدُ حتّى وجد واحدًا من رفاقه العبيد له عليه مئة دينار. فانقضّ عليه وأخذ بخناقه قائلاً: أدِّ ما عليك. فخرَّ صاحبُه على قدميه وسأله قائلاً: أمهلني فأوفيك. فلم يُردْ ومضى وطرحهُ في السجن حتّى يوفي الدين. فلمّا رأى أصحابه ما حدث استاءُوا كثيرًا وجاءُوا وأخبروا سيّدهم بكلّ ما جرى. حينئذٍ دعاه سيّده وقال له: أيّها العبدُ الشرّير، لقد تركتُ لك كلّ ذلك الدَّين لأنّك تضرّعت إليّ، أفما كان ينبغي لك، أنت أيضًا، أن ترحَمَ صاحبك كما رحمتُك أنا؟ وغضب سيّدُه ودفعه إلى الجلاّدين حتّى يوفيَ كلّ ما لهُ عليه. فهكذا أبي السماويّ يفعلُ بكم إن لم تغفروا كلُّ واحدٍ منكم لأخيه من كلّ قلبه**» (متّى ١٨ : ٢٣–٣٥).

إنّ ملكوت يسوع هو ملكوت محبّةٍ، والتعبير العمليّ عن المحبّة هو الصفح. رحمة

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «صفح بلا حساب». صفحة ٢٩١.

اللّٰه بلا حدودٍ. وعلى مثالها ينبغي أن تكون رحمتنا. وويلٌ لمن لا يرحم، لأنّه يعرّض نفسه لعدل اللّٰه ودينونته. فمن نال صفح اللّٰه، وأمسك الصفح عن أخيه، أثبت أنّه غير جديرٍ بالصفح.

ليس الصفح مطلبًا إنجيليًّا فحسب، بل هو، أيضًا، حاجةٌ روحيّةٌ ونفسيّةٌ، فالحقد سرطانٌ يلتهم النفس والأعصاب، ويُقصي عن اللّٰه.

وما من فضيلةٍ تقتضي البطولة كالصفح. فالإنسان ينزع، بفطرته، إلى الانتقام والحقد. وإذ يدعوه يسوع إلى بطولة الصفح، يذكّره بأنّ عليه التمثّل باللّٰه.

وفي هذه المناسبة، كما في مناسباتٍ أُخرى، دعا يسوع تلاميذه إلى أن يكونوا للآخرين ملحًا. الملح يحفظ من الفساد، ويُضفي على الطعام نكهةً، وإلاّ كان الطعام، بمعزلٍ عنه، تافهًا. ولكن إن تَفُه الملح، فلا شيء يصلحه. إنّه ينكّه كلّ شيء، ولا شيء ينكّهه. إنّه يبعث في اللحم الميت حياةً، ولا شيء يحييه، إن هو فسد(*).

فعلى التلاميذ أن يكونوا مشبعين بالنكهة، بقيمةٍ أدبيّةٍ وأخلاقيّةٍ ساميةٍ، هي روح الحياة البشريّة، وإن هم فقدوها، فلا شيء، ولا أحد، يصلحها. فليتزوّدوا، أبدًا، بهذه القدرة الفاعلة، الخلاصيّة، مع حرافتها اللاذعة.

هكذا، إذن، كان التلاميذ يستوضحون المعلّم ببساطةٍ، وثقةٍ، وعفويّةٍ. وكان، هو، بعذوبةٍ أخّاذةٍ، يعلّمهم، ويفسّر لهم، ويقوّم أخطاءهم، ويرتقي بهم.

لم يسمع، قطّ، الوجدان البشريّ مثل هذه الدروس، ولم يُدعَ إلى مثل تلك القمم والبطولات. فوسط عالمٍ تحكمه ضروب الكبرياء، والفرقة، والأحقاد، والشحناء، والقمع، والعنف، كان يسوع يرسّخ، في نفوس تلاميذه، أُسس الملكوت الجديد القائم على التواضع، والتراحم، والرأفة، والصفح، والسعي إلى إغاثة كلّ وهنٍ وبؤسٍ.

هذا الملكوت يستلزم روحًا غير روح البشر الفاسد. ولا عجب إن أنهى يسوع حديثه مع تلاميذه بقوله: «**فليكن فيكم ملحٌ، وليسالم بعضكم بعضًا**».

تلك كانت وصيّة يسوع الأخيرة، قبل شخوصه إلى أورشليم، حيث كان ينتظره مصيره المأسويّ.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «أنتم ملح الأرض»، صفحة ١٧٤، و«أنتم مرح الأرض»، صفحة ١٧٧.

وَداعُ مُدُنِ ضِفَافِ البُحَيرَة

سحابة نحو سنَتيْن، ما انفكّ يسوع يطوف بالمدن الجاثمة على ضفاف البحيرة، التي طالما ذرعها جيئةً وذهابًا، ناشرًا تعاليمه وآياته، ولاقى فيها الكثير من الترحيب والنجاح، ثمّ الكثير من خيبات الأمل والأحزان. ومع ذلك استمرّ ينثر فيها بذور تبشيره، ويغدق معجزاته بوفرةٍ. ذكرياتٌ عذبةٌ كانت تربطه بالشعب الجليليّ الطيّب. وكم، منها، كان عالقًا بمركب بطرس، وببيته، وبالهضاب، وبالبحيرة وضفافها، وبنجاواه مع تلاميذه! في تلك الربوع صنع أعظم معجزاته، ومنها اختار خيرة تلاميذه.

كان قد وقف كلّ قواه على خدمة مواطنيه الجليليّين. لهم فتح قلبه، وأغدق وعود الخلاص، وقدّم ذاته نورًا ومعين حياةٍ، نورًا لا يخبو، وعربون حياةٍ أبديّةٍ. ولكنّ معظمهم رفضوا عرضه، وأبوا هباته. والخطيئة بحقّ النور هي الأثقل وزرًا.

الأقوال الإلهيّة التي ألقاها في تلك الديار، والتي أيقظت أكثر آمال الخلاص طموحًا في العالم، والتي أينعت، من بعدُ، في كلّ أرجاء المسكونة، بدّدت أصداءَها تخرّصاتُ الكتبة والفرّيسيّين، ولكأنّ سكّان تلك المدن كانت لهم عيونٌ لكيلا يبصروا، وآذانٌ لكيلا يسمعوا؛ فودّعهم، وقلبه يفيض حبًّا وحزنًا:

«**حينئذ طفق يُقرّعُ المدن التي أجرى فيها أكثر مُعجزاته لأنّهم لم يتوبوا، فقال: «ويلٌ لك، يا كورزينُ! ويلٌ لك يا بيت صيدا! لأنّه لو صُنِعَ في صور وصيدون ما صُنع فيكما من المُعجزات لتابتا من قديمٍ بالمِسْح والرماد. وإنّي أقول لكم إنّ صور وصيدون ستكونان في يوم الدين أهونَ منكما مصيرًا.**

«**وأنت، يا كفرناحوم، أترتفعين حتّى السماء؟ فإنّه سيُهبط بك إلى الجحيم! لأنّه لو صُنع في سدوم ما صُنع فيك من المُعجزات لثبتتْ إلى اليوم. وإنّي لأقولُ لكم إنّ أرضَ سدوم ستكونُ في يوم الدين أهونَ منك مصيرًا**» (متّى ١١: ٢٠–٢٤).

ليس في قول يسوع لتلك المدن «الويل لك»، من اللعنة، بقدر ما فيه من الحزن على مصيرها، ومن التحذير ممّا ينتظرها من عقابٍ.

ولكن كم كان قلب الربّ مكلومًا حتّى أفلتت من لسان من هو إله الصبر، والرقّة، والرحمة، تلك العبارات القاسية! وقد خصّ كفرناحوم بالقسط الأوفى منها، لأنّه أغدق عليها من النعم أكثر من سواها، وجعل منها «مدينته». ومن المحقّق أنّه لم يكن لتلك المدن، في عدم إيمانها، أيّ عذرٍ، بعد كلّ ما سمعت، وعاينت، ونعمت به.

في مطلع رسالته، كان قد لاقى، في تلك الديار، إقبالاً حماسيًّا عارمًا، وكان القوم يحاصرونه أينما مضى، بحيث لا يَدعون له متنفّسًا، ولا فسحة راحةٍ. ولا ريب أنّه كان لتقلّب مزاج الجماهير، ولدسائس الفرّيسيّين ووسوساتهم، يدٌ في انقلاب الجموع على مخلّصها. بيد أنّ السبب الأخطر هو خيبة أمل أولئك اليهود، الذين بعد أن شاهدوا قدراته، توقّعوا أن يحرّرهم من المحتلّين، ويطلق يدهم في السيطرة على العالم، ويوفّر لهم الازدهار والثروة، فإذا به يدعوهم إلى ملكوتٍ روحيٍّ، ويطوّب الفقراء والمضطهَدين، ويدعو إلى الفقر والتجرّد، وإلى إعادة ما لقيصر لقيصر. وراحت الهوّة تتّسع بينه وبينهم. وكم أدمى قلبه أن ينذر بالويل والثبور تلك المدن التي طالما أحبّها!

بمغادرته الجليل كان قد أنهى مرحلةً هامّةً من رسالته. ففي الجليل أعلن بشارة الملكوت، وشريعته الجديدة، وأحاط نفسه بأتباعٍ أوفياء، وبتلاميذ، واختار رسله، وأرسى أُسس كنيسته، وعيّن لها رئيسًا أولاه السلطات؛ وأكّد ألوهته ومسيحانيّته، وقدّم جسده ودمه خبز حياةٍ، وارتواءً. ومع أنّ شطرًا كبيرًا من الشعب عجز أو أحجم عن فهمه والإيمان به، إلاّ أنّه كان قد أدّى مهّمة الرسالة كاملةً في الجليل، وبقي عليه أن يؤدّي مهمّة الفداء في اليهوديّة، وخاصّةً في عاصمتها أورشليم. الجليل تشرّف برؤية أعماله، وأورشليم ستكون شاهدةً على صلبه.

ويمّم يسوع شطر أورشليم التي ستكون أشدّ قسوةً وعمًى، والتي سينذرها بأدهى عقابٍ. رسالتاه في الجليل وفي أورشليم، كلتاهما، ستُمنيان بنفس الإخفاق، وستفعمان قلبه المحبّ حزنًا. وسيكون زعماء اليهود الدينيّون أشدّ تصلّبًا، وأَفظع ذنوبًا، وأكثر استحقاقًا للّعنات.

في الطَّريقِ إلىَ أورشَليم

أشهرٌ معدوداتٌ كانت تفصل يسوع عن مصيره المأسويّ. ومع ذلك انطلق نحوه بخطًى ثابتةٍ، ورباطة جأشٍ، ففي مأساته خلاص البشريّة. يقول الإنجيليّ لوقا في هذا الشأن: «**وإذ آن الأوانُ لارتفاعه من هذا العالم، ثبّت وجهه للمضيّ إلى أورشليم**».

بعد اليوم، لن يكون إطار الجليل المخضلّ الساجي هو أُفقه الطبيعيّ. وعوضًا عن الجموع الصديقة التي كانت تتراصّ من حوله، وتظفر بشفاء مرضاها، بات أعداؤه المتربّصون به هم الذين يطاردونه في كلّ مكانٍ.

هجرُه الجليل إلى اليهوديّة كان يعني تصدّيه للصراعات الكبرى التي انبرى لها بعزيمةٍ بطوليّةٍ. بات الصليب كلّ أفقه، ولكنّه كان يحمل، وحده، وِقر سرّ هذا المصير المرهق. وقد حاول، غير مرَّةٍ، إشراك تلاميذه به، ولكنّهم عجزوا عن فهمه، أو أبوا تصديقه. وربّما هم فهموا أنّ عليهم مواجهة صراعٍ شرسٍ، غير أنّ طبعهم الجليليّ المحارب، وثقتهم بقدرات معلّمهم الفائقة، كانا يُقصيان عن أذهانهم كلّ قلقٍ أو خشيةٍ، فلا يكفّون يعلّلون أنفسهم بالأمجاد التي سيؤهّلهم لها قربُهم من المعلّم، وعلاقتهم المتميّزة به.

ولذلك، حرص، أكثر من أيّ وقتٍ، على انتهاز كلّ سانحةٍ كي يكمّل تثقيفهم، ويرسّخ روحانيّته في نفوسهم، ويجلو، أمام عيونهم، صورة الملكوت الذي جاء كي يحلّه على الأرض.

وقد حفلت تلك الأشهر الأخيرة بأحداثٍ شتّى أبرزت سكون نفسه التي لا يشوبها عكرٌ، وعمق حكمته، وعذوبته الفائقة، وفي هذه الأشهر أدلى بأروع أقواله، وروى أبلغ أمثاله وقعًا في النفوس، أمثالٍ ما برحت البشريّة تتغذّى بها، وتحيا بِعِبَرها. وقد طُبِعت هذه الحقبة بدمغة الآلام، واستنارت بأنوار الصليب.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

الدرس الأوّل الذي لقّنه لتلاميذه، في هذه المرحلة، كان في السامرة حيث كان قد أنفذ نفرًا من تلاميذه لإعداد مكانٍ يستضيفهم. غير أنّ السامريّين كانوا يبادلون اليهود بغضًا مقيمًا، يعبّرون عنه بعنفٍ حيال كلّ قادمٍ من أورشليم أو قاصدٍ لها، من جرّاء ما تمثّله أورشليم من احتكارٍ صَلِفٍ للعبادة. قبل نحو سنةٍ ونصف السنة، كان يسوع قد عقد علاقات صداقةٍ مع سامريّي سيخار. ولكنّ طريقه، في هذه النوبة، كان يمرّ عبر قريةٍ أُخرى، ردّ أهلها موفدي يسوع بفظاظةٍ، ممّا أضرم نيران الغيرة والحنق لدى «ابنيْ رعد»، يعقوب ويوحنّا، فالتمسا من الربّ استنزال نار السماء كي تلتهم تلك القرية. موقف التلميذين الأخوين أغضب المعلّم، فزجرهما بقسوةٍ قائلاً: «**إنّكما لا تعلمان من أيّ روحٍ أنتما، فإنّ ابن البشر لم يأتِ ليهلك حياة الناس، بل ليخلّصها**».

كم كان ابنا زبدى بعيدَيْن عن روح يسوع، مع قربهما منه، وإقامتهما طويلاً إلى جانب أكثر المعلّمين رقّةً، ووداعةً، وحِلْمًا، وصبرًا، معلّمٍ طالما دعا إلى مواجهة الإساءة بالإحسان، وكان جلُّ همّه إغداق الأشفية، وسكب العزاء!

دَعَــوَاتٌ (*)

أجَلُ يسوع على الأرض يدنو، والوقت يداهم، فلا بدّ له من أن يبيّن لتلاميذه أيّ نمطٍ من الرسل يريد، رسلٍ متحرّرين من كلّ ارتباطٍ دنيويٍّ، جاهزين لخوض كلّ المخاطر والتضحيات، ولا همّ لهم سوى نشر بشرى الملكوت. ويذكر الإنجيليّ لوقا ثلاثة نماذج من الدعوات حرص المعلّم، من خلالها، على إظهار ما ينتظره من رسله.

الأوّل كان متطوّعًا، ويبدو أنّه كان كاتبًا، جاء مندفعًا وقال للربّ: «**أتبعك أينما مضيت**». كان مستعدًّا لتخطّي الصعاب المادّيّة والأدبيّة الناجمة عن اتّباعه ليسوع، ولكنّه، ربّما، لم يكن يتوقّع كلّ ما ينتظره منها، ويتخيّل أنّ نبيًّا بمثل سلطة يسوع لا بدّ من أن يكون له مركزٌ مُريحٌ ينطلق منه لنشر رسالته. تكلّم بلغة العاطفة العابرة، غير الواعية، التي تستهين بالصعاب ما دامت بعيدةً أو غائبةً. لم يتلقّ دعوةً، ولكنّه انبرى لها. ولم يرفض الربُّ عرضَه، ولكنّه حرص، بدءًا، على تبديد كلّ وهمٍ قد يساوره، فأجابه: «**إنّ للثعالب أوجرةً، ولطير السماء أوكارًا، وأمّا ابن البشر فليس له مكانٌ يُسند إليه رأسه**»، ولا سيّما في تلك الفترة: فالناصرة، مسقط رأسه، طردته، والجليل تجاهله، والبيت الذي أُعيره في كفرناحوم قد هجره بلا عودةٍ، وها إنّ السامرة رفضت إيواءه، وها هوذا يتأهّب لاجتياز اليهوديّة، ولا مكان يسند إليه رأسه سوى ركامٍ من ترابٍ، تحت سماء الله. إنّه ابن البشر الذي أخضع وجوده لأقسى الظروف، واختار الترحال الدائم، بلا أيّ مأوًى ثابتٍ. صاحبُ عظة الجبل هو أوّل من نفّذ محتواها بحذافيره. وعلى من يبتغي اتّباعه أن يلتزم بنهجه، ويتوقّع عيشة الفقر، والتشرّد، والتجرّد التامّ، والتضحية المستمرّة.

فكرة اتّباع معلّمٍ متشرّدٍ، لا سقف له، جمّدت قلب الكاتب المتطوّع هلَعًا، فمضى في سبيله.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «نارٌ تُطاردهم»، صفحة ٢٩٧.

الثاني دعاه يسوع، مثلما كان قد دعا متّى، قائلاً: «**اتبعني**». متّى كان قد لبّى الدعوة في الحال، بلا تحفّظٍ. أمّا هذا فاستمهل: «**ائذن لي، يا سيّدي، أن أمضي، أوّلاً، وأدفن أبي**». **فقال له يسوع**: «**دع للموتى أن يدفنوا موتاهم. وأمّا أنت، فامضِ، ونادِ بملكوت الله**».

مطلب المدعوّ يبدو مبرَّرًا، بل واجبًا مقدّسًا، وحاشى للربّ أن يدعو إلى التخلّي عن واجبات الأبناء حيال والديهم، ولكنّه ابتغى تأكيد أولويّة الواجبات الروحيّة على الواجبات الدنيويّة، ولا سيّما أنّ هذه الواجبات غالبًا ما تنقلب مراسم للتظاهر، ومجاملاتٍ اجتماعيّةً جوفاء، فقدت الكثير من معناها.

إنّ المدعوّ إلى رسالةٍ ساميةٍ، إن كان ملتزمًا بروابط الدم أكثر من التزامه بمقتضيات الرسالة، لا يمكن الركون إليه، عندما تشتدّ الحاجة إليه. ولطالما أدّى الإحجام عن عملٍ بطوليٍّ، من جرّاء ارتباطاتٍ دنيويّةٍ، إلى كوارث! فلا بأس إن أوكل المدعوُّ لرسالةٍ سماويّةٍ واجبات الأرضيّين إلى المنخرطين في مهمّاتٍ أرضيّةٍ، إذ ليس من يحلّ محلّه في التبشير بملكوت الله.

ولا مناص من الإشارة إلى أنّ أيّام يسوع على الأرض، حينئذٍ، كانت قد باتت معدودةً، وهو لن يمرّ، ثانيةً، بذلك المكان. وضرورة التبشير لم تكن تحتمل إرجاءً أو تريّثًا. يُرجّح أنّ والد المدعوّ لم يكن قد لقي حتفه بعد، بل كان يحبو نحو أجَله بتؤدةٍ، وقد تتصرّم الأسابيع والأشهر قبل أن يتسنّى لابنه أن يغمض له جفنَيْه، ويواريه الثرى، في حين أنّ ضرورة البشارة ملحّةٌ، حارقةٌ.

وهناك، أخيرًا، تفسيرٌ روحيٌّ يقول إنّ الذين يعيشون بعيدًا عن ملكوت الله، يُعَدّون أمواتًا، روحيًّا. والعودة، ولو لفترةٍ عابرةٍ إلى وسط الأموات، قد تكون وبيلةً للمدعوّ، الذي عليه المضيّ، بعزيمةٍ وثباتٍ، إلى ملكوت الحياة، عازفًا عن التلفّت إلى الوراء، لتأمّل مقبرة العالم.

على أيّة حال، أصبح جواب يسوع، لهذا المدعوّ الثاني، شعارًا لكثيرين من المكرّسين.

* *

الثالث متأرجحٌ، يودّ اتّباع يسوع، ولكنّه لم يحزم أمره بعد، وما زال راغبًا في

مهلةٍ تمكّنه من ترتيب أوضاعه، وتوديع أهل بيته. ولكنّ الوقت ضيّقٌ، لا يتّسع لمثل تلك النوافل. وقد شبّه يسوع تردّده بفلاّح يمسك المحراث بيده، ولكنّ همومًا أُخرى تجعله يتلفّت باطّراد إلى الوراء، فتأتي الأثلام التي يحفرها معوجّةً لا تصلح لزرعٍ جيّدٍ: «**إنّ من وضع يديه على المحراث، ونظر إلى الوراء، ليس بصالحٍ لملكوت الله**».

بالإجمال يقتضي يسوع من رسله انسلاخًا عن كلّ صلةٍ أرضيّةٍ من شأنها إلحاق الأذى بالرسالة، وإيلاء الرسالة الأولويّة على كلّ اهتمامٍ آخر، وجاهزيّةً تامّةً، لا عهد لها بتردُّدٍ أو تسويفٍ، وتأهّبًا لكلّ المغامرات، والتزامًا بروح الفقر المطلق.

لا يريد يسوع في خدمته، وخدمة الإنجيل، سوى رجال قلبٍ وإرادةٍ، يضحّون بكلّ شيءٍ، بدءًا بذواتهم، في سبيل قضيّة ملكوت الله السامية.

رَسَالَةُ الاْثنَين وَالسَّبْعين

الصليب شرع يلوح في الأفق، فيما قطاعاتٌ واسعةٌ من فلسطين لم تُبلَّغ، بعدُ، البشرى، والأيّام المتبقّية من وجود يسوع على الأرض معدودةٌ. فانتقى من أكثر أتباعه أهليّةً وغيرةً، اثنين وسبعين رجلاً، وأوفدهم كي يوقظوا الأذهان والقلوب على بشرى الملكوت القادم، على أن يلحق بهم، ويرسّخ تعليمهم. أرسلهم اثنين اثنين، كي يغشوا أكبر عددٍ من القرى والمدن، بعد أن زوّدهم بالتوصيات عينها التي زوّد بها الاثني عشر، عندما أوفدهم في مهّمةٍ مماثلةٍ: التجرّد المطلق، والاعتماد الكلّيّ على العناية الإلهيّة، والحكمة، والمسالمة، وبعد أن أولاهم قدراتٍ استثنائيّةً على طرد الأرواح الشرّيرة، وشفاء الأجساد والنفوس، وجعل منهم ممثّلين له: «**من سمع منكم فمنّي قد سمع، ومن نبذكم فإيّاي قد نبذ، ومن نبذني نبذ الذي أرسلني**».

لقد راهن الربّ على روحه القدّوس وحده، كي يجعل من أولئك البسطاء، الضئيلي الزاد من العلم، والحنكة، والجرأة، مبشّرين برسالته، ناطقين باسمه، عاملين بقدرته، وما كان نجاحهم سوى مقدّمةٍ لانتصاره الأعظم.

كانت مهمّة التلاميذ قصيرة الأمد، لم تتعدّ بضعة أسابيع، وقد عادوا، في إثرها، يطفرون جذلاً، قائلين: «**يا ربّ إنّ الشياطين أنفسهم يخضعون لنا باسمك**». لقد لاقوا حسن الوفادة والإصغاء، وقطفوا ثمار القدرات التي أولاهم إيّاها المعلّم، ولكنّ نجاحهم لم ينفخهم عجبًا وتيهًا، لأنّهم كانوا يعون أنّهم لا يستطيعون بأنفسهم شيئًا، وأنّهم لم يحقّقوا ما حقّقوه إلاّ بفضل اسم يسوع، ووضعوا جهود حصادهم عند قدميه، بتواضعٍ وفرحٍ.

شاركهم يسوع فرحهم، ولكنّه، خشيةً عليهم من نشوة الانتصار التي قد تؤدّي بهم إلى الكبرياء، نفحهم سببًا آخر للفرح أعمق وأبقى: «**لا تفرحوا بأنّ الأرواح**

تخضع لكم، بل افرحوا، بالحريّ، أنّ أسماءكم مكتوبةٌ في السماء». ذلك هو الفرح الذي لا يقوى شيءٌ على تعكيره، ففي السماء سيكونون في مأمنٍ من مكائد إبليس ووسوساته. وبذلك أفهمهم أنّ العمل على تقديس الآخرين عملٌ جيّدٌ، ولكنّ السعي إلى تقديس الذات أخطر وأبدى.

وكان يسوع قد واكب موفديه بقلبه وفكره، ورأى إبليس يهوي من علٍ، كالصاعقة. فقد اهتزّت مملكته، وأخذت مداميك ملكوت الله تتعالى.

كلّ هذه الأحداث غمرت قلب يسوع فرحًا، إذ رأى فيها مستقبل ملكوته الوضّاء، فخاطب أباه بعباراتٍ ساميةٍ، رائعةٍ، ما زالت عشرون قرنًا تتأمّلها بإعجاب، أوجز بها التعليم المسيحيّ، في صيغةٍ شعريّةٍ، عذبةٍ، نضرةٍ: «**في تلك الساعة تهلّل يسوع، بفعل الروح القدس، وقال**: «**أحمدك، يا أبتِ، ربّ السماء والأرض، لأنّك حجبت هذه عن الحكماء والفُهماء وكشفتها للأطفال. أجل، أيُّها الآب، إنّه هكذا حسُنَ لديك. إنّ أبي قد دفع إليّ كلّ شيءٍ، فلا أحد يعرفُ الابنَ إلاّ الآبُ، ولا أحد يعرفُ الآب إلاّ الابنُ ومن شاء الابنُ أن يكشف له**».

«**فتعالوا إليّ، يا جميع المُتعبين تحت ثقل أحمالكم وأنا أوتيكم الراحة. خُذوا نيري عليكم وتتلمذوا لي، لأنّي وديعٌ ومتواضع القلب، فتجدوا الراحة لنفوسكم. أجل، إنّ نيري ليّنٌ، وحِمْلي خفيفٌ**» (متّى ١١: ٢٥– ٣٠).

انتشى قلب يسوع فرحًا لرؤيته انبلاج فجر الملكوت. واشترك الثالوث الأقدس بتلك الفرحة.

كان المخلّص قد جهد في إنارة الحكماء، والفقهاء، ولكنّهم، لأنّهم كانوا واثقين من حكمتهم ومعرفتهم، ولم يشكّوا في عمى بصيرتهم، تركهم لعماهم، وأفاض أنواره على عميانٍ لا رغبة لديهم سوى في الإبصار.

لقد آثر الصغار، البسطاء، على علماء إسرائيل. إنّه الوحيد الذي أُعطي كلّ معرفةٍ، ومع ذلك تنازل فوضع نفسه في مستوى هؤلاء الصغار، لكي يهبهم الراحة.

النير يجمع بين اثنين يقتسمان الجهد والعناء، فتمسي وطأته أخفّ على كلٍّ منهما، ولا سيّما أنّ يسوع «**وديعٌ ومتواضع القلب**».

ويسوع طالب أتباعه بحمل الصليب، واقتفاء خطاه، ولكن، مع يسوع، حتّى وقر الصليب يصبح خفيف الوطء، عذبًا.

إنّ اللّه يردّ على كبرياء العقل بالعمى، وعلى البساطة واتّضاع القلب، باستنارةٍ رائعةٍ. وفي الآن عينه أكّد المخلّص العلاقات الفريدة القائمة بين اللّه وبينه منذ الأزل، وأعلن، بوضوحٍ تامٍّ، عن سرّ حياته وقدراته الإلهيّة، ومعرفته اللامحدودة، وتواصله مع اللّه، تواصلَ الذات مع الذات. بواسطته يعلم الصغار والمتواضعون عن اللّه ما يخفى عن المتكبّرين. فهو، وحده، يملك الأنوار الفائقة الطبيعة، وما على البشر سوى المجيء إليه، وهو يدعوهم إلى هذا المجيء بعباراتٍ تقطر عطفًا، ورقّةً، وعزاءً، لم يتلفّظ بمثلها لسانٌ بشريٌّ؛ كلماتٌ نسمع، من خلالها، نبضات قلب يسوع الأقدس، المتأثّرة والمؤثّرة؛ كلماتٌ ما زالت تحتفظ بالفتنة، وقوّة الأسر، اللّتين تُلُفِّظت بهما، وما برحت تجتذب إلى يسوع آلاف النفوس المسحوقة، المحنيّة تحت وقر أحزانها.

ذاك الذي تلفّظ بهذه الأقوال يمتلك خير وسائل معالجة البؤس البشريّ، ويدعو إليه المرهقين ليغيثهم: «**تعالوا إليّ جميعكم**». ما من إنسانٍ مستثنًى ممّا جرّته معصية آدم على ذرّيّته كلّها. وقول يسوع يشير إلى الجهد الذي يئنّ كلّ إنسانٍ تحت نيره، وإلى العبء الذي يرزح تحت وقره، والربّ يعد بتخفيفهما كليهما، وبالمساعدة على تحمّل كلّ الآلام الجسديّة والنفسيّة التي يتعرّض لها كلّ حيٍّ.

وبقوله: «**تتلمذوا لي**» يعني يسوع: تحرّروا من نير الشريعة الذي جعلته تفاسير البشر وفتاواهم مضنيًا لا يُطاق، واتبعوا وصاياي، التي، مع شدّة مقتضياتها، تجدون فيها الراحة والعزاء، لأنّني أُقاسم البشر معاناتهم وآلامهم، و«**لأنّي وديعٌ ومتواضع القلب**». هذا لا يعني أنّ يسوع يضع تلاميذه في مأمنٍ من رزايا الحياة وأوصابها، ولكنّه يهبهم سلام النفس لتحمّل الآلام بصبر الإيمان وشجاعته. فعلى حدّ قول القدّيس أوغسطينُس: «**حيث الحبّ لا تعب، وإن وُجد تعبٌ، فهو تعبٌ محبوبٌ**».

وأشاع يسوع، أخيرًا، جوًّا من التفاؤل كي يشدّ من عضد تلاميذه، ويتيح لهم تقدير سموّ رسالتهم، فأشار إلى الحظوة الفريدة التي خُصّوا بها، بالعيش إلى جانبه، وفي حميميّته، فقال: «**طوبى للعيون التي تنظُر ما أنتم ناظرون! فإنّي أقول لكم إنّ كثيرًا من الأنبياء، وكثيرًا من الملوك ودُّوا أن يروا ما أنتم ترون ولم يروا، وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا**» (لوقا١٠: ٢٣-٢٤).

فحتّى لو ازدراهم الفرّيسيّون، فلتخفق قلوبهم فرحًا، فهم محظيّو اللّه!

عِيدُ المظالِّ في أورشَليم : نوُرُ الحيَاة

عيد المظالّ هو أكثر أعياد اليهود بهجةً وصخَبًا. يُحتفل به في نهاية الصيف بعد جمع الغلال، وقطاف ثمار الكروم. وكان يُفرض، فيه، على كلّ يهوديٍّ سليم الجسم، باستثناء المرضى والنساء والأطفال، أن يقضي أسبوعًا خارج بيته، في مأوًى مؤقّتٍ، تحت خيمةٍ أو كوخٍ من أغصان شجرٍ، بحيث كانت أورشليم، تتحوّل، في تلك المناسبة، إلى غابةٍ من الخِيَم والأكواخ. وكان ذلك العيد يجتذب إلى أورشليم سيلاً من الحجّاج، ولا سيّما من يهود الشتات، إذ كان ذلك الموعد من السنة هو الأكثر ملاءمةً للسفر برًّا وبحرًا. وكان هذا العيد، ببهارجه، يطغى على جميع الأعياد الطقسيّة ويُعدّ عيد الأعياد، العيد المتميّز. ورأى المدعوّون «إخوة» يسوع، في تلك المناسبة، ما يخدم مآربهم، فألحّوا في حمله على الشخوص إلى أورشليم، مع علمهم بأنّ زعماء اليهود يتربّصون به هناك للقضاء عليه. وكانت حجّتهم أنّه من الحرام أن تظلّ قدراته الخارقة ومعجزاته الباهرة، محصورةً في الجليل، بين قومٍ فقراء بسطاء، في حين أنّ تجلّيها في أورشليم، العاصمة، وأمام حشود الحجّاج، وكبار المعلّمين، سيكون له دويٌّ يطبّق الآفاق، ويُكسبه شهرةً بلا حدودٍ. ولكنّهم، في دخيلة نفوسهم، كانوا يفكّرون أنّه، إن وقع يسوع ضحيّة أعدائه، ولقي حتفه، لآرتاحوا منه، فحسدهم له كان يلتهم قلوبهم؛ وإن هو أصاب نجاحًا وشهرةً لوظّفوها لحسابهم ومنفعتهم. واخترق يسوع خبث نواياهم، فذكّرهم بأنّ العالم يبغضه، لأنّه، هو، يندّد بمعاصيه، ولكنّه لا يبغضهم لأنّهم يصانعونه، ويقاسمونه حقارته؛ فليصعدوا هم إلى أورشليم، حيث لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ أمّا هو فلن يصعد، أقلّه تلبيةً لرغباتهم، إذ إنّ ساعته لم تَحِنْ بعد.

وكان يسوع حريصًا على ألاّ يسبقه نبأ صعوده إلى أورشليم، لكيلا ينصب له السنهدريّون شباكًا، ويوغروا عليه صدور الشعب قبل وصوله.

تريّث، إذن، بضعة أيّامٍ، ثمّ صعد متخفّيًا، وسط الجماهير الغفيرة، والفوضى

العارمة، وانتهى إلى أورشليم في منتصف أسبوع العيد. ولكنّ محاولة تخفّيه لم تصمد طويلاً. فذكرُه جارٍ على كلّ لسانٍ، والجميع يترقّبونه، ويبحثون عنه. بعضهم ناقمون عليه، من جرّاء تأثّرهم بحكم الفرّيسيّين الذين أدانوا شفاءه مخلّعًا، في يوم سبتٍ. فإبراء مخلّع بيت حسدا، لبضعة أشهرٍ خلت، كان ما برح ماثلاً في الأذهان. وبعضهم توّاقون إلى رؤيته، والتبرّك به، وسماع أقواله الإلهيّة، لأنّهم رأوا فيه مرسل السماء. ولكنّهم كانوا يتهيّبون الإفصاح عن مشاعرهم، خشيةً من الزعماء الدينيّين الذين كانوا يناصبونه عداءً سافرًا، ويُرهبون الضمائر.

وإذا بيسوع يظهر في أروقة الهيكل، في يوم العيد الرابع، ويطفق يعلّم، وتصغي إليه الجموع، في صمتٍ وتجلّةٍ، ويدهَش حتّى خصومه من سموّ تعاليمه، وسعة معارفه: «**فكان اليهود يتعجّبون ويقولون: «كيف له كلّ هذا العلم وهو لم يتعلّم!» فأجابهم يسوع وقال: «إنّ تعليمي ليس من عندي بل من عند الذي أرسلني. ومن يعمل بمشيئة الله يعرف هل هذا التعليم هو من عند الله أو أنا أتكلّم من عند نفسي. إنّ من يتكلّم من عند نفسه يطلبُ المجد لنفسه، وأمّا من يطلب مجد الذي أرسله فهو صادقٌ ولا التواء فيه. أوَ لم يُعطِكُم موسى الشريعة؟ ومع ذلك ما من أحدٍ منكم يعمل بالشريعة! لماذا تطلبون قتلي؟**»».

فأجاب الجمعُ وقالوا: «إنّك بك شيطان! من يطلُبُ قتلك؟» فأجاب يسوع وقال لهم: «ما عَمِلتُ سوى عملٍ واحدٍ فتعجّبتُم بأجمعكم. موسى سنّ لكم الختان – وما كان من موسى بل من الآباء – فتمارسونه في السبت. فلئن كان الإنسانُ يُختنُ في السبت لئلاّ تُخالف شريعة موسى أفتسخطونَ عليّ لأنّي أبرأتُ إنسانًا بجُملته في السبت؟ لا تحكُموا بحسب الظواهر بل احكُموا بمقتضى العدل» (يوحنّا ٧: ١٥–٢٤).

منطق يسوع مُحكَمٌ مُفحِمٌ. هم يدّعون الإخلاص لشريعة موسى التي حرّمت القتل، وزعماؤهم وطّنوا العزم على قتله، في أعقاب شفائه مخلّع بيت حسدا، بحجّة مخالفته سنّة السبت، مع أنّهم يخرقون فريضة السبت باطّراد، لأسبابٍ أوهى من شفاء عليلٍ يائسٍ تمادى سقمه ثمانيةً وثلاثين عامًا. فلا يتحرّجون، مثلاً، من ختان صبيٍّ يوم السبت، مبرّرين عملهم بالقول: «الختان يطرد السبت». أوَ ليس شفاء عليلٍ بائسٍ أحرى بطرد السبت من الختان؟ أوَ ليست شريعة المحبّة فوق فريضة السبت؟

عندما قال: «**لماذا تطلبون قتلي؟**» لم يُدرك الغرباء، غير المطّلعين، مرماه، فظنّوا أنّه يهذي، ويفتري على علماء الشريعة. واغتاظ زعماء اليهود لآفتضاح أمرهم، فاتّهموه، في محاولةٍ تمويهيّةٍ، أنّ به شيطانًا. أمّا الأورشليميّون العليمون بنوايا زعمائهم الناقمين، فدهشوا لعدم انقضاضهم عليه، ولإفساحهم له فرصة التعليم والتنديد بهم، فتساءلوا: «**أليس هذا هو الذي يطلبون قتله؟ ها هو يتكلّم جهارًا ولا يقولون له شيئًا. ألعلّه تبيَّنَ حقًّا لرؤسائنا أنّه المسيح؟ ولكن هذا نعرِفُ من أين هو، وأمّا المسيحُ فإذا جاءَ لا يعرفُ أحدٌ من أين هو**». **فصاح يسوعُ وهو يعلّمُ في الهيكل قائلاً**: «**أنتم تعرفونني إذن! وتعرفون، إذن، من أين أنا! مع أنّي لم آتِ من نفسي. والذي أرسلني هو حقٌّ وأنتم لاتعرفونه. وأمّا أنا فأعرفه لأنّي من عنده أتيتُ وهو الذي أرسلني**». **فأرادوا أن يُمسكوه، ولكن لم يُلْقِ أحدٌ عليه يدًا لأنّ ساعته لم تكُنْ قد حانت بعدُ. غير أنّه آمن به من الجَمْع كثيرون، وكانوا يقولون**: «**ألعلّ المسيحَ، متى جاء، يأتي بآياتٍ أكثر ممّا أتى به هذا؟**» **وسمع الفرّيسيّون بكُلّ ما كان يتهامسُ به الجمعُ في شأنه. فأرسل رؤساء الكهنة والفرّيسيّون نفرًا من الحرس للقبض عليه** (يوحنّا ٧: ٢٦-٣٢).

آخرون كانوا ينزعون إلى الإيمان به، ولكنّ العائق دون إيمانهم الكامل كان تفسيرهم الخاطئ للنبوءات. فقد لُقّنوا أنّ المسيح لا أحد يعلم من أين يأتي، وهم يزعمون معرفة والدَي يسوع، وذوي قرباه، وحرفته، ومسقط رأسه، مع جهلهم لأبيه الحقّ، ومنشئه الإلهيّ. فحرص على تبديد أوهامهم، وإعلان هويّته، ومشاركته الآب في الجوهر.

بعضهم رأوا في قوله تجديفًا، فحاولوا الانقضاض عليه، ولكنّ يد أبيه كانت تقيه من الأذى إلى أن تحين ساعته. وآخرون نزلت أقواله على قلوبهم نورًا ونعمةً، وأيقنوا أنّ المسيح المنتظر لم يكن ليفعل أعظم ممّا فعل هو. وتنامت هذه الأقوال إلى سمع الفرّيسيّين، فاستشاطوا حنقًا، وما عادوا يطيقون على تأثيره في الشعب صبرًا، فتواطأوا مع رؤساء الكهنة، وأنفذوا نفرًا من الحرس للقبض عليه.

وأطلق يسوع إنذارًا ينطوي على نبوءةٍ، فقال: «**أنا معكم زَمَنًا يسيرًا، بعدُ، ثمّ أمضي إلى الذي أرسلني. وستطلبونَني ولا تجدُونَني لأنّي حيث أكون أنا لا تستطيعون أنتم أن تأتوا**». **فقال اليهودُ في ما بينهم**: «**إلى أين يمضي حتّى لا**

نجدَه. ألعلّه يمضي إلى المُشَتّتين بين اليونانيّين، ويُعلِّمُ اليونانيّين؟ ماذا يعني بقوله: ستطلُبونني ولا تجدونني، وحيث أكون أنا لا تستطيعون أنتم أن تأتوا؟» (يوحنّا ٧: ٣٣-٣٦).

كان يسوع يلمّح إلى أنّهم سيقتلونه، قريبًا، ثمّ عندما ستنقضّ عليهم الكوارث، سيبحثون عنه، علّه يدرأ عنهم قدَرًا رهيبًا، ولكنّه سيكون بمنأًى عنهم. أمّا هم فظنّوا أنّه سيفرّ إلى ديار اليونانيّين كي يأمن شرّ بني قومه، أو أنّه سينضمّ إلى الوثنيّين كي يعلّمهم. وبالفعل سينتشر إنجيله بين الأمم الوثنيّة قبل انتشاره بين مواطنيه.

غريبٌ أمر اليهود: يخطّطون لقتل مسيحهم، ولكنّهم يعارضون ذهابه إلى الغرباء!

* *

في اليوم الثامن من عيد المظالّ كانت الاحتفالات تبلغ ذروتها، فتبدأ بتطوافٍ حاشدٍ ينطلق من الهيكل إلى بركة سلوام، حيث يملأ رئيس الكهنة، بدلوه، إناءً ذهبيًّا، ماءً، ويعود فيرشّه على الهيكل، على وقع الأبواق، والتراتيل الحماسيّة، والحبور الطافح، وكان ذلك استذكارًا لتفجّر الماء من الصخر في الصحراء، والتماسًا لخصب الأرض ووفرة الغلال، قبل موسم البذار. ومَن أحقّ بالاحتفال بالماء من شعبٍ تحرق الشمس أرضه، مدى نصف السنة!

و جريًا على عادته، انتهز يسوع هذه المناسبة كي يحلّق إلى اعتباراتٍ ساميةٍ. كان، من قبل، قد أعلن أنّه إنّما جاء كي يرتقي بالشريعة إلى كمالها، وها هوذا يوحي بأنّه هو الجوهر، وأنّ كلّ الطقوس إن هي إلاّ انعكاسٌ باهتٌ لـه. الاحتفال بالماء هو احتفالٌ به، لأنّه هو الماء الحيّ، كما سبق فأعلن للسامريّة. وهو وحده يروي عطشنا إلى اللانهائيّ. وفيما كان الكاهن يرشّ الهيكل بالماء، هتف يسوع بصوتٍ جهوريٍّ: «**من كان عطشان، فليأتِ إليّ، ومن آمن بي، فإنّه، كما قال الكتاب، ستجري من جوفه أنهار ماءٍ حيٍّ**» (يوحنّا ٧: ٣٧-٣٨).

كان الماء رمزًا للبركات الروحيّة. ويسوع أعلن أنّه ماء الحياة للنفوس العطشى. لم يقل تعالوا إلى ينابيع الماء، بل قال هلمّوا إليّ، لأنّه، هو، الشراب الحقّ، الشراب القدسيّ، الكفيل، وحده، بإرواء عطش البشر الروحيّ. وللارتواء من ذلك الماء العذب المحيي، الذي لا ينضب، يكفي التقرّب منه بإيمانٍ وحبٍّ. ومن يشرب منه

يغدو، هو نفسه، نبعًا دفّاقًا. وسيتمّ ذلك بعمل الروح القدس الذي يغمر نفس كلّ من يؤمن بيسوع. «**قال هذا عن الروح الذي سيقبَلُه المؤمنون به، فإنّ الروح لم يكن قد أُعطي بعدُ لأنّ يسوعَ لم يكُن قد مُجِّد بعد**» (يوحنّا ٧: ٣٩).

كان سمعان الشيخ قد تنبّأ عن يسوع بقوله إنّه «**قد جُعل لسقوط كثيرين في إسرائيل أو نهوضهم، وليكون آية مقاومةٍ**». وقد شقّت أقواله الجموع إلى مؤيّدين متحمّسين، ومعارضين حسيري البصيرة، وقد وصف الإنجيليّ يوحنّا الموقفَ ببراعةٍ: «**فلمّا سمع بعضُ الجمع هذا الكلام قالوا: «إنّه النبيّ حقًّا». وقال آخرون: «إنّه المسيح». وعارض آخرون قائلين: «أمن الجليل يأتي المسيح؟ ألم يقُل الكتابُ إنّه من نسل داود ومن بيت لحم قرية داود يأتي المسيح؟»**. **فوقع في الجمع خلافٌ فيه. وأراد بعضُهم إلقاء القبض عليه، ولكنّ أحدًا لم يُلقِ عليه يدًا**» (يوحنّا ٧: ٤٠ – ٤٤).

الحرَس أنفسهم المكلّفون بالقبض عليه وقفوا مذهولين أمام سلطانه الروحيّ، فأحجموا عن مهمّتهم؛ فقد كان، دائمًا، رائعًا، وكأنّ جمالاً وقوّةً سماويّيْن كانا ينسكبان عليه، كلّما أخذ يعلّم. وإذ أنّبهم أسيادهم، برّروا إحجامهم عن تنفيذ مهمّتهم ببساطةٍ وصدقٍ مدهشَيْن، معترفين: «**إنّه ما تكلّم، قطّ، إنسانٌ مثل هذا الإنسان!**». فأجابهم رؤساء الكهنة بسخريّةٍ تقطر لؤمًا وعنجهيّةً: «**أفتكونون، أنتم، أيضًا، قد ضُلّلتم؟ أمن أحدٍ من الرؤساء أو من الفرّيسيّين آمن به؟ فكلّ ما هنالك جماعةٌ من الرعاع لا يعرفون الشريعة!**». هكذا كانوا يحكمون على كلّ من لا يلتزم بتعاليمهم، ويخالفهم الرأي، حتّى من يهتدي بهدي النعمة، وبصوت الله الهامس في قلبه.

كان الزعماء الدينيّون يمعنون في ازدراء عامّة الشعب، ويعدّونهم عديمي التقوى بل عديمي النفس، وينظرون إليهم نظرتهم إلى حشراتٍ، ويسمّونهم «شعب الأرض»، في حين كانوا يدعون أنفسهم «شعب الله». أمّا يسوع فكان يؤثر بحبّه أولئك البسطاء المتواضعين، فيبادلونه الحبّ بالإيمان.

وتجرّأ الفرّيسيّ الوجيه نيقودمس، الذي سبق له أن أجرى مع يسوع حوارًا ليليًّا، سرّيًّا، عميقًا، ومستفيضًا، فذكّر الرؤساء بأنّ الشريعة لا تسمح بالحكم على إنسانٍ قبل أن تسمع اعترافه، وتتحقّق ممّا فعل. فأجابوه، كما أجابوا الحرس، بسخريّةٍ

صَلِفةٍ: «**أفتكون، أنتَ، أيضًا، من الجليل؟ ابحث فترى أنّه لم يقم نبيٌّ من الجليل**». حسْبُ يسوع أن يكون من الجليل كي يُدان إدانةً مبرمةً!

ردُّ زعماء اليهود المتوتّر على الحرس، وعلى زميلهم نيقودمس، يفضح مدى اضطرابهم وقلقهم حيال ظاهرة يسوع، وعمق حنقهم عليه.

ويقول يوحنّا: «**ثمّ انصرفوا كلّ واحدٍ إلى بيته، أمّا يسوع فمضى إلى جبل الزيتون**». فيسوع، وحده، لم يكن له بيتٌ!

* *

وانتهز يسوع مناسبةً أُخرى من طقوس العيد كي يسفر عن هويّته الإلهيّة، إذ كان الكهنة، عند هبوط الليل، يشعلون مصابيحَ ضخمةً، ويعلّقونها عاليًا حتّى تغمر بأنوارها الساطعة أورشليم كلّها. وفي الأثر كان الشعب يشعل مصابيح كثيرةً، من كلّ لونٍ، ويجلس اللاويّون على الأدراج، فيما ينصرف الزعماء والعلماء إلى الرقص، حاملين المشاعل، ومتنافسين على الرقص أطول وقتٍ ممكنٍ، على وقع آلات الطرب، والترانيم التي ينشدها اللاويّون، ويردّدها الشعب، فتُسمَع حتّى في أريحا. وكان يُقال: «من لم يشهد هذه الاحتفالات، لم يرَ شيئًا».

وفي ليلة العيد الأخيرة، تحت الأنوار الباهرة، خاطب يسوع الجموع، متوجّهًا، خاصّةً، إلى الفرّيسيّين والزعماء الدينيّين، مستخدمًا عباراتٍ أشدّ تأكيدًا وصراحةً، حول هويّته، وطبيعته، ودوره، فقال: «**أنا نورُ العالم. فمن تبعني لا يمشي في الظلام، بل يكون له النور الذي يقود إلى الحياة**». وهم رفضوا شهادته مدّعين: «**أنت تشهد لنفسك فشهادتك لا تقوم**». ولكنّه ذكّرهم بأنّ أباه يشهد له ومعه، وشهادة اثنين، مثل يسوع وأبيه، لا يرقى إليها شكّ: «**إنّي وإنْ كنت أشهدُ لنفسي فشهادتي تقومُ لأنّي أعلمُ من أين جئت وإلى أين أذهب. وأمّا أنتم فلا تعلمون من أين جئت وإلى أين أذهب. أنتم تحْكُمون بحسب الجسد. وأمّا أنا فلا أحكُمُ على أحدٍ. وإذا حكمتُ فحكمي منطبقٌ على الحقيقة لأنّي لستُ وحدي، بل أنا والذي أرسلني. أوَ لم يُكتَب في شريعتكم أنّ شهادة شاهدَيْن صحيحةٌ؟ فأنا أشهد لنفسي، والآب الذي أرسلني يشهدُ لي، هو أيضًا**». وخيّل إليهم أنّه يسخر منهم، وأنّه يتكلّم عمّن يظنّ الناس أنّه أبوه، أي يوسف النجّار

الذي رُمّت عظامه، فقالوا لـه: «**أبوك، أين هو؟**». **أجاب يسوع**: «**إنّكم لا تعرفوني ولا تعرفون أبي. فلو عرفتُموني لعرفتُم أبي أيضًا**» (يوحنّا ٨: ١٢–١٩).

الأنوار الساطعة كانت رمزًا إلى عمود النار الذي كان يضيء اليهود في الليل، وإلى المسيح الذي سيضيء لشعبه نورًا يغشى العالم، مثلما كان يرمز إلى مجد الله الحاضر في الهيكل. وكان يسوع قد وصف نفسه بأنّه الهيكل، وها هوذا يعلن أنّه مجد الهيكل ونوره، وأكثر لزومًا لحياة النفوس من نور الشمس لحياة الأجساد.

في جميع النبوءات، النور المضيء هو صفة المسيح. لمّا حمل سمعانُ الشيخُ يسوعَ الطفل بين يديه، وصفه بأنّه «**نورٌ لهداية الأمم**». وها إنّ يسوع نفسه يعلن «**أنا نور العالم فمن يتبعني لا يمشي في الظلام، بل يكون له النور الذي يقود إلى الحياة**».

إنّه النور الحقّ، نور العقول والقلوب، لأنّه، وحده، يعيد العلاقة ويوثّقها بين الله والبشر. وإزاء هذا النور لم تكن شمعدانات الهيكل سوى بصيصٍ باهتٍ.

وحده يسوع يستطيع أن يقول: «**أنا نور العالم**»، لأنّه، وحده، بين البشر، إلهٌ، وهو، وحده، يستطيع أن يغيّر وجه العالم بنور الحبّ. ولكنّ هذا النور ظلمةٌ لمن ينكر الحبّ، لأنّه لا يضيء سوى القلوب والأذهان المنفتحة. ولكنّه نورٌ حميمٌ عذبٌ يحوّل ويؤلّه، من الداخل، كلّ من يعترف، بتواضعٍ، أنّه مدينٌ بكلّ شيءٍ لله.

يسوع هو النور الذي يهدي البشريّة وسط الظلمات المحيقة، ويرشدها إلى الله الذي ينتظرها في ملكوته، وينير دربها إليه. والنور الذي يعد به يسوع من يسيرون في إثره ليس عِلمًا ميتًا، مجرّدًا، عقيمًا. بل هو ضوءٌ حيٌّ، وخصبٌ يغمر النفس التي وثّق الإيمان صلتها بالله. وهو ليس حكرًا على شعبٍ مميّزٍ، بل هو إرثٌ مباحٌ لكلّ من يؤمن ويحبّ. لا ينير ما هو عابرٌ، بل يؤهّل لرؤية ما هو أبديٌّ. كلّ نورٍ آخر، بالقياس إلى هذا النور، هو ظلامٌ. من ينعم به يحيا في ضياء الحياة، ومن يفقده يعيش في العدم وظلال الموت.

إنّ الذي أعلن في الجليل عظة الجبل، أعلن في أورشليم: «**أنا نور الحياة**».

غير أنّ هناك من يبغضون النور، ويؤثرون الظلمة. ذلك كان شأن الفرّيسيّين

المفعمين حقدًا على يسوع، والذين دحضوا شهادته لنفسه؛ فكانوا كمن يطالب بإثبات أنّ الشمس مشرقةٌ، وهي ساطعةٌ في كبد السماء.

أرسل اللّه ابنه نورًا، لا لكي يُوارى تحت مكيال، بل لكي يوضع على منارةٍ، فينير كلّ إنسانٍ قادمٍ إلى العالم. فلمَ لم يرَ العالم هذا النور؟ لأنّه لا يكفي أن يتألّق النور، بل يجب أن تكون العيون سليمةً كي تراه. فإن هي كانت كذلك، لنعِم الجسد كلّه بالنور، وإن كانت عليلةً، لظنّ الإنسان نفسه في ظلامٍ. هكذا كانت حالة الفرّيسيّين المعادين للنور، فأظهر لهم يسوع سبب عماهم. كانوا يظنّون أنّ النور مرتكزٌ فيهم، فأغمضوا عيونهم عن النور الحقّ، وأقاموا في العتمة.

يسوع نورٌ، ولكنّه لا يضيء إلاّ الراغبين فيه، المحدّقين إليه. إنّه نورٌ يتألّق بقدر ما يتجرّد الإنسان من كلّ علمٍ زائفٍ، ويعرّض نفسه لأشعّته المنعشة. ولكنّه نورٌ يتوارى عن المتكبّرين. وكان يسوع نفسه قد قال: «**سراج الجسد العين. فإن كانت عينُك صحيحةً كان جسدُك كلُّه في النور. ولكن إن كانت عينُك عليلةً فجسدُك كلُّه يكون في الظلام. وإن كان النور الذي فيك ظلامًا، فيا له من ظلامٍ!**» (متّى ٦: ٢٢ – ٢٣). وقال أيضًا: «**وأمّا الدينونة فهي أنّ النُّور قد جاءَ إلى العالم، وأنّ الناس آثروا الظلمة على النور لأنّ أعمالهم كانت سيّئةً. ذلك بأنّ من يعمل السوء يُبغض النور، ولا يأتي البتّة إلى النور لئلاّ تفتضح أعماله. وأمّا الذي يعمل في الحقّ، فإنّه يُقبل إلى النور لتظهر أعماله لأنّها في اللّه قد عُملت**» (يوحنّا ٣: ١٩–٢١).

تلاميذ يسوع فتحوا عيونهم على النور، فباتوا، بدورهم، للعالَم نورًا، وقال لهم المعلّم: «**هكذا، فليضئ نوركم قدّام الناس، ليروا أعمالكم الحسنة، ويمجّدوا أباكم الذي في السماوات**» (متّى ٥: ١٦).

* *

لقد ختم اللّه بطابع المعجزات رسالة ابنه، ولكنّ زعماء اليهود أبوا تصديق المعجزات، فاستغلق عليهم منشؤه الإلهيّ. وكان الحريّ بهم أن يأخذوا بالحسبان شهادته بنفسه، وشهادة أبيه له، من خلال أعماله. ولو هم فعلوا لعرفوا من هو، ومن هو أبوه، ولآمنوا، ولاّضطرّوا إلى الاعتراف بأنّه مساوٍ للآب. ولكنّهم آثروا ألاّ

يؤمنوا، وأدانوه، بحجّة أنّه إن كان يستشهد بأبيه الأرضيّ فهو يهزأ بهم، وإن هو كان يلمح إلى أنّ أباه هو الله، فهو يجدّف، ويستحقّ الموت.

ومضى يسوع قُدُمًا في إماطة اللثام عن حقيقة هويّته، ومنشئه الإلهيّ، منذرًا اليهود بتفويت فرصة الخلاص التي جاءهم بها، إن هم أقاموا على رفض الإيمان به: «**أنا أمضي، وستطلبونني، ومع ذلك تموتون في خطيئتكم، إذ حيث أمضي لا تستطيعون أن تأتوا**». ولكنّهم، في غلاظة قلوبهم، فسّروا كلامه هذا بأنّه يعتزم الانتحار. وحيال هذا العناد في مقاومة الفهم والإيمان، أكّد البوْن الشاسع الذي يفصله عنهم، فهو من عالم الروح، وهم من عالم الأرض: «**أنتم من أسفلُ، وأنا من فوقُ، أنتم من هذا العالم وأنا لست من هذا العالم. من أجل ذلك قلت لكم إنّكم ستموتون في خطاياكم. أجل، إنّكم، إن لم تؤمنوا بأنّي أنا هو، ستموتون في خطاياكم**». **فقالوا له**: «**أنت، من أنت؟**» **قال لهم يسوع**: «**أنا ما أقوله لكم منذ البدء. وإنّ عندي أشياء كثيرةً أقولها فيكم وأحكُمُ بها عليكم. إنّ الذي أرسلني صادقٌ، وما سمعته عنده هو ما أقولُه للعالم**». **فلم يدركوا أنّه كلّمهم عن الآب**» (يوحنا ٨: ٢٣–٢٧).

قول يسوع: «**أنا ما أقوله لكم منذ البدء**»، يعني ما لم يكفّ يؤكّده، تصريحًا وتلميحًا، حول بنوّته لله، ومساواته له في الجوهر. وثمّة من يترجم قوله: «**أنا المبدأ، أنا من يكلّمكم**».

وأشار يسوع إلى أنّ أقواله هذه كلّها ستجد مصداقها في صلبه وقيامته، لأنّ كلّ ما يقوله ويفعله يتوافق فيه مع الآب، في اتّحادٍ معه، وتنفيذًا لمشيئته.

يقول يوحنّا: «**وفيما هو يتكلّم بهذا، آمن به كثيرون**». ولكنّه كان عليمًا بقرارات نفوسهم، وبهشاشة إيمانهم. فقال لهم: «**إنّكم، إن ثبتّم على كلامي كنتم، حقًّا، تلاميذي، تعرفون الحقّ، والحقّ يحرّركم**». ولكنّهم رأوا في هذا القول الساميٍ مساسًا بكرامتهم، فدار بينهم السجال التالي، حيث قذف في وجههم حقائق ساميةً راهنةً. وأعيتهم الحيلة في الردّ عليه، ومقارعة الحجّة بالحجّة، فلجأوا إلى الشتيمة والبذاءة: «فأجابوه: «**نحن ذُريّة إبراهيم وما كنّا قطُّ عبيدًا لأحدٍ. فكيف تقول إنّكم تصيرون أحرارًا!**»». أجابهم يسوع: «**الحقّ الحقّ أقول لكم إنّ من ارتكب الخطيئة كان عبدًا للخطيئة. والعبدُ لا يُقيم في البيت على الدوام،**

بل الابن يُقيم على الدوام، وإذا حرّركُم الابن صرتُم بالحقّ أحرارًا. أنتم ذُريّة إبراهيم، وأنا أعرفُ ذلك، غير أنكّم تطلُبون قتلي لأنّ كلامي لا ينفذ فيكم. أنا أتكلّم بما رأيتُ عند أبي وأنتم تعملون بما سمعتم عند أبيكم!»

فأجابوا وقالوا لـه: «إنّ أبانا هو إبراهيم». فقال لهم يسوع: «لو كنتُم أبناءَ إبراهيم لعمِلْتم أعمالَ إبراهيم. ولكنّكم تُريدون، الآن، قتلي، أنا الذي قال لكم الحقّ الذي سَمِعَه عند اللّه، وهذا لم يفعله إبراهيم. فأنتم تعملون أعمال أبيكم». فقالوا له: «نحن لسنا أولاد بغاءٍ! وليس لنا إلاّ أبٌ واحدٌ، وهو اللّه!». فقال لهم يسوع: «لو كان أبوكم هو اللّه لأحببتموني، لأنّي من اللّه خرجتُ وجئتُ. فأنا لم آتِ من نفسي بل هو الذي أرسلني. لماذا لا تفهمون كلامي؟... لأنّكم لا تُطيقون الاستماع إلى تعليمي. فإنّ أباكم أنتم هو إبليسُ، وشهواتُ أبيكم تريدونَ تنفيذها. إنّه منذُ البدء قتّال الناس، ولم يثبُتْ على الحقّ لأنّه لا حقّ فيه. فإذا تكلّم بالكذب فإنّما يتكلّم بما عنده، لأنّه كذوبٌ وأبو الكذب. أمّا أنا فلأنّي أقول الحقّ لا تُصدّقوني. من منكم يُثبتُ عليّ خطيئةً؟ فإذا كنت أقولُ الحقّ فلماذا لا تُصدّقوني؟ إنّ من كان من اللّه يسمعُ كلام اللّه. فإذا كنتم لا تسمعون، فذلك لأنّكم لستم من اللّه». فأجاب اليهود وقالوا لـه: «ألسنا على حقٍّ إذا قُلنا إنّك سامريٌّ وإنّ بك شيطانًا؟». أجاب يسوع: «لا، ليس بي شيطانٌ، ولكنّي أُكْرِمُ أبي فيما أنتم تهينونني. أنا لا أطلُبُ مجدي الخاصّ، فإنّه يوجدُ من يطلُبُه ويَحكُم. والحقَّ الحقّ أقولُ لكم إنّ من يحفظُ كلامي لا يرى الموت أبدًا». فقال له اليهود: «الآن أيقنّا أنّ بك شيطانًا: فإبراهيم قد ماتَ، والأنبياء أيضًا، وتقول أنت إنّ من يحفظ كلامي لا يذوقُ طعم الموت أبدًا! أفتكونُ أعظم من أبينا إبراهيم الذي مات؟ والأنبياء أيضًا ماتوا! فمن تجعَل نفسَك؟».

أجاب يسوع: «لو كنتُ أنا أُمجّد نفسي لما كان مجدي شيئًا. فأبي هو الذي يُمجّدُني، هو الذي تَدّعُون أنّه إلهكم ولستم تعرفونه. وأمّا أنا فإنّي أعرفُه، وإن قلتُ إنّي لا أعرفُه كنت مثلكم، كاذبًا. ولكنّي أعرفُه وأحفظ كلامَه. إبراهيم أبوكم قد ابتهج بأنّه سيرى يومي، وقد رأى، وفرح». فقال له اليهود: «لم يأتِ لك بعدُ خمسون سنةً وقد رأيت إبراهيم؟!» فقال لهم يسوع: «الحقّ

الحقّ أقول لكم إنّي، قبل أن يكون إبراهيمُ، أنا كائن». فأخذوا حجارةً ليرجموه. أمّا يسوعُ فتوارى، وخرجَ من الهيكل» (يوحنّا ٨: ٣٣– ٥٩).

تطايرت الحجارة كي تزيح من الهيكل، إلى الأبد، أثر المجدّف الذي تجاسر فادّعى أنّه كائنٌ قبل إبراهيم، بل قبل الكون. ولكنّ الكائن النورانيّ كان قد توارى.

يومها، لم يستطع أحدٌ مسّه بسوء، لأنّ الجموع كانت تشهد لـه بقداسة السيرة، وبالقدرات الخارقة، ولأنّ ساعته لم تكن قد أزفت بعد.

* *

صعود يسوع، هذا، إلى أورشليم، أظهر أنّه قد تخلّى، أخيرًا، عن حيطته، وراح يصارع، وحيدًا، سافر الوجه، في عقر دار أعدائه الفرّيسيّين والكهنة، حيث كان الحكم عليه بالتنكيل والموت قد صدر، مسبّقًا، وما عاد يفصله عن الصليب سوى أقواله الإلهيّة التي تغلّ أيدي الجند المكلّفين بالقبض عليه.

لم يكن كلامه فصاحةً، أو موهبةً بشريّةً، بل كان سلطانًا لم ينعم بمثله إنسانٌ، قطّ، سلطانًا مسَّ شغاف القلوب، وتسلّل، مباشرةً، إلى كوامن النفوس.

أعلن «**أنا نور العالم**». وإذ سخر اليهود من هذه الشهادة التي يشهدها في ذاته، قذف في وجههم سرّ طبيعته: «**لو كنتم تعرفونني، لعرفتم أبي، أيضًا**». لقد غدا، كلّما فتح فاه بالكلام، يرتكب جريمة إعلان مساواته للآب. وكان اليهود يتوخّون دفعه إلى هذا الاعتراف، بعباراتٍ واضحةٍ، كي يمسكوها حجّةً عليه؛ فسألوه: «**من أنت؟**»، فأجابهم ابنُ الله الذي كان مستقبله ماثلاً أمام عينيه: «**متى رفعتم ابن البشر، تعرفون أنّي أنا هو**».

وقال لهم: «**حقيقتي ستحرّركم**»، فاعترضوا بأنّهم لم يكونوا، يومًا، عبيدًا، ولكنّه أفحمهم بواقعٍ يتبيّن كلٌّ منّا صحّته، عقب تجربةٍ مؤلمةٍ مباركةٍ: «**الحقّ الحقّ أقول لكم إنّ من ارتكب الخطيئة كان عبدًا للخطيئة... وإذا حرّركم الابن، صرتم، بالحقّ، أحرارًا**».

لقد بات يعلن عن ألوهته بوضوحٍ تامٍّ، ولكنّ أقواله لم تكن تنفذ إلى نفوسهم، لأنّهم أبناء إبليس، وقد كرّسوا ذواتهم لتنفيذ شهواته وجرائمه.

وأمعن في تحدّيهم فقال: «**من منكم يُثبت عليّ خطيئةً؟**»، وإن كانوا، مع ذلك، لا يصدّقونه، فلأنّهم ليسوا أبناء اللّه.

ولكنّه، في غمرة العداء الطاغي، والنكران العنيد، كان يرى، عبر الأجيال، كلّ القلوب التي ستؤمن به، وتخفق له حبًّا، فهتف: «**الحقّ الحقّ أقول لكم إنّ من حفظ كلامي، لا يرى الموت أبدًا**».

كانت ساعته قد دنت، فلم يتوانَ عن إثارة هياج أعدائه، ولكيلا يخمد هذا الهياج، مضى قُدُمًا في تحدّيهم.

«مَنْ كَانَ مِنكُم بِلاَ خَطِيئَةٍ، فَلْيَبْدَأ وَيَرْمِهَا بِحَجَرٍ»(*)

(يوحنّا: ٨: ٣-١١)

أنفق يسوع ليلته في بستان الزيتون، جريًا على عادته كلّما شخص إلى أورشليم، بعيدًا عن محاصرة الجموع، وعن الضوضاء، ونداءات الباعة، وعيون زعماء اليهود المتربّصين به.

الصلاة التي قضى الليل مستغرقًا فيها، في تواصلٍ حميمٍ مع أبيه الحبيب، وحيدًا تحت لألاء النجوم، ولسعات برد ليالي الخريف، كانت قد زوّدته بعزيمةٍ متجدّدةٍ، وجرأةٍ لا تُقاوَم. وقد ترسّخ شعوره بقرب نهايته المأسويّة، التي تُحاكي نهاية سابقه المعمدان، فأعداؤه جاهدون في القضاء عليه، وسيتذرّعون، في سبيل ذلك، بأيّة حجّةٍ واهيةٍ.

وسرعان ما صدق حدْسه. فما إن عاد، مع الفجر، إلى الهيكل، وانتحى زاويةً في أحد أروقته، وتحلّق القوم من حوله، وشرع يعلّمهم، حتّى اقتحم المكانَ نفرٌ من الفرّيسيّين، يجرّون، عنوةً، امرأةً مشعّثة الشعر، مرتعدة الفرائص، منتحبةً، وبدفعةٍ قويّةٍ ألقوا بها عند أقدامه، مثل كتلةٍ من الأسمال. وهي، في ذعرها، وعريها، وخزيها، كانت تخفي وجهها بيديها. كانوا قد قبضوا عليها، للتوّ، متلبّسةً بجرم زنًى. فعيد المظالّ يجتذب إلى أورشليم خلقًا كثيرًا من مختلف بقاع العالم، فيسود الهرج والمرج، والاختلاط والمجون، وتفلت الغرائز من عقالها. ولم يتحرّجوا من تعريضها لأقصى الخزي، وهم يجرّونها في شوارع المدينة المقدّسة، ولكأنّهم، بتحقيرها، كانوا يرفعون من شأن ذواتهم، وينزّهونها، ويبيّضون قتامها، ويُثبتون أنّهم حرّاس الشريعة والأخلاق الحميدة.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «المرأة الزانية»، صفحة ٣٠١.

كم تمنّت تلك المسكينة الرازحة تحت وقر الخزي والفضيحة، والجزع من موتٍ شنيعٍ، أن تُساق مباشرةً إلى خارج المدينة، حيث تُرجم ويُدفن سرّها! غير أنّ الذين قبضوا عليها لم يكن همّهم معاقبتها، بقدر ما كان الإيقاع بالنبيّ الجليليّ، فجاؤوه بها، وقد حاكوا مكيدةً ظنّوها محكمةً لا مخرج منها. فنصّ الشريعة لا لَبْس فيه: الزانية تُرجم. فإن عارض يسوع رجمها، وصفح عنها، لأثبت، صراحةً، استهتاره بالشريعة، وتمرّده عليها، فاستحقّ الإدانة. أمّا إذا أفتى برجمها، لشوّه صورته في نظر الشعب الذي طالما رأى فيه الرحيم، المسامح، الرفيق بالخطأة، ولفَقَد شعبيّته، ولظهر، فضلاً عن ذلك، ثائرًا على الحكم الرومانيّ، الذي انتزع من اليهود حقّ تنفيذ الإعدام بأيّ إنسانٍ. فإمّا أن يكون جاحدًا لدينه، أو عاصيًا للحكّام.

لقد دعوه: «يا معلّم»، تمويهًا لخبث مقاصدهم. ولا ريب أنّ الخطيئة تحزن قلب يسوع، ولكن يحزنه، أكثر، الرياء والنفاق. وهو كان عليمًا بأنّ دافع الشاكين لم يكن حرصهم على الطهر وسلامة الأخلاق، بل الرغبة في الإيقاع به.

لقد استخدم أولئك المراؤون تلك المرأة ذريعةً لنقع غليل بغضهم ليسوع، ولاستفزاز الشعب عليه. تخيّلوا أنّ شَرَكهم من الإحكام، بحيث لا يفلت منه أبرع حكيمٍ، غير أنّه أخفق في إيقاع الله المتجسّد، الذي، فيما كان أعداؤه ينبحون، ويجأرون بمرافعتهم، أبدى إزراءه بهم، إذ أكبّ على الأرض يرسم بإصبعه، في ترابها، أشكالاً مبهمةً، وتمادى في ذلك، ولكأنّه غير مبالٍ بوجود عصابتهم المسعورة من حوله، مقابلاً الطابع المأسويّ الذي ابتغى المراؤون إضفاءه على هذه القضيّة، بلامبالاةٍ تامّةٍ.

طال صمته، وعبثه بالتراب، ورأى خصومه، في ذلك، حرَجًا لديه، وعجزًا عن الإجابة، فألحفوا في مطالبتهم بردّه. ولم يكن من العسير عليه التملّص من المكيدة بجوابٍ لبقٍ، لا يُلزمه بشيءٍ، كأن يذكّر بأنّ تنفيذ حكم الإعدام حكرٌ على سلطات الاحتلال الرومانيّة، وبأنّ اليهود أنفسهم قد أقلعوا عن الرجم منذ سنواتٍ طويلةٍ، أو بطلب تحويل الأمر برمّته إلى السنهدرين، أو بتمييعه في سراديب فتاوى التقليد التي تقيم على كلٍّ من الزانية المتزوّجة، أو المخطوبة، أو العزباء، حكمًا مختلفًا. ولكنّ الربّ ربأ بنفسه أن يلجأ إلى مثل تلك الأساليب، لأنّه كان يبتغي أن يلقّن مناوئيه درسًا لن ينسوه، ويظلّ عبرةً للأجيال. فهو عندما كان يخطّ بإصبعه على

الأرض، إنّما كان يدوّن شريعته الجديدة: إنّ الطاهر المنزّه من كلّ خطيئةٍ، قادرٌ، وحده، على إدانة الخاطئ؛ والنقيّ الكفّ والوجدان وحده خليقٌ بالذود عن حياض الشريعة. أمّا من كانت نفوسهم ملطّخةً، فعليهم الإمساك عن الإدانة. ولو وُجد، على الأرض، من هو منزّهٌ من الخطيئة، لتغلّبت لديه الرحمة على العدل.

صمتُ يسوع، الذي كانت المرأة تجهل هويّته، أضاء قَبَس رجاءٍ في قلبها. وكم تمنّت، في تلك اللحظات، أن تسكب عينيها في بحر عينيه، كي تعبّر له عمّا يتنازعها من رعبٍ مرهقٍ، ورجاءٍ شرع يتعاظم! ولكنّ يسوع لم يحِدْ عن إطراقه.

بعد لأيٍ، استوى يسوع، وأجال نظره على الفرّيسيّين والكتبة، والعصابة النابحة التي واكبتهم، وغرس عينيه في عينيْ كلٍّ منهم، وبهدوءٍ لامتناهٍ، تلفّظ بحكمه الذي ستظلّ أصداؤه تتردّد عبر العصور: «**من كان منكم بلا خطيئةٍ فليبدأ ويرمِها بحجرٍ**».

ثمّ انحنى مجدّدًا، وراح يخطّ بإصبعه في التراب، وهُيِّئ إلى الكثيرين من المحيقين به أنّه يدوّن ثبتًا بخطايا كلٍّ منهم، الخطايا السرّيّة التي يطبق كلٌّ منّا عليها أبواب كتمانٍ صفيقةً.

لقد ارتقى يسوع من موقع الشريعة الذي ابتغى خصومه حشره فيه، إلى موقع الضمير. وذكّرهم بأنّه إن جاز لقاضٍ، رغم أخطائه، أن يدين مذنبًا، إلاّ إنّه لا يجوز لخاطئٍ أن يكون منفّذ عدالة الله.

وسيظلّ قول يسوع الخالد، هذا، إدانةً لمن يرجمون الآخرين، وكان الأولى بهم أن يدينوا أنفسهم.

لقد علق الفرّيسيّون في الشرك الذي نصبوه، إذ وضعهم الربّ أمام خيارٍ مرٍّ: الإقرار بأنّهم خاطئون، ومن ثمّ، غير مؤهّلين لمعاقبة الزانية. من ثمّ، فبعزوفهم عن رجمها، وهم المتشدّقون بعدل الشريعة، يبرهنون على عدم وفائهم لها!

لقد توخّوا تشويه صورته في عيون من توغّل إلى أغوار قلوبهم، ولكنّ مكيدتهم انهارت أمام حكمته الإلهيّة.

ابتغوا إحراجه، فأوقعهم في حرجٍ لا مخرج منه. فاجأهم بما لم يتوقّعوه. ووضع كلاًّ منهم في مواجهة محكمة ضميره، حيث المدّعي والقاضي واحدٌ. أولئك الذين أِلفوا الكذب على أنفسهم، وعلى الناس، لم يجسر أحدٌ منهم على ادّعاء البراءة

من كلّ خطيئةٍ، براءةً تخوّله حقّ إلقاء الحجر الأوّل. فقد تململت، داخل كلٍّ منهم، الأفعال المخزية السرّيّة التي طالما جهد في إخفائها، والعادات القبيحة التي يحرص على كتمانها. صدر كلٍّ منهم كان ينطوي على نمطٍ أو أنماطٍ من الذنوب، «فلكلّ امرئٍ، في الدهر، عارُ». ذنوب الصغار تعرّضهم لانتقام المجتمع وتأديبه، أمّا ذنوب الكبار من كذبٍ، وغشٍّ، واختلاسٍ، وتدليسٍ، وزنًى، وإفساد العقول والنفوس، فتُموَّه بمظاهر الوجاهة. قد يفلح هؤلاء في إخفاء حقيقتهم عن الناس، ولكن أنّى لهم إخفاؤها عن عين الربّ الذي رمقهم بنظرةٍ ساجيةٍ، ثاقبةٍ، متحدّيةٍ! لم يدنْهم، بل ترك ضمائرهم تدينهم، وكانت إدانتها مرهقةً. كانوا يعرفون قدرة الربّ على قراءة كمائن القلوب. وقد ساورت جميعهم الريبة بأنّ يسوع محيطٌ بكلّ المخازي التي دأبوا على كتمانها بأشدّ حرصٍ، فأخذتهم من الفضيحة خشيةٌ.

قبل تحدّي يسوع لهم، كان كلٌّ من أفراد العصابة النابحة قد تزوّد بحجرٍ، كي يسهم في معاقبة الزانية. وإذا بهم، الواحد تلو الآخر، يلقون أرضًا ما بأيديهم، وينسلّون خلسةً، بدءًا بمن شابت لمّتهم، والذين استرجعوا شريط معاصيهم المتمادي، حتّى لم يبقَ منهم أحدٌ. ويلاحظ الإنجيليّ أنّ أوائل المنسحبين كانوا شيوخًا وقورين، أسهمت أعمارهم المديدة في تراكم سفالاتهم، وقد أكرههم قول يسوع على استعراض صفحات ماضيهم القاتمة المخزية. فمضوا يتسحّبون، متلطّين بالجدران.

بقوله اللاذع: «**من كان منكم بلا خطيئةٍ، فليبدأ برجمها**»، طعن يسوع الرياء في الصميم، وفي الآن نفسه وقّع حكم موته بيده.

الأيدي التي كانت تمسك المرأة تراخت، والعيون أطرقت خزيًا، وخلت الساحة لاثنين فقط: الخاطئة والمخلّص، «**البؤس الأقصى، والرحمة القصوى**» على حدّ قول القدّيس أوغسطينُس.

حتّئذٍ لم تكن قد التقت أنظار يسوع والمرأة. هي كانت تختلس النظر إلى ذلك المجهول الذي اتّخذته عصابة رؤساء الكهنة حكَمًا على جريمتها. أمّا هو فقد أحجم عن النظر إليها. كان يدرك أنّها تنوء تحت وِقر الخزي، أكثر منها تحت عبء الخوف. فآثر أن يجنّبها مزيدًا من الخزي. لقد ثوت رقّة حبّه الجمّة في إشاحة أبصاره عنها، لكيلا يزيدها إحراجًا وقهرًا، ولم يكن رسمه بإصبعه في التراب سوى تعبيرٍ عن رغبته في عدم التحديق إليها.

تبدّد مهووسو الرجم، القَرِمون إلى الدماء، وبات بوسع المرأة أن تلوذ بالفرار، وتبحث عن ملجإٍ آمنٍ. ولكنّ قوّةً سرّيّةً آسرةً كانت تشدّها، وتبقيها في مكانها. لقد ذهلت عن كلّ شيءٍ، وكلّ إنسانٍ، وما عاد يثير اهتمامها سوى ذلك المجهول، الذي حطّ عليها نظره، للمرَّة الأولى، بعد أن باتا وحيدَيْن. هي، أيضًا، نظرت إليه، وما برحت تنوء بوِقْر الخزي، ولكنّه خزيٌ من نمطٍ آخر. لقد غدت تبكي بسبب الشرّ الذي ارتكبته، في ندمٍ حارقٍ. مثل هذا الانسحاق، عندما يحظى بالرحمة الإلهيّة، يمسي مدرجةً إلى الحبّ السخيّ، ويرتقي بصاحبه فوق من يدّعون الحكمة، والعُجْب بالذات، ويأبون ثني ركبهم، التماسًا للغفران.

إنّ يسوع، الذي يسبر النوايا، قد رفع البغيّ فوق الفرّيسيّ، واللصّ التائب فوق رئيس الكهنة، والابن الضالّ النادم فوق أخيه المستقيم السلوك، المتحجّر القلب.

ظلّت المرأة ثابتةً في مكانها، إلى أن قال لها المخلّص: «**امضي في سبيلك، ولا تعودي إلى الخطيئة، بعد**».

يسوع، وحده، استطاع تطهير القلوب، وإحلال سكونٍ عارمٍ مكان الشهوة الطاغية. ولا غروَ أنّ أدهش انتصارٍ حقّقه، في كلّ عهدٍ، هو إخراسه نداءات اللحم والدم، لدى أفواجٍ من القدّيسين والقدّيسات، الذين تخطّوا رغبات الجسد، في سبيل الانطلاق وراء مقتضيات يسوع، مقتضيات الحبّ الكامل النقيّ، والخدمة السمحاء.

لقد جاؤوه بالمرأة الخاطئة كي يدينها، فأدان نفاقهم، وأدان خطيئتها، ولكنّه حرّرها منها، وكان لها منقذًا. استولى على قلبها، ودفع حبّها صوب كلّ طاهرٍ سامٍ. هم دعوه «يا معلّم»، رياءً، وهي دعته «يا سيّدي»، تجلّةً واحترامًا، وعرفانًا بالجميل.

لم يخرق الشريعة، ولكنّه نفذ إلى أعماق روحها. وروحها هو تقويم المعوجّ، ومكافحة الشرّ، والتوجيه نحو الخير. وبكلمةٍ منه أَكسبت الرحمةُ العدلَ سموًّا.

الرحمة هي سنّة الملكوت العتيد، ولكنّها رحمةٌ لا تتواطأ مع الخطيئة، فما من معلّمٍ يضارع يسوع صرامةً في حربه على الشرّ، ولا رقّةً في عطفه على الخطأة بغيةَ تحريرهم من الخطيئة. ومنه تعلّم البشر ألاّ يقسوا في إدانة الآخرين، وأن يقرعوا صدورهم قبل إيقاع العقوبة بالغير.

لم يدن الزانية، بل طهّرها وأدان الزنى. ولكنّها ستكون أحد أسباب إدانته وسيكفّر، هو، بموته على الصليب، عن خطيئتها.

رحمة يسوع صدمت كثيرين من المسيحيّين الأوائل، الذين طالبوا بحذف هذا الفصل من الإنجيل، استنكارًا للصفح عن الزانية. غير أنّ هذه الواقعة تبرز وجه يسوع الحقّ، وتُعلِّم أنّ الذود عن العفّة يكمن، أيضًا، في تطهير النفس الملوّثة، وأنّ المحبّة، والرحمة، والنعمة أقدر على قهر الشرّ من العقاب، وهي تذكّر الرجال الذين يتغاضون عن خطاياهم، ويقسون على المرأة الخاطئة، أنّ الله لا يميّز بين زنى الرجل، وزنى المرأة، وتؤكّد أنّ ما من لوثةٍ، مهما كانت قاتمةً، لا تقوى يد يسوع على محوها، وأنّ ما من خطيئةٍ، ترافقها التوبة، لا تحظى لديه بالغفران.

شِفـَـاءُ أكمَه

تعرُّض يسوع للرجم، في الهيكل، لم ينل من عزمه على المضيّ في التحدّي، كي يثبت أنّ إنقاذ إنسانٍ أَوْلى من التقيّد بحرف الشريعة، وبفريضة السبت.

كان قد أعلن، في الهيكل، أنّه نور العالم، وقد تسنّى له، وهو يخرج من الهيكل أن يبرهن على صدق إعلانه بواقعٍ ماثلٍ. فقد كان، ثمّة، عند العتبة، شابٌّ أكمه، أي وُلد أعمى، قابعٌ هناك منذ سنواتٍ طوالٍ يستعطي، وهو يردّد نشيدًا حزينًا، واحدًا، لا يتغيّر، يستدرّ به شفقة المارّة، ناعيًا، على الملأ مصيبته، التي ربّما لم يكن يروز، هو نفسه، كلّ ثقلها، ولكنّه طالما سمع أبويه يمعنان في التململ منها. كان فقيرًا، وحيدًا، بائسًا، تستر عريه أسمالٌ باليةٌ، ساكنًا، في ليلٍ أبديٍّ، عند عتبة الهيكل الذي لا يُسمح لـه بولوجه، وكانت الحسنات الضئيلة التي تُرمى له تبقيه في عيشٍ يتمنّى الانعتاق منه.

وقع نظر يسوع عليه، فجاء إليه تلقائيًّا. لم يطلبْ أحدٌ منه شفاءه، إذ لم يكن يراود أحدًا أملٌ في إدخال النور إلى حدَقتَيْن مطفأتين منذ الولادة. ولكنّ الربّ استشفّ كلّ ما في روح ذلك المسكين من جمالٍ وطّن العزم على إبرازه، وكلّ ما في عاهته من بؤسٍ قرّر إعتاقه منه.

كان شائعًا بين اليهود أنّ العاهات والعلل الجسديّة هي ثمرة خطيئةٍ اقترفها العليل أو والداه. وكان التلاميذ يشاطرون بني قومهم هذه المعتقدات، التي أظهر سِفْر أيّوب خطلها، ولكنّها ظلّت معشّشةً في الأذهان، بدليل استفسار التلاميذ: «**رابّي، من خطئ، أهذا أم أبواه، حتّى وُلد أعمى؟**». من المحقّق أن عمى ذلك الشابّ لم يكن نتيجة خطيئةٍ ارتكبها، فقد وُلدت عاهته معه. أفتكون، إذن، نتيجة خطيئة والديه؟ وبادر المعلّم، الذي كان يمقت مثل تلك الأحكام المسبّقة، والمعتقدات الحمقاء، إلى تصحيح رؤية تلاميذه، وأكّد أنّ العلّة ليست، دائمًا، عقاب خطيئةٍ،

بل كلّ إنسانٍ معرَّضٌ لأقسى امتحانٍ، بمعزلٍ عن أيّة خطيئةٍ اقترفها: «**لا هذا خطئ ولا أبواه، ولكن لكي تظهر أعمال الله فيه. ما دام النهار، ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني. الليل يأتي فلا يستطيع أحدٌ فيه عملاً، فما دمت في العالم، فأنا نور العالم**». لله مراميه التي لا يسعنا اكتناهها، فكم من بؤسٍ بريءٍ لا يعلم سببه سوى الله، وكم من مِحَنٍ وآلامٍ تصدمنا، ولكنّها تؤول دائمًا، وأحيانًا على نحوٍ خفيٍّ، إلى خلاص المبتلين بها، وإلى مجد الله. والله ابتغى أن يتمجّد من خلال ابنه، نور العالم، القادر، وحده، على إضاءة العيون المنطفئة، فما دام يسوع في العالم، هو نور العالم.

إنّ كلّ ألمٍ بشريٍّ يتحوّل تحت أنظار يسوع، الذي يرأف به، فيشفيه أحيانًا، ويؤاسيه دائمًا، ولا يلبَث الإنسان أن يتبيّن، في كلّ ذلك، وجه الله مخلّصه. ولقد كانت حياة المعلّم نسيجًا من أعمال العطف التي لا يفوّت فرصةً لإغداقها. فعبوره بالأرض خاطفٌ كالنهار، وسيكون موته كامتداد الليل على الكون. إنّه النور الإلهيّ الذي يزيل كلّ عمًى، وقد قدّم على ذلك الدليل، ببعثه النور في عيني الأكمه.

كان بإمكان يسوع شفاؤه بمجرّد كلمةٍ منه، كما طالما فعل، ولكنّه حرص على شحذ إيمانه وإشراكه في معجزة شفائه، «**فتفل في الأرض، وصنع من تُفْله طينًا، وطلى بالطين عيني الأعمى، وقال له: «اذهب واغتسل في بركة سلوام»، أي المُرسَل. فذهب واغتسل، وعاد وهو يُبصر**».

يا لجسارة يسوع الذي جبل طينًا، وطلى به عيني أَعمى، منتهكًا وصيّة السبت، مع علمه بأنّ زعماء اليهود يتربّصون به، بغيةَ قتله!

يرى البعض في التراب رمزًا للبشريّة، وفي التفلة رمزًا للحكمة التي تخرج من فم الله، وتنير الإنسان، ويروْن في «سلوام» يسوع نفسه، مرسل الله.

لم تكن لمياه بركة سلوام أيّة قوّةٍ شفائيّةٍ معروفةٍ. ولكن كان شائعًا أنّ لرُضاب الصائم قدرةً شفائيّةً، غير أنّه لم يُذكر، قطّ، أنّ للطين مثل هذه القدرة، بل إنّه يزيد الأعمى عمًى، إن صحّ التعبير، ولكأنّي بيسوع قد توخّى إكمال عمى الشابّ، قبل أن يمنحه الشفاء التامّ.

المعجزة كانت مجلجلةً، مشرقةً، نيّرةً، واضحة الدلالة على قدراتٍ إلهيّةٍ ساميةٍ.

وقد أذهلت جميع من عرفوا الشابّ، لمّا كان أعمى، يستعطي، وقد منّ عليه بعضهم ببضعة نقودٍ نحاسيّةٍ. لم يصعب تعرّفه على ذويه، ورفاقه، وجيرانه، في حين التبس أمره على آخرين، إذ إنّ شفاء العمى يُحدث، في قسمات الوجه، اختلافًا. ولكنّه، هو، كان لاينى يسرد على مسمع كلّ مستوضحٍ، تفاصيل ما جرى له، مردّدًا بنبرة فرحٍ، وإيمانٍ، وعرفانٍ بالجميل: «**إنّ الرجل الذي يُدعى يسوع صنع طينًا، وطلى عينيّ، فذهبتُ، فاغتسلتُ، فأبصرتُ**».

أصدقاء الأعمى الذي أبصر مضوا به إلى الفرّيسيّين، لعلّ أولئك العلماء المتعجرفين يبدّلون نظرتهم إلى يسوع. غير أنّ هؤلاء لم يروا من المعجزة البيّنة، السنيّة، سوى وقعها الكارثيّ عليهم، فحاولوا طمسها وتكذيبها، وتشويهها، بكلّ ما أوتوا من مكرٍ وحقدٍ.

لطالما طالبوا بمعجزةٍ كي يؤمنوا، ولمّا مثلت المعجزة أمامهم حيّةً، ناطقةً، مصدَّقةً من قبل طائفةٍ من الشهود، رفضوها، وازدادت قلوبهم طفحًا بالحقد. لو انطوت نفوسهم على ذرّةٍ من صفاء النوايا، لابتهجوا، لأنّ إنسانًا بريئًا محرومًا من البصر استعاد نعمته. ولكنّهم، في حقدهم العارم، لم يروا في إعادة الرجاء وطعم الحياة إلى إنسانٍ بائسٍ يائسٍ، وفي تحويله من متسوّلٍ ذليلٍ إلى رجلٍ قادرٍ على كسب عيشه بعرق جبينه، وفي عطف من شفاه، وفي قدراته الخارقة، سوى خرقٍ لشريعة السبت! فصنعُ مرهمٍ طينيٍّ، بقطرة لعابٍ، وبعض ذرّات ترابٍ، لا يختلف، في نظرهم، عن صنع لَبِنٍ أو آجرٍّ. ومن يخرق السبت، على هذا النحو السافر الوقح، لا يسعهم أن يروا فيه إلاّ عدوًّا لله. ولكنّ الشعب البسيط، الذي لا يقتضي على النور دليلاً، ردّ عليهم، بحدْسه الصائب النيّر: «**كيف يقدر رجلٌ خاطئٌ أن يصنع مثل هذه الآيات؟**» ووقع بينهم شقاقٌ، فسألوا الشابّ الذي كان أعمى: «**وأنت ماذا تقول فيه، وقد فتح عينيك؟**» فقال، بلا تردّدٍ، ولا مراوغةٍ، «**إنّه نبيٌّ**». وبذلك أثبت ذاك الذي أبصر النور منذ لحظاتٍ، أنّه يملك فكرًا نيّرًا لا يسهل خداعه، وأنّه أوضحُ رؤيةً من عميان القلب والبصيرة الذين كانوا يستجوبونه. فليس العميان، فقط، من يبدون كذلك. ولا غضاضة على من وُلد في الظلمة، بل الذنب هو ذنب من اختار العمى، وآثر الظلمة على النور، ومع ذلك ادّعى احتكار الرؤية.

هذا الردّ الجريء أذكى نيران سخط الفرّيسيّين وحقدهم فتجهّمت سِحَنهم،

وأزبدوا، وتفاقم غيظهم، فجهدوا في إظهار المعجزة بمظهر الخديعة، مشكّكين بكون الشابّ الذي أبصر، أعمى من قبل.

وكان الفرّيسيّون يمارسون على الشعب ديكتاتوريّةً فكريّةً ساحقةً، ويهدّدون كلّ من لا يعتنق آراءهم، ويذعن لأوامرهم، بنبذه من الهيكل. وبهذا السلاح حاولوا الضغط على والدَي الشابّ، اللّذين استقدموهما، وسألوهما: «**أهذا ابنكُما الذي تقولان إنّه وُلد أعمى؟ فكيف يُبصر الآن؟» فأجابهم والداه قائلين: «نحن نعلم أنّ هذا ابنُنا، وأنّه وُلِد أعمى. أمّا كيف يُبصر الآن فلا نعلم ومن فتح عينيْه فلا ندري. اسْألوه فإنّه كامِلُ السنّ وهو يُجيب عن نفسه». قال والداه هذا لخوفهما من اليهود، لأنّ اليهود كانوا قد اتّفقوا على أنّ من يعترفُ بأنّه المسيحُ يُنبذ من المَجمع. لذلك قال والداه: «إنّه كاملُ السنّ فاسألوه**» (يوحنّا ٩: ١٩-٢٣).

لم ينكر الوالدان أنّ الشابّ هو ابنهما، وأنّه كان أعمى، حقًّا، ولكنّهما، في ما عدا هذا الواقع، التزما، في ردّهما، حيطةً بالغةً، خشيةً من انتقام الفرّيسيّين.

واستدعوا الشابّ ثانيةً، وتحت وطأة النذير عينه، أخضعوه لمزيدٍ من الاستجواب «المخابراتيّ»، جاهدين في إكراهه على الاعتراف بأنّ يسوع مجدّفٌ وخاطئٌ. ولكنّه تغلّب على حذلقتهم اللاهوتيّة، بالتزامه الواقع الراهن. لقد وقف أمام أولئك الثعالب وقفة جميع الضعفاء الذين يلفّهم الروح بجناحه، وتفجّرت من بساطة أجوبته حكمةٌ تتحدّى كلّ مكرٍ. وقد تحدّى ذلك المتسوّل معلّمي إسرائيل. ودار بينهم وبينه الحوار التالي:

– الفرّيسيّون: «**أدِّ المجد إلى الله! فنحن نعلم أنّ هذا الرجل خاطئٌ!**».

– الأكمه: «**أيكون خاطئًا فلستُ أعلم. إنّما أعلم شيئًا واحدًا: أنّي كنت أعمى، وأنّي الآن أُبصر**».

– الفرّيسيّون: «**ماذا صنع بك؟ كيف فتح عينَيْك؟**».

– الأكمه، ساخرًا: «**قد أخبرتكم فلم تسمعوا لي، فلماذا تريدون أن تسمعوا مرّةً أُخرى؟ ألعلّكم تريدون، أنتم أيضًا، أن تكونوا تلاميذه؟**».

– الفرّيسيّون، ساخطين، شاتمين: «**أنت تلميذه، وأمّا نحن فتلاميذ موسى. نحن نعلم أنّ الله كلّم موسى، وأمّا هذا فلا نعلم من أين هو**».

– الأكمه، ساخرًا، أيضًا: «**يا للغرابة! لا تعرفون من أين هو، وقد فتح عينيّ! إنّنا نعلم أنّ الله لا يستجيب للخطأة، وإنّما يستجيب لمن اتّقاه، وعمل بمشيئته. وما سُمع، قطّ، أنّ أحدًا فتح عينيْ أكمه. فلو لم يكن هذا من الله، لما استطاع أن يفعل شيئًا**».

– الفرّيسيّون، في قمّة الغيظ: «**إنّك كلّك خطيئةٌ، مذ وُلدت، وتأتي تلقي علينا درسًا!**». وطردوه خارجًا، فساووه بيسوع.

منطقه البسيط السليم تغلّب على تخرّصاتهم وسفسطاتهم، فكان أوّل المنبوذين لأنّه تجرّأ فأعلن ما آمن به قلبه، متحدّيًا مقاومة الرؤساء الذين أعيتهم الحيلة، فاستعاضوا عن الحجّة والمنطق بالشتيمة والتجريح. كم كان ذلك الرجل توّاقًا إلى التمتّع بنعمة البصر التي أسبغها عليه يسوع، وإلى تأمّل رُواء الكون، واستجلاء جمالات الطبيعة! ولكن أعاقه عن ذلك استجواب أولئك الذين ارتسم كلّ بشاعة الحقد على سِحَنهم.

«وسمع يسوعُ أنّهم طردوه فلقيه وقال له: «أتُؤمن أنت بابن البشر؟» فأجاب قائلاً: «ومَن هو، يا سيّدي، فأومن به؟» فقال له يسوع: «إنّك قد رأيته، فهو الذي يُكلّمك». فقال: «قد آمنت، يا ربّ». وسجدَ له. حينئذٍ قال يسوع: «جئت إلى هذا العالم لأجعل الحُكم في نصابه، فيُبصر الذين لا يُبصرون ويُعمى الذين يبصرون». فسمعهُ الفرّيسيّون الذين كانوا معه فقالوا له: «أفنكون نحن أيضًا عُميانًا؟» فقال لهم يسوع: «لو كنتم عميانًا لما كان عليكم خطيئةٌ. أمّا وإنّكم تقولون الآن إنّنا نُبصر فخطيئتكم ثابتةٌ» (يوحنّا ٩: ٣٥ – ٤١).

لم يكن إيمان ذلك الأعمى الذي نال نعمة البصر كلامًا فحسب، بل كان إجلالاً للحقيقة المتجسّدة. وكان منطقه ساميًا بقدر ما كان بسيطًا. عيناه أبصرتا النور، ونفسه، أيضًا، استنارت.

يقول فرانسوا مورياك: «في هذا القلب البسيط، وجد يسوع مكانًا يأنس إليه، ويرتاح فيه».

وقد كافأه عن جرأته وصلابة إيمانه، فسكب على قلبه فيضًا من الأنوار، واعتلن له مسيحًا، ومخلّصًا، وإلهًا.

طرده الزعماء الدينيّون، ولكنّ شافيه بحث عنه حتّى التقاه، فأغدق عليه، فضلاً عن بصر العينيْن، نور النفس والإيمان. ابتهج يسوع، لأنّ العدل استقام، فأشرق النور في عيني الأعمى وقلبه، وحكم مدّعو المعرفة وإرشاد الآخرين، على أنفسهم، بالعمى.

شفاء الأَكمه كان آيةً صريحةً لا لَبْس فيها. فعماه ولاديٌّ، كاملٌ، يستعصي، بشريًّا، على الشفاء. ومع ذلك تمّ الشفاء، كاملاً، في وضح النهار، تحت بصر رهطٍ من الشهود. وجهد الفرّيسيّون في إنكاره، حتّى باتوا مهزلةً. ولمّا لم يجدوا إلى إنكاره سبيلاً، رفضوا نتائجه، وأبوا أن يروا فيه يد الله، بحجّةٍ شرعيّةٍ، زائفةٍ، واهيةٍ.

لقد جاء يسوع كي يضيء العالم، ولكنّ المتعجرفين المكتفين بعلمهم رفضوا النور، فأمسى النور لهم سبب عمًى. ولقد بيّن لهم الربّ أنّهم، لو كانوا من أفراد الشعب الجاهل الذي يضمرون له أعظم ازدراء، لربّما كان لهم عذرٌ في عدم توسّم المسيح فيه. أمّا وقد توغّلوا في دراسة الكتب والنبوءات، فلا عذر لهم في معاداته، بعد أن صدّق الله أقواله بالمعجزات، وبعد أن تحقّقت فيه النبوءات، ولذلك، فهم، بإنكارهم له، ارتكبوا بحقّ الروح القدس، الخطيئة الأبديّة التي لا تُغتفر.

أَوَ ليس الذين، في أيّامنا، يشهدون المعجزات بأمّهات عيونهم، ومع ذلك يقيمون على إنكارها، باسم استحالة العجائب، وتعذّر الفائق الطبيعة، هم ذرّيّة عميان البصيرة، الفرّيسيّين أولئك؟

لقد أفرد القدّيس يوحنّا الفصل التاسع من إنجيله، بأكمله، لسرد هذا الحدث بأدقّ تفاصيله، كي يميّز بين من يرون فيؤمنون، ومن يرون فينكرون، ويوغلون في ضلالهم، وباسم دينهم الزائف يرشقون الشاهد الصادق بالكفر، وباسم علمهم المتعجرف يرشقونه بتهمة الجهل، وباسم طغيانهم يرشقونه بالنبذ والحرمان. بيد أنّ ضحايا الاضطهاد والنبذ، هؤلاء، يعرفهم الربّ، ويتذوّق بساطتهم، وصدقهم، وجرأتهم، فيقودهم إلى الإيمان، ويكشف لهم سرّه، ويجعل منهم نخبة ملكوته.

* *

في مساء ذلك اليوم الحافل بالعطف، والحقد، والعداء والجرأة، ترك يسوع اليهود منقسمين بشأنه، ونأى عن أورشليم.

الـــرَّاعي الصَّــالح (*)

(يوحنّا١٠: ١–٢١)

لقد أوصد زعماء اليهود باب الهيكل في وجه الأكمه الذي شفاه يسوع من عماه، لأنّه كان صادقًا، واعترف بيسوع نبيًّا. ولكنّ يسوع أفهم الجميع أنّه، إن أُغلقت أبواب الهيكل، فهناك بابٌ ملكيٌّ آخر مشرعٌ للجميع. وإن كان رعاة اليهود يقودونهم إلى الضلال والهلاك، ولا يلتمسون سوى مصالحهم، فهو، يسوع، باب حظيرةٍ تجد فيها الرعيّة كلّها الأمان، والحماية، والكلأ الطيّب، والرُّعاة المخلصين.

كانت الحظيرة، وما زالت، في قرانا، ساحةً فسيحةً مسوّرةً بجدرانٍ عاليةٍ، ولها بابٌ واطئٌ صغيرٌ، تتوافد إليها، مساءً، من المراعي، قطعانٌ عديدةٌ، فتدخل، سائمةً فسائمةً، من الباب الضيّق، كي يسهل عدّها، وتقضي الليل في أمانٍ، بعد أن يوصد الباب، تحت حراسة راعٍ واحدٍ. وفي الغداة يوافي سائر الرعاة باكرًا، فيلجون من الباب الضيّق، ويستنهض كلٌّ منهم نعاجه، وخرافه، وماعزه، بطقّةٍ من لسانه يميّز بها كلُّ قطيعٍ راعيه، فيأتي إليه، ويتبعه، في طابورٍ طويلٍ، وهو لا يني يشدّها إليه بنداءاته المتكرّرة. وغالبًا ما يطلق على كلّ نعجةٍ، أو خروفٍ، أو ماعزٍ، اسمًا يدعوها به، فتستجيب لـه. أمّا من يحاول تسلّق السور، ولا يدخل من الباب، فهو لصٌّ يبيّت للسائمة شرًّا، أو ذئبٌ مفترسٌ.

لقد قارن يسوع بين رؤساء اليهود الدينيّين الذين يغلقون أبواب الحظيرة في وجه الرعيّة، لأنّهم لصوصٌ لا همّ لهم سوى المغانم الشخصيّة، وبسط السيطرة، ولأنّهم يتسلّلون إلى النفوس كي يهلكوها، وبينه هو، الراعي المحبّ لقطيعه، الذي أنقذه من حيث كان يتضوّر جوعًا وهزالاً، وبذل نفسه لـه غذاءً وخلاصًا. إنّه متفانٍ في سبيله، ولن يتوانى عن التضحية بحياته كي يهبه الحياة. فهو يعقد مع قطيعه علاقة

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «الراعي الصالح»، صفحة ٣٠٨.

حميمةً متبادلةً، على غرار علاقة الآب بالابن. الرعاة الزائفون يقودون القطيع إلى الهلاك. أمّا الراعي الصالح، فيبذل حياته لإنقاذ قطيعه، وهذا، بالتحديد، ما يفعله يسوع دون سائر الرعاة. والصليب هو أفق حياته الذي لا يغيب، أبدًا، عن أنظاره.

بعد أن تعرّض الربّ، بقسوةٍ، لرياء الفرّيسيّين ونفاق الكتبة، ترقرقت نفسه عذوبةً، وتألّقت رحمته، في مخاطبته الجمع المتراصّ من حوله، وبعباراتٍ تقطر حبًّا وحنانًا، وبسموٍّ لا يُجارى، وبلمساتٍ مرهفةٍ، رقيقةٍ، عميقةٍ، ووقارٍ أخّاذٍ، رسم لوحةً للراعي الصالح، الراعي الأمثل الذي لا يقتصر على إحاطة خرافه بكلّ عنايةٍ، بل لا يحجم عن التضحية بذاته في سبيلها، في حين أنّ الرعاة المأجورين، حالما يلوح خطرٌ، يهجرون قطيعهم، ويعرّضونه للهلاك. وقال يسوع: «**أنا الراعي الصالح. الراعي الصالح يبذُلُ نفسه عن الخِراف. وأمّا الأجيرُ فليس راعيًا حقًّا، والخرافُ ليست لـه، فإذا رأى الذئب مُقبلاً ترك الخراف ونجا بنفسه، فيستولي عليها الذئب ويُبدّدها؛ ذلك بأنّه أجيرٌ ولا يهمّه أمرُ الخراف. أنا الراعي الصالح، أعرِفُ خِرافي، وخِرافي تعرِفُني، كما يعرفُني الآبُ وأعرف الآب، وأبذلُ نفسي عن الخراف. وإنّ لي خِرافًا أُخرى ليست من هذه الحظيرة، فهي أيضًا ينبغي أن أقودها، وإنّها ستسمعُ صوتي فتكونُ الرعيّةُ واحدةً والراعي واحدًا.**

«**إنّ الآب يُحبّني لأنّي أبذلُ حياتي ثمّ أعود فأرتجعها. ليس أحدٌ ينتزعُها منّي، ولكنّي أبذلها باختياري. فلي السلطان على بذلها ولي السلطان على ارتجاعها. تلك هي الوصيّةُ التي تلقّيتُها من أبي**» (يوحنّا ١٠: ١١-١٨).

لا شيء يحمله على بذل حياته سوى حبّه لقطيعه، وحرصه على خلاصه؛ سيبذلها طائعًا على الصليب، ثمّ سيستعيدها بالقيامة، لكي يظلّ بروحه مع المؤمنين به.

وغاصت أنظاره إلى أبعد من قطيعه الفلسطينيّ الصغير، إلى حيث قطيعٌ لا يُحصى يضمّ خرافًا من كلّ جنسٍ ولونٍ، آتيةً من كلّ أرجاء المعمورة، مؤلّفةً قطيعًا واحدًا كبيرًا، يخدمه راعٍ واحدٌ.

مرّةً أُخرى، شقّ كلامه القومَ فقال كثيرون منهم: «**إنّ به شيطانًا، إنّه يهذي، فلماذا تُعيرونه أسماعكم؟**». **فقال آخرون**: «**هذا الكلام ليس كلام من به شيطانٌ. أبقدرة الشيطان أن يفتح عيونَ العُميان؟**» (يوحنّا ١٠: ٢٠-٢١).

مَنْ هُوَ قريبي ؟ السّامِريُّ الرَّحيم (*)

(لوقا ١٠ : ٢٥-٣٧)

نأى يسوع عن أورشليم، وجوّها المشحون كرهًا ومكائد، وشخص إلى الضواحي كي يقف ما بقي لـه من أيّامٍ على الأرض، على إكمال تثقيف تلاميذه. وسيكون دليلنا، في هذه المرحلة، الإنجيليّ لوقا الذي كان له الفضل في تزويدنا بكنزٍ ثرٍّ من أمثال الربّ وتعاليمه التي أغفلها زملاؤه.

غير أنّ علماء الشريعة المتربّصين بيسوع، لم يكفّوا عن مطاردته. وقد جاءه أحدهم ممتحنًا، متصنّعًا الاحترام والبراءة، مضمرًا نيّة إيقاع القرويّ الجليليّ في شباك علمه، وسأله: «**يا معلّم، ماذا عليّ أن أعمل لأرث الحياة الأبديّة؟**». وجريًا على عادته، كُلّما استشمّ في سؤالٍ خدعةً، ردّ الربّ على السؤال بسؤالٍ، وجعل الممتَحِن مُمتَحَنًا، فقال لـه: «**ماذا كُتِب في الشريعة، كيف تقرأ؟**». واطمأنّ العالِم لاتّخاذ يسوع من الشريعة مرجعًا، فأجاب، عفويًّا: «**أحبب الربّ إلهك بكلّ قلبك، وكلّ نفسك، وكلّ قدرتك، وكلّ ذهنك، وقريبك مثل نفسك**». جوابٌ لا غبار عليه، فحبّ اللّه، مقرونًا بحبّ القريب، هو، في نظر يسوع، أيضًا، أعظم الشرائع كلّها، ولذلك قال لـه يسوع: «**بالصواب أجبت**». ولكن بما أنّ العلم، وحده، لا يكفي، ما لم يُعمَل به، أضاف يسوع: «**افعل هذا، فتحيا**».

بدا وكأنّ النقاش انتهى. ولكنّ العالم أبى الانصراف مثل تلميذٍ امتُدح من جرّاء حسن إلقائه درسه. لم يَلِقْ به أن يظهر وكأنّ سؤاله كان نافلاً، بما أنّه ردّ عليه، بنفسه، ببساطةٍ متناهيةٍ. وكانت ما تزال تحدوه رغبةٌ في إفحام المعلّم، فسأله: «**ومن قريبي؟**».

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «من هو قريبي؟»، صفحة ٣١١.

هذا السؤال كان مدار تساؤلاتٍ كثيرةٍ، ولطالما حار الرابّيّون في تحديد من هو «القريب» الذي تنبغي محبّته. أهو من تربطنا به وشائج دمٍ، أو أواصر صداقةٍ، أو وحدة الدين والوطن، أم ينبغي الانطلاق إلى آفاقٍ أشدّ انفتاحًا، وشمل الغرباء، الوثنيّين وغير المختونين بالقرابة والمحبّة؟ ولكنّ الشائع في الأوساط اليهوديّة أنّ القريب هو الإسرائيليّ، وكلّ من سواه عدوٌّ، خليقٌ بالبغض، وكانت تلك النزعة من الرسوخ بحيث إنّ السنهدرين كان يأبى إصدار حكمٍ بحقّ يهوديٍّ قتل وثنيًّا، بحجّة أنّ الشريعة لا تعاقب إلاّ قتل «القريب»، في معناه الحصريّ، أي اليهوديّ.

كانت فئةٌ من الفلاسفة اليونانيّين قد حاولت توسيع إطار القرابة بين البشر، وجعل الكون وطنًا واحدًا لجميعهم. ولكن لم يكن لهذه المحاولة أيّ أثرٍ على أرض الواقع، فالحروب استمرّت، وآفة العبوديّة تفاقمت واستشرت، ولم تنفذ أصداء الدعوة إلى شموليّة الإخاء البشريّ هذه إلى آذان بني إسرائيل.

وكانت تلك فرصةً ثمينةً كي يذكّر يسوعُ معلّمَ الشريعة بروح الشريعة، وكي يوضح له الشريعة الجديدة التي زفّها، هو، إلى العالم. وفي سبيل ذلك، لم يُجبه بعموميّاتٍ ومبادئ، بل كان جوابه مثلاً ينبض حياةً، يصدم الذهن، ولا يدع للتردّد فسحةً، فقال: «**رجلٌ كان مُنحدرًا من أورشليم إلى أريحا فوقع على لصوص، فعَرّوْه وأوسعوه ضربًا، ومضوا وقد تركوه بين حيٍّ وميْتٍ. فاتّفق أنّ كاهنًا كانَ مُنحدرًا من تلك الطريق فأبصره فمال عنه وجاز. وكذلك لاويٌّ وصل إلى المكان فأبصره فمال عنه وجاز. ثمّ إنّ سامريًّا في سفرٍ مرّ به، فرآه، فرقّ لحاله. فمال إليه فضمد جراحه صابًّا عليها زيتًا وخمرًا، وحمَله على دابّته الخاصّة وأتى به الفُندق واعتنى بأمره. وفي الغد أخرج دينارين ونقدهما لصاحب الفُندق وقال له: اعتنِ به، ومهما أنفقت فوق هذا أدّيتُه إليك عندما أعود. فأيّ هؤلاء الثلاثة، في رأيك، كان قريبًا للّذي وقع على اللصوص؟» قال: «الذي عامَله بالرحمة». فقال له يسوع: «اذهب واعمَل أنت أيضًا، هكذا»** (لوقا ١٠ : ٣٠–٣٧).

الطريق المنطلق من أورشليم إلى أريحا حادّ الانحدار، ويهبط نحو ألف مترٍ، عبر مناطق مقفرةٍ محاطةٍ بجبالٍ انتشرت في شعابها المغاور والكهوف التي توفّر للّصوص وقطّاع الطرق مخابئ مثاليّةً. هضابٌ جرداء تنيف على وديانٍ مرعبةٍ. والمسافر المخاطر يتوقّع أن يهبّ من وراء كلّ صخرةٍ، أو من تجويف كلّ حفرةٍ، في كلّ لحظةٍ، لصٌّ أو قاتلٌ.

كان المعتدى عليه ملقًى على قارعة الطريق، لا يقوى على حركةٍ، شبه ميّتٍ، ولا أمل لـه في الخلاص سوى قلبٍ عطوفٍ. ولكنّ هذا القلب لم يكن يخفق لا في صدر الكاهن، ولا في صدر اللاويّ، اللّذين بعد أن أدّيا واجباتهما في الهيكل، وقبضا أجرهما عن الخدمة الطقسيّة، هُيّئ لهما أنَّ لا شيء آخر يتعيّن عليهما، فقد أرضيا الله. وربّما ظنّا أنّ الضحيّة الملقاة هي جثّة ميّتٍ، وقد تعلّما أن لمس الجثّة مصدر نجاسةٍ، فآثرا الحفاظ على طهرهما! لقد نظرا إلى الضحيّة شزرًا، وتابعا سيرهما غير مباليَيْن، فهما قاصدان أريحا المدينة الكهنوتيّة، ولا وقت لديهما يهدرانه.

وكان السامريّ تاجرًا يسعى وراء أعماله، وفي سبيلها يقصد أريحا باطّراد. ورأى الجريح، فأخذت بقلبه الرأفة، ولم يُصغِ إلاّ إلى وحي إنسانيّته. فهرع إليه، وجثا أمامه، وأكبّ على معالجته، فطهّر جراحه بالخمر، وخفّف آلامها بالزيت، وضمّدها، ثمّ أقلّه على دابّته إلى فندقٍ، حيث تابع علاجه.، وعندما اضطرّ إلى متابعة سفره، نقد صاحب الفندق ما يكفي للعناية به، متعهّدًا بأداء كلّ ما يترتّب على علاجه وإقامته من نفقاتٍ إضافيّةٍ.

كان الجريح يهوديًّا، ولم يعبأ به سدنة الهيكل. أمّا السامريّ، فهو، في نظر اليهود، كافرٌ وعدوٌّ. ومع ذلك هرع إلى غوث يهوديٍّ جريحٍ، متناسيًا العداوة المستحكمة بين الطائفتَيْن، معرّضًا نفسه لخطرٍ داهمٍ، فقد كان من شأن اللصوص أن ينقضّوا عليه في كلّ لحظةٍ، ويعرّضوه لمثل مصير الجريح الذي عكف، هو، على علاجه. ولكنّه لم يمسك رحمته عن كائنٍ بشريٍّ جريحٍ، ولم تكن رحمته مجرّد عاطفةٍ، بل كانت فاعلةً، معطاءً، مجديةً.

سرد يسوع قصّته، وأجبر معلّم الشريعة على استخلاص العبرة بنفسه. ولم يقوَ ذلك الفرّيسيّ على القول، صراحةً، بأنّ الأقرب إلى الجريح كان السامريّ، فهذه اللفظة كفيلةٌ بحرق شفتيه، ولكنّه اعترف بأنّ قريب الجريح هو «**الذي عامله بالرحمة**».

ذلك العالِم المنتفخ زهوًا بعلم الشريعة، اضطرّ إلى الاعتراف بأنّ لا الكاهن ولا اللاويّ، وهما من حماة الشريعة، اكتنها روحها، في حين أنّ السامريّ نفّذ فريضتها. لقد أِلف يسوع أن يُنحي بأقسى اللائمة على الفرّيسيّين وعلماء الشريعة، أولئك الحكماء المزيّفين، والمعلّمين الكاذبين، رأفةً بالشعب الذي يضلّلونه، وتحذيرًا للكهنة

واللاهوتيّين، من بعدهم، في كلّ جيلٍ بالمثل الحيّ المقنع، لقّن يسوع درسًا أبلغ من كلّ محاضرةٍ نظريّةٍ، وحمل عالم الشريعة على الاعتراف بأنّ القريب هو من يسلك سلوك القريب. وبذلك حقّق يسوع انتصار الوداعة المُقنعة، والفنّ العذب، والرقّة المرهفة، التي كان يضيء بها النفوس، ويهزّها، ويُعتقها من تشويه ثقافة العلم الباطل.

لقد نقل يسوع القضيّة من مستوًى نظريٍّ لاهوتيٍّ إلى قارعة الطريق. ولم يعد الأمر يتعلّق بالشريعة، بل بإنسانٍ مرميٍّ بين حيٍّ وميتٍ، ولا بالتساؤل عن الحياة الأبديّة، بل عن سلوك مارّةٍ يرون جريحًا فيتوقّفون لإسعافه، أو يحثّون الخطى لتجاوزه، يرأفون به، أو لا يرأفون. تخطّى الأمرُ الحديثَ النظريّ عن الحبّ والمحبّة، وبات يدور حول جراحٍ وضماداتٍ، وراحلةٍ، وصاحب فندقٍ، ودنانير تنفق للعلاج.

ولذلك ختم يسوع الحوار بقوله للفرّيسيّ: «**اذهب، واعمل، أنت أيضًا، هكذا**»، أي عندما تصادف إنسانًا مصابًا، تعيسًا، يعاني أزمةً، سواءٌ كان يهوديًّا، أو سامريًّا، أو وثنيًّا، فذاك هو قريبك. وليست كرامة الكهنوت بشيءٍ، ولا علم الشريعة بشيءٍ، بمعزلٍ عن العمل. وإنّما ينفّذ الشريعة من يمارس الرحمة. ولكأنّ يسوع كان يقول للفرّيسيّ: «أنت يا مفتي الشريعة، تمثّلْ بالسامريّ الذي تزدريه، واسأله أن يفسّر لك روح الشريعة!».

«**اذهب واعمل أنت أيضًا، هكذا**»، فالمعرفة، وحدها، لا تجدي نفعًا، بل العمل وحده هو الذي يقود إلى الملكوت. بهذا القول أجاب يسوع على السؤال المطروح: كلّ إنسانٍ هو قريبي، سواءٌ كان كاتبًا، أو أُمّيًّا؛ يهوديًّا، أو رومانيًّا، أو سامريًّا، ما دام في ضيقٍ ويحتاج إلى عونٍ. المحبّة لا تعترف بحدودٍ اجتماعيّةٍ، أو سياسيّةٍ، أو وطنيّةٍ، أو عرقيّةٍ، أو حتّى دينيّةٍ.

لا تصنيف، إذن، ولا حواجز بين البشر، بل هم، جميعًا، أيًّا كان دينهم، وجنسهم، ووضعهم الاجتماعيّ، خاضعون لسنّة الألم عينها، فعليهم أن يحبّ بعضهم بعضًا، ويخدم بعضهم بعضًا، والقريب هو، في آنٍ واحدٍ، البائس المحتاج إلى الرأفة، والطيّب الذي يحسن ممارستها. ولكن ما من فلسفةٍ، وما من ديانةٍ علّمت ذلك، كما فعل يسوع. الطبيعة البشريّة تستشفّ هذه الحقيقة، ولكنّها تحتاج إلى أن يحرّرها يسوع، بشُعاعٍ من ضيائه، وبنفحةٍ من روحه، من أنانيّتها، وأحكامها المسبّقة، كي تتجرّأ على الجهر بهذه الحقيقة، وتمتلك القدرة على ممارستها.

لم يحتج السامريّ إلى دراسةٍ كي يكتشف قريبه، بل اكتشفه تلقائيًّا، مثلما اكتشفت الأمّ تيريزا القريب في كلّ عاثر حظٍّ، منبوذٍ، متألّمٍ.

المحبّة تنسى ذاتها، وتمضي إلى الآخَر، وتعقد معه أواصر مودّةٍ. وشريعة يسوع الجديدة ليست فرائض، بل هي عطاءٌ. إنّها أخلاقيّة الانفتاح. إنّها، بسخائها، توجد القريب وتخترعه، حيث الأنانيّة تستأثر به، وتستخدمه.

إنّ يسوع الكَلِف بالمفارقات لم يمتدح كاهنًا، ولا لاويًّا، بل سامريًّا يعدّه اليهود مارقًا. وفي ذلك ما يصدم اليهود، ويقوّض فقههم وأعرافهم. فالقريب، عندهم هو الإسرائيليّ، ولا أحد سواه. ويسوع علّم معلّمَ الشريعة أنّ خير محبٍّ للقريب هو غريبٌ هرطوقيٌّ.

لقد حطّم يسوع كلّ حواجز العنصريّة، وأعلن أنّ كلّ إنسانٍ هو قريب كلّ إنسانٍ.

كم من الثورات فجّر يسوع، حتّى في اللغة والحياة، بدءًا بتصويبه معنى القريب! بفضله أمسى السامريّ الرحيم مرادفًا للعطف، ونموذجًا للرحمة، لكلّ الأزمنة. فهو لم يتفرّج من بعيدٍ، بل اقترب، وتحقّق، وخاطر، وأنقذ. لم يجتزْ، بل توقّف. لم يكتفِ بعبارات شفقةٍ، من أطراف شفتيه، بل عالج، وسكب زيت الرحمة الذي يلطّف حرقة الجروح، وخمرة العافية التي تقضي على الفساد، زيت العزاء والرجاء، وخمرة الاندفاع. لم يقتصر على مدّ الجريح بعونٍ عابرٍ، بل استشرف حاجاته المقبلة ووفّرها.

فالمحبّة ليست مبدأً مجرّدًا، بل هي عملٌ فعليٌّ. ومن تمرّس منها امتلك الحكم السليم، والخيال، وتبصّر ما تقتضي المحبّة فعله، على أرض الواقع.

إنّ مثل السامريّ، في تاريخ البشريّة، آيةٌ متألّقةٌ.

مَـرْتا وَ مَـرْيَمَ (*)

(لوقا ١٠ : ٣٨-٤٢)

في بيت عنيا التي تبعد نحو ثلاثة كيلومترات عن أورشليم، بيتٌ كان يطيب ليسوع أن يفيء إلى ضيافته العابقة بالمحبّة، والصداقة، والسخاء. إنّه بيت صديقه لعازر الذي سينهضه من القبر، وشقيقته الكبرى، مرتا، التي تولّت زمام الإدارة في أعقاب وفاة والديها، ومريم التي يُعتقد أنّها المجدليّة التي حرّرها يسوع من سبعة شياطين، فقابلت جميله بحبٍّ يلامس العبادة، ووفاءٍ يسترخص كلّ تفانٍ وتضحيةٍ، وملازمةٍ للربّ حتّى عند أقدام الصليب.

كلّما حلّ يسوع ضيفًا على ذلك البيت، كانت مرتا حريصةً على تكريمه وصحبه بمأدبةٍ فاخرةٍ، حافلةٍ بأطيب الأطعمة، وأكثرها ألوانًا، وتضفي عليها كلّ ما استطاعت إليه سبيلاً من كرمٍ وسخاءٍ، وعنايةٍ، كي تليق بضيفٍ مميّزٍ، فيما كانت أُختها الصغرى، مريم، تقبع صامتةً عند قدمي المعلّم، مأخوذةً في شبه انخطافٍ، تتذوّق مأدبة كلامه، متلقّفةً كلّ لفظةٍ تهمي من شفتيه، مرتشفةً أقواله، كما يرتشف ظمآن من ماء نبعٍ. وكانت مرتا، بين الفينة والفينة، تهجر المطبخ والمواقد، مسترقةً بضع لحظاتٍ، كي تلتقط، وهي واقفةٌ، شذراتٍ من أقوال الربّ، ثمّ تهرع بسرعةٍ إلى أطباقها.

وذات يوم، ضاقت ذرعًا بهذه الحال. فمجيء يسوع وصحبه كان مفاجئًا، وعددهم فاق المألوف، ممّا زاد من اضطرابها وانهماكها. فانتصبت عند عتبة الحجرة التي كان جالسًا فيها يسوع، وعاتبته، برقّةٍ، قائلةً: «**يا سيّدي، أما تبالي أنّ أختي تركتني وحدي للخدمة؟ فقل لها أن تساعدني**». فأجاب يسوع وقال لها: «**مرتا،**

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «مرتا ومريم»، صفحة ٣١٥.

مرتا، إنّك تهتمّين وتضطربين في أمورٍ كثيرةٍ، والحاجة إلى واحدٍ. وقد اختارت مريم النصيب الأفضل، ولن يُنزَع منها».

جواب الربّ جاء مناقضًا لما توقّعته، ولكأنّه كان يقول لها: إنّي لم آتِ رغبةً في مأدبةٍ عامرةٍ دسمةٍ، فأنت عليمةٌ بزهدي وزهد رفاقي. حَسْبُنا كسرة خبزٍ وبضع حبّات زيتونٍ، وكأس ماءٍ. فإنّي إنّما جئت لكي أُسرّب تعليمي إلى النفوس، وأرسّخ فيها الإيمان والمحبّة، وأُشيع فيها النور. فعلامَ انهماكك بالنافل؟ إنّ الطعام لزائلٌ. ولكنّ كلامَ الله هو الغذاء الجوهريّ الباقي. وكان الأَوْلى بكِ أن تبسطي مائدةً بسيطةً قَشِفةً، وتنصرفي إلى مشاركة أُختك الإصغاء إلى كلام الحياة.

ذاك الذي كان قد قال: «**اطلبوا، أوّلاً، ملكوت الله وبرّه**»، رأى في سلوك مريم خير مثالٍ على تنفيذ هذه الوصيّة، ودعا مرتا إلى التمثّل بشقيقتها في هذا المضمار، فهي قد اختارت النصيب الأفضل، أي التغذّي بكلام الحياة.

الشقيقتان أرادتا تكريم المعلّم، ولكنّهما سلكتا، إلى الغاية عينها، نهجيْن مختلفَيْن. مرتا عبّرت بالمائدة العامرة والانهماك في إعدادها، عن اهتمامها بالربّ، وعن عظيم تقديرها لـه، في حين كان تكريم مريم صامتًا، كثيفًا، صادرًا عن طبيعةٍ عميقةٍ، غنيّةٍ. وهذا هو التكريم الذي لقي حظوةً في عيني يسوع.

لا ريب أنّ التأمّل حاجةٌ جوهريّةٌ للحفاظ على اتّزان النفس، ولإخصاب الروح. ولا غروَ أنّ مرتا قد غالت في انهماكها المادّيّ، ولكن لولا نهوضها بهذا الواجب، هل كان بوسع مريم التفرّغ للإصغاء؟

التأمّل والخدمة كلاهما ضروريّان، ويكمل أحدهما الآخر. وقد اهتدت نفوسٌ كبيرةٌ إلى حيلةٍ رائعةٍ تجعل منها مرتا ومريم، في آنٍ واحدٍ، فهي تكرّس ذاتها، بالكامل، لخدمة يسوع في أعضائه العليلة، من غير أن تفقد، لحظةً، الشعور بحضوره المهين، ثمّ تقف سُوَيعات راحتها القليلة على الإمعان في تأمّلٍ ومناجاةٍ للربّ يُمدّانها بالمنعة والعزيمة على مواصلة الخدمة، بهمّةٍ متجدّدةٍ. وأسطع مثالٍ على تلك الظاهرة، الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة.

هذه الرواية لوحةٌ حيّةٌ، نابضةٌ، لا يدرك مغزاها إلاّ من توغّل في قلب يسوع، الذي يؤثر التحديق إليه، والإصغاء لأقواله، على كلّ مظاهر التكريم الخارجيّة.

«أبَانَا الذِي فِي السَّمَاوَات...» (*)

كان يطيب ليسوع أن ينتحي ركنًا من جبل الزيتون كي يناجي أباه. وذات يومٍ، بعد أن عاد من مناجاته، سأله أحد التلاميذ: «**ربّ، علّمنا أن نصلّي، كما علّم يوحنّا تلاميذه**».

ولا ريب أنّ يسوع كان قد دأب على بثّ روح الصلاة في نفوس تلاميذه، وترك لكلٍّ منهم صوغها وفقًا لاحتياجاته، وإلهام الروح القدس. ولكنّ ذلك التلميذ طالب بنصٍّ يمكن ترديده حتّى عندما تجفّ النفس، وتعيا عن التلفّظ بحرفٍ. وكان معظم المعلّمين، ومنهم المعمدان، قد لقّنوا تلاميذهم مثل تلك النصوص، كي يتلوها في كلّ حينٍ.

وبعد أن مهّد يسوع بالتحذير من كثرة الثرثرة، لأنّ الصلاة الحقّة هي التي تتفجّر من القلب، لا تلك التي تردّدها الشفاه ببّغاويًّا، و«**لأنّ أباكم عالمٌ بما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه**»، لقّنهم هذه الصلاة الموجزة، الكثيفة، التي سيظلّ ملايين البشر يردّدونها، كما خرجت من شفاهه الإلهيّة، مدى الدهور:

«أبانا الذي في السماوات
ليتقدّس اسمك،
ليأتِ ملكوتك،
لتكن مشيئتك،
على الأرض كما في السماء.
خبزنا كفافنا أعطِنا اليوم،
واترك لنا ما علينا، كما تركنا نحن لمن لنا عليه،
ولا تتخلَّ عنّا في التجربة، بل نجّنا من الشرّير».

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «أبانا»، صفحة ٢٠٩.

وأضاف يسوع مؤكّدًا أنّ غفران الله مرهونٌ بغفران البشر لإخوتهم، فقال: «**فإنّه إن غفرتم للناس زلاّتهم، غفر لكم أبوكم السماويّ، أيضًا، وإن لم تغفروا، فأبوكم، أيضًا، لن يغفر لكم زلاّتكم**».

أيّة عظمةٍ في بساطة هذه الصلاة، وأيّ خصبٍ في إيجازها!

بهذه العبارات القليلة الكثيفة، نقل يسوع البشر من مرحلة الرعدة أمام ديّانٍ جبّارٍ إلى مخاطبة أبٍ محبٍّ، كريمٍ، ومن الأنانيّة والاستئثار بالخيرات، واستنزال الويلات على الآخرين، إلى الإخاء الشامل، ومخاطبة الآب باسم جميع البشر، بحيث يتلو الجميع، بقلبٍ واحدٍ، صلاةً ستظلّ تقطن الزمن، حتّى انتهاء الزمن، وستبقى إلى الأبد تنفّس البشريّة، وملاط الكنيسة.

تتألّف هذه الصلاة من ثُلاثيَّتَيْن: أولاهما تمجّد الله، والثانية تبسط حاجات البشر. الطلبات الثلاث الأولى هي تمنٍّ ودعاءٌ. تمنٍّ بأن يُكرَّم اسم الله كما يليق به، وأن تترسّخ سيادة ملكوته في كلّ مكانٍ، في النفوس والمجتمعات، وأن تتحقّق إرادة المعلّم الأسمى على الأرض، بين المخلوقات العاقلة، مثلما هي محقّقةٌ في السماء بين الملائكة والمختارين.

الطلبات الثلاث الأخرى تلتمس تحقيق حاجات البشر: حاجات الجسد، وحاجات النفس. بها نلتمس من الله أن يهبنا، في الحاضر، ما هو ضروريّ لبقائنا على قيد الحياة، وفي الماضي، غفران خطايانا، وفي المستقبل، وقايتنا من التردّي إلى الخطيئة.

الطلبات الثلاث الأولى هي تأليه الله، والتماس تجلّيه في حياة البشر لكي لا يعبدوا إلهًا سواه، ولكي لا يحلّ أيّ ملكوتٍ محلّ ملكوته، ولا تُنفّذ أيّة إرادةٍ بشريّةٍ محلّ مشيئته. ففي مشيئته خير البشر.

والطلبات الثلاث الأخيرة تلتمس أنسنة الإنسان: التماس الصفح، والتأهّب للصفح من أجل تخطّي العقبات الحائلة دون وحدة البشر، وسيرهم معًا نحو مستقبلٍ أمثل. إنّ الصفح المتبادل بين البشر هو امتدادٌ لصفح الله.

إنّها صلاةٌ جماعيّةٌ، وحتّى عندما يتلوها فردٌ، فهو، حينئذٍ، يصلّي باسم جميع المؤمنين.

قال يسوع «أبانا» ولم يقل «ملكنا» أو «معلّمنا». أبانا المقيم في أعلى ممّا يطاله فكرنا، والمقيم في نفوسنا.

بقولنا هذا نرقى بفكرنا إلى من جعل منّا خليقةً جديدةً، وألّهنا بنعمته المقدّسة، إلى من أمسينا له أبناءً بالتبنّي، بصفتنا إخوةً لابنه الوحيد.

عبارة «**أبانا**» توجز كلّ تعليم يسوع.

«**الذي في السماوات**» تذكيرٌ بعظمة الله، وقداسته، وقدرته. دعوةٌ إلى الورع والخشوع تملأنا ثقةً وأملاً.

«**ليتقدّس اسمك**»، أي فليعترف الناس أجمعون بصفتك الكمال اللامحدود ومنبع كلّ كمالٍ وقداسةٍ.

اسم الله هو الله نفسه، متجلّيًا لجميع البشر بصوت الخليقة، والمعتلن للمسيحيّين بواسطة يسوع المسيح.

بهذه الطلبة نرجو أن يتلقّى الله من جميع الكائنات العاقلة التكريمَ الذي يستحقّه. تقديس اسم الله لا يعني، فقط، الامتناع عن التلفّظ بهذا الاسم الحبيب بالباطل، بل هو، أيضًا، الإشادة بقداسته، أُسوةً بالملائكة. وهو اعترافنا بهذه القداسة، من خلال أعمالنا وأقوالنا. هو إجلاله، وتكريمه، وحبّه، وخشيته. وهو تمنّي أن يشاركنا جميع البشر في خشيته، سيّدًا أسمى، وفي حبّه، أبًا أمثل.

«**ليأتِ ملكوتك**» أي دفق النعمة الكثيف الذي نتوقّعه منك.

الملكوت فينا، ونحن أعضاؤه. ونحن، في الواقع، لا نطلب مجيئه، فهو قد ساد، دائمًا، نفوس الصدّيقين، والملكوت المرئيّ المؤسّس على يسوع، قائمٌ. ولكنّنا نطلب تقدّمه ونموّه، في المدى والعمق، إلى أن يصبح كلاًّ في الكلّ، وإلى أن نملك مع المسيح الملك. إنّ ملكوت الله لا يحلّ بتدخّلٍ من السماء لا يُقاوَم، بمنأًى عن مشاركة البشر. ولذلك نسأل الله الكلّيّ القدرة، وأبا المراحم، أن يتمّم فعله، وأن يزيح جميع العقبات التي تعيق انتشار الإيمان به، تعالى. نسأله أن يسود في نفوس البشر أجمعين، كي تندحر الخطيئة.

«**لتكن مشيئتك على الأرض كما هي في السماء**»، إذ إنّ ملكوتك يستقرّ ويتّسع بقدر ما نخضع لمشيئتك.

إنّ اللّه يحترم إرادتنا، ومن ثمّ يسعنا معارضة إرادته وعصيانها. ولذلك عندما نقول: «فلتتمّ مشيئتك»، فإنّما نعني أن تتوافق إرادتنا مع إرادته. وهو يستطيع ذلك بلا عنفٍ، ومن غير أن يدمّر إرادتنا.

أعطِنا، اليوم، كفافنا من الخبز الجوهريّ، الخبز الذي يغذّي الجسد، والذي يغذّي النفس، الخبز المادّيّ لغذاء الجسد، وكلام اللّه لغذاء النفس. أوَ لم يقل المخلّص: «**طعامي هو أن أُنفّذ مشيئة من أرسلني، وأتمّم عمله**»؟ ونحن نطلب من الخبز كفافنا ليومنا الحاضر، لأنّنا واثقون من أنّه لن يضنّ علينا بخبز الغد.

إنّ يسوع يهجّر حاجات البشر إلى مواطن أُخرى، وحين يلبّيها يرتقي بها. إنّه يكشف للإنسان النقاب عن جوعٍ أو ظمأٍ جديدَيْن.

وسامحنا بديوننا، مثلما علّمتنا أن نسامح، أو اغفر لنا كما علّمتنا أن نغفر.

على من يتلو هذه الصلاة أن يكون قد سامح وغفر. إنَّ الإساءة دَيْنٌ تجاه المُساء إليه. ومن يغفر يتنازل عن هذا الدين. وصفحنا أو تنازلنا عن ديننا تجاه الآخرين هو شرطٌ لا مفرّ منه كي يغفر لنا اللّه ذنوبنا، ويسامحنا بدَيْنه تجاهنا.

لا تدَعْنا، وحدَنا، عندما تدهمنا التجارب، لئلاّ نسقط. فأنت عليمٌ بوهننا وبمكر عدوّنا وعدوّك. ولا تمتحنّا بما لا طاقة لنا على احتماله.

نجّنا من الشرّير، أي من إبليس، أبي كلّ الشرور، ومن حبائله. نجّنا من كلّ شرٍّ، من الألم الجسديّ الذي قد يردينا، ما لم يقدْنا عونك إلى الاستسلام التامّ لمشيئتك، ومن الشرّ الأخلاقيّ الكفيل بإيذاء نفوسنا ما لم يتداركنا نورك، وصفحك، ودعمك.

صلاةٌ تسمو بنا صوب الآب، عبر ثلاث رغباتٍ منبجسةٍ من نفسٍ متّحدةٍ بهذا الأب المحبوب، صابيةٍ إلى تمجيده. بها ننعتق من أنانيّتنا، وقلّة إيماننا، ومن وضع أسماءٍ أخرى فوق اسم اللّه، وممتلكاتٍ أرضيّةٍ فوق ملكوته الأبديّ. فمشيئة اللّه لا يمكن أن تستهدف غير خير البشر، ومجيئه إنّما هو وعدٌ بالخلاص، وضمان تقديسٍ وشفاءٍ.

* *

الطلبات الثلاث الأُخرى تلتمس بها فاقةُ البشر ووهنُهم، عونَ الآب، وأنسنَة

الإنسان. فطلب الخبز الأساسيّ، يومًا فيومًا، يؤكّد اعتمادنا الكلّيّ على الله، واعترافنا بأنّ الإنسان، سواءٌ كان غنيًّا أو فقيرًا، لا قِبَل له على التصرّف بخيرات الأرض على هواه، بل هو خاضعٌ لمشيئة الله. وعلينا أن نطلب الخبز لأنفسنا وللعالم، لنكون أدوات الله في إطعام المحتاجين.

الغفران يفتح طريقًا إلى تلاقي البشر. إنّه علاقةٌ ثلاثيّةٌ بين الله والإنسان وأخيه. كلّ غفرانٍ ينبع من الله. وما صفح البشر بعضهم لبعض سوى امتدادٍ طبيعيٍّ لصفح الله. وهو يعني الإيمان بالله، والقناعة بأنّه أبٌ، ومصدر كلّ خيرٍ.

وتُختتم الصلاة بدعاء «**نجّنا من الشرّير**»، وكأنّه تنهّد الخليقة كلّها.

تلك هي صلاة جميع البشر الذين يريدون أن يكون الآب معروفًا في حقيقته، وقدرته، وقداسته. مشيئته تحكم كلّ شيءٍ، وحبّه يغمر كلّ خليقةٍ. وكلّ مخلوقٍ يرجو أن تترسّخ مملكته بالامتثال لمشيئته، والامتلاء بحبّه.

لا مكان، بعدُ، للإلحاد، وعبادة الأصنام، ولا للتديّن الأجوف، حيث يحتلّ الإنسان مكان الله.

الجميع في حاجةٍ إلى الضروريّ الذي يقيم حياتهم، فيطلبون الخبز. والجميع خاطئون يلتمسون صفح الآب. ولكي يظفروا به، يغفرون لإخوانهم، كي يستطيعوا القول: «**اغفر لنا، كما نحن نغفر**». الجميع يصارعون الشرّير الذي يدفعهم إلى الشرّ، فيصيحون للآب ألاّ يذرهم وحدهم في مواجهته، ويلتمسون أَزره لدحره.

* *

يمكن العثور على معظم هذه الطلبات متفرّقةً، مبعثرةً في الكتب اليهوديّة، وقد تذرّع بعض الكتّاب اليهود المعاصرين بإيراد بعض عباراتٍ من كتبهم الدينيّة تداني بعض مقاطع من «أبانا»، بُغيةَ الانتقاص من قيمة صلاة يسوع وفرادتها. ولكن أين هذه العبارات المجتزأة، المبعثرة، من ذاك التماسك، ومن روح الثقة الذي يخاطب به أبناءٌ أباهم، ومن مثل هذه النبْرة التي تنبض محبّةً وإيمانًا!

وأين منها هذا الزهد في الخيرات الأرضيّة، والمصالح الأنانيّة، وهذا الاكتفاء بالتماس مجد الآب، وحلول ملكوته؟ وأين منها هذا الإخاء الشامل المنزّه من كلّ عنصريّةٍ، وتعصّبٍ، وبغضٍ للآخرين؟

كَيْفَ نُصَلّي؟(*)

بعد أن زوّد يسوع تلاميذه بنصّ صلاةٍ تصلح لكلّ بشرٍ في كلّ حينٍ، عكف على ترسيخ روح الصلاة فيهم. فالصلاة، كي تكون مجديةً، مثمرةً، ينبغي أن تتّصف بالإيمان، والثقة، والمثابرة، والإلحاح. وفي هذا السبيل ضرب مثلاً: «**إذا كان لأحدكم صديقٌ وأتاه في نصف الليل وقال له: أَقرِضْني، أيُّها الصديق، ثلاثة أرغفةٍ: فإنّ صديقًا لي قدمَ عليّ من سفر، وليس عندي ما أُقدّم له، فإذا أجابه من داخلٍ، وقال: لا تُزعجْني! فالآن البابُ مُقفلٌ، وأولادي معي في الفراش، فلا أستطيع أن أقوم فأعطيك، فأقول لكم إنّه إن لم يقُم ويُعطه لكونه صديقه، فإنّه ينهض للجاجته ويُعطيه كلّ ما يحتاج إليه.**

«**وأنا أقول لكم: اسألوا تُعطوا، اطلُبوا تجدوا. اقرعوا يُفتح لكم. فإنّ كلّ من يسأل ينال، ومن يطلُبُ يجد، ومن يقرع يُفتح له. أيُّ أبٍ منكم إذا سأله ابنُه رغيفًا يُعطيه حجرًا، أو سأله سمكةً يُعطيه بدلَ السمكة حيّةً، أو سأله بيضةً أعطاه عقربًا؟ فإذا كنتُم، وأنتم أشرارٌ، تعرفون أن تُعطوا أولادكم ما هو حسنٌ، فكم بالحريّ أبوكُم السماويُّ يُعطي الروح القدس للّذين يسألونه؟**» (لوقا١١: ٥–١٣).

كم كان يسوع مبدعًا بتوشيته تعاليمه بهذه الصور العذبة المستقاة من صميم حياة البشر اليوميّة، يستعين بها على تثقيف أصدقائه، والارتقاء بأرواحهم! يستعين بالعابر كي يذكّر بالحقائق الخالدة، وبالتوافه التي تشغلنا كي يلفت اهتمامنا إلى الوقائع الإلهيّة التي ننزع إلى السهو عنها.

الرجل الذي قرع باب صديقه وجاره كانت أسرته قد استهلكت، على العشاء، كلّ مخزونها من الخبز، لأنّها لم تتوقّع مجيء ضيفٍ في منتصف الليل. وإقراء

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «وضرب لهم مثلاً في أنّه ينبغي أن يُصلّوا باستمرارٍ، ولا يملّوا»، صفحة ٣١٦.

الضيف واجبٌ مقدّسٌ قد يسبّب الإخلالُ به الفضيحةَ والعارَ. ولذلك لم يتورّع عن قرع باب صديقه. أمّا صديقه هذا فكان قد آوى مع زوجته وأولاده، منذ ساعاتٍ، إلى فرشهم المبسوطة على الأرض، وتغطّوا جميعهم بلحافٍ أو بلحافين، وكان من شأن نهوضه إيقاظ معظم أفراد أسرته، وإفساد نومهم، فاعتذر. ولكنّ اعتذاره لم يُجدِه نفعًا، فصديقه الواقف عند الباب، لا ينفكّ يقرعه، وهو عازمٌ على ألاّ يعود صفر اليدين. وفي الواقع قد حقّق له الإلحاح المزعج، ما لم تحقّقه الجيرة والصداقة.

فلا نخشينّ الإلحاح في الطلب، والإمعان في الصلاة، فإنّ ما يتوقّعه الآب منّا هو دالّة الابن، وثقة الأطفال العمياء في آبائهم.

بوسّويه قال: «ثمّة وسيلةٌ لإرغام الله، وانتزاع نِعَمه، وهي طلبها بلا هوادة».

غالبًا ما يخامر المصلّي شعورٌ بأنّ الله متصامٌّ، صارفٌ سمعه عنه، غير مستجيبٍ، فما عليه، حينئذٍ، إلاّ مضاعفة الصلاة بمزيدٍ من الصدق، واللجاجة، والحرارة. وقد يطلب ما لا يؤدّي إلى خلاصه، ولكنّ الله، وهو أعلم منه باحتياجاته، يهبه ما هو، حقًّا، خيرٌ له، ويلائمه.

وما أجمل قول يسوع، في هذا الشأن: «**فكم، بالحريّ، أبوكم السماويّ يعطي الروح القدس للذين يسألونه**»!

وأيّ عزاءٍ يبثّه فينا الرسول بولس، من خلال قوله، في رسالته إلى العبرانيّين (٨: ٢٦): «**الروح، أيضًا، يعضد ضعفنا، لأنّا لا نعرف كيف نصلّي كما ينبغي، ولكنّ الروح نفسه يشفع فينا بأنّاتٍ تفوق الوصف**»!

أَخْرَسُ يَتَكَلَّمُ، وَأَعْدَاءُ يَسُوعَ يَفتَرُون (*)

(لوقا ١١: ١٤ – ٢٦)

حيثما حلّ يسوع كان يشفي الأسقام، ويطرد الأرواح الشرّيرة، فيحيطه الشعب بالتمجيد والاندفاع، ممّا يزيد خصومه الفرّيسيّين وشركاءهم حقدًا، ونقمةً، وعنادًا في مقاومته، وتصميمًا على القضاء عليه. ويسوع، بعد أن جهر، في الهيكل، بهويّته الإلهيّة والمسيحانيّة، لم يعد معنيًّا بمداراتهم، بل أصبح تعرُّضه لرِيائهم أشدّ ضراوةً، لأنّهم كانوا العقبة الكأداء في درب رسالته، وعثرةً للصغار والمؤمنين، أولئك الذين ألهم يسوعَ حبُّه لهم، تنديدًا بالفرّيسيّين، لاهبًا، لاذعًا، ساحقًا.

وفيما كان الربّ يحرّض على اللجاجة في الصلاة، جاؤوه بإنسانٍ عَقَل الشيطانُ لسانَه، فطرد منه الروح النجس، فطفق يتكلّم، فتعجّب الشعب، ومجّد قدرة الله. ولم يُسعد حماةَ الشريعة الذين كانوا قد قدموا من أورشليم لمطاردة يسوع والإيقاع به، أن يستعيد إنسانٌ مبتلًى بالبكم القدرة على النطق، لأنّ في هذا الشفاء ما يثبت قدرات يسوع الفائقة، ويعود عليه بالمجد، والرفعة، ومحبّة الشعب. لم يقووا على إِنكار الواقع الراهن، ولم يعثروا على حجّةٍ يدينونه بها، فسعوا إلى التشكيك به، افتئاتًا وافتراءً، فعزوا قدراته إلى تواطئه مع رئيس الشياطين، بعلزبول، على طرد الشياطين. ولفظة بعلزبول، أي إله الزبل، كانوا قد حوّروها عن «بعلزبوب» أي إله الذباب، إمعانًا في تحقير يسوع. وفي محاولةٍ ماكرةٍ لإحراجه، طالبوه بآيةٍ يحدثها في السماء، لا على الأرض، كي يؤمنوا به.

ذلك هو شأن أعداء الحقيقة المتعنّتين، في كلّ عهدٍ، عندما تعييهم الحجّة في

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «من ليس أصمّ وألكن اليوم؟»، صفحة ٣١٩.

مقارعة خصومهم، فيعمدون إلى الافتراء، ويتّهمونهم بأنّهم أعوان الشيطان، ويرشقونهم بالكفر.

ناقشهم يسوع بمنطقٍ هادئٍ، مسفّهًا كلّ تخرّصاتهم. فلو هو كان باسم الشياطين يطرد الشياطين، فهذا يعني أنّ الأبالسة منقسمةٌ على ذاتها، يحارب بعضها بعضًا، فلا بدّ من أن تنهار مملكتها، ولا تقوم لها قائمةٌ. وذكّر خصومه بأنّ من زملائهم وأبنائهم من يمتهنون طرد الشياطين والأرواح الشرّيرة، فهل هم أيضًا يستعينون على ذلك بالشياطين؟! فليستوضحوهم، وحينئذٍ سيدينهم أبناؤهم.

ولكن، إن كان يسوع يطرد الشياطين باسم الآب وباسمه، وإن هو منح تلاميذه القدرة على طردها باسمه، فهذا يعني أنّ أمرًا خارقًا قد حدث، وأنّ ملكوت الله قد بات قريبًا. ولكنّ خصومه يأبون رؤية الحقّ، ويتعمّدون إغماض عيونهم لكي لا يشهدوا النور. وإنّما رفض النور خطيئةٌ بحقّ الروح القدس، منبع كلّ نورٍ. خطيئةُ تعمّد التعامي عن الحقّ، وتسمية الله شيطانًا، ورؤية الله في الشيطان، والاستسلام، طوعًا، لأسره، على غرار أولئك الفرّيسيّين الذين عزوا عمل الروح القدس الساطع إلى بعلزبول، ونفوا أنفسهم عن دائرة النور والغفران، وارتكبوا الخطيئة التي لا تغفر. إذ كيف يؤتى الغفران من يأباه؟ إنّ من يغمض عينيه، بعنادٍ، دون أنوار الروح، يحكم على نفسه بظلامٍ أبديٍّ.

وحذّر يسوع خصومه من إفساد مرامي الله التي يحقّقها. فهو القويّ الوحيد القادر على لجم أمير الشرّ، وطاغوت البشريّة، وعلى انتزاع أسلحة شرّه، وتجريده من كلّ حوْلٍ وطوْلٍ. وبالتالي فإنّ كلّ من يقاومه عميلٌ للشرّير، وكلّ من لا يحالفه في هذه المعركة، ومن لا يجمع معه الضحايا التي انتزعها من براثن عبوديّة الشرّير، فهو يبدّد، ويخرّب.

وبمناسبة الحديث عن الأرواح الشرّيرة، أطلق يسوع تحذيرًا آخر شديدًا، لكلّ من تسنّى له الانعتاق من ربقتها فقال: «**إنّ الروح النجس إذا خرج من الإنسان يهيمُ في أماكن مُجدبةٍ ينشُد الراحة. وإذ لا يجدُها يقول: أعود إلى بيتي الذي خرجتُ منه. فيأتي فيجدُه مكنوسًا ومرتّبًا. فيمضي فيأتي بسبعة أرواحٍ آخرين شرٍّ منه، فيدخلون ويسكنون هناك، فتكون حالةُ ذلك الإنسان الأخيرةً أسوأ من الأولى**» (لوقا ١١: ٢٤– ٢٦).

هذا التحذير الرهيب يميط اللثام عن المأساة الخفيّة، الناشبة بالنفس البشريّة، في صراعها مع قوى الشرّ، ويؤكّد عقم كلّ محاولةٍ تدّعي التحرّر بمعزلٍ عن المخلّص. فلا جهود الإرادة العزلاء، ولا ممارسات الفلسفة، والديانات الزائفة، أو التقوى الفرّيسيّة الجوفاء، تجدي نفعًا، ولا يكفي أن ينسحب روح الشرّ انسحابًا مؤقّتًا، بل لا بدّ من أن يقيّده الروح الوحيد القادر على إخضاعه، أي روح الله، ولا بدّ من أن يحتلّ هذا الروح المكان الخالي في النفس المحرّرة، لئلاّ يؤوب إليه الشرّير، أوفر قوّةً وشراسةً. يسوع، وحده، الذي يملك ملء روح الله، هو القادر على قهر الشرّ، وعلى إحلال ملكوت الله في الضمائر البشريّة.

إنّه لعذبٌ أن يتطهّر الإنسان، وينظّف نفسه من كلّ رجسٍ، وأن يزيّنها وكأنّها قاعة عرسٍ. غير أنّ قطيع القذارة والدنس الذي طُرِد، يعود ذات مساءٍ، ويطلق، عند الباب، فحيحه ونخير فناطيسه، فإن وجد المكان خاليًا اقتحمه، واحتلّه. ولكنّه إن وجد الروح يغمره فرّ مهزومًا.

وسط ذلك الجوّ المتجهّم، أشرق شعاع شمسٍ، فقد كان، بين الحضور، نسوةٌ لا يتعامَيْن عن النور، ولا تحدوهنّ أغراضٌ دنيئةٌ، ويتكلّمن بما تمليه عليهنّ قلوبهنّ. وقد فتنهنّ، في يسوع، جلاله، وسكونه، وسداد حكمته، وأقواله التي تسمو فوق كلّ نقاشٍ، وتصلح لكلّ زمنٍ. فهو لا يجرح إلاّ لكي يشفي، ولا يُنذر إلاّ لكي يحوّل ويهدي. وقد رفعت إحداهنّ عقيرتها بالهتاف: «**طوبى للبطن الذي حملك، وللثديين اللّذين رضعتهما!**». هذا الثناء النسائيّ الجرْس، سما به يسوع إلى مراقٍ رفيعةٍ، وعمّمه على أتباعه الحقيقيّين، فأجاب: «**بل طوبى للذين يسمعون كلمة الله، ويحفظونها**».

بهذا الردّ لم يرفض يسوع مديح أُمّه، بل توخّى التأكيد على أنّها مغبوطةٌ لا لأنّها أمّه فحسب، الأمّ التي حملته وأرضعته، بل لأنّها، أكثر من أيّ مخلوقٍ، سمعت كلمة الله، وحفظتها، وعملت بها. لذلك تستحقّ الطوبى، ويستحقّها، أيضًا، كلّ من يتّخذ من العذراء قدوةً ومثالاً.

يَسُوعُ هُوَ الآيَـة

(لوقا ١١ : ٢٩-٣٢)

إثر تطويب يسوع وأمّه النابع من قلبٍ مؤمنٍ صافٍ، وعقب تسفيه يسوع للفرّيسيّين وتنديده بهم، تكاثف ازدحام الجموع من حوله. حينئذٍ التفت إلى الذين رهنوا إيمانهم به بإجرائه آيةً في السماء، على غرار إيليّا الذي أنزل من السماء نارًا على آلهة البعل، وجعل السماء تحبس غيثها ثلاث سنين، ثمّ فتح ينابيعها بصلاته، وأطلق يسوع زفرةً حارّةً: «**إنّ هذا الجيل جيلٌ فاسدٌ. إنّه يطلب آيةً، فلن يُعطى آيةً إلاّ آية يونان**».

ما من آيةٍ تستعصي على قدرات ابن الله، ولكنّه رفض تحدّي أعدائه المتغطرسين، لكي لا يبني إيمان القوم على معجزاتٍ، ولكي يُثبت للمستمعين أنّ أقواله ومعجزاته كافيةٌ لمن يبتغون الإيمان صادقين، وأنّ من يتعمّدون إعماء بصائرهم لكيلا يؤمنوا، إنّما يرتكبون خطأً فادحًا، لأنّهم أبوا أن يتوسّموا علامةً إلهيّةً، في حياةٍ تغمرها الألوهة.

لقد أجرى يسوع كلّ أصناف المعجزات التي أعلن الأنبياء أنّ المسيح سيحقّقها، وكانت المعجزات تتدفّق من يديه حيثما مضى. إلاّ أنّ الفرّيسيّين لم يقيموا لها شأنًا، وطالبوه بأُخرى لا تكون من صنع يديه، بل تهبط من السماء.

أوَ لم يكن يسوع، في شخصه، وكلامه، وحكمته، وإشعاع كلّ كيانه، الآية الأشدّ تألّقًا، الآية التي لا يضاهيها يونان في غيرته، ولا سليمان في حكمته؟ فلمَ لم يعترف به الفرّيسيّون؟ لا لأنّ النور كان ينقصهم، بل لأنّهم عصبوا عيونهم لئلاّ يبصروا النور. وهذا ما عناه يسوع بقولـه: «**ليس أحدٌ يُوقد سراجًا ليضعه في مكانٍ مستورٍ أو تحت مكيالٍ، بل يضعُه على المِسْرجة لكي يرى الداخلون النور.**

«**سراج الجسد العَيْن. فإذا كانت عينُك سليمةً كان جسدُك كلّه في النور.**

وأمّا إذا كانت عليلةً فجسدُك كلُّه يكون في الظلام. فتبصّر، إذن، لئلاّ يكون النورُ الذي فيك ظلامًا. فإذا كان جسدُك كلّه في النور وليس فيه جانبٌ مظلمٌ فكم يكون نيّرًا عندما يُضيء لك السِراج بلمعانه» (لوقا ١١: ٣٣-٣٦).

يسوع هو المصباح الذي أضاءه الآب كي ينير البشريّة كلّها. ولكن لا بدّ من أن تُفتح العيون كي تبصر النور. وكم كان يسوع يحبّ صورة النور الذي يرمز إلى استقامة القلب، وصفاء النيّة، ونقاء الضمير!

كلّ الشهادات التي أحاقت بيسوع، معلنةً اللّه فيه، لم تُجدِ نفعًا من كانت قلوبهم زائفةً، ونواياهم خبيثةً، وضمائرهم فاسدةً. وستظلّ جميع الآيات مظلمةً في عيونهم، ولن يُبرهن أكثرها إدهاشًا عن شيءٍ، لأنّ نور اللّه لا ينفذ إلاّ من خلال قلبٍ وضميرٍ يطيحان بالأحكام المسبّقة، والكبرياء الباطلة.

يونان لم يفعل أكثر من يسوع، وآمن به البابليّون وتابوا. وملكة سبأ هرعت من أقاصي المسكونة كي تسمع حكمة سليمان. وها إنّ بين ظهراني اليهود من هو أسمى حكمةً من سليمان، بلا قياسٍ. ولكنّهم يصمّون آذانهم عن سماعه، ويغمضون أبصارهم عن معجزاته، ويطلبون آياتٍ على هواهم. وإنّما يسوع يجري المعجزات بدافع العطف، وإنارة النفوس المستقيمة. ولكنّه يأبى المثول أمام محكمة المتغطرسين الذين يدّعون أنّهم، وحدهم، المعلّمون.

طلبوا آيةً، ولن يعطيهم الربّ سوى آية يونان، إشارةً إلى قيامته التي رمز إليها خروج يونان من بطن الحوت، بعد ثلاثة أيّامٍ. تلك القيامة ستتمّ في الساعة التي حدّدها الآب، وستأتي ثمرة حبّ يسوع للبشر، حبٍّ دفعه إلى الموت افتداءً لهم، وثمرة حبّ الآب لابنه، حبًّا أقامه من القبر. حينئذٍ سيردّ يسوع على تحدّي الفرّيسيّين، بمعجزةٍ تتخطّى كلّ توقّعاتهم. فكما مكث يونان في بطن الحوت ثلاثة أيّامٍ، وثلاث ليالٍ، سيمكث يسوع في جوف القبر المدّة عينها، ثمّ سينهض قاهرًا الموت بمحض قدراته الإلهيّة.

وقد حمل الفرّيسيون نبوءة يسوع هذه على محمل الجدّ. فما إن دُفن حتّى هرعوا إلى بيلاطس، طالبين إقامة حراسةٍ صارمةٍ على القبر، خشية أن يحقّق يسوع نبوءته، فيروا، ويضطرّوا إلى الإيمان.

وَليـمَةٌ أَمْ مَعْرَكَةٌ ؟

(لوقا ١١: ٣٧ – ٥٣)

حان موعد الغداء، فدعا فريسيٌّ يسوعَ وصحبه إلى بيته، وربّما كان يبيّت نيّة الإيقاع به. وكان قلب الربّ ما برح يعتصره الأسى من جرّاء إصرار زعماء شعبه على مقاومة رسالته، وما فتئ همّ إعداد تلاميذه لنشر رسالته يلازمه. فجاء بيت المضيف، واستلقى على فراش المائدة، ريثما يُقدَّم الطعام، ذاهلاً عن فرائض الوضوء والاغتسال، التي كان الفرّيسيّون يقيمون لها شأنًا بالغًا. امتعض الفرّيسيّ، وتجلّى على سحنته اشمئزازه من سلوك يسوع، وتولاّه الندم على دعوته، ولا سيّما أنّ بين مدعوّيه رهطًا من أترابه الفرّيسيّين، ومن علماء الشريعة. ولكنّه أمسك عن الجهر باستنكاره، خشيةً من ردود يسوع اللاذعة، التي باتت أليفةً لديه، في تلك المرحلة. ولكن فاته أنّه بحضرة قارئ كوامن القلوب، الذي لم يفوّت تلك السانحة كي يشنّ حملةً شعواء على النفاق، والرياء، والتضليل. فقال، بلهجةٍ صارمةٍ، وبسلطة القاضي الذي يسبر خفايا الضمائر: «**إنّكم، أنتم أيّها الفرّيسيّون، تطهّرون ظاهر الكأس والصحْفة وباطنُكُم مملوءٌ سلبًا وخُبثًا. أيُّها الحمقى، أليس صانعُ الظاهر هو صانع الباطن أيضًا؟ فتصدَّقوا بما في الباطن فيكون كلُّ شيءٍ لكم طاهرًا.**

«**ولكن، ويلٌ لكم، أيُّها الفرّيسيّون، فإنّكم تؤدّون عُشْر النعناع والسَّذاب وسائر البقول، وتُعَدُّون عن العدل، وعن محبّة الله. وكان عليكم أن تعملوا هذا من غير أن تُهملوا ذاك.**

«**ويلٌ لكم، أيُّها الفرّيسيّون، فإنّكم تحبّون صدورَ المجالس في المجامع وتلقّي التحيّات في الساحات العامّة. ويلٌ لكم فإنّكم مثل القبور الدوارِسِ يمشي الناس عليها ولا يعلمون**» (لوقا ١١: ٣٩–٤٤).

بهذا القول أوضح يسوع رأيه في الطهر والتطهُّر، وفضح نفاق الفرّيسيّين.

فرائض الاغتسال هي من وضع علماء الشريعة. ولكنّ الفرّيسيّين يولونها من الشأن أكثر من الشريعة نفسها. وقد حرص يسوع على التذكير بأنّ الجوهريّ هو طهر الداخل، ونقاء النوايا، لا الظواهر التي تموّه، غالبًا، قلوبًا يفوح منها الإنتان.

إنّ يسوع، ملك الحقيقة الذي تخطّت رحمتُه حيال الخطأة التائبين كلَّ حدٍّ، كان حربًا على الكذب والرياء لا هوادة فيها. ولذلك لم يجد غضاضةً في تجاوز واجبات اللياقة، وفضح نفاق الفرّيسيّين، في بيت أحدهم، وعلى مائدته.

مرَّةً أُخرى كرّر على مسامعهم قوله إنّ تطهير الجسد لا يُجدي نفعًا في تطهير النفس، ولكنّ النفس الطاهرة تقدّس الجسد، والنفس لا تُطهّر إلاّ بالمحبّة والإحسان. فإن هم تصدّقوا بنيّةٍ سليمةٍ، لكان ذلك خيرًا من تطهّرٍ خارجيٍّ لا قدرة له على إزالة أقذار الباطن.

لقد صبّ على رؤوسهم الويلات، وأدانهم بثلاثة مآخذ خطيرة:

– هوسٌ في التقيّد بالفرائض الصغيرة النافلة، وتراخٍ حيال وصايا الله الأساسيّة.

– زهوٌ، وعجْبٌ بالذات، والتماس الأمجاد الباطلة. فالتلمود يقول إنّ من لا يولي رابّيًّا التكريم الذي يليق به، يهين العزّة الإلهيّة.

– رياءٌ يحاكون به القبور المكلّسة. فالقبور كانت لديهم رمزًا للنجاسة، بحيث إنّ من لمس قبرًا، عُدّ نجسًا مدى ثمانية أيّام. ولكنّ ظاهرها يُخفي نجاسة باطنها.

لقد ابتغى يسوع وضع المحبّة فوق كلّ الفرائض والطقوس. فالمحبّة تعيد الطهر إلى القلوب. وما أخذه على أولئك الحريصين على أداء الفرائض الظاهريّة الكثيرة، هو افتقارهم إلى القداسة ومحبّة الله. فلو كانت فيهم المحبّة لما التمسوا مواقع الصدارة في المجامع، ولا تحيّات التبجيل في الساحات، التي يردّون عليها بإيماءاتٍ تكاد لا تلاحَظ، ولا شيء ممّا يتفوّهون به بعُجْبٍ، يقرّب من الله، أو يزيد القوم حبًّا به.

وهنا اعترض أحد علماء الشريعة بأنّ هجوم يسوع على الفرّيسيّين يطالهم، هم أيضًا، بسهامه، فابتغى أن يعيد الناصريّ إلى صوابه، قائلاً: «**يا معلّم، إنّك، بكلامك هذا، تشتمنا، نحن أيضًا**». والتفت الربّ إلى هذا المنافق الآخر، وهو

أكثر جدارةً بالتنديد من الفرّيسيّ، لأنّه من فئة المعلّمين الذين يسمّمون نفوس الصغار. وكان يسوع يرى، بنظرته الإلهيّة، أنّ أولئك المعلّمين الزائفين سيكونون الأشدّ مناوأةً لحبّه، لأنّهم الأبلغ تأثيرًا في عقول اليهود، وسيظلّون، عبر القرون، أعداء حبّه. فاستشاط غيظًا. وهو، الحبّ الصافي، ذودًا عن حبّه، صبّ عليهم الويلات، إذ إنّهم والفرّيسيّين من طينةٍ واحدةٍ، لا بل إنّ جريرتهم أشدّ فداحةً، لأنّهم يضلّلون من واجبُهم هدايتُهم، ويرهقون من عليهم مواساتهم: فقال: «**وأنتم أيضًا، يا علماء الشريعة، ويلٌ لكم. فإنّكم تُحمّلون الناس أحمالاً شاقّةَ الحَمْل ولا تمسُّون، أنتم، تلك الأحمال بإحدى أصابعكم.**

«**ويلٌ لكم، فإنّكم تشيّدون قبورَ الأنبياء وآباؤكم هم الذين قتلوهم. فأنتم، إذن، شهودٌ على أعمال آبائكم وتؤيّدونهم: فهم قتلوهم وأنتم تبنون قبورَهم. من أجل ذلك قالت حكمة الله: سأُرسل إليهم أنبياء ورُسلاً، ففريقًا يقتلون، وفريقًا يضطهدون، لكي يُطلب من هذا الجيل دمُ جميع الأنبياء المسفوح منذ إنشاء العالم: من دم هابيل إلى دم زكريّا الذي أُهلك بين المذبح والمقدس. أقولُ لكم: أجلْ، إنّه سيُطلب من هذا الجيل.**

«**ويلٌ لكم، يا علماء الشريعة، فإنّكم قد استوليْتم على مفتاح المعرفة فلا أنتم دخلتم، ولا الذين أرادوا الدخول تركتموهم يدخلون**» (لوقا١١ : ٤٦ : ٥٢).

أيّ ضميرٍ مستقيمٍ لا يرتعش لسماع هذا الصوت الإلهيّ الذي يدين، إدانةً مبرمةً، أبديّةً، أولئك المسيئين الطغاة، الذين اتّخذوا من الدين قناعًا، ومن أقدس السلطات، السلطة الدينيّة، وسيلةً للخداع، والاستعباد، والتضليل!

إنّهم يحتكرون العلم والتعليم، ولا يتلقّون درسًا من أحدٍ. ولا يكتفون بتفسير الشريعة، بل هم، بحجّة تفسيرها، يبتدعون شرائع جديدة، ويلقّحونها بمبتكراتهم؛ يرهقون بها كواهل الناس، ولكنّهم يحرّرون أنفسهم من عبئها بفتاوى يمتلكون سرّها. يدّعون الاستيلاء على مفاتيح المعرفة، ولكنّها مفاتيح معوجّةٌ صدئةٌ، تكاد لا تفتح الباب الخارجيّ، باب الحرف، في حين تظلّ الأبواب الداخليّة، أبواب «المحبّة الحيّة» موصدةً دونهم. ينهمكون في بناء سورٍ حول الشريعة، يحمي حرفها، ولا يسمح بالولوج إلى روحها، ويبقون، هم، خارجها.

إنّهم يشيّدون قبورًا فخمةً للأنبياء، وكأنّهم يكفّرون عن جرائم آبائهم الذين قتلوهم، في حين ليسوا، هم، أقلّ عداءً، وإجرامًا، بحقّ أنبياء جيلهم. إنّهم يحتكرون العلم والمعرفة كي يحولوا دون انتهاج الآخرين جادّة الخلاص التي زاغوا، هم، عنها.

يومًا إثر يومٍ، كان يتجلّى التباين بين تعليم يسوع وتعليم علماء الشريعة الذين سرعان ما تبيّنوه، فتربّصوا بالمعلّم، وطاردوه، ونصبوا لـه الشباك، وحاولوا اختطافه، ورجمه، وأضمروا لـه من الحقد ما حملهم على عزو كلّ أعماله الخارقة إلى بعزبول، رئيس الأبالسة، في حين كان هو ماضيًا في شفاء المرضى، وطرد الشياطين، والدعوة إلى ملكوت الله.

كان هو النور، ومن ثمّ، متميّزًا عن الظلمة؛ وقد أظهر أنّ عبادة الفرّيسيّين، إنْ هي إلاّ تشويهٌ للعبادة الحقّة التي تقود إلى الله على دروب الحبّ. موقف الفرّيسيّين الدينيّ لم يكن سوى موقف العبد الذي يكتفي بأداء واجبه، وهو، غالبًا، واجبٌ خارجيٌّ، ولكنّه لا يقيم أيّة علاقة مودّةٍ مع سيّده. والفرّيسيّون لا يضمرون أيّة محبّةٍ للشعب الذي يصفونه بالجهل ويزدرونه، ومع ذلك يدّعون خدمته، بإخضاعه خضوعًا صارمًا للشريعة.

كان يسوع يتوق توقًا عارمًا إلى تنوير أذهانهم، ولكنّهم كانوا يرون أنّ محبّته المفرطة لا تتوافق مع علمهم الثمين الذي كلّفهم ليالي سهادٍ في تحليل النصوص، واستجلاء التقليد المتوارث جيلاً عن جيلٍ، والذي غدا أشدّ كثافةً من الشريعة نفسها، بل أضحى نبتةً طفيليّةً تمتصّ نسغ الشجرة الأصيلة، وبقدر ما هي تخضلّ وتشتدّ، تجفّف الشجرة وتميتها.

يسوع جاء كي يشفي الخطأة، والفرّيسيّون خطأةٌ يتعذّر شفاؤهم بلا بترٍ موجعٍ خلاصيٍّ. وعندما أمطر عليهم إنذاره بالويلات، لم يكن يلعنهم، بل يتألّم لما يعرّضون لـه ذواتهم من هلاكٍ، من جرّاء عنادهم في ضلالهم.

* *

دعوةٌ إلى الغداء انقلبت سجالاً لاذعًا. ربّما لم يتناول أحدٌ من المدعوّين لقمةً، ومن المحقّق أنّ تلك المواجهة قد رسّخت تصميم الكتبة والفرّيسيّين على قتل يسوع.

فالإنجيليّ لوقا يؤكّد أنّهم أخذوا «**يوغرون صدورهم عليه بشدّةٍ، ويتعنّتونه بالأسئلة في أمورٍ كثيرةٍ، وينصبون له الفخاخ، ليصطادوا كلمةً من فيه**».

كان يسوع موقنًا بأنّ كلّ كلمةٍ يتفوّه بها ستدوّن في محاضر رؤساء الكهنة في أورشليم. ولكنّ صدره كان قد ضاق صبرًا بتشويه الفرّيسيّين وعلماء الشريعة لوجه الله ولعبادته، وأمسى توّاقًا إلى تحطيم الأطواق الخانقة لحبّ الله الطليق المتدفّق، وإلى تقويض قلاع الطقوس الضنكة الحسيرة النظر، وإلى إطلاق عواصف الروح في أرجاء بيوت العبادة التي لم يعد لها من همٍّ سوى الطقوس. ولا عجب إن دوّت إنذاراته رهيبةً، مجلجلةً.

في تلك الأثناء كانت أصداء صدام يسوع مع الفرّيسيّين والكتبة، وتنديده اللاذع بهم، قد تردّدت في الشارع، فاحتشد، حول البيت الذي استضافه، ألوفٌ من الخلق «**حتّى داس بعضُهم بعضًا**»، على حدّ تعبير لوقا. وقد تبيّن هؤلاء أنّ الربّ كان يعلن جهارًا ما يجول في سرّ قلوبهم، ولا يجرأون على البوح به، خوفًا من انتقام السلطات الدينيّة، التي لا عهد لها برحمةٍ، والتي تحدّاها يسوع ووصف زعماءها بالقتلة، إذ إنّهم لا يتوانون عن أيّة جريمةٍ.

لم يُنازل يسوع الفرّيسيّين وعلماء الشريعة لمجرّد التحدّي، بل حرصًا على إبراز التباين، لا بل التعارض، بين تعليمه وتعليمهم، كي يفقه التلاميذ أيّ تعليمٍ سيُكلّفون بنشره، وأيّ روحٍ جديدٍ ينبغي أن يُدخلوه على العبادة التي شوّهها خصومه، زعماء اليهود وربّيّوهم. وقد دأب المعلّم على تحذير تلاميذه والجموع من خميرة الفرّيسيّين الفاسدة المفسدة، أي من ريائهم. والرياء هو التعارض الواعي المقصود بين السلوك الخارجيّ، والمشاعر الداخليّة، هو الجشع الذي يرتدي ثياب الغيرة والاندفاع؛ هو الرذيلة التي تتهادى بزيّ الفضيلة، بُغيةَ خداع الآخرين والذات. وهذا التمويه الذي لا يليق بإنسانٍ شريفٍ، لا طائل تحته، فكلّ رياءٍ سيُفضح، وكلّ كذبٍ سيُهتك عنه الحجاب. وإن كان لـه تفسيرٌ، فهو الظفر بتقدير الناس، والخوف من عدم تقديرهم، وهو مطمعٌ دنيءٌ في عيون الإيمان.

وخرج يسوع من بيت الفرّيسيّ هادئ الجأش، ساكنًا، ولكأنّ أيّة سَوْرة غضبٍ لم تَنْتَبْهُ، قطّ. فهو، أبدًا سيّد نفسه، يغضب حبًّا، وتظلّ نفسه بحر حبٍّ ساجيًا. ومن حوله تراصّ الجمع الذي كان يذود عن حياضه، في صراعه مع الفرّيسيّين والكتبة.

كان يحزنه ما يتعرّض له ذلك الشعب من قهرٍ وتضليلٍ. وفي الآن عينه، كان يستشرف أمواج الكراهية والاضطهاد التي ستنقضّ على تلاميذه. فخاطبهم، وخاطب الشعب، معًا، بنبرةٍ تقطر عذوبةً ورقّةً، وتتعارض كلّ التعارض مع تلك التي خاطب بها الفرّيسيّين والكتبة، مشدّدًا عزائمهم، ساكبًا بلسم العزاء والأمل في نفوسهم، مطمئنًا، ومحذّرًا، في آنٍ واحد، لكيلا يقعوا في حبائل المضلّلين، وليكلا يرهَبوا القتلة الذي قد يؤذون أجسادهم، ولكنّهم يعجزون عن إيذاء نفوسهم، إن هم ظلّوا معتصمين بحبل الله، واثقين في رعايته وعطفه. وقد دعاهم إلى الصمود في مواجهة الاضطهاد، وعدم الخشية من الشهادة للربّ، كي يستأهلوا شهادته لهم أمام أبيه السماويّ. فقال: «**احذروا، قبل كلّ شيءٍ، من خمير الفرّيسيّين الذي هو النفاق. فإنّه ليس خفيٌّ إلاّ سيُظهر، ولا مكتومٌ إلاّ سيُعلن، لأنّ كلّ ما قلتُموه في الظلام سيُسمع في النور، وما تكلّمتُم به في الأقباء هَمْسًا في الأذن سيُنادى به على السطوح. وأقول لكم، أنتم أحبّائي، ألاّ تخافوا من الذين يقتلون الجسد ثمّ لا يستطيعون أن يفعلوا أكثر. بل أُبيّن لكم ممّن تخافون: خافوا ممَّن إذا قتل، له سُلطانٌ أن يُلقيَ في جهنّم. أقولُ لكم: أجل، من هذا يجبُ أن تخافوا. أليس خمسةُ عصافير تُباع بفلسَيْن، ومع ذلك فما منها واحدٌ منسيٌّ عند الله. بل حتّى شعرُ رؤوسكم كلّه محصًى. فلا تخافوا فإنّكم أكرمُ من العصافير كلّها.**

«**وأقول لكم إنّ كلّ من اعترف بي قدّام الناس يعترفُ به ابنُ البشر قدّامٍ ملائكة الله. ومن أنكرني قدّام الناس يُنكَر قدّام ملائكةِ الله. ومن قال كلمةً على ابن البشر يُغفر له، وأمّا من جدّف على الروح القدس فلا يُغفر له، ومتى قادوكم إلى المجامع والحكّام وذوي السلطان فلا تهتمّوا كيف تحتجّون ولا بما تقولون. فإنّ الروح القدس يُلهمُكم، في تلك الساعة، ما ينبغي أن تقولوه**» (لوقا ١٢: ١–١٢).

المـــالُ المُــمِيت

(لوقا ١٢ : ١٣-٢١)

وفيما كان يسوع يعلّم، ابتدره واحدُ من المجمع، ملتمسًا تدخّله لفضّ خلافٍ بينه وبين أخيه يتعلّق بتقسيم إرثٍ. فقد كان من المألوف أن يُحكّم الرابّيّون في مثل تلك القضايا. ولكنّ السائل، في هذه النوبة، أخطأ العنوان، فلا شأن ليسوع بأمور المال، ومتاع الدنيا. وقد ردّ، بشيءٍ من الجفاء: «**يا رجل، من أقامني عليكم قاضيًا أو مقسِّمًا؟**». ولكنّه، جريًا على عادته، ارتقى من الزحف على الحضيض إلى مراقٍ ساميةٍ، وأضاف: «**انظروا، احترسوا من كلّ طمعٍ، فإنّ الإنسان، وإن أثرى، لا تضمن الأموال حياته**». وسارع إلى تجسيد هذا التعليم الخالد في مَثَلٍ حيٍّ، يرسّخه في الأذهان، فقال:

«**رجلٌ غنيٌّ أخصبت أرضُه، فجعل يُفكّر قائلاً: ماذا أصنع؟ إنّه ليس لي موضعٌ أخزُنُ فيه غلالي... ثمّ قال: أصنع هذا: أهدمُ أهرائي وأَبني أكبر منها. وأجمع هناك كلّ غلالي وخيراتي. ثمّ أقول لنفسي: يا نفسُ، إنّ لك خيراتٍ كثيرةً، مدَّخرةً لسنين كثيرةٍ، فاستريحي، وكُلي، واشْربي، وتنعَّمي... فقال له اللّه: يا أحْمق، إنّك، في هذه الليلة، تُطلبُ منك نفسُك. فهذا الذي أعددته لمن يكون؟**

«**ذلك ما يحدُث للّذي يكنزُ لنفسه ولا يغتني لدى اللّه**» (لوقا ١٢ : ١٦-٢١).

الثروة التي هبطت على ذلك الأحمق، بغتةً، ملأته أوهامًا، فراح يعلّل نفسه بمُتَعٍ وملذّاتٍ متماديةٍ لسنين طويلة، وأنسته أنّه، إن كان بوسعه التصرّف بالمال على هواه، إلاّ أن السنين ليست ملكه، ومفتاح العمر ليس بيده؛ وأنّ، ثمّة، إلهًا قادرًا على سلب روحه وحياته، وإفقاده كلّ قدرةٍ على التمتّع بالمال الذي قد يذهب إلى أقرباء يمقتونه، ويتمنّون موته، وسيبدّدون ماله شرّ تبديدٍ.

النفس التي منّاها بنعيمٍ أبديٍّ ستخضع للحساب، وربّما لعقابٍ أبديٍّ. وكان بوسعه أن يُعدّ لها مصيرًا أبديًّا سعيدًا، لو امتلك الحكمة والتبصّر، وإذن لما أوقعته وفرة الغلال في الحيرة، ولما هدهدته على رؤى أحلامٍ خُلّبٍ. فمن حوله بحرٌ من البؤس الذي يتعيّن عليه تخفيفه وغوثه، ولو فعل، لوظّف ماله توظيفًا يؤتيه مئات الأضعاف، وسعادةً فوريّةً، راهنةً، راسخةً. ولكنّ الجشع أوصد قلبه دون كلّ حسٍّ إنسانيٍّ، وأعماه عن مصلحته الحقّة.

الاكتناز للذات المؤدّي إلى الهلاك هو الإنصات إلى شهوة الأنانيّة، وغواية المتعة. والاغتناء، لدى الله، هو استخدام المال، عملاً بتعليم يسوع، في سُبُل المحبّة.

طُيُورٌ وَزَنَابِقُ، وَسَهَــرٌ

مثل الغنيّ الأحمق وجّهه يسوع للجميع، محذّرًا من الطمع والأنانيّة، ومذكّرًا بأنّ صاعقة الموت قد تنقضّ في كلّ لحظةٍ، مطيحةً بكلّ ما جهد الإنسان في تكديسه.

وإمعانًا في هذا الاتّجاه، حرص يسوع على تلقين تلاميذه، خاصّةً، درسًا قد يتعذّر على العامّة اكتناهه، في التجرّد الكلّيّ، والاعتماد المطلق على العناية الإلهيّة، فقال لهم، بعباراتٍ تترقرق عذوبةً، وسموًّا، وشعرًا:

«لا تهتمّوا لحياتكم بما تأكلون، ولا لأجسادكم بما تلبسون: فإنّ الحياة أعظمُ من الطعام، والجسد أعظمُ من اللباس. تأمّلوا الغربان فإنّها لا تزرعُ ولا تحصُد ولا مخْزنٌ لها ولا هُرْيٌ، واللّه يقوتها. فكم أنتم أكرمُ من الطير! ومن منكم إذا اهتمّ استطاع أن يزيد على وُجوده لحظةً واحدةً. ولئن كنتم لا تستطيعون حتّى هذا القليل فلمَ تهتمّون بالباقي؟

«وتأمّلوا الزنابق كيف تنمو. إنّها لا تغزل ولا تنسجُ. ومع ذلك فإنّي أقول لكم إنّ سليمان نفسه، حتّى في أوج مجده، لم يلبسْ كواحدةٍ منها. فلئن كان العشبُ الذي هو اليوم في الحقل ويُطرح غدًا في التنّور يكسوه اللّه هكذا، فكم بالأحرى أنتم، يا قليلي الإيمان. فأنتم لا تطلُبوا، في قلق، ما تأكلون وما تشربون. فهذا كلّه يطلُبُه وثنيّو هذا العالم بدأبٍ. وأمّا أنتم فأَبوكم يعلمُ أنّكم تحتاجون إليه. فاطلُبوا بالحريّ ملكوته وهذا يُزاد لكم.

«لا تخفْ، أيُّها القطيع الصغير، فإنّه قد حسُن عند أبيكم أن يُعطيكم الملكوت. بيعوا ما هو لكم وتصدّقوا به. اصنعوا لكم أكياسًا لا تبْلى، وكنزًا في السماوات لا ينفد، فهناك لا سارق يتسلّلُ، ولا سوس يُتلِف. فإنّه حيثُ يكون كنزُكم هناك أيضًا يكون قلبُكم» (لوقا ١٢ : ٢٢ - ٣٤).

أيّ فنّانٍ تذوّق الطبيعة مثل يسوع؟ ومن، مثله، افتتن بعناية الآب السماويّ، ودعا

إلى التسامي فوق مشاغل الأرضيّين؟ وأيّة حكمةٍ خالدةٍ في قوله: «**حيث يكون كنزُكم، هناك يكون قلبكُم**»؟

لا يستنكر الربّ الاهتمام بضرورات العيش، ولكنّه يربأ بتلاميذه أن يستولي عليهم القلق بشأنها، وأن يصرفهم عن الاهتمام بشؤون روحهم.

ولكنّ الدعوة إلى الثقة بالعناية الإلهيّة لا تعني الاستسلام للتواكل والتواني. ويسوع يريد أن يظلّ أتباعه يقظين ساهرين، في وضع الخدمة: «**ولتكن أحقاؤكم مشدودةً وسُرُجُكم مُوقدةً. كونوا كرجالٍ ينتظرون سيِّدهم يعودُ من العرس حتّى إذا وافى وقرع فتحوا لـه في الحال. طوبى لأولئك العبيد الذين إذا قدِم سيُّدهم وجدهم ساهرين. فالحقّ أقول لكم إنّه يشُدُّ وسْطه ويُتْكئُهم ويطوفُ يخدُمُهم. أجَلْ، طوبى لهم إذا قدِمَ في الهجعة الثانية أو الثالثة فوجدهم ساهِرين!**» (لوقا ١٢: ٣٥–٣٨).

لا يكفي التأهّب قُبيْل حلول الأجل، فالأجل، كالسارق، يأتي في وقتٍ غير متوقّعٍ، ومن ثمّ ليس كالسهر الدائم مايفشّل غدره. والربّ يغدق مكافأته على من يدأب على السهر تأهّبًا لمجيئه: «**من هو الوكيل الأمين الحكيم الذي يُقيمه سيّدُه على خَدَمه ليقسم لهم رزقهم في حينه؟ طوبى لذلك العبد الذي إذا قدِم سيّدُه وجدَه على عمله. فبالحقّ أقولُ لكم إنّه يُقيمه على جميع أمواله. ولكن إذا قال ذلك العبد في قلبه، إنّ سيّدي مُبطئٌ في قدومه، فجعل يضْرب الغلمان والجواري، ويأكل ويشربُ ويسكر، فيقْدم سيّدُ ذلك العبد في يومٍ لا يتوقّعه، وساعةٍ لا يعرفها، فيفصله ويجعل نصيبه مع الكافرين.**

«**فالعبد الذي يعلم إرادة سيّده ولم يُعِدَّ شيئًا، ولم يعملْ بإرادته، يُضربُ ضربًا كثيرًا. وأمّا الذي لم يعلم وعَمِل ما يستوجبُ به الضرب يُضرب ضربًا يسيرًا، ومن أُعطي كثيرًا يُطالب بكثيرٍ، ومن اؤتُمن على كثيرٍ يُطالب بأكثر**» (لوقا ١٢: ٤٢ – ٤٨).

إنّ الإنسان، بفطرته، يندفع بكلّ ثقله إلى المادّة، ولكنّه لا يجد فيها سوى الباطل والموت. يسوع، وحده، كفيلٌ بانتشاله صوب الله. ومذ هو هبط أرض البشر، استنفر فيها شعبًا جديدًا، لا تغريه الحياة العابرة، ولكنّه يكرّسها بعمله، ويسمو بها بفضائله.

إنّه شعبٌ بطوليٌّ، يتغذّى قلبه بالله، ويتأهّب منذ هذه الفانية، لحياةٍ أُخرى، أبديّةٍ، مؤلّهةٍ.

«القطيع الصغير»، الذي دعاه ورعاه، قد كبر، منذئذٍ، وقد واجه، دائمًا، الصراع، وسيواجهه أبدًا. وكان الراعي قد أعدّه لذلك بدعوته إلى السهر، والتأهّب الدائم. لقد علّم يسوع تلاميذه أنّ عليهم أن يُطعموا، بخبز الحقيقة الطيّب، خدّام الله. هذه المهمّة السامية ستكون لهم مدرجةً إلى المجد، إن هم اضطلعوا بها بإخلاص، ومدعاةَ إدانةٍ، إن هم خانوها.

نــارٌ تــوَدُّ الاَنْتِشَار

بقدر ما كان يسوع يدنو من الصليب، كانت رغبته في إتمام مهمّته ونشرها تستعر ضرامًا، وقد عبّر عمّا كان يضجّ في صدره بزفرةٍ لاهبةٍ: «**لقد جئت لأُلقي على الأرض نارًا، وكم أودّ أن تكون قد اضطرمت! ولي معموديّةٌ أعتمِدُها وما أشدّ تضايُقي حتّى تتمّ!**

«**أوَتظنّون أنّ السلام هو ما جئت أُلقيه على الأرض؟ أقولُ لكم: لا، بل هو الشقاق. فمن الآن يكون في البيت الواحد خمسةٌ، فيُشاقُّ ثلاثةٌ اثنين، واثنان ثلاثةً: يُشاقّ الأب الابنَ والابنُ الأبَ، الأمُّ البنت والبنتُ الأمّ، الحماةُ الكنّة، والكنّةُ الحماة**» (لوقا ١٢: ٤٩-٥٣).

لقد عُهد عن القدّيس لوقا أنّه أكثر الإنجيليّين رقّةً ووضوحًا، وأشدّهم حرصًا على نقل أقوال الربّ بدقّة. ولئن هو أورد هذه الأقوال التي تنبض عنفًا، وتستدعي التساؤلات، فمن المحقّق أنّ صدر يسوع كان يجيش حبًّا ونفاد صبرٍ، عندما تلفّظ بتلك الأقوال الناريّة.

السلام الذي لم يأتِ يسوع ليلقيه هو سلام الخمول، والتواني، والرداءة، والجبن. أمّا السيف الذي أشهره فهو سيف الجرأة في العمل بمتطلّبات الروح، وفي الشهادة للربّ، والجرأة في تلبية دعوات الكمال والبطولة.

والنار التي كان توّاقًا إلى نشرها، هي نار حبّه، ونار رسالته. والمعموديّة التي ما عاد يطيق عليها صبرًا هي معموديّة الموت الذي يفجّر الحياة، والدم الذي يطهّر ويفدي.

كان يروز هول المحنة التي تنتظره، ولكنّه يندفع إليها بكلّ طاقات نفسه. كان يتحرّق لرؤية الملكوت الذي جاء يؤسّسه يستقرّ ويمتدّ، ويشعل البسيطة كلّها بنيران القداسة، والمحبّة، والبطولة في الاستشهاد، دفاعًا عن الإيمان، والتضحية بأوثق

المشاعر والعلاقات، إن هي نهضت عائقًا دون الانضمام إلى ملكوته، بل حتّى التضحية بالحياة إن اقتضاها الوفاء له. فقد كان يتوقّع أن تشطر رسالته البشر إلى مؤيّدٍ ومقاومٍ، ويتوقّع من أتباعه موقفًا صريحًا منه.

لم يُخفِ عن تلاميذه ما قد يفرض عليهم اتّباعه من تضحيةٍ حتّى بأعزّ الخلائق، ومن صدام مع من، منهم، يرفضون الإيمان به. ولكنّهم، في هذا الصراع، سيتميّزون بأنّهم، على غرار معلّمهم، سيُسلمون ذواتهم للجلّادين، وسيواجهون الموت ببسالة، ولكنّهم لن يقتلوا أحدًا: رحمتهم هي سلاحهم، يقاومون البغض بالحبّ، والانتقام بالصفح والعطف، والسيف القاتل بالصليب. لقد خلّص معلّمُهم العالَمَ ببذل حياته، وسيواصلون خلاصه ببذل حياتهم. ولكي يظلّوا أوفياء لهذه المهمّة، سيمسك عنهم القوّة المادّيّة، وسيبقيهم ضعفاء، عزّلاً، بلا حوْلٍ سوى قوّة روحه، وكلامه، وحبّه.

كان يتحرّق إلى رؤية نار تعاليمه التي تتعرّض للجوهر، وتنفذ إلى أعماق النفس، تقضي على ترّهات الفرّيسيّين الذين جعلوا من الدين فرائض جوفاء، ومظاهر خاليةً من الروح. كان توّاقًا إلى رؤية روح تعليمه حريقًا يلتهم السفاسف التي اختزلت الدين، ويمتدّ لهيبه إلى كلّ ما يحجب الروح ويقيّده، ويشوّه العبادة الحقّة، في العالم كلّه. كان يريد لناره أن تضرم الأرض كلّها، ويتطلّع إلى رؤية أوارها يطيح بكلّ رداءةٍ وزيفٍ.

وكان الفرّيسيّون والصدّوقيّون يتعقّبون خطاه، مندسّين وسط الجموع، متربّصين لالتقاط دليل إدانةٍ له. وكان الشعب مبتلًى بمثل عمى زعمائه، بحيث لم يميّز أخطر حدَثٍ انتظره آباؤهم، ألا وهو مجيء المسيح، رغم كلّ الإشارات الدالّة عليه، والنبوءات التي كانت تتحقّق تحت أبصارهم. فدعاهم إلى قراءة علامات الأزمنة، بقلوبٍ متبصّرةٍ، وإلى استخلاص العِبَر الروحيّة منها، علّهم يؤمنون، ويتوبون، ويتصالحون مع الله، ويتفادون الهلاك.

وفي نفس السياق، حرص يسوع على تبديد وهمٍ رائجٍ آخر، يدّعي أنّ كلّ ما يلحق بالبشر من مِحَنٍ ورزايا إنّما هو عقابٌ عن معاصٍ، ارتكبوها بأنفسهم، أو ارتكبها ذووهم. إذ جاءَ من أبلغ يسوع أنّ بيلاطس أمرَ بذبح نفرٍ من الجليليّين المتمرّدين، فيما كانوا يقدّمون ضحايا في الهيكل، فامتزجت دماؤهم بدماء

ضحاياهم. وقد أفتى الفرّيسيّون بأنّ أولئك الجليليّين قد نالوا عقابهم العادل، لأنّهم لم يكونوا أوفياء للشريعة. ولكنّ يسوع، الذي يسمو فوق التقوى الباطلة، والغضب العقيم، يمضي بفكره إلى أبعد، ويرقى بقلبه إلى أعلى، وقد أوضح: «**أتظنّون أنّ هؤلاء الجليليّين كانوا أكبر خطيئةً من سائر الجليليّين لكونهم نُكبوا بمثل ذلك؟ أقولُ لكم: لا. بل إنْ لم تتوبوا هلكتم بأجمعكم كذلك. وأولئك الثمانية عشر الذين سقط عليهم البُرج في سلوام فقتلهم أتظنّون أنّهم كانوا أكثر ذنبًا من سائر سكّان أورشليم؟ أقول لكم: لا. بل إن لم تتوبوا هلكتم بأجمعكم كذلك**» (لوقا ١٣: ٢–٥).

هذا القول كان نبوءةً رهيبةً، إذ لم يمضِ أربعون عامًا على صعود يسوع حتّى حصدت سيوف الرومانيّين حياة مئات ألوف اليهود الذين أبوا سماع صوت المخلّص، وظلّوا يجاهدون في سبيل مسيحٍ أرضيٍّ.

أقوال يسوع هذه، كلّها، كانت دعوةً إلى تحوّل النفس والذهن، وإنذارًا لليهود بوجوب التوبة الخلاصيّة. ولكي يضفي على دعوته لمسةً واقعيّةً مؤثّرةً، ضرب مثل التينة: «**كان لرجلٍ تينةٌ مغروسةٌ في كرمه. فجاء يطلُب عليها ثمرًا فلم يجد. فقال للكرّام. ها هي ثلاث سنين آتي أطلُبُ ثمرًا على هذه التينة فلا أجدُ، فاقطعها. فلماذا تشغل الأرض على غير جدوى؟ فأجاب وقال له: سيّدي، دعْها هذه السنة أيضًا، فأعزِق من حولها وأُلقي سمادًا. فإن أثمرت في القابل وإلاّ فتقطعُها**» (لوقا ١٣: ٦–٩).

الويل للتينة التي جحدت كلّ العطف الذي أُحيطت به! حتّى اللحظة الأخيرة، كان يسوع يرجو أن ينعتق شعبه من عقمه، ويؤتي ثمارًا خلاصيّةً. ولكنّ عمى ذلك الشعب كان يستعصي على البرُء، بدليل ما حدث يوم السبت التالي.

شِفَاءُ امْرَأةٍ قوَسَاء

(لوقا ١٣: ١٠ – ١٧)

في تلك الأثناء، دخل يسوع المجمع، يوم سبتٍ، فلمح امرأةً، منتحيةً في جناح النساء، قوساء منذ ثماني عشرة سنةً، لا تستطيع أن تنتصب البتّة. وتوسَّم فيها البشريّة التي لوت همومُ الأرض عنقَها صوب التراب، واليهوديّة التي أرهقها علماء الشريعة بفرائض وسفاسف حالت دون استطاعتها رفع رأسها نحو السماء، ونحو حرّيّة أبناء الله.

ودعا يسوع تلك المسكينة إلى وسط المجمع، ووضع يده عليها، قائلاً: «**يا امرأة، إنّك مُطلقةٌ من دائك**». فانتصبت مستقيمةً، في الحال، ومجّدت الله. كان يسوع قد أَلِف إذكاء نار الإيمان في من يبتغي شفاءهم، كي يشركهم في معجزة برئهم، ولكنّه، في هذه النوبة، لم يبتغِ سوى تلقين درسٍ.

شفاء امرأةٍ قيّدها السقم، وحنى ظهرها منذ ثماني عشرة سنةً، مأثرةٌ جديرةٌ بالابتهاج وتمجيد الله، مثلما مجّدت تلك المرأة الطيّبة النوايا. ولكنّ حدوثها يومَ سبتٍ جعل منها، في نظر غلاة اليهود، جريمةً نكراء استثارت غيظ رئيس المجمع الذي لم يجسر على التعرُّض ليسوع، لأنّه لم يأخذ عليه ممسكًا، إذ اكتفى الربّ بكلمةٍ ولمسةٍ، ولم يبذل أيّ جهدٍ جسديٍّ، وأجرى الشفاء بقوّةٍ روحيّةٍ، إلهيّةٍ. فتوجّه رئيس المجمع إلى الشعب قائلاً: «**إنّ لكم ستّة أيّامٍ للعمل، ففيها تأتون وتستشفون، لا في يوم السبت**». بهذا القول جعل رئيس المجمع من نفسه مهزأةً، وموضع تنديد يسوع الذي انبرى لفضح ريائه. فتلك المرأة لم تغشَ المجمع بقصد الاستشفاء، وإنّما شُفيت بنعمةٍ مجّانيّةٍ غير متوقّعةٍ، لم تبذل في سبيلها جهدًا. وانتهزها يسوع سانحةً لإدانة نِفاق علماء الشريعة، فقال: «**يا مرضى الرأي، أليس**

كلُّ واحدٍ منكم يحلّ في السبت ثورَه أو حماره من المذود ويمضي به ليسقيه؟ وهذه المرأة، ابنةُ إبراهيم، التي ربطها الشيطان منذُ ثماني عشرة سنةً، أليس في يوم السبت كان ينبغي أن تُحلَّ من هذا الرباط؟ «ولمّا قال ذلك خزيَ جميع معارضيه. وأمّا الجمعُ فكانوا كلُّهم مُبتهجين بكلّ الأعمال المجيدة التي كان يعملُها» (لوقا ١٣ : ١٣–١٥).

كان الحلّ والربط من الأعمال المحظورة، يوم السبت، ومع ذلك لم يكن يجد اليهود غضاضةً في حلّ وثاق دوابّهم في ذلك اليوم، لكي يمضوا بها إلى النهر فيسقوها، ويعودوا فيربطوها. وإن لم يكن، ثمّة نهرٌ، كان يُسمح لهم بامتياح ماءٍ من البئر لإرواء عطشها. ومع ذلك، ضنّوا على ابنةٍ لإبراهيم ربطتها العلّة، منذ ثماني عشرة سنةً، أن تُحَلّ من قيود سقمها!

وكان اليهود يعتقدون أنّ عِلَلاً من نمط علّة تلك المرأة هي من عمل الشيطان. ومن ثمّ، كان شفاؤها دليل انتصارٍ على الشيطان. وأيّ يومٍ أكثر ملاءمةً لإعلان هذا الانتصار من يوم الربّ، يوم السبت؟ ولكن أنّى لعبيد الحرف أن يسموا إلى ذرى روح الحقّ هذه!

هذا المنطق أفعم البسطاء اندفاعًا نحو يسوع، وزادهم به تعلُّقًا، وأخزى رئيس المجمع ومشايعيه الذين تشبّثوا بضلالهم، وأمعنوا فيه عنادًا. فقد كانت فريضة السبت، التي نظّم الرابّيّون شروطها وقواعدها، هي إحدى الأساطين التي أشادوا عليها عروشهم، فلا بدّ من وقايتها، والذود، بشراسةٍ، عن حياضها، حتّى لو أثبتت المعجزات بطلانها، وحتّى لو كان التشبّث بها يعني تجديفًا على الروح القدس.

لم يكن يسوع صاحب مكتب أشفيةٍ معجزةٍ يغلقه أيّام السبت، إكرامًا لعلماء الشريعة. بل دأب على تحدّيهم، ولكأنّه يؤكّد أنّ يوم السبت هو اليوم الأمثل لشفاء المرضى، الرامز إلى غفران الخطايا، والمصالحة مع الله، على نقيض ما يزعم المتزمّتون، عبيد الحرف، الذين تفقد، في نظرهم، حتّى معجزة شفاءٍ، كلّ سناها ومغزاها، إن هي خالفت فريضة السبت.

وجديرٌ بالتنويه أنّ صدام يسوع مع اليهود، كان، غالبًا، ينشب في أعقاب أشفيةٍ يجريها أيّام السبت، وبها يحقّق تحريرَيْن: تحرير المرضى من أسقامهم، وتحرير الشريعة

من حرفيّتها اللاإنسانيّة. فمعظم الأسقام التي شفاها يسوع، أيّام السبت، كانت مُزمنةً، وكان ممكنًا إرجاء شفائها يومًا أو أيّامًا. ولكن يبدو أنّ يسوع قد تعمّد إبراءها أيّام السبت، كي يحرّر الحضور من نير حرفيّة الشريعة، ويلقّنهم أنّ شريعة الحبّ أبدى من شريعة الفرّيسيّين. فشريعة الحبّ لا تحتمل إرجاءً ولا تأجيلاً. ومن يحجم عن انتهاز فرصةٍ لفعل محبّةٍ يرتكب خطيئةً، ومن يستطيع الشفاء ولا يشفي، يقتل، وليس لبطالةٍ، أو لراحةٍ أيّةُ قدسيّةٍ.

مع ما كان يُنزله يسوع بزعماء اليهود من خزيٍ، كانوا يمعنون في عنادٍ وعداءٍ يحزنانه، ولكنّهما لا يثبّطان عزيمته. فقد كانت فئةٌ من الشعب البسيط تبتهج بأعماله المعجزة، وأقواله التي تقطر حقيقةً وحياةً. وكان يسوع واثقًا من أنّ هذا القليل من الإيمان الذي يلقاه من الشعب إنّما يشبه «**حبّة خردلٍ أخذها رجلٌ وألقاها في بستانه، فنمت، وأمست شجرةً تعشّش طير السماء في أغصانها**». وكان موقنًا أنّ قوّة تعليمه ستنتشر انتشارًا خفيًّا، وئيدًا، ولكنّه لا يُقاوَم، فهو «**يشبه خميرةً أخذتها امرأةٌ، وقرنتها بثلاثة أكيالٍ من الدقيق، حتّى اختمر العجين كلّه**».

ما من إنسانٍ أُنكر، في حياته، ولاقى المقاومة، والبغض، والازدراء، مثل يسوع. ولكن ما من إنسانٍ أثبت، نظيره، يقينًا ساجيًا، وثقةً ثابتةً بالمستقبل. وقد كان الزمن مصداقًا لثقته المطلقة، واثّأر له المستقبل اثّئارًا عظيمًا، ساميًا، مقدّسًا.

مُحَاوَلَةٌ أَخيرَةٌ في أورشَليم

كانت أورشليم هي هاجس يسوع في تلك المرحلة. غاب عنها بضعة أسابيع أملاً في إخماد نيران العنف والبغض التي أشعلها وجوده في العاصمة، بمناسبة عيد المظالّ، ورغبةً في إكمال تثقيف تلاميذه، وتبشير الديار التي لم تسمع، بعد، صوته. وها هوذا يعود إليها، حيثُ كان يُحتفل بعيد التجديد، تذكيرًا بتطهير الهيكل من تدنيس أنطيوخس له.

كان يسوع يسير بخطًى وئيدةٍ، مبشّرًا المدن والقرى الواقعة على طريقه. ولا يذكر لوقا، من هذه الرحلة، سوى حدثَيْن، يبرزان كلّ ما كان يدمغ تلك الأيّام من جدٍّ وحزنٍ، وشعورٍ بالرفض من قِبَل جميع من يمثّلون السلطة، والعلم، والثروة، وبضآلة عدد المؤمنين الذين استطاعوا تخطّي الأوهام العنصريّة، والأحكام المسبّقة. واستشفّ أحدهم هذا الهاجس الذي يراود نفس يسوع، فسأله: «**يا سيّدي، أليس إلاّ القليلون يخلصون؟**» **فقال لهم:** «**اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيّق. فإنّي أقول لكم إنّ كثيرين سيُحاولون أن يدخُلوا ولا يستطيعون.**

«**فمن بعد أن يكون ربّ البيت قد قام وأقفل الباب تقفون أنتم خارجًا وتأخُذون تقرعون الباب وتقولون: افتح لنا، يا ربّ، فيُجيب ويقول لكم: إنّي لا أعرف من أين أنتم، فتأخذون عندئذٍ تقولون: إنّا قد أكلنا وشربنا تحت ناظريْك، وعلّمت في ساحاتنا. فيقولُ: أقول لكم إنّي لا أعرفكم من أين أنتم، فإليكم عنّي يا جميع فاعلي الشرّ. هناك يكون البكاء وصريفُ الأسنان، إذ إبراهيمُ وإسحاق ويعقوبُ والأنبياء كُلُّهم في ملكوت الله وأنتم مُلقون خارجًا. وسيأتون من المشرق والمغرب، ومن الشَمال والجنوب ويتّكئون في ملكوت الله.**

«**وهكذا يكونُ من الآخِرين أوّلُون، ومن الأوّلين آخِرون**» (لوقا ١٣: ٢٤–٣٠).

لم يُدلِ يسوع بردٍّ مباشرٍ، ولكنّه أرشد إلى سبيل الخلاص، الذي غالبًا ما يحجم عنه أوائل المدعوّين، ويسلكه الغرباء والوثنيّون، فيجدون فيه الخلاص. وحينئذٍ ستنقلب الأدوار والأوضاع، فيُدحر الأوّلون إلى المرتبة الأخيرة، فيما يُرقّى الأخيرون إلى المراتب الأولى.

الهدف الجوهريّ هو ولوج الملكوت، وبابه هو الإيمان بيسوع الفقير، المهان، المتألّم. ولكنّه بابٌ ضيّقٌ، فلا بدّ لداخله من أن يتّضع، ويتضاءل، ويتلاشى في كلام يسوع، ويضحّي له بكلّ شيءٍ. أمّا من يرفض ذلك، فيظلّ خارجًا، وعندما يُقفل الباب، لن يجدي الندم، ولا الانتماء إلى «الشعب المختار» نفعًا. فمن أنكر المخلّص هنا، سينكره المخلّص في ملكوته، لأنّه غير أهلٍ لأفراح المأدبة السماويّة.

الحدَث الثاني الذي يذكره لوقا هو أنّ الفرّيسيّين تقدّموا من يسوع وقالوا له: «**انصرف، اذهب من هنا، فإنّ هيرودس يُريد قتلك**». **فقال لهم**: «**اذهبوا قولوا لهذا الثعلب: ها إنّي أطرد الشياطين وأُجري الأشفية، اليوم وغدًا، وفي اليوم الثالث النهاية. فلا بدّ إذن من أن أُواصل طريقي اليوم وغدًا، واليوم الذي بعده، إذ لا يُمكن أن يهلك نبيٌّ خارج أورشليم**» (لوقا ١٣: ٣١-٣٣).

كان هذا التحذير خدعةً، فهيرودس لم تكن تراوده أيّة نيّةٍ لقتل يسوعٍ، ولتكرار الجريمة التي انتزعها الفجور من ضعفه. ولكنّه كان متطيّرًا، ويتوجّس خشيةً من وجود يسوع في دياره. وتذرّع الفرّيسيّون بذلك التطيّر، كي يدفعوا يسوع صوب اليهوديّة، حيث سيصبح تحت سلطة السنهدرين، ويسهل القضاء عليه. ولكنّ يسوع كشف مكرهم، وردّهم خائبين. فهو لا يخشى الموت، ويمضي إلى مصيره ثابتًا، صامدًا، كلّيّ القدرة، على غرار الله الذي يرسله. ولكنّه يفعل كلّ شيءٍ في ساعته.

* *

وصل يسوع إلى أورشليم في غمرة الاحتفال بعيد التجديد، وكان الوقت شتاءً. فهذا العيد يقع في النصف الثاني من كانون الأوّل. وكان يعلّم في رواق سليمان الذي يذرعه جيئةً وذهابًا، بمأمنٍ من البرد والمطر. وسرعان ما لوحظ حضوره، إذ لم يكن الأورشليميّون قد نسوا، بعد، صداماته المجلجلة مع علماء الشريعة، لبضعة أسابيع خلت. فتحلّقوا من حوله، وسألوه، بنفاد صبرٍ: «**إلى متى تريب نفوسنا؟ فإن كنت أنت المسيح، فقله لنا جهارًا**».

ربّما بدا ظاهر السؤال ودّيًّا، بل بدا توسّلاً، ولكأنّ سائليه كانوا ينتظرون، فقط، تأكيده الصريح بأنّه المسيح، كي ينقادوا لـه جسدًا وروحًا. غير أنّ باطن سؤالهم كان مكيدةً. فهم يبتغون إجابته الصريحة لاستغلالها في سبيل إدانته وإهلاكه. فإن هو ارتضى أن يكون مسيحًا على هواهم، كما يريدونه ويتخيّلونه، فليستخدم قدراته الخارقة، التي لم يقووا على إنكارها، في سبيل مصالح اليهود المادّيّة والعنصريّة. وإن هو أعلن أنّه مسيحٌ لا يحفل بمصالح اليهود، أظهروه في عيون المحتلّين الرومانيّين بمظهر المتمرّد على كلّ سلطةٍ قائمةٍ، وأودوا به إلى التهلكة.

لم تخفَ المكيدة على يسوع. وهو حريصٌ أبدًا على إخفاء صفته المسيحانيّة على الجموع، لأنّه عليمٌ بصورة المسيح، البطل الوطنيّ، الراسخة في أذهانهم، وما قد يثيره إعلانه من شغبٍ وفوضى. ولكنّه لا يستطيع أن يكذب. فأدلى بجوابٍ يؤكّد به أنّه المسيح، من غير تصريحٍ يأخذونه عليه مَمسكَ إدانةٍ، وبذلك فشّل مكيدتهم، فقال: «**لقد قلتُه لكم وما تُصدّقون لأنّكم لستم من خرافي. فإنّ خرافي تسمعُ صوتي، وأنا أعرفُها، وهي تتبعني. وأنا أُعطيها الحياة الأبديّة فلا تهلك أبدًا، ولا ينتزعُها أحدٌ من يدي. إنّ ما أعطانيه الآبُ أثمنُ من كلّ شيءٍ، وما من أحدٍ يقدر أن ينتزع من يد الآب شيئًا. أنا والآب واحدٌ**» (يوحنّا ١٠: ٢٥–٣٠).

وكأنّي به كان يقول لهم: إن كنتم، حقًّا، راغبين في أن تعرفوا هل أنا المسيح، فما عليكم إلاّ أن تستخلصوا ذلك من أعمالي، فجميع عجائبي تشير إلى ذلك، وتشهد على هويّتي. ولكنّهم أبوا الاحتكام إلى هذا الاستنتاج المنطقيّ الصادق، لأنّهم ليسوا من قطيعه، ولأنّهم أسرى كبريائهم. وما من بيّنةٍ أو حجّةٍ كفيلةٌ بإقناع من يؤمن بعصمة آرائه من الخطأ، وبتفوّق فلسفته على كلّ جدلٍ. ومن أعماه عُجْبه بذاته، وتعصّبه، يرفض الإصغاء إلى كلّ ما من شأنه الارتقاء فوق ذاته، وفوق الحلقة الضيّقة التي سجن نفسه في دائرتها. إنّه يقيس كلّ شيءٍ بمعيار نظريّاته وأهوائه، ويُخطّئ كلّ ما يخالفها، ويدين كلّ ما يتخطّاها.

حاولوا دفع يسوع إلى إعلان كونه المسيح، فأكّد ذلك الواقع تلميحًا، ولكنّه أكّد أكثر من ذلك: أنّه اللّه. فهو يعطي خرافه الحياة الأبديّة، ومن يقوى على ذلك إلاّ اللّه؟ بل مضى إلى تصريحٍ أبعد جرأةً، فأعلن: «**أنا والآب واحدٌ**». ليس بينه وبين الآب مجرّد مشاركةٍ في الإرادة، والفهم، والقدرة، بل وحدةٌ في الجوهر. لم يسبق

ليسوع أن تلفّظ بمثل هذا القول المدهش، الذي لم يهبط، قطّ، مثله من شفتي إنسانٍ. ولكنّ اليهود، بسبب عمى قلوبهم، لم يروا، في هذا القول، سوى تجديفٍ، ولم يروا، في يسوع نفسه، سوى مجرمٍ يجب القضاء عليه. إنّ كلّ ما يفعله يسوع، إنّما يفعله بالاشتراك مع أبيه، فهو والآب واحدٌ. منذ الأزل هما واحدٌ، ولن يكون لوحدتهما انفصامٌ. هكذا كان قبل أن يكون العالم، وآدم، وإبراهيم، وموسى، والهيكل. وهكذا سيظلّ. هذا ما عجز عن اكتناهه الفرّيسيّون، وهم يشاهدون، إزاءهم، إنسانًا يحاكيهم في مظاهر بشريّته، ويتحدّاهم، ويشفي العلل المستعصية، ويعلّم بحميّةٍ لا تخبو لها جذوةٌ، ومع ذلك يعيش كالمشرّدين، لا بيت له، ولا زوجة، ولا ذرّيّة. إنّ إلههم المختبئ وراء ستار الهيكل ورخامه، والذي لا يدنو منه، بجزعٍ، إلاّ رؤساء الكهنة، لا يسعه أن يتوارى في جسد هذا الشريد الزريّ. إلههم يتكلّم من خلال العواصف والرعود، معبّرًا عن غضبه وعنفه. فكيف يمكنه أن يثوي في جسد من يداري الزواني، ويشفي أصحاب العاهات الملعونين! وأكثر ما كان يغيظهم هو أنّ ذلك اللعين كان يهزّ كيان من يأتون إليه، ويسمعون كلامه. فيا لهم من نعاجٍ جرباءَ، ضالّةٍ، تتبع راعيًا ضلّيلاً! وهمّوا برجمه، ولكنّه بثباته وجلاله المهيبَيْن، أوقع الحجارة من أيديهم.

يا لمهابة يسوع، وهو يواجه سِحَنًا متجهّمةً تقطر حقدًا، وأيادي قابضةً حجارةً، تهمّ برجمه، بتهكّم أوجع من لذع السوط: «**إنّي أريتكم أعمالاً حسنةً كثيرةً، من عند الله، فلأيٍّ منها تريدون رجمي؟**» فأجابوا: «**ليس لعمَلٍ حسنٍ نريد رجمك، بل لتجديفٍ، فإنّك، وأنت إنسانٌ، تجعل نفسك الله**»! ومضى يسوع قُدُمًا في العبث بهم، وفي إحراجهم، مستشهدًا بكتبهم، قائلاً: «**أما هو مكتوبٌ في شريعتكم: قلتُ إنّكم آلهة؟ فإذا وقع للشريعة أن دعتْ من صارت إليهم كلمةُ الله آلهةً – ولا يمكنُ أن يُنسخ الكتاب – أفلِلَّذي قَدَّسه الآبُ وأرسله إلى العالم تقولون: إنّك تُجدّف، لأنّي قلتُ: أنا ابن الله؟ فإن كنتُ لا أعمل أعمال أبي فلا تصدّقوني. ولكن إذا كنت أعملها ولا تُريدون أن تُصدّقوني فصدّقوا هذه الأعمال، فتعلموا حقّ العلم أنّ الآب فيّ وأنّي في الآب**» (يوحنّا ١٠ : ٣٤–٣٨).

كم كانوا عميانًا أولئك المتعصّبون الذين رأوا في يسوع إنسانًا جعل نفسه إلهًا، مع أنّه إلهٌ جعل نفسه إنسانًا، حبًّا بالبشر!

وكم كان يسوع صُلْبًا، كي يصمد في وجه عناد أولئك الأُصوليّين! فقد كان غضبهم يرتطم، أبدًا، باتّزانه النابع من قداسته، والتزامه بالحقيقة!

دعاهم إلى استخلاص العبرة من خوارقه التي لم يسعهم إنكارها، إن هم أصرّوا على عدم تصديق أقواله. ولكنّهم أبوا التبصّر، مثلما أبوا الإنصات. وآثروا المكيدة والتآمر، على المنطق والإيمان.

طالبوه بتوظيف قدراته الإلهيّة في خدمة مآربهم السياسيّة، والاقتصاديّة، والعنصريّة، ولمّا أبى، حكموا عليه بالإعدام.

لم يطق الربّ صبرًا على المكوث في أورشليم، وفي جوّها المشحون بغضًا وعداءً، فغادرها ونفسه تقطر حزنًا، عبّر عنه بقوله: «**يا أورشليم، يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها: كم من مرّةٍ أردتُ أن أجمع بنيك كما تجمعُ الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تُريدوا. ها هوذا بيتُكم يُترك لكم. وإنّي أقول لكم إنّكم لا ترونني حتّى يأتي الوقت الذي تقولون فيه: مباركٌ الآتي باسم الرب**» (لوقا ١٣: ٣٤-٣٥).

لن يعود يسوع إلى أورشليم إلاّ ليموت فيها. تلك المدينة العاقّة قد سمعت أسمى تعاليمه، ولكنّها ازدرتها؛ وسمعت نداءاته الحارّة، ولكنّها أصمّت عنها أسماعها، وها هي ذي، ريثما يحلّ عليها غضب نكرانها، تُعِدّ، في الحقد والظلام، مصير المخلّص الدامي.

يَسُوعُ في الأُرْدُنّ

نأى يسوع عن جوّ أورشليم الخانق، وجاء إلى عبر الأردنّ، «**إلى حيث كان يوحنّا يعمّد قبلاً**». وأقبل عليه قومٌ كُثُرٌ، وكان استقبالهم لـه حارًّا، إذ إنّهم ما برحوا يذكرون شهادة المعمدان فيه، شهادةً أيّدها فيض المعجزات الخارقة التي أجراها، ولم يروا لها مثيلاً، لا على يد المعمدان، ولا على يد سواه. واستخلصوا، ببساطتهم، وعفويّتهم، أنّ ما قاله المعمدان في يسوع كان صحيحًا. وهكذا كان المعمدان، وهو ميتٌ، يشهد ليسوع ويأتيه بأتباعٍ كُثُرٍ.

وقد هيمن على تلك المرحلة شعورٌ باقتراب النهاية، نهايةٍ هي اكتمال الرسالة اكتمالاً مأسويًّا ومجيدًا، في آنٍ واحدٍ؛ وهي مواجهة قتام العالم، أي الشرّ والخطيئة، بالحبّ الذي يأخذ كلّ شيءٍ على عاتقه، وفي آخر المطاف، ينتصر، ويُثبت أنّه الأقوى. فيسوع سيُسام الآلام، والمهانة، والموت، ولكنّ المجد كامنٌ في آلامه الفدائيّة.

وقد حفلت تلك الأشهر التي مهّدت لصليب يسوع بأسمى تعاليمه، في شتّى المواضيع، وبأكثر أمثاله روعةً وخلودًا.

وكان يسوع، في تلك الأثناء، قد أقلع عن التعليم في المجامع، من جرّاء مقاومة الرابّيين وعدائهم، وبسبب كثافة الجماهير الراغبة في سماعه، والتي لا تتّسع لها جدران مجمعٍ. فبات يؤثر التعليم في الهواء الطلق، محدّثًا الجمع الذي يحبّه.

وبما أنّ ساعته دنت، تخلّى الربّ عمّا التزمه، حتّئذٍ، من كتمانٍ لهويّته الإلهيّة، ومداراةٍ لرؤساء اليهود الدينيّين، الذين أمسى يواجههم صراحةً، ويفضح نفاقهم، وبطلان تعليمهم، بلا مواربةٍ، وبعباراتٍ قاسيةٍ.

وغالبًا ما كان يعلّم تلاميذه على حدةٍ، كي يكمل تثقيفهم، ويطلعهم على ما تعجز الجماهير عن استيعابه.

طَلَاقٌ وَعِفَّةٌ... وَطُفُولَةٌ(*)

كان علماء الشريعة دائبين على منازلة يسوع، ومحاولة توريطه، فجاؤوه مجرّبين، وسألوه: «**أيحلّ للرجل أن يطلّق امرأته لكلّ علّةٍ؟**».

وكان سؤالهم هذا شَرَكًا يودّون توريط يسوع فيه، أيًّا كان جوابه، فإن هو أيّد الطلاق التعسّفيّ، لنسَفَ تعليمه المتشدّد في هذا المضمار، وإن هو قيّد الطلاق بشروطٍ صارمةٍ، لخالف شريعة موسى، واستحقّ الإدانة.

كان الطلاق شائعًا لدى اليهود وجيرانهم. واقتصر موسى على تنظيمه، فحصره في حال ارتكاب الزوجة أمرًا مشينًا، وأمر الزوج بتسليمها، أمام شهودٍ، كتابًا يعلن إعتاقها من كلّ رباطٍ، ممّا يتيح زواجها ثانيةً. وإذ لم يكن ممكنًا إلزام اليهود بأكثر ممّا يلتزم به جيرانهم، آثر موسى إنقاذ الجوهريّ، وضمان مبادئ الأخلاق الأساسيّة، تاركًا للزمن، ولتقدّم الوحي، فرصةً للتطوّر في هذا المضمار، ومنقذًا المرأة من تعسُّف الرجل. هكذا فهم الرابّيّ شمّاي الأمر فلم يحظَ موقفه بأيّة شعبيّةٍ. في حين حلّل الرابّيّ هلّيل الطلاق لأتفه الأسباب، مثل إفساد الزوجة طبخةً. وزاود عليه الرابّيّ عاقيبا، في القرن الثاني، فأتاح الطلاق لمجرّد أن يملّ الرجل زوجته، ويكتشف أنّها لا تمتلك قسطًا كافيًا من الجمال، ومال قلبه إلى أُخرى أجمل منها، فاسحًا المجال لانفلات النزوات والشهوات، ومستعيضًا عن تعدّد الزوجات بتعدّد الزواجات.

وسما يسوع، عاليًا، فوق كلّ تلك الاعتبارات، ونفذ، مباشرةً، إلى الجوهريّ فقال: «**أما قرأتم أنّ الخالق، في البدء، ذكرًا وأُنثى صنعهما، وأنّه قال:** «**لذلك يترُك الرجل أباهُ وأمّه ويلزم امرأته، ويصيران جسدًا واحدًا. فليسا هما اثنين، بعدُ، بل جسدٌ واحدٌ. وما جمعه الله فلا يفرّقه الإنسان**». فقالوا له: «**لماذا إذن**

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «يصيران جسدًا واحدًا»، صفحة ٣٢١.

أوصى موسى بإعطاء كتاب طلاقٍ عندما يُطلّقون؟» فقال لهم: «إنّه لقساوة قلوبكم أذن لكم موسى في أن تطلّقوا نساءكم، ولكن، منذ البدء، لم يكن الأمر هكذا. وإنّي أقول لكم إنّ من طلّق امرأته - إلاّ في حالة الزِنى - وتزوّج أُخرى فهو زانٍ» (متّى ١٩: ٤- ٩).

قساوة القلوب كانت تتمثّل في انحطاطٍ أخلاقيٍّ عامٍّ، ولامبالاةٍ بوصايا الله، وبأنانيّةٍ جامحةٍ. ولذلك، تفاديًا لمزيدٍ من الشرور، أذن موسى بالطلاق خلافًا لمشيئة الله. وبسلطته الإلهيّة، أعاد يسوع للزواج قدسيّته الأصيلة. موسى سمح بالطلاق على أنّه أهون شرّيْن، وكان سماحه صادرًا عنه، أي عن بشرٍ، لا عن الله، فالله لا يعارض نفسه.

هذا الموقف المتشدّد في استنكاره الطلاق كان يصدم كلّ المفاهيم الشائعة، بحيث هالَ التلاميذَ أنفسهم فاعترضوا: «**إذا كانت هذه حال الرجل مع المرأة، فالأَوْلى له ألاّ يتزوّج**».

من هذا القول، انطلق يسوع، كما هو، دائمًا، شأنه، إلى مناخات الروح الشامخة، فألمح إلى أنّ إرضاء الشهوات ليس هدفًا، وأنّه، بمعزلٍ عن الحبّ الحقّ، تدنيسٌ للحبّ، ومخالفةٌ لمبدأ الخلق. ولئن كان، ثمّة، من لا يريدون، أو لا يستطيعون مقاومة غرائزهم، فثمّة من يضحّون بها، طوعًا، وبفرحٍ، كي يكرّسوا ذواتهم جسدًا وروحًا، لأهدافٍ ساميةٍ، وينصرفوا إلى أنبل ضروب البذل والخدمة.

لقد دافع يسوع، بحزمٍ، عن قدسيّة الزواج وديمومته، وفي الآن عينه، أشرع آفاقًا مضيئةً على ما هو أسمى، مرشدًا كلّ من صبت نفسهم إلى الكمال، وإلى حبٍّ صافٍ يشمل، بعد الله، كلّ إنسانٍ يفتقر إلى عونٍ، نحو دربٍ متميّزٍ، مقدّسٍ، تُمارَس فيه البتوليّة طوعًا، في سبيل جاهزيّةٍ للخدمة قصوى، وقربٍ من الله أوثق.

* *

وفي تلك الأثناء جاء آباءٌ وأُمّهاتٌ بأبنائهم كي يضع يسوع يده عليهم ويباركهم. فالشعب يهرع تلقائيًّا إلى من يأسرهم حضوره، ويتوسّمون فيه مرسل الله. وقد جاؤوه بأعزّ ما لديهم، واثقين بأنّ يده عندما ستحطّ على رؤوس أبنائهم ستضمن لهم السعادة والحياة. وكما يحدث، غالبًا، لمساعدين يودّون إظهار حرصهم على راحة

يسوع والأطفال (بريشة برنهارد بلوكهورست)

وضع يسوع ولد في وسطهم

(بريشة كارل بلوخ)

رئيسهم، فيتّخذون مبادراتٍ لا يقرّها، ويحاولون إقصاء حتّى من يحبّهم، عنه، بحجّة وقايته من الإزعاج، زجر التلاميذ ملتمسي بركة الربّ. ولكنّ يسوع استنكر فعلهم قائلاً: «**دعوا هؤلاء الأولاد، ولا تمنعوهم أن يأتوا إليّ. فإنّ لمثل هؤلاء ملكوت السماوات**». وقد أثلج يسوعُ قلوبَ الأمّهات، وأعطاهنّ أكثر ممّا توقّعن، فلم يقتصر على لمس أطفالهنّ ومباركتهم، بل ضمّهم إلى صدره، وقبّلهم بحنانٍ. كم هو كان كلِفًا بكلّ طاهرٍ وبريءٍ! كَلَف يسوع بالأطفال من أكثر قسمات وجهه عذوبةً وإنسانيّةً. وبقوله: «**دعوا الأطفال يأتون إليّ**»، وضع يسوع أسس حقوق الطفل(*).

لطالما أشاد يسوع بالطفولة، وبكلّ ما ترمز إليه من اعترافٍ بالوهن، وثقةٍ بالوالدين، واستسلامٍ لعنايتهما، وجَعَل من روحها مثلاً ساميًا، وشرطًا للخلاص. فالطفل، في فكر يسوع، ليس صغير السنّ فقط، بل هو كلّ من يحمل بين ضلوعه براءة الطفولة، أيّةً كانت سنّه؛ كلّ من نأى عن البغض والفسق، وزهد في الثروة والأمجاد. من لا ينقم على أُمّه إن هي أصلحته، ولا يخاصم، ولا يرتاب في الآخرين. الطفل لا علم لديه، ولا فلسفة، ولا أحكام مسبّقة، ولا حسابات مصلحةٍ، لا ينتقد، ولا يدين، ولا يقاوم. وبالتالي هو جديرٌ بأن يكون للكبار نموذجًا في الإنصات إلى كلام الله، والتخلّي عن الأحكام الجامدة، وعدم الاهتداء بالعقل الخدّاع، والأهواء الأنانيّة، فحسب. وعندما يستعيد المرء بساطة الطفولة وثقتها، يتذوّق، في أعماقه، عذوبة الملكوت.

الطفولة براءةٌ نستطيع استعادتها بكلمة توبةٍ صادقةٍ، بزفرةٍ نطلقها في تلك الهوّة التي تفصلنا عن اللامحدود.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «طفولة»، صفحة ٣٢٣.

الشَّابُّ الغَنِيّ (*)

بعد أن لقّن يسوع تلاميذه درسًا في العفّة لوّح لهم بآفاق الزهد السخيّ والفقر الطوعيّ، اللّذَيْن يقودان إلى الملكوت. فلطالما اقتضى يسوع من الراغبين في اتّباعه، زهدًا بكلّ ما يربطهم بالأرض، ولمّا سنحت لـه الفرصة للتذكير بهذا المقتضى، من خلال مثلٍ حيٍّ، فعل ذلك ببلاغةٍ رائعةٍ.

فقد جاءه، وهو خارجٌ من البيت الذي قبّل فيه الأطفال، شابٌّ يصفه الإنجيليّ لوقا بأنّه رئيسٌ، أي وجيهٌ، من عليّة القوم. جاءه راكضًا، لأنّ تساؤلاً حارقًا كان يؤرّقه، وخرّ عند قدميه، وهو أمرٌ غير مألوفٍ حيال الرابّيين، وبادره بالقول: «**أيّها المعلّم الصالح، ماذا عليّ أن أعمل لأرث الحياة الأبديّة؟**» لا ريب أنّه كان قد طرح هذا السؤال عينه على «معلّمين» آخرين، ولكنّه لم يظفر بجوابٍ ينقع غليل قلقه.

لمَ وصف الشابّ يسوعَ بالصالح؟ ألأنّه عاينه يقبّل الأطفال بحنانٍ، فعنى بالصلاح الطيبة والعطف؟ أم كان ذلك الوصف مجرّد مجاملة تبجيلٍ، ويسوع يمجّ المجاملات التي يرى فيها دليل نفاقٍ؟ أم إنّ الشابّ توسّم في يسوع سموًّا لم يلمس لـه أثرًا لدى سائر المعلّمين؟ على أيّة حالٍ توخّى يسوع الارتقاء بفكر السائل إلى الكائن الأوحد، الصالح صلاحًا مطلقًا، فأجاب: «**لماذا تدعوني صالحًا؟ إنّه لا صالح إلاّ الله وحده**». فهل كان الشابّ قد استشفّ، في يسوع، إلهًا؟

للوهلة الأولى، ردّ يسوع على السائل، وكأنّه أيّ يهوديٍّ: «**أنت تعرف الوصايا: لا تقتل، لا تزنِ، لا تسرق، لا تشهد بالزور، لا تظلم، أكرم أباك وأمّك، وأخيرًا: أحبب قريبك كنفسك**».

جديرٌ بالتنويه أنّ يسوع، في تعداده للوصايا، أغفل واجبات عبادة الله، واقتصر

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «يسوع والشابّ الغني»، صفحة ٣٢٤.

على سرد الواجبات تجاه الغير، التي ينزع الناس إلى خرقها أكثر من سواها، مع أنّها لا تقلّ عن واجبات العبادة شأنًا، لأنّ العبادة، بمعزلٍ عنها، جوفاء. وأورد يسوع وصيّة: «لا تظلم»، وهي لم تذكر، حرفيًّا، في جدول الوصايا، ولكنّها نابعةٌ من روحها.

بيد أنّ ذلك الشابّ، الذي كان وفيًّا لكلّ الوصايا، كان يتطلّع إلى المزيد، إلى عملٍ بطوليٍّ، تصبح، معه، الحياة الأبديّة مضمونةً. فأجاب: «**يا معلّم، هذا كلّه قد حفظته منذ صباي، فماذا ينقصني بعد؟**» قالها بنبرة صدقٍ، وبساطةٍ، وبراءةٍ، وتواضعٍ، مسّت شغاف قلب يسوع. حينئذٍ، حدّق إليه الربّ، و«أحبّه». أحبّ نور عينيه النابع من نفسٍ مستقيمةٍ، صافيةٍ، ولأنّه أحبّه، أراده لنفسه تلميذًا، يطلقه على دروب الكمال، فقال له بقسوةٍ إلهيّةٍ: «**واحدةٌ بقيت عليك: اذهبْ، بعْ كلّ ما لك، وأعطِه للفقراء، فيكون لك كنزٌ في السماء. ثمّ تعال اتبعني!**» فاتّباع يسوع لا يتحقّق إلاّ بالزهد والتجرّد.

ولكنّ ذلك الشابّ كان يملك، إلى جانب مناقب أخلاقيّةٍ نادرةٍ، ثروةً طائلةً، وكان أَسرُ المال على نفسه أقوى من الصبوّ إلى الكمال.

لا ريب أنّ طلب يسوع قد فاجأ الشابّ الذي تعلّم، منذ صباه، أنّ الثروة حُظوةٌ من الله، ودليلٌ على بركته ورضاه: فاكفهرّ جبينه الذي كان، للحظاتٍ خلت، مشعًّا، ومضى في سبيله حزينًا، يمزّقه حبّان متنابذان: الصبوّ إلى الكمال، وسلطان المال.

هذا الحدث يشير إلى أنّ الإنسان يخطئ في ما يحجم عن فعله، أكثر ممّا يخطئ في ما يفعل. حتّئذٍ كانت فضيلة ذلك الشابّ سلبيّةً، أي كانت امتناعًا عن المعصية، أكثر ممّا كانت إيجابيّةً، قائمةً على البذل والعطاء. لقد شقّ عليه ألاّ يستجيب لطلب يسوع، ولكن كان أشدّ مشقّةً عليه أن يستجيب لنصحه. لقد صُعق أمام واجب الانسلاخ عن أمواله الطائلة، مع أنّ يسوع وعده باستبدالها بكنوزٍ خالدةٍ في السماء. وتمنّى يسوع استقطاب عملاق بطولةٍ وسخاءٍ، فإذا بذلك الغنيّ أقلُّ بطولةً، وسخاءً، وجرأةً من متّى العشّار!

إنّه من تلك النفوس التي تنتابها فترات اندفاعٍ وتوقٍ إلى الكمال، على ألاّ يكلّفها

ذلك الكثير. إنّها تفتقر إلى الشجاعة الضروريّة للمضيّ في تحقيق توقها، والانطلاق على دروب رسالتها.

كان يصبو إلى الكمال، ولمّا هداه إليه يسوع، أجفل، وتقاعس، وارتدّ حزينًا متجهّمًا. وواكبه يسوع بأنظاره، وكأنّه يرى فيه جميع الذين سيكون المال حاجزًا دون خلاصهم.

يقول فرانسوا مورياك، في هذا السياق: «لو لم يُحِبْهُ يسوع محبّةً خاصّةً، لوهبه القوّة على هجر كلّ شيءٍ، ولأخضعه لفعل نعمةٍ خارقةٍ. ولكنّ الحبّ يأبى أن يأخذ من المحبوب شيئًا، إلاّ بموافقته الحرَّة. وربّما توقّع منه يسوع تلبيةً عفويَّةً، مندفعةً. ولكنّ هذا الطلب فاجأ الشابّ، فانقبضت نفسه، ومضى حزينًا، لأنّه كان ذا مالٍ وفيرٍ.

«تاه الشابّ وسط الجمع، وشيّعه يسوع بنظره، متخطّيًا المدى إلى أعماق الزمن، متأثّرًا خطاه، من عثرةٍ إلى عثرةٍ. إذ إنّ الذين دعاهم يسوع، ولم يُلبّوا نداءه، يكبون، وينهضون، ويتسحّبون، وعيونهم ملأى بنور السماء، وثيابهم ملطّخةٌ، وأيديهم ممزّقةٌ، نازفةٌ...».

حُزنُ يسوع كان أبلغ من حزن الشابّ. وقد أجال طرفه في ما حوله، وبلّغ تلاميذه عبرة ما حدث، معلنًا، بأسًى: «**ما أعسر على ذوي الأموال أن يدخلوا ملكوت الله!**». كان الدليل ماثلاً أمام ناظريه، فذلك الشابّ كان قد أضحى على مسافة خطواتٍ من الملكوت، ولكنّ ثروته انتصبت عائقًا دون اجتيازه عتبته.

هذا القول أدهش التلاميذ أنفسهم وكأنّهم يطّلعون، للمرّة الأولى، على موقف معلّمهم من المال، وقد أكّده على مسامعهم مرارًا. فهم، أيضًا، نشأوا على الاعتقاد بأنّ الأغنياء هم مباركو الله، وأنّ الثروة هي عطيّةٌ منه تعالى. فكيف يخطر ليسوع أن يُقصيهم عن الملكوت؟ ولكي يبدّد وهمهم هذا توغّل الربّ في تأكيد فكرته وترسيخها. فأضاف: «**يا بنيّ، ما أعسر الدخول إلى ملكوت الله ! إنّه لأيسر أن يعبر جملٌ في سمّ إبرةٍ من أن يدخل غنيٌّ ملكوت الله!**». قال هذا، وعيناه ما برحتا تواكبان الغنيّ الذي ابتعد خائبًا، فيما كان الأسى يفعم قلب الربّ، وهو يشهد «مامون» يسلبه تلك النفس التي أحبّها.

إنّ المقارنة بين دخول غنيٍّ ملكوت الله، وعبور جملٍ من سمّ إبرةٍ، لا يدلّ على صعوبةٍ، بل على استحالةٍ، من جرّاء استحالة الوفاء لله وللمامون معًا، ولأنّ الإنسان، بالفطرة، يؤثر الذهب الذي يراه ويداعبه، على كنزٍ في الآخرة غير مرئيٍّ، ولا ملموسٍ.

من المحقّق أنّ يسوع كان يعني بالأغنياء جميع الذين يولون المال ثقةً مطلقةً، توهمهم بالاستغناء عن الله، ويهبونه قلوبهم، ويجعلون منه هدفهم الأقصى والأسمى. هذه الأقوال لم تُكسب التلاميذ سوى مزيدٍ من الدهشة، والتخبّط، والتساؤل، ولا سيّما بعد أن استبعد المعلّم من ولوج الملكوت إنسانًا وجيهًا، ثريًّا، حافظ على الوصايا كلّها، بدقّةٍ، منذ نعومة أظافره، لأنّه لم ينسلخ عن ثروةٍ هي، في نظرهم، منّةٌ إلهيّةٌ، وقد عبّروا عن حيرتهم بالتساؤل: «**من يستطيع، إذن، أن يخلص؟**».

سؤالٌ طالما أرّق القدّيسين أنفسهم. فمعايير الربّ هي من القسوة، ومقتضياته من الشدّة، بحيث يكاد يتعذّر على إنسانٍ استئهال الخلاص. ولكنّ من جاء لخلاص البشر، سيغلّب دائمًا رحمته على عدله. ورحمته كثيرة الحِيَل، وهي لا ريب، قادرةٌ على تحطيم قيود العبوديّة التي تربط الغنيّ بماله.

ومثلما بدّد يسوع أوهام تلاميذه، المستقاة من أوهام شعبهم، بدّد حيرتهم بلَفت أنظارهم إلى رحمة الله، التي لا يحدّها شيءٌ، ولا يستعصي عليها شيءٌ، فقال: «**ذلك مستحيلٌ على الناس، وليس مستحيلاً على الله، لأنّ الله على كلّ شيءٍ قديرٌ**».

أيّة كوّة رجاءٍ أشرعها أمام نفوس الخطأة!

صرامة يسوع كانت قد أشاعت الجزع في نفوس التلاميذ، ولكنّ وعود رحمته أثارت غيرتهم. فإن كان الجميع سيخلصون، فبِمَ سيتميّزون، هم؟ وكان بطرس لسان حالهم فسأل: «**ها قد تركنا نحن كلّ شيءٍ، وتبعناك، فماذا يكون لنا؟**» إنّ تخلّي التلاميذ عن كلّ شيءٍ، في سبيل اتّباعه، ووفاءَهم له، كانا يسيلان في قلب الربّ ما يعزّيه عن تقاعس مدعوّين كُثُر. وقد حرص على تشجيعهم فقال: «**الحقّ أقولُ لكم إنّه ما من أحدٍ ترك بيتًا، أو إخوةً أو أخواتٍ، أو أُمًّا أو أبًا، أو**

بنين، أو حُقولاً من أجلي ومن أجل الإنجيل إلاّ أخذ، الآن، في هذه الدنيا، مئة ضعفٍ من البيوت، والإخوة والأخوات، والأمّهات والبنين، والحقول... مع الاضطهادات، وفي الآخرة الحياة الأبديّة» (مرقس ١٠: ٢٩–٣٠)(*).

كان التلاميذ، حقًّا قد هجروا كلّ شيءٍ، استجابةً لدعوته: مهنتهم، ومراكب صيدهم، وأُسرهم، وبيوتهم. ما كانوا يملكون ثرواتٍ طائلةً، كالشابّ الغنيّ، ولكنّ معيار التضحية ليس كمّيّةً ومبالغ، بل روح التجرّد، وصدقه. والتلاميذ، عندما تخلّوا عن كلّ شيءٍ، لم يتطلّعوا إلى المكافأة، ولم تكن هي هدفهم. ومع ذلك جاء وعد يسوع أسخى من تضحياتهم. فقد وعد بخيراتٍ روحيّةٍ وأدبيّةٍ، تعادل، بما توفّره من فرحٍ، وسلامٍ، وعزاءٍ، مئات الأضعاف من الخيرات الأرضيّة المضحّى بها، ومئات الأضعاف من القلوب المحبّة. ولكنّ يسوع الحريص على ألاّ يخفي عن أحبّائه شيئًا، أكّد أنّ سيل عزائه العارم سيكون مصحوبًا بالاضطهادات، التي لا ينجو منها كلّ من يسير على خطى يسوع. غير أنّ الحياة الأبديّة ستتوّج كلّ تضحيةٍ، وكلّ عزاءٍ.

أمّا قوله: «**ما من أحدٍ ترك...**»، فيعني أنّ الربّ لم يحصر وعده بالاثني عشر، بل شمل جميع من ماثلوهم تضحيةً في سبيله، أي، على مدى الأجيال، جمهورًا لا يُحصى من النفوس المكرّسة والمصلوبة.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «مئة ضعف»، صفحة ٣٣٤.

عُمّالُ السّاعاتِ الأخيرَة (*)

فسّر يسوع قوله: «**كثيرون أوّلون يكونون آخِرين، وآخِرون يكونون أوّلين**»، بمثلٍ (متّى ٢٠: ١–١٦):

حان موعد القطاف، وخرج ربّ كرمٍ منذ الصباح الباكر إلى الساحة التي يجتمع فيها العمّال المياومون، بانتظار من يستأجرهم، بحثًا عن عمّالٍ لقطاف كرمه. فأرسل من وجدهم متأهّبين للعمل، بعد أن اتّفق معهم على دينارٍ، أجرًا يوميًّا لكلٍّ منهم. ثمّ، في الساعة الثالثة، أي الساعة التاسعة صباحًا، حسب توقيتنا، جاء الساحة، ثانيةً، فاستأجر من وجد من عَمَلةٍ، ووعدهم بأجرٍ عادلٍ. وعاد إلى الساحة في الساعة السادسة، أي الظهر، وفي الساعة التاسعة، أي الثالثة عصرًا، وأخيرًا في الساعة الحادية عشرة، أية ساعةً قبل الغروب، وأرسل إلى كرمه جميع من وجدهم في حاجةٍ إلى عملٍ، ولم يحدّد لهم أجرًا.

ولمّا غربت الشمس، قال لوكيله: «**ادعُ العَمَلة، وأدِّ كلاًّ أجره، بدءًا بمن جاء وعمل أخيرًا**». وشرع الوكيل يؤدّي لمن عملوا في ساعات النهار الأخيرة دينارًا لكلٍّ منهم، وخُيّل إلى من عملوا باكرًا أنّ ذلك السيّد الكريم سيجزل مكافأتهم. وكانت مفاجأتهم بالغةً عندما نقَدَ الوكيل كلاًّ منهم دينارًا، على قدم المساواة مع عمّال المساء. واحتجّ أحدهم أن ليس من الإنصاف أن ينال من عمل منذ شروق الشمس حتّى مغيبها، واحتمل القيظ، والنصَب، مثل من عمل ساعةً واحدةً، في الطراوة والظلّ. فأجابه صاحب الكرم: «**يا صاح، ما ظلمتك. ألم تكن على دينارٍ وافقتني؟ فخذ ما لك، وانصرف. فإنّي أريد أن أُعطي هذا الأخير مثلك. أليس لي أن أتصرّف في مالي كما أُريد؟ أم عينك شرّيرةٌ، لأنّي أنا صالحٌ!**» فالعين الشرّيرة الحاسدة لا تصيب بشرّها سواها.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «عمّال الساعة الحادية عشرة»، صفحة ٣٣٧.

العمّال المعترضون يمثّلون اليهود الذين يدّعون حقّ الأفضليّة في المعاملة، بسبب انتمائهم إلى «شعبٍ مختار»، ولأنّهم كانوا طليعة المدعوّين، ويظنّون أنّ الذين سينضمّون، متأخّرين، إلى الملكوت، من الوثنيّين، سيظلّون على مسافةٍ بعيدةٍ وراءهم في الملكوت. لهؤلاء أعلن الربّ أنّ هذه الأولويّات ستزول، وأنّ سخاء السيّد لا يخضع لمعايير البشر، ولا يحكمه سوى كرَمه ورحمته، وهو كفيلٌ بأنّ يُحِلّ الأخيرين في الطليعة، وبأن يدحر إلى المكان الأخير من كانوا يَعُدّون أنفسهم متقدّمين. وكثيرًا ما تنقلب المراتب، فيمسي الأوّلون أخيرين، والأخيرون أوّلين، وفقًا لحكمةٍ إلهيّةٍ تستعصي على عدل البشر وإدراكهم.

فلا يظنّنّ أحدٌ أنّ له على الله حقوقًا لا تُنتزع! وقد ابتغى الربّ أن يعلّمنا أنّه مسؤولٌ عن كلّ راغبٍ في عمل الخير، فيوفّر له فُرصًا، ويجزيه الأجر الذي يرتئيه كرمه، على غير اعتبارٍ لساعات عمله، وأنّه يوزّع المكافآت وفقًا لنوايا كلّ إنسانٍ. فلا يحسدنّ أحدٌ سواه ما دام قد نال جزاءه العادل. إنّه لا يبخس أحدًا حقّه، ولكنّه يعطي البعض أكثر من حقّهم. إنّه يكافئ كلّ إنسانٍ على عمله الذي ينفرد بتقييمه، وفقًا لسعة كرمه.

لقد ابتغى يسوع إفهامنا أنّه ليس لخليقةٍ حقٌّ على خالقها، وأنّ الحقّ المادّيّ، الحرفيّ، الحسابيّ، يتلاشى حيث يسود الحبّ الذي لا يعرف محاسبةً ولا قياسًا.

إنّ الله هو من يدعو، ودعوته قد تأتي في كلّ مراحل العمر: منذ الطفولة، أو في مرحلة الشباب، أو في الكهولة، أو مع دنوّ الأجل. وطوبى لمن يستجيب للدعوة عندما تناديه، فهو سينال مكافأة استجابته كاملةً.

وعلى الذين دُعوا منذ الفجر، وكدّوا طيلة النهار أن يفرحوا لموقف الآب، ويمجّدوا رحمته، عندما يساوي بين جميع أبنائه بالحبّ والنعمة، وألاّ يدّعوا لأنفسهم على الله حقًّا، لأنّه دعاهم قبل سواهم، وكانت دعوته لهم، مثل دعوته للآخرين، مجّانيّةً.

يسوع والشابّ الغنيّ (بريشة هنريك هوفمان)

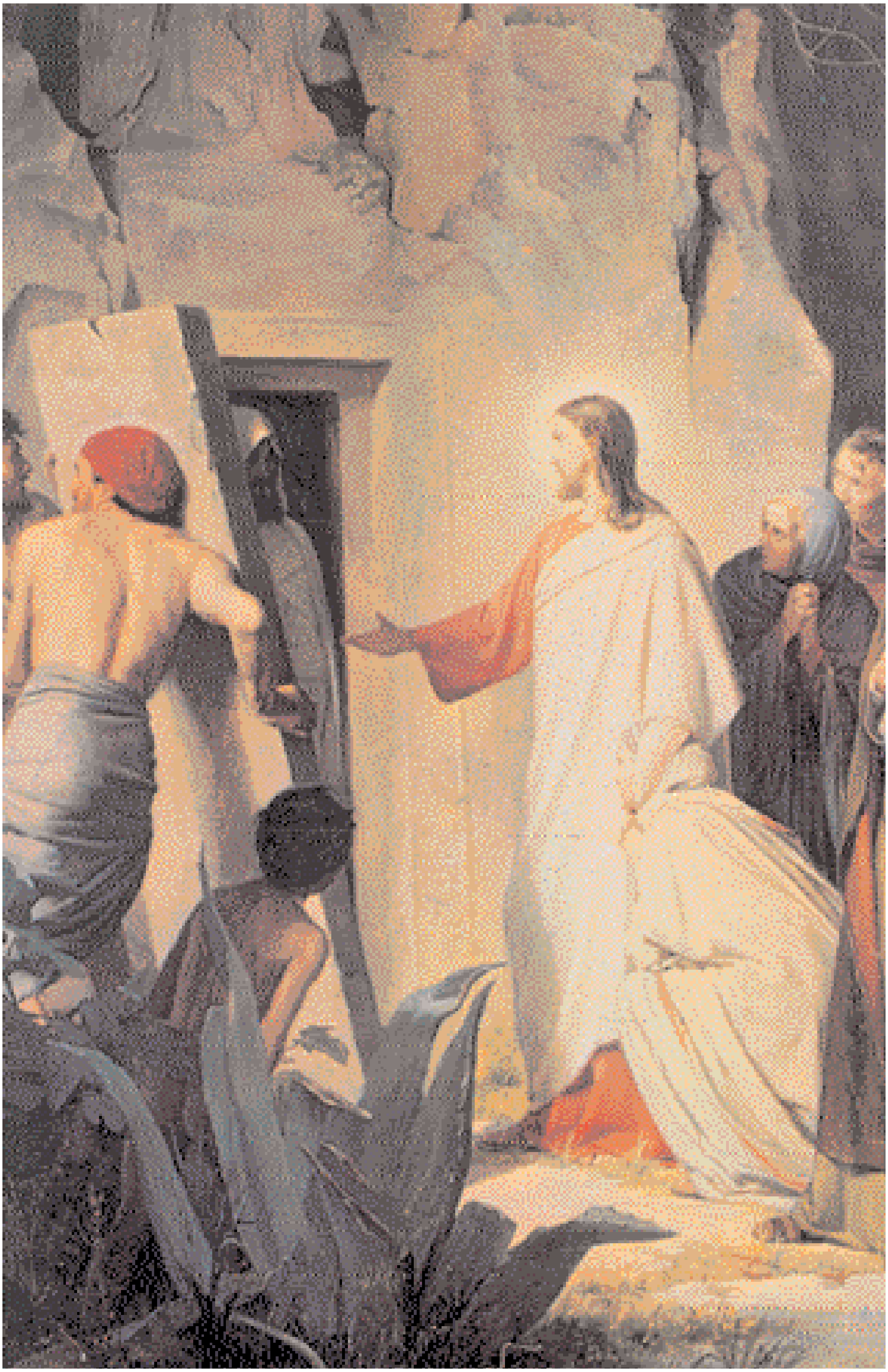

إقامة لعازر (بريشة كارل بلوخ)

شِفَاءُ رَجُلٍ بِهِ اسْتِسْقَاءٌ يَومَ سَبْتٍ، وَحَدِيثٌ حَولَ المَائِدَة

دُعي يسوع إلى مائدة أحد الفرّيسيّين، يوم سبتٍ. فذلك اليوم المخصّص للراحة كان يتّسع للمآدب المتمادية الطول. ومع أنّ إشعال النار في السبت كان محظورًا، إلاّ أنّ الأطعمة كانت تُعدّ مسبّقًا، وقد استفاض التلمود في بسط أساليب الاحتفاظ بها ساخنةً وشهيّةً.

وكان يسوع لا يُحجم عن قبول مثل تلك الدعوات، لكي يُسمِع أقواله من لا يتسنّى لهم المجيء إليه، في مكانٍ آخر، ولا سيّما أزلام الفرّيسيّين الذين يُحظر عليهم المضيّ إلى حيث يسوع يعلّم.

وبالفعل، كان قد تحلّق حول المائدة التي دُعي إليها يسوع، رهطٌ من الفرّيسيّين الذين وافوا يدفعهم الفضول إلى اختبار يسوع، وسبر غوره.

وكان معظم الفرّيسيّين يدعونه، لا رغبةً في تكريمه، بل ابتغاء مراقبته وامتحانه. وهو كان ينتهز كلّ سانحةٍ كي يستخلص منها عِبَرًا، ويلقّن دروسًا.

وما إن اتّكأ يسوع حتّى مثل أمامه رجلٌ به استسقاءٌ. والمبتلى بهذا الداء يتلظّى، أبدًا، بظمأ لا يرتوي، وينتفخ جزءٌ من جسمه، في حين تضمر سائر أعضائه. ومن ذلك الجسدِ المتهالك، تتصاعد روائح إنتانٍ مقزّزةٌ.

هل تسلّل ذلك المسكين، تلقائيًّا، طمعًا بشفاءٍ عجيبٍ، أم استُقدم عمدًا لامتحان الضيف؟ الاحتمال الثاني هو الأرجح. فقد كانت تساور نفوس الفرّيسيّين رغبةٌ عارمةٌ في إحراج يسوع. فإن هو شفى السقيم، أدانوه بانتهاك حرمة السبت. وإن هو أحجم عن شفائه، لنفى عن نفسه صفات الرحمة والقدرة التي طالما اشتُهر بها. ولكنّ الربّ أزرى بكلّ أفكارهم ومكائدهم، وأوقعهم في الحفرة التي حفروها لـه. فأجال نظره على أولئك الذين كانوا يراقبونه بفضولٍ، وسألهم: «**أيحلّ الشفاء في السبت أم لا يحلّ؟**» فإن هم أجابوا نفيًا، لبدوا وكأنّهم يتحدّون المنطق السليم، والمبادئ

الإنسانيّة الأساسيّة. وإن هم أجابوا بنعم، لناقضوا تعليم الرابّيين الذين يحظرون التطبيب، يوم السبت، إلاّ في حالة خطر الموت.

أُرتج على الفرّيسيّين، فخرسوا، إذ لا نقاش في الحقائق التي تصدم الضمائر مثل سهمٍ ناريٍّ. حينئذٍ أخذ يسوع يد العليل، وأبرأه، من غير أن يتلفّظ بكلمةٍ، وصرفه، إذ كانت مهمّته قد انتهت. وكان ذاك هو الشفاء السابع الذي يجريه يسوع، يوم سبتٍ. وفي هذه النوبة لم يجهر الفرّيسيّون باستنكارهم، لأنّهم كانوا قد عجزوا عن الردّ على سؤال يسوع، وكأنّ لا رأي لهم. غير أنّ وجومهم كان يشير إلى استنكارٍ كمينٍ، مكبوتٍ. وإمعاناً في فضح نفاقهم، سألهم يسوع، أمام الجميع: «**من منكم، إذا وقع ابنه أو ثوره في بئرٍ لا ينتشله منها، في الحال، يوم السبت؟**» وهل يُقاس إنقاذ إنسانٍ بإنقاذ بهيمةٍ؟ وازداد الفرّيسيّون خزيًا وخرسًا.

العلّة البشعة التي كان ذلك المسكين يحملها في جسده، كان الفرّيسيّون يحملونها في داخلهم: كبرياء ونفاقٌ ينفخانهم بطلاناً، ويفضيان بنفوسهم إلى الخَوَر والضمور. ولكي يدقّ يسوع المسمار عميقًا في أذهانهم، ويطيح بانتفاخهم الأجوف، وبعد أن شهد تهافتهم على الأماكن الأولى في المتّكأ، ومناوراتهم في سبيل الحصول عليها، لقّنهم، مثلما يلقّن معلّمٌ أطفالاً، درسًا في حسن السلوك، فقال: «**إذا دُعيت إلى عُرسٍ فلا تتّكئ في المُتّكأ الأوّل إذ لعلّه دُعي إليه من هو أكرم منك، فيأتي الذي دعاك وإيّاه ويقول لك: أَخلِ المكان لهذا. حينئذٍ تتحوّلُ إلى الموضع الأخيرِ وأنت خَجلٌ. بل إذا دُعيت فامضِ وخُذ لك المتّكأَ الأخير حتّى إذا جاء الذي دعاك يقولُ لك: ارتفِعْ، أيُّها الحبيب، إلى فوق. حينئذٍ يعْظُم شأنُك عند جميع المتّكئين معك. ذلك بأنّ كلّ من رفع نفسه وُضع، ومن وضع نفسه رُفع**» (لوقا ١٤: ٨–١١).

قول يسوع: «من رفع نفسه وُضع، ومن وضع نفسه رُفع» يميّز حياة يسوع، وكيانه، ومصيره، ورسالته، وسط عالَمٍ مستسلمٍ لكلّ إلهامات الكبرياء، وسخافاتها، وادّعاآتها الجوفاء؛ وهو تأكيدٌ بأنّ التواضع هو السبيل إلى الملكوت، وتذكيرٌ بتاريخ البشريّة التي تمرّدت على الله، فهوت إلى الانحطاط. فكلّ من يزدهي بفضائله وقوّته، يدفن نفسه في بؤسه، ويغوص في طوايا العدم.

أَوَ لم يكن يسوع، في ذلك الوقت بالذات، يهبط، واحدةً فواحدةً، دركات

حياته المتألّمة المهانة، ويدنو من اللحظة التي سيداني فيها العدم، ويسلم ذاته، طائعًا، لموت الصليب؟

هذه العبرة التي انتهى إليها يسوع، تصلح برنامج سلوكٍ لكلّ زمنٍ، وكلّ جيلٍ. وكانت، في ذاتها، أمثولةً كافيةً. غير أنّ المناسبة أوحت ليسوع بدرسٍ آخر في الإحسان الخفيّ، وانتباذ مظاهر السخاء الكاذب، الذي تحدوه المصلحة، وتوقُّع المعاملة بالمثل، ولا ريب أنّه كان قد شهد، عند العتبة، حشدًا من الفقراء المتراصّين، أملاً في أن يُجاد عليهم بفضلات الطعام، فقال: «**إذا صنعت غداءً أو عشاءً فلا تدْعُ أخلاّءك ولا إخوتك ولا أقرباءَك، ولا الجيران الأغنياء لئلاّ يدعوك، هم أيضًا، فيكون لك منهم مِثلٌ بمثلٍ. ولكنْ، إذا صنعت مأدُبةً فادعُ الفقراء والقُطْعَ والعرجَ والعُميان. فطوبى لك حين ذاك لأنّهم ليس لهم ما يُبادلونك به المِثْل فتكون مكافأتك في قيامة الصدّيقين**» (لوقا ١٤: ١٢-١٤)(*).

إنّها دعوةٌ إلى ثورةٍ أخلاقيّةٍ، باتّجاه البذل، والخدمة، والإيثار، والتجرّد، والسخاء الحقّ. نصيحةٌ تتخطّى السلوك الاجتماعيّ، وترقى إلى التماس الكمال.

وكانت نشوة الشراب والطعام الشهيّ قد أخذت بأحد المدعوّين، فقال «**طوبى لمن يأكل خبزًا في ملكوت الله!**». غير أنّ يسوع أفهمه أنّه لا يكفي أن يكون المرء مدعوًّا، بل عليه أن يكون أهلاً للدعوة وأن يستجيب لها. لقد حرص على إماطة الغشاوة عن عيون مستمعيه الذين لم يفطنوا إلى أنّ الملكوت غدا في ما بينهم، متمثّلاً في شخصه وتعليمه، وأنّ مائدة الوليمة قد بُسِطت، والدعوات قد وُجّهت إلى الضمائر اليقظة. وقد أوضح فكرته برواية هذا المثل: «**رجُلٌ صنع عشاءً عظيمًا ودعا إليه كثيرين. وفي ساعة العشاء أرسل غُلامه يقول للمدعُوّين: هلمّوا، إنّ كلّ شيءٍ مُعدٌّ. فطفقوا جميعُهم يعتذرون على نمطٍ واحدٍ: فقال الأوّل: قد اشتريت أرضًا فلا بدّ من أن أذهب فأراها، فأرجو أن تعْذِرَني، وقال الآخر: قد اشتريتُ خمسة فدادين بقرٍ وها أنا ماضٍ لأجرّبها. فأرجو أن تعذِرَني. وقال آخر: قد تزوّجتُ امرأةً فلا أَستطيع المجيء.» فرجع الغلامُ وأخبر سيّده بذلك. فغضب ربُّ البيت وقال لغُلامه: اخرُجْ مسرِعًا إلى ساحات المدينة وأزقّتها وأتِ**

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «وليمة المخلّعين»، صفحة ٣٤٢.

إلى هنا بالفقراء والقُطع والعميان والعُرج... وقال الغُلام: سيّدي قُضي ما أمرتَ به، وبقي محلٌّ. فقال السيّدُ للغلام: اخرُج إلى الطرُق والأسيِجَةِ واضطررهم إلى الدُّخول حتّى يمتلئ بيتي. فإنّي أقولُ لكم إنّه لن يذوق عشائي أحدٌ من أولئك المدعوّين» (لوقا١٤: ١٦–٢٤)(*).

الملكوت ديدن يسوع، لا يفوّت فرصةً للدعوة إليه، ولبيان مقتضياته.

كلّ فكره منصبٌّ على تحقيق هذا الملكوت، وبمعياره يحكم على العالم. فحلول الملكوت هو ذروة التاريخ، وتتويج الخليقة كلّها. وها قد وُجّهت الدعوات إلى ذلك الملكوت الذي شُبّه بوليمةٍ كبرى، ويريد أن تمتلئ قاعتها. ولكنّ المدعوّين الأوّلين تشغلهم اهتماماتهم الأرضيّة، الآنيّة، عن تلبية الدعوة. غير أنّ هذا التقاعس لم يُحبط ربّ البيت، الذي استبدل مدعوّيه الأوائل بمن كان هؤلاء يزدرونهم بحجّة جهلهم للشريعة، وإحجامهم عن ممارستها، وعن مشاركة الفرّيسيّين علمهم الزائف، وطقوسهم الجوفاء. ولكي لا يظلّ مكانٌ شاغرًا، أتى بالغرباء، والمشرّدين، وعابري السبيل. وهكذا سيظلّ الملكوت مشرَعًا للبؤساء، والمعوزين، الذين حرمهم الأغنياء كلّ شيء، ونبذهم المتكبّرون وازدروهم.

كان اليهود أوّل المدعوّين إليه، ولكن ما قيمة الدعوة إن لم تلبَّ؟ أولئك الفرّيسيّون كانوا يتوهّمون أنّهم، بانتمائهم إلى فئةٍ مميّزةٍ، يملكون حقًّا ثابتًا بدخول الملكوت، ولكأنّه بيتهم. ولكنّ يسوع بدّد أوهامهم، وأفهمهم أنّهم قد فقدوا كلّ حقٍّ في الملكوت، بإعراضهم عن دعوة مرسل الله. وحينئذٍ جاء بالوثنيّين كي يحلّوا محلّهم. «**وسيأتون من المشرق والمغرب، ومن الشمال والجنوب، ويتّكئون في ملكوت الله**» (لوقا ١٣: ٢٩). وسيؤكّد بولس هذه الحقيقة بقوله لليهود في أحد مجامعهم: «**إليكم، أوّلاً، كان يجب أن تبلّغ كلمة الله. ولكنْ بما أنّكم ترفضونها، وتحكمون بأنّكم غير أهلٍ للحياة الأبديّة، فها نحن نتوجّه إلى الأُمم**» (أعمال ١٣: ٤٦).

طوبى، إذن، لا للمدعوّين، بل لمن يلبّون الدعوة!

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «المدعوّون كثيرون والمختارون قليلون»، صفحة ٣٤٥.

مُقتَضَياتُ المَلَكُوت (*)

بعد أن تحدّث يسوع عن الدعوة إلى الملكوت، حرص على بسط شروطه ومقتضياته، فقد كان كثيرون يواكبونه، أملاً في مشاهدة أحداثٍ مدهشةٍ، أو رغبةً في مناصرته، وتنصيبه ملكًا. ولكنّهم لم يكونوا لـه تلاميذ حقيقيّين، أي أولئك الذين يهواهم قلبه، والذين يضحّون بكلّ شيءٍ، حتّى الموت، في سبيله، ولا يتوانون عن التضحية بأوثق أواصر الدم إن هي نهضت عائقًا دون اتّباعه، والتخلّي عن كلّ ممتلكٍ ومتاعٍ، لا بل عن الحياة عينها، في سبيل إيمانهم. كثيرون ممّن ساروا في إثره كان قد أضرم اندفاعَهم ذودُه عن حياضهم، متحدّيًا ازدراء الرابّيّين لهم. ولكنّه توجّس خشيةً من أن يكون حاديهم مطامع أرضيّةٌ آنيّةٌ. ولكيلا تذهب الأوهام بأذهانهم كلّ مذهبٍ، ولكيلا يكون اندفاعهم في إثره مثل لهيب هشيمٍ سرعان ما يهمد، ولكي يكونوا على بيّنةٍ من واجبات اتّباعه، ومصمّمين على تنفيذها، حرص على إبلاغهم مقتضياته، فقال: «**إذا أتى أحدٌ إليّ، ولا يبغض أباه، وأمّه، وامرأته، وأولاده، وإخوته، وأخواته، بل نفسه، أيضًا، فلا يستطيع أن يكون لي تلميذًا. ومن لا يحمل صليبه، ويأتِ ورائي، لا يستطيع أن يكون لي تلميذًا**».

«البغض» الذي اشترطه يسوع لا يعني الكره، فإله الحبّ لا مجال للكره في قلبه وتعليمه، ولا يسعه أن يوصي بالكره؛ بل هو عنى أنّ على من يبتغي اتّباعه أن يؤثره على جميع من ذكرهم من أحبابٍ، وأن يتفوّق حبّه لـه على حبّه لأولئك الأعزّاء، بحيث يكون متأهّبًا للتضحية بمقتضيات حبّ هؤلاء، إن هي تعارضت مع مقتضيات حبّه، وبحيث يظلّ حبّ يسوع هو الأوّل والمهيمن.

لم يكن ممكنًا التعبير بمزيدٍ من بلاغةٍ وقوّةٍ عن التجرّد الشامل، والتأهّب حتّى

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «مقتضيات يسوع»، صفحة ٢٠١.

للموت، من أجل الانضواء تحت لواء يسوع. كان الصليب يلوح في أُفقٍ قريبٍ، وكان على الجميع أن يُلمّوا بثمن الانضمام إلى ملكوت السماوات، ويُعدّوا للأمر عدّته، بوعيٍ ووضوحٍ؛ عليهم أن يروزوا قدراتهم، تأهّبًا للمغامرة، كما يفعل حكماء هذا العالم، قبل الإقدام على مشروعٍ خطيرٍ. وقد أوضح يسوع فكرته بمثلَيْن: «**ومن منكم إذا أراد أن يبني بُرجًا لا يجلسُ أوّلاً ويحْسبُ النفقة، ويرى هل له ما يُنجزه به، خوف أن يُرسي الأساس ثمّ يعجز عن الإنجاز، فيأخذ كلّ الناظرين يسخرون منه، قائلين: يا له من رجلٍ يشرعُ في البناء ولا يستطيع أن يُنجز! أم أيُّ ملكٍ يخرج لمحاربة ملكٍ آخر ولا يجلسَ أوّلاً، وينظُرُ مليًّا هل يستطيع أن يلْقى بعشرة آلافٍ من يزحفُ عليه بعشرين ألفًا؟ وإلاّ أوفد إليه سفارةً، وهو بعدُ بعيدٌ، وبحث معه في أمرِ الصلح - فهكذا كلُّ واحدٍ منكم إن لم يزهد في جميع أمواله لا يستطيع أن يكون لي تلميذًا.**

«**أجل إنّ الملح شيءٌ حسنٌ. ولكن إذا فسد الملحُ فبماذا تُردُّ عليه المُلوحة؟ وحينئذٍ لا يصلُحُ للأرض ولا للمزبلة فيُطرح خارجًا. من له أذنان للسمع فليسمع**» (لوقا١٤: ٢٨-٣٥).

الحياة في إثر يسوع حربٌ مستمرَّةٌ على الذات، وعلى ما يمثّله العالَم، وعلى إبليس. وكلّ حربٍ تقتضي متاعب، وتضحياتٍ، ومخاطرَ رهيبةً، على أن لا تكون هذه العوائق مدعاةً للتخاذل، بل حثًّا على توطين العزم، والاستعانة بالله، وعلى السهر، وإبقاء ملح النفس لاذعًا، فاعلاً.

وقد أكّد يسوع أنّ القدرة الكبرى على الكفاح، والطاقة على البناء تنبعان من التجرّد التامّ الذي يوفّر للمرء المناعة والغنى، إذ إنّه ينتزعه من ذاته، ومن أسر كلّ خليقةٍ، ويؤهّله لتقبّل قوّة الله، ووفرة مواهب الروح. وشبّه يسوع هذه الحكمة بالملح الذي يضفي على الطعام طعمًا مستساغًا. إنّ ملح العزيمة هو ميزة رجل التجرّد والتضحية.

وعندما يتثبّت المرء من صدق نيّته، وجاهزيّته لكلّ تضحيةٍ، يتنكّب صليبه، ويمضي رشيق الخطى، فرحًا، في إثر يسوع.

هذه الحقائق الصارمة لم تنفّر من يسوع أصدقاءه، فصراحته كانت تفتن القلوب المستقيمة. «**وكان العشّارون والخطأة يدنُون منه جميعُهم ليسمعوه. فكان الفرّيسيّون والكتبة يتذمّرون قائلين: «هذا الرجُل يقبلُ الخطأة ويأكلُ معهم!**» (لوقا ١٥: ١–٢). ولكنّ يسوع ردّ على انتقاداتهم بإبراز رحمة الله من خلال ما سُمّي «أمثال الرحمة»(*).

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «هذا الرجل يقبل الخطأة، ويأكل معهم»، صفحة **٣٩٣**.

أمثـــالُ الرَّحْـمَة

كان يسوع يسبغ كلّ ضروب العطف على الخطأة والعشّارين، والشعب الجاهل البسيط، أولئك الذين يواجههم زعماء اليهود الدينيّون بعنجهيّةٍ، وتعالٍ، وازدراءٍ. تعليمه الحيّ، السامي، البسيط، المنفتح على الجميع، كان يفتنهم ويأسرهم. وهو كان يرحّب بهم بحرارةٍ، ويحسن وفادتهم، ويكتسب نفوس الكثيرين منهم وقلوبهم، ولا يتوانى عن اقتسام موائدهم، متحدّيًا انتقاد اليهود. وبذلك كان يردّ كثيرين إلى أحضان الله.

غير أنّ الفرّيسيّين والكتبة الذين خوت من الرحمة قلوبهم، وانتفخت عُجْبًا وكبرياء، كانوا يستنكرون سلوكه، وينتقدونه علانيةً.

عطف يسوع كان ينبع من شعوره الموجع بالبؤس الذريع الذي يُمنى به كلّ إنسانٍ ينأى عن الله. ومن ثمّ فإنّ همّه المقيم هو أن يخلّص، ويشفي، وينير، ويعيد إلى أحضان الله كلّ ما هو ضائعٌ، عليلٌ، عاجزٌ، مظلمٌ. وكم كانوا حمقى أولئك الذين أخذوا عليه إيثاره لمن كانوا يعدّونهم حثالة المجتمع، ووصفوه بأنّه «صديق العشّارين والخطأة»، كي يهينوه، ويقلّلوا من شأنه، لأنّهم عجزوا عن فهم جوهر عطفه! لم يحاول يسوع مجادلتهم، وهو يعرف أفكارهم المغلقة، بل سعى إلى إطلاعهم، وإطلاع أولئك المساكين الذين يصمونهم بالخطيئة، ويزدرونهم، على ما يجري في السماء، عندما يؤوب إلى الحظيرة خاطئٌ تائبٌ، ويستعيد مكانه في فردوس الله، ويتلقّى من الآب قبلة الغفران.

كان يسوع قد دنا من نهاية حياته على الأرض، فأمعن في دعوة الخراف الضالّة للعودة إلى الحظيرة. وقد اكتسبت عباراته مزيدًا من رقّةٍ، وبات حبّه يُترجم زفراتٍ ودموعًا، وأحاديثه تترقرق حنانًا.

وقد أوضح كلّ ذلك، من خلال ثلاثة أمثالٍ كفيلةٍ بإقناع أشدّ القلوب قسوةً، وبتوليد الرجاء في نفوس الخطأة والمنبوذين.

النَّعْجَةُ الضَّالّة

في الصباح أخرج الراعي من الزريبة نعاجه المئة، وانطلق بها إلى المرعى. وفي بعض الطريق لمحت إحداها واديًا مخضلاًّ فانفصلت عن القطيع، وانحدرت إليه. وسرعان ما لحظ الراعي اختفاءها، فأجال أنظاره في كلّ اتّجاهٍ، ولم يقف لها على أثرٍ. وومضت في ذهنه صورتها، وهي وحيدةٌ، في الظلام، فريسةً سائغةً للذئاب.

كان لا بدّ من العمل فورًا. فعهد بسائر القطيع لأُجرائه، وانطلق لاهثًا، هابطًا الوديان، متوقّلاً التلال، متفحّصًا الفسحات المكشوفة، مراقبًا حومان الصقور، مناديًا، مرهفًا السمع، خافق القلب، واجفه، إلى أن تنامى إلى سمعه الثغاء الحبيب. فجرى نحو نعجته العزيزة. لم يُسمعها كلمة لومٍ. ولا وجّه لها تهديدًا، بل أقلّها على منكبيه، مسبغًا عليها امتياز الحملان الوليدة العاجزة عن السير. وقد أنساه جَذَلُه بالعثور عليها وِقْر ثقلها. وفي المساء، بعد أن ضمّها إلى أخواتها، دعا أصدقاءه كي يحتفل معهم بالعثور عليها. ويستخلص يسوع، من هذا المثل: «**إنّه على هذا النحو يكون الفرح في السماء بخاطئٍ واحدٍ يتوب، أكثر من الفرح بتسعةٍ وتسعين بارًّا لا يحتاجون إلى توبة**».

أيّة صورةٍ لرحمة يسوع أجمل من صورة الراعي الذي يعثر على نعجته الضالّة، فيقلّها على منكبيه، ويعود بها، وهو يطفر، ويُنشد فرحًا!

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «عطفٌ مجنونٌ: النعجة الضالّة»، صفحة ٢٨٩.

الدِّرْهــمُ المَفْــقود

وألحق يسوع بمثل النعجة الضالّة، مثل ربّة بيتٍ جمعت، من كدّها وتقتيرها، عشرة دراهم بيضاء، تحسُّبًا للأيّام السوداء، وصرّتها بحرص في منديلٍ أخفته في زاويةٍ مظلمةٍ من البيت بحيث لا يلمحه أحد. وذات يومٍ تفقَّدتها، فإذا بالمنديل لا ينطوي إلاّ على تسعة دراهم. فانقبض قلبها. وراحت تسترجع، في ذاكرتها، كلَّ المناسبات التي حلّت فيها عقدة المنديل، فلعلّها، في إحدى تلك المناسبات تركت درهمًا يفلت، ويقع، ويتوارى في مكانٍ لم تلحظه. وفي الحال تسلّحت بسراجٍ ومكنسةٍ، وقلبت أثاث البيت قطعةً قطعةً، باحثةً في كلّ زاويةٍ، وحفرةٍ، وثغرةٍ، إلى أن عثرت على درهمها عالقًا بين لوحين من الخشب. فتفجّر فرحها، ودعت جاراتها وصديقاتها، كي يشاركنها هذا الفرح.

ويستخلص يسوع من هذا المثل: «**إنّه على هذا النحو يكون الفرح عند ملائكة الله بخاطئٍ واحدٍ يتوب**».

هذان المثلان قصيدتا فرحٍ عذبتان، كان الله، فيهما، هو الذي مضى بحثًا عن الضالّ. وقد ألحقهما بمثلٍ ثالثٍ أظهر فيه كيف ترك نعمته تعتمل في نفس شابٍّ ضالٍّ، إلى أن عاد إلى نفسه، وإلى أبيه، وإلى الله.

الأَبْنُ الضّـالّ، أَمِ الأبُ الرَّحُوم ؟ (*)

كان لرجل ابنان يعيش معهما في الريف، في بحبوحةٍ ورخاءٍ. فحقوله شاسعةٌ، ولديه العديد من العبيد العاملين في أرضه وفي بيته. الابن البكر كان مثالاً للاستقامة، شابًّا جادًّا متّزنًا، لا همّ له سوى الحقول التي يعاضد أباه في إدارتها واستثمارها، ولا تستميله أيّة تسليةٍ أو رفقةٍ. وكان أخوه الأصغر نقيضًا له، فالأحلام والأوهام التي تضجّ في رأسه، كانت تشعره بالاختناق، في إطار ذلك العيش المحكم النظام، الصارم الدقّة، الضيّق الآفاق. أعمال الحقل كانت تُسئمه، وروائح القطعان والسائمة كانت تبعث فيه الغثيان. وكان الوكلاء والأُجراء يبدون لـه كالسجّانين الذين يراقبون كلّ حركةٍ من حركاته، وكلّ نأمةٍ من نأماته، كي يبلّغوا بها والده. وكان يستطيب اللهو مع رهطٍ من أصدقاء المجون الذين حشوا مخيّلته بقصص سحر المدن الكبرى النائية، حيث المآدب العامرة، وحفلات الغناء والرقص والعربدة الصاخبة، وحيث، مع كلّ خطوةٍ، تصادَف نساءٌ أنيقاتٌ معطّراتٌ، أين منهنّ الراعيات اللواتي تفوح منهنّ روائح الإسطبل، ورفاقٌ يتقنون فنون المتعة، أين منهم فلاّحو أبيه القذرون! هناك كانت الحياة تستأهل العيش!

وكم توهّجت أحلام المدينة البعيدة في ذهنه، في أماسي الصيف، في أعقاب أيّامٍ من الفراغ، حين كان يستلقي على البيدر، لا يؤنس تخيّلاته سوى صرير الجداجد الرتيب، وتحزنه رؤية الأشهر والسنين تكرّ بلا رجعةٍ، وشبابه يتلاشى كالدخان في الخواء والسأم!

وذات يومٍ تسلّح بكلّ جرأته، وعبّر لأبيه عن الرغبة التي قد أوحاها لـه رفاق السوء، قائلاً، بلا مقدّمات: «**يا أبتِ، أعطِني حصّتي من الميراث**». كانت الشريعة تولي الأخ البكر نصيبًا مضاعفًا، أي ثلثي الميراث. ولكن لا بأس، إنّه راضٍ بالثلث الذي سيمكّنه من تحقيق أحلامه. ولكنّه، تحت أسر شهواته، أغفل أنّه لا تَحقّ لـه

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «الابن الشاطر أم الأب المسرف؟»، صفحة ٣٥١.

أيّة حصّةٍ من الميراث، ما دام أبوه حيًّا. ولكأنّه، بمطالبته بحصّته، كان يعدّ أباه ميتًا. ولكم أدمت هذه القحة قلب الأب الطيّب!

وحدّق الأب، بحزنٍ، إلى عينيْ صغيره، ولكنّه عجز عن التلفّظ بكلمةٍ واحدةٍ. ونأى يرهقه الصمت. ورانت وطأة ذلك الصمت القاتل، أيّامًا عديدةً، كان قلب الأب، فيها، ممزّقًا بين الخوف على ابنه، والخوف من فقدانه. وتغلّب، أخيرًا، الحنان، ولبّى رغبة ابنه غير المشروعة. وسارع الابن إلى بيع الأرض التي نشأ على أديمها، محوّلاً عقاراته إلى نقدٍ سائلٍ، وانطلق إلى حيث كانت تناديه أوهامه وأحلامه، آملاً أن يتذوّق، أخيرًا، طعم الحياة الحقّة.

الديار التي هبطها لم يكن لها عهدٌ بالروادع الأخلاقيّة والدينيّة. والمال الوفير الذي جاء به أتاح له إطلاق العنان لكلّ شهواته، وتحويل أكثر أحلامه شرودًا إلى واقعٍ يعيشه بكلّ أوتار كيانه. كان متعطّشًا إلى المتعة، فغرق في أعمق وهادها بلا حسابٍ ولا وازعٍ.

أيّامٌ مثل هذه تتصرّم سراعًا، وسريعةً تتجلّى عواقبها. فالمال ينساب ويتدفّق، وأيًّا كان عمق الكيس، لا يلبث أن يُظهر الإسرافُ قعرَه. عطش الشابّ إلى اللذات أعماه عن تبيّن ذوبان إرثه، يومًا فيومًا، إلى أن عاين، ذات يوم، اضمحلاله كلّيًّا. لقد ولّت حياة البحبوحة والمتعة، وأعقبتها، فجأةً، حياةٌ أخرى، مختلفةٌ كلّ الاختلاف.

يقول الإنجيليّ لوقا: «**ولمّا أنفق كلّ شيءٍ، نشبت في ذلك البلد مجاعةٌ شديدةٌ، فوقع في العَوَز**». وارفضّ عنه جميع الرفاق الذين كانوا، في الأمس، يداهنونه، ويسامرونه. وهو، الغريب المفلس، لم يبقَ له من خيارٍ سوى أن ينفق جوعًا، أو أن يقبل أيّ عملٍ، مهما كان منفّرًا. «**فمضى وانضوى إلى واحدٍ من أهل ذلك البلد، فأرسله إلى حقوله يرعى الخنازير، وكان يشتهي أن يملأ بطنه من الخرّوب الذي كانت تأكله الخنازير، ولم يُعطِه أحدٌ**». بات يحسد الخنازير التي كان يراها، في النهار، تنتزع، بفناطيسها من التراب ما تعثر عليه من جذور، وفي الليل تنال نصيبها من الخرّوب، الذي كان يشتهي أن يملأ به بطنه، ولكنّه يُحرم منه، فالخنازير، في اعتبار سيّده، أَوْلى به منه.

وكان يتّفق لـه، في ساعات القيظ الخانقة، أن يستلقي وسط الخنازير الكسلى، وتسافر به الذكريات إلى ديار أبيه، حيث كان يستلقي على البيدر، ويدغدغ أحلام السعادة، فيتبيّن ما انتهت إليه هذه الأحلام: رفقة الخنازير القذرة، والأسمال البالية، الساطعة بالروائح الكريهة التي لا يستر عريه سواها، والجوع الذي ينهش أحشاءه...

«**فرجع إلى نفسه وقال: كم لأبي من أجيرٍ يفضُلُ عنه الخبزُ وأنا هنا أهلِكُ جوعًا! أقومُ وأمضي إلى أبي وأقول له: يا أبي، إنّي قد خطئت إلى السماء وإليك. ولا أستحقُّ بعدُ أن أُدعى لك ابنًا. فاجعلني واحدًا من أجرائك**» (لوقا ١٥: ١٧- ١٩).

من أين لـه الجرأة على العودة بعد كلّ ما جرى؟ ولكن أليس مغنمًا كبيرًا أن يعمل أجيرًا في مزرعة أبيه، لقاء طعامه وشرابه، ولباسه، وأجرٍ متواضعٍ؟ أوَ ليس ذلك خيرًا من الموت جوعًا وذلاًّ في أرضٍ غريبةٍ، وبين قومٍ لا يرحمون؟

كان قد غفل عن نفسه، ولـمّا «**رجع**» إليها، تسنّت له العودة إلى أبيه وإلى الله. الغوايات الآسرة كانت قد أعمته عن الواقع، وعطّلت تفكيره. وها إنّ الجوع يوقظه، ويبعث ذكريات ماضي البحبوحة، في البيت الأبويّ، والعطف الوالديّ اللامحدود، فهبّ من هوّة بؤسه، تدفعه الثقة في صفح أبيه، رغم شعوره بعدم استحقاقه، ولكن بقصدٍ ثابتٍ على محو خطيئته.

ذلك الشابّ الضالّ هو صورةٌ للخاطئ الذي ينأى عن أبيه السماويّ، لا في المدى، بل في القلب والروح. إنّه يهجر الله، ويقيم بعيدًا عنه، ويُبدّد كلّ الإرث الذي تلقّاه منه. يتخلّى عن فكره للضلال، وعن قلبه للأهواء. يفقد الاستقامة والفهم، وصفاء النفس، ورهافة الضمير، والقدرة على التمييز بين الخير والشرّ. ينسى أباه فيكتمل دماره.

وفي هوّة بؤسه تذكّر أباه، وعقد العزم على العودة إليه يحدوه اليقين بأنّه لن يرذله. من الخيرات التي أغدقها عليه، لم يبقَ لـه شيءٌ، سوى ذلك الحدْس الذي أكّد لـه أنّ أباه لن يردّه خائبًا، بل سيصفح عنه. هذا الحدْس، هذا القسط الثمين من إرثنا، قد حرص أبونا السماويّ على ألاّ نبدّده، فلم يضعه بين أيدينا التي قد

تسقطه، ولا دوّنه في فكرنا الذي قد يدعه يمّحي، بل حفره في صميم قلبنا، حيث يستطيع الصمود.

بوحي هذا الرجاء لملم الشابّ المنكود ما تبقّى له من طاقةٍ وعزيمةٍ، ويمّم شطر البيت الوالديّ. ولكم أرهقه النَصَب، وخامره القنوط من بلوغ مقصده، ولكم مزّقته الشكوك، وخُيّل إليه أنّه لن يلقى حتّى استقبال كلبٍ متشرّدٍ! ولكنّه كان يفتقر إلى أيّ خيارٍ آخر. وظلّ يجرّ أقدامه المقرَّحة، وخزيه المرهق، إلى أن انتهى إلى جوار منزل أبيه.

في تلك الأثناء كان والده خارج البيت يراقب أعمال حقله، منقِّلاً من محراثٍ إلى آخر، ومن خادمٍ إلى آخر، بصَره الذي أفقد حدّتَه ألمُ فراق ابنه، ألمٌ قديمٌ يتجدّد كلّ يومٍ. وبين الفينة والأُخرى، كان يضع يده فوق جبينه، ويرصد الأفق البعيد، معّللاً نفسه برؤية طيفٍ حبيبٍ عائدٍ.

«**وإذ كان لم يزلْ، بعدُ، بعيدًا، أبصره أبوه، فتحرّكت أحشاؤه. فركض وألقى بنفسه على عنقه، وقبّله طويلاً. فقال له الابن: يا أبي، لقد خطئت إلى السماء وإليك، ولا أستحقّ، بعدُ، أن أُدعى ابنك...**». مئات القبلات حطّها ذلك الأب على العنق القذر، وعلى اللحية الشعثاء المغبّرة. ولم يكن ليُلام لو هو أمر خدمه بطرد الابن العاقّ شرّ طردٍ! غير أنّ موقف الأب الزاخر بالحبّ، أضرم قلب الشابّ جرأةً، فتلا الخطاب الذي كان قد أعدّه وكرّره مرارًا طيلة الطريق. ولكن عندما انتهى إلى القول: «**لا أستحقّ، بعدُ، أن أُدعى ابنك**»، قاطعه أَبوه بمزيدٍ من القُبَل، ولم يدعه يكمل القول: «**فاجعلني واحدًا من أجرائك**». وعلى أيّة حال، لم يبقَ لذلك القول مكانٌ، فالأب، في غمرة سعادته، لن يسمعه، والابن خشي أن يبدو هذا القول إهانةً لكرم أبيه، وطعنةً لقلبه المتدفّق حنانًا وفرحًا بعودته، ونبشًا لذكرى أيّام الضلال، والعار، والألم، التي حرص الأب على محوها، ودفنها، وغسل كلّ آثارها، بدليل قوله لخدمه: «**هاتوا مسرعين أفخر حلّةٍ وألبسوه، واجعلوا في يده خاتمًا، وفي رجليه حذاءً، وَأْتوا بالعجل المسمّن، واذبحوه، ولنأكل ونفرح، لأنّ ابني هذا كان ميّتًا فعاش، وكان ضالاًّ فوُجد...**» وألبسه ثياب الطهر، وخاتم السيّد، والأحذية التي تقي قدميه من الاتّساخ، ولمَ لا؟ أليس هو ابن السيّد، وقد عاد، وهل يسوغ أن يبقى ابن السيّد، لحظةً واحدةً، في هذا

المظهر المنفّر المخزي؟ أمّا العجل المسمّن، فكان يحتفظ به لمناسبةٍ فريدةٍ، وكانت تلك المناسبة أعزّ من كلّ ما توقّعه. فأمر بذبحه، وبإقامة مأدبةٍ عامرةٍ.

وبعد أن استحمّ الابن العائد، وارتدى ثيابه الفاخرة، كان على الجميع أن يضعوا جانبًا المحاريث والمعاول والرفوش، ويعدّوا الوليمة للاحتفال، وسرعان ما دوّت أهازيج الفرح، على وقع أقدام الراقصين.

هذا المشهد الثاني الذي يسوده وجه الآب، يتّسم برقّةٍ فائقةٍ، وبراعةٍ متناهيةٍ توحي بأكثر ممّا تستطيع الكلمات التعبير عنه. إنّ مشاهدة الأب ابنَه قادمًا من بعيد، لم تكن صدفةً. فهو لم يُسلّم، قطّ، بفقده، ولم يتخلَّ، لحظةً، عن الأمل في رؤيته عائدًا. ولم يكفّ، يومًا، عن استطلاع الآفاق توقّعًا لعودته. ويوم لاح طيفه، في أسمال متسوّلٍ زريّةٍ، لم يعجز عن تعرّفه، فخفّ لملاقاته. وقرأ الندم في عينيه وعلى محيّاه، فارتمى على عنقه، وقبّله بلهفةٍ، وبلّله بدموعه، ولم يدع له فسحةً لإلقاء خطاب التوبة الذي أعدّه للتعبير عن صدق ندمه، وتواضعه، والاعتراف بخطئه الفادح، وللإعلان عن عدم جدارته بأن يدعى له ابنًا، وعن جاهزيّته لكلّ تكفيرٍ. وعندما تسنّى له الشروع بإلقاء هذا الخطاب، قاطعه والده، فقد غدت الأقوال نافلةً، وامّحى الماضي، وتحقّقت المصالحة، ولم يعد يشغل بال الأب سوى الاحتفال بعودة الغائب الغالي.

لو لم يكن ذلك الأب صورةً لأبي المراحم، لتعذّر تخيُّل أبٍ على هذا القدر من الرقّة، والعطف، ونسيان الإهانة، والمسارعة إلى الصفح، والسخاء حيال ابنٍ عاقٍّ. ومع ذلك، فإنّ صورة هذا الأب، بالقياس إلى رحمة الله، تبدو باهتةً، فالله هو الذي يبحث عن الضالّ ويجتذبه بفيض نعمه، ويفعل كلّ شيءٍ لاستعادته، وإذا ما عاد أغدق عليه هباته، وألبسه ثوب البراءة، فالتوبة معموديّةٌ جديدةٌ تعيد كلّ ما سلبته الخطيئة.

إنّ الربّ يؤثر، فوق كلّ شيءٍ، استسلام قلبٍ أحرق كلّ المراحل، وبلغ أقصى تخوم البؤس، فعاد بيقين عدمه، متلاشيًا، ووضع نفسه بين يدي الرحمة.

عودة الابن الضالّ ليست مثلاً، بل هي القصّة الواقعيّة لمعظم العودات إلى الله بعد نوبات جنونٍ.

إنّها صورةٌ لمغامرات تيهنا المتكرّرة: نشوة لحظاتٍ تعقبها يقظةٌ بائسةٌ؛ فراغٌ مريعٌ تفشل الأهواء في ردمه؛ انحطاطٌ لا يُنقذ منه سوى رفع الأنظار إلى السماء، والعودة التائبة إلى الله. وطوبى لمن غسل غفرانُ الله ذنوبه !

وفيما كان الشعب يتذوّق رحمة الآب، قرأ يسوع الغضب في عيون أعدائه، فأكمل مثله ببسط موقف الأخ البكر الذي يمثّلهم. فهم يفخرون بامتلاك كلّ شيءٍ: الهيكل والشريعة، وزعم اختيار الله لهم. ولكن غرب عن بالهم أنّ الله يؤثر دموع التوبة الصادقة على الفضيلة المرائيّة.

المشهد الثالث الذي يطالعنا هنا يناقض ما شاهدناه في المشهدَيْن السابقَيْن من ضلالٍ وتوبةٍ، ومن صفحٍ وحبٍّ بلا حدودٍ. هذا المشهد يسوده وجه الابن البكر، الذي كان يعمل في الحقل، واستدعت أعمالٌ طارئةٌ تلكُّؤه في العودة.

كان ذلك الابن البكر قد تميّز، حتّئذٍ، بسلوكٍ مثاليٍّ، فهو قد ترك كلّ ما يعود لـه بعهدة أبيه، وكان دؤوبًا على العمل، مقتّرًا، حريصًا، صموتًا، مطواعًا.

ولّما عاد من الحقل، في ذلك اليوم، كانت النشوة قد أخذت بالرؤوس، فتعالت أصوات الغناء، ونغمات آلات الطرب، وتسارعت إيقاعات الرقص، فوقف ذلك الشابّ الرزين مشدوهًا. فما هي مناسبة هذا الاحتفال غير المألوف، وغير المتوقّع، في بيت أبيه، وعلامَ أخفى أبوه عليه الأمر؟

استدعى أحدَ الغلمان واستوضحه، فأخبره بعودة أخيه المباغتة، وأسهب في وصف حالة الرثاثة والقذارة والانحطاط التي كان عليها، وأسماله الخلقة الملطّخة التي تفوح إنتانًا، وقدميه الحافيتين المقرّحتين، وهزاله وشحوبه المخيفَيْن، وركبتَيْه العاجزتين عن حمله، ودموعه المدرارة، وخزيه المرهق. كلّ هذا الوصف لم يحرّك عاطفةً في قلب الابن البكر. بل أحزنه أن يعود أخوه الوقح، بلا خجلٍ، بعد أن التهم إرثه مع البغايا، وهو ما زال معافًى، رغم كلّ ضروب الإسراف التي تردّى في هوّتها. وكان يخيّل إليه أنّ أخاه ما عاد إلاّ لكي يبتزّ أباه ثانيةً، ويستعيد عهده السابق. ولطالما أدان مستقيمون آخرين ضعفاءَ بمثل هذه القسوة، لأنّهم يجهلون مدى معاناتهم.

هذه الخواطر استحوذت على فكره، بحيث أبى دخول البيت والمشاركة في الاحتفال بعودة أخيه، رغم توسّلات أبيه، الذي هدّأ روعه بقوله: «**يا ابني، أنت**

على الدوام معي، وكلّ ما هو لي فهو لك». أليس هذا القول أغلى من كلّ قطعان العجول؟ ومع ذلك ظلّ الابن البكر يتصرَّف، وكأنّ أباه قد جنّ، بحيث بذخ كلّ ذلك البذخ إكرامًا لأخيه الحقير، عار الأُسرة وسبب دمارها. وتجلّى غيظه وحقده، في سياق حديثه عن أخيه، بقوله لأبيه: «**ابنك هذا**» في حين كان الوالد يقول لـه: «**أخوك هذا**». ولكأنّه يخشى تلويث فمه بدعوة ذلك الماجن أخًا، ويودّ إنكار هذه الأُخوّة. ولكنّ أباه دأب على تذكيره بأنّ العربيد هو أخوه، رغم كلّ ما فعل، وعليه أن يعامله على هذا الأساس، مثلما هو عامله كابنٍ.

لقد أطلق الابن البكر العنان لمشاعر الحسد والحقد المكبوتة التي كانت تعتمل في نفسه، فاضحًا حقيقة سريرته، وموقفه من أبيه نفسه، المتّسم بطاعةٍ ظاهريّةٍ، تخفي حقدًا دفينًا. فقد كان ذلك الوالد العجوز، في نظره، ربّ عملٍ يخضع له كي يرثه، أكثر ممّا هو أبٌ يملك عليه نفسه، في حين كان أبوه يحبّه، إلى أبعد، بما لا يقاس، ممّا تطاولت ظنونه، وإن هو لم يظهر حرارة هذا الحبّ، فمن جرّاء برودة موقف ابنه هذا.

الابن الأصغر الضلّيل لم يشكّ في رحمة أبيه، فعاد إليه. أمّا الأخ الأكبر فشكّ في عدل أبيه، التهم قلبَه الحسد، فسبّبت له عودة أخيه الابتئاس، لا الفرح.

الابن البكر صورةٌ للفرّيسيّين، وتجسيدٌ لكلّ نقائصهم. فهو لا يحبّ أخاه، ولا يدرك للتوبة، ولا للصفح، معنًى. لا يعنيه سوى ذاته، والافتخار باستقامته ووفائه، فيتذمّر ويشكو، لأنّه هو الذي يستحقّ التكريم لا أخوه، الذي يرى فيه سارقًا لحقوقه.

بكلّ ذلك، أثبت الابن البكر أنّه كان أكثر عقوقًا من أخيه الطائش، لأنّ عقوقه لم يكن نزوةً، بل كان راسخًا في أعماقه، ولأنّه لم يُقدّر كلّ ما كان قلب أبيه يكنّه لـه من خيرٍ، وحبٍّ صادقٍ، ومع تأكيد أبيه بأنّ المأدبة التي أقامها لم تكن تأييدًا لضلال أخيه، ولا مكافأةً لـه، بل ابتهاجًا بعودته إلى صوابه، وكرامته، أصرّ على رفض المشاركة في هذه البهجة.

ما وَسَم الأخ الأكبر من أنانيّةٍ وحَسدٍ، وحقدٍ، وتباهٍ، هو القناع الذي يلبسه كلّ دينٍ خوى من الحبّ، والزيف الذي يموّه كلّ فضيلةٍ كاذبةٍ.

هذا المثل شمسٌ تشرق على أكثر السِيَر قتامًا وإغراقًا في الانحطاط. ففي مصير

الابن الأصغر يقرأ الخطأة عمق الهوّة، وهول البؤس اللّذين تدفعهم إليهما الأهواء المنفلتة من عقالها، إلى أن يصيحوا، بوجعٍ: «**أنا جائعٌ!**»، وينهجوا درب العودة إلى الآب الذي لا يشكّون بغناه وكرمه.

وبقدر ما يرفق الربّ بالخطأة ويرشدهم إلى سبل الخلاص، بنفس القدر يقسو على المرائين المدّعين.

من خلال الابن البكر كان يسوع يخاطب الكتبة والفرّيسيّين، الذين، على غراره، يتباهون بوفائهم الدائم للفرائض، وعلى غراره، يخدمون بروح العبيد، الذين لا عهد لهم بحبّ، وعلى غراره يتذمّرون من حسن وفادة يسوع للخطأة التائبين.

تقيّده بحذافير الشريعة أوهمه بامتلاك حقّ ازدراء كلّ من تعثّر، وكبا، أو ضلّ سواء السبيل. إنّه ينتمي إلى عالم من يظنّون أنّ على العميان أن يظلّوا سجناء عماهم، وعلى الصمّ ألاّ ينفذ، أبدًا، إلى أسماعهم كلام البُشرى؛ وعلى الخطأة والضالّين أن يبقوا، أبدًا، مدانين. لم يكن أبًا، يومًا، ولم يسبر قلب الأب. لم يكن بوسعه أن يدرك أنّ عودة الابن الضالّ تحقّق رسالة الأب، وتدعم قوّة حبّه، وتتيح له التعبير بحرّيّةٍ، عن عطفه وحنانه، لأنّ الأب يضع الحبّ فوق كلّ اعتبارٍ، وبالتأكيد فوق الحسابات، والعقاب، والنبذ. الأب لا يرمي جانبًا ابنًا يعود إليه تائبًا، ولكنّ الابن البكر، الذي يخفق، في صدره، قلب فرّيسيٍّ، لا يستطيع فهم ذلك. ففي نظر الفرّيسيّين الرحمة ظلمٌ.

ولئن كانت أمثال الرحمة السابقة قد أشادت برحمة الله، فقد أبرزها هذا المثل في أروع صورها، ولكنّه أبرز، أيضًا، واجب رحمة البشر لإخوتهم الخطأة. وهذه هي ميزته.

إنّ رحمة الله، نظير جميع صفاته السامية، تتخطّى، بلا حدودٍ، فهمنا. ولكنّها باتت بالغة العذوبة على قلوبنا، مذ روى يسوع هذا المثل.

الوَكِيلُ الخَائِنُ الفَطِن

مثلٌ أسال حِبرًا كثيرًا، واستثار تساؤلاتٍ عديدةً، ويُرجَّح أنّ يسوع استمدّه من حَدَثٍ واقعيٍّ، وجريًا على مألوفه، استخلص منه دروسًا وعِبَرًا. وقد توجّه به إلى تلاميذه، فقال: «**كان لرجلٍ غنيٍّ وكيلٌ شُكِيَ عليه أنّه يُبذِّرُ أمواله. فاستدعاه وقال له: ماذا الذي أسمعُ عنك؟ أدِّ حساب وكالتك، إذ لا يُمكن بعد اليوم أن تكون وكيلاً لي.**

«**فقال الوكيلُ في نفسه: ماذا أفعل؟ فسيّدي يستردُّ منّي الوكالة، وأنا لا أقوى على نقب الأرض، وأخجل أن أستعْطي... علمتُ ماذا أفعل حتّى إذا خُلِعتُ عن الوكالة أجدُ من يقبَلُني في بيْته. فاستقدم مدْيوني سيّده واحدًا فواحدًا، وقال للأوّل: كم عليك لسيّدي؟ قال: مئة بثّ زَيْتٍ. فقال له: خُذْ صكّك، واجلسْ على عَجَلٍ، واكتُب خمسين. ثمّ قال لآخر: وأنت كم له عليك؟ قال: مئة كُرّ قمحٍ. فقال له: خُذ صكّك واكتُبْ ثمانين. فامتدح السيّد وكيله الخائن لأنّه تصرّف بذكاءٍ. ذلك أنّ أبناء هذا الدهر هم أذكى، في ما بينهم، من أبناء النور**» (لوقا ١٦: ١– ٨).

كلّ من توقّع إدانة الوكيل المختلس المزوّر، من جرّاء إساءته الأمانة، يدهش لامتداح سيّده ذكاءه وحنكته. لم يمتدح عمله في ذاته، فإنْ هو إلاّ سلسلةُ سرقاتٍ جديدةٍ تضاف إلى اختلاساته السابقة. بل امتدح فطنته، وحرصه على ضمان مستقبلٍ مأمونٍ لنفسه.

ويرى بعض المفسّرين أنّ الوكيل كان قد أكره الوكلاء على توقيع صكوكٍ بمبالغ تتضمّن، فضلاً عن الدَّيْن الفعليّ، عمولةً باهظةً لنفسه. وبما أنّه لم يعد قادرًا على استيفاء عمولاته، إذ إنّ السيّد سيستوفي مبالغ الصكوك كاملةً، بادر إلى تصحيحها، مخفّفًا أعباء المدينين، وتاركًا لسيّده حقّه، بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ، آملاً أنّ يقدّر له العملاء صنيعه.

كذلك يسوع الذي نَعَتَ الوكيل بالخيانة لم يمتدح خيانته، بل، على غرار سيّده، امتدح حنكته، ودعا تلاميذه إلى التمثّل به، في معالجتهم أمور خلاصهم الروحيّ. الوكيل عمل بذكاءٍ بحيث يجد من يقبله في بيته، عندما ستضيق به الحِيَل. وعلى المؤمنين أن يعملوا، أيضًا، بذكاءٍ، لكي يفتح لهم الآب بيته، بعد أن تنصرم أيّامهم على الأرض.

ومن علامات الذكاء اعتبار المال وسيلةً لا غايةً. فالإنسان موكَّلٌ على ما أُعير من مالٍ. فإن هو كان فطنًا، وحريصًا على خلاصه، ابتاع به أصدقاء له على الأرض، وشفعاء له في السماء، وإلاّ غدا مالَ ظلمٍ، ومدرجةً إلى الهلاك. على المرء إعداد مستقبله الأبديّ، باقتسامه أمواله مع الفقراء، عبر التصدّق بها.

يصف يسوع المال بالخدّاع لأنّه يجتذب الكثيرين إلى عبادته، مع أنّه زائف القيمة، زائلها، بالقياس إلى قِيَم الملكوت الجوهريّة التي لا تزول، ولأنّه لن يشفع بعبيده وعابديه يوم يكونون في أشدّ حاجةٍ إلى شفيعٍ.

المال أمانةٌ، والوفاء لها هو إنفاقه في دروب الخير والإحسان. ويسوع يؤكّد: «**إنّ الأمين على القليل أمينٌ، أيضًا، على الكثير، وغير الأمين على القليل، غير أمينٍ، أيضًا، على الكثير. وإذا أسأتم الأمانة في المال الخدّاع فمن يأتمنكم على الخير الحقيقيّ؟ وإذا أسأتم الأمانة في ما ليس لكم، فمن يعطيكم ما هو لكم؟ المال المكدَّس ظلمٌ فيجب التصدّق به**» (لوقا ١٦: ١٠– ١٢).

لم يؤيّد يسوع الغشّ والحيلة، ولكنّه يبتغي من أبناء الملكوت أن يكونوا حريصين على خلاص نفوسهم، مثل حرص ذلك الوكيل على خلاص جسده، وألاّ يضنّوا بالمال الزائل، في سبيل التأهّل للملكوت.

لقد دعا يسوع إلى التحلّي بفطنة الوكيل، لا بغشّه.

المال ظلمٌ، ولا سبيل إلى النجاة من لعنته، إلاّ بحسن استخدامه، بما يرضي الله. وعلى من نال منه نصيبًا أن يتطهّر منه، لا بخداع الربّ، بل بإغداقه على أصدقائه المحرومين، ممثّليه على الأرض: الجائع، والعطشان، والعريان، والسجين، وأبناء السبل. فمن لم يكن أهلاً لهذا الأمر الضئيل، أنّى له التأهّل لإدارة شؤون نفسه؟

ومن عجز عن التخلّي عن المال في سبيل خيرٍ أسمى، بل اتّخذ منه أداة متعةٍ وسيطرةٍ، فكيف له امتلاك مقاليد ذاته؟

المال أمانةٌ، والأمانة متعذّرةٌ على من كان قلبه نهبًا بين ربَّيْن متنابذيْن. وقد خلّد يسوع هذا الواقع بحكمةٍ ستظلّ تدوّي عبر الدهور:

«**لا يستطيع عبدٌ أن يكون لسيّديْن معًا، لأنّه إمّا أن يُبغض الواحد ويحبّ الآخر، أو يلازم الواحد، ويزدري الآخر. فلا يمكنكم أن تعبدوا اللّه والمال معًا**» (لوقا ١٦: ١٣).

يعبد المال كلّ من تحدوه رغبةٌ في امتلاكه، ولا يحجم عن أيّة وسيلةٍ في سبيل اقتناصه، من يكلَف به، ويهبه قلبه، ويتغزّل بسناه.

ولا ريب أنّ يسوع قد أمعن في استثارة غضب اليهود، بشجبه المال الذي كان يعرف كَلَفهم به. فهم لا يتطلّعون سوى إلى «ندى السماء، ودسم الأرض». في حين كان يسوع يرى أنّ الثروة تقيّد النفس بشباكٍ غير مرئيّةٍ تشدّها إلى الأرض. وقد وصفها، دائمًا، بالعدوّة الغاوية المهلكة. وغالبًا ما يكون مصدر المال الظلم، ونتائجه الكبرياء، وقسوة القلب، وانفلات الأهواء.

من المحقّق أنّ المال إلهٌ مستبدٌّ طاغٍ. ومن ثمّ يستحيل على الإنسان أن يعبد اللّه الحقّ، إن هو كان، في الآن عينه، عبدًا عابدًا لمامون، إله المال.

فقط من يزدري إله المال، وينعتق من عبوديّته، يُثبت أنّه صديق الربّ. فالمال هو السلاح الذي يستخدمه إبليس كي يسلب يسوع أحبابه. لأنّ يسوع لا يملك إلاّ على القلوب المجرّدة، ومن ثمّ قلوبُ البُخلاء والمتكالبين على المال لا تخصّه. و«مامون» دائبٌ على أن يجعل من يسوع ذلك المتشرّد الأبديّ، الذي يجد، في كلّ مكانٍ، موقعه في النفوس محتلاًّ.

هذه الأقوال لم يستسغها الفرّيسيّون المندسّون في صفوف الشعب بغية مراقبة يسوع، فجشعُهم كان مضرب الأمثال، وكانوا يخالون أنفسهم حاذقين في التوفيق بين التمتّع بالخيرات الأرضيّة، والبذخ، وتكديس الأموال، التي كانت تستعبد نفوسهم، من جهةٍ، والتقوى الخارجيّة، والقداسة الشرعيّة، من جانبٍ آخر. ولا عجب إن هم سخروا من يسوع وفقره، وازدرائه لكنوز الأرض. فالفقر، في نظرهم،

يعادل كلّ شرور الأرض وبلاياها مجتمعةً، في حين تكمن البركة في الثروة، التي تعني رضى اللّه وصداقته.

أن يهب غنيٌّ ماله، ويصبح في مثل عري دودةٍ، ليس، في نظرهم، مجرّد هذيان متشرّدٍ مأفونٍ، بل هو تجديف كافرٍ. فالشريعة تقول، صراحةً، إنّ اليسر المادّيّ هو دليل بركةٍ إلهيّةٍ، ومكافأةٌ على مراعاة الوصايا. أمّا الفقر فهو نصيب عديمي التقوى؛ وإن كان يسوع هاوي فقرٍ، فبئس مصيره، لأنّ اللّه يحرمه مكافأة الأبرار، لعدم استئهاله لها، بسبب معارضته للشريعة، والتقليد اليهوديّ.

ولطالما بدت التعاليم البطوليّة جنونًا للنفوس الوضيعة! وقد واجههم يسوع بحقيقتهم، بعباراتٍ لاذعةٍ: «**أنتم تُظهرون برّكم على عيون الناس. ولكنّ اللّه عالمٌ بقلوبكم. فالرفيع عند الناس رجسٌ عند اللّه**» (لوقا ١٦: ١٥).

ولكي يبدّد من أذهانهم كلّ ادّعاءٍ يستمدّونه من وفائهم للشريعة، أفهمهم أنّ الشريعة، كما فهموها، قد قضت نحبها، وأنّ الملكوت الجديد لا يُكتسب إلاّ بالزهد والتضحية، والنضال، فقال: «**امتدّت الشريعة والأنبياء حتّى يوحنّا. ومنذئذٍ يُبشَّر بملكوت اللّه، وكلٌّ يسعى جهده لولوجه عنوةً**» (لوقا ١٦: ١٦).

هذا الملكوت متاحٌ لكلّ إنسانٍ ملتزمٍ بمقتضياته، وليس حكرًا على أيّ مدّعٍ. في هذا القول نقضٌ صريحٌ لما يدّعيه الفرّيسيّون من سلطةٍ دينيّةٍ زائفةٍ، وامتيازاتٍ باطلةٍ.

لعَــازَرُ وَالغَـنِيّ (*)

بعد أن أعرض الفرّيسيّون عن الحقيقة، التمسوا رغد العيش، مزدرين كلّ من هم دونهم علمًا وثروةً، بل مزدرين الأنبياء أنفسهم الذين طالما دعوا إلى إغاثة الملهوف، وإقامة العدل. تلك القحة المتغطرسة، التي لا تلتفت إلى وهن الصغار، ولا تعير الحقّ أُذنًا، تصدّى لها يسوع بمثلٍ انطوى على وعيدٍ صريح: «**كان رجلٌ غنيٌّ يلبَسُ الأُرجوان ويتنعّم كلَّ يومٍ مُترفِّهًا. وآخرُ مِسكينٌ اسمُه لعازر كان مطروحًا عند بابه مضرُوبًا بالقروح، ويشتهي أن يشْبع ممّا يسقطُ من مائدة الغنيّ. بل كانت الكلابُ تميلُ إليه وتلحَسُ قروحَه.**

«**مات المسكينُ فحملتْه الملائكة إلى جوار إبراهيم. ومات الغنيُّ أيضًا ودُفن. فرفعَ عينيه وهو في الهاوية يتعذّبُ فرأى من بعيدٍ إبراهيم ولعازر بجواره. فنادى قائلاً: يا أبتا إبراهيم، ارحمْني فأرسل لعازر يَبُلُّ بالماء طرف إصبعه ويُبرِّدُ لساني لأنّي معذَّبٌ في هذا اللهيب. فقال إبراهيم: تذكّر، يا ابني، أنّك استوفيت سعادتك في إبّان حياتك، ولعازر بلاياه. والآن هو يتعزّى وأنت تتعذّب. وإلى ذلك كلّه فبيننا وبينكم جُعلت هوّةٌ عظيمةٌ حتّى إنّ الذين يُريدون الاجتياز من هنا إليكم لا يستطيعون، ولا الذين من هناك إلينا.**

«**فقال: أسألُك إذَنْ، يا أبي، أن تُرسله إلى بيت أبي لأنّ لي خمسة إخوةٍ فيُنذِرُهم لكي لا يجيئوا، هم أيضًا، إلى مكان العذاب هذا. فقال له إبراهيم: إنّهم عندهم موسى والأنبياء فليسمعوا منهم. فقال: لا، يا أبي إبراهيم، بل إذا جاءَهم واحدٌ من الأموات يتوبون. فقال له: إذا هم لا يسمعون من مُوسى والأنبياء فإنّهم، وإنْ قام واحدٌ من الأموات، لا يُصدّقون**» (لوقا١٦: ١٩–٣١).

رجلٌ غنيٌّ، واحدٌ من ملايين الأغنياء الصَلِفين، ومن ثمّ لا داعي لذكر اسمه،

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «لعازر والغنيّ»، صفحة ٣٦٣.

فأمثاله منتشرون في كلّ مكانٍ. ديدنه البذخ، يتهادى بأفخر الثياب المصنوعة من كتّان مصر، وحرير الهند، وأرجوان صور، ولكأنّه أحد الأباطرة. وكلّ يومٍ يقيم مآدب عامرةً، تجمع ندامى بهجين حول الأطعمة الشهيّة، والخمور المعتّقة النادرة، واهتزاز الراقصات، وفنون البهلوانات.

وعند باب قصره كان يقبع فقيرٌ عاجزٌ، له اسمٌ لأنّه فريدٌ في نظر الله، واسمه لعازر. لا ثياب له سوى أسمالٍ باليةٍ، لا تستر القروح المنتشرة على جسمه العليل القذر. كان يستمع إلى صخب المآدب فتملأ آذانه ضوضاء الصحاف والملاعق، ورنّات الكؤوس والضحكات، وتملأ أنفه روائح قتار اللحوم، ولكنّ أصحاب القصر يمسكون عنه حتّى الفتات المتساقط من الموائد. وحدها الكلاب كانت تلحظ وجوده، فتميل إليه وتلحس قروحه.

ولكن لا شيء على هذه الفانية دائمٌ، لا الغنى والبذخ، ولا الفقر والمتربة. ويأتي الموت فيقلب كلّ الموازين. وقد مات الغنيّ والفقير كلاهما. على الأرض لم يتغيّر شيءٌ، فالغنيّ شُيّع في جنازةٍ فخمةٍ، اشترك فيها الأعيان والجماهير. أمّا الفقير، فلم يشيّعه سوى رجلٍ أو اثنين، وَوُوري التراب بصمتٍ وخفاءٍ.

ولكن في الآخرة انقلب كلّ شيءٍ، وقد أبرز الإنجيليّ هذا الانقلاب بقوله: «**مات المسكين فحملته الملائكة إلى جوار إبراهيم. ومات الغنيّ، أيضًا، ودفن**». ودفن معه ذكره، وبذخه. وحينئذٍ، فقط، نُصبت موازين العدل، فالغنيّ الذي حصر اهتمامه، على الأرض، بالتنعّم، والاستئثار بالمال والمتعة، غافلاً عمّن، حوله، يعانون الجوع والعَوَز والمرض، حكم على نفسه بعذاباتٍ أبديّةٍ، لا تُطفأ لها نارٌ. لم يعبأ بإقامة العدل على الأرض، فأقيم عليه في الآخرة. في حين أنّ الفقير الذي أهمله بازدراءٍ، أفاض الله العادل عليه السعادة، وأقامه بين أبراره. أقامت السماء للعازر، عقب موته، وليمةً أشهى، بلا قياسٍ، من كلّ ما اشتهاه على الأرض وحُرِم منه. وغدا الغنيّ هو المتسوّل.

لم يصبح الغنيّ نزيل جهنّم بسبب غناه فحسب، بل بسبب أنانيّته، وحبسه رحمته عن المحرومين، وإنفاق ماله على الإسراف في البذخ والمتعة، عوضًا عن تخفيف وطأة الحرمان عن المعوزين المحيقين به. هذا المال الذي كان وسيلة بذخٍ، أمسى علّة عذابٍ مقيمٍ.

صحراء اليهوديّة

سهل يزرعيل أو مرج ابن عامر

ولم يكن الفردوس مأوى الفقير، بسبب فقره، بل تعويضًا عن صبره، ووضعه في اللّه رجاءه. واللّه لا يخيّب من يضع فيه رجاءه.

بهذا المثل أثبت الربّ «**أنّ الرفيع عند الناس رجسٌ عند اللّه**».

وبه أنذر الصدّوقيّين، وأتباعهم في كلّ جيلٍ، الذين ينكرون وجود حياةٍ أُخرى، أبديّةٍ.

وفي نهاية المثل عبرةٌ قيّمةٌ. فالغنيّ عندما شاهد لعازر بجوار إبراهيم، توسّل إرساله، علّه يخفّف لظى عطشه بقطرة ماءٍ من طرف إصبعه. غير أنّ الأوضاع قد انقلبت، فبات على كلٍّ منهما أن يجني، في الآخرة، ثمار فعاله على الأرض، فضلاً عن أنّ الهوّة بينهما من بُعْد الشقّة، بحيث لا تتيح أيّ اتّصالٍ بينهما.

المسافة بين لعازر والغنيّ، على الأرض، لم تكن تتعدّى خطواتٍ. ومع ذلك حفرت الأنانيّة بينهما هوّةً سحيقةً. وقد بات مستحيلاً، في الآخرة، ردمها.

وعندما أُسقط بيد الغنيّ المعذّب، فكّر، ربّما للمرَّة الأولى، بإخوته، فالتمس إنفاذ رسولٍ إليهم علّه يحذّرهم من مصيرٍ نظير مصيره. ولكنّ إبراهيم ذكّره بحكمةٍ خالدةٍ: فمن يأبى الإصغاء إلى اللّه ومرسليه، لن يزحزحه عن عناده ميّتٌ يعود إلى الحياة.

فكم من إشاراتٍ يلوّح لنا بها الربّ، ولكنّنا نشيح بأبصارنا عنها، لأنّ لا رغبة لنا في الإيمان. فالإيمان مزعجٌ وكثير الاقتضاء.

أوَلم تعجز قيامة يسوع نفسها عن إقناع من رفضوا الإيمان به في حياته؟

إيـــمَانٌ... وَتَوَاضُعٌ

كان يسوع، لتلاميذه، هو المنعة والحكمة، وكان كلامه يسحرهم، فهتفوا: «**ربٍّ، زدنا إيمانًا**». **فقال: «لو كان لكم من الإيمان مثلُ حبّة خردلٍ، لقلتم لهذه الجميّزة: انقلعي، وانغرسي في البحر، فتطيعكم**» (لوقا ١٧: ٦).

يبدو أنّ الإيمان الصافي، الواثق، ولو بمقدار حبّة خردلٍ، بات نادرًا! ولكن ينبغي ألاّ توحي قدرات الإيمان، وسعة آلاء الله، بأيّ وهمٍ أو اعتدادٍ. فلا بدّ من الاتّضاع. وقد ضرب يسوع، في هذا السياق، مثلاً: «**ومن منكم إذا كان له عبدٌ يحرُث أو يرعى إذا عاد من الحقل يقول له: هلمَّ على عجلٍ واتّكئ؟ أفلا يقول له بالحريّ: أعدِدِ ما أتعشّى، واشدُد حقْوَيك واخدُمني حتّى آكل وأشرب. وبعدئذٍ تأكل أنت وتشرب. فهل عليه أن يشكُر ذلك العبد لأنّه فعل ما أُمِر به؟ كذلك أنتم أيضًا إذا فعلتم كلّ ما أُمِرْتم به فقولوا: نحن عبيدٌ، لا نملك نفعًا ولا ضرًّا. وما فعلنا إلاّ ما كان يجب علينا فعله**» (لوقا ١٧: ٧–١٠).

قبل يسوع كان الإنسان يطالب بأجره عن كلّ عملٍ صالحٍ، كالمرتزقة. ولكن في مدرسة يسوع، يقف الإنسان متلاشيًا أمام عظمة الله، سعيدًا بتنفيذ مشيئته، ذائبًا في حبّه.

لا يتوهّمنّ إنسانٌ أنّ له على الله حقوقًا، فهو مدينٌ لله بكلّ شيءٍ، بوجوده، وبكلّ لحظةٍ من حياته، والله لا يدين إلاّ لحبّه الجمّ، ولرحمته القصوى.

نحن لسنا بشيءٍ أمام الله. ولكنّ حبّه يرقى بنا إلى مستوى أصدقائه وأبنائه. خالقنا يهبنا كلّ شيءٍ، ويغفر لنا كلّ معاصينا. ولكي نكون خليقين بغفرانه يدعونا إلى مسامحة إخوتنا سبعين مرّةً سبع مرّاتٍ، كلّ يومٍ.

الله هو كلّ شيءٍ، وواهب كلّ شيءٍ. وإن كان، بالمقابل، يطالب بكلّ شيءٍ، ففي سبيل مشروع حبٍّ. إذ إنّه يبتغي أن يغمرنا بنعمه، لا بمقدار كبريائنا وادّعائنا،

بل بمقياس تواضعنا. لقد تنازل إلى مستوانا كي يرقى بنا إلى مستواه. أفرغ ذاته من ذاته لكي يملأنا، وهو يدعونا إلى أن نُفرغ ذواتنا من أنانيّتنا لكي نتلقّى حبّه.

ولئن هو كان في حاجةٍ إلى حبّنا، الذي يكافئه مكافأةً تتخطّى كلّ قياسٍ، فلا يغربنّ عن بالنا أنّنا، مع ذلك «**عبيدٌ لا نملك نفعًا ولا ضررًا**»، لأنّنا لا نضيف شيئًا إلى الخليقة، فهو علّتها الأولى والكلّيّة، ونحن لا نُغني الله في شيءٍ.

هذا الوعي لصغرنا وتواضعنا هو الحقيقة التي تولينا مفتاح الدخول إلى حبّ الله وسعادته. إنّها الشرط الأساسيّ لفهم حبّه، والتأهّل لتلقّيه.

بهذه التعاليم المبتكرة، غير المألوفة، كان الله يصوغ الإنسان الجديد.

شِفَاءُ عَشَرَةِ بُرْصٍ

من تمرّس من الإيمان والتواضع، عليه، أيضًا، أن يشكر. هذا ما ابتغى يسوع تعليمه من خلال هذا المثل (لوقا ١٧: ١١–١٩):

كان شاخصًا إلى أورشليم، فاستقبله عند مدخل قريةٍ، عشرة رجالٍ مبتلين بداء البَرَص. كانت الشريعة تفرض على البُرص أن يقفوا بعيدًا عن الناس، وهؤلاء من بعيدٍ صاحوا: «**يا يسوع، يا معلّم، ارحمنا**». ولم يكن بوسع إله الرحمة إلاّ أن يلبّي طلبهم، ولكنّه لكي يحرّض إيمانهم، قال لهم: «**اذهبوا أروا الكاهن أنفسكم**». هذا القول كان بمثابة إعلان شفاءٍ. وكان مجرّد توجّه الرجال صوب الهيكل بمثابة إعلان إيمانهم. ولم يلبث أن تحقّق الشفاء كاملاً، إذ ما كادوا يخطون بضع خطواتٍ في الطريق حتّى شعروا بدمٍ جديدٍ يسري في عروقهم، وبآثار البَرَص تتساقط عن أجسادهم، وبالداء يتلاشى.

كانوا تسعة يهودٍ، وسامريًّا واحدًا. البليّة جمعتهم ووحّدتهم. ولكنّ الشفاء أيقظ فيهم، ثانيةً، العنصريّة والفرقة. فانفصل اليهود عن السامريّ، الذي عاد أدراجه لكي يقدّم واجبات الشكر لمن منّ عليه بالشفاء. «**رجع يمجّد الله بصوتٍ عالٍ. وخرّ على وجهه عند قدمي يسوع يشكره**». وتساءل يسوع: «**أليس العشرةُ قد طهُروا، فأين التسعة الآخرون؟ ألم يكُن فيهم من يرجع يُمجّد الله إلاّ هذا الغريب؟**» **وقال له**: «**قمْ وٱمضِ. إنّ إيمانك قد خلّصك**» (لوقا ١٧: ١٧–١٩).

في زفرة يسوع هذه حزنٌ شديدٌ، ولكن ليس فيها دهشةٌ أو استغرابٌ.

وللسامريّ وحده، الغريب، قال الربّ: «**إيمانك خلّصك**»، لأنّه، وحده قدّر جميل الله، وعبّر عنه.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «البرص العشرة»، صفحة ٣٦٦.

وربّما خشي اليهود التسعة الذين شفوا أن ينبذهم زعماء شعبهم إن هم اعترفوا بجميل من شفاهم.

لطالما أولى يسوع الأولويّة لبني شعبه، ولكنّ شعبه تنكّر لـه. إلاّ أنّه توسّم في ذلك السامريّ الذي خرّ عند قدميه، معبّرًا عن عرفانه بالجميل، جميع المساكين، المنبوذين، الغرباء، الوثنيّين، الذين سيسعون في إثره، فيما سيقيم أبناء البيت على نكرانه. وفي الواقع، يوم دوّن القدّيس لوقا إنجيله، كانت أنوار الإنجيل تغمر ديار الوثنيّين، في حين كان اليهود لا يضنّون بجهدٍ لحجبها، ولاضطهاد من استنارت بها نفوسهم.

«متى يأتي ملكوت الله؟»

شفاء البُرْص أقلق فرّيسيّي الجليل الذين رأوا يسوع عائدًا إلى ديارهم، قديرًا بالقول والفعل، مبشّرًا بملكوتٍ إلهيٍّ، بمعزلٍ عن أيّة إشارةٍ إلى إمبراطوريّةٍ يهوديّةٍ أرضيّةٍ، بعيدًا عن مظاهر الفخامة الملكيّة، والانتصار، ملتزمًا التواضع والوداعة، لا يقسو إلاّ على الأرواح الشرّيرة، وعلى الرياء، فارًّا من قريةٍ إلى قريةٍ، ومن ديرةٍ إلى أُخرى، تجنّبًا للصدام والنزاع. لقد ضاقوا ذرعًا بوعوده الخُلّب بملكوتٍ لا يرون له وجهًا. وبما أنّهم ما كانوا يفوّتون فرصةً للتعرُّض له، وللتهكّم والشماتة به، سألوه ساخرين: «**متى سيأتي ملكوت الله**»، الذي ما انفككتَ تصدّع رؤوسنا بوعوده الباطلة؟ فالملكوت الذي كانوا ينتظرونه هو ملكوتٌ عنصريٌّ أرضيٌّ، يحرّر اليهود من كلّ سلطةٍ غريبةٍ، ويبيد أعداءهم، ويدشّن لهم عهد رفاهٍ منقطع النظير. غير أنّ الناصريّ لم يقم بأيّ مسعًى في هذا السبيل، بل التزم، حتّئذٍ، موقف التواضع، والتخفّي، ولم يلمّ، من حوله، سوى حفنةٍ من المهمّشين الوضيعين، الجهّال الذين لا يساوون شروى نقيرٍ.

وكانت تلك فرصةً ليسوع كي يؤكّد، ثانيةً، الطابع الروحيّ، غير المنظور، لملكوته الذي يتحقّق في النفوس، ويعمل في الخفاء، «**لا يأتي كحَدَثٍ يُراقَب، فلا يُقال إنّه هنا أو هناك. إنّ ملكوت الله في وسطكم**» (لوقا ١٧: ٢٠– ٢١).

إنّه البذرة التي غرسها تعليم يسوع في النفوس، والتي شرعت تنمو.

ليس لملكوته مظاهر برّاقة تُكسبها المعارك ألَقًا، وليس له بلاطٌ فاخرٌ، ولا أُبّهةٌ تجتذب الفضوليّين، الذين يجرون وراءه. ملكوته لا يتجلّى إلاّ للقلوب الطاهرة، ويحتجب عن عيون الجسد.

في سرّ الوجدان يؤسَّس الملكوت الذي جاء يسوع يبشّر به. إنّه يخاطب الضمير، ويدعوه إلى التوبة والإيمان. وعندما ينفتح له الوجدان يملأه الروح، ويولد الملكوت.

لقد رفض الفرّيسيّون إدراك هذا الواقع الذي أخذ يتحقّق رغمًا عنهم، بين ظهرانيهم، وكان يسوع، وسط أتباعه، نموذجه المرئيّ.

في مرحلة الملكوت البدائيّة تلك، كلّ شيءٍ متواضعٌ، واهٍ، متخفٍّ. ومثلما كان ابن الله يتوارى خلف قناع «ابن البشر»، كان مجد الله يتوارى خلف بؤس العشّارين والخطأة الذين تأثّروا خطى يسوع.

ردُّ يسوع على سؤال الفرّيسيّين جاء سريعًا، مقتضبًا، لأنّه كان يخاطب قومًا لن يؤمنوا إلاّ بما يتوافق مع رؤاهم، وأحلامهم الأرضيّة. تركهم، إذن، يتخبّطون في غيّهم، وضلالهم، وكبريائهم، ودعا تلاميذه إلى الإفادة من حضوره، إذ إنّ المحنة، في غيابه، ستكون طويلةً وشاقّةً. حينئذٍ قال للتلاميذ: «**سوف تأتي أيّامٌ تشتهُون فيها أن تروا ولو يومًا واحدًا من أيّام ابن البشر ولا ترون. وسيُقال لكم: ها إنّه هناك، ها هو هنا، فلا تذْهبوا، لا تتسرَّعوا. لأنّه مثلما أنّ البرق إذا ومض في طرفٍ من السماء لَمَعَ في الطرف الآخر في السماء، هكذا يكون ابنُ البشر في يومه. ولكن لا بُدّ له أوّلاً من أن يتألّم كثيرًا، وأن يرذُله هذا الجيل**» (لوقا ١٧: ٢٢– ٢٥).

وفي تلك الأثناء سينسى البشر كلّ ما سمعوا ورأوا، وسيغوصون في اهتماماتهم الأرضيّة، سادرين في غيّهم، منشغلين بترّهاتهم. «**وكما كان في أيّام نوح كذلك يكون أيضًا في أيّام ابن البشر. فإنّهم كانوا يأكلون ويشربون، يتزوّجون ويُزوّجون، إلى يوم دخل نوحُ الفلك، فجاء الطُّوفان وذهب بهم جميعًا. أو كما كان في أيّام لوطٍ. فإنّهم كانوا يأكلون ويشربون، يشترون ويبيعون، يغرسون ويبنون، وفي اليوم الذي خرج فيه لوطٌ من سدوم، أمطر الله من السماء نارًا وكبريتًا فأهلكهم جميعًا**» (لوقا ١٧: ٢٦–٢٩).

على التلاميذ، إذن، ألاّ يتوقّعوا إشاراتٍ مدهشةً تعلن عن مجيئه، وألاّ يهدروا وقتهم في توقُّعٍ عقيمٍ، بل عليهم أن يحيوا رجاءً أبديًّا، وهم، أبدًا، متأهّبون للّحظة التي سيدعوهم، فيها، إلى الالتحاق به. ومثلما تنقضّ النسور باندفاعٍ، وثقةٍ، على فرائسها، كذلك النفوس المستعدّة تنقضّ على مخلّصها.

المطلوب، إذن، سهرٌ دائمٌ، تغذّيه صلاةٌ مستمرّةٌ.

الأرمَلَةُ وَالقَاضِي الظَّالِم(*)

دعا يسوع تلاميذه إلى السهر، وإلى الصمود في وجه الاضطهادات. وهذان السهر والصمود لا يتسنّيان إلاّ بفضل صلاةٍ مستمرّةٍ، بلا مللٍ. ولكي يبيّن لهم جدوى الصلاة المستمرّة ضرب لهم مثلاً فقال: «**كان في مدينةٍ قاضٍ لا يخافُ اللّه ولا يرعى حُرمةً للناس. وكان في تلك المدينة أرملةٌ كانت تأتيه وتقول: أنصفني من خَصْمي. فتمنّع زمنًا طويلاً. ثمّ قال في نفسه: إنّي وإنْ كنتُ لا أخافُ اللّه، ولا أُقيم حُرمةً للناس، سأُنصفُ هذه الأرملة التي تُبرمُني، لئلاّ تعود على غير نهايةٍ وتصدَعَ رأسي!» ثمّ قال الربّ: «أتسمعون ما يقولُ هذا القاضي اللاعادل؟... تُرى، أفلا يُنصفُ اللّه مختاريه الصارخين إليه ليلَ نهار؟ أيتوانى في أمرهم؟ أقول لكم إنّه ينصفهم سريعًا... ولكن، متى جاء ابنُ البشر هل يجدُ الإيمان على الأرض؟**».

الأرملة كاليتيم، رمزٌ للإنسان الضعيف، الأعزل، الذي لا يذود أحدٌ عن حياضه أو يدافع عن حقوقه، وهي ربّما كانت تخوض معركة إرثٍ مع خصومٍ ذوي نفوذٍ ومالٍ وفيرٍ يشترون به ضمير القاضي الفاسد. إلاّ أنّها، بلجاجتها ومثابرتها، انتزعت حقوقها انتزاعًا.

فإن كان قاضٍ جائرٌ قد استسلم للجاجة امرأةٍ مهضومة الحقوق، فكيف بالأحرى ينصف الأب العادل أبناءه الصارخين إليه ليلَ نهار؟

ولكنّنا، في حُسْر بصرنا، كثيرًا ما لا نرى إنصاف اللّه، لأنّنا نتوقّعه شبيهًا بإنصافنا، فالمستقيمون يُنصَفون، حتّى حين يرين على رقابهم نير الظلم، عندما يهبهم اللّه صبرًا ومنعةً كفيلَيْن بإذلال الظالم حتّى في لحظة ما يظنّه انتصارًا. والسجين الذي

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «وضرب لهم يسوع مثلاً في أنّه ينبغي أن يصلّوا باستمرار ولا يملّوا»، صفحة ٣١٦.

مجمع كفرناحوم

بحيرة طبريّة

يحمل إلى سجنه العدل المفعم سجوًّا وسكون نفسٍ قد انتزع حقّه من حاكمه. والشهيد الذي يبتسم في حومة التعذيب، قد انتزع حقّه من جلاّده. وكلّ من يخضع للتعسُّف لكيلا يتخلّى عن الحقيقة، ينصفه اللّه عندما يملأ قلبه بمواهب الحقيقة، ويغرز أظافر فولاذيّةً من حنقٍ، وعارٍ، وندمٍ عقيمٍ، في قلب من يدّعي أنّه لا يخشى اللّه، ولا يبالي بالبشر. وكم نشهد من أمثلة الظلم المنتصر الذي يفضي إلى الذلّ، والعدل المضطَهَد الذي يتألّق مجدًا، وينعم بالسلام!

«**ولكن متى جاء ابن البشر، هل يجد الإيمان على الأرض؟**». تساؤُل يسوع الوجيع، هذا، يبدو، اليوم، أشدّ حدّةً وإقلاقًا وسط أزمة الإيمان المستشرية في عالمٍ فقد معنى الخطيئة، وبات عاجزًا عن التمييز بين الخير والشرّ، بين الطهر والنجاسة.

كان يسوع يرتعش فرحًا لرؤية أيّة بارقة إيمانٍ لدى السامريّة، والكنعانيّة، وقائد المئة الوثنيّ، وحتّى لدى المرأة النازفة التي استشفّت قدرةً إلهيّةً في أهداب ثوبه. ولكنّه كان يحزن لعدم عثوره على أثرٍ لهذا الإيمان لدى علماء الشريعة ومعلّميها. فهل تغيّر الوضع كثيرًا اليوم؟

ولذلك ما زالت دعوة يسوع تدوّي: صلّوا، دائمًا، ولا تملّوا، لعلّه يعثر على اثرٍ للإيمان، يوم عودته.

يسوع يدعونا، إذن، إلى المثابرة على الإيمان والصلاة. فالصلاة تفقد أثرها عندما يخبو الإيمان. وفي هذا السياق يقول القدّيس أوغسطينس: «فلنؤمن كي نصلّي، ولنصلِّ كي نؤمن». فبمعزلٍ عن الايمان لسنا بشيءٍ، وبمعزلٍ عن الصلاة لا نقوى على شيءٍ.

وعندما يكون المرء على صلةٍ بالروح القدس يتحرّر ممّا يحدّ رجاءه ويحجّم كيانه، ويتعلّم الاندماج بمرامي اللّه، والصبرَ الذي يُنتج أعمالاً أبديّةً.

غير أنّ الصلاة تغدو عقيمةً، بل وبيلةً، إن هي خلت من التواضع والمحبّة، كما يتّضح من مثل «الفرّيسيّ والعشّار».

الفـرّيسيُّ وَالعَشّـار(*)

كان من مستمعي يسوع فرّيسيّون صَلِفون، مزدهون بتقواهم الزائفة، يفخرون ببرّهم، ويحتقرون الآخرين، فروى لهم المثل التالي: «**رجلان صعِدا إلى الهيكل ليصلّيا، أحدُهما فرّيسيٌّ والآخر عشّارٌ. أمّا الفرّيسيّ فانتصب وصلّى في نفسه هكذا: اللّهمّ، إنّي أحمَدُكَ لأنّي لستُ مثل سائر الناس الخَطَفة الظالمين الفاسِقين، ولا مثل هذا العشّار. إنّي أصومُ في الأسبوع مرّتين، وأدفعُ العُشْر عن كلّ ما يدخُلُ عليّ.**

«**وأمّا العشّار فأقام بعيدًا لا يجرُؤ أن يرفع عينيه نحوَ السماء، بل كان يقرعُ صدرَه قائلاً: اللّهمّ، ارْحَمْني أنا الخاطئ. أقول لكم إنّ هذا نَزَلَ إلى بيته مُبرَّرًا، وأمّا ذاك فلا، لأنّ كلّ من رفع نفسه وُضع، ومن وضع نفسه رُفع**» (لوقا ١٨: ١٠–١٤).

بطلا المثل ينتميان إلى أقصَيَي المجتمع اليهوديّ. الفرّيسيّ يتبوّأ قمّة سلّم القِيَم الأخلاقيّة اليهوديّة. والعشّار يقبع في قعر هذه السلّم.

الفرّيسيّ لفّ جبينه وذراعه اليسرى بشاراتٍ دوّن عليها قانون الإيمان اليهوديّ. وعلى أطراف معطفه كانت تتهادى شرّاباتٌ بلونَيْن تميّز المتشدّدين في الحفاظ على الشريعة. يسير بخطًى وئيدةٍ، متصنّعًا الوقار. ويتنازل فيردّ بحركاتٍ خفيفةٍ من رأسه المتعالي على تحيّات المعجبين.

أمّا العشّار فيحثّ الخطى ملامسًا الحيطان، وكأنّه يخشى أن يتعرّفه المارّة. ومع أنّ لا شيء في زيّه كان يميّزه، فقد كانت تلاحقه نظراتٌ عدائيّةٌ مفعمةٌ ازدراءً. وشخصا، كلاهما، إلى الهيكل ليصلّيا.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «الفرّيسيّ والعشّار»، صفحة ٣٦٨.

تقدّم الفرّيسيّ بكلّ ثقةٍ وجرأةٍ إلى صدر الهيكل حيث يقيم إله أُمّته وشيعته. فاقتناعه بكماله يؤهّله لمعاملة اللّه بدالّة. انتصب منتفخًا، وكأنّ كلّ الأنظار محدّقةٌ إليه. وبحجّة شكر اللّه أسهب في تقريظ نفسه، وتعداد مآثره وفضائله. لم يسأل اللّه شيئًا، فهو في غنًى عنه. لا بل بدا وكأنّ له على اللّه دَيْنًا وأفضالاً، فبرّه يتخطّى ما تفرضه الشريعة. إنّه لا يكتفي بالصوم يومًا واحدًا في الأسبوع، بل يصوم يومَيْن. ويؤدّي العشر عن كلّ ما يبتاعه من نباتٍ لطعامه، خشية أن يكون المزارع الذي أنتجه قد توانى عن أداء هذا العشر لسدنة الهيكل. ولا ريب أنّه تمادى في ذكر أفضالٍ أُخرى أغفلها الإنجيليّ، مثل مثابرته على الاغتسال الشرعيّ، ومراعاته لكلّ الوصايا التي يبلغ عددها ستّ مئة وثلاث عشرة وصيّةً. كلّ ذلك يجعله متفوّقًا على الآخرين، وخيرًا منهم، وهو، من ذروة كبريائه، ينظر إليهم شزرًا، ولا سيّما إلى ذلك العشّار الحقير الذي انزوى في طرف الهيكل، وكأنّه لوحٌ أسود يبرز كلّ نصاعة الفرّيسيّ وفضائله.

لم يكن موقف ذلك الفرّيسيّ نادرًا، فمثل هذه الادّعاءات الجوفاء يزخر بها التلمود، حيث جاء قول أحدهم، سمعان بن يوشع: «إن كان في العالم صدّيقان فهما أنا وابني. وإن لم يكن سوى صدّيقٍ واحدٍ، فهو أنا». ما قاله الفرّيسيّ، إذن، لم يكن اختراعًا، بل هو مستمدٌّ من صميم الواقع الفرّيسيّ.

لم يكن في صلاته شيءٌ من الصلاة، بل تحقيرٌ للّه، وإنكارٌ لأيّ فضلٍ له عليه، وازدراءٌ لجميع البشر الآخرين «**الخطفة، الظالمين الفاسقين، ولا سيّما هذا العشّار**» الحقير، الذي يمثّلهم.

وعلى نقيضه، انزوى العشّار جانبًا، مطرقًا، لا يجرؤ على رفع رأسه، يقرع صدره بعنفٍ، ويصلّي بصمتٍ، منكسرًا، مستغفرًا، ومن قلبه التائب تصاعدت نحو اللّه هذه الصلاة المقتضبة: «**اللّهمّ، ارحمني، أنا الخاطئ**»، التي ما برحنا نردّدها بقناعةٍ واتّضاعٍ.

لقد وقف بعيدًا، ولكنّه، بالتوبة اقترب من اللّه. لم يجسر على رفع بصره، ولكنّ اللّه كافأه بحطّ نظره العطوف عليه. ضميره حمله على طأطأة رأسه نحو الأرض، ولكنّ الرجاء أنهضه إلى العلاء. قرع صدره معترفًا بخطاياه، وهذا الاعتراف الذي يجرح الكبرياء، هو ما يستجلب عطف اللّه وغفرانه.

صرخته الوجيعة الصادقة هي صرخة الابن الضالّ، التي أهّلته لاستعادة مكانه في البيت الأبويّ. وهي صرخة جميع المرتدّين الذين ينتشلهم الربّ من وهادٍ عميقةٍ كي يرقى بهم إلى القمم.

سمعنا المدّعي المتكبّر، ثمّ المذنب المتواضع، وأخيرًا حكم القاضي: «**إنّ هذا نزل إلى بيته مبرَّرًا، وأمّا ذاك فلا. لأنّ كلّ من رفع نفسه وُضع، ومن وضع نفسه رُفع**».

ولئن كانت الكبرياء المقرونة بالاستقامة مرذولةً، فما عساها تكون إن هي اقترنت بالخطيئة؟ وإن كان التواضع، مقترنًا بالخطيئة، مبرِّرًا، فما عساه يكون إن اقترن بالفضيلة؟

الكبرياء هي من أشدّ آفات القلب البشريّ وبالاً، ولذلك لا يني يسوع يندّد بها. والتواضع هو أساس كلّ علاقةٍ سليمةٍ مع الله. إنّه، على حدّ قول «بوسّويه»: حليب الأطفال، وخبز الأقوياء.

إنّ مريم، العذراء الطاهرة، اتّضعت، واعترفت بصغرها فرفعها الله إلى ذرًى لا يجرؤ السيرافيم أنفسهم على رفع أبصارهم إليها. في حين أنّ لوسيفورس، الملاك المتألّق، الذي تطاول على العليّ، قُذِف به إلى هاويةٍ سحيقةٍ، لن ينجو من نارها أبدًا.

إقـــامَـةُ لعـــازَر (*)

إنّها أعظم معجزات يسوع، وأكثرها علانيةً، وإدهاشًا، وحسمًا لمصيره. رواها شاهد عيانٍ، كانت قد انحفرت، في قلبه وفي ذهنه، بأدقّ تفاصيلها، وبكلّ نأمةٍ وحركةٍ، ورعشةٍ، وقد دوّنها بأمانةٍ مطلقةٍ، ولكأنّها تحدث، ثانيةً، تحت ناظريه (يوحنّا ١١: ١–٤٤):

حدَثٌ فذٌّ: رجلٌ لقي حتفه، ودُفن، وبعد أربعة أيّامٍ، عاد إلى الحياة، بمجرّد كلمةٍ. وقد تمّ ذلك، عند أبواب أورشليم، على مرأى حشدٍ من الشهود، معظمهم مُعادون لصانع المعجزات. عواقب الحدَث خطيرةٌ: مجد يسوع يتجلّى، ويهودٌ كُثُرٌ يؤمنون به، في حين يتفاقم، للسبب عينه، حنق أعدائه، وحقدهم، فيسرّعون تنفيذ مشاريعهم المجرمة بحقّه.

روايةٌ منقطعة النظير في الإنجيل، لم تُروَ أيّةٌ من معجزات المخلّص في مثل هذه الوفرة من التفاصيل الغنيّة بالدلالات والمغزى، ولكن في بساطةٍ مجرّدةٍ، بلا تزويقٍ، ولا تعليقٍ، ولا كلمةٍ نافلةٍ، بإيجازٍ كثيفٍ، وواقعيّةٍ شفّافةٍ. جمال السرد ونضارته لا يضاهَيان، وكمال الأسلوب يبلغ ذروته، حتّى في أدقّ اللمسات.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

كان يسوع مختليًا في «پيرية» يواصل تثقيف تلاميذه وتأهيلهم. وقطع هذه الخلوة رسولٌ أنفذته شقيقتا صديقه لعازر، من بيت عنيا، حيث كان يطيب للربّ، كلّما وافى أورشليم، أن يفيء إلى ضيافة تلك الأُسرة الصديقة، التي تغمره بالمودّة والتكريم، وحيث كان يلقى إصغاءً لكلامه يُثلج صدره. الرسالة كانت شديدة الاقتضاب: «**يا سيّد، إنّ الذي تحبّه مريضٌ**». في اقتضابها، كانت الرسالة تعبيرًا

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «يا لعازر هلمّ خارجًا»، صفحة ٣٧٢.

رائعًا عن رهافة مشاعر الشقيقتين العذبة، وعن ثقتهما الراسخة بيسوع، وعن شدّة حبّهما لأخيهما. كانت تشير إلى خطر الموت الذي يحيق بلعازر، وتدع للربّ قرار ما يراه، ولا سيّما وهما عليمتان بالمخاطر الجسيمة التي تتربّص بيسوع في اليهوديّة. هذه الرسالة خير نموذجٍ للصلاة الحقّة.

كانت الشقيقتان واثقتين من أنّ يسوع سيسارع إلى المجيء لدرء الموت عن أخيهما، ولن يقتضي ذلك أكثر من مسيرة يومٍ. ولكنّ يسوع يلبّي نداء أصدقائه وفقًا لمخطّط الآب، لا وفق رغبتهم. ولذلك أجاب بما يشيع الطمأنينة والإبهام معًا: «**هذا المرض ليس للموت، بل لمجد الله. به يتمجّد ابن الله**».

كان يسوع يعلم أنّ لعازر قد قضى نحبه فيما كان رسول شقيقتيه يبلّغه نبأ احتضاره، أو إنّه سيقضي نحبه في غضون سُوَيْعات، قبل أن يتداركه هو بحضوره، ويدرأ الموت عنه. ولكنّ موته لن يكون نهائيًّا، منتصرًا، كما هو موت البشر أجمعين، بل سيُهزم أمام كلمة ابن الله، وسيُكره على إعتاق فريسته. ولذلك مكث يومَيْن آخرَيْن حيث كان، لكي يضفي على إقامة الميت مزيدًا من الإدهاش، ويستدعي مزيدًا من تمجيد الله. ولأنّه كان لا يتحرّك إلاّ بالتناغم مع مشيئة أبيه.

كم كانت خيبة الشقيقتَيْن بالغةً عندما عاد الرسول وحيدًا، يحمل قولاً مفعمًا أملاً كذّبه الواقع!

ظلّت أنظار الشقيقتَيْن ترقب الدروب المؤدّية من بيرية إلى بيت عنيا، ولا تقف للشافي الإلهيّ على أثرٍ، إلى أن قضى لعازر نحبه، وسُجّي في لحده. وكان من المألوف أن يظلّ القبر مُشرعًا، ووجه الميت مكشوفًا مدى ثلاثة أيّامٍ، كان يُعتقد أنّ روحه تظلّ، في أثنائها، ترفرف فوق جثمانه.

وفي هذه الأثناء كان ذوو الميت وأصدقاؤه يأتون، مرّتين، كلّ يومٍ، لمشاهدته والبكاء عليه، والصلاة من أجله. وكانت قد جرت للعازر جنازةٌ فخمةٌ اشترك فيها حشدٌ من بيت عنيا ومن أورشليم. ودامت مراسم العزاء عند القبر إلى أن أنتنت الجثّة، فأُسبل الكفن على وجه الميت، وسُدّ القبر بحجرٍ. وفي تلك الأثناء ما انفكّ يراود شقيقتَي الميت أملٌ بأن يحضر يسوع، وبكلمةٍ منه، يوقظ أخاهما. ولكنّ يسوع لم يحضر إلاّ في اليوم الرابع، بعد أن أُغلق القبر.

التلاميذ كانوا قد استخلصوا من ردّ يسوع على رسول شقيقتي لعازر أنّ مرضه لن يفضي إلى الموت. وقد دعم ظنَّهم هذا تلكّؤُ يسوع في المجيء إلى بيت عنيا. ولكنّه، بعد يومين فاجأهم بقوله: «**لنعد إلى اليهوديّة**». ولكأنّه نسي أنّه غادرها، لأيّامٍ خلت، على عجلٍ، نأيًا بنفسه عن مؤامرات اليهود الساعين إلى قتله. ولم يتمالك التلاميذ عن تذكيره: «**رابّي، منذ قليلٍ، كان اليهود يطلبون رجمك، وتعود إلى هناك!**». وأجابهم يسوع: «**أليس النهارُ اثنتي عشرة ساعةً؟ فمن سار في النهار لا يعثر، لأنّ في عينيه نور هذا العالم، وأمّا من سار في الليل تعثّر لأنّ النور لم يبقَ فيه**». أي إنّ ساعات حياته على الأرض لم تنتهِ بعد، ومن ثمّ، لن يُصاب بأذًى إلاّ في الساعة التي حدّدها الآب. وما دام التلاميذ يسيرون في نور يسوع، فلا خوف عليهم. ومثلما لا يقوى أحدٌ على منع الشمس من الإشراق والسطوع في ساعات النهار، لم يكن بوسع أحدٍ أن يمسّ يسوع بسوء، إلى أن تحين الساعة التي حدّدها بالاتّفاق مع الآب، «ساعة الظلمات». ثمّ قال يسوع: «**إنّ صديقنا لعازر قد رقد ولكنّني أذهب لأوقظه**». وخيّل للتلاميذ أنّ لعازر في سُباتٍ. ومن الشائع أنّ نوم العليل نومًا عميقًا، هو، غالبًا، دليلٌ على توجّهه نحو الشفاء والعافية. فعلامَ، إذن، المخاطرة، والارتماء في أشداق الوحوش المتربّصة؟

وكان لا بدّ ليسوع من مصارحة تلاميذه، فقال لهم، بألفاظٍ واضحةٍ: «**إنّ لعازر قد مات، ويسرّني، من أجلكم، أنّني لم أكن هناك، لكي تؤمنوا. فلنمضِ إليه!**» فإقامة لعازر، بعد مضيّ أربعة أيّامٍ على وفاته، كفيلةٌ بترسيخ إيمان التلاميذ، وبإعدادهم نفسيًّا لصلب يسوع وقيامته. فلو كان يسوع حاضرًا في بيت عنيا، وردّ عن لعازر الموت، لكان هذا الشفاء، مضافًا إلى مئات الأشفية التي شهدوها من قبل، ضئيل الوقع عليهم. أمّا إقامة من طواه القبر أربعة أيّامٍ فستكون، بلا ريبٍ، أبلغ أثرًا.

ولكن، مع هذا التلويح بمعجزةٍ فريدةٍ، مشوّقةٍ، ظلّ الجزع مستحوذًا على نفوس التلاميذ، وظلّت اليهوديّة، في نظرهم، معقل الشرّ، والقتل، والعداء، وتوحي لهم بالرعب. غير أنّ كلام يسوع الواثق أضرم الشجاعة في قلب توما، فلعب الدور الذي ألف بطرس أن يلعبه، وهتف، مندفعًا: «**فلنمضِ، نحن أيضًا، ولنمُت معه**». هذا القول خليقٌ بأن يتّخذه كلّ تلميذٍ شعارًا، فلا يتوانى عن السير في خطى المعلّم، ولا يتقاعس عن الموت معه، وفي سبيله.

كانت مراسم العزاء تتمادى أُسبوعًا كاملاً بعد الدفن، وجموع المواسين لا تنفكّ تتوافد على بيت الميت. وكلّما وافى وفدٌ منهم تفجّرت الدموع، وتجدّد العويل. وكان بيت لعازر غاصًّا بهم عندما جاء من همس في أذن مرتا أنّ الربّ قد وصل. فهبّت وخفّت لاستقباله، تاركةً أُختها مريم مع المعزّين. وكان يسوع قد توقّف عند مدخل البلدة لكيلا يسبّب ازدحام الجموع، واستنفار أزلام السنهدرين. وما إن رأت مرتا يسوع حتّى بادرته بعتابٍ مفعم حبًّا وإيمانًا: «**لو كنت ههنا، يا سيّدي، لما مات أخي. ولكنّي، حتّى الآن، أيضًا، أعلم أنّك مهما سألت الله، فالله يعطيك**». وأجابها بما يتخطّى كلّ رجاءٍ لديها «**أخوك سيقوم**». ولكنّها، تحت وطأة الحزن، ومخافة التماس المستحيل، أجابت: «**إنّي أعلم أنّه سيقوم في القيامة، في اليوم الأخير**». وبادر يسوع إلى تشديد إيمانها، وانتشاله ممّا كان يتردّى فيه من يأسٍ واستسلامٍ، وأسفر عن وجهه الإلهيّ، وأعلن: «**أنا القيامة والحياة، فمن آمن بي، وإن مات يحيا. ومن كان حيًّا، وآمن بي، فلن يموت أبدًا. أتؤمنين بهذا؟**». لطالما أعلن يسوع أنّه نور العالم، والطريق، والحقّ، والحياة، وخبز الحياة. غير أنّه، بإعلانه أنّه «**القيامة والحياة**»، أكّد أنّه ربّ الحياة والموت، وأنّ لا سلطان للموت على من يؤمنون به.

وربّما لم تُحِطْ مرتا بكلّ أبعاد قول يسوع هذا، غير أنّ إيمانها بشخصه كان مطلقًا. أيُّ كلامٍ أقوى على بعث الاطمئنان من تأكيد يسوع، هذا، في مواجهة هواجس القبر، وعلى إعادة الأمل لنفوسٍ صدمها الموت! فاسم يسوع هو قيامةٌ وحياةٌ، وهو، للمؤمنين به، منبع خلودٍ. فبوسعه إعادتهم من الموت إلى الحياة، وجعل موتهم عبورًا مؤقّتًا. كلام يسوع هذا أفعم نفس مرتا نورًا ورجاءً، فاعترفت: «**نعم، يا ربّ، أنا أومن أنّك المسيح، وأنّك ابن الله الآتي إلى العالم**».

حيال هذا الإيمان الوطيد، بات بإمكان يسوع إجراء كبرى معجزاته.

وأوعز يسوع إلى مرتا أن تستدعي أُختها مريم، بتكتّمٍ. وتلبّث ينتظرهما عند مدخل القرية، على مقربةٍ من القبر. وأسرّت مرتا إلى أختها: «**المعلّم ههنا وهو يدعوك**». فهبّت واقفةً، وجاءت إليه مسرعةً. وظنّ القوم الذين كانوا، في البيت، يعزّونها، أنّها ذاهبةٌ إلى القبر لتبكي أخاها، فتبعوها. وارتمت مريم عند قدمي يسوع مردّدةً قول أُختها: «**لو كنت ههنا، يا سيّدي، لما مات أخي**». فلطالما تنهّدت الشقيقتان،

الهيكل وتوابعه

جناح الهيكل

معًا، في ساعات احتضار أخيهما: «**آه! ليت المعلّم كان هنا!**». وباستعادتها ذكرى تلك اللحظات المريرة الأليمة، المثقلة بالقلق، والاضطراب، والخوف والأسى، انفجرت مريم منتحبةً. عبارةٌ واحدةٌ تلفّظت بها، فحُزنها عقد لسانها. لقد كانت منهارةً، متلاشيةً، تذرّف دموعًا خرساء، حرّى، وتفطّرت، لمنظرها، قلوب الحاضرين، فشاركوها البكاء. «**فارتعش يسوع في داخله وتأثّر. وقال:** «**أين وضعتموه؟**» فقالوا له: «**تعالَ، يا سيّد، وانظر**». فبكى يسوع.

يسوع يبكي، ويرتعش، ويتأثّر! أيّ سرٍّ في ذلك الإنسان الإله! فهو لا يخضع لسلطان المشاعر، ولا شيء يجعله يضطرب ما لم يُرد ذلك. لقد أوصى الرسول بولس المسيحيّين بمشاركة الباكين بكاءهم، والفرحين فرحهم، تدليلاً على محبّتهم. فلمَ لا يكون يسوع، إله المحبّة، في ذلك، القدوة؟ إنّ التعاطف هو الشعور الأكثر شيوعًا وإنسانيةً، وقد شاء يسوع اختباره، فاستسلم له، بلا خجلٍ، وشارك الأسرة المفجوعة حزنها.

وربّما هو بكى، من خلال لعازر، البشريّة التي وُجدت للخلود، ولكنّها بخطاياها، استحقّت موت الجسد، وأحيانًا موت النفس، أيضًا. كان يعلم أنّ لعازر سيقوم، ولكنّه كان يرثي لحال من رفضوا، بمحض إرادتهم، ألاّ ينعموا بالقيامة.

بكى صديقًا له تحوّل جثّةً هامدةً، وبكى جميع الثمار المنخورة، جميع أجساد إخوته البشر التي سيبليها الموت. دموعه أبرزت سنى قسمات وجه يسوع الإنسان.

أمام دموع الربّ قال البعض: «**أنظروا كم كان يحبّه!**». غير أنّ فئةً ممّن فاضت بالحقد نفوسهم هرفوا: «**أما كان يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى أن يردّ الموت عن هذا الرجل؟**». ارتعش يسوع، ثانيةً، لدى سماعه تلك التمتمات الدنيئة، فجاء إلى القبر، وهو مغارةٌ وُضع عليها حجرٌ، وأمر الحاضرين: «**ارفعوا الحجر**».

في هذا الأمر الحازم تتجلّى قدرات ربّ الحياة والموت. وظنّت مرتا أنّ يسوع راغبٌ في إلقاء نظرةٍ أخيرةٍ على محيّا صديقه. ولكنّها في حكمتها، وواقعيّتها، ذكّرت الربّ بأنّ أربعة أيّام قد انقضت على الدفن، ولا بدّ أن يكون الموت، في بلاد الشمس الساطعة، قد فعل فعله، بحيث تعجز الحنوط والطيوب التي ضُمّخ بها الجثمان عن وقف التفسّخ، وحبس نفثات الإنتان. وكانت تخشى أن يرى الغرباء ما أحدثه الموت من تشويهٍ في وجه أخيها. ولكنّ يسوع طرد مخاوفها بقوله:

«**أما قلتُ لك إنّك إذا آمنتِ ترين مجد الله؟**».

يمكن تخيّل ما ساد من وجومٍ، وهلعٍ، وترقُّبٍ لدى رفع الحجر، فيما كان يسوع يناشد أباه السماويّ: «**أحمدك، يا أبتِ، لأنّك استجبت لي. إنّي أعلم أنّك تستجيب لي في كلّ حينٍ. وإنّما قلت هذا من أجل هذا الجمع المحيق بي، لكي يؤمنوا أنكّ أنت أرسلتني**».

لقد ابتغى يسوع أن يُظهر أنّ كلّ ما يفعله يشرك أباه فيه. ولم تكن صلاته توسُّلاً، بل شكرًا. لم يكن في حاجةٍ إلى توسُّل أبيه، فهو وأبوه واحدٌ، ولكنّه، رأفةً بضعفنا، يحرص على تعليمنا ضرورة الصلاة. ابن الله لا يهتمّ بكرامته، بل بخلاصنا. التواضع يتدفّق من أقواله وأفعاله. أمّا أُلوهته، فيجهد في تمويهها، ولكنّها تتجلّى، ظافرةً. وقد أثبت، يومها، أنّ كلمةً منه تفجّر الحياة، إذ صاح بصوتٍ شديدٍ، وبلهجةٍ يستجيب لها حتّى الأموات: «**يا لعازر هلمّ خارجًا**». ولكأنّ قوله هذا، صدًى لقول الخالق: «كنْ...». وفي الحال برز رأسٌ مغطًّى بكفنٍ، تلاه جسدٌ مشدودٌ بعصائب، مثل طفلٍ مقمّطٍ، انتصب كالشبح، وخرج إلى حيث كان محتشدًا جمعٌ خيّم عليه الذهول. فأوعز إليهم يسوع: «**فكّوه، ودعوه يذهب**».

كم من قياماتٍ، امتثالاً لأمر يسوع، تحدث كلّ يومٍ!

جديرٌ بالتنويه أنّ يسوع لم يسارع إلى إنقاذ صديقه لعازر فورَ تلقّيه التماس شقيقَتَيْه. فليسوع ساعةٌ هو، وحده، يعرفها. إذن، عندما تداهمنا الخطوب، وتلفّنا الوحدة والعجز، ويهدّدنا القنوط، فلنذكر أنّ الآب السماويّ عليمٌ بدائنا، وأنّه لا بدّ آتٍ لشفائنا، إن نحن دعوناه، ولكنّه لا يأتي إلاّ في الساعة التي هو يرتئيها.

فورة فرح الشقيقتين، ودهشة لعازر الذي وُلد من جديدٍ على نور النهار، وذهول الجمع، وسكون يسوع وسط كلّ ذلك الصخب، كلّها عناصر لأروع لوحةٍ، غير أنّ الإنجيليّ اكتفى برواية الحدَث الفريد، بأكثر العبارات اقتضابًا وتجرّدًا، وأعرض عن أيّ تعليق. ولكنّ وجود شاهد العيان يتجلّى من خلال كلّ عبارةٍ، مثلما تتجلّى أُلوهة يسوع الكلّيّة القدرة، وإنسانيّته المغرقة في الرقّة، بلمساتٍ تقطر حيويّةً وتناغمًا.

هذه المعجزة كانت، في آنٍ واحدٍ، تتويجًا لرسالة يسوع، وتمهيدًا لصلبه، وعربونًا لقيامته.

لم يتمالك من شاهدوا هذه المعجزة الساطعة عن الاعتراف بقدرة يسوع الفائقة الطبيعة. وبما أنّه كان يعزو هذه القدرة إلى أبيه السماويّ آمن كثيرون برسالته الإلهيّة.

وفيما كانت الشقيقتان تقتادان إلى البيت أخاهما لعازر، الشاحب، الذي بهرته شمس الظهيرة، كانت فئةٌ من الحاقدين يشدّون الرحال إلى أورشليم، كي يحيطوا زعماء اليهود علمًا بالخارقة التي كانوا عليها شهودًا. فالميت الذي شاهدوه يسير على قدميه، لم يكن طيفًا، ولا رؤيا، بل كان يمكن جسّه، وسماعه يثرثر جذلاً مع شقيقتيه. هؤلاء هم من فئة من قال عنهم يسوع، في معرض مثل لعازر والغنيّ، إِنّهم، حتّى لو شاهدوا ميتًا يقوم، لما آمنوا.

لم يكن بوسعهم إنكار واقع المعجزة، ولكنّ هذا الواقع هو الذي كان يرعبهم، ويولّد هواجسهم. فشعبيّة يسوع تنمو، كلّ يومٍ، إلى أبعد ممّا تخيّلوا، فلا مندوحة من إبطال تأثيره.

لقد أزاح يسوع حجر قبر لعازر، وأعاد ساكنه إلى الحياة، فقرّر اليهود دفن يسوع، وختم لحده بحجرٍ ضخمٍ.

«عندئذٍ دعا رؤساء الكهنة والفرّيسيّون المجلس وقالوا: «ماذا نحن فاعلون! فالرجل يُجري آياتٍ كثيرةً. فإنْ نحنُ تركناهُ وشأنه آمن به الجميعُ، فيتدخّلُ الرومان ويُدمّرون مقدِسَنا وأُمّتنا». فقال لهم أحدُهم، قيافا الذي كان رئيس كهنةٍ في تلك السنة: «إنّكم لا تفهمون شيئًا، بل لا تُفكّرون في أنّه خيرٌ لكم أن يموت رجلٌ واحدٌ عن الشعب ولا تهلك الأُمّة بأجمعها» (يوحنّا١١: ٤٧–٥٠).

لقد غدا يسوع خطرًا عامًّا في نظرهم. والواقع أنّ خطره لم يكن يهدّد سواهم، ولكنّهم خدعوا أنفسهم كي يبرّروا قتله، إذ لم يخفَ عنهم أنّ يسوع طالما صدَف عن محاولات الشعب لتنصيبه ملكًا، وأنّه كان منزّهًا من أيّ مطمحٍ مادّيٍّ أو أرضيٍّ. أوَ لم يصرّح علنًا: «**أعيدوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله**»؟ كان خوف رؤساء الكهنة على مراكزهم يعميهم، فلطالما تهجّم يسوع على طقوسهم الجوفاء التي كانت مصدر رزقهم، ولم يكن الفرّيسيّون ليغفروا له فضحه لريائهم وزيفهم، وتأثيرَه البليغ في الشعب، ووضع نفسه فوق موسى نفسه.

في تلك السنة كان رئيس الكهنة يدعى قيافا، وقد لعب الدور الأكبر والأكثر

إجرامًا في قتل يسوع، وما زال لاسمه المضرّج بالدم أصداءٌ مفجعةٌ في صدور المسيحيّين، على كرِّ الأجيال. مثل أسلافه كان صنيعة المحتلّ الرومانيّ الذي وجد فيه الحقارة المطلوبة في رؤساء الكهنة الذين باتوا أداة العبوديّة الوطنيّة. وكان صهرَ حنّان الذي تولّى، هو وأبناؤه الخمسة، وظيفة رئيس الكهنة، سنين طويلةً.

كان قيافا، إذن، يترأّس جلسة السنهدرين التي تداولت بشأن يسوع، وضاق ذرعًا بتردّد الأعضاء، فحسم الأمر بعجرفةٍ، وقحةٍ، وروح إجرامٍ منقطعة النظير، إذ أفتى بقتل بريءٍ إنقاذًا للأمّة. ولكنّه، بذلك، كان يتنبّأ، على غير علمٍ منه، بواقع الفداء الذي سيتحقّق قريبًا، وهذا ما أشار إليه الإنجيليّ، بتعليقه: «**ولم يَقُلْ ذلك من عند نفسه بل بصفةِ كونه رئيس كهنةٍ في تلك السنة، فتنبّأ بأنّ يسوع سيموت عن الأمّة. ولم يكن عن الأمّة فقط، بل كان أيضًا ليجمع في الوحدة أبناء اللّه المشتّتين**» (يوحنّا ١١: ٥١-٥٢).

لقد اختلق أعضاء السنهدرين فريةً وصدّقوها، تبريرًا للجريمة التي كانوا يبيّتونها. وهكذا استُخدمت حجّة مصلحة الدولة العليا، التي طالما تذرّع بها الطغاة لاقتراف أبشع الجرائم، للحكم على يسوع بالموت. غير أنّ هذا الموت الغاشم الظالم سيكون العلاج الذي شاءه اللّه كي يقمع الفساد الذي يلتهم الأرض، وسيكون ذلك الدم الزكيُّ، الذي ستسفكه أيدٍ مجرمةٌ، نهرَ الحياة الذي سينعش، إلى الأبد، نفوس أبناء اللّه.

وهكذا كان لمعجزة الصداقة المتمثّلة في إقامة لعازر، عواقبُ حاسمةٌ على مصير يسوع. فهي، مع سكبها العزاء في قلوب أسرةٍ محبوبةٍ، أثبتت سلطة يسوع الإلهيّة على الموت، وأكّدت للضمائر الصادقة أنّ يسوع هو مرسل الآب، وابنه المحبوب المستجاب، وسيّد الحياة، ولكنّها، في الآن عينه، أورت نار حقد خصوم يسوع، ودفعت السنهدرين إلى البطش به.

مصير يسوع الدامي كان يتأكّد بقدر ما كانت أقواله تتوغّل سموًّا، وبقدر ما كانت معجزاته تُبرز، أكثر فأكثر، قدراته الإلهيّة، وبقدر ما كان تأثيره في الشعب يكتسب سيطرةً ومنعةً. وكانت معجزة بيت عنيا ذروة ذلك التصعيد.

ولا ريب أنّ أعضاء السنهدرين المتعاطفين مع يسوع أبلغوه القرار الغاشم، ولم يشأ

يسوع استخدام قدرته الإلهيّة لتفشيل مخطّطهم، ولكنّه، ريثما تحين ساعته، يمّم شطر إفرائيم المدعوّة، اليوم «الطيّبة»، القائمة على حاشية الصحراء، شماليَّ أورشليم، واعتزل مع تلاميذه مكملاً تثقيفهم. وكانت الأيّام التي قضاها هناك مفعمةً بالصلاة، وبالتأمّل الذي يمهّد للقرارات الحاسمة. وكان صحبه يتأهّبون، بالإيمان، للمعركة الكبرى، وقد أضفت إقامة لعازر على إيمانهم منعةً ورسوخًا(*).

كانت إفرائيم مرحلةً سبقت المعركة الحاسمة، ومنها انطلق يسوع إلى أورشليم، كي يحتفل بفصحه الأخير.

جديرٌ بالتنويه أنّ الإنجيليّين المؤتلفين لم يأتوا على ذكر هذه المعجزة الكبرى، فيومَ دوّنوا أناجيلهم كان لعازر وشقيقتاه ما زالوا على قيد الحياة، وخافوا عليهم من نقمة زعماء اليهود وانتقامهم. ولكن، عندما دوّن يوحنّا إنجيله، كان أولئك الشهود قد لقوا وجه ربّهم، وكانت أورشليم، قد غدت ركام أنقاضٍ.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «موعدٌ مع الذات»، صفحة ٣٧٧.

في الطَّريقِ إلىَ أورشَليم

اقترب الفصح، وشرع الحجّاج يتدفّقون على أورشليم. وكان يسوع موضع التساؤلات والأحاديث. يقول الإنجيليّ يوحنّا: «**وكانوا يفتّشون عن يسوع ويقولون بعضُهم لبعض، وهم قيامٌ في الهيكل:** «**ماذا ترون؟ لن يأتي أبدًا إلى العيد؟**» **ذلك بأنّ رؤساء الكهنة والفرّيسيّين كانوا قد أصدَروا الأمر بأنّ من عرف أين هو عليه أن يُبلّغ عنه لكي يُمسكوه**» (لوقا ١١: ٥٦–٥٧).

ولكأنّه مجرمٌ «مطلوبٌ». من المحقّق أنّ السنهدرين كان يستهدف تشويه صورته، وحمل الناس على النظر إليه نظرتهم إلى شرّيرٍ خطيرٍ.

وأدرك يسوع أنّ ساعته قد أزفت، فثبّت وجهه، وانطلق إلى المدينة المقدّسة، المدينة القاتلة، كي يتمّم رسالته.

كان يتقدّم الموكب، صامتًا، ساهمًا، مثل بطل قضيّةٍ ساميةٍ، يواجه الخطر لكي يجنّب ذويه عواقبه. وكان تلاميذه يعون عدائيّة الكتبة، وكراهيّة الفرّيسيّين، وحقد رؤساء الكهنة، ومشاريع السنهدرين الإجراميّة. كانوا يدركون أنّهم يزجّون بأنفسهم في أشداق الذئاب، وترتعد فرائصهم، فيسيرون، «**وهم على ذهول**». وكان يواكبهم آخرون، هم تلاميذ الأمس، وحجّاجٌ انضمّوا، صدفةً، إلى الموكب. هؤلاء، أيضًا، كانوا يتبعون خائفين، إذ كان يجتاحهم شعورٌ مُبهَمٌ بأنّ أحداثًا مأسويّةً على وشك الحدوث.

وكان لا معدى ليسوع عن إطلاع الاثني عشر على ما سيحدث، فانتحى بهم، وقال: «**ها نحن صاعدون إلى أورشليم، وابنُ البشر سيُسْلَمُ إلى رؤساء الكهنة والكتبة فيحكُمون عليه بالموت، ويُسْلمونه إلى الأمم، فيهزأون به، ويبصُقون عليه، ويَجلدونَهُ ويقتُلونه. وبعد ثلاثة أيّامٍ يقوم**» (مرقس ١٠: ٣٣–٣٤).

الصليب ضرورةٌ لا مفرّ منها كي ينال البشر الحياة؛ لم يكن أمرًا محتّمًا لا يسع

الربّ التملّص منه، بل كان اختيارًا طوعيًّا لغايةٍ ساميةٍ. ولكن لم يكن من اليسير على التلاميذ أن يدركوا أن يموت إلهٌ، مهانًا، للتكفير عن خطايا خلائقه. وكانوا يتساءلون كيف لذلك المعلّم الذي يملك سلطانًا على الموت، وعلى الرياح وعلى البحر، والذي يفحم الكتبة والفرّيسيّين، أن يدعهم ضحيّة القلق والاضطهاد، وأن يُحجم عن مقاومة أعدائه.

وقد أقرّ الإنجيليّ لوقا أنّ التلاميذ «**لم يفهموا من ذلك شيئًا. إنّه كان كلامًا مغلقًا لم يدركوا ماذا يعني**» (لوقا ١٨ : ٣٤).

كلام يسوع كان واضحًا كلّ الوضوح، وإن عجز التلاميذ عن فهمه، فلأنّهم كانوا يرفضون تحقيقه الفعليّ. ففكرة مسيحٍ متألّمٍ، مصلوبٍ، يتعذّر على الذهن اليهوديّ استيعابها، وقد ظلّت لهم لغزًا مغلقًا. كانوا يؤمنون أنّ يسوع هو المسيح، والمسيح، في مفهومهم اليهوديّ، لا يتألّم، ولا يُهان، بل تواكبه الأمجاد أينما مضى. اغتمّوا لقول يسوع، ولكنّهم أشاحوا بأذهانهم عن اللوحة القاتمة التي رسمها، لأنّهم رفضوا واقعها، وظلّوا يتوقّعون مسيحًا دنيويًّا صاحب سطوةٍ وسلطانٍ.

أمرٌ وحيدٌ كانوا يتوسّمون قرب حدوثه، هو موت يسوع الوشيك الذي سيستهلّ به ملكوته. ولذلك اهتمّ بعضهم بضمان مراتبهم الرفيعة فيه، كما فعل ابنا زبدى.

مَطلَبُ ٱبْنَي زَبَدي

إعلان يسوع عن موته الفدائيّ، وقيامته العجيبة، كان لغزًا استغلق على التلاميذ، واستعصى عليهم استجلاء مضمونه. فبقدر ما كان يترسّخ إيمانهم بألوهة يسوع، كان يتعذّر عليهم تخيّل هزيمته، ومذلّته، وموته. ومن ثمّ، ما انفكّوا يحلمون بتجلّي مجده، ويتنافسون على تبوّؤ المراتب الأولى في الملكوت العتيد.

وكان أقرب تلاميذه إليه أكثرهم حلمًا بالنصر، وباحتلال المراكز الرفيعة. ويمكن تخيّل يوحنّا يهمس في أذن أخيه يعقوب: «في الواقع، المعلّم يؤثرني على كيفا، وأنت أخي». فيتشجّع يعقوب ويقول: «اطلب منه أن يخصّص لنا عرشَيْن على جانبَيْه». ويتردّد يوحنّا: «لست أجرؤ على هذا الطلب»، وتتدخّل أُمّهما سالومي: «أمّا أنا فسأجسر»...

ويتابع الإنجيليّ متّى: «**حينئذٍ دنتْ إليه أمُّ ابنَي زبْدي مع ابنَيْها وسجدتْ تلتمسُ شيئًا. فقال لها:** «**ماذا تريدين؟**» **قالت له:** «**مُرْ أن يجلِسَ ابناي هذان، أحدُهما عن يمينك والآخر عن شمالك، في مُلكك**». **فأجاب يسوع وقال:** «**إنّكما لا تعلمان ما تطلُبان. أتستطيعان أن تشربا الكأس التي أنا مُزمِعٌ أن أشربها؟**» **قالا له:** «**نستطيع**». **فقال لهما:** «**أمّا كأسي فتشربانها. وأمّا الجلوسُ عن يميني أو عن شمالي، فليس لي أن أُعطِيَه، إنّما هو للّذين أعدَّه لهم أبي**» (متّى ٢٠: ٢٠–٢٣).

إنّ ما حدا بابنَيْ زبدى إلى التعبير عن مطلبهما هذا، ربّما كان قول يسوع للتلاميذ قبل أيّامٍ قليلةٍ: «**إنّي الحقّ أقولُ لكم إنّكم، أنتم الذين تبعتُموني، متى جلس ابنُ البشر على عرش مجده فِي عهد التجديد الشاملِ، تجلسون أنتم أيضًا على اثني عشر عرشًا لتدينوا أسباطَ إسرائيل الاثني عشر**» (متّى ١٩: ٢٨). ولمّا تبيّنا أنّ موعد قيام الملكوت بات وشيكًا، سارعا إلى سبق الآخرين إلى انتزاع المنصبَيْن الأوّلَيْن فيه.

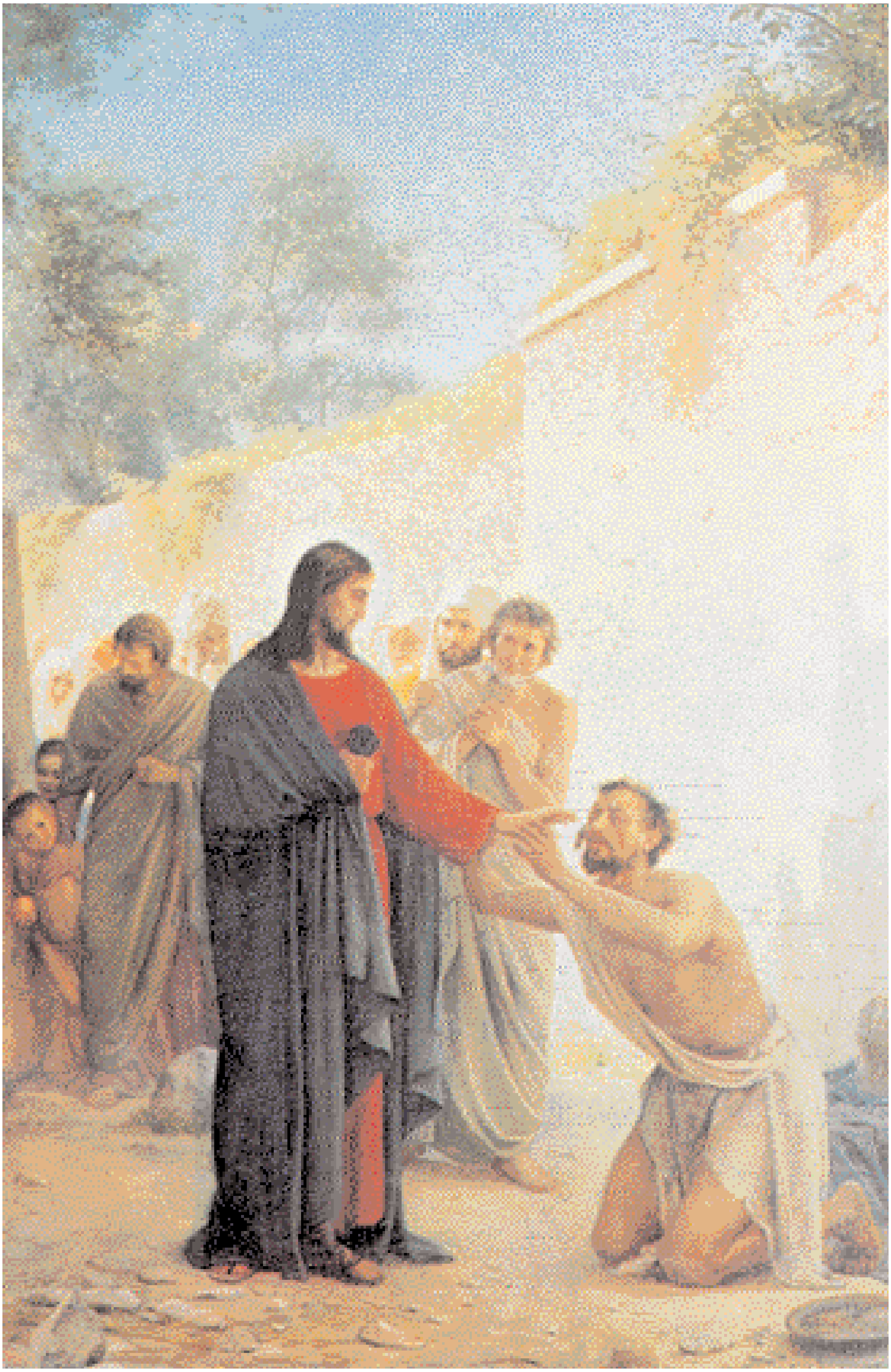

شفاء أعمى (بريشة كارل بلوخ)

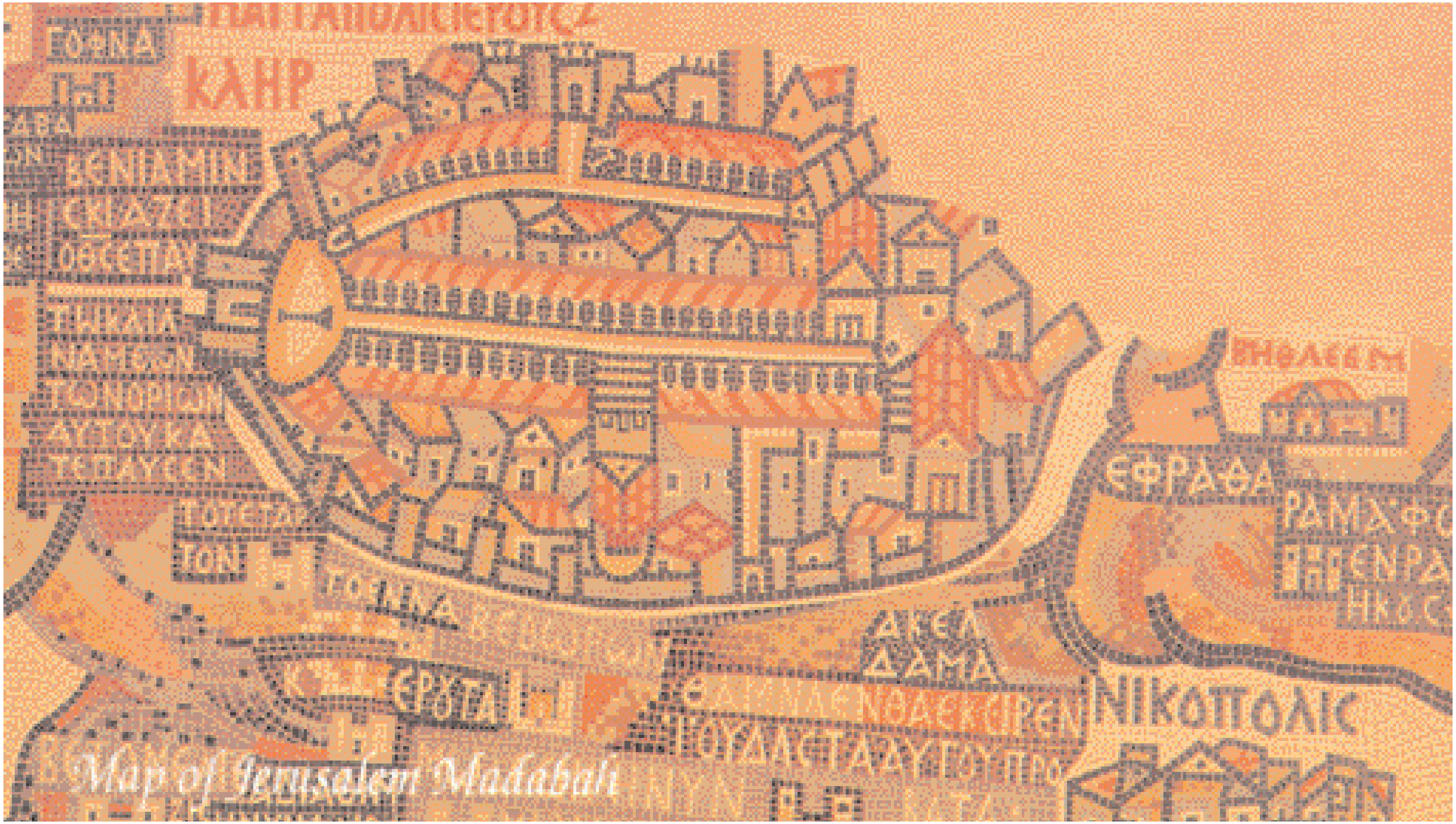

«خارطة القدس»

(من فسيفساء كنيسة مأدبا في الأردنّ)

وربّما كان دافعهما الرغبة في البقاء على مقربةٍ من يسوع. وقد برهنا عن صدق محبّتهما لـه عندما أكّدا، باندفاعٍ، أهبتهما لمشاركته الكأس التي سيتجرّعها، كأس الآلام، والموت المرير، وعماد الدم تحت سياط الجلاّدين، وعلى الصليب، والوفاء له بأيّ ثمنٍ.

وقد شُرِّف يعقوب بأن يكون أوّل تلاميذ يسوع استشهادًا، عام ٤٤. أمّا يوحنّا فقد ارتشف من الكأس طويلاً، جرعةً جرعةً، وقاسى من ضروب الاضطهادات ألوانًا، ففي روما أُلقي به في مرجلٍ من الزيت المغليّ، ثمّ نُفي إلى جزيرة بطمس، وقد اعترف في مطلع سفر الرؤيا: «**أنا، يوحنّا، أخاكم وشريككم في الضيق، وفي الملكوت والصبر، في يسوع. لقد كنت في الجزيرة المدعوّة بطمس، من أجل كلمة الله، وشهادة يسوع...**».

لقد غرب عن بال «ابنَيْ رعد» أنّ ملكوت السماوات ليس مثل دُوَل الأرض، حيث الوساطات، والشفاعات، والعلاقات الأُسرويّة تؤمّن الترقّي، والمناصب العليا. وقد أفهمهما يسوع أنّ أمجاد ملكوته لا تُكتسب بالمحاباة، بل بمدى الالتزام بالصليب. فإن كان عليه، هو، أن يموت كي ينهض في المجد، فبالحريّ عليهما، هما، أيضًا، أن يفعلا كذلك. وإن كان عليه أن يتجرّع كأس الآلام المرّة، حتّى الثمالة، كي ينتصر على الشرّ، فعليهما أن يتجرّعا الكأس عينها.

والله الذي يرى مستقبل البشريّة الماثل أمام ناظريه، حتّى نهايته، وكأنّه حاضرٌ، يُحلّ كلّ إنسانٍ في المرتبة التي استأهلتها فعاله، ولا يؤثر أحدًا على سواه، لسببٍ آخر غير هذا الاستئهال.

من قبلُ، كان يسوع يقف من مثل هذه الطلبات موقف استنكارٍ شديدٍ. ولكن، آنذاك، لم يعد، في الوقت، متّسعٌ للّوْم. وبعد الآن سيعامل يسوع أصدقاءه برقّةٍ لن تنال منها حتّى مقاصد يهوذا الخيانيّة. ومن ثمّ أمام مطلب ابنَيْ زبدى تنهّد تنهُّد من سيُعدَم في الغد، وفي رأفةٍ مفعمةٍ حبًّا، علّمهما، وعلّم سائر التلاميذ، التفكير والسلوك بوحي ملكوته الجديد.

فأيًّا كان دافع ابنَيْ زبدى، كانا قد أغفلا ما سيسبّبه طلبهما من إهانةٍ لرفاقهما، الذين لم يكونوا قد ترسّخوا، بعدُ، في التواضع والتجرّد، فاستنكروا مطلب الأخوين، الذي رأوا فيه انتقاصًا من حقوقهم، ولا سيّما أنّ مطامع مماثلةً كانت تساور

معظمهم. وكانت تلك مناسبةً لكي يرسّخ يسوع في نفوس تلاميذه تعاليم الخدمة المناقضة لمبادئ العالم، ويلقّنهم درسًا حازمًا في التجرّد والتواضع، فقال لهم: «**تعلمون أنّ الذين يُعَدُّون أراكِنة الأُمم يسودونهم، وأنّ عُظماءَهم يتسلّطُون عليهم. وأمّا فيكم فليس الأمر هكذا. بل من أراد أن يكون فيكم كبيرًا فليكُن لكم خادمًا، ومن أراد أن يكون الأوّل فليكُنْ للجميع عبدًا. فإنّ ابن البشر لم يأتِ ليُخدَم بل ليَخدُم ويبذُل نفسه عن كثيرين**» (مرقس ١٠: ٤٢–٤٥)(*).

بإعلانه مبدأ ملكوته الأساسيّ هذا، إنّما هو كان يصف نفسه. فهو، سيّد البشريّة الجديدة، الأوّل والأعظم، لم يأتِ ليُخدَم، بل ليَخدُم، ويبذل حياته فداءً للعالم. بموته سيخدم، وبخدمته سيملك، وعلى غراره، لن يعرف تلاميذه أيّة رفعةٍ سوى التضحية حتّى الموت. فالخدمة هي، أيضًا، تضحيةٌ.

مع يسوع ارتقى مفهوم الخدمة من درك العبوديّة إلى أسمى مراقي العظمة.

أيُّ مثالٍ في التواضع والخدمة أسمى من مثال إلهٍ تخلّى عن مجده السماويّ، كي يرتدي جسدًا بشريًّا، ومثال ملكٍ ارتضى أن يخدم، ويتألّم ويموت، في سبيل خلاص رعيّته!

خطاب يسوع، هذا، لتلاميذه يقطر رقّةً وعطفًا، ولكأنّه أخٌ أكبر، يرشد إخوته إلى السلوك القويم.

ربّما اعترت يسوعَ نوباتُ إحباطٍ، وهو يرى أنّه يحرث البحر، ونفوسًا عقيمةً لا تثمر. ولكنّه كان واثقًا من قدرة عمل الروح على تحويلهم، ومن قدرة القيامة والعنصرة على إصلاح كلّ شيءٍ. وكانت رؤيته لما سيتكبّدونه من آلامٍ، شهادةً له، في المستقبل، تُسيل في قلبه العزاء. كان يحبّهم، كما هم: بشريّين، ضعفاء، تتأكّلهم الغيرة، والنهم إلى الأمجاد. هكذا اختارهم، وبعيشه معهم، احتمل أسئلتهم السخيفة، ومطالبهم الصبيانيّة. ولكنّه كان متيقّنًا من قدرتهم على التغيّر، وعلى التحرّر من وهنهم، ومن صمودهم في وجه الأزمات العصيبة القادمة. فروحه كفيلٌ بتحويلهم – ما عدا ابن الهلاك – إلى رعاةٍ، وصيّادي نفوسٍ، وشهودٍ أمناء على أعماله، وأقواله، وتعليمه، ودعاةٍ جريئين إلى ملكوته، بين أممٍ المسكونة.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «من أراد أن يكون فيكم كبيرًا، فليكن لكم خادمًا»، صفحة ٣٨٠.

أعْمَى، أوَ أعْمَيَا أَريحَا(*)

نحو أسبوعٍ قبل الآلام، اجتاز يسوع أريحا في موكبٍ حاشدٍ من الأتباع والحجّاج. وكانت أريحا، حينئذٍ، المدينة الثانية في فلسطين، ومن أكثر مدنها ازدهارًا.

في الواقع، كانت هناك أريحا القديمة المدمّرة، التي أُشيد، قرب نبعها، المدعوّ «عين السلطان» بعض الأبنية، وعلى مقربةٍ منها، أريحا الجديدة التي شيّدها هيرودُس، وأكمل إشادتها ابنه أرخيلاوس، ونثرا فيها فنون الهندسة والبذخ. وهكذا، فالقادم من الشمال يعبر أريحا القديمة، وبعد مسيرة نصف ساعةٍ، يلج أريحا الحديثة. وهذا ما يفسّر قول متّى ومرقس أنّ يسوع كان خارجًا من أريحا (القديمة) في حين يقول لوقا إنّه كان يدنو منها، ويعني أريحا الحديثة، عندما تعرَّض له أعمى، يدعوه مرقس «برثيماي»، فيما تحدّث متّى عن أعميين. ربّما كان أحدهما في أريحا القديمة، والآخر في أريحا الحديثة، أو كانا أعميين يعين أحدهما الآخر، أحدهما يُدعى برثيماي، وهو الذي تحدَّث باسميهما كليهما، وظلّ الآخر في الظلّ.

منذ سنواتٍ طويلةٍ كانا يقبعان إلى جانب الطريق، ويكرّران، طيلة النهار، لازمة توسّلاتهما الرتيبة، ويتسوّلان.

وفي ذلك اليوم تنامت إلى مسامعهما جلبة جمعٍ كثيفٍ قادمٍ، فاستوضحا الأمر، وقيل لهما إنّ صانع المعجزات الجليليّ الشهير، يسوع الناصريّ، سيمرّ بالمكان الذي كانا جالسَيْن فيه. هذا الاسم الذي كانا قد سمعا به، أضاء نفسَيْهما بأشعّة الرجاء، فطفقا يصيحان، بصوتٍ حادٍّ، علّه يطغى على صخب الجمع: «**يا يسوع، ابن داود، ارحمنا**». وجهد الجمع في إسكاتهما، ولكنّهما كانا يمعنان في الصياح واللجاجة: «**يا ابن داود، ارحمنا**». عبارة «**ابن داود**» كانت تعني المسيح، وبهذه الصفة، كان الأعميان المتسوّلان يلتمسان عون يسوع.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «الأعمى الذي يركض»، صفحة ٣٨٤.

توقّف يسوع وقال: «**ادعوهما**». فجاء من قال لهما: «**طيبا نفسًا، وانهضا. فالربّ يدعوكما**». فهبّا واقفيْن، وطرحا عنهما ردائيهما، كي يكونا أكثر رشاقةً في الجري، وأقبلا يتوثّبان، فقال لهما يسوع: «**ماذا تريدان أن أصنع لكما؟**». وإنّما قال لهما ذلك، كي يشحذ إيمانهما. وهما طلبا، بثقةٍ، ما يعجز العالم عن منحه، وما هو من اختصاص اللّه: النور. وقالا له: «**نريد أن تفتح أعيننا، يا سيّد!**» ويقول الإنجيليّ متّى: «**فرقّ لهما يسوع، ولمس أعينهما، فأبصرا للوقت، وتبعاه**».

تبعاه، وهما يمجّدان اللّه. وأمسيا من أشدّ أتباع يسوع اندفاعًا. وكانا يلهبان حماس الجمع المواكب ليسوع، وهما يشيران إلى عيونهما التي كانت مطبقةً، وفتحها الربّ على النور. «**وإذ رأى الشعب كلّه ذلك، سبّحوا اللّه**».

العمى افتقارٌ إلى الحقيقة، يتسوّل، وحاجةٌ إلى النور تئنّ في غياهب الظلمات. وتمرّ إنسانيّة يسوع فترأف، وألوهته فتتوقّف، وتولّد الإيمان. الإيمان يضيء، والرأفة تخلّص.

ارْتِدَادُ زَكَّا (*)

(لوقا ١٩: ١–١٠)

وفي أثناء اجتيازه أريحا، أجرى السامريّ الإلهيّ شفاءً من علّةٍ أخطر من العمى، وأدخل جملاً في سمّ إبرةٍ.

فقد كانت أريحا مدينةً حدوديّةً، ومركزًا تجاريًّا هامًّا، ومن ثمّ، كانت تضمّ طائفةً كبيرةً من جباة المكوس، المدعوّين عشّارين. وكان أحدَ رؤسائهم أو مفتّشيهم رجلٌ غنيٌّ يدعى زكّا. اسمه يعني الطاهر أو البارّ، ولكنّ مهنته لم تكن تبرّر هذه التسمية. فقد اشتهر أعضاء هذه الفئة من الجباة بتجاوزاتهم، واختلاساتهم، وجشعهم. غير أنّ زكّا كان يتحرّق شوقًا إلى رؤية يسوع عن كَثَبٍ، فلطالما سمع الكثير عن ذلك النبيّ المتعاطف مع أبناء مهنته الذين يزدريهم عموم اليهود.

ولكنّ قصر قامته كان يجعل تحقيق أمنيّته، هذه، وسط الحشد، متعذّرًا. وإذ كانت تنتصب، على طول الطريق الذي سيسلكه موكب يسوع، أشجار جمّيزٍ يسهل تسلّقها، اتّخذ زكّا من إحداها مرقبًا. واستقرّ على فَنَنٍ منها مطلٍّ على الطريق، كي يشاهد يسوع وهو عابرٌ. ولا ريب أنّ آخرين كانوا قد اتّخذوا لأنفسهم مجاثم على أشجارٍ أُخرى، ولكنّ نظر يسوع لم يتوقّف إلاّ على زكّا، ولكأنّه يعرفه من زمانٍ. ورنا إليه مثلما كان قد رنا إلى نثنائيل. وخاطبه بلهجةٍ عذبةٍ أليفةٍ: «**زكّا، أسرع انزل، إذ ينبغي لي اليوم أن أُقيم في بيتك**». امتيازٌ فريدٌ. فقد أَلِفَ يسوع قبول الدعوات، إلاّ أنّ تلك كانت المرّة الأولى التي يدعو فيها ذاته إلى منزل رجلٍ غريبٍ.

يسوع هو، هو، يتحدّى المفاهيم الراسخة، ويستفزّ سخط الفرّيسيّين وأضرابهم،

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «انزل يا زكّا. يسوع المحرّر والمحرَّر»، صفحة ٣٨٩.

ففي حين كان الجمع المندفع يحيّي فيه المسيح، ابن داود، كان، هو، يدعو نفسه إلى بيت رجلٍ خاطئٍ منبوذٍ في نظر المجتمع اليهوديّ.

قفز زكّا إلى أسفل، وجرى كي يُعدّ استقبالاً يليق بضيفٍ مميّزٍ، وتبعه الربّ غير حافلٍ بتعليقاتٍ خبيثةٍ، استنكرت حلوله ضيفًا على عشّارٍ، بل رئيس عشّارين. وما كانوا ليستنكروا بعد أن يشهدوا التحوّل الجذريّ الذي أحدثته نظرة يسوع، إذ أعلن زكّا، على الملأ: «**ها أنذا، يا سيّدي، أعطي الفقراء نصف أموالي**». وفكّر كثيرون أنّه حتّى إن هو وفى بوعده، فسيبقى أغنى رجلٍ في أريحا. أمّا يسوع فحدّق إليه، منتظرًا تتمّة وعوده. وبالفعل، مسح زكّا العرق عن جبينه، وأَضاف: «**وإن كنت ظلمتُ أحدًا، أردّ أربعة أضعافٍ**». وهذا يعني أنّ تلك كانت الوليمة الأخيرة التي يستطيع تقديمها، وأنّه قد يضطرّ إلى الاستعطاء.

لفتة يسوع نحوه حفزته على استنكار كلّ ماضيه دفعةً واحدةً، وعلى التكفير عن كلّ ظلمٍ ارتكبه! وما إن تلاقت أنظار الرجلَيْن، حتّى أدرك زكّا أنّ يسوع يتوقّع منه أكثر كثيرًا من مائدةٍ عامرةٍ.

في نظرة يسوع إلى زكّا حنانٌ رائعٌ، وسلطانٌ آسرٌ. فهي، بلا حاجةٍ إلى كلمةٍ، أنزلت من الشجرة التي لاذ بها رئيس جباةٍ كان لصًّا بحكم وظيفته، وحوّلته، في الحال، إلى إنسانٍ آخر.

على هذا النحو يغزو يسوع قلوب الأغنياء والفقراء على السواء، من غير حاجةٍ إلى النطق بكلمةٍ واحدةٍ، بسلطان نظرة حبّه التي تهدر عدلاً وعطفًا. لطالما نفر من مال الأغنياء، ولكنّه لم ينفر، يومًا، منهم؛ ازدرى ثرواتهم، لا أشخاصهم؛ قاسمهم الطعام، ولم يمسّه، من جرّاء ذلك، أيّ سوءٍ.

لم يكن زكّا أفضل سلوكًا أو أعطر سمعةً من السامريّة. فقد كان رئيس عشّارين وثريًّا، وهذا يعني أنّه كان مستغرقًا في اكتناز مال الظلم. إلاّ أنّ حيّزًا من نفسه كان ما يزال في مأمنٍ من حمأة العالم. ربّما كان من تلك النفوس التي تمقت الشرّ الذي تنغمس في مستنقعه، فتظلّ توّاقةً إلى الطهر والنور، وتتوقّع الخلاص متوجّعةً. على غرار العشّار الآخر، متّى، لم تكن الثروة قد خنقت فيه الروح. لا بل ولّدت لديه البحبوحةُ نوعًا من القرف، وشحذت لديه تطلّعًا إلى غنًى أسمى وأبقى من غنى

الفضّة والذهب. هذا التوق هو الذي دفعه إلى تسلّق جمّيزةٍ، بُغية رؤية يسوع. وما رغبته في مشاهدة الربّ وجهًا لوجه، إلاّ لأنّه كان قد رآه في قلبه.

رغبته هذه كانت من الاضطرام بحيث لم يحفل بهزء الناس منه، وهم يشهدون رئيس جباةٍ جاثمًا على جمّيزةٍ، مثل قردٍ، أو هرٍّ فارٍّ من كلبٍ. كان، في قرارة نفسه، يحبّ يسوع، فرفع إليه يسوع نظرةً زاخرةً حبًّا، وصفحًا، ونعمةً، ودعوةً إلى الخلاص. كان زكّا يصبو إلى مجرّد مشاهدة الربّ، فظفر بما هو أكثر، بلا قياسٍ، إذ حلّ الربّ ضيفًا على نفسه فحرّرها، وعلى بيته، فأشاع فيه الخلاص، بإعلانه: «**اليوم حصل الخلاص لهذا البيت**».

جاهر زكّا، علنًا، بظلمه، وأدان ذاته على رؤوس الملأ، وفرض على نفسه أقسى كفّارةٍ، وأسخاها. يا لنظرة يسوع، ما أبلغ تأثيرها!

كما أنّ الشمس، بمجرّد إشراقها، تغمر بنورها كلّ شيءٍ، كذلك يسوع، بمجرّد حضوره، أضاء تلك النفس التوّاقة إلى رؤيته، وأغدق عليها نِعَم التواضع، والتوبة، والمحبّة. وعلى نقيض الشابّ الغنيّ الذي رفض الكمال حرصًا على ثروته، ألقى زكّا أمواله على العتبة التي كان يسوع مزمعًا اجتيازها، فكان أوّل فقيرٍ طوعيٍّ، إكرامًا ليسوع، وقدّم له المأدبة التي كان يستسيغها، أكثر من أيّ شيءٍ. فاستحقّ أن يُطوَّب وهو حيٌّ.

ولم يكن يسوع بأقلّ كرمًا منه، إذ شمل بخلاصه كلّ أهل بيته، فالخلاص هو رسالته. قد جاء ينشد ما قد هلك، ويخلّصه، وها إنّ هذه الرسالة تتحقّق.

ويُعتقد أنّ زكّا غدا، من بعدُ، معاونًا لبطرس، ثمّ سيم أُسقفًا على قيصريّة، وعمل بسخاءٍ وبسالةٍ في سبيل الإنجيل.

وسيظلّ زكّا نموذجًا للنفوس الصادقة المضطَهَدة التي، من هوّة بؤسها، تتوق إلى معرفة المخلّص، والإفادة من نعمه، فيهبّ الربّ إلى تلبية توقها، ويزورها، ويبيّن لها ضلال سلوكها، ويرشدها إلى التوبة، ويدفعها على دروب الصلاح. وإذا بالمنبوذين يغدون مختاري الملكوت.

مَثَلُ الوَزناتِ، أوِ الأَمْنَاء (*)

اجتياز أريحا كان، ليسوع، نصرًا مبينًا. وأخذت تداعب مخيّلات تلاميذه وأتباعه آمال إعلان مملكته الوشيك في أورشليم، وأحلام التنعّم بأمجادها التي ستتجلّى، بين ليلةٍ وضحاها، من خلال انتصاراتٍ ساحقةٍ، وبلاطٍ يضمّ غلاة الوطنيّين. كانوا يرون قدرات يسوع الخارقة تُترجم إلى انقلاباتٍ في الحكم حاسمةٍ، ويتخيّلون أنفسهم أسيادًا في القصور التي شيّدها هيرودس وأبناؤه. «**كانوا يظنّون أنّ ملكوت اللّه سيظهر في الحال**» (لوقا ١٩: ١١)، وسيكونون هم، فيه، وزراء.

ولكي يبدّد هذه الأوهام، ويؤكّد أنّ الإنسان لا يحصد سوى ثمرة جهده، ضرب يسوع مثل الوزنات، كما جاء في إنجيل متّى «**وذلك كمثل رجُلٍ مُسافرٍ، دعا عبيده وسلّم إليهم أمواله. فأعطى الواحد خمس وزناتٍ، والآخر وزنَتَين، وآخر وزنةً، كلاًّ على قدر طاقته، وسافر. وللوقت ذهب الذي أخذ الخمس وزنات فتاجر بها فربح خمس وزناتٍ أُخرى. وكذلك صاحبُ الوزنتين ربح وزنَتين أُخريين. وأمّا الذي أخذ الوزنة الواحدة فإنّه مضى وحفر في الأرض وطمر فضّة سيّده.**

«**وبعد زمانٍ طويلٍ قدِمَ سيّدُ أولئك العبيد وحاسبهم فتقدّم الذي أخذ الوزنات الخمس وأدّى خمسَ وزناتٍ أخرى، قائلاً: سيّدي، خمس وزناتٍ سلّمت إليّ وهذه خمسُ وزناتٍ أُخرى قد ربحتُها» فقال له سيّدُه: «أحسنت، أيُّها العبدُ الصالح الأمين! لقد كنت أمينًا على القليل فسأُقيمُك على الكثير. ادخُل فرح سيّدك». وتقدّم صاحبُ الوزنتين وقال: «سيّدي، وزنتين سلّمت إليّ وهاتان وزنتان أُخريان قد ربحتُهما». فقال له سيّدُه: «أحسنت، أيّها العبد الصالحُ الأمين! لقد كنت أمينًا على القليل فسأقيمك على الكثير. ادخُل فرحَ سيّدك».**

وتقدّم الذي أخذ الوزنة الواحدة وقال: «يا سيّدي، إنّي علمت أنّك رجلٌ

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «توظيف في الملكوت»، صفحة ٤٣٤.

قاس، تحصُد حيث لم تزرع، وتجمعُ من حيث لم تبذر، فخفت فمضيت وطمرتُ وزنتك في الأرض. فهوذا ما هو لك عندك». فأجاب سيّده وقال له: «أيّها العبدُ الرديء الكسول، علمت أنّي أحصدُ حيث لم أزرع وأجمعُ من حيث لم أبذُر، فكان عليك أن تُسلّم فضّتي إلى الصيارفة حتّى إذا قدِمْتُ أستردُّ مالي مع ربًا.. فخذوا منه الوزنة وأعطوها للذي معه الوزنات العشر. فإنّ من لـه يُعطى فيزداد، ومن ليس لـه فحتّى ما هو عنده يؤخذ منه. وأمّا هذا العبدُ الذي لا يَمْلكُ نفعًا فألقوه إلى الظلمة الخارجيّة. فهناك البكاءُ وصريفُ الأسنان» (متّى ٢٥: ١٤–٣٠).

وروى الإنجيليّ لوقا هذا المثل على توافقٍ في الجوهر والمغزى مع متّى واختلافٍ في التفاصيل (لوقا ١٩: ١١–٢٧)، فالرجلُ الذي سافر رجلٌ كريمٌ قصد بلدًا غريبًا كي يتولّى الملك ثمّ يعود. وكان أهلُ مدينته يكرهونه، فسيّروا في إثره سفارةً، لإفشال مسعاه. وقد يكون في ذلك إشارةٌ إلى أرخيلاوس بن هيرودس، الذي شخص إلى روما سعيًا إلى الحصول على لقب مَلِكٍ. وفي ذلك، أيضًا، صورةٌ ليسوع الذي أبى اليهود اعتباره مسيحًا، وعاد إلى بيته كي يعود ممجّدًا.

وفي هذه الأثناء، يتعيّن على من يبتغي اقتسام أمجاد السيّد استئهال هذه الحظوة باستثمار المواهب التي حباه الله بها. فمن أحسن الاستثمار تُرك له الرأسمال مع الربا. أمّا من يتقاعس عن استثمار مواهبه، ويؤثر دفنها، فيرتكب خطأً مميتًا، ويُنتزع منه كلّ ما أُعطي، ويُدفَع إلى من يجيد استثماره.

والمكافأة لا تُقاس بكميّة الكسب المحقّق، بل بحجم الجهد المبذول، إذ إنّ الطاقات والمواهب متفاوتةٌ.

وفضلاً عن ذلك، لا يؤدّي الله لمن يعملون مشيئته مكافأةً ويصرفهم. بل إنّ مكافأته لهم هي إدخالهم إلى فرحه، وعقده معهم شراكةً حميمةً دائمةً. مكافأة الله ليست أجرًا مستحقًّا، بل هي نعمةٌ مفاضةٌ.

وفي هذا المثل، أيضًا، تلميحٌ إلى تقصير اليهود في استثمار حظوة الإيمان التي خُصّوا بها، وإلى رفضهم المسيح الذي جاءهم مخلّصًا. وسيُكثر يسوع، في الأيّام المقبلة، من إيراد مثل هذه الأمثال، بلا جزعٍ ولا مداراةٍ، فساعته قد أزفت، وهو كان ماضيًا، بقدمٍ ثابتةٍ، نحو تتميم مهمّته.

طيبٌ يَفوحُ في بَيْتَ عَنْيَا

كان يسوع مدركًا أنّه ماضٍ إلى حتفه. ومع ذلك، كان يتقدّم الموكب، ساكن النفس، رابط الجأش. ولمّا دنا من بيت عنيا، انفصل عن قافلة الحجّاج التي واصلت مسيرتها إلى أورشليم، كي يحلّ ضيفًا على لعازر وشقيقتَيْه.

قبل ولوج معقل أعدائه، استطاب استراحةً بين أصدقاءٍ. وقبل الغوص في مستنقع الكراهية، والخيانة، والجريمة، أحبّ أن ينعم بسُوَيْعات دفءٍ، وحبٍّ صادقٍ. وكانت بيت عنيا ما برحت تضجّ بمعجزة إقامة لعازر، وقد حرص على تكريم الربّ، نيابةً عن أهاليها، أحد وجهائها، وهو فرّيسيٌّ يدعى سمعان، ويُلقّب بالأبرص، ويُعتقد أنّ يسوع أبرأه من داء البرص، فأقام له مأدبةً، تولّت إعدادها مرتا، الخبيرة بتكريم الضيوف، فيما أضفت مريم عليها، بأسلوبها الخاصّ، ألقًا وأريجًا.

كان من المألوف أن يؤتى للضيف بماءٍ تُغسَل به قدماه من غبار الطريق، وبطيبٍ يُدهَن به رأسه. غير أنّ مريم لم تجد هذا التكريم المألوف كافيًا لمن أنهض أخاها من الموت، وأعتق، من قبلُ، نفسها من ربقة إبليس. وقد ألهمها حبّها، وعرفانها للجميل، مبادرةً فريدةً في جرأتها، وسخائها.

ففيما كان الضيوف متّكئين إلى المائدة، دخلت تحمل قمقمًا نفيسًا يحتوي رطلاً (٣٠٠غرام) من الناردين الثمين، وجاءت إلى حيث كان يسوع متّكئًا. وتعبيرًا عن عميق شكرها وتكريمها، لم تقتصر على فتح القمقم، وسكب قطراتٍ منه، بل كسرت عنقه، وأفاضت محتواه على رأس يسوع، ثمّ على قدميه. وإمعانًا في تأكيد مشاعر حبّها وتكريمها، حلّت ضفائر شعرها، وراحت تمسح بها القدمَيْن المعطّرتين، كما فعلت، من قبلُ، خاطئةٌ مغفلة الاسم، كرّمت الربّ على هذا النحو.

مبادرات السخاء التي تقوم بها، تلقائيًّا، النفوس الكبيرة، تصدم من صغرت نفوسهم، من يقيسون كلّ شيءٍ بمقياس الرداءة والمال. وقد صدم سخاءُ مريم المفرط

بطلَ الجشع والبخل، يهوذا إسقريوت، خازن جماعة التلاميذ، الذي ألف أن يلصق على كلّ شيءٍ سعرًا، والذي قيّم العطر المهدور بثلاث مئة دينارٍ. وتعالى صوته الأجشّ، مشيعًا قشعريرة برودةٍ، في ذلك الجوّ الدافئ، وقائلاً: «**لماذا لم يُبَع هذا الطيب بثلاث مئة دينارٍ، تُعطى للفقراء؟**». لم يقل ذلك عطفًا على الفقراء، بل فيما كانت مريم تفرغ قارورة الطيب، كان هو، يطمح إلى ملء كيسه نقودًا.

لقد كان يهوذا، حقًّا، من سلالة الفرّيسيّين المرائين. فذلك الذي انتهر المرأة التي طيّبت جسد الربّ، مستنكرًا هدر مالٍ كان يمكن إنفاقه على الفقراء لن يتوانى، بعد أيّامٍ، عن بيع معلّمه بثلاثين دينارًا. كان بخيلاً ومختلسًا، وربّما كان الجشع هو الذي حمله على الانضمام إلى فريق يسوع، طمعًا في مغانم مستقبليّةٍ دسمةٍ. فلم يستسِغْ إسراف مريم الذي كان يؤثر أن ينصبّ في كيسه.

إنّ الطبائع المماثلة لطبيعة يهوذا، تظلّ موصدةً دون طيبة الله، وكرم البشر، ومن اليسير انزلاقها إلى الخيانة والجريمة.

حيال يسوع كانت، ثمّة، نفسان: واحدةٌ يلتهمها الحبّ، وأُخرى يلتهمها البخل والغيرة. واحدةٌ سكبت على رأسه وقدميه ثلاث مئة دينارٍ، وواحدةٌ لن تتورّع عن بيعه بثلاثين دينارًا!

وجرّ موقف يهوذا، في تيّاره، سائر التلاميذ الذين استنكروا ذلك الهدر النافل الذي لا طائل تحته، وبذلك برهن التلاميذ عن «قلّة ذوقٍ»، ولكأنّهم يعلنون أنّ معلّمهم لا يستأهل كلّ هذا التكريم، وأنّ هذا الإنفاق عليه حرامٌ! فانبرى يسوع للدفاع عن المرأة قائلاً: «**لماذا تزعجون هذه المرأة؟ إنّ ما صنعته لي إنّما هو عملُ برٍّ. فالفقراء عندكم في كلّ حينٍ، وأمّا أنا فلست معكم في كلّ حينٍ. وإنّ هذه إذ أفاضت هذا الطيب على جسدي فإنّما فعلته لأجل دفني. وإنّي الحقّ أقولُ لكم إنّه حيثُما دُعي بهذا الإنجيل في العالم كلّه يُخبرُ بما فعلت هذه تذكارًا لها**» (متّى ٢٦: ١٠-١٣).

يهوذا، أيضًا، سيُذكر اسمه حيثُما بُشّر بالإنجيل. ولكن شتّان بين ذكرٍ وذكرٍ!

كان قد بقي ليسوع على الأرض أيّامٌ معدوداتٌ، فلا بأس إن كُرّم. أمّا الفقراء

فباقون – ويا للأسف! – وستتسنّى فرصة مساعدتهم في كلّ وقتٍ، في حين ستزول، قريبًا، كلّ فرصةٍ لتعزية الربّ، ولمسه، والإصغاء إليه. إنّ مؤاساته، في ساعاته الأخيرة، ومشاركته إيّاها، كانت أوْلى من كلّ صدقةٍ. ولذلك، على نقيض التلاميذ الذين أنحوا على مريم باللائمة، خلّد يسوع ذكرها، في حين اندثر ذكر عظماء، وأباطرةٍ، وملوكٍ، وقوّادٍ.

تولّى الربّ الدفاع عن مريم كي يُفهم تلاميذه أنّ الإحسان هو واجبٌ يوميٌّ، غير أنّ هناك مناسباتٍ حيث على التقوى أن تتجلّى بحرّيّةٍ وسخاءٍ. وعلى غير علمٍ منها، كانت تلك المرأة المحبّة، وبوحيٍ إلهيٍّ، قد طيّبت جسد الربّ، لأنّه لن يتسنّى لها ولرفيقاتها تحنيطه وتطييبه، كما يليق بابن الله، في نهاية ذلك الأسبوع عينه. ولذلك توخّى يسوع تخليد عملها واسمها.

قلبٌ واحدٌ ألهمه الحبّ، كان يتوسّم في ذلك الرجل المتعب، المستلقي إلى مائدة العشاء، إنسانًا بلغ نهاية الشوط، أيّلاً مستسلمًا ستنقضّ عليه الكلاب غدًا، وما عاد يملك سوى قدرة الألم والاحتمال. أيّة نظراتٍ تبادلها ابن البشر، وتلك المرأة التي كانت، بحدْسها، ترى ما لا يراه حتّى أقرب تلاميذه إليه.

عبق بيت سمعان بالطيب الذي أفاضته مريم على رأس يسوع وقدميه. وهذا الطيب لم يتبخّر، بل ما برح يعطّر البشريّة كلّها. وما انفكّ المؤمنون يكرّمون، في كلّ مكانٍ، ذكرى من استسلمت، في خدمة الله، لإلهام حبّها.

مع كلّ تلميحات يسوع، لم يدرك تلاميذه أنّ موت معلّمهم بات وشيكًا. بل وحده يهوذا إسقريوت أدرك أنّ في قول المعلّم إعلان إفلاس الجماعة، فقرّر العمل لحسابه الخاصّ... يهوذا الذي يقيس كلّ شيءٍ بميزان الذهب والقوّة، أيقن أنّ لا أمل يرجى، بعدُ، ممّن توفّرت له كلّ أسباب السلطة، فآثر عليها الهوان والموت. وفضلاً عن ذلك شقّ عليه أن يناصر يسوعُ امرأةً عليه، ويهينه أمام الجميع. لقد فقد إيمانه في معلّمٍ طالما هدهد، بشأنه، أحلامًا وأوهامًا رآها تتلاشى، فوطّن العزم على خيانته.

لم يكن يهوذا يرى سوى اللحظة الحاضرة، ولمّا سمع يسوع يعلن عن دفنه، عقد العزم على بيعه وتسليمه. ولكنّه، لو أصغى إلى قول الربّ: «**حيثما بُشّر بهذا**

الإنجيل، في العالم كلّه...»، لأنار هذا القول بالرجاء قلبه المدلهمّ، ولأعرض عن جريمته.

في تلك الليلة، وفيما كانت عيون الضيوف الملأى بالحنان والقلق مثبتةً على يسوع، كان هو يرى، بروحه، عيون أقرب تلاميذه، مثقلةً بالنعاس، لا تقوى على السهر معه في ساعاته الأخيرة على الأرض. وكم سيشتاق، حينئذٍ، إلى مثل تلك العيون المحبّة الساهرة، فيما يكون أحبّ تلاميذه مستسلمين للكرى!

أنجزت المطبعة البولسيّة
جونيه – لبنان
طبع هذا الكتاب
في شهر تشرين الأوّل سنة ٢٠٠٦